أُمُّ اللهِ، أُمُّنا

طبعة أولى

٢٠٠٩

*

جميع الحقوق محفوظة

*

منشورات المكتبة البولسية
جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب : ١٢٥
هاتف : ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس : ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت - شارع لبنان - هاتف : ٠١/٤٤٨٨٠٦ - تلفاكس : ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحلة - شارع سيّدة النجاة - مُقابل مُطرانيّة الروم الملكيّين الكاثوليك - تلفاكس : ٠٨/٨١٢٨٠٧

أَدِيب مُصْلِح

أُمُّ اللهِ، أُمُّنا

إهـداء

إلى ابنتي الغالية رَغَد
التي، منذ حلّت بيننا،
احتلّت مركز قلوبنا،
وغدت بسمة حياتنا وفرحتها،
وكشفت لنا عن معانٍ جديدةٍ
للرقّة، ورهافة الحسّ، والحنان، والعذوبة.

في ختام الشهر المكرّس لتكريمها،
أهدتنا إيّاكِ الأمّ السماويّة،
لكي تظلّ ذكرى مولدك
مقترنةً بحبّ الأمّ الإلهيّة،
وبنشوة أريج أيّار.

تقدمة

للشاعر شارل بيغي

إِلى...

إِلى من هي مريم، لأَنّها ممتلئةٌ نعمةً،

إِلى من هي ممتلئةٌ نعمةً، لأَنّها معنا،

إِلى من هي معنا، لأَنّ الربّ معها.

إِلى التي تشفع، لأَنّها مباركةٌ بين النساء،

ولأَنّ يسوع، ثمرة حشاها، مباركٌ.

إِلى الممتلئة نعمةً، لأَنّها ممتلئةٌ نعمةً،

تلك التي هي، لانهائيًّا، ملكةٌ،

لأَنّها أَكثر الخلائق تواضعًا،

لأَنّها كانت امرأةً فقيرةً، امرأةً مسكينةً...

إِلى من هي، لانهائيًّا، بعيدةٌ،

لأَنّها، لانهائيًّا، قريبةٌ.

إِلى أَسمى أَميرةٍ

لأَنّها المرأة الأَسحق تواضعًا.

إِلى التي نالت رضى الله،

إِلى الممتلئة نعمةً،

لأَنّها، أَيضًا، **ممتلئةٌ** جدوى،

الآن،

ولأَنّها **ممتلئةٌ** نعمةً، و**ممتلئةٌ** جدوى،

وفي ساعة موتنا،

آمين.

الجزء الأَوّل

مسيرة مريم الأرضيّة

مقدّمة

قد يبدو الكلام عن مريم العذراء، في جيلٍ فقد الحسّ بالمقدّسات، نافلاً، بل مدعاةً للسخريّة والاستخفاف.

ولكن لا يخفى على أيّ مراقبٍ ما أفضى إليه فقدان هذا الحسّ من ضياعٍ وقلقٍ. فقد أمسى الشكّ سيّدًا، واللااستقرار الأمنيّ والاقتصاديّ شاملاً، وسلام العالم مهدّدًا بنذُرٍ مرعبةٍ. وأفضت النظريّات التي تأبى الاتّكاء على غير طاقاتها الخاصّة، ورؤاها الحسيرة، إلى زعزعة المراجع الأخلاقيّة، وإلى تفكيك الأُسرة، نواة المجتمع البشريّ وبوتقته، وإلى إيهان الضمير الإنسانيّ.

وبات المنظّرون الذين كفروا بإله الحبّ، يبشّرون بحضارة الموت، وأمست نظريّاتهم، حتّى أصدقها نوايا، لا تقدّم سوى حكمةٍ مبتورةٍ، عاجزةٍ عن إرواء عطش النفوس إلى الحقيقة والسعادة الحقّة.

لقد أوهموا الناس بمستقبلٍ طوباويٍّ، بمعزلٍ عن الله، لا بل ذهب بعضهم إلى الادّعاء بأنّ التقدّم لا يتحقّق إلاّ بالانعتاق من الله. لقد تخيّلوا خلق فردوسٍ جديدٍ، ولكنّهم لم يحقّقوا سوى جحيمٍ رهيبٍ، إذ أفضى موت الله في قلوب البشر وأذهانهم إلى موت الإنسان، واندثار الخير. وقد لاحظ البابا يوحنّا بولس الثاني: «إنّ المادّيّة، بكلّ صِيَغها، تعني القبول بأن يكون العدم هو الغاية النهائيّة للوجود البشريّ».

إنّ ما يحلّ، اليوم، بالعالم من كوارث، وما يحدق به من مهالك، يُظهر إلى أيّ دركٍ يتردّى البشر عندما يقرّرون الاستغناء عن الله، وتنظيم وجودهم بمعزلٍ عنه، أو ضدّه. فعندما نستعيض عن الإيمان بالله، وعن الرجاء فيه، ومحبّته فوق كلّ شيءٍ، ومحبّة الآخرين حبًّا به، بالإيمان بأصنامٍ من صنع أيدينا وأذهاننا الواهية، وعندما نؤمن بالبشريّة وحدها، ونضع فيها رجاءنا، ونحبّها حبًّا أرضيًّا محضًا، فهي لن تلبث أن تنكشف لنا بكلّ عوراتها، وجراحها النازفة: الكبرياء، والشهوة، والقسوة. وعندما، عوضًا عن جعل غايتنا القصوى الله الذي يسع كلّ فردٍ التنعّم

بمواهبه وآلائه، من غير أن يسلب أخاه شيئًا منها، ونتّخذ من الخيرات الأرضيّة غايةً، سرعان ما نتبيّن أنّ هذه الخيرات تفرّقنا، لأنّ كلاًّ منّا يودّ احتكارها والتفرّد بها. وكلّما هيمنت المادّيّة على الحياة، استثيرت الشهوات الدنيا، منفلتةً من قيود الحبّ والأخلاق، واحتدمت الخلافات والصراعات بين الأفراد، والطبقات، والشعوب، وانقلبت الأرض جحيمًا.

وقد خَبَر كلٌّ منّا، عندما تحدق به النوائب والأزمات من كلّ صوبٍ، نزعةً لا تقاوَم إلى الاستغاثة بأُمٍّ. وهل من أُمٍّ أوفر قدرةً على الغوث من العذراء مريم، أُمّ الله وأُمّنا؟ فهي، بصفتها أُمّ الله، كلّيّة القدرة، وبصفتها أُمّنا، كلّيّة العطف والحنان.

هذا ما عناه قداسة البابا بولس السادس بقوله: «إنسان اليوم الذي يتجاذبه القلق والرجاء، الذي يثبّط عزيمتَه شعورُه بحدوده، وتطارده مطامع لا حدود لها، المضطرب النفس، الجريح القلب، الذي يرهقه الخوف من الوحدة، في حين هو يصبو إلى التواصل، الذي يرين عليه القرف والسأم، لهذا الإنسان، تقدّم العذراء مريم... رؤيةً هادئةً، وكلمةً تشيع الطمأنينة: انتصار الرجاء على القلق، وانتصار التواصل على العزلة، وانتصار السلام على الاضطراب، وانتصار الفرح والجمال على الاشمئزاز والنفور، وانتصار النظرة الأبديّة على النظرة الزمنيّة، وانتصار الحياة على الموت».

ومن جهته يقول البابا يوحنّا بولس الثاني: «إنّنا، في هذه الحقبة العصيبة والجوهريّة من تاريخ الكنيسة والبشريّة، نشعر بحاجةٍ خاصّةٍ إلى الالتفات صوب المسيح، ربّ الكنيسة، وسيّد التاريخ البشريّ، بفضل سرّ الفداء. ونحن موقنون أنّ ما من أحدٍ قادرٌ على إدخالنا إلى مكامن هذا السرّ الإلهيّة والبشريّة، كما تقدر مريم. فقد أدخلها الله نفسه إلى محراب هذا السرّ. هنا يكمن تميّز نعمة الأُمومة الإلهيّة. وليست كرامة هذه الأُمومة وحدها هي الفريدة في تاريخ الجنس البشريّ، بل إنّ ما هو فريدٌ في عمقه ورحابة رقعة عمله، هو مساهمة مريم، من جرّاء أُمومتها نفسها، في مشروع خلاص البشر، من خلال سرّ الفداء».

اليوم، أكثر من أيّ يومٍ، تتجلّى العذراء مركزًا محوريًّا في تاريخ الروح، ودلالةً وضّاءةً في مسيرة البشريّة، وحَدَثًا فريدًا لم يكن، ولن يكون له مثيلٌ في روعته، وبُعد أثره.

فيها يجد من يجتذبهم النقاء والطهر أطهر مخلوقٍ عاش على وجه البسيطة؛ ويجد

الصابون إِلى القداسة النموذج الأَمثل والأَكمل للقداسة؛ ويجد المتطلّعون إِلى الحبّ الحقّ نبعًا لحبٍّ خالدٍ لا أَنقى منه، ولا أبقى، حبٍّ لا يقطر، أَبدًا، مرارة الخيبة أَو الخيانة؛ وفيها يجد كلّ كَلِفٍ بفضيلةٍ مجمّعًا للفضائل التي مارستها جميعها بأَسمى مستوًى من الكمال.

في عالمٍ من البشاعة المريعة التي يتعذّر وصفها، ومن الأَهوال المتلاحقة بلا نهايةٍ، هي البهاء الكلّيّ، والجمال الصرف، والطمأنينة التي لا يعكّرها خوفٌ.

في عالم بؤسٍ لا رحمة فيه، مريم هي السعادة الصافية.

في عالم عنفٍ لا يني يتفاقم، مريم هي الوداعة والمحبّة، والطفولة الأَبديّة المهداة للبشر.

البراءة التي غالبًا ما تُفسَد، والطفولة التي غالبًا ما يُغَرّر بها، والطهر الذي غالبًا ما يُلَوَّث، والهشاشة التي غالبًا ما تتعرَّض للمخاطر، ها هي جميعها، قد بلغت، في مريم، مستوًى من التأَلّق منقطع النظير.

وبالإِجمال، في عالمٍ يلطّخنا بكلّ صنوف بشاعته، أَليست مريم هي الجمال الذي صار وجهًا؟

فعندما يبعث كلّ شيءٍ على القنوط، تبقى مريم العذراء، هي رجاء اليائسين، وهي أَيضًا رجاء الله. فقد رنا الله إِليها، وغاص نظره في أَعماقها، حيث وجد فرحه، فرحًا لم يجد له مثيلاً لدى أَيٍّ من أَبناء البشر. إِنّ مريم تعزّي الآب عن كلّ ذنوب أَبناء حوّاء، وتوفّر له فرحًا صافيًا.

في هذا الشأن يقول الأَب «كارّيه» (A.- M. CARRE): «عندما يحدّق الله إِلى العالم، في بعض الأَماسي، يرى ما يبعث على خيبة الأَمل. ولكن يبقى له، دائمًا، أَملٌ مشرقٌ في أُمّه العذراء، رجاء فاقدي الرجاء».

وكان القدّيس بيرنار قد قال: «أَزيحوا هذه الشمس التي تنير عالمنا الزمنيّ، فهل سيبقى نهارٌ؟ وأَزيحوا مريم، نجمة البحر الفسيح، فهل سيبقى سوى الليل الدامس، وظلال الموت، والعتمة الكثيفة؟»

مريم العذراء هي مفخرة الجنس البشريّ، وعنوان مجده،
إِنّها واحدةٌ منّا، ولكنّها نجمةٌ تتأَلّق بكلّ عظمتنا الأَصليّة،
إِنّها تحفة الطبيعة والنعمة،
بها تكتسب الطبيعة نبلاً،

واسمها ينطوي على كلّ ما في الفجر من براءةٍ، ونداوةٍ، وفرحٍ.

إنّها المرأة بامتيازٍ، المرأة السليمة، المتوازنة، المتناغمة، المرأة كما أرادها الله، والتي تلبّي كلّ ما يتوقّعه الربّ منها، وتعكس صورته بكلّ صفائها، وفرادتها، وبهائها.

«إنّها أجمل من الجمال، وأقدس من القداسة... إنّها البراءة عينها» بحسب تعبير البابا بيّوس التاسع.

إنّها هديّة السماء للأرض، وتقدمة الأرض للسماء.

إنّها «الممتلئة نعمةً»، التي تغوص في لانهائيّة الله، ولن ننفذ أبدًا إلى أعماق أمجادها.

إنّها «أمّ الله، وأمّنا».

ولنا، نحن المسيحيّين، هي التي جاءتنا بيسوع، وهي دربنا الأكيد إليه.

وقد حذّرنا البابا بولس السادس: «**إن شئنا أن نكون مسيحيّين، فعلينا أن نكون مريميّين**، أي علينا أن ندرك العلاقة الجوهريّة، الحيويّة، الإلهيّة، التي تربط السيّدة العذراء بيسوع. والتي تشرع لنا السبيل المؤدّي إليه».

ولذلك قيل: «ليس ابنًا لله، من ليست العذراء أمّه».

بواسطتها تحقّق تجسّد ابن الله، وتمّ الفداء، وبواسطتها ننال النعَم والغفران.

إنّها التحفة التي أكملها الله، كي يُدخل بها ابنه إلى العالم، ولكي يتعاون معها على تحقيق مشروعه الخلاصيّ؛ وقد جعل منها نموذجًا لكلّ نفسٍ مسيحيّةٍ، في اتّصالها مع يسوع، ومع حياته ونعمه.

إنّها الاستجابة المثلى لنداء الله، والالتزام الأوفر حرّيّةً ووفاءً بمشيئته، حتّى في محنة موت ابنه.

إنّها المرأة الفقيرة التي حقّق الربّ فيها كلّ قِيَم الفقراء، ومجّد فقرها، فجعل منها ملكة الملائكة، وملكة الكون، وملكة جميع المخلوقات. لقد رفعها، محافظًا على تواضعها وفقرها. لم يجعل منها إلهةً، بل جعل منها نموذجًا أمثل للتألّه الذي يراعي بشريّتنا، والذي دُعينا، جميعنا، إليه، في إثرها.

مريم فقيرةٌ، والفقراء لا تاريخ لهم. ولكنّ مريم هي، أيضًا، أمّ يسوع الذي اقتحم التاريخ، وملأه بحضوره، وجعل اسم أمّه يملأ الكون.

وهي، في رماديّة حياتها اليوميّة الرتيبة على الأَرض، خاضت مغامرةً فريدةً. وفي قريتها، الناصرة المغفلة والمزدراة، نسجت قصّةً رائعةً، أَسّست لعلاقة حبٍّ مذهلةٍ بين اللّه والبشر.

تلك المرأة القرويّة، الفقيرة والبسيطة، حباها اللّه بحجمٍ فائقٍ، وأَوكلنا إِلى حنان أُمومتها، فغدت الأُخت والأُمّ، الجاهزة لتعزية يتامى كُثُرٍ، ولعونهم.

إِنّها الكائن المحظيّ والمتميّز الذي به تحقّق اتّصال اللّه بكلّ الجماعة البشريّة، عبر تجسّد كلمته.

إِنّها عضو البشريّة حيث تركّز، بنعمة اللّه، كلّ ما انطوت عليه البشريّة من قداسةٍ، وكلّ ما اختلجت به نفسها من رغبةٍ في الاتّحاد باللّه.

إِنّها مرتبطةٌ بالكنيسة، فهي باكورتها واكتمالها،

وهي مرتبطةٌ بالإِنسان، في كلّ زمانٍ ومكانٍ، ومكانتها كونيّةٌ ودائمةٌ.

وهي مرتبطةٌ بالكون، فهي قمّته، وزينته الأَشدّ بهاءً،

وفيها يوجز كلّ تاريخ الخلاص، ويكمن مفتاح السرّ المسيحيّ.

وبانتقالها، ممجّدةً، إِلى السماء، قُهر الخوف من المستقبل، وحُلّ لغز الموت، وكُشِفت الحُجُب عن مصير الإِنسان، في مجدٍ يعكس أَنوار القائم من الموت.

وبحقٍّ قال البابا يوحنّا بولس الثاني: «لن يكون للشرّ وللموت الكلمة الأَخيرة. هذا ما تؤكّده مريم، بكلّ وجودها... بمريم سينتصر المسيح. وهو يريد إِشراكها في انتصارات الكنيسة، في عالم اليوم، وفي عالم الغد».

وتلك العذراء هي النموذج الأَمثل للخصب. هذا ما أَشار إِليه اللاهوتيّ «فون بلتازار» (H. Urs Von BALTHASAR) بقوله: «في ملتقى جميع الدروب القادمة من العهد القديم إِلى العهد الجديد، هناك خبرة مريم التي تقرن غنًى جمًّا بسرّيّةٍ سحيقةٍ يستعصي وصفها، ولكنّها من جليل الشأن بحيث تبدو وكأَنّها خلفيّة كلّ ما يظهر للعيان. فمن خلالها تحوّلت صهيون إِلى الكنيسة، والكلمة إِلى لحمٍ ودمٍ، والرأس إِلى جسدٍ، إِنّها مثوى خصبٍ فائضٍ».

علّة وجود العذراء هي أَن تهب ذاتها كي تكون أَداة عمل اللّه، فهي تقيم في قلب اللّه، في غور الصخرة التي يتفجّر منها النبع. وبها أُعيدت إِلى البشريّة النعمة والخصب.

إنّ المنزّهة من الخطيئة تعكس نورًا يبتغي إضاءة عالمٍ متعطّشٍ إلى الحقيقة، عالقٍ في شرك المظاهر الخدّاعة. إنّها تضيء شعب الله بالنور الإلهيّ الذي يعكس، في أصفى ضياءٍ، وجه الكلمة الأزليّ.

ومريم العذراء هي المثال الأكمل في ممارسة الحياة المسيحيّة يوميًّا، والتي تقتضي الكثير من البراعة، والجرأة، والخضوع للمشيئة الإلهيّة، بالتوافق مع وقائع هذا العالم، ولا يتيسّر الاضطلاع بها إلاّ بالاقتداء بامرأة الناصرة التي عاشت، بشريًّا، طيلة أيّامها، دعوتها الفريدة إلى أن تكون أُمّ الله وأُمّ البشر. لقد أنفقت حياتها في خدمة سرّ الفداء. للشخص عينه، لابنها يسوع قالت مريم: «إلهي» و«ابني». قبل الزمن، وقبل مريم، كان يسوع موجودًا، أزليًّا، ولكنّه مدينٌ لأُمّه بالولادة في الزمن، وبارتداء طبيعةٍ بشريّةٍ، بصيرورته ما لم يكن، وما شاء أن يكون، من أجل خلاص البشريّة وسعادتها: إنسانًا، وابن البشر.

«لو لم يولد من امرأةٍ، لما كان يسوع من جنسنا، ولو لم يتكوّن في أحشاء عذراء، بفعل الروح القدس، لما كان بمكنته التأكيد أنّه ابن الله».

دعوة مريم إلى أن تكون أُمّ الله تفسّر كلّ ما أُغدق عليها من امتيازاتٍ. إنّ الكاتدرائيّات الرائعة التي تزيّن حواضر العالم، قد شيّدت لتمجّد الله، ولكي تكون هياكل لحضوره في الإفخارستيّا. ومع ذلك أُطلق على هذه الصروح اسم السيّدة العذراء، لأنّها انبثقت من أيدي وقلوب جموعٍ تصلّي ليسوع بصلاتها لمريم، مدركةً أنّه، لولا مريم لما كان لنا يسوع.

يقول القدّيس أمبروسيُس إنّ العذراء «حبلت بكلمة الله». في أحشاء العذراء التقت البشريّة بالإله الحيّ. في مريم عادت إلى الانعقاد العلاقات المقطوعة مع الخالق. في مريم انحدر الله نحو البشر الذين لم يستطيعوا المضيّ إليه، واستعاد التناغم كلّ فُرَصه، وأقلع الجسد عن اشتهاء فقط ما يأباه الروح، وتمكّنت الأهواء الجامحة من التطهّر، والظفر بالتوازن، من خلال خضوعها للعقل. لقد تأوّه بولس شاكيًا: «إنسانان فيّ». وأصداء هذه الآهة تردّدها البشريّة الخاطئة، من كلّ صوبٍ. ولكنّ هذين الإنسانين سيتوحّدان، لأنّ الخليقة وُلدت ولادةً جديدةً، بولادة مريم وابنها.

وبما أنّ كرامة المخلوق تقوم على مدى علاقته بخالقه، فمن المحقّق أنّ السيّدة العذراء، بفضل أُمومتها للمخلّص، ظفرت بأعظم كرامةٍ نالتها، يومًا، خليقةٌ بشريّةٌ،

إِذ ليس من يجاريها اتّحادًا وثيقًا باللّه، فقد أَصبحت الصلة التي تربط اللّه بالبشر، وتربط الفائق الطبيعة بالواقع اليوميّ.

إِنّها تقف في مركز تاريخ البشريّة، وتضفي عليه معنى الأَبديّة.

كلّ التاريخ القديم انتظرها متلهّفًا، وكلّ الخليقة تنحني إِجلالاً أَمام عذراء تحمل اللّه طفلاً على ذراعيها!

ما أَكثر ما قيل عن العذراء! غير أَنّ كلّ ما قيل وما سيُقال لن يفي، ولو بقسطٍ ضئيلٍ من أَفضالها وفضائلها. ومن المحقّق أَنّ موضوعها لا ينضب، وأَنّ ما من كلماتٍ تفي لتبيان فرادة رائعة اللّه هذه، وللإِشادة بسموّها، مع قربها منّا، ومحاكاتها لنا.

فهي، على حدّ قول لوثير: «الجوهرة النفيسة، الفائقة الثمن، التي لن توفّى، أَبدًا، حقّها من المديح».

وقد قال الكردينال رتسنغر، الذي أصبح البابا بنيدكتُس السادس عشر الحاليّ: «يوم كنتُ ما زلتُ لاهوتيًّا شابًّا، وقبل التئام جلسات المجمع الفاتيكانيّ الثاني، وكما حدث وسيحدث للكثيرين، كانت لديّ تحفّظات على بعض الصِيَغ، مثل قول: «لن يُقال، أبدًا، عن مريم، ما يكفي». هذه العبارة تبدو لي ضربًا من المبالغة.

وقد أجد صعوبةً في فهم عبارةٍ شهيرةٍ أُخرى، ما انفكّت الكنيسة تردّدها منذ مجمع أفسس الملتئم عام ٤٣١، والذي ثبّت عقيدة «مريم أمّ اللّه»، وكانت تلك العبارة تؤكّد «أنّ مريم منتصرةٌ على جميع الهرطقات».

اليوم فقط، في حقبة الفوضى، حيث جميع الأضاليل والهرطقات تقرع باب الإيمان القويم، بتُّ أدرك أنّ تلك الأقوال لم تكن مبالغاتٍ تمليها التقوى، بل هي حقائق ثابتةٌ، أكثر من أيّ وقتٍ مضى».

ولا ريب أَنّ العذراء راسخةٌ في الوجدان المسيحيّ، وحاضرةٌ في حياة كلّ مؤمنٍ حقٍّ، حضور يسوع نفسه.

ومع ذلك، ما زالت العذراء مجهولةً، ولهذا السبب ليس يسوع معروفًا كما ينبغي أَن يُعرف، ولن تعمّ معرفته، ولن يسود ملكه في العالم، إِلاّ بتعميق معرفة العذراء، وشيوع تكريمها.

وبما أَنّ مديح العذراء، وحده، لا يكفي، وبما أَنّ خير تكريمٍ لها هو التمثّل بها، والاقتداء بفضائلها، فقد دفعني حبّي للأُمّ السماويّة إلى وضع هذا الكتاب، إسهامًا وضيعًا في إِبراز بعض وجوهها التي ما برحت خفيّةً عن مسيحيّين كُثُرٍ، وفي الدعوة إِلى حبّها، والاستفادة من وساطتها، كما يليق بأُمٍّ فذّةٍ تمتلك ما تمتلك مريم من قدرةٍ، وعطفٍ، وقداسةٍ، وكمالٍ.

وفي سبيل التمكين من معرفتها معرفةً أوفر شمولاً، اعتزمتُ أَن أُلحق بهذا الكتاب – إِن مدّ الله في عمري فسحةً – ثلاثة كتبٍ أُخرى: كتاب «مختارات مريميّة» يضمّ نصوصًا مختارةً من أَجمل ما كُتب عن أُمّ الله، قديمًا وحديثًا، وكتابًا يروي أَهمّ ظهوراتها في العالم، وأَخيرًا، باقة رواياتٍ تسرد مبادرات الأُمّ السماويّة، في مجال غوثها لأَبنائها، روحيًّا ومادّيًّا، مبادراتٍ جعلت جميع الأَجيال تغبطها، وتشكرها، وتمعن في حبّها.

فيا أُمّ إِلهي، وأُمّي،

إِنّه ليرهقني الشعور بعجزي عن بيان رفعتك، والإِشادة بفضائلك، والاعتراف بأَفضالك، كما يليق بكِ،

فاعتبري هذه المحاولة المتواضعة مجرّد تعبيرٍ عن حبّي لكِ، وشكرٍ عن الفرصة التي أَتحتِها لي كي أَبوح بما طالما خفق به قلبي تجاهك،

وأَيّتها المباركة بين النساء،

اقبلي لَعثَماتي، واستعارتي قول الشاعر پول كلوديل:

«ليس عبثًا ابتهاج الخليقة الغامر، ولا عبثٌ هو السرّ الذي تحفظه الربوات السماويّة، وتحرسه بحرص،

فليكن كلامي معادلاً لصمتها،

ولكن فلأَعثر على الكلام اللائق، ولأُصعّد هذا القول من قلبي عندما أَعثر عليه،

ولأَمُتْ، بعد أَن أَتلفّظ به، ولأُلقِ رأسي على صدري، بعد أَن أَقوله مثل كاهنٍ شيخٍ يلفظ أنفاسه الأَخيرة، مع كلمات التكريس».

أَديب مصلح

اسم مريم

كان اسم مريم من أكثر الأَسماء شيوعًا، وقد جهد علماء اللغات في الاستدلال على معناه، فإِذا به يحمل من المعاني ما يصعب حصره وما ينفتح على شتّى الاحتمالات. ويُقال إنّ علماء اللغات، في مختلف الأَمصار، استنبطوا له أكثر من ثلاثةٍ وخمسين تفسيرًا.

فالكنيسة الحبشيّة تفسّر اسم مريم بالسيّدة، وبالعطيّة والنعمة، وبالنور الذي يبيّن مقاصد الله. ومن ثمّ ترى في العذراء مريم سيّدة الكون، وموزّعة النعم السماويّة، والطريق الموصل إلى الله.

في اللغة الفرعونيّة اسم مريم يعني «محبوبة الله»، وفي اللغة الأُوغاريتيّة «الجبل الشاهق». وفي العبريّة يعني اسم مريم «الوَرِعة» و«المتعبّدة»، ويعني أَيضًا «الخادمة». أَلم تصف العذراء نفسها بأَنّها «أَمَة الربّ»؟

وقد رأى علماء اللغة المصريّة أَنّ اسم مريم مشتقٌّ من أَصل «مري» وهو يعني الحبّ. أَمّا في اللغات الساميّة، فهذا الاسم يتّسع لمعانٍ شديدة التباين، وقد يعني «المتمرّدة» أَو «الجميلة» أَو «المكتنزة الجسم» أَو «الرائية» أَو «المرَّة».

وقد ارتأى القدّيس جيروم أَنّ اسم مريم مركّب من جذرين «مار» و«يم»، وهو يعني «قطرة من ماء البحر»، وربّما هذا التفسير هو الذي قاد بعض المسيحيّين إلى وصف العذراء بنجمة البحر التي تهدي المبحرين، في ظلمة الليل.

ومريم، في الواقع، نجمةٌ ثمينةٌ لمن يخوضون بحر العالم الهائج، وسط مهالك رهيبةٍ. ولكنّها نجمةٌ فريدةٌ، لأَنّها، بولادتها ابن الله، ترسل لروحنا شعاعًا مضيئًا، يطرد الهواجس.

هي النور الذي يبدّد غياهب الليل، عندما تزمجر العاصفة في العالم وفي القلوب. فمن يشخص بأَبصاره إلى ذلك الكوكب الوضّاء، يستقرّ في يقينه أَنّ أَمواج البغض

والكبرياء الجامحة ستتكسّر وتتحطّم، وأَنّ الحياة ليلٌ لا يسعنا اجتيازه بمعزلٍ عن نور ذلك النجم المتلألئ.

إِنّها نجمة الصبح التي تسبق الفجر، وتبشّر بالشمس، وبتجلّي ابنها المتألّق. إِنّها النجمة الساهرة على ليل العالم، تظهر وتختفي، كما فعلت النجمة التي قادت المجوس إلى المخلّص، وتشير إلى المشرق الحقّ: ابنها.

ويرى آخرون أَنّ اسم مريم مركّبٌ من «مرّ» و«يمّ»، المرّ العطِر، والبحر. فهي محيطٌ من العطر.

وقد استفاض المسيحيّون في إطلاق الأَلقاب على مريم، محاولين الإِحاطة بأَوصافها وشخصيّتها. ولكن هل يُحاط بالمحيط؟

ومن الأَلقاب العديدة التي أُطلقت على مريم:

فرح البشريّة – السماء الجديدة – أُمّ ملك الملوك – وكيلة كنوز اللّه – أَمّ رحمة الآب – أُمّ الأَحياء – الصورة الحيّة للبشريّة المتجدّدة – النور الذي لا يخبو – الهيكل الذي لا يُدمّر – فجر يوم الرجاء الذي لا يُقهَر – ظهور الكلمة – مسكن من لا مأوى لهم – بشريّةٌ منسوجةٌ بنور اللّه – المحرّرة من اللعنة – حاملة من يحمل كلّ شيءٍ – مغذّية حياتنا – غذاء الفقراء – عزاء الغرباء – عصا العميان – فرح أَفراحنا – شفاء المرضى – ملجأ الخطأة – سند المسيحيّين.

غير أَنّ للعذراء اسمين لم يطلقهما عليها والداها، بل أَطلق أَحدهما الملاك الموفد من لدن الربّ، وهو «الممتلئة نعمةً»، وثانيهما أَطلقه عليها إِيمان المسيحيّين وتقواهم، منذ القرون المسيحيّة الأولى، وهو «أُمّ اللّه». إِنّهما أَعذب اسمين على قلب مريم، وعلى قلوبنا نحن أَبناءَها، وهما يليقان بتحفة اللّه التي استحقّت من الحبّ والتكريم، ما لم تستحقّه خليقةٌ، قطّ، ولم يضاهِها أَحدٌ، في قلوب الملايين وعلى شفاههم، التي لا تني تردّد بحبٍّ، تميّزها، وتشيد بالعظائم التي أَجراها الربّ فيها، وما زال يجريها بها.

فاسم مريم، حمله على مدى العصور، ملايين من النساء، بل حتّى من الرجال، تيمّنًا، وحبًّا، وعلى اسمها شيّدت، في كلّ بقعةٍ من المعمورة كنائس ومدارس ومشافٍ، وفي تكريمها أَفاضت مواكب الفنّانين من مهندسين ورسّامين، وموسيقيّين

ومغنّين وشعراء، كنوز مواهبهم وقرائحهم، إعلانًا عن حبّهم لها، وإشادةً بسموّها وتفرّدها وعظمتها.

اسمك، يا مريم، «عطرٌ يفوح، وينشر، في الحال، شذاه الطيّب. وحسبُنا أَن نُسمع يسوعَ، اسم مريم الجميل، كي نظفر منه بكلّ شيءٍ. فلهذا الاسم، وحده، سلطانٌ كلّيٌّ على روحه وعلى قلبه». (جان جاك أُولييه)

ماذا نعرف عن مريم؟

إنّ الأَناجيل القانونيّة مقلّة، إقلالاً ملفتًا، في ما يتعلّق بمريم. ولعلّ الإِنجيليّين الأَوثق قربًا من العذراء، مثل يوحنّا، قد احترموا صمتها وتواضعها، فاقتصروا على ما دوّنه الإِنجيليّ لوقا، موردًا ما باحت له به العذراء مباشرةً، كي تُطلع العالم على أَسرار ولادة يسوع وأَحداث طفولته، أَو ما باح له به أَحد المقرّبين منها، ومن شهود عيانٍ موثوقين، ولاسيّما أَنّ الإِنجيليّ متّى أَضاف حفنةً من أَحداث طفولة يسوع، أَغفلها لوقا، وأَنّ يوحنّا طوى إِنجيله على تلميحاتٍ خاطفةٍ إلى أَحداثٍ مؤثّرةٍ جرت في مستهلّ حياة يسوع العلنيّة، وعلى صورةٍ متقشّفة الخطوط، في إطار مأساة الجلجلة. وكان يُتوقّع من يوحنّا، رفيق سنوات مريم الأَخيرة، أَن يتحفنا ببعض ذكرياتها، ولكنّه، هو أَيضًا، احترم صمتها، ويبدو أَنّ أَحاديثهما ونجاواهما كانت محصورةً في تأَمّل أُلوهة يسوع. فجاء إِنجيله صدًى لهذا التأَمّل. ومن ثمّ يقول أُوريجينس، من القرن الثاني: «لا يمكن فهم إِنجيل يوحنّا إِلاّ بالركوع عند أَقدام العذراء».

ومع ذلك، فإِنّ الأَحداث التي ذكرتها الأَناجيل عن العذراء مريم، على قلّتها، هي من الكفاية بحيث تتكامل، ومن الإِيجاز بحيث تقتضي استقصاءً. وهي، في جميع الحالات، ترتدي جمالاً مشعًّا فريدًا.

ويقول البابا يوحنّا بولس الثاني في هذا الشأن: «رغم ضآلة ما ذُكِر عن العذراء، في الإِنجيل، فهي، بعد الرسول بطرس، ويوحنّا السابق، أَكثر الشخصيّات ذكرًا في الأَناجيل القانونيّة. ولا بدّ من التنويه بأَنّ الصفحات المتعلّقة بها: البشارة، زيارتها إِلى إِليصابات، عرس قانا، بحثها عن يسوع المختفي في الهيكل، وأَخيرًا إِيكال يسوع المحتضر أُمّه إِلى يوحنّا، وإِيكاله يوحنّا إِلى أُمّه، هي أَغنى صفحات الإِنجيل كثافةً».

بيد أَنّ هذه النصوص الإِنجيليّة فشلت في إِشباع فضول المؤمنين الأَوّلين إِلى الاستزادة من التفاصيل المتعلّقة بأُمّ الله. فتصدّى كثيرون لردم هذه الهوّة، تحدوهم

نوايا تتراوح بين التقوى، والسذاجة والخبث، فكثرت الكتابات التي استند بعضها على تقليدٍ شائعٍ، وبعضها على خيالٍ عليلٍ جامحٍ، وجهد واضعوها في خلع ثوب المجد والأُبّهة عليها، بتسميتها «أناجيل» أو «رسائل»، نسبوها إلى هذا أو ذاك من التلاميذ والرسل الأوّلين، الذين يحظون بالشهرة والاحترام.

ومن أهمّ الأسفار المنحولة التي تناولت العذراء: «إنجيل يعقوب» و«إنجيل ولادة العذراء»، و«إنجيل يوسف النجّار»، و«إنجيل توما»، و«إنجيل الطفولة العربيّ» الذي وُضع في القرن السادس، وقد ضمّ مجموعة خوارق خياليّةٍ عن طفولة يسوع، وعن هروبه إلى مصر، وما برحت هذه الخوارق السخيفة راسخةً في يقين الكثيرين.

ومع أنّ بعض هذه الأعمال المنحولة قد جاءت بمعلوماتٍ ثمينةٍ تداولها الآباء الأوّلون، واحتفظت بها الكنيسة، مثل اسميْ والدَيْ مريم: يواكيم وحنّة اللّذين أقامت لهما عيدًا، ومثل تقدمة العذراء إلى الهيكل التي أقامت لمناسبتها، أيضًا، عيدًا. ومع أنّ بعض الآباء قد استشهدوا بأحداثٍ أوردتها الأسفار المنحولة، ومع أنّ بعض صفحات هذه الأسفار تنطوي على مقاطع رائعةٍ، تنمّ عن تقوًى متّقدةٍ، وأحيانًا عن صوفيّةٍ مؤثّرةٍ، كانت مصدر إلهامٍ لطائفةٍ من الفنّانين، غير أنّ الكنيسة، منذ البدء، قد حذّرت منها، وأعلنت عدم جدارتها بالتصديق، ولا سيّما تلك التي شوّهت الحقائق، وأسرفت في سرد معجزاتٍ سخيفةٍ ادّعت أنّها واكبت طفولة مريم ويسوع، وهي، في الحقيقة، إهانةٌ لواقع يسوع وأمّه المتميّز ببساطةٍ إلهيّةٍ.

ولا ريب أنّ اقتضاب الإنجيل، بل إنّ صمته، حول مريم، خيرٌ من التفاصيل الفجّة، بل السمجة، أحيانًا، التي أوردتها بعض الأعمال المنحولة. ففي حين أنّ الإنجيليّين اعترفوا بجهلهم أمورًا كثيرةً، واحترموا أسرار يسوع وأُمّه، ادّعى كتّاب الأناجيل المنحولة معرفة كلّ شيءٍ، فوقعوا في مبالغاتٍ صبيانيّةٍ، أو استسلموا لإلهامات خيالٍ مريضٍ، وتردّوا إلى السماجة.

هذا، وقد عكف المسيحيّون، منذ البدء، على استقراء ما أوردته الأناجيل عن العذراء، فاستخلصوا منه عِبَرًا، وتعاليم قيّمةً عن أُمّ المخلّص، وكوّنوا، بذلك، كتلة مسلّماتٍ نهضت أساسًا لتكريمها، وتقليدًا ما انفكّ ينمو، مسفرًا عن وجوهٍ جديدةٍ لامتيازات مريم، ولكأنّ تلميحات الإنجيل، على اقتضابها وضآلتها، تحمل في تضاعيفها، طاقة نموٍّ لا محدودةً.

والعذراء نفسها لم تحبس ذاتها في سمائها، بل ما فتئت تزور أَبناءها على الأَرض، وتطلعهم على ما لا يزال خافيًا عليهم ممّا خصّها به الربّ، وتضع بمتناولهم كنوز العظائم التي كانت تودعها مخبأ قلبها، وقد أَنضجتها تأَمّلاً واستقصاءً. إِيحاءات العذراء هذه تضاف إلى كتلة التقليد، مكملةً معرفتنا بأُمّنا، ومدعّمةً أَسباب تكريمنا لها.

وقد أَعلنت الكنيسة، مع كرّ العصور، عقائد مريميّةً، غير مذكورةٍ، صراحةً، في الإِنجيل، إلاّ أَنّ واقعها كامنٌ فيه، وقد أَبرزته تأمّلات القدّيسين، وأَبحاث اللاهوتيّين، ورسائل العذراء نفسها.

لم تبتدع الكنيسة شيئًا، في تحديدها لهذه العقائد وفي إِعلانها، ولم تغيّر نقطةً من جوهر الوحي، بل هي اقتصرت على الإِيضاح والتعميق. ولا ريب أَنّ الروح القدس الذي ينير العقل البشريّ، ما انفكّ يحدو الكنيسة، ويبعث النموّ في البذور التي غرسها فيها الربّ منذ تأسيسها.

وفي هذا السياق يقول الكردينال نيومن- وهو أُسقفٌ أَنكليكانيٌّ مرتدٌّ إِلى الكاثوليكيّةَ: «إِنّي أُقرّ وأَعترف أَنّ تكريم العذراء القدّيسة قد تنامى، لدى الكاثوليكيّين، على مدى القرون. ولكنّ العقيدة لم تطرأ عليها أَيّة إِضافةٍ؛ بل إِنّي مؤمنٌ أَنّها، هي هي، في جوهرها، منذ البدء.». إِنّ التقوى المريميّة ما برحت تزدهر، ومعها تتعمّق وتتجلّى العقائد المتعلّقة بها.

وخارج الإِنجيل، استشفّ الباحثون وشرّاح الكتاب المقدّس في نصوصٍ من العهد القديم صورًا لمريم. فهي موضع نبوءاتٍ، وهي صورةٌ لحكمة الله كما رسمتها أَسفار «الحكمة» و«الأَمثال» و«ابن سيراخ»، وهي رمزٌ إلى الجمال الذي وصفه نشيد الأَناشيد، وهي، مع الكنيسة، «المرأة المتَّشحة بالشمس» التي وصفها يوحنّا في «رؤياه». وقد أَوردنا حفنةً من هذه النصوص في كتابنا «مختارات مريميّة».

بالإِجمال، كانت مريم امرأةً فقيرةً، والفقراء لا تاريخ لهم، عادةً، بيد أَنّ مريم، هي، أَيضًا، أُمّ يسوع الذي غزا التاريخ، وملأه بحضوره، وجعل اسم أُمّه يملأُ الكون.

ولا جَرَم أَنّ أَعظم معجزةٍ أَعدّت للخلاص هي تلك التي تمّت عندما دعا الخالق نفس مريم إلى الوجود.

طفولة مريم

لا نملك معطياتٍ موثوقةً عن طفولة مريم، ولكأنّ الله ابتغى ألاّ نعرف عنها سوى أنّها ابنته المختارة. ومن بشارة الملاك لها يمكن استنتاج أنّها، منذ طراوة عودها، كرّست للربّ ذاتها وبتوليّتها، وأنّها كانت مصانةً من آثار الخطيئة الأصليّة، فكان حبّها لله كلّيًّا، طاهرًا، لا يعيقه عائقٌ، ولا يقيّده تحفّظٌ.

منذ طفولتها همس صوت الله في داخلها، داعيًا إيّاها إلى حياةٍ مكرّسةٍ بكاملها له، وإلى وقف نفسها عل خدمته، تلك النفس التي طهّرها تطهيرًا استثنائيًّا، ووقاها، لحظة تكوّنها، من كلّ إرث دنسٍ، لأنّه كان يُعدّها لمهمّةٍ فريدةٍ، فاستجابت استجابةً عفويّةً كاملةً لا تردّد فيها ولا قيد.

يقول القدّيس يوحنّا الدمشقيّ، في هذا الشأن: «وُلدت مريم في بيت يواكيم، واقتيدت إلى الهيكل، حيث غُرست في بيت الله، وغُذّيت بالروح القدس، مثل شجرة زيتونٍ معطاءٍ، فأضحت موئل الفضائل كلّها، صارفةً فكرها عن كلّ رغبةٍ جسديّةٍ، حريصةً على عذريّة نفسها وجسدها، كما يليق بمن كان عليها أن تحمل الله في أَحشائها. إنّ الله قدّوس، ويأنس بالقدّيسين. وإنّ مريم، بالتزامها القداسة، أمست هيكلاً مقدّسًا ورائعًا جديرًا باستقبال العليّ.

وربّما كان القدّيس الدمشقيّ يشير إلى أَسفارٍ منحولةٍ، أفادت أَنَّ يواكيم وحنّة، كانا قد طعنا في السنّ ولم يُرزقا ولدًا، وأَرهقهما وقر عار العقم الذي كان يُعَدّ لعنةً إلهيّةً. فجمع يواكيم قطعانه وعبيده، وشرد بعيدًا في البرّيّة يندب طالعه التعيس، فيما قبعت زوجته في البيت، وكأنّها أَرملةٌ، تنعي عقمها ووحدتها. إلى أن ارتأى الله وضع نهايةٍ لمحنتهما، فأنفذ ملاكه إلى يواكيم يبشّره، في الحلم، بأنّ الربّ استجاب، أخيرًا، لتوسّلاته، وأنّه سيرزقه بولدٍ، مع تقدّمه وزوجته في السنّ؛ فعليه أن ينقلب راجعًا إلى بيته وزوجته. ونذر يواكيم، تعبيرًا عن بهجته وشكره، نذورًا سخيّةً، وعاد بقطعانه. وفي اليوم الثلاثين لعودته، تراءى ملاك الربّ لحنّة، التي

كانت عاكفةً على الصلاة، وبشّرها بعودة زوجها، وباستجابة الله لتوسّلاتهما، وأوعز إليها بالشخوص صوب الباب المدعوّ الباب الذهبيّ لملاقاة زوجها، حيث انتظرت مجيئه في توقٍ وقلقٍ. ولّما وصل ارتمت على عنقه، شاكرةً الربّ. وشاعت البهجة بين أقربائهما ومعارفهما.

وحملت حنّة، فنذر الوالدان المولود – أيًّا كان جنسه – لخدمة الهيكل حتّى بلوغه. ووضعت حنّة ابنةً سمّياها مريم. ولّما بلغت سنّ الثالثة نفّذا نذرهما فقدّماها للهيكل، حيث أدهشت الجميع بجرأتها، وجدّها، وعدم تلفّتها إلى الوراء، وثبات مشيتها. وفي الهيكل كانت موضع إدهاشٍ أكبر، بسلوكها الجادّ، سلوك البالغين الورعين، وبتقسيم وقتها بين الصلاة والعمل اليدويّ، وبحرصها على إرضاء الله في كلّ عملٍ. وتضيف الأسفار المنحولة أنّ الله نفسه كان يُنفذ إليها ملاكًا يقدّم لها الطعام في حينه. ويُقال إنّ مريم لبثت في الهيكل حتّى سنّ الثالثة عشرة حيث أزف موعد تزويجها. وتروي الأسفار المنحولة، عن خطوبتها من يوسف، قصصًا حافلةً بالخوارق، لا يمكن الركون إلى صحّتها.

أمّا لوقا الإنجيليّ فيستهلّ قصّة مريم، بتبشير الملاك لها، فيقول:

«وفي الشهرِ السادسِ،(لبشارة زكريّا)، أُرسِلَ الملاكُ جِبرائيلُ، مِن قِبَلِ اللهِ، إلى مَدينةٍ في الجَليلِ تُسمَّى الناصرة، إلى عَذراءَ مَخْطوبةٍ لرجُلٍ اسمُهُ يوسُفُ، مِن بَيتِ داوُد؛ وَاسْمُ العذراءِ مريم. فَلمَّا دَخلَ (الملاكُ) إليها، قالَ لها: «افرحي، يا مُمْتلئةً نِعْمة؛ الربُّ مَعَكِ». فاضطربَتْ مريمُ لهذا الكلام، وجَعَلتْ تُفكِّرُ ما عَسى أنْ يكونَ هذا السلام. فقالَ لها الملاكُ: «لا تَخافي يا مَريم، فلَقَد نِلْتِ حُظْوَةً عِندَ الله؛ وها أَنتِ تَحْبَلِينَ، وتَلِدينَ ابْنًا، وتُسمّينَهُ يَسوع. إِنَّهُ يكونُ عظيمًا، وابنَ العَليِّ يُدعى. وسَيُعطيهِ الربُّ عَرشَ داودَ أَبيه؛ ويَملِكُ على بَيتِ يَعقوبَ إلى الدَّهرِ، ولَنْ يكونَ لِمُلْكِهِ انْقِضاءٌ».

فقالتْ مَريمُ لِلملاك: «كيفَ يكونُ ذلكَ، وأَنا لا أَعرفُ رَجُلاً؟» فأَجَابَ المَلاكُ، وقالَ لها: «هو الروحُ القُدُسُ يحِلُّ عليكِ، وقدرةُ العليِّ تظلِّلُك لذلك فالمولودُ قدّوسٌ، وابنَ العليِّ يُدعى. وها إِنَّ إليصاباتَ نَسيبَتَكِ، قد حَبِلَتْ، هي أَيضًا، بابنٍ في شيخوخَتِها؛ وهذا الشهرُ هو السادسُ لتلكَ التي تُدعى عاقِرًا؛ إِذ ليسَ من أَمْرٍ يَسْتَحيلُ على الله». فقالتْ مريم: «أَنا أَمَةُ الربِّ، فَلْيَكُنْ لي بِحَسَبِ قولِك!» وانصرفَ المَلاكُ من عندِها. (لوقا١: ٢٦–٣٨)

وكانت قد سبقت هذه البشارةَ، بشارةُ الكاهن زكريّا، الذي كان يئنّ هو وزوجته

من لعنة العقم، بولادة ابنٍ لهما، في شيخوختهما، سيكون سابق المخلّص، وممهّد الدرب له. وقد جاءت هذه البشارة بقلم لوقا (لوقا ١: ٥–٢٥) كما يلي:

«كان في أيّام هيرودُس، ملك اليهوديّة، كاهنٌ اسمه زكريّا، من فرقة أبيّا، وامرأته، من بنات هارون، واسمها إِليصابات. وكانا كلاهما بارّيْن أمام الله، سالكيْن بغير ملامةٍ، في جميع وصايا الربّ ورسومه. ولم يكُن لهما ولدٌ، لأنّ إِليصابات كانت عاقرًا، وكانا كلاهما قد طعنا في السنّ.

وفيما كان يكهن، في نوبة فرقته، أمام الله، أصابته القُرعة، على حسب العادة في الخدمة المقدّسة، أن يدخل هيكل الربّ ويوقد البخور. وكان كلّ جمهور الشعب يصلّون في الخارج، وقت التبخير. فظهر له ملاك الربّ، واقفًا إلى يمين مذبح البخور. فاضطرب زكريّا حين رآه، ووقع عليه خوفٌ. فقال له الملاك: «لا تخَفْ، يا زكريّا، فإِنّ طلبتك قد استُجيبت. وإِليصابات امرأتكَ ستلد ابنًا فتسمّيه يوحنّا؛ به يكون لك فرحٌ وابتهاجٌ، وبمولده يفرح الكثيرون، لأنّه سيكون عظيمًا أمام الربّ؛ ولا يشرب خمرًا ولا مسكرًا؛ ويمتلئ من الروح القدس وهو بعد في بطن أُمّه؛ ويَرُدُّ كثيرين من بني إسرائيل إلى الربّ إلههم. ويسير أمامه بروح إيليّا وقدرته، ليردّ قلوب الآباء إلى البنين، والعصاة إلى حكمة الصدّيقين، ويُهيّئ للربّ شعبًا مستعدًّا.

فقال زكريّا للملاك: «بمَ يتأكّد لي هذا؟ فأنا شيخٌ، وامرأتي قد طعنت في أيّامها؟» فأجابه الملاك، وقال له: «أنا جبرائيل، الواقف أمام الله، وقد أُرسِلتُ لأُكلّمك، وأحمل إليك هذه البشرى. وها أنت تكون صامتًا، لا تستطيع الكلام إلى اليوم الذي يكون ذلك، لأنّك لم تصدّق كلامي الذي سيتمّ في أوانه». وكان الشعب منتظرين زكريّا، متعجّبين من إِبطائه في الهيكل. فلمّا خرج لم يستطع أن يكلّمهم؛ فعلموا أنّه قد رأى في الهيكل رؤيا. أمّا هو فكان يشير إِليهم وبقي أبكم.

ولمّا تمّت أيّام خدمته، مضى إلى بيته. وبعد تلك الأيّام حبلت إِليصابات، امرأته؛ فاختبأت خمسة أشهر؛ وكانت تقول: «ها هوذا ما صنع لي الربّ، في الأيّام التي نظر إِليّ فيها، ليصرف عنّي العار بين الناس!»».

تعلّمنا الكنيسة، اليوم، أنّ تلك التي كان الله يُعدّها لتكون أُمّ ابنه البشريّة، وأداة تجسّده، من أجل فداء البشر، قد خصّها بنعمةٍ فريدةٍ، فصانها من كلّ آثار الخطيئة الأصليّة الموروثة، منذ لحظة تكوينها في أحشاء أُمّها. وهكذا قطنت السماء أحشاء حنّة مدى تسعة أشهرٍ، تمّ خلالها تبادلٌ سرّيٌّ مذهلٌ بين الأُمّ وابنتها. فمن قِبَل حنّة كلماتٌ بالغة الرقّة، وأناشيد فرحٍ حماسيّةٌ، ومن قِبَل مريم أجوبةٌ صامتةٌ، ولكنّها تتّسم

بعذوبةٍ وحيويّةٍ إلهيّتين، محدِثةً لدى أُمّها تحوّلاً فائق الطبيعة يتخطّاها. لقد كانت أُمّ العذراء أوّل مخلوقٍ نَعِم، مباشرةً، بالقدرات الفريدة التي ستمتلكها موزّعة جميع النعم.

بفضل النعمة الخاصّة التي نالتها، امتلأت مريم نعمةً، وتحرّرت من الشهوة، ومن الاضطراب الذي يشيع الفوضى في الكيان، ويعرّض للخطر سيطرة العقل والإرادة، فبات كلّ شيءٍ فيها سلامًا، ونظامًا، وتناغمًا، وإذا بكلّ ما في نفسها وجسدها رهافةٌ، وجمالٌ، وامتلاءٌ، وقوّةٌ. وإذا بها، حتّى طبيعيًّا، أكثر المخلوقات كمالاً.

وفيما كانت الطفلة المختارة تنمو، كان والداها، عندما تحطّ عليهما نظرات عينيها المحبّتين الحالمتين، يستشفّان، من وراء حبّها، أسرارًا ساميةً تتفاعل في أغوار نفسها، وعملاً إلهيًّا يتخطّاهما بلا حدودٍ.

كان عليهما تنشئة زهرة السماء هذه، فعلّماها المشي، والكلام، والصلاة. كانا يتلوان على مسامعها الأقوال المقدّسة، فتردّدها متلعثمةً، ولكنّهما، وهما يسمعانها، كانا يكتشفان، مذهولَيْن، معنًى عميقًا، وحبًّا لم يعهدا لهما مثيلاً من قبل.

خلافًا لما تزعم الأسفار المنحولة، من المرجّح أنّ الله شاء أن تنشأ مريم على أيدي والديها الفاضلين، لا في هيكلٍ يشرف عليه الصدّوقيّون الفاسدون. لقد آثر الربّ قلبها المنزّه من الدنس، متعة الثالوث، على «قدس الأقداس» المرصّع بالمرمر والذهب. ولم يكن ملاكٌ هو الذي يزوّدها بالطعام الأرضيّ، بل الثالوث القدّوس هو الذي كان يحيي نفسها المقدّسة بنفح أنواره الفائقة، وبالقوّة والحبّ. وكان محراب قلبها شاهدًا على تبادلٍ لا ينقطع يفيض محبّةً، وعطفًا، وثقةً، وسخاءً.

على يدي حنّة، أتقنت مريم أعمال المنزل، وخيط الثياب، والغزل والحياكة. وكانت الاثنتان معًا تطربان لإنشاد المزامير. ولا ريب أنّ المعلّمة تلقّنت من تلميذتها أكثر ممّا لقّنتها.

وكان ليواكيم نصيبٌ وافرٌ من النعم التي جاءت بها تلك الابنة المباركة إلى بيته. لم يكن يقوى على مقاومة جاذب تلك الابنة التي يتوسّم فيها أسرارًا لا يسبر عمقها. فقد كانت كلمةٌ أو نظرةٌ منها كافيةً لملئه بالله. وكانت الفتاة تعهد متعةً كبرى بالمكوث إلى جانب ذلك الصدّيق الذي يمثّل، في نظرها، الأب السماويّ. وما أعذب

الأَحاديث التي كانا يتجاذبانها في المساء، عندما يفرغ يواكيم من مهامّه اليوميّة، أَو في ساعات فراغ أَيّام السبت الطويلة!

وفي أَثناء زيارتها إلى المجمع، كانت مريم تتلقّف، وتحفظ، بحرصٍ، كلّ ما يتعلّق بالمخلّص الذي سيكون ابنها.

كانت المزامير من أَكثر الكتب المقدّسة التي تستمدّ منها غذاءً روحيًّا، فهي تعبيرٌ صادقٌ عن علاقة النفس باللّه، ولا سيّما حيال مِحَن الحياة. بكلّ حرارة نفسها كانت تكرّر صيحات الثقة، والاستسلام، والقلق، والتسبيح، والشكر. وأَشدّ ما كان يستهويها ما يتحدّث عن المسيح «أَجمل بني البشر» الذي فاضت شفتاه بالنعمة، والذي سيكافح في سبيل الحقّ والعدل، وسيحرّر المحروم، والمقهور، والأَعزل، وسيحكم بالرحمة، وبه ستتبارك جميع الأُسر البشريّة. وكانت تستوقفها نبوءة أَشعيا عن «الخادم المتأَلّم»، الذي أَخذ عليه معاصي البشر.

من كلّ ذلك، كانت ترسم، في ذهنها، صورةً لما ستكون عليه حياة المسيح. وكم كانت به كَلِفةً ومعجبةً!

مع جاراتها كانت تعقد علاقاتٍ ودّيّةً، وتسعد بخدمتهنّ. تتجاذب الأَحاديث مع رفيقات جيلها، وتمرح معهنّ، وتشيع في نفوسهنّ البهجة. وكلّ من يدنو منها، كان يغادرها وهو أَقرب إلى اللّه.

وكان يحزنها أَن تلحظ لدى آخرين، نزعاتٍ إلى العدائيّة، والافتراء، والحسد، والكذب، والأَنانيّة، والبخل، والرياء، والقسوة، والشهوة الآثمة. فتحمد اللّه لأَنّه وقاها من كلّ ذلك، ولكنّها لا تتكبّر، ولا تنعزل عن العالم، بل تكفّر عن الخطأة، وتصلّي لكي يتوبوا. براءتها لم تجعلها غريبةً عن محيطها، وحبّها المتّقد للّه كان يضاعف تأثّرها بكلّ ما يجري من حولها. والحزن الذي كان ينتابها من جرّاء ضلال البشر وخطاياهم، كان يدفعها إِلى توسّل اللّه، بكلّ حرارة قلبها، أَن يسارع إِلى إِرسال المخلّص.

وقد تجلّت لديها، باكرًا، مخايل نضجٍ نفسيٍّ، وإِدراكٍ ثاقبٍ لمعاني الحياة والمصير، فاتّخذت، منذ نضارة صباها، قراراتٍ خطيرةً حاسمةً.

بشارتان

كان هناك، إذن، بشارتان: بشارةٌ لزكريّا بمولد يوحنّا، وأُخرى لمريم بمولد يسوع، وبين البشارتين دنيا من التباينات. زكريّا وزوجته إليصابات طالما التمسا عتقهما من لعنة العقم، وبشّرهما الملاك بأنّ التماسهما قد استجيب، أَخيرًا. أَمّا مريم، فكانت، بكلّيّتها، مستسلمةً بين يدي الله، غير راغبةٍ سوى في إرضائه. وقد أَكّد لها الملاك أَنّها نالت حظوةً عند الله الذي سيملأ الفراغ الذي وضعت فيه نفسها، وسيغدق عليها ما زهدت وضحّت به.

وكان على زكريّا أَن يَمثل إلى الهيكل كي يقابل الملاك. ولكنّ الملاك هو الذي مَثُل، موفدًا من الله، إلى الفتاة العذراء مريم، وهي معتكفةٌ في مخدعها الوضيع. منتهى البساطة مقابل جلالة الهيكل الرهيبة.

زكريّا وزوجته ينتميان إلى أُسَرٍ كهنوتيّةٍ مرموقةٍ، وليس في وضع مريم ولا في محتدها ما يؤهّلها للشرف الفريد، ممّا يؤكّد اختيار الله المجّانيّ، وإيثاره المتواضعين، واستجابته للصلاة النابعة من القلب، المتفجّرة في الخفاء.

في معرض بشارة زكريّا أَسهب الإنجيليّ لوقا في مديحه ومديح زوجته. أَمّا في بشارة العذراء، فقد تولّى الملاك هذه المهمّة، فسمّاها، من قِبَل الله، «ممتلئةً نعمةً»، وهذه التسمية تُزري بكلّ مديحٍ.

فضل زكريّا وزوجته وفاؤهما للشريعة، وميزة مريم أَنّها كرّست ذاتها لله فنالت حظوةً لديه، فأَفاض عليها نعمه، وملأ حياتها بحضوره الإلهيّ.

في بشارة زكريّا يؤكّد الإنجيليّ على ظهور الملاك إلى يمين الهيكل، أَمّا في بشارة مريم، فالتأكيد ينصبّ على الحوار المتبادل بين الملاك ومريم التي رحّبت بالله، في داخل كيانها. هذه التباينات تنبئ بأُسلوبٍ جديدٍ، وبعهدٍ جديدٍ، حيث تتبوّأ مريم مكان الهيكل، وتتبوّأ الناصرة المنفتحة على الأُمم مكان أُورشليم معقل اليهود، بحيث

باتت رمزًا للشمول الجديد. وفي اختيار اللّه، هذا، دليلٌ على نهاية عهد الهيكل والتقادم الدمويّة، والتحوّل إلى محاريب القلوب المتواضعة، وسرائر النوايا الطاهرة، التي يحلّ عليها الروح القدس، وتظلّلها قدرة العليّ.

زكريّا اضطرب بسبب رؤيته الملاك. ومريم اضطربت بسبب المديح الذي سمعته من الملاك. زكريّا ارتعد، أمّا مريم فاستغربت قولاً لم تظنّ ذاتها جديرةً به، واختلطت عليها الأُمور، فاستفسرت، واستجلت ما ظنّته يعارض ما نذرته، ووطّنت عليه نفسها.

زكريّا شكّ، وتمسّك بقناعته استحالة الإنجاب في الشيخوخة، أمّا مريم فلم تساورها ريبةٌ في قدرة اللّه الكلّيّة. ولكنّها، حرصًا على البتوليّة التي التزمت بها، وبإلهامٍ من الروح القدس، استوضحت إمكانيّة الجمع بين متناقضين: الأُمومة والعذريّة. ولذلك عوقب زكريّا، وظفرت مريم بالجواب الذي أشاع في نفسها الاطمئنان.

زكريّا وُعد بأنّ ابنه يوحنّا سيكون «عظيمًا أمام اللّه»، أمّا يسوع فسيكون عظيمًا على الإطلاق، وهذه العظمة هي من صفات اللّه.

يوحنّا يعني «يهوه الذي يرحم» ويسوع يعني «اللّه الذي يخلّص».

يوحنّا سيتميّز بزهده، ويسوع بكونه ابن العليّ، والفائق الطبيعة. يوحنّا يمهّد الطريق، ويعيد الخطأة إلى دروب اللّه. ويسوع ملكٌ إلى الأبد.

وأخيرًا هناك دعوةٌ إلى كلٍّ منهما: «لا تخف»، «لا تخافي»، دعوةٌ إلى نبذ الخوف، والاعتصام بالجرأة، وبفضلها التغلّب على الصدمة التي يحدثها ظهورٌ إلهيٌّ.

بشارة مريم: دعوةٌ إِلى الفرح

منذ القدم، فهم المسيحيّون الأوّلون أنّ البشارة هي دعوةٌ إلى الفرح المسيحانيّ. إِنّها بهجة البشرى السعيدة بتجسّد ابن الله من أَجل فداء البشر، وحلول ملكوت الله. هكذا فهم آباء الكنيسة الشرقيّون الرسالة التي بلّغها الملاك لمريم، وهؤلاء الآباء كانوا جبابرةً بعيدي النظر.

وسياق نصّ البشارة، كما جاء على لسان الملاك، وفق إِنجيل لوقا، هو بسطٌ لأَسباب الفرح ومبرّراته.

التقليد الذي ساد قرونًا اعتبر البشارة دعوةً إلى فرحٍ عظيمٍ، بِحدَثٍ عظيمٍ. إلى أَن شاعت الترجمة اللاتينيّة، وانتشرت «الصلاة المريميّة» في نصّها الشائع اليوم، والذي حوّل دعوة الفرحِ إلى مجرّد تحيّةٍ، فأَفرغها من عمق فحواها، وانقلبت هذه الترجمة عادةً مستحكمةً هي أَقوى من التقليد. وغالبًا ما تقضي العادة على التقليد.

الآباء الأَوّلون كانوا قد رأوا أَنّ الحزن غشى العالم بسبب معصية حوّاء، وأَنّ الفرح أتى بواسطة مريم.

في هذا الشأن قال أوريجينُس (٢٥٠+): «إِن كانت اللعنة قد طالت جميع النساء، من جرّاء لعنة حوّاء، فلا بدّ من الاستنتاج أَنّ البركة قد انصبّت على كلّ نفسٍ عذراء، بسبب البركة التي نالتها مريم».

وقال أَحد تلاميذ الذهبيّ الفم: «إِنّ دعوة مرسل الله إلى العذراء: «اغتبطي» تحطّم قيود الحزن، فقد ولّى عهد حزن حوّاء، وحلّ عهد فرح مريم، التي ترتفع، كلّ يومٍ، ملايين الأَصوات، داعيةً إِيّاها «مغبوطةً»».

وما أَحرانا بأَن نتوجّه إلى أُمّنا السماويّة، بمثل ما توجّه الملاك المبشّر: «إِفرحي، يا ممتلئةً نعمةً». وبترديدنا هذا الدعاء لن نردّد مجرّد سلامٍ، بل نشارك في إِنشاد فرحٍ فصحيٍّ، من شأنه أن يتغلغل، شيئًا فشيئًا، إِلى أَدقّ تفاصيل حياتنا.

نلحظ من زيارة مريم لإِليصابات أَنّ فرح الملكوت قد سكنها، منذ البشارة، وهو فرحٌ إِلهيٌّ نابعٌ من حضور الله في حياتها وفي داخلها. وهي، منذئذٍ، قد أُقحمت في مأساة بشريّتنا المتعطّشة إلى الرجاء.

مخطوبة ليوسف

يقول الإنجيليّ لوقا في مطلع خبر البشارة إنّ مريم عندما وافاها الملاك مبشّرًا، كانت مخطوبةً لرجلٍ من بيت داود اسمه يوسف. وكان للخطوبة، حينذاك، كلّ مفاعيل عقد الزواج، ولو أُرجئ موعد العرس.

هذه الخطوبة تطرح تساؤلاً شائكًا مشروعًا. فقد رأينا أنّ مريم كانت قد نذرت بتوليّةً دائمةً، فكيف تقدم على خطوبةٍ هي بحكم زواجٍ؟ وكيف وجدت السبيل إلى التوفيق بين متناقضين؟

لا ريب أنّ نذر مريم للبتوليّة، وإقدامها على الخطوبة قد حدثا، كلاهما، بإلهامٍ وتدبيرٍ إلهيّين. فلم يكن بوسع ابن الله أن يتجسّد إلاّ في عذراء، وكان لا بدّ من وجود زوجٍ يصون شرف أُمٍّ عذراء، ويوفّر لابن الله المولود منها أبًا في المجتمع.

نذر مريم للبتوليّة كان إلهامًا ربّانيًّا، وقرارًا فذًّا لا سابق له في شعبها، لم تستشر بشأنه بشرًا. ولو هي استشارت كهنة شعبها وحكماءه لنهوها، فالبتوليّة، في جوهرها، تناقض توجّهات اليهوديّة الحريصة على إكثار الشعب اليهوديّ، وعلى منح كلّ فتاةٍ فرصةً لإنجاب الماسيّا.

ومثلما نذرت مريم البتوليّة استجابةً لوحي الله، واستسلامًا لمشيئته، تقبّلت خطوبة يوسف إمعانًا في الاستسلام لإرادة الله، والثقة بقدرته على توفيق المتناقضات.

كان الله قد صانها من كلّ دنسٍ، منذ لحظة وجودها الأُولى، فكان تكريس ذاتها له، وتضحيتها بالأُمومة عن طيب خاطرٍ، تعبيرًا عن شكرها وعرفانها بالجميل الفريد الذي خصّها به، كما كان إقرارًا بعدم جدارتها لحمل المخلّص. وقدّر الله تواضعها وامّحاءها، فاتّخذها أُمًّا لابنه، وأسبغ عليها خصبًا لم تحلم بمثله امرأةٌ، قطّ.

ولا غروَ أنّ الله الذي أعدّ مريم لتكون أُمّه الطاهرة، قد أعدّ، أيضًا، يوسف لكي يشاركها حياة البتوليّة ويصونها، ويكون لابنه المربّي اللائق، والأب الشرعيّ.

وكان يوسف «بارًّا» أي إنسانًا مستقيمًا، يتّقي الله، ويحيا وفقًا لوصاياه، يمارس الفضائل، وينأى عن الموبقات، يحبّ الآخرين ويحسن إليهم، ولا يعرف البغضُ، والطمعُ، والحسدُ، إلى قلبه سبيلاً. كان ينبعث منه نبلٌ ومهابةٌ استمالا قلب مريم، فقام بينهما توافقٌ روحيٌّ. ولا ريب أنّ مريم أفضت إلى يوسف بسرّ الظمأ المطلق إلى البتوليّة الذي كان يلهب قلبها، والذي كانت راغبةً في إروائه، في إطار زواجٍ عذريٍّ. وهو، بتأثير ميله إلى مريم، وعمل الروح القدس في نفسه، استشفّ العالم الروحيّ السامي الذي كان يسكن مريم، وأدرك أنّ البتوليّة ليست تضحيةً أليمةً، بقدر ما هي تجاوزٌ للذات، في حبٍّ للربّ يشيع في النفس السلام. إنّها إضافةٌ إلى الحياة، وشهادةٌ عن عالمٍ آخر. وقد فتنت رؤى مريم قلب يوسف وذهنه، فاعتنق نظرتها إلى الزواج العذريّ المؤسّس على الحبّ الطاهر، والوفاء المتبادل، والعبادة.

كاشفت مريم، إذن، يوسف بنذرها البتوليّة، فالتزم، هو أيضًا به، بإلهامٍ سماويٍّ. ومن المؤكّد أنّ الطهر الذي يفوق طهر الملائكة، الذي كانت تشعّه مريم، قد أسر نفسه، فعزم على التمثّل به.

بوح مريم ليوسف بسرّ نذرها، كان دليل ثقةٍ مطلقةٍ بالله، وبمن هيّأته العناية الإلهيّة ليكون شريكها في تحقيق التجسّد الإلهيّ. وهو بارتضائه عقد زواجٍ عذريٍّ معها، أتاح لها المضيّ قُدُمًا، وبلا عائقٍ، في إتمام تكريس ذاتها لله.

هذا التوافق ربط بينهما بوثاقٍ مقدّسٍ، يفوق كلّ حبٍّ بشريٍّ. وقد أحبّ قلبُ مريم البتوليّ يوسف، حبًّا إلهيًّا، طاهرًا، حقيقيًّا، فاعلاً، مجّانيًّا، مثل حبّ الله لكلّ إنسانٍ. اطمأنّت مريم إلى فطنة ذلك البارّ واستقامته، ويوسف، بتأثير علاقته بمريم أصبح، هو أيضًا، مكرّسًا لله.

لقد اختار الامّحاء، لكي يبرز مختارة الله، وهذا ما يجعله رائعًا في عيوننا. ولا بدعَ إن غدت حياته مع مريم كلّيّة الطهر والبساطة، والتفاني، متأهّبةً لكلّ التقدمات، سعيدةً وسط التضحيات، منكرةً كلّيّةً لذاتها، تتألّق سحرًا فائقًا.

بعض الأناجيل المنحولة تصوّره أرملاً هرمًا، كي تفسّر عفّته، ووجود «إخوةٍ» ليسوع من زواجٍ سابقٍ له. ولكن من المرجّح أنّه كان، عندما خطب مريم، في زهرة الشباب، وأنّه قرّر التزام البتوليّة، كما أسلفنا القول، بإلهامٍ سماويٍّ، وبتأثير مريم، وتمثّلاً بها.

وقد وصف «جان غيتّون» (Jean GUITTON) يوسف بأنّه «قويٌّ، أبيٌّ، عنيدٌ، مندفعٌ، مستقيمٌ، ومتمرّدٌ تمرّدًا مقدّسًا. لقد عهد حبًّا مطلقًا يستعصي على الوصف، هادرًا كالسيل، ساكنًا، دافئًا كماء بحيرةٍ، نضرًا كالينبوع. كان يميل بشدّةٍ إلى الفتاة مريم، ويلمس تميّزها وتفوّقها. لقد «عفّفت» مريم يوسف، كما ستدفع إلى العفّة أُلوف الشبّان، بنظرتها وبسمتها، والطهر المتضوّع منها. وكانت مؤسّسة ذلك الشعب الكهنوتيّ الذي يدين لها بالوفاء لسرّ البتوليّة الرجوليّة، التي لم تسلبه المنعةَ والحميّةَ والجيشانَ، ولم تُنقص، في شيءٍ، من قدرته على إغداق الحنان وتلقّيه. نظرة يوسف نصعت وتألّقت عندما التقت نظرة مريم، وحواسّه تسامت بإشعاع جسدها الفريد في العالم، ولكأنَّهما آدم وحوّاء قبل الخطيئة. وقد ارتضيا كلاهما التضحية بالأُبوّة والأُمومة. غير أنّ رجاءً عظيمًا فائقًا كان يغزو قلبيهما. ربّما لم يفكّرا بالمستقبل، ولكنّ المستقبل كان يحوم حولهما. وكانا يتنسّمان، في ثناياه، سعادةً مفرطةً وقورًا».

لم تكن مريم ويوسف «اثنين في جسدٍ واحدٍ»، بل «اثنين في نفسٍ واحدةٍ». وكانا يتعاونان على أن يكونا أشدّ طهرًا وتكريسًا لله. وكانا ينعمان بأفراحٍ رقيقةٍ مقدّسةٍ، وبمودّةٍ متبادلةٍ، عذبةٍ ومنيعةٍ، لا عهد لعامّة المتزوّجين بمثلها، لأنَّها متحرّرةٌ من الأنانيّة، ومن نزوات الشهوة وتوتّراتها، ومن تقلّبات المزاج.

ربّما هناك من بزّوا شهرةً يوسف الذي ارتضى الإغفال والامّحاء، ولكن ليس من يفوقه عظمةً، فقد اختار حياةً حافلةً بالله، حيث للجوهريّ، وحده، قيمةٌ، وبذلك اختار النصيب الأصلح. ربّما هو بدا لبعض الناس، شاردًا، ممعنًا في الجدّ، صموتًا، غير أنّ مريم رأت فيه الرجل الذي شاء الآب أن يكون شريكها في سرّ تجسّد ابنه.

بينهما انبثق أجمل حبٍّ جمع كائنين. ولكنّه حبٌّ يختلف، في منبعه، وفي توجّهه، عن حبّ عامّة البشر. فحتّى المختارون ينطلقون من حبٍّ بشريٍّ، صوب حبّ الله. أمّا لديهما فالأولويّة لله الذي أيقظ حبّ أحدهما للآخر. الاندفاع الذي اجتذب أحدهما إلى الآخر هو الذي اجتذبهما كليهما إلى الله.

لقد لحظ يوسف ما تتميّز به مريم من اختلافٍ عن سائر الفتيات، بكتمانها، وخَفَرها، وعزيمتها، وثقتها بالله، والتزامها بإرادته، وصراحتها، ووضوح رؤيتها الذي يجعل كلّ شيءٍ جليًّا أمامها. هي كاشفته بنذر تكريس ذاتها وبتوليّتها لله، وتشبّثها به؛ وهو، بعد إعمال فكرٍ، استقرّ في يقينه أنّ عليه التزام العفّة الدائمة، فهو أصدق

دليل حبٍّ يقدّمه للّتي أَحبّها. ومريم أَيقنت أَنّ زواجها من يوسف الملتزم بالبتوليّة، مع ما سينطوي عليه من بذلٍ ووفاءٍ، لن يكون مجرّد ضمانٍ لبتوليّتها، بل سيكون، لكليهما، منبع سعادةٍ لا محدودةٍ، وشراكةً مثمرةً في حبّ اللّه، وخدمته.

وقد استعدّا لتأسيس شراكةٍ دائمةٍ، بالقليل من الكلام، والكثير من الصمت، وبالعودة المطّردة إلى الذي كان يجمعهما، والعارف، وحده، بسرّ نفسيهما. وكان قربهما، الواحد من الآخر، تتوثّق عراه، إثر كلّ صلاةٍ يرفعانها إِليه.

«إِفرحي يا ممتلئةً نعمةً... الربّ معك»

جبرائيل، ومعناه «قدرة اللّه»، مثُل أَمام الفتاة مريم، في ظلّ مخدعها، حيث كانت مستغرقةً في الصلاة والتأمّل. جاءها موفدًا من اللّه، وفاجأها بدعوةٍ إلى الفرح، وأَطلق عليها اسمًا جديدًا يفصح عن نظرة اللّه لها، وعمّا خصّها به دون سائر البشر: «افرحي، يا ممتلئةً نعمة»، وكأَنّ هذا هو اسمها عند اللّه.

منذ الأزل، كانت مريم في بال اللّه، الذي سيتّخذها أُمًّا لابنه حين سيحلّ ملء الزمان، ويحين آن التجسّد الإِلهيّ، من أَجل خلاص العالم.

بمناسبة إِعلان عقيدة الحبل بلا دنس، عام ١٨٥٤، قال البابا بيّوس التاسع: «منذ البدء، وقبل كلّ الدهور، اختار اللّه، لابنه الوحيد، الأُمّ التي، بتجسّده، سيولد منها، وأَعدّها لهذه الغاية. وقد أَحبّها، هي وحدها، أَكثر ممّا أَحبّ كلّ المخلوقات مجتمعةً، حبًّا من العظمة، بحيث أَسبغ عليها، على نحوٍ فريدٍ، أَسمى مزاياه. ولذلك غرف من كنوز أُلوهته، وغمرها غمرًا رائعًا، أَكثر، بلا قياسٍ، ممّا غمر الأَرواح الملائكيّة، وجميع قدّيسيه، بفيض عطاياه السماويّة، بحيث تكون منزّهة تمامًا، ودائمًا، من كلّ خطيئةٍ، كلّيّةَ الجمال والكمال، ممتلئةً براءةً وقداسةً، وبحيث لا يكون أَعظم منها سوى اللّه، ولا يستطيع سبر عظمتها سوى اللّه».

منذ الأَزل، إِذن، أَعدّ الخالق مريمَ لتكون أُمًّا بشريّةً لابنه. وكي يؤهّلها لهذه المهمّة، التي تجعل منها شريكة ابنها في الفداء، أَسبغ عليها من النعم والأَمجاد ما فاقت به جميع القدّيسين.

ومنذ القرون المسيحيّة الأولى، أَطلق الآباء الشرقيّون، بتجلّةٍ وحبٍّ، على مريم العذراء، وصف «الكلّيّة القداسة»، ممّا يعني، ضمنًا، نزاهتها من كلّ دنسٍ، ومن كلّ خطيئةٍ فعليّةٍ أو موروثةٍ.

وإِن هي كانت «ممتلئةً نعمةً» حين البشارة، وقبل أَن تصبح أُمّ اللّه، فكم بالحريّ

بعد أَن سكنت النعمة في أَحشائها، وامتلكت كلّ ذاتها! يقول القدّيس توما الأَكوينيّ: «بقدر ما يدنو إِنسانٌ من منبع النعمة يكون تلقّيه منه أَغزر. وليس من دنا، دنوّ مريم، من مبدإ كلّ نعمةٍ، أَي من يسوع المسيح».

«ممتلئةٌ نعمةً» هو اسمها إلى الأَبد، وعنوان عظمتها التي تتخطّى كلّ وصفٍ، عظمةٍ ربّما خفيت عن عيون الناس، ولكنّها تألّقت في نظر الله.

«ممتلئةٌ نعمةً»! إِنّه أَعظم مديحٍ قد يطلقه الله على إِحدى خلائقه. عليه بنت الكنيسة تكريمها للعذراء، وعقيدة الحبل بلا دنسٍ.

النعمة هي المشاركة في الطبيعة الإِلهيّة. هي هبةٌ من الله تتخطّى المتوقّع، بل هي هبة الله لذاته مجّانًا. هي لقاءٌ، وجهًا لوجهٍ، بين الله والإِنسان. يقول الكردينال رتسنغر، في هذا الشأن: «ليست النعمة شيئًا يأتي من الله، بل هي الله نفسه». ملأها الله نعمةً أي منحها ذاته، واستجابت، هي، كلّيّةً، لهذا العطاء. بالإِيمان استسلمت بلا تحفّظٍ، وبصفة أَمَة الربّ أَسلمت ذاتها كاملةً لشخص ابنها ولعمله. ملء النعمة، إِذن، هو جاهزيّة الأَمَة الكاملة لمشيئة الربّ، هبة ذاتٍ متبادلةٌ بين الله والعذراء، بواسطة الروح القدس، مثلما يهب الآب الابن أَحدهما الآخر، أَبديًّا، من خلال روحهما القدُّوس.

النعمة هي ثمرة حبّ الله لخليقته التي يدعوها، على هذه الأَرض، إلى المشاركة في حياته الحميمة، إلى أَن تبلغ ازدهارها في الآخرة.

وقد كانت لمريم علاقةٌ مميّزةٌ مع النعمة، وكأَنّ الروح القدس قد تعهّدها وبات يرشد كلّ أَعمالها، وطاقاتها، وملكاتها: فهمها، وإِرادتها، وذاكرتها، وخيالها، ومشاعرها.

وبسبب علاقتها الحميمة والفريدة بيسوع، امتلأت العذراء نعمةً. أُمومتها لله هي مهمّتها الخاصّة، وعلّة وجودها، فكان لا بدّ من أَن تزدان بأَعظم قداسةٍ قد تبلغها خليقةٌ. إِذ يستحيل أَن تكون فيها خطيئةٌ من شأنها تعكير نقاء ابنها.

فضائلها تفوق فضائل جميع المختارين، لا عددًا، بل كثافة اتّحادٍ بالله، وكثافة حبٍّ. وبما أَنّ هذه الفضائل اقتضتها الأُمومة الإِلهيّة، فقد كانت فائقةً في جودتها وديناميّتها. وهذا ما جعل القدّيس يوحنّا الدمشقيّ يهتف مخاطبًا العذراء: «يا من عذوبتها تفوق كلّ عذوبةٍ، ونبلها يفوق كلّ نبلٍ، وغناها الروحيّ يفوق كلّ كنزٍ!»

ويقول القدّيس أَفرام السريانيّ مخاطبًا الربّ: «أَنت، يا ربّ، وأُمّك، الكائنان الوحيدان الكاملا الجمال بكلّ أشكاله. فأَنت لا عيب فيك. وأُمّك لا لوثة فيها. وما أَبعد سائر البشر عن هذا الجمال!»

وقال أَلبير الكبير: «إِنّها ممتلئةٌ نعمةً لأَنّها نالت القسط الأَقصى من المواهب العامّة والخاصّة... لأَنّها نالت نعمًا لا يسع أَيًّا سواها أَن ينالها مثل أُمومة الله، والحبل البتوليّ، والعصمة من كلّ خطيئةٍ، بل الانعتاق من كلّ ميلٍ إلى الخطيئة...ولأَنّ نعمها كانت من الكمال بحيث لا يسع أَيّة خليقةٍ طاهرةٍ أَن تظفر بمثلها...»

ويقول القدّيس توما الأَكوينيّ: «قد يمتاز سائر القدّيسين بفضائل خاصّةٍ، فيمتاز هذا بتواضعه، وذاك بعفّته، هذا بعطفه، وذاك بتوبته... أَمّا مريم فنجد لديها النموذج الأَمثل والأَكمل للفضائل جميعها، بلا استثناءٍ.

«من جانبٍ آخر، كانت مريم ممتلئةً نعمةً، لأَنّ النعمة، لديها، انعكست من نفسها على جسدها. حَسْبُ القدّيسين أَن يمتلكوا من النعم ما يكفي لتقديس نفوسهم. أَمّا نفس القدّوسة مريم، فقد كانت النعمة، فيها، من الغزارة بحيث انعكست على جسدها في فيضٍ جعلها تحمل ابن الله...

«وأَخيرًا، إِنّ ما هو، فيها، جديرٌ بالإِعجاب، هو أَنّ امتلاءها يفيض على البشر أَجمعين. لا غرابة إِن عجبنا من رؤية قدّيسٍ يمتلك من النعمة ما يمكّنه من تقديس نفوسٍ عديدةٍ. بيد أَنّ الامتياز العظيم، المنقطع النظير، هو أَن يكون ممتلئًا نعمةً بما يكفي لخلاص البشر أَجمعين. وهذا ما نجده لدى المسيح، ولدى أُمّه الإِلهيّة».

لم تصبح مريم أُمّ يسوع الإِنسان فحسبُ، بل أُمّ يسوع الإِنسان والإِله معًا. فأُمومتها تبلغ تخوم الأُلوهة.

وقد كتب القدّيس بونافنتورا: «بوسع الله خلق عالمٍ أَكبر، ولكنّه لا يستطيع صنع أُمٍّ أَكمل من أُمّ الله».

عندما سمّاها الملاك «ممتلئةً نعمةً»، كان يصف حالةً راهنةً، ويؤكّد أَنّ لديها من النعمة المقدّسة، ومن المحبّة، فوق ما للملائكة منهما، وما يؤهّلها لتكون، حقًّا، أَمّ الله. لقد زيّنها العليّ بنعم الروح والجسد، وبكمال الفهم والإِرادة، ورفاهة الإِحساس، ما جعل منها تحفته. لقد صانها من الخطيئة الأَصليّة، منذ لحظة الحبل

بها، ومن عواقبها الوبيلة، من الشهوة، والنزوع إلى الضلال. ولم يكن جسدها عبئًا يرهق نفسها، بل كان خاضعًا لها خضوعًا تامًّا.

وقد تميّزت العذراء بفيض امتلاءٍ جعل منها نهرًا روحيًّا، ما انفكّ، منذ أَلفيْ سنةٍ يسكب خيراته على البشر.

كانت مريم طليعة من افتداهم ابنها، فأسبغ عليها، منذ تكوينها، ثمار الصليب الفادي، ونمّاها في مطلق الحبّ الإلهيّ، وبالتالي لم يعد سبيلٌ لأفكار الشرّ، من أيّ نوعٍ، أَن تراودها، فلها كلّ شيءٍ هو جمالٌ، وحقيقةٌ، ورقّةٌ، وحبٌّ.

افتدى يسوع البشر من الخطيئة فداءً إنقاذيًّا بعد أَن ابتُلوا بلوثتها، ولكنّه أَنقذ منها أُمّه، وقائيًّا، قبل أَن تمسّها سهامها، لكي لا يشوب سنى جمالها أَيُّ كدرٍ، فتكون، أَبدًا، كلّيّة الجمال والقداسة، على غرار أَبيه السماويّ، الذي أَصبحت له مريم مرآةً.

وقد شاءَها الله على صورته، لأَنها ستكون أُمّ خليقةٍ جديدةٍ. أَرادها خلقًا جديدًا ناصعًا، فأَقام تناغمًا بين كلّ طاقاتها. فحملت نفسها وجسدها كلّ علامات رحمة الله. فإِذا بها تحفة هذه الرحمة، وكلّ شيءٍ فيها طاهرٌ يعكس سنى مصدره.

ومن ثمّ لم يكن، في مشاعرها، ما يمكن أَن يكون مشوّشًا، وأَن يضلّل حكمها وإِرادتها. بل كانت مشاعرها دائمًا خاضعةً لعقلها وإِرادتها، ولمشيئة الله. كانت في حالة براءةٍ مطلقةٍ دائمةٍ، وعذراء العذارى.

لم تنزلق، قطّ، إلى الخطأ أو الوهم. وكان حكمها دائمًا نيّرًا وسديدًا. لذلك سمّيت كرسيّ الحكمة، وملكة المعلّمين، والعذراء الكلّيّة الفطنة، وأُمّ المشورة الصالحة. ويُجمع اللاهوتيّون على أَنّ الطبيعة كانت تحدّثها عن الخالق خيرًا ممّا تحدّث أَعظم الشعراء، وأَنّها امتلكت، منذ هذه الدنيا، معرفةً ساميةً فائقة البساطة، بكلّ ما يتعلّق بالمسيح، والتجسّد والفداء.

ولم تكن النعمة لديها مجرّد حائلٍ دون ارتكاب الخطيئة فحسبُ، بل كانت، أَيضًا، دافعًا قويًّا إلى المحبّة، والخدمة، والجاهزيّة لمشيئة الله، وهذا ما عبّر عنه الكردينال رتسنغر (البابا الحاليّ بنيدكتُس السادس عشر) بقوله: «الممتلئة نعمةً»، يعني أَنّ مريم جاهزةٌ كلّيّةً، ومنفتحةٌ بجرأةٍ، بلا حدودٍ ولا خشيةٍ، كي تودع مصيرها بين يدي الله. أَي إِنّها تحيا على علاقةٍ وثيقةٍ معه. إِنّها كائنٌ يصغي ويصلّي. مشاعرها

ونفسها متيقّظةٌ لتلقّي نداءات الله الخافتة. إنّها كائنٌ يحبّ حبًّا صادقًا، كثيفًا، سخيًّا، وينعم بقدرةٍ لا تفتر على تمييز ما ينطوي عليه الحبّ من ألمٍ، وبجاهزيّةٍ تامّةٍ».

ولا ريب أنّ تنزّهها من الخطيئة قد جعل خطايا البشر أوجع إيلامًا لنفسها النقيّة، إذ رأت فيها الشرّ الأدهى. تألّمها من الخطيئة كان بمقياس حبّها لله الذي تهينه الخطيئة، وبمقياس حبّها لابنها الذي تصلبه الخطيئة، وبمقياس حبّها لنفوسنا التي تدمّرها وتقتلها الخطيئة. وهكذا، لم تعفِها من الآلام عصمتُها من الخطيئة، بل ضاعفتها، ولكنّها هيّأتها لاحتمالها، كي تضمّها إلى آلام ابنها من أجل خلاصنا.

وقد عُصمت مريم العذراء، دون سائر البشر، ودون القدّيسين أنفسهم من الهنات والهفوات الصغيرة. فالقدّيس توما الأكوينيّ يقول: «من يختارهم الله نفسه، من أجل غايةٍ معيّنةٍ، يُعدّهم ويُجهّزهم بحيث يكونون مؤهّلين لما اختيروا من أجله. وشرفُ ابن الله كان يقتضي أن تكون له أُمٌّ بلا عيبٍ. ومن ثمّ كان يتعذّر أن يكون في العذراء خطيئةٌ أو عيبٌ. وهذه الوقاية من الخطأ لم تحدّ من حريّة مريم، بل مكّنتها من ملء الحرّيّة في عمل الخير، بمنأًى عن أيّ انحرافٍ نحو الشرّ، مثلما كان فكرها معصومًا من الانحراف نحو الضلال».

وصفوة القول أنّ مريم هي العذراء الكاملة، والمرأة الكاملة، «ملء العذراء، وملء المرأة». معها ارتدى معنى العذراء، والزوجة، والأُمّ، وجهًا آخر.

ويجدر التنويه بأنّ الملائكة لم تعتدْ إظهار احترامٍ للبشر، فهي تفوقهم، بصفتها أرواحًا خالصةً، تحيا حياةً فائقة الطبيعة، في أُلفةٍ مقدّسةٍ مع الله. غير أنّ جبرائيل، عندما وافى مريم مبشّرًا، أبدى لها احترامًا وإجلالاً، إذ أدرك أنّها تفوقه امتلاءً نعمةً، وعلاقةً حميمةً مع العليّ، وطهرًا كاملاً.

امتلأت نعمةً، فمارست كلّ الفضائل أكمل ممارسةٍ. وفاض الامتلاء من نفسها على جسدها الذي سيحضن ابن الله المتجسّد، وسيتدفّق على جميع البشر نِعَمًا، ويساعدهم على التمثّل بفضائلها.

لقد امتلأت نعمةً، فهل ما يضاف إلى الامتلاء؟!

وأعقب الملاك قوله: «يا ممتلئةً نعمةً»، بتأكيدٍ يتمنّى كلّ إنسانٍ سماعه: «الربّ

معك». وكم نحن نحتاج إلى الشعور بوجود اللّه معنا، ولا سيّما عندما يتعيّن علينا اتّخاذ قرارتٍ مصيريّةٍ حاسمةٍ!

لقد كان اللّه معها قبل التجسّد، ولكنّه بات معها على نحوٍ فريدٍ، بعد التجسّد. فابن اللّه قد أَمسى ابنها، والجالس على يمين الآب بات يقيم فيها جسديًّا، والذي في حضن الآب استقرّ في حشاها البتوليّ.

لقد تخطّت مريم الملائكة في أُلفتها مع اللّه. وقول جبرائيل لها: «الربّ معك» يبدو وكأنّه اعترافٌ من الملاك: أنتِ أَوثق صلةً باللّه منّي، فهو سيصبح ابنك، وما أَنا سوى خادمه. فبصفتها أُمّ اللّه، هي أَوثق علاقةً حميمةً من الملائكة بالآب، والابن والروح القدس.

«الربّ معك» لأَنّه يكلّفك بمهمّةٍ جسيمةٍ. فهذه العبارة لم توجّه سابقًا إلاّ للّذين كلّفهم العليّ بمهامّ خطيرةٍ، كي يؤكّد لهم وقوفه إلى جانبهم ومساندته لهم.

وهو حاضرٌ مع مريم حضورًا خاصًّا يتلاءم والمهمّة الفذّة التي أَسندها إِليها.

إِنّ اللّه مع جميع القدّيسين، ولكنّه مع مريم على نحوٍ خاصٍّ. وعلاقته بها من المنعة بحيث إِنّه لم يتّحد بإِرادتها فقط، بل، أَيضًا، بجسدها.

«لا تخافي يا مريم»

اضطربت مريم لدى سماعها الملاك. زكريّا، أَيضًا، كان قد ارتعد بسبب الظهور الإِلهيّ الذي فوجئ به لدى رؤيته ملاكًا إِلى جانبه، وكانت رعدته نتيجة اللاتناسب بين وضاعته، وجلالة الحضور الإِلهيّ. أَمّا مريم فقد أَلِفت العيش في ظلّ الحضور الإِلهيّ، فلم تنتَبْها الرعدة ذاتها. بل كان اضطرابها حيرةً فكريّةً أَثارتها فحوى الرسالة التي جاءها بها الملاك، وأُسلوبه في تحيّتها. فهو قد خاطبها باحترامٍ جمٍّ، وأَطلق عليها اسمًا جديدًا يوحي بامتلاكها فضائل فائقةً، لم تكن تعدّ نفسها جديرةً بها. وكان اضطرابها يحاكي احمرار خجل من يُمتدح بما يظنّ نفسه غير جديرٍ به، ويسبر اتّساع الشقّة بين رؤيته لنفسه، والعبارات التي يوصف بها. تواضعها السحيق هذا دليل عظمتها الفريدة.

ويرى بعضهم أَن اضطرابها ربّما نجم عن خشيتها من خدعةٍ شيطانيّةٍ لحملها على الحنث بنذرها البتوليّة.

وسارع موفد اللّه إِلى تهدئة روعها، فسمّاها، أَخيرًا باسمها، وقال: «**لا تخافي يا مريم، فلقد نلتِ حُظوةً عند اللّه؛ وها أَنتِ تحبَلينَ، وتلدين ابنًا، وتسمّينه يسوع. إِنّه يكون عظيمًا، وابن العليّ يُدعى. وسيعطيه الربّ الإِله عرش داود أَبيه؛ ويملك على بيت يعقوب إِلى الدهر، ولن يكون لملكه انقضاءٌ**». (لوقا١ : ٣٠-٣٣)

من العبارات التي استخدمها الملاك، والمشبعة بالإِشارات الكتابيّة، لم يكن عسيرًا على مريم فهم أَنّ المقصود هو المسيح المخلّص الذي طالما انتظرته الأَجيال بلهفةٍ، وأَنّها، هي الفتاة الفقيرة المغمورة، قد اختيرت، بين كلّ نساء الدنيا، لتكون أُمّه، وتهبه للعالم.

لكن، دون تحقيق ذلك كان عائقٌ خطيرٌ، عبّر عنه بوسُّويه بوضعه على شفتي مريم هذا القول: «سيكون لي، حقًّا، مجدٌ عظيمٌ بأَن أَحمل ابن العليّ، ولكن، أَيّتها البتوليّة المقدّسة، ماذا سيحلّ بك؟ فأَنا آبى فقدانك!»

كان أَزهى حلمٍ يُراود خيال فتاةٍ يهوديّةٍ هو أَن تحمل المخلّص، ولكنّ هذا الحلم لم يساور مريم، قطّ، لأَنّها زهدت به طوعًا واختيارًا. عظيمةً كانت البشرى التي جاءها بها الملاك، ولكنّها لم تُفقدها اتّزانها، ولا أَنستها نذر البتوليّة الذي التزمت به منذ طفولتها. كانت قد نذرتها بإِلهامٍ إِلهيٍّ، والله لا يناقض ذاته، فإِن هو طلب منها أَن تكون أُمًّا لابنه، فمن غير المعقول أَن يطالبها بالحنث بنذرها. ولذلك عوّلت على الله كي يحلّ عقدة هذه المفارقة، واستفسرت: «كيف يكون هذا، وأَنا لا أَعرف رجلاً؟» وعازمةٌ على أَلاّ أَعرف رجلاً، يومًا. قولها: «لا أَعرف رجلاً» هو في صيغة الحاضر، ولكنّه ليس حاضرًا مؤقّتًا قابلاً للتغيير السريع، بل هو حاضرٌ دائمٌ غير قابلٍ للتعديل، مثل قول: «أَنا لا أُدخّن»، أو «لا أَتناول لحمًا».

فعندما بُشّرت مريم، كانت مخطوبةً، ولو هي كانت عازمةً على إِتمام زواجها من يوسف وإِقامة علاقاتٍ جنسيّةٍ معه، لما تساءلت: «وكيف يكون هذا؟» فمن الطبيعيّ أَن تحمل المرأة المتزوّجة وتلد. تساؤلها، إِذن، يؤكّد أَنّها كانت ملتزمةً بنذر بتوليّةٍ دائمةٍ، رغم خطوبتها.

وكم كان هذا التأكيد عذبًا على قلب الله!

موقف مريم الواعي هذا، وهي الفتاة التي لم تتخطّ الرابعة عشرة من عمرها ينمّ عن نضجٍ نفسيٍّ وعقليٍّ مبكّرٍ، وعن استقرارٍ عاطفيٍّ يفوقان سنّها. منذ الوهلة الأُولى تبدو لنا مريم فتاةً ذكيّةً، متواضعةً، يحدوها روح الحكمة.

كان من الطبيعيّ أَن تضطرب فتاةٌ بريئةٌ أَمام خوارق على مثل هذا القسط من السموّ والإِعجاز. ومع ذلك يدهشنا سكونها، وسجوّ نفسها، واستفسارها. وما كلّ ذلك إِلاّ نتيجة عصمتها من كلّ أَثرٍ للخطيئة الموروثة، فالخطيئة هي التي تُشيع الاضطراب، والأَنانيّة هي التي تُفسد سداد الحكم. ومن المحقّق، أَيضًا، أَنّ اتّزانها نابعٌ من انغماسها في سرّ الله، فلا ننسينّ أَنّها فتاةٌ صغيرةٌ، وحيدةٌ، ليس إِلى جانبها من تستطيع استشارته، ومن هو كفيلٌ بإِرشادها ومساندتها. ولكنّ الله كان معها. وإِن هي كانت ما برحت طفلةً، فلم يكن لها من الطفولة سوى براءتها، ولم يكن لها جهلها وطيشها. وكانت عذراء، ولكنّ الله شاء أَن يجعل بتوليّتها خصبةً.

نذرها البتوليّة كان نزعةً علويّةً، حبًّا مطلقًا يفوق كلّ تفسيرٍ. إِنّه إِلهيّ الإِلهام،

وبالتالي منزّهٌ من كلّ خوفٍ. الربّ أَرادها لنفسه، وهي أَرادت أَن يكون كلّ كيانها اندفاع حبٍّ نحو الله.

ولا مراء أَنّ نذر مريم البتوليّة كان أَحد عوامل التجسّد. فقد قال القدّيس توما الأَكوينيّ: «لكي يُعَدّ جسد المسيح، جسدًا بشريًّا، حقًّا، وُلد من امرأة، ولكي لا تشوب أُلوهته أَيّة شبهةٍ، وُلد من عذراء». فلم يكن بوسع الكلّيّ الطهر إِلاّ أَن يولد من أُمٍّ لا لوثة فيها. وهذا ما أَكّده القدّيس يوحنّا الدمشقيّ بقوله:

«اختار الربّ مريم كي تكون أُمّه على الأَرض، لأَنّه لم يجد عذراء أَوفر قداسةً وكمالاً، ولا مكانًا جديرًا بأَن يكون له مسكنًا خيرًا من أَحشائها الطاهرة».

وما أُمومة مريم الإِلهيّة سوى تحقيق بتوليّتها، وتتويج حبٍّ كان، في أَصله، تجرّدًا كاملاً، وزنبقة فقرٍ.

لولا بتوليّة مريم، لما كان التجسّد بكلّ روعته وخصبه. وفي هذا السياق يقول القدّيس أوغسطينُس: «إِن كان على الله أَن يولد، فلا يسعه أَن يولد إِلاّ من عذراء. وإِن كان على عذراء أَن تلد فلا يسعها أَن تلد سوى الله».

أُمٌّ وعذراء صفتان تتنابذان وجدتا في مريم تناغمًا رائعًا مدهشًا!

وإِن كان ابن الله قد تجسّد كي يولد البشر ولادةً ثانيةً بصفة أَبناء الله، لا بمشيئة جسدٍ، ولا بإِرادة بشرٍ، بل بقدرة الله، أَلم يكن على ولادته أَن تكون لهذه الولادة الجديدة مثالاً ونموذجًا؟ هذا ما عناه ترتلّيانُس بقوله: «كان على من جاء كي يكرّس ولادةً جديدةً، أَن يولد بطريقةٍ جديدةٍ».

ويقول «تيار دي شاردان»: «كان الله في حاجةٍ إِلى أُمٍّ تنجبه في المدارات البشريّة، فخلق مريم العذراء، أَي إِنّه أَظهر، على الأَرض، طهرًا من العظمة بحيث تركّزَ فيه بهذه الشفافيّة، حتّى بدا طفلاً صغيرًا. تلك هي قدرة الطهر على ولادة الإِلهيّ في ما بيننا، معبّرًا عنها بقوّتها وواقعيّتها. والكنيسة تضيف: «طوبى للتي آمنت»، فبالإِيمان يبلغ الطهر اكتمال خصبه».

كان الله قد أَلهم مريم أَن تضحّي بالأُمومة، لكي تكون بكلّيّتها له، ولكنّه مثلما كان قد طلب من إِبراهيم أَن يضحّي بوحيده إِسحق، ولكن لمّا تبيّن إِيمانه وطاعته أَعفاه من تلك التضحية كي يجعل منه أَبًا لشعوبٍ كثيرةٍ. كذلك قدّر الربّ تضحية

مريم، ووفاءَها لنذر بتوليّتها، فجعلها أُمًّا لابنه المتجسّد، مع حفاظها على بتوليّتها، وأُمًّا لجميع المسيحيّين، على مدى الأَجيال.

حيال براءة مريم الفائقة، وحرصها على بتوليّتها، سارع الملاك إلى طمأنتها قائلاً: «**هو الروح القدس يحلّ عليك، وقدرة العليّ تظلّلك. لذلك، فالمولود منك قدّوسٌ وابن العليّ يُدعى**» (لوقا ١:٣٥). ولكي يزيدها اطمئنانًا، أَضاف: «**وها هي نسيبتك إِليصابات قد حبلت، هي أَيضًا، في شيخوختها. وهذا الشهر هو السادس لتلك التي كانت تُدعى عاقرًا. فإِنّه ليس على اللّه أَمرٌ عسيرٌ**». (لوقا ١:٣٦–٣٧)

الروح الذي حلّ على مريم هو الروح الخالق الذي أَبدع الخليقة الأولى، والذي كان عليه إِبداع الخليقة الجديدة.

في قول الملاك «**قدرة العليّ تظلّلك**» إِشارةٌ إلى الغمامة التي كانت ترافق تابوت العهد وتظلّله، أَينما مضى، مشيرةً إلى وجود اللّه. وهذا يعني أَنّ تلك الفتاة المختارة قد باتت هي هيكل اللّه الحيّ.

في يوم البشارة ذاك، هجر اللّه هيكل أورشليم لكي يتّخذ له مسكنًا تواضعَ أَمَته مريم، في الناصرة... وغدا مسكن اللّه كونيًّا، فقد ضرب خيمته، وأَقام محرابه وسط جميع أُمم الأَرض. وسيكون بوسع يسوع أَن يقول، لاحقًا، للسامريّة، إِنّ الساعة حانت حيث العابدون الحقيقيّون لن يعبدوا اللّه لا في جرزّيم، ولا في أورشليم، بل سيعبدونه في الروح والحقّ.

وأَكّد الملاك، أَيضًا، أَنّ اللّه سيُجري معجزةً تحلّ عقدة حيرة مريم، فتحمل، وتلد، بتدخّلٍ إِلهيٍّ خارقٍ، وبكارتها مصانةٌ. ستظلّ عذراء، ولن تحنث بنذرها، وفي الآن عينه ستصبح أُمًّا، بل أُمًّا لابن العليّ، لأَنّها عذراء. بكارتها لن تحول دون أُمومتها الإِلهيّة، وأُمومتها لن تدمّر بكارتها. «بقدر ما هي أُمٌّ هي أَكثر بتوليّةً، وبقدر ما هي بتولٌ هي أَكثر أُمومةً» على حدّ قول القدّيس إِيلديفونس.

الابن الذي ستحمله وتلده مريم هو عينه ابن اللّه. وذاك الذي سيولد منها جسديًّا، هو الذي يولد من اللّه إِلهيًّا وأَبديًّا. وبقدر ما ستكون الولادة بالجسد روحيّةً ستحاكي الولادة الإِلهيّة الأَبديّة.

كانت مريم مدعوّةً لأَن تتقبّل، بشريًّا، من الآب، الابن الوحيد الذي ولده هو

إلهيًّا. وسيكون للآب ولمريم الابن عينه، إلهيًّا للآب، وبشريًّا للأُمّ. منذ البدء خلق اللّه الكون بكلمته، وبنفحة الروح القدس. وها هو يعيد خلق العالم بزرع كلمته في أَحشاء مريم، وبنفحة الروح القدس.

الروح القدس هو نفحة الحبّ التي يلد بها الآب، أبديًّا، ابنه الوحيد. إنّه عامل الإخصاب. وعندما يقرّر الآب إرسال ابنه لتنفيذ مخطّط الحبّ الذي يحضنه الثالوث المقدّس، منذ الأزل، حيال البشريّة، لا يسعه أَن يرسل سوى حنانه، ونفحة حبّه. وحبّ اللّه رقّةٌ وقوّةٌ. الروح هو حنان الآب الذي يغمر الابن، وجميع الذين، بفضل سرّ التجسّد الفادي، يرغبون في دخول محراب حبّه الإلهيّ.

هذا الحنان هو الذي غمر العذراء، وحقّق ولادة ابن اللّه: «**لذلك، فالمولود منك قدّوسٌ، وابن العليّ يُدعى**». وأيّة أَواصر وثيقةٍ تربط الحبّ بأُمّ الحبّ الجميل!

بالبشارة، استشفّت مريم سرّ الثالوث: آب يلد الابن، لا تحت ضغط حاجةٍ طبيعيّةٍ تبتغي الانتشار وتحطيم القيود، بل بدافع فيض نورٍ وحياةٍ. وهذا الكلمة المضيء والحيويّ يظلّ أبديًّا في حضن الآب. ولكنّ النور والحياة، في اللّه، يتماهيان مع الحبّ. وهذه الولادة يلهمها الحبّ، وتكتمل بالحبّ، في هبة حبٍّ تكون أُقنومًا ثالثًا: روح اللّه.

وبالبشارة تلج العذراء إلى صميم ولادة الابن أبديًّا من الآب. ولكنّها لا تعرفها في النور والحياة، بل في الفقر، وتواضع الحبّ، حبًّا تصاغر وتجسّد في حشاها.

الابن هو، في آنٍ واحدٍ، ابن جسدها، وابن حبّها، وثمرة إيمانها ورجائها. وبإدراكها أَنّ سرّ الحبّ اللامحدود هو فوق كلّ نورٍ مخلوقٍ، وكلّ حياةٍ مخلوقةٍ، وبأَنّ الحبّ، وحده، على هذه الأَرض، كفيلٌ بأن يزوّدنا بمعرفةٍ صوفيّةٍ للّه، اكتشفت مريم، في عتمة الإيمان وفقره، في التواضع، والصبر، والرجاء، أَنّ في اللّه نورًا جوهريًّا، وحياةً جوهريّةً، تتماهيان مع الحبّ.

البشارة مكافأةٌ لحبّ مريم البتوليّ، وتثبيتٌ له في فقر الروح، وفي التواضع الداخليّ، وفي حياة الحبّ، التي هي، في آنٍ واحدٍ، حياة إيمانٍ ورجاءٍ.

لقد أَنفذ اللّه إلى مريم رسولاً لكي لا يفرض ذاته مباشرةً على إرادتها، مثلما يوفد طالب زواجٍ رسولاً يستجلي رأي فتاةٍ. وبسط الموفد عرض مرسله، وانتظر الردّ.

وكانت لحظةٌ فريدةٌ انتظرها الكون لاهثًا، خير من عبّر عنها القدّيس بيرنار الذي خاطب العذراء: «العالم كلّه ينتظر ساجدًا عند قدميكِ، وهو، في ذلك مصيبٌ. فعلى لفظةٍ من فيكِ يعتمد عزاء المحزونين، وعتق المسجونين، وتحرّر المدانين، وأخيرًا خلاص جميع بني آدم، وذرّيّتكِ كلّها. فأيّتها العذراء، أسرعي في الإجابة. تفوّهي بكلمةٍ واحدةٍ تنالي الكلمة الإلهيّة، تلفّظي بكلمةٍ عابرةٍ، تمتلكي الكلمة الأبديّة. أنتِ المتواضعة، تعلّمي أن تكوني جريئةً. أنتِ المتحفّظة لا تخافي. لا يُطلب من بساطتك البتوليّة التخلّي عن حَذَرها المألوف، ولكن، هذه هي المناسبة التي ينبغي ألاّ تخشي فيها أن تكوني فخورةً. كان الخَفَر يوحي إليك بصمتٍ مشكورٍ. ولكن، الآن، لا بدّ من أن تدفعك التقوى إلى التكلّم».

وقال أحد الصوفيّين: «أيّتها العذراء الطوباويّة، افتحي قلبك للإيمان، وشفتيك للموافقة، وأحشاءك للخالق. ها إنّ من تاقت إليه جميع الأُمم، ههنا يقرع بابكِ. فهبّي، واركضي، وافتحي. هبّي بالإيمان، واركضي بالورع، وافتحي بالموافقة».

واللاهوتيّ البروتستنتيّ «كارل بارث» صوّر تلك اللحظة الفريدة بقوله: «جميع ملائكة السماء لا ينظرون الآن، إلاّ إلى ذلك المكان الذي تقيم فيه مريم، التي لم يحدث لها سوى مجرّد نظرةٍ من الله ألقاها على وضاعتها. هذه اللحظة الخاطفة مليئةٌ بالأبديّة، أبديّةٍ دائمة الجدّة. لا شيء أعظم في السماء أو على الأرض. ولئن تحقّق، يومًا، في تاريخ العالم، أمرٌ جوهريٌّ، فهو هذه النظرة».

مدى لحظاتٍ، كان الله أسير قرار تلك الفتاة العذراء، مثلما هي كانت أسيرة مشيئته. هذا الأسر المتبادل هو جوهر الحبّ. وأروع تعبيرٍ عن تلك الحالة كان وصف العذراء مريم لذاتها بأنّها أمَة الربّ، الخاضعة لقوله، المنفِّذة لإرادته.

وقد وصف «جان غيتّون»، في أسطرٍ رائعةٍ، تلك اللحظة، فإذا بها لحظة «صمتٍ سحيقٍ، لحظة رعدةٍ وخشوعٍ، وتجميع قوى النفس، لحظةٌ لم يكن لها، قطّ، نظيرٌ، لا على الأرض، ولا في السماوات. لم تكن لحظة تردّدٍ وارتيابٍ، بل لحظة اختيارٍ حرٍّ، اللحظة التي سبقت «نَعَم». كلّ شيءٍ يعتمد على هذه اللحظة، والتاريخ يلهث في إثرها. الوعود الإلهيّة منوطةٌ بها، وكذلك خلاص الأُمم. مليارات الحيوات معنيّةٌ بما سيحدث في تلك اللحظة الخاطفة.

«والثالوث ناشطٌ، فالآب سيظهر قدرته بخلقٍ جديدٍ، والابن سيولد ولادةً زمنيّةً هي صورةٌ لولادته الأزليّة، والروح القدس سيُخصب، ويحيط بالحبّ، ويتمّم عمل الآب، وحضور الابن. ثمّة كلمةٌ ينبغي أن تُقال، وأمرٌ ينبغي أن يصدر، ونفحة حبٍّ متأهّبةٌ للتوثّب. وعلى الأرض، مريم وحيدةٌ، نيّرة البصيرة، كاملة الوعي، ولا سيّما بعد أن ألقى الملاك النور على ما كان خفيًّا مُبْهَمًا. والثالوث بانتظار قرارها. فلا شيء يستحيل على قدرة الله الكلّيّة، سوى إرغام حرّيّة إنسانٍ.

«وتتوقّع العذراء، لما ستقول، نتائج جوهريّةً، لا محدودةً، ذات وجهيْن، وجه فرحٍ ومجدٍ، ووجه عناءٍ كثيفٍ، وافتداءٍ، وتعويضٍ عن كلّ شيءٍ. وما القبول بهذا الشرف إلاّ قبولٌ بعبء مسؤوليّته، عبء مصاعب مرهقةٍ...

«قول مريم: «فليكن لي بحسب قولك» يعني أنّ إرادتها تنصهر في مخطّط الله، مخطّط فرحٍ، اليوم، ومخطّط آلامٍ، غدًا. وفي الحال تمّ ما أراد الله. عرفت مريم، ذلك، وصمتت، وانصرف الملاك. ما من مشهدٍ أكثر إلهيّةً، وأكثر إنسانيّةً معًا. مشهدٌ يوحي بما يحدث، أحيانًا، في محراب نفوسنا».

«**أنا أَمَة الربّ**»، أي إنّي أَضع ذاتي في خدمته، ومستعدّةٌ لانتهاج أيّ دربٍ يدفعني إليه. قولها يدلّ على خضوعها، ولكنّه خضوعٌ حرٌّ، فهي لم تعلن موافقتها إلاّ بعد أن استجلت ما كان مستغلقًا على فهمها، وأزاحت ما كان يعرقل قرارها، وحينئذٍ فقط منحت الله كامل ذاتها، بملء إرادتها.

الأَمَة هي العبدة التي لا تملك من أمر نفسها شيئًا، بل إنّها هي وإرادتها رهن إرادة سيّدها وتصرّفه. لا حقوق لها، بل كلّ حقوقها هي ملك سيّدها. ولا مبادرة لها، فما عليها سوى تنفيذ قرارات سيّدها. إنّها أفقر الخلائق، ولذلك هي أكثر الخلائق حرّيّةً. هكذا ابتغت مريم أن تكون «أَمَةً» لمن رفعها وعظّمها، وجعلها أُمّه.

مريم هي التي تقول «نَعَم» لسيّدها، وتظلّ وفيّةً لنَعَمها حتّى اللحظة الأخيرة من عمرها، رغم عواقب قرارها غير المتوقّعة.

«**فليكن لي بحسب قولك**»؛ هذه الموافقة تنطوي على ما هو أوسع وأشمل من مجرّد أُمومة يسوع. فيها يخفق تكريسٌ كونيٌّ، واستسلامٌ بلا تحفّظٍ ولا حدودٍ، قبولٌ مسبّقٌ لكلّ ما لن تقوى على تغييره، والإفلات منه، كلّ الأحداث الموجعة التي

ستصادفها على امتداد حياتها، وكلّ ما يقرّره الآب، ولا تملك هي سوى الخضوع له.

بقولها «فليكن...» انضوت مريم إلى جماعة فقراء الله الذين لا يطالبون ولا يحتجّون، بل يستسلمون صامتين، ويودعون بين يدي الآب المحبّين والكلّيّتي القدرة، كلّ ثقتهم.

لقد كانت مريم، بموافقتها، المثال الأروع للإيمان الذي لا يخشى العواقب، إيمان «حجّاج المطلق»، الذين لا يتوانون عن القفز فوق الرأي العامّ السائد، وعن اقتحام أسرار الله الساحرة، التي لا يُسبَر لها غوْرٌ.

ويرى المفسّرون أنّ الصيغة اليونانيّة الإنجيليّة لقولها: «**ليكن لي بحسب قولك**» لا تعني مجرّد الموافقة، بل تتضمّن تمنّيًا بتحقيق هذا القول، ورغبةً فيه، والتماسًا له. ولذلك تحقّق في الحال.

من سياق بشارة الملاك، استشفّت مريم كلّ مسار حياتها على الأرض وفي الأبديّة، وحظوتها الفريدة بأن تكون أُمّ الله المخلّص. غير أنّ هذا المصير الفذّ لم يملأها زهوًا وعُجْبًا، بل أغرقها في لجّةٍ من الاتّضاع والخضوع، وكان اتّضاعها بقياس سخاء إلهها وسيّدها. فتلك التي أُنبِئت بأنّها ستصبح أُمّ الله، لم تتوانَ عن إعلان أنّها أَمَتُه.

أعملت مريم الفكر مليًّا، وكانت تعي كلّ ما سينجم عن موافقتها من مصيرٍ عاصفٍ مثقلٍ بالمخاطر، والتضحيات، والصعاب، ومن دماءٍ، ودموعٍ، واتّهاماتٍ ونمائم. فقد كان من شأن قبولها حمل ابن الله تعرّضها لأخطارٍ جمّةٍ وجسيمةٍ، ليست أقلّها تهمة الزنى، وعقوبتها الرجم. غير أنّها آثرت الاستشهاد على مخالفة مشيئة الله، ورفضِ عطيّته، بعد أن تيقّنت من أنّ بتوليّتها ستظلّ مصانةً. وفي أوفر الأحوال رفقًا ولطفًا كان قبولها يعني تضحيتها بحياة الخفية والسكينة التي كانت كَلِفَةً بها.

ففضلاً عن كونها ستصبح أُمّ الله، ستكون مريم أُمّ جميع من سينتزعهم ابنها من ربقة الخطيئة، والبؤس، والموت. ستكون أُمّ الخطأة، وأُمّ القدّيسين. وستكون مسؤولةً عن مجد الله، وعن مصير نفوسٍ لا تُحصى. ستنعم بكرامةٍ فريدةٍ، وستتحمّل تبعاتٍ خطيرةً، ومحَنًا لا توصف.

كلّ مخطّط الخلاص كرّ سريعًا، في ذهنها، وكان تحقيقه يعتمد على جوابها. فهل ستتخاذل وَجَلاً، أم ستُنشد جذلاً؟

ببساطةٍ مطلقةٍ، بسكونٍ، ورباطة جأشٍ، أَجابت: «**إنّي أَمَة الربّ، فليكن لي كما قلت**». بما أَنّ تلك هي مشيئة الربّ، فلتتحقّق!

القدّيس ألفونس دي ليغوري علّق على جواب مريم بقوله:

«يا له من جوابٍ رائعٍ! لا حكمة البشر، ولا حكمة الملائكة كان بوسعهما العثور على جوابٍ أَوفر روعةً، وتواضعًا، وفطنةً، حتّى لو أَعملوا الفكر، معًا، مدى ملايين السنوات.

«ويا لقوّة هذا الجواب الذي أَبهج السماء، وأَغرق الأَرض في بحرٍ لا حدود له من النعم والخيرات! فما كاد يتفجّر هذا الجواب من قلب مريم حتّى اجتذب ابن اللّه الوحيد من حضن الآب، إلى أَحشاء هذه العذراء الكلّيّة الطهر، وأَلبسه بشريّتنا!

«ويا لتواضع مريم السامي، الذي يجعلها صغيرةً في نظرها هي، وكبيرةً في نظر اللّه! وقد هتف القدّيس بيرنار، مخاطبًا العذراء: «كيف استطعتِ الجمع، في قلبك، بين هذا التواضع السحيق، وهذا القدر من الطهر، والبراءة، والامتلاء بالنعمة؟ وكيف، أَيّتها العذراء المغبوطة، ترسّخ فيكِ هذا التواضع السحيق، في حين كنتِ ترين اللّه يكرّمك ويرفعك!؟»

نقاء بتوليّة مريم لفت إِليها أَنظار الربّ، وعُمْقُ تواضعها أَهّلها – بقدر ما يمكن أَن يكون إِنسانٌ مؤهّلاً – لتصبح أُمّ خالقها. وبذلك رفعها اللّه إلى أَسمى ما يمكن لمخلوقٍ أَن يرقى إِليه.

كان من شأن أَيّة فتاةٍ أُخرى أَن تنهار أَمام انقلابٍ مصيريٍّ على ذلك القسط من الخطورة. ولكنّ مريم ظلّت ساكنةً، ساجية النفس. لم تفقد روعها، ولم تصرخ، ولم تسعَ إلى استشارة كبيرٍ – أَليس «الأَكبر» معها؟ ـ لم تنهرْ، ولكن لم يأخذ بها، من عظمة حظوتها، الزهو والخيلاء، ولم تجزع من اتّساع البوْن بين فقر الواقع، وسنى الوعد.

وإِنّه ليتملّكنا الذهول أَمام عمق تواضعها، ونضوجها الفذّ، وبساطة بداهتها واستيعابها السرّ في وحدةٍ رهيبةٍ. ومع ذلك، هي على وعيٍ تامٍّ لجلالة الموقف

ولعواقب قرارها. وفي دنيا من السلام والسجوّ، وبلا سندٍ بشريٍّ، خرجت من ذاتها، وقفزت القفزة الكبرى. وثقت واستسلمت، مع أَنّ ما عُرض عليها فريدٌ في التاريخ، وعلى جانبٍ كبيرٍ من الغرابة، ولا سابق له.

كان عليها أَن تقفز في عتمة ليل الإيمان، واثقةً باللّه. وقد فعلت ذلك بعظَمَةٍ مذهلةٍ. لا شيء فيها كان يشير إلى التردّد أو الخوف. وما إن استجلت ما كان يعيق قرارها، حتّى ملأ القبول نفسها، ولم تراودها، لحظةً، فكرة الرفض. ولم تسترسل في التذرّع بعدم استئهالها الحظوة التي خُصّت بها، فهذه المجاملات غالبًا ما تموّه رياءً، وكبرياء مقنّعةً، فهي تحترم مشيئة اللّه، وتؤمن بحكمته الكلّيّة. حينها بلغ الرجاء لديها قمّةً لم يلامسْها أَحدٌ سواها: كيانها كلّه كان ذائبًا في مشيئة اللّه. فهي، منذ طفولتها، كانت قد وطّنت النفس على أَلاّ يكون لها أَبٌ سوى اللّه، وقد أَودعت، بين يديه، إِرادتها ومصيرها.

بقبولها أَن تصبح أُمّ اللّه، وبارتضائها تحمّل التضحيات الجسام التي ستُقتضى منها بصفتها أُمّ المخلّص، شاركت مريم ابنها فداء البشر، فأَمست أَعظم مخلوقٍ على الأَرض، وشريكةً في الفداء ساميةً ونبيلةً لأَنّها خضعت، بلا تحفّظٍ، لمشيئة الآب.

يسوع كان مدركًا أَنّ طاعته لمشيئة الآب ستُفضي به إلى الصليب. وكذلك كانت مريم مدركةً أَنّ استسلامها لمشيئة اللّه، سيكون، في معظم جوانبه، درب صليب.

وقد تمّت موافقتها نيابةً عن كلّ الجنس البشريّ، إِذ كان لا بدّ من أَن يلقى حبّ اللّه تجاوبًا بشريًّا. ولكنّ البشر، الخاضعين لنير إِبليس، كانوا عاجزين عن فهم نشدان اللّه لحبّهم، بالتالي عاجزين عن تلبيته. وكان لا مناص من أَن يختار اللّه، بين البشر، كائنًا يُعِدّه إِعدادًا فائقًا ولائقًا، كفيلاً بالاستجابة لمخطّط الخلاص، وبتحمّل كلّ تبعاته.

واختيرت مريم لهذه المهمّة، فأَدخلت البشريّة كلّها في مخطّط الخلاص. استجابت لمرامي اللّه، إِذ إِنّه سبق فانتزع نفسها من ربقة إِبليس، وزيّنها بملء النعم، إِكرامًا لابنه الذي سيولد منها. ولم توافق العذراء على مخطّط اللّه «باسم البشر»، أَي بالاتّفاق معهم، بل نيابةً عنهم، أَي بالاتّفاق مع اللّه، من أَجلهم.

وهي، في كلّ ذلك، «قد شرّفت الطبيعة البشريّة، بحيث لم يأنف خالقها من أَن يصبح خليقتها»، على حدّ قول الشاعر «دانتي».

فبمجرّد قولها «نَعَم» لجبرائيل الذي وافاها مبشّرًا من قِبَل الله، تلقّت مريم، في قلبها وفي أَحشائها سرّ الفداء، وتحقّق سرّ التجسّد. وبذلك لم تكن العذراء مجرّد أَداةٍ صمّاء، بين يدي الله «بل ساهمت في خلاص العالم بطاعةٍ حرّةٍ وتامّةٍ»، بحسب قول البابا يوحنّا بولس الثاني. وهي «لم تحمل في اضطرام الشهوة، بل في حرارة إِيمانٍ مفعمٍ محبّةً» على حدّ قول القدّيس أوغسطينُس.

حبلت العذراء بكلمة الله، وفي أَحشائها التقت البشريّة بالإِله الحيّ، وعادت فانعقدت العلاقات المقطوعة بين الخليقة والخالق. في مريم انحدر الله نحو البشر الذين فشلوا في المضيّ إِليه، واستعاد تناغم الكون فُرَصه كلّها.

تعاون الله مع البشريّة استؤنف يوم قالت العذراء للملاك الذي بشّرها: «**فليكن لي بحسب قولك**». فقد استجاب الله لنَعَم الضمير هذا الذي أَعلنته فتاةٌ في لحظةٍ من التاريخ، فتاةٌ شاء خالق الأَكوان أَن يحتاج إِليها.

«إِنّ قبول مريم لمشيئة الله، قد استهلّ كلّ شيءٍ، وأَتاح كلّ شيءٍ، وأَلزم كلّ شيءٍ»، على حدّ قول الأَب «كارّي» (A.M. Carre).

لكي يتجسّد ابن الله احتاج إلى أُمٍّ، وهكذا بدأ تاريخ خلاصنا، ورُسم مصير مريم التي اختيرت لدورٍ فريدٍ.

وبفعل الروح القدس الذي صان بتوليّة مريم، وبانفتاح إِرادة مريم على مشيئة الله، تجسّد ابن الله، في أَحشاء عذراء.

يقول القدّيس أوغسطينُس: «لكي يولد البشر من الله، بدأ الله فوُلد منهم. لم يقتضِ من الأَرض سوى أُمٍّ، إذ كان له في السماء أَبٌ. إِنّ ذاك الذي يخلقنا جميعًا وُلد من الله، والذي يعيد خلقنا خلقًا جديدًا، وُلد من امرأةٍ».

وإِن كان الكلمة قد تجسّد في ذلك الوقت، وليس في وقتٍ آخر، فلأَنّه التقى، أَخيرًا، قلبًا مفعمًا إِيمانًا، ومتأَهّبًا تأَهّبًا تامًّا لاستقباله. وقد كانت مريم الوسيط بين الله القدّوس، والإِنسان الخاطئ، إِذ وافقت على حمل من سيكون المخلّص. وموافقتها هذه أَبرمت، بين الله والبشر، عهدًا جديدًا لا رجوع عنه. وكان مجيء ابن الله إِنهاءً وإِكمالاً لجميع العهود السابقة. نَعَمُها حقّق الانتقال من عهد ما قبل المسيح، إلى عهد المسيح، الذي يدفع العالم في نهجٍ جديدٍ.

مريم أَدخلت اللّه إلى صلب الجنس البشريّ، إلى الأُسرة البشريّة، إلى شعب اللّه، من أَجل عمل الخلاص الرائع.

لقد كوّنت جسد ابن اللّه بمنأًى عن أَيّ تدخّلٍ بشريٍّ. وكانت بتوليّتها ضروريّةً لإِظهار أَنّ عمل اللّه هذا فائقٌ للطبيعة، إِذ إِنّ ولادة الربّ الموجود منذ الأَزل، هي من عمل اللّه وحده.

بالجسد الذي تكوّن في مريم، أَصبح يسوع كاهنًا، وبه أَصبح، أَيضًا، ضحيّةً قابلةً للتأَلّم والموت من أَجل البشر. ولم يكن اللّه قادرًا أَن يتأَلّم في أُلوهته.

ومريم لم تكوّن فقط جسد يسوع المادّيّ، بل كانت العضو الأَوّل في جسده الصوفيّ، جامعةً، في يسوع، جميع البشر الذين التزموا بيسوع مثل التزامها. فهي، مذ ارتضت أَن تكون للمخلّص أُمًّا، التزمت برسالته كلّها.

وجديرٌ بالتنويه أَنّ أَحداث العهد القديم الكبرى كانت تتمّ وسط رعودٍ وبروقٍ وعواصف، في حين أَنَّ البشارة، ذلك الحدَث الفريد في عظمته، ذلك المنعطف الحاسم في تاريخ الكون، هي جوهرة رقّةٍ، وعذوبةٍ، وكتمانٍ. الحميميّة فيها تضمّخ، كالندى، الأَشخاص، والأَفعال. وروح اللّه يرفرف مُعِدًّا خلقًا جديدًا، مضيئًا فجر حَدَثٍ أَساسيٍّ في تاريخ الكون. ومن جوّ البشارة يتضوّع شذا حميميّةٍ فريدةٍ، ساحرةٍ: الملاك يتكلّم، والعذراء، في خَفَرٍ، تصغي، وتطرح سؤالاً جوهريًّا، ثمّ تدلي بتصريحٍ حاسمٍ.

ومع ذلك كانت للبشارة عواقب مزلزلةٌ. فللمرّة الأولى في تاريخ اليهود خاطب مرسل اللّه امرأةً، بل فتاةً مغمورةً، تقيم في قريةٍ مزدراةٍ، وكلّفها بمهمّةٍ بحجم الكون، وطلب موافقتها على حَدَثٍ من شأنه إِحداث انقلابٍ في مصير البشريّة، وطيّ العهد القديم لاستهلال عهدٍ جديدٍ.

مشهد البشارة خلا من أَيّ رجلٍ، وهذا يمثّل قطيعةً مع عالم التوراة. وللمرّة الأولى كُلّفت امرأةٌ بمهمّةٍ على هذا المستوى من الجسامة. قديمًا قامت بطلاتٌ قوميّاتٌ يهوديّاتٌ بفعالٍ وطنيّةٍ، مستخدماتٍ، في سبيلها، المباح وغير المباح من الوسائل. أَمّا مريم فهي تحفة الروح، وطنها هو الطهر، والتواضع، والإِيمان والعمل بمشيئة اللّه.

وهي، بذلك، تناقض تطلّعات شعبها. إنّها الشاهد الأوّل على هذا التحوّل الجوهريّ، وأولى المؤمنات بالعهد الجديد.

ولبشارة مريم بُعْدٌ كونيٌّ، لا أَثر فيه لإثنيّةٍ، أو لانتماءٍ وطنيٍّ ضيّقٍ. بشارتها قضت على حِقَب الخوف والعصبيّة، واستهلّت حقبة شموليّة الحبّ. وقد ربط اللّه هذا الحَدَث الجلَل بموافقتها الحرّة؛ فهو لم يطالبها بمجرّد تلقّي رسالةٍ، بل بعقد معاهدةٍ تقتضي منها مساهمةً ناشطةً فاعلةً. ويتّضح من جوابها أنّها التزمت التزامًا كاملاً.

بإعلانها ذاتها «أَمَة الربّ» أكّدت مريم استقلالها حيال القوّات الأرضيّة والإيديولوجيّات القبليّة، والانتماءات التقليديّة. فخدمة اللّه هي تحرّرٌ من الأعراف الاجتماعيّة العشوائيّة؛ وهي رفض نظام النُّخَب والطبقات، لصالح عدلٍ أسمى، وهي سموٌّ إلى الكمال. لقد كان «نَعَم» مريم، حقًّا، إعلان استقلالٍ.

ولا غرابة إن كان اليهود طليعة الرافضين لفكرة تجسّد اللّه، ولولادته من عذراء، فجابهوها بعداءٍ ضارٍ، عبّروا عنه بفيضٍ من الافتراءات المسفّة الدنيئة، وبتخرّصاتٍ هي أقرب إلى الهذيان.

غير أنّ اللّه أثبت أنّ لا أمر عليه عسيرٌ، حتّى جَعْل فتاةٍ عذراء بسيطةٍ مغمورةٍ، من الناصرة، أداة تغيير العالم، وربط الأرض بالسماء.

لقد أكّدت البشارة قدرة الروح على المادّة، وتفوّق الإيمان على سنَن الطبيعة وانتصار حبّ اللّه على سطوة الجحيم والمجتمع.

مريم وحوّاء

منذ القرون المسيحيّة الأولى عكف الآباء والوعّاظ على المقارنة بين حوّاء ومريم، بغية بيان تأثير كلٍّ منهما على الجنس البشريّ، إذ أتته الأولى باللعنة والتعاسة، والثانية بالنعمة والخلاص.

كلتاهما خرجتا من يد الخالق ناصعتي النقاء والطهر والبراءة؛ غير أنّ حوّاء، بانقيادها لغواية الكبرياء والشهوة والطمع، شكّت في حبّ الله وصدقه، وعصت أوامره، فهلكت وسبّبت هلاك ذرّيّتها. أمّا مريم فالتزمت جانب التواضع والزهد، والطهر، والخضوع لله، فجاءت العالم بالخلاص، وبلغت ذرًى شاهقةً من النبل والقداسة.

كانت مريم أَمَةً لله، محبّةً ومطيعةً، تتوقّع منه كلّ شيءٍ، ومتأهّبةً، دائمًا، لتلبية كلّ رغباته، ولردّ هجمات إبليس، متدرّعةً بقدرة الربّ، وساحقةً بها رأس الشرّير. وهي، بذلك، تناقض حوّاء تناقضًا كلّيًّا، فهذه أمالت أُذنها إلى وسوسات الخنّاس، فتردّت إلى الكبرياء، ونزعت إلى الانفصال عن خالقها، وإلى استقلالٍ وبيلٍ، فأضحت للشرّير ضحيّةً سائغةً.

قال ترتلّيانُس: «حوّاء وثقت بالحيّة، ومريم وثقت بجبرائيل. والشرّ الذي سبّبته حوّاء بتصديقها إبليس، أبطلته مريم بإيمانها».

وقد أَظهرت البشارة حَذَر مريم وحكمتها، وحرصها على بتوليّتها، فعزا كثيرون اضطرابها إلى خشيتها من خدعةٍ شيطانيّةٍ ترمي إلى حملها على الحنث بنذر بتوليّتها.

وقال القدّيس أمبروسيُس: «من المرأة الأولى خرج الجنون، ومن العذراء خرجت الحكمة. من شجرةٍ نبت الموت، ومن الصليب نبتت الحياة».

توهّمت حوّاء أنّها بتناولها الثمرة المحرّمة، ستستغني عن الله، وتتحرّر من طاعته، غير أنّها، في الواقع، نأت عنه. ولكنّ مريم وجدت كلّ شيءٍ في ثمرة بطنها المقدّسة وساعدتنا في العثور عليه.

بانزلاقها إلى الغواية زعمت حوّاء التماس المتعة، فلقيت الآلام، في حين أنّ مريم وجدت الفرح في ابنها الإلهيّ، وساعدتنا على اكتشاف يسوع والفرح.

الثمرة التي اشتهتها حوّاء كانت جميلة المظهر، أمّا ثمرة أحشاء مريم، فهي سنى مجد الآب الروحيّ والأبديّ. مباركةٌ هي مريم، وأكثر تبريكًا هو ابنها الذي يؤتي البشر البركات والخلاص.

جبرائيل دعا مريم إلى الفرح. في حين أوهم إبليس حوّاء أنّ الله يغار منها ومن زوجها، وأنّه يريد لهما شرًّا، ويؤثر أن يظلاّ أعميين عن الحقيقة، أكّد مرسل الله لمريم أنّ الربّ معها، وأنّه يرتقي بها إلى أسمى مقامٍ، بجعلها، إن هي وافقت، أُمًّا لابنه، مؤكّدًا بذلك أنّ الخالق يحبّ خليقته، ولا يريد بها إلاّ خيرًا.

حوّاء طمعت في مساواة الله، فقضت على ذاتها وعلى ذرّيّتها. وأعلنت مريم أنّها أَمَة الربّ، فجاءت بالخلاص للبشر. وعلّمتنا أنّ إخضاع إرادتنا لإرادة الآب، ليس حطًّا من قيمتها، بل هو سموٌّ بها إلى أرفع مقامٍ، وتأهيلها لما صُنعت من أجله.

مريم، أكثر من حوّاء، تستأهل لقب «أُمّ الأحياء»، فهي قد حملت وولدت من هو الحياة، وواهب الحياة.

نيقولاس كاباسيلاس يقول عن العذراء: «إنّها أرضٌ، لأنّها تستمدّ جذورها من هذه الدنيا، ولكنّها أرضٌ جديدةٌ، لأنّها لا تمتّ لأجدادها بأيّة صلةٍ، ولم ترثْ من الخمير العتيق. إنّها، على حدّ قول القدّيس بولس، عجينٌ جديدٌ، وهي تستهلّ جنسًا جديدًا».

وقد أبرز المعلّمون الشرقيّون، بقوّةٍ، «نَعَم» مريم، مقابل «لا» حوّاء. وقد جاء على قلم جوزيف بريينّيُس (Joseph BRYENNIOS):

«هناك عدن، وهنا الكنيسة... هناك شجرة المعرفة، وهنا الصليب؛ هناك آدم، وهنا المسيح. هناك حوّاء، وهنا مريم. هناك الحيّة، وهنا الملاك، مبشّرًا مريم. هنالك اللعنة، وهنا البركة. هنالك العري والخزي، وهنا النعمة والجمال. هنالك الغواية والظلم، وهنا الحقيقة والعدل. هنالك جدار العداوة، وهنا السلام، واتّحاد البشر مع الله. هنالك قيل: سأُكثّر آلامك. وهنا: افرحي، يا ممتلئةً نعمةً. هناك قيل ستلدين بالأوجاع، وهنا قيل: مباركةٌ ثمرة بطنك. هنالك جاء العصيان باللعنة، وهنا جاءت

الطاعة بالبركة. هنالك التعالي الملعون، وهنا التواضع المغبوط. هنالك نسجت الخطيئة لحوّاء أوراق تينٍ. وهنا نسجت الفضائل لمريم ثياب مجدٍ. هنالك نفيُ الأُمّ الأولى بعيدًا عن الله، وهنا سكنى أُمّ الله لدى ربّها. هنالك ألبس الله أبوينا الأوّلين جلودًا، وهنا ارتدى المسيح جسدًا، وكأنّه أُرجوانٌ ملكيٌّ منسوجٌ في أحشاء العذراء. هناك قال الله ساخرًا: ها إنّ آدم قد أَصبح نظير واحدٍ منّا. وهنا قيل، حقًّا، ها إنّ الله قد أَصبح مثل واحدٍ منّا».

حوّاء حملت الموت بكلمة الحيّة، ومريم حملت الحياة بكلمة الله. طاعة مريم أَبطلت عصيان حوّاء وعواقبه الوخيمة.

يقول القدّيس بيرنار: «حوّاء كانت شوكةً، ومريم وردةٌ. حوّاء شوكةٌ تجرح، ومريم وردةٌ تلطّف آلام الجميع. حوّاء كانت شوكةً تصيب جميع البشر بالموت، ومريم وردةٌ بيضاء ببتوليّتها، حمراء بمحبّتها. بيضاء في جسدها الطاهر، حمراء بحرارة نفسها، بيضاء في ممارسة الفضائل، حمراء بسحقها الرذائل بقدمها؛ بيضاء بطهر عواطفها، حمراء بتضحية الجسد، بيضاء في حبّها لله، حمراء في عطفها على الغير».

لكي تستعيد حوّاء البركة الأُولى، كان لا بدّ من امرأةٍ تكرّس للربّ بتوليّتها وترتضي فقر الإيمان الكامل؛ تزهد، لا في متاع الدنيا فحسب، بل في الحياة نفسها. وحينئذٍ هبط إِليها كلمة البركة القصوى، وغمرها روح الله بظلّه، فأَثمرت ما يفوق البشر. وباستسلامها، في الإِيمان، إلى الكلمة والروح، أَنتجت بتوليّتها المخلّص الأَوحد الذي سيحقّق لمّ شمل أَبناء الله المشتّتين، وترميم البشريّة الضالّة. وبذلك أَمست تلك العذراء، بما تنطوي عليه بتوليّتها من وفاءٍ كاملٍ لمخطّط الله الخلاصيّ، أُمّ الخليقة الجديدة، وفي تلك التي أَنكرت ذاتها إِنكارًا كاملاً لكي تتحقّق كلمة الله، صار الكلمة جسدًا، وبه سيولد كلّ شيءٍ ولادةً جديدةً. فبيسوع تعود البشريّة إلى منشئها الأوّل، ومنه تنطلق، مجدّدًا، نحو مرحلة البلوغ.

«تعظّم نفسي الربّ»

انصرف الملاك، ولبثت مريم وحدها، في جوّ صمتٍ كثيفٍ، وخشوعٍ سحيقٍ، وقد غدت كائنًا آخر، وبدأت تتجلّى عليها أمارات السرّ الذي أصبحت جزءًا منه. تبدّلٌ عميقٌ كان يحدث فيها، ونورٌ قشيبٌ سماويٌّ، أخذ ينبثق منها. فالوعد الدهريّ شرع يتحقّق، والمخلّص بات يثوي في أحشائها، واللامحدود بدأ يتّخذ من جسدها جسدًا.

ما حدث لها كان كفيلاً بزعزعة توازن كلّ إنسانٍ، ولكنّ نفس مريم كانت ساحة سكونٍ عظيمٍ، وجاهزيّةٍ تامّةٍ لعمل الربّ، ستساعدها على اجتياز الأيّام الصعبة التالية، إذ ستعقب نداوةَ المشاعر الأُولى، قساوةُ الواقع، ويعقب عذوبةَ وعد الله، خبثُ البشر، وتحلّ، محلّ أنوار الأمس، ظلمات اليوم.

ولا مراء أنّ من يخبر روعة الله يتحرّر من أناه، ومن خوفه، ويسكنه اليقين بأنّ كلّ قوّةٍ أرضيّةٍ عاجزةٌ عن قهره. ومن آمن أنّ أباه السماويّ معه لا تريعه حياةٌ، ولا يرعبه موتٌ، ولا اضطهادٌ، ولا أوهانٌ ولا افتراءاتٌ. ذلك كان شعور مريم ويقينها، مع أنّها كانت تواجه وضعًا موغلاً في الإحراج والخطر. فهي ما زالت مخطوبةً، ولم تنتقل، بعدُ، إلى منزل الزوجيّة، ومع ذلك لن تلبث أن تظهر للعيان أمارات حبلها، فتُتّهم بالزنى، وقد تُعاقب بالرجم. إنّها تعيش في قريةٍ صغيرةٍ، وعالم القرى محدودٌ. الجميع يعرفون كلّ «قصّةٍ» فيه، ويضخّمونها، ويزوّقونها بقدر ما يتّسع خيالهم. لا وجود هناك للأسرار، وللحياة الخاصّة، وحبل مريم سرٌّ إلهيٌّ. كلّ فردٍ في القرية أسير الأحكام المسبّقة، وضحيّةٌ سهلةٌ وسائغةٌ للألسنة الخبيثة. وليس من العسير تخيّل وضع أُمٍّ حاملٍ، وهي، بعدُ، غير متزوّجة، ومصير ابنها الذي ستلاحقه، طيلة حياته، أكثر النعوت مهانةً، معيقةً كلّ مستقبله. فلو لم يكن ليسوع، في يوسف، أبٌ شرعيّ، لوُئدت رسالته في مهدها.

توكّلت مريم على الله، وكتمت سرّها، فلم يعلم به أحدٌ من سكّان الناصرة. ولو

هم علموا للاحقوها بحملات تشهيرٍ مدمّرةٍ، طيلة حياتها، ولكان يسوع أَكثر ضحاياهم تجريحًا. فهو، يوم أعلن، في الناصرة، في مطلع حياته العلنيّة، أَنّه المسيح المنتظر، ثارت ثائرة مواطنيه عليه، وطاردوه مطاردةً شرسةً، ودفعوا به إلى شفا هاويةٍ كي يقذفوه إليها ويهلكوه. ولو هم علموا أَنّه ليس ابن يوسف النجّار، لأَسبغوا عليه، وعلى أُمّه، أَقذع النعوت. ولو خطر لمريم أَن تبوح بسرّها، لعُدَّ بوحها كذبًا وقحًا، واستخفافًا بعقول الناس، ولذاعت فضيحتها بسرعة البرق في كلّ أَنحاء الناصرة وجوارها، ولانهمرت اللعنات على جنينها.

ومع أَنّ كلّ فتاةٍ يهوديّةٍ كانت تحلم بأَن تصبح أُمًّا للمسيح المنتظر، جيلاً إِثر جيلٍ، ومع أَنّ حمل مريم لهذا المسيح كان كفيلاً بأَن يملأها اعتزازا، إلاّ أَنّ مريم حملت، بجرأةٍ، عبء ذلك السرّ، وبرهنت عن سيادةٍ على الذات مدهشةٍ. ومن المحقّق أَنّ تمرُّسها بالتأمّل قد مكّنها من تلك السيادة، فنفس المتأمّل تتّسم بقدرةٍ فائقةٍ على الدهشة والشكر، وهي دائمًا مفتونةٌ بكائنٍ أَسمى، متغرّبةٌ عن ذاتها، محدّقةٌ صوب آخر، منزّهةٌ من كلّ نرجسيّةٍ وعُجبٍ بالذات، لا يستثيرها النجاح والحظوة، ولا تهدّها الخطوب. وهي، دائمًا، محكمةٌ سيطرتها على ذاتها، يسودها سلامٌ لا يتزعزع.

وكانت حياة مريم، منذ البشارة، قد نهجت نهجًا تأَمُّليًّا. فالبذرة الإِلهيّة هبطت من السماء إلى أَحشائها، وبات عليها أَن تُعِدّ لها التربة اللائقة كي تُنبت عدلاً وقداسةً وألوهةً، فانكفأت على الثاوي في أَحشائها تصغي بعنايةٍ إلى إِلهاماته، كي تكيّف حياتها وفقًا لها. كانت تنتظر حَدَثًا يغيّر وجه الكون، لا كما ينتظر الأَنبياء حَدَثًا مبهم المعالم، بل كما تنتظر امرأةٌ حبلى وليدها. إنّها لم ترَ وجهه بعدُ، ولكنّ حياتها كلّها تضجّ ثقةً بهذا الوجه الذي ستراه. اللّه حاضرٌ معها، مقيمٌ فيها، ولكنّه ليس، بعدُ، وعدًا، أَو فكرةً، أو رمزًا، أو مشروعًا رسوليًّا، بل هو شخصٌ ماثلٌ. وهكذا، مع مريم، دخلت البشريّة في حوارٍ مع ابن اللّه الذي هو ابنها، واستهلّت على الأَرض، حياةً جديدةً، حياة التأمّل.

لقد قضت مريم فترة حملها في اتّحادٍ وثيقٍ مع جنينها، الذي هو، في آنٍ واحدٍ، إِلهها وسيّدها. كلّ طاقاتها الفكريّة والروحيّة كانت مركّزةً على من هو معها وفيها، من هو روح روحها، وحياة حياتها. صلاتها، في تلك الأَيّام، كانت تحديقًا إِلى

داخلها، فهي بكلّيّتها داخل الله، والله في داخلها. ابنها الإلهيّ هو سكناها. غير أنّها لا تنسى هويّتها، بل هي، أكثر من أيّ وقتٍ، تعي البون الشاسع بين جلالة سيّدها، وصغَر أَمَته، فتصعّد نفسها أناشيد التسبيح والشكر.

لقد كانت طيلة تلك الأشهر التسعة هيكل الثالوث الأقدس. فالآب، فيها، أُبوّةٌ دائمةٌ، أي إنّه لا ينفكّ يلد ابنه فيها، أبديًّا، والابن بنوَّةٌ مستمرّةٌ في تواصلٍ أبديٍّ مع الآب. ومن علاقة الآب والابن ينبثق الروح القدس. منذ الأزل وإلى الأبد تستمرّ هذه الحركة الإلهيّة الثلاثيّة، تيّار حياةٍ وخصبٍ، ومعرفةٍ وحبٍّ، وتواصلٍ لا يوصف بين الأقانيم الثلاثة. وها إنّ هذا السرّ الجمّ، في تلك اللحظة من الأبديّة، يتّخذ إطارًا له أحشاء فتاةٍ عذراء، سحيقة التواضع. سرٌّ يفوق كلّ خيالٍ.

ربّما مريم نفسها لم تدرك جسامة هذا السرّ. فبقدر ما يتّسم اختبارٌ بالكثافة، يتعذّر استيعابه، ويصبح التعبير عنه أكثر تعذّرًا. ولكنّ مريم كانت قد أوكلت كلّ قيادها للربّ، ووفقًا لمنطق هذا التسليم، انحصر كلّ همّها في الانفتاح على مشيئة الله، والوفاء لها، غير مهتمّةٍ بفهم مقاصدها.

ومريم مع استسلامها للربّ، غارقةٌ في التأمّل. والتأمّل الكثيف يقود إلى النضج، ويولّد الخصب، ويُكسب الفكر وضوح رؤيةٍ وسدادًا، ومع ذلك لا يحول دون عيش كلّ الواقع البشريّ والأرضيّ.

كانت مريم تصنع المسيح من مادّة جسدها، كانت تمنحه إنسانيّتها، وكان ابن الله يغزو كيانها بألوهته، ومعًا شرعا يفتديان العالم.

عندما يكشف الله لإنسانٍ سرًّا يدخله إلى أعماقه. وفي البشارة تلقّت مريم عطيّة الآب، التي استحوذت على كلّ كيانها. حملت عطيّة الله، تقبّلتها في إيمانها، وغمرتها برقّة أُمومتها. وفي الآن عينه، حملت هذه العطيّة مريم، وغمرتها بحبٍّ، وحوّلت مسيرتها، وباتت لها مصدر حياةٍ.

البشارة تحقّقت، جوهريًّا، في قلب مريم المضطرم. وما صنع عظمتها هو تلك الشعلة الملتهبة المتصاعدة من صميم قلبها صوب الآب.

أُمومتها كانت فعل حبٍّ، أجابت به على حبّ الله.

وبعد تلقّيها السرّ الإِلهيّ، صمتت مريم كي تحياه بعمقٍ. وبصفتها أُمًّا أَصبحت خادمةً بامتيازٍ، فالخدمة الكبرى هي خدمة الأُمومة.

ولكن لم يخطر لمريم الاستغراق في التمتّع، وحيدةً، بالحظوة التي حباها بها اللّه. فقد كانت بانتظارها مهمّة خدمةٍ، ورسالة تبشيرٍ بالخلاص الثاوي في أَحشائها. فالملاك الذي بشّرها كان قد أَنبأها بأنّ إِليصابات نسيبتها حاملٌ في شيخوختها، وأَنّها في الشهر السادس من حملها. ولم ترَ مريم، في هذا الإِنباء، مجرّد دعمٍ لإِيمانها بحمل ابن اللّه، وتأكيدٍ بأَنّه ليس على اللّه أَمرٌ عسيرٌ، بل رأت دعوةً إِلى خدمة قريبةٍ محتاجةٍ إِلى مؤازرةٍ.

فكرها امتدّ إِلى جميع الذين ينتظرون الحياة القادمة بواسطتها، فنهضت وجرت نحو إِليصابات، مستهلّةً رسالةً لن تتوقّف عن الاضطلاع بها، حاملةً المسيح في ذاتها، ومُنهضةً من ليلهم أَبناءَها القابعين في ظلال الموت، وداعيةً إِيّاهم إِلى النهوض والحياة.

لم تستكن مريم إِلى عذوبة البشارة، ولم تتمترس في برجٍ عاجيٍّ، بل إِنّ اتّصالها باللّه زوّدها بأَجنحةٍ طارت بها إِلى عين كارم، لخدمة إِليصابات. كان ملاك الربّ قد كشف لإِليصابات سرّ مريم، وأَعلن لمريم حظوة إِليصابات، وكان يجمعهما، إِلى جانب القرابة، سرٌّ علويٌّ. كلتاهما تلقّتا حظوةً من اللّه، وكانتا تقدّران عظمتها ومجّانيّتها. وكانت إِليصابات تعيش في الصمت والخفية، احترامًا لتلك الحظوة السنيّة.

المحبّة حملتها على هجر كلّ شيءٍ، والتخلّي عن خلوة التأمّل العذبة، من أَجل الضرب على الطرقات الوعرة، والانكباب على الخدمة الوضيعة. وكانت تدفعها، أَيضًا، رغبةٌ في التبشير بأَنّ زمن الخلاص قد حلّ، ورغبةٌ في إِدخال الفرح إِلى أُسرة قريبتها العجوز. هذا ما يفسّر قول الإِنجيليّ: «قامت مريم، وذهبت مسرعةً...» هذا الاندفاع يعيد إِلى الأَذهان قول أَشعيا (٣:٥٢): «ما أَجمل، على الجبال، أَقدام المبشّرين، المنادين بالسلام، المبشّرين بالخير، المنبئين بالخلاص!...» ومريم كانت تحمل إِلى عين كارم بُشرى السلام، والسعادة والخلاص.

«**مضت مسرعةً**» ولها من الرغبة في الخدمة جناحان، وفرح إِسعاد آخرين ينفخ

شراعٍ قلبها. تلك هي مريم، في حياتها الأَرضيّة، وفي سمائها. إِنّها، دائمًا، أَشدّ رغبةً في إِغداق إِحساناتها علينا، ممّا نحن راغبون في تلقّيها.

كان يدفعها من هو ثاوٍ فيها. دافع العهد الجديد المتفجّر، كان يحملها، بقوّةٍ، إلى تبليغ البشرى إلى العهد القديم. لم تكُن تعرف، بعدُ، أَنّ كلّ شيءٍ أَمسى عتيقًا، غابرًا، ولكنّها كانت تستشفّه، لأَنّ الجديد كامنٌ في داخلها، ولأَنّ ما قاله الربّ سيتحقّق. ربيع البشريّة كان ينبض في أَحشائها، جاعلاً كلّ ما سواه عتيقًا. ونفحة الجِدّة هذه كانت تضفي على حركاتها رشاقةً.

لم تأتِ بمجاملاتٍ، بل جاءت بكنزٍ من النِّعَم، ولم تمنعها الحظوة السنيّة التي خصّها بها العليّ من المبادرة بالسلام. فهي ما زالت ترى نفسها الصغرى، والقادمة لإِسداء خدمةٍ، على مثال ذاك الذي كانت تحمله في أَحشائها، والذي لم يأتِ ليُخدَم، بل ليَخدُم.

سلامها دوّى، وكأنّه سلام الربّ، فانتفض يوحنّا الجنين ابتهاجًا، وامتلأت أُمّه بالروح القدس، «**وصاحت بصوتٍ عظيمٍ، فقالت: مباركةٌ أَنتِ في النساء، ومباركةٌ ثمرة بطنكِ. أَلا كيف أُوتيتُ أَن تأتي أُمّ ربّي إِليّ؟ فإِنّه ما إِن وقع صوت سلامك في أُذنيّ، حتّى ارتكض الجنين من الابتهاج في بطني. فطوبى للتي آمنت بأَنّه سيتمّ ما قيل لها من لدن الربّ**». (لوقا١ : ٤٢–٤٥)

بِحَدْسِ الأُمّ شعرت إِليصابات أَنّ انتفاض جنينها لم يكن من تلك التحرّكات الطبيعيّة التي تحدث في أَشهر الحمل المتقدّمة، بل كانت استجابةً لداعٍ علويٍّ، وتعبيرًا عن تجلّةٍ لزائرٍ رفيع الشأن. وأَدركت إِليصابات أَنّ الربّ الثاوي في أَحشاء ضيفتها الشابّة قد أَمسى فاعلاً، وبات روحه مؤثّرًا.

وأَكبرت إِليصابات إِيمان مريم، قياسًا بارتياب زوجها الكاهن زكريّا، فانحنت، هي الطاعنة في السنّ، أَمام الزائرة الشابّة، وأَحاطتها باحترامٍ أَعمق ممّا كان على قريبتها الصغرى أَن تقدّمه لها. وهكذا منذ خطواتها الأولى في الحياة، أُحيطت مريم بتكريمٍ أَعظم ممّا تؤهّل له أَخطر الإِنجازات.

بإِلهامٍ من الروح القدس، جمعت إِليصابات الأُمَّ والابنَ ببركةٍ واحدةٍ، لأَنّها شعرت أَنَّهما أَصبحا واحدًا. فقد غدت مريم، بكلّ كيانها، مرتبطةً ارتباطًا وثيقًا بالله.

وهي، فضلاً عن أُمومتها، على علاقةٍ مادّيّةٍ جوهريّةٍ مع ابن الله المتجسّد. قال «غوارديني»، في هذا الشأن: «لم يكن بوسع مريم أن تصبح أُمًّا لهذا الابن المنقطع النظير، ما لم تتحمّل شخصيًّا مسؤوليّة أُمومتها» جسديًّا، ونفسيًّا، وروحيًّا».

وبإلهام الروح القدس، أَيضًا، أَعلنت إليصابات مريم «أُمّ الله»، أَكثر من أَربعة قرونٍ قبل إعلان مجمع أَفسس هذه العقيدة. وقبل أن يعلن يسوع تطويباته، طوّبت إيمان مريم. وبقولها: «**طوبى للتي آمنت...**» أوجزت إليصابات حياة مريم.

يقول جان غيتّون: «لقد توغّلت إليصابات في سرّ مريم أكثر من الملاك، إذ أعلنت أنّها قد غدت أُمّ الربّ. في مشهد الزيارة هذه يبدو الأشخاص ولكأنّهم ارتقوا فوق الأَرض، وفوق ذواتهم. ضربٌ من النشوة يحملهم، وكأنّ القيد الذي يربط النفس بالجسد قد تراخى، وكأنّ خليقةً جديدةً تتجلّى تحت قشرة الخليقة القديمة. من شأن الروح أن يهب هذه الرشاقة، وأن يفجّر هذه التوثّبات، وهذا الفرح الذي يتخطّى الفرح. لحظاتٌ خاطفةٌ ولكنّ ذكراها لا تمّحي».

وفيما كانت المرأتان تتبادلان التحيّات، كان تبادل تحيّاتٍ خفيٌّ يتمّ في أَحشائهما. كان الملاك قد أنبأ زكريّا أنّ يوحنّا سيمتلئ من الروح القدس وهو، بعدُ، في بطن أُمّه، وقد تحقّقت هذه النبوّة، لمجرّد سماع يوحنّا الجنين صوت مريم، ولكأنّه تلقّى، حينئذٍ، عماد الروح القدس.

كانت مريم قد التزمت الصمت في الناصرة. أمّا وقد أنبأ الروح قريبتها بسرّها، فقد أنشدت فرحها، إذ إنّ الله قد كرّس وطهّر أعظم الأنبياء، وسابق ابنها، لمجرّد سماعه صوتها. وحينئذٍ، تفجّرت كلّ المشاعر والأَفكار التي كانت تختلج في صدرها منذ بشارتها، وتدفّقت في نشيد شكرانٍ، وتسبيحٍ، وعبادةٍ، فقالت:

تُعظّم نفسي الربّ،

ويبتهج روحي بالله مخلّصي،

لأنّه نظر إلى حقارة أَمَته؛

فها، منذ الآن، تغبّطني جميع الأَجيال،

لأن القدير صنع بي عظائم.

فإنّ اسمه قدّوس،

ورحمته إِلى جيلٍ وجيلٍ للّذين يتّقونه.

بسط قدرة ساعده،

فشتّت ذوي القلوب المتغطرسة بأَفكارها؛

حطّ الأَعزّاء عن عروشهم، ورفع المتواضعين؛

غمر الجياع بالخيرات، وأَرسل الأَغنياء فارغي الأَيدي.

عضد إِسرائيل فتاهُ، ذاكرًا رحمته

على ما وعد به آباءنا

لإِبراهيم ونسله إِلى الأَبد!»

شكرت سخاء اللّه اللامحدود الذي حطّ نظرة عطفٍ على وضاعتها. اعترافها بأَنّها مدينةٌ للّه بكلّ شيءٍ، وقاها من العجْب والتباهي، ومع إِقرارها بالعظائم التي حظيت بها، رمقت هذه العظائم بتواضعٍ، ولم تُصَبْ بالدُّوار، فهي، في نظر ذاتها، ما برحت أَمَةً، وهذه النظرة تزيد إِبراز فضل اللّه، ونعمته، وكرمه.

تركت مريم قلبها يعبّر عن مشاعره في نشيدٍ استعاد بعضًا من العبارات المأثورة التي قيلت في مناسباتٍ مماثلةٍ، ولكنّها، في فم مريم، اتّخذت نبرةً قشيبةً، فتجاوزت التعبير عن فرح أُمٍّ، وعبّرت عن صلاة استسلامٍ وثقةٍ، وعن فرحٍ مسيحانيٍّ دوّى كالصاعقة. إِنّه لمن المذهل، أَنّ هذه المرأة التي لم تتخطّ الخمسة عشر ربيعًا، والتي لم تكُن، حينئذٍ، سوى كتلة عذوبةٍ ورقّةٍ، تكلّمت بهوًى وعنفٍ مضمّخين بقدرة اللّه، ومتأَلّقيْن برهبة البراءة. ولم تستهدف أَقوالها إِضرام ثورةٍ، بقدر ما كانت إِشادةً بالعون الذي يؤتيه الربّ للمساكين والمضطهدين، الذين وضعوا فيه رجاءهم. نشيد العذراء قصيدة حبٍّ لإِلهٍ هو، رحمةٌ وحبٌّ، يسخّر قدرته لخدمة من يخشونه ويحبّونه. حيال عظمته اعترفت مريم بصغَرها، وفي الآن عينه، بالمجد الذي أَسبغه عليها، بسبب وضاعتها وامّحائها، مبرزةً، بذلك كرَم رحمته.

لم يكُن يخامرها شكٌّ بأَنّ اللّه جعل منها خليقة العهد الجديد الأولى ومركز تاريخ الخلاص، ولكنّها عزت فضل ذلك كلّه لمن تنازل ونظر إِلى حقارة أَمَته، بحبٍّ وإِيثارٍ.

نشيد مريم يدهش ببساطته المقرونة بالسموّ.

إنّه، أوّلاً، نشيد شكرٍ، لأنّ يسوع سيولد، واسم يسوع يعني «اللّه يُخلّص». ومريم تشكر من أجل الفرح الذي جاء به الخلاص والمخلّص، وغدت هي أداة إشعاعه.

وتشكر مريم لأنّ رجاءً دهريًّا تحقّق. فقد انفتحت السموات واقترنت بالأرض. وهي تشكر للّه اختياره لها، والحظوة السنيّة التي خصّها بها، وتشيد بعنايته التي تشمل البشريّة جمعاء، في كلّ جيلٍ.

ثمّة من لا يشكرون لأنّ أنظارهم منكفئةٌ على ذواتهم، فلا يبصرون «عظائم» الربّ. قدرة اللّه الكلّيّة هي قدرة حبٍّ كلّيّةٌ. وكانت مريم قد أدركت أنّ هذه القدرة لا تتجلّى إلاّ من خلال التواضع الأقصى، وأنّ وحدهم من يراهنون على قيمة الحبّ دون سواها يفهمون اللّه، ويظفرون بمواهب رحمته.

يقول «مارتن لوثير» إنّ العذراء أنشدت في أعقاب تجربةٍ شخصيّةٍ تلقّت فيها أنوار الروح القدس وتعاليمه. فتلك التي كانت مُغرقةً في التواضع والإغفال والفقر والازدراء، بعد أن تبيّنت، شخصيًّا، عظمة ما حقّقه اللّه فيها، نالت من الروح علمًا وحكمةً، وتعلّمت أنّ اللّه «سيّدٌ» لا همّ له سوى رفع الوضيعين، وحطّ المترفّعين، وبإيجازٍ، تحطيم ما هو قائمٌ، وإعادة صنع ما هو محطّمٌ. وأيقنت مريم أنّ اللّه من العلوّ بحيث لا يستطيع النظر إلاّ إلى ما هو دونه. أبصاره تسبر، دائمًا، الأعماق، وتعطف على الراسفين في وهاد البؤس والضيق».

قولها: «**تعظّم نفسي الربّ، وتبتهج روحي باللّه مخلّصي**» يتفجّر من حبٍّ مضطرمٍ، ومن فرحٍ غامرٍ. لم تقُل: «أُعظّم اللّه» بل قالت: «**تعظّم نفسي الربّ**»، ولكأنّها تقول: «حياتي وكياني كلّه يسبحان في حبّ اللّه، وفي التسبيح والغبطة». تعظيم الربّ وتسبيحه يتفجّران منها تلقائيًّا، ولكأنّهما نبعٌ جيّاشٌ يتعذّر حبسه. إنّها لا تمجّد اللّه بصوتها، أو بيديها، أو بأيّ أُسلوبٍ خارجيٍّ محضٍ، بل بكلّ نفسها، وبكلّ كيانها، وبكلّ قواها.

العظائم التي أجراها اللّه فيها لم توحِ لها بأيّ عُجْبٍ أو كبرياء، لأنّها اعترفت بأنّها عطيّةٌ مجّانيّةٌ ممّن يستحقّ وحده المديح والشكران.

كانت تعلم أنّها أصبحت أُمّ المخلّص، وبذلك سمت فوق كلّ البشر، ومع ذلك، ما فتئت تعدّ ذاتها أمَة اللّه الوضيعة. إنّها أُمّ اللّه وأمَته. وما أبعدها عمّن، إن أصاب

أَحدهم موهبةً خارجيّةً أو داخليّةً، جسديّةً أو روحيّةً، انتفخ زهوًا، ورمق الآخرين شَزْرًا.

«**وتبتهج روحي باللّه مخلّصي**»: ما لا تجده فيها، تجده لدى الغنيّ الأَعظم، فترتعش فرحًا، لأَنّه، مع ضِعتها، تنازل فحطّ عليها نظره. إِنّها ترى أَنّها لا شيء، ولا تستأهل لفت نظره، ولكن، بما أَنّه هو نظر إِليها، فهو السند الذي لن تفقده أَبدًا. ولذلك يفرض عليها العرفان بالجميل الإِشادة بما تلقّته من كرمه: «**أَجل، إِنّه بعد اليوم، تطوّبني جميع الأَجيال، لأَنّ القدير صنع بي عظائم. قدّوسٌ هو اسمه، ورحمته جيلاً فجيلاً للذين يتّقونه**».

العليّ حقّق فيها أَعظم أعمال قدرته. لقد حافظ، بخارقةٍ، على بتوليّتها، وزرع المخلّص في أَحشائها.

العليّ هو القداسة ذاتها، التي ينبغي أَن تقدّسنا، ولاسيّما أَنّ ابنه، الذي هو ابن مريم، ينشر من جيلٍ إِلى جيلٍ، النعمة والقداسة، بين الشعوب، على من يخشونه، ويبتغون اتّباع وصاياه.

وتفسّر مريم عظمة اللّه بقولها: «**بسط قدرة ساعده، فشتّت المتغطرسين بأَفكار قلوبهم. حطّ الأَعزّاء عن عروشهم، ورفع المتواضعين**» فهو، بإِرسال ابنه الوحيد سيخزي المتكبّرين، وبتبشير إِنجيله مستعينًا بضعف الرسل، والشهداء والعذارى، يقوّض الوثنيّة المتجبّرة، ويفضح تعنّت الفرّيسيّين وصَلَفهم. وسيخفي أَسراره عن الحكماء، ويكشفها للصغار والبسطاء.

وكانت مريم أَسطع مثالٍ على عظمة اللّه، فقد رفعها إِلى أَسمى مقامٍ لأَنّها عدّت نفسها صغرى الخلائق.

وسبّحت مريم الربّ لأَنّ مجده، على الأَرض، دخل من باب التواضع والفقر.

التواضع عند مريم فطريٌّ، كامنٌ في لاوعيها، ولم يخطر لها، يومًا، ببالٍ التماس الرفعة والأَمجاد. ومع ذلك، هي موقنةٌ أَنّ الأَجيال ستغبطها لأَنّ الربّ نظر إِلى حقارتها، وصنع فيها عظائم. وهل من تعظيمٍ أَطهر من هذا؟ ليست هي التي ستُغبَط، بل نعمة اللّه عليها.

نبوءةٌ غير متوقّعةٍ، فتلك الفتاة المتواضعة، الكَلِفة بالامّحاء تعلن، بسكونٍ وثقةٍ،

أَنّ جميع الأَجيال ستطوّبها، بسبب حقارتها، وبسبب «فراغ» ذاتها الذي جلب لها ملء النعمة، وجعل ذلك الامتلاء ممكنًا. عظمتها هي بمقياس تواضعها. والمدهش هو أَنّ مريم تعلن، في آنٍ واحدٍ، وببساطةٍ فائقةٍ، حقارتها والعظائم التي حقّقها العليّ فيها.

نبوءةٌ مدهشةٌ نطقت بها فتاةٌ فقيرةٌ، متواضعةٌ، تجهلها الأَرض وتجهل هي ذاتها. نبوءةٌ لم تكن تجرؤ على تمنّيها لنفسها أَيّة ابنة ملكٍ أو ابنة إِمبراطورٍ: أَي الخلود في قلوب البشر وفي أَذهانهم. وهي لم تعبّر عن المستقبل الذي كان يريها إِيّاه الربّ بعباراتٍ مُبهمَةٍ، تتّسع لكلّ أَنماط التأويل، بل عبّرت عنه بثقةٍ مطلقةٍ، بوضوحٍ لا لبْس فيه. وقد تحقّقت النبوءة على نحوٍ فاق كلّ توقّعٍ.

قال أَحد الوعّاظ: «تأَمّلوا جميع المناطق التي تنيرها الشمس، تجدوا أَنّ ما من أُمّةٍ وما من شعبٍ لا يؤمنان بيسوع المسيح. وحيثُما يُعترف به، وحيثما يُعبَد، تُعلن أُمّه الموقّرة، أُمّ اللّه، طوباويّةً. وفي العالم كلّه، وبكلّ لسانٍ تطوّب العذراء. وبمقدار ما هناك بشرٌ، بنفس المقدار لها شهودٌ. ما تنبّأت به وحدها، يحقّقه الجميع».

اختارها اللّه، لأَنّها اعترفت بالبون الشاسع بينها وبين خالقها. إِنّها الأُمّ العذراء الوحيدة التي أُعطيت أَن تعقد علاقاتٍ حيويّةً مع ابن اللّه، وبفضل هذه العلاقات أَسهمت في مهمّة الفداء. ولن تنقطع، بعدُ، أَبدًا، مدائح البشر لمريم، لأَنّها جزءٌ من المدائح الموجّهة إلى العناية الإِلهيّة التي افتدت البشر. عظائم كثيرةٌ تزول وتندثر، لأَنّها كانت محدودةً في حقبةٍ معيّنةٍ. غير أَنّ انتزاع البشر من براثن الشرّير مستمرٌّ، كلّ يومٍ، ولذلك لن ينقطع مديح العذراء، التي كانت شريكةً في هذا الفداء.

في هذا السياق، يقول الكردينال نيومن: «مريم هي كبرياؤنا، إِنّها المجد الأَوحد لطبيعتنا الهابطة. إِنّنا نتأمّلها بلا خشيةٍ ولا ندمٍ، ولا خوفٍ من أَن تقرأ كوامن قلوبنا، فتديننا أو تعاقبنا. إِنّ هذه العذراء الطاهرة، هذه الأُمّ الحنون تأسر قلوبنا، وتواكبها أَمانينا من الناصرة وأَفسُس إلى عرشها في السماء. إِنّها موغلةٌ في الضعف، ولكنّها فائقة القوّة. إِنّها رقيقةٌ، ومع ذلك رائعةٌ. إِنّها متواضعةٌ، ومع ذلك كلّيّة القدرة؛ وهي، في نشيد تعظيمها للربّ قد رسمت لنا صورتها الذاتيّة».

انطلق النشيد من نفس مريم تلقائيًّا، وكأَنّ اللّه الثاوي في أَحشائها قفز إلى شفتيها،

فجاء ملخّصًا لإيمانها. ربّما لم تستغرق تلاوتها له سوى دقائق معدوداتٍ ومع ذلك انطوى على خلاصة حياةٍ كاملةٍ. وقد رسمت فيه مريم ملامح تاريخٍ كونيٍّ. بل إنّها، ببضع خفقات جناحٍ، دوّنت فلسفة التاريخ، تاريخ الله في العالم وتاريخها هي في الله. وقد أَوجزت الشريعة التي سيعلنها ابنها يسوع في تطويباته السبع، حيث فصّل خاطرةً كانت كامنةً في صدر أُمّه، وكان هو ملهمها.

في تعليقه على «تعظيمة» العذراء، يرى لوثير أَنّ الحقيقة التي ترشح منها هي أَنّ الله لا يأتينا فاتحًا مسيطرًا، بل يأتي وهّابًا وخادمًا. ومن ثمّ، لا يتألّه الإِنسان إلاّ بقدر ما يعزف عن تسخير الله والبشر والطبيعة، لمطامعه وجشعه، وحينئذٍ يصبح، في الله، حبًّا وروحًا، وحرّيّةً.

إِنّ العذراء، في نشيدها، تزدري الأَمجاد البشريّة، وتبرهن على كونها، مسبّقًا، تلميذة من ستلده، ورسولة الإِنجيل. نشيدها خليقٌ بأَن يكون خبز القلب اليوميّ، ويعلّمنا كيف نحيا، على مثال مريم، تحت أَنظار الله، في تواضعٍ لا يعي ذاته.

«تعظيمة» العذراء تظهر كم الفرح والتسبيح هما مناخ الحياة الجديدة، وحقبة الخلاص القشيبة التي استهلّها مجيء يسوع.

«**تعظّم نفسي الربّ، وتبتهج روحي بالله مخلّصي**». أَيُّ حبورٍ، وأَيّة كثافةٍ في جذل مريم! إِنّها في قمّة الفرح، وتنشد لله الذي هو مصدره.

و«تعظيمتها» هي، أَيضًا، صرخة إِيمانٍ، وفعل عبادةٍ، فالله في صميم حياتها، على نحوٍ لم يخبره أَيّ كائنٍ بشريٍّ. في أَعماق كيانها تحيا له وبه، والعبادة تنفّس وجودها. تحيا حبّ الله على نحوٍ فريدٍ، وفيه تجد سعادتها الجوهريّة، ولاسيّما بعد أَن باتت تحمل في أَحشائها ابن الله بالذات.

إِنّ الإِيمان الحقّ بالله الخالق والفادي، بالله الحبّ، لا يمكن أَن يقود إِلاّ إِلى عبادة هذا الله وتمجيده، والإِشادة به على غرار مريم. وقد لحظ القدّيس أَمبروسيُس: «فليقطن روح مريم في الجميع، كي يمجّدوا الربّ، وليسكن روح مريم في الجميع كي يعظّموا الله!»

كانت مريم ترى في الله أَبًا محبًّا بلا حدودٍ. ترى كلّ شيءٍ فيه، وتتلقّى كلّ شيءٍ على أَنّه منحةُ حبّه، وخاصّةً ذلك الابن الذي تحمله في أَحشائها.

ومن كان، على غرار مريم، خادم الربّ المتواضع، كانت خدمته عنوان نبله، ومشاركةً في الملكوت تجعله صديق الله.

كتب الأَب تيار دي شاردان: «العبادة هي التيه في ما لا يُسبَر له غَوْر، والغوص في ما لا ينضب، والظفر بالسلام في من لا يطاله فسادٌ، والتلاشي، عن وعيٍ وتصميمٍ، بقدر ما يتوغّل المرء في وعي ذاته، والتسليم بالكامل لمن لا حدّ له... كلّما أَصبح الإِنسان إِنسانًا، كلّما أَمسى فريسة رغبةٍ في العبادة أَشدّ وضوحًا، ورهافةً». وكلّ من خَبَرَ شخصيًّا هذه الرغبة تفجّر، تلقائيًّا، من شفتيه، نشيد مريم.

ويقول الأَب «أورس ڤون بلتازار» (Urs Von Balthasar): «ليست العبادة عملاً إِراديًّا، يعتمده المخلوق بناءً على عملٍ فكريٍّ، بل هي تفرض ذاتها، حيثما يُظهر الحبّ الأَبديّ ذاته، في حضورٍ يتخطّى الإِدراك، وفي لفتةٍ صوب الإِنسان تفوق الوصف».

وهل يمكن الشكّ، لحظةً واحدةً، بأَنّ «الممتلئة نعمةً» قد عاشت هذه الفتنة في أَسمى مراقيها؟ إِنّ الحبور المتضوّع من نشيدها هو حبور حبٍّ.

أَمّا لوثير فيقول: «الإِيمان وحده هو مصدر فرحها. فمريم لا تتوقّف عند ما حباها به العليّ من آلاءٍ محسوسةٍ، بل هي تبتهج في الله مخلّصها، الذي يعلنه لها الإِيمان وحده. إِنّ قلب مريم هو النموذج الأَمثل للقلوب المستقيمة، المتواضعة، المتجرّدة، الجائعة إلى الله، والتي تخشاه».

عبادة مريم لله هي قمّة الشكر عن المعجزة التي تحقّقت في أَحشائها، والتي تنسحب على البشر أَجمعين. فهي جزءٌ من مشروع الله الخلاصيّ، ومن خلالها تشيد الخليقة كلّها بشكر الخالق.

وما إِنشادنا لهذه التعظيمة، إِلاّ إِنشاد إِيماننا بسرّ تجسّد ابن الله، واحتفالٌ بالمخلّص والمحرّر، في عمله الجوهريّ هذا، في إِطار تاريخ الخلاص، وهو الاحتفال به وإِنشاده بإِيمان مريم وبروحها، وتأكيد إِسهامه في تحقيق السرّ، بنَغَمٍ منبثقٍ من كلّ كيانها.

بالإِجمال، «تعظيمة» العذراء هي قصيدةٌ قدسيّةٌ تصدح، قصيدة حياةٍ وعملٍ؛ إِنّها صلاةٌ وعبادةٌ، تهليلٌ واندفاعٌ، فعل شكرٍ، ونشيد انتصارٍ، انتصار الله في يسوع. إِنّها صرخة إِيمانٍ، تأمّلٌ لا ينضب، ودعاءٌ.

إِنّها نشيد المعركة التي يخوضها الله في صميم التاريخ البشريّ، معركةٍ من أَجل إِقامة عالم علاقاتٍ أَخويّةٍ مبنيّةٍ على احترام كلّ كائنٍ يبتغي الآب السماويّ أن يجعل منه مسكنًا لروحه.

فمثلما كانت مريم تحمل، في ذاتها، ابن الله، كذلك الله يلد، كلّ يومٍ، بروحه، رجالاً ونساءً مكرّسين للعدل، ويعقدون معه علاقات حبٍّ من خلال إِخوتهم.

نشيد مريم هو برنامج ملكوت الله.

وهو يظهر تعذّر التوافق بين الله والخطيئة، بين الحبّ والعنف المعبّر عن أَنانيّةٍ وحشيّةٍ تتغذّى ببؤس المقهورين والمحرومين.

إِنّها نشيد عمل الله الخلاصيّ، على امتداد التاريخ، ولاسيّما نشيد تجسّده في أَحشاء العذراء. إِنّها نداءٌ يخاطب إِيماننا، ورجاءنا، ومحبّتنا، ورسالتنا، بصفتنا شهود الإِنجيل، وعدلَنا، وتضامننا وكفاحنا في سبيل تحرير إِخوتنا المستغَلّين والمقهورين، ومن أَجل توطيد حقوق الإِنسان.

وفقط عندما نجهد في جعل هذا النشيد نشيدنا، على مدى حياتنا، نُفلح في الولوج إلى أَعماقه، وندهش، حينئذٍ، من انتقالنا من اكتشافٍ إلى اكتشافٍ، ومن قمّةٍ إلى أُخرى. ولن نفرغ أَبدًا من استنباط كلّ ما تنطوي عليه هذه التحفة التي تفجّرت من تجربةٍ فريدةٍ، في تاريخ البشريّة.

وليس الغرض مجرّد دراسة هذا النشيد، بل ينبغي السكن فيه، وعيشه، وإِعادة ابتداعه. إِنّه كلامٌ إِلهيٌّ أَبديّ الجدّة، يسائلنا مباشرةً، فرديًّا وجماعيًّا. كلامٌ لجميع الأَجيال، وكنزٌ لا يُثمّن، أوكل إِلينا.

يقول القدّيس بيرنار: «كلّ هذا النشيد تسكنه الأَسرار الإِلهيّة، وكلّ لفظةٍ فيه تفيض عذوبةً إِلهيّةً، شرط تأمّله بقسطٍ وافٍ من العناية، من خلال لقاءٍ روحيٍّ مع نصٍّ يجعلنا على علاقةٍ بامرأةٍ فريدةٍ، في تاريخ كلّ البشريّة. وحريٌّ بنا أَن نستسلم لفتنة تحفة النعمة هذه، فنتطهّر، ونتجلّى، بفضل اتّصالنا بها».

لقد وضع الإِنجيليّ لوقا شخص مريم ورسالتها في صميم سرَّي التجسّد والفداء. وبالتالي، فالإِشادة بالله المخلّص تقتضي الإِشادة بالمرأة التي اصطفاها دون كلّ النساء. فهي منذ تلقّيها ابن الله في أَحشائها، امتلأت بالروح القدس، وأَضحت

شاهدة كلمة اللّه، والعاملة بها. ومن ثمّ غدا الإِصغاء إِليها، وتأمّل حياتها، واقتفاء خطاها بمثابة الانضواء إلى مدرسة اللّه، مدرسة الإِنجيل.

لقد اخترق نشيد العذراء القرون، وتمنّى البابا بولس السادس أن يصبح هذا النشيد نشيد خدمةٍ ورجاءٍ، نشيد حضارة الحبّ، نشيد تبشير العالم، وقال إِنّ هذا النشيد «بامتداده، أَصبح صلاة الكنيسة جمعاء، في كلّ الأَزمنة».

إِنّه، على امتداد الأَجيال، نشيد جماعات الرجال والنساء الذين يعلنون، من خلاله، إِيمانهم وشكرهم واندفاعهم، وعزمهم على تنفيذ فحواه، في كلّ بقعةٍ من العالم.

إِنّه نشيدٌ كونيٌّ شاملٌ، وخليقٌ بأَن يكون نشيد الكنيسة، لا كنيسةٍ مقرورةٍ منكفئةٍ على ذاتها، ولا كنيسةٍ منتشيةٍ بانتصارها، بل كنيسةٍ منفتحةٍ، ومتواضعةٍ، وأَخويّةٍ، تهتمّ، صادقةً، بمعاناة المستَغلّين والمقهورين، ويقلقها الإِلحاد المستشري، كنيسةٍ فرحةٍ، وفخورةٍ بالشهادة لأَعمال اللّه في تاريخ البشريّة، وليسوع المصلوب وقاهر الموت، وللّه الحبّ، اللّه الثالوث.

لقد جاء في إِعلان مؤتمر بويبلا، في أَميركا اللاتينيّة:

«بمريم تجسّد اللّه، وغدا مركز التاريخ. مريم هي صلة الوصل بين السماء والأَرض. بمعزلٍ عنها يفقد الإِنجيل واقعه، ويُشوَّه، وينقلب إِيديولوجيّةً....

نشيد العذراء هو نشيد الحياة الداخليّة العميقة،

ونشيد الالتزام من أَجل تغيير العالم، استجابةً لنداء المخلّص والمحرّر،

إِنّه نشيد الكنيسة الجامعة، بصفتها شعب اللّه، ونشيد الجماعة المسيحيّة حيثما التأَمَت، نشيد الراهب والراهبة،

نشيد الفتاة والزوجة، والأُمّ،

نشيد الفتى والشابّ، ورجل الأَعمال، والناشط السياسيّ والنقابيّ، والعامل والفلاّح،

نشيد كلّ مُنتدَبٍ لمهمّةٍ رعويّةٍ،

نشيد المريض، الذي، بآلامه، يستطيع التواصل، بعمقٍ، مع آلام المصلوب، من أجل خلاص العالم.

ليس أَحدٌ مُبْعَدًا عن هذا النشيد، وإِن كان غارقًا في الخطيئة، ولا يملك جرأة التوبة. حسبه، حينئذٍ، أَن يلتفت صوب من سُمّيت «نجمة البحر» و«سلّم الخطأة».

بوسع كلّ فردٍ أَن يجعل من هذا النشيد نشيده الخاصّ، وبواسطته يتحوّل، في أَعماق ذاته، جاعلاً منه تعبيرًا عن تسبيحه، وشكره، وعزمه على خدمة إِخوته البشر.

بوسع كلّ فردٍ أَن يعيد صَوْغ نشيد التسبيح هذا. أَليس لهذه الغاية ابتدعته أُمّنا؟»

بعد أَن حلّقت مريم في أَجواء الروح، وبلّغت البشرى والنبوّة، وأَشاعت الفرح في القلوب والأَجواء، عادت فانغمست في وضاعة الأَعمال المنزليّة اليوميّة، مضطلعةً بكلّ المهامّ التي باتت إِليصابات تجد مشقّةً في أَدائها، بسبب شيخوختها وحبلها.

يمكننا تخيّل العذراء في بيت نسيبتها، يقظة الاهتمام، دائبةً على الخدمة، مضطلعةً بأَكثر الأَعمال المنزليّة وضاعةً، من كنسٍ وتنظيفٍ، وطهوٍ، وحياكةٍ لثياب الطفل المنتظر، مساعدةً إِليصابات، معزّيةً زكريّا بقرب انتهاء محنة خرسه مع مجيء الطفل.

لقد كانت مريم هي الرقّة مجسّدةً.

وكانت تتسنّى لها سويعات فراغٍ في خلوة صلاةٍ، أَو في تبادل أَحاديث مع نسيبتها، أَحاديث علويّةٍ مشبعةٍ بحضور اللّه العجيب في كلٍّ منهما. وهكذا كرّت أَشهرٌ ثلاثةٌ، وكأَنّ عين كارم قد أَمست مهرجانًا للروح القدس، وموضع فيضٍ من النعم والمواهب السماويّة، والفرح والقداسة.

ولا ريب أَنّ مريم شاركت الكاهن المعاقب محنته، وخفّفت عن كاهله وطأتها، فكانت في كلّ مناسبةٍ تبلسم قلبه ببسمةٍ، وبكلمةٍ رقيقةٍ، مغدقةً عليه سيلاً من العزاء، ممنّيةً إِيّاه بالفرح الجمّ الذي سيغمر نفسه لدى ولادة الصبيّ المبارك.

مجرّد وجود مريم كان يشيع حضورًا إِلهيًّا عذبًا وبهيجًا يتغلغل في نفس زكريّا، الذي أَمام تلك التي كانت تحمل موضوع الإِيمان كلّه، كان إِيمانه ينمو ويشتدّ. وما إِن انتهت خلوته القسريّة، وانحلّت عقدة لسانه، حتّى انطلق، هو أَيضًا، يتنبّأ، مستمدًّا من نشيد زائرته القدّيسة موضوع نبوءةٍ.

من المرجّح أنّ مريم لم تغادر عين كارم، إلى أن وضعت إِليصابات ابنها. فمن غير المعقول أن تبارحها، وهي في أشدّ الحاجة إليها، وألاّ تشارك الوالدين الشيخين فرحتهما، وألاّ تشهد من سيكون المنادي بمجيء ابنها، وممهّد الدروب له.

وفيما كان الأقارب والجيران يتدافعون لرؤية ابن المعجزة، ولتهنئة أبويه بانقشاع غمامة عقمهما، لم يتنبّه أحدٌ منهم إلى أنّ بينهم أُمًّا شابّةً، حلّت عليها نعمةٌ فريدةٌ، فحملت في أحشائها جنينًا إلهيًّا لا مثيل له، وينطبق عليها قول يوحنّا في يسوع: «**وإِنّما بينكم من لا تعرفونه...**».

ضمّت، إذن، مريم إلى قلبها الطفل الذي قدّسته بحضورها، وودّعت الأُسرة التي تذوّقت في أحضانها فرحًا جمًّا. وشدّت الرحال، عائدةً إلى الناصرة حيث كان ينتظرها، في لهفةٍ وقلقٍ، يوسف الطيّب، خطيبها البارّ، الذي لم يبارح طيفه خيالها، سحابة فترة إقامتها في عين كارم.

ويسرّنا أن نختم هذا الفصل بقول لوثير: «إِنّ تلك السيّدة التي تسمو فوق السماء والأرض آثرت أن تنسى امتيازاتها، وأن تنعم بقلبٍ من التواضع بحيث لم تخجل من غسل أقمطةٍ، ومن إعداد حمّامٍ ليوحنّا المعمدان، مثل خادمةٍ (في بيت إليصابات). يا للتواضع! وكان الأجدر بها أن تُعَدَّ لها مركبةٌ مذهّبةٌ يجرّها أربعة آلاف حصانٍ، وأن يُهتف، ويُنشد أمام هذه العربة: هذه هي المرأة التي سمت فوق جميع النساء، بل فوق الجنس البشريّ كلّه... ولكنّها، عوضًا عن ذلك، اجتازت طريقًا طويلاً، ميلاً، فعشرين ميلاً، ثمّ المزيد، مع أنّها كانت، آنذاك، قد أضحت أُمّ الله. ألم يكن أكثر لياقةً بها أن تتوثّب وترقص جميع التلال، إكرامًا لها».

«يا يوسف... لا تخف
أن تأخذ إِليك مريم زوجتك» (متّى ١ : ٢٠)

يُعتقد، عمومًا، أَنّ مريم كتمت حتّى عن خطيبها يوسف حدَث البشارة، احترامًا لسرٍّ إِلهيٍّ يصعب على العقل البشريّ إِدراكه وتصديقه.

ولكنّنا نميل، مع كثيرين، إلى الاعتقاد بأَنّ تلك التي فُطرت على الصراحة والصدق لم تستطع إِخفاء أَمرٍ يتّسم بهذا القسط من الخطورة، على من ضحّى بالكثير كي يشاركها حياةً مكرّسةً للّه.

ولا ريب أَنّ البشارة أَحدثت في نفس مريم تغييرًا جوهريًّا انعكس أَثره على سلوك كائنٍ في مثل شفافيّتها، وعلى محيّاها، وبسمتها، وفي عمق عينيها الصافيتين. ولم تخفَ آثار هذا التغيير عن عيني يوسف المحبّتين، فاستفسر، بنظرة تساؤلٍ صامتةٍ، ولم تتوانَ مريم عن إِطلاعه، فالصراحة لديها هي أَساس كلّ علاقةٍ سليمةٍ.

ومع أَنّ ما حدث لمريم لم يكن من الأُمور التي يسهل تصديقها، لم يخامر يوسف أَيّ شكٍّ، فهو وثيق المعرفة بالتي ارتبط مصيره بمصيرها، وكان موقنًا بطهرها، وقداستها، ووفائها، وصدقها، وخضوعها التامّ للّه. وكان يشعر أَنّ أَدنى ريبةٍ من قِبَله في سلوكها هو إِهانةٌ له قبل أَن يكون إِهانةً لها.

بيد أَنّ سرّ التجسّد، الذي كانت مريم مركزه، السرّ الذي كان يتخطّاه، والذي أُقحم فيه، أَوقعه في أَزمةٍ وجدانيّةٍ رهيبةٍ ومضنيةٍ. فقد بات واضحًا له أَنّ اللّه جعل من خطيبته خاصّةً له، لغايةٍ تتعدّى الفهم البشريّ، فانتابته رعدةُ مَنْ يعي، فجأةً، عدم أَهليّته، مثل رعدة بطرس، عندما تبيّن أَنّه في حضرة إِلهٍ، فهتف، تلقائيًّا: «ابتعد عنّي، يا ربّ، فأَنا خاطئ». وحاصرته التساؤلات التي لم يكن يجد لها أَجوبةً. فهل يحقّ له أَن يكون زوجًا للّتي تحمل ابن اللّه في أَحشائها؟ وهل يحقّ له البقاء إلى جانب مريم، وادّعاء لقب أَبٍ لجنينها، لقبٍ يخصّ اللّه وحده؟

يوسف «بارٌّ». والبرّ يعني الاستقامة والصدق، وعدم التظاهر بما ليس حقًّا. وقد مزّقته الحيرة. فهل سترغمه استقامته على الانسحاب من حياة مريم؟ يبدو أَنّ هذه الفكرة راودته، وكان مزمعًا على الإقدام عليها، بعد أَن يحتاط لكيلا يَطال خطيبته الطاهرة أيّ أَذًى ماديٍّ أَو معنويٍّ. ولكنَّ ذلك كان مستحيلاً، فالخطوبة بمثابة عقد زواجٍ، وفسخها يتطلّب ما يشبه طلاقًا يقوم عليه شهودٌ، وتقدّم له مبرّراتٌ، ولا مناص من أَن يثير ذلك الفضائح والشبهات.

وفي الآن عينه، كان من نتيجة هذا القرار إرغام يوسف على هجر تلك المخلوقة الرائعة، الكاملة، التي لم يكن الحبّ والحياة بقربها سوى فرحٍ ونورٍ صافييْن. وكان يعني هجر مشروع العيش معها، في حياةٍ مكرّسةٍ للربّ الذي استحوذ على قناعته وهواه.

إِنّ سبر عمق المأساة الناشبة، حينئذٍ، بنفس يوسف، يقتضي اعتبار أَنّ الحبّ الذي أَلهمته له مريم قد جَمَع، في قلبه وحده، كلّ ما تلهمه العذراء، جيلاً عقب جيلٍ، في قلوب جميع المسيحيّين، من شَغَفٍ، وإِعجابٍ، وتقوًى، وتكريمٍ. فهو، أَكثر من أَيّ إِنسانٍ آخر، كان يرى أَنّ وجودها يضفي على الطبيعة نبلاً، وكان، عبر عينيْها يتّصل بالنبع الأَبديّ. وهو ما كان قد ارتضى الزواج منها مع الالتزام بالحفاظ على بتوليّتها وبتوليّته، إِلاّ ضنًّا منه بذلك الكنز الثمين الذي بات، الآن، مهدّدًا بفقدانه.

جرح قلبه كان بليغًا، وبراءة مريم كانت تضيء بنورٍ جارحٍ أَعماق مأساته. إِنّها إلى جانبه، صامتةٌ، موكلةٌ أَمر الحلّ إلى الذي كانت إِطاعتها لمشيئته منشأ المأساة كلّها. إِنّها تتحسّس أَلم يوسف وتفهمه، ولكنّها لا تملك له دواءً، ولا يسعها سوى الالتفات معه صوب الربّ. إِنّهما ما زالا في أَوّل شوط مسيرتهما، ولم يسبق لهما سوى اقتسام الأَمل والسعادة. وها هما يكتشفان شراكةً مريرةً، شراكة الحيرة والتمزّق التي لم تنلْ من وحدتهما، ولكنّها أَضفت عليها وجهًا مختلفًا.

بحدْسها الثاقب كانت مريم تشعر أَنّ يوسف يُعمل الفكر في هجرها، وتتقبّل هذا الهجر، إِن كانت تلك إِرادة الربّ. مع أَنّ هذا الهجران، إِن حَدَث، سيؤلمها، يؤلمها الانفصال عمّن تحبّ، ويؤلمها أَن يمضي يوسف على دروب الحياة وحيدًا، خائب الأَمل بلا هدفٍ ولا رسالةٍ، فيما دربها هي، قد بات مرسومًا.

وجاءت زيارة مريم إلى إليصابات، بمثابة هدنةٍ ليوسف، وفرصةٍ لمزيدٍ من إعمال الفكر، والتأمّل والصلاة. غير أَنّ غياب مريم، مع حضورها الملحاح في خاطره، قد زاد مأساته حدّةً. وكانت عودتها، بعد غيابٍ استمرّ ثلاثة أشهرٍ إيذانًا بوجوب حسم القضيّة، ولاسيّما أَنّ أَمارات الحمل لن تلبث أَن تظهر للعيان.

وفي إِحدى الليالي كان اصطراع الهواجس قد أَرهق يوسف، فاستسلم لسباتٍ ثقيل الوطء، يبطئ مسيرة الحياة، ولكنّه لا يضع حدًّا لنزاع النفس. وفي تلك الأَثناء كانت مريم ساهرةً سهر خطيبةٍ توشك أَن تفقد خطيبها بفعل ظروفٍ تفرض الفراق. مأساة يوسف كانت تمزّق نفسها، وكانت تحيا بعمقٍ، نزاع نفسه الذي لا يجد إلى التعبير عنه سبيلاً. كانت ملتفتةً، بثقةٍ، صوب من جمعهما معًا، وتؤنس، في قرارة نفسها، أَنّ ارتباطهما من المنعة بحيث يتعذّر فصمه، لأَنّه قائمٌ على وفاءٍ لله، أَساس وحدتهما الأَوحد.

مريم كانت قد وجدت، في يوسف، ضالّتها، إِذ عثرت فيه على الرجل الكفيل بمقاسمتها نذرًا غير مألوفٍ يكرّسها، كلّيّةً، لله، ويجعلها في مأمنٍ من تدخّلات الأَهل، ومقتضيات التقاليد. فهل ستفقده، الآن، وقد فجّر الله فيها الأُمومة، بخارقةٍ فريدةٍ، فتصبح دريئةً للنميمة، والشماتة، والمهانة؟

لم يكن العار هو ما تخشاه، بل جراح انتهاك حرمة الصمت، وغزو الأَنظار الوحشيّ لأَسرار النفس. ولم تكن ترهب عواقب وضعٍ أَقحمتها فيه طاعةٌ ساميةٌ، بل كانت راضيةً بكلّ ما سيحدث لها، وجلُّ ما كانت ترجوه هو تحرير يوسف من مأساته.

وحينئذٍ تدخّل الله، وأَنفذ رسوله إلى يوسف، وهو في غمرة سباته المضطرب، فربّتَ على كتفه برقّةٍ، مثلما يوقَظ طفلٌ نائمٌ، وقال له: «**يا يوسف، ابن داود، لا تَخَف أَن تأخذ إِليك مريم، زوجتك. فإِنّ المولود منها إِنّما هو من الروح القدس. وستلد ابنًا فتسمّيه يسوع لأَنّه هو الذي يخلّص شعبه من خطاياهم**».

لقد اقترح اللاهوتيّ الأَب «رينيه لورنتان» (Rene LAURENTIN) الترجمة التالية لقول الملاك: «يا يوسف، ابن داود، لا تخف من أَن تأخذ إِليك مريم زوجتك (أو خطيبتك)، فمع أَنّ المولود فيها هو من الروح القدس، فأنت ستطلق عليه اسم

يسوع...» ولا ريب أنّ هذه الترجمة هي أكثر انسجامًا مع كون مريم قد أطلعت يوسف على سرّ حبلها الإلهيّ في حينه.

«**لا تخف أن تأخذ إليك مريم زوجتك**»، مريم التي ينطوي اسمها على كلّ ما في الفجر من سنًى وبهجةٍ. ولكي يشدو، في داخلك، يا يوسف فرح كلّ أعياد الميلاد، اعلم أنّ الجنين الثاوي في أحشائها هو من عمل الروح القدس، الروح الذي هو أبديّة الحبّ، وأبديّة الكيان، وعليك، تجاهه، وتجاه أمّه، واجبٌ خطيرٌ.

مريم «ستلد ابنًا»، ستكون أمًّا، نظير كلّ أمّهات الأرض، وخلافًا لكلّ أمّهات الأرض، وسيُكلَّف يوسف بتسميته، والتسمية هي حقّ الأب، ممّا يؤكّد حقّ يوسف عليه، ومسؤوليّته تجاهه. وسيكون اسم المولود «يسوع» أي «اللّه يخلّص». ومن ثمّ يوسف هو الذي سيكرّس قانونيًّا واجتماعيًّا رسالة ابن اللّه.

يوسف، أيضًا بُشّر بولادة يسوع، بعمل الروح القدس، مثلما بُشّرت مريم، ولكن بطريقةٍ مختلفةٍ. كلاهما زهدا في خصبهما الطبيعيّ، كي ينفتحا على خصب اللّه، ويصبحا أبًا وأُمًّا بفعل الروح القدس، ويغوصا في سرّ أُبوّة اللّه.

تبدّدت، إذن، خشية يوسف من ادّعاء وضعٍ ليس له فيه يدٌ، إذ إنّ اللّه نفسه كلّفه به. ومن يجرؤ على إنكار أنّ يوسف قد أحبّ يسوع حبًّا يفوق حبّ أيّ أبٍ طبيعيٍّ لابنه؟

وما إن أشرق النهار حتّى هرع يوسف إلى مريم التي، قبل أن يتفوّه خطيبها بأيّة كلمةٍ، أدركت ما حصل له من تحوّلٍ. كانت قد شهدته ممزّقًا، حائرًا، مصلوبًا في حبّه، فإذا بها أمام شابٍّ مختلفٍ، قويٍّ بالمسؤوليّة التي أُسندت إليه، والتي تقبّلها بفرحٍ. وتفجّرت من نفسها عواطف الإعجاب والتأثّر والعرفان بجميل من رسّخ وحدتهما، بإظهاره لهما غايات هذه الوحدة.

أنظارهما تفاهمت، وأيديهما تشابكت، ومن يد يوسف مرّت سلطة المسؤوليّة الجديدة التي أُسندت إليه، فارتاحت مريم إلى الرجل القويّ الذي تحتاج إليه لكي تكون أُمّ المخلّص.

وامتثل يوسف لأمر الملاك الذي أدخل الطمأنينة إلى قلبه، فأخذ مريم إلى بيته في حفل عرسٍ أسبغ عليه من البهجة بقدر ما كان يفعم قلبيهما من حبٍّ وفرحٍ، بعد

أَن انحلّت عقدتهما، وتبدّدت حيرتهما، وأَضفى عليه من الكرم بقدر ما أَتاحت له موارده الضئيلة، والبساطة التي أَلِفاها كلاهما.

لم يبوحا بشيءٍ من سرّهما. وكانت طقوس العرس تعني لهما غير ما كانت تعني لعامّة الناس. فقد كانا بكلّيّتهما مكرّسين لله، مفعمين بكلمته. وكان كلٌّ منهما قد تلقّى رسالةً سماويّةً، وأَصبح صورةً حيّةً لمعاهدةٍ جديدةٍ بين الله والبشر. لقد كانا طهرًا صافيًا واندفاعًا خالصًا نحو الله. ومريم كانت تحمل في أَحشائها تحقيق الخلاص الذي وعد به الله البشر.

طقوس الزواج هذه، كانت، أَيضًا، رفدًا لحبّهما المتبادل، وإِعدادًا للأُسرة التي سيحلّ ابن الله في أَحضانها، وسيلقى فيها دفء الحبّ، والعناية.

ولا ريب أَنّ يوسف تذكّر، في ذلك اليوم، نشوة جدّه داود يوم أَدخل تابوت العهد إلى أُورشليم في غمرةٍ من الأَناشيد، وقرع الطبول، والجيشان الشعبيّ، بحيث إنّ داود نفسه رقص بكلّ قواه، مستعظمًا دخول تابوت العهد تحت سقف بيته، وها إِنّ مريم تدخل تحت سقف بيت يوسف، وهي، حقًّا سفينة عهدٍ فائقة القداسة وحاملةٌ كلّ جلالة الله وحنانه.

أَجل، إِنّ فرحهما، في ذلك اليوم، كان مختلفًا عن فرح الأَقارب والأَصدقاء، بل كان مختلفًا عن فرح لقائهما الأَوّل وفرح خطوبتهما. ففي هذه الأَثناء كان الربّ قد أَعلن لهما عن غاية حبّهما وزواجهما، فكثّف فيهما فرح تكريس ذاتيهما للكائن الوحيد الذي يستأهل أَن تكرّس له الحياة.

لم يكن قرانهما مجرّد عقدٍ شرعيٍّ، وحدةً زائفةً لا غَدَ لها. فقد تخلّيا عن إِكمال وحدتهما الجسديّة، لكي يكون اتّحادهما في الله كاملاً، وبذلك كانت شراكتهما كاملةً، وكان رباطهما الروح القدس الذي، وحده يضمن وحدةً كاملةً دائمةً.

وخرج حبّهما من الأَزمة متجدّدًا، وأَمتن رسوخًا، وأَشدّ تألّقًا بأنوار الروح القدس. فالرسالة التي أَوكلها إليهما ابن الله الثاوي في أَحشاء مريم جعلهما أَكثر اعتمادًا أَحدهما على الآخر، ومساندةً أَحدهما للآخر.

زواجهما نهض على أَساسٍ إِلهيٍّ، متحرّرٍ من أَوهام الهوى وخيباته، ومن مساكنة

أَنانيّتين لا تنفكّان تتصادمان. وأمسى حبّهما الزوجي هو حارس بتوليّتهما، ومصدر رقّةٍ ومودّةٍ نابعتين من اللّه، ومكرّستين له.

كانت مريم قد نذرت البتوليّة لكي يكون كلّ كيانها اندفاع حبٍّ نحو اللّه. وإِن هي ارتضت بيوسف خطيبًا، فلأنّها اكتشفت أو ولّدت لديه عزمًا مماثلاً. فكان حبّهما مكرّسًا للّه، وبالتالي كان أكمل من كلّ حبٍّ، فالبتوليّة لا تُنقص من الرقّة شيئًا، بل إِنّها تُضفي عليها امتلاءً وحرّيّةً.

بإِتمام مراسم الزواج أَصبح يوسف شريك أُمومة مريم بمقدار ما كان ملتزمًا ببتوليّتها، وتحقّق خصبه في الثمرة الرائعة التي أَنتجها الروح القدس.

وحدتهما كانت محكومةً بأن تظلّ محرومةً من ثمرتها، إِذ كان عليها أَن تظلّ بتوليّةً. ولكنّ القدرة الإِلهيّة أَسبغت على زواجهما البعد الذي كان يفتقر إِليه، وذلك بامتيازٍ فريدٍ، بما أَنّ ابنهما هو ابن اللّه، وسيكون مخلّص العالم.

وأَدرك الزوجان أَنّ الولد الإِلهيّ لم يوكل إِلى مريم وحدها، بل إِلى زواجهما وإِلى حبّهما. لم يجرّد يوسف من صفة الزوج، بل إِنّ هذه الصفة اندرجت في مخطّط اللّه، كما كانت قد اندرجت بتوليّة مريم. سيكون هو أَبًا ليسوع الأَرضيّ، كما سيكون، فعلاً، زوج مريم، ولذلك عليه أَن يأخذ إِليه مريم، خطيبته.

بتوليّتهما أَخصبت، وبما أَنّ الرباط الذي بات يجمعهما هو شخص ابن اللّه، فقد كان زواجهما مقدّسًا، أَبديًّا، يجمع، جمعًا فريدًا، كلّ عناصر الوحدة الكاملة: الخصب، والتعاضد والديمومة. وقد قام زواجهما على أَهمّ مقوّمات الزواج: الإِخلاص، والتكافل، والأُنس، والمشاركة، والتعاطف، والذكريات المشتركة، وأَسهم في تكوين أُسرةٍ مسكونيّةٍ غزيرةٍ. وقد استعاض عن العلاقات الجنسيّة بالعلاقات الروحيّة السامية التي ينبغي أَن يبدأ بها كلّ زواجٍ، وبها يكتمل.

بتوليّة يوسف كانت انعكاسًا لبتوليّة مريم، وأُبوّته نتيجةً لأُمومتها. وحضور يسوع ربطه بها أَبديًّا، وثبّته في النعمة، وأَضفى عليه قداسةً فائقةً. ويظلّ زواج مريم ويوسف نموذجًا للأَزواج المسيحيّين الذين لن يفلحوا في تخطّي المراحل المعتمة والمؤلمة من الحياة المشتركة إِلاّ بالتطلّع إِلى اللّه، والالتجاء إِلى عونه. وهو كفيلٌ بإِرشادهم إِلى الحلول الخلاصيّة، وإِلى التغلّب على المصاعب التي تؤرّقهم، وبتلقينهم الحكمة

التي هي ثمرة حبٍّ متجرّدٍ تمامًا، مثل الحبّ الذي جعل مريم «مقرّ الحكمة، وأُمّ الحبّ الجميل».

مريم ويوسف وهبا، كلاهما، ذاتيهما لله، وبذلك ازدادا أَحدهما للآخر حبًّا نقيًّا لا تعكّره شهوةٌ أو غيرةٌ، ولا حبّ امتلاكٍ، ولا يفسده خلافٌ. فاكتسب زواجهما رسوخًا، ومناعة ارتباطٍ، وسخاء تضحيةٍ. وقد وصف بوسُّويه وحدتهما بأَنّها «بتوليّتان توحّدهما بركة الله كي تحافظ الواحدة على الأُخرى، من خلال تبادل رغباتٍ طاهرةٍ».

زواج مريم كان تدبيرًا إِلهيًّا، فمع الحفاظ على بتوليّتها، قد توفّر لها في شخص يوسف، الذي شاركها البتوليّة، غطاءٌ اجتماعيٌّ لأُمومتها، وأَبٌ شرعيٌّ لابنها. وجمعت مريم ويوسف علاقةٌ وثيقةٌ، رقيقةٌ، طاهرةٌ، في حياةٍ مكرّسةٍ لله.

وقد أَثبتت العيلة المقدّسة حقيقةً تحتاج مجتمعاتنا، حاجةً حارقةً إِلى اكتناهها، وهي أَنّ حبًّا خاليًا من العلاقات الجنسيّة خيرٌ من علاقاتٍ جنسيّةٍ خاليةٍ من الحبّ.

بتأسيس اتّحادهما على الله وحده، أَضحى يوسف ومريم نموذجًا للتواصل والتضحية، ولكنّها تضحيةٌ لا تخلق نقصًا، بل، على نقيض ذلك، هي امتلاءٌ بالروح الذي، وحده، يجمع الأَفراد بعرًى لا تنفصم.

العلاقات الجسديّة غالبًا ما تُفسد الحبّ عوضًا عن تغذيته. وكلّ حبٍّ بشريٍّ، إِن لم يكن منفتحًا، مقدّمًا لله، فهو يثمر، حتمًا خيبات أَمل.

مريم ويوسف كانا أَحدهما للآخر، في البتوليّة. حبّهما المشترك لله قدّس حبّهما المتبادل، ولم يُنقِصْه. فمن أَحبّ، ولم يكن أَساس حبّه قائمًا على الله، سرعان ما يتردّى إِلى الرياء والنفاق، والحنث بالوعود. وإِن لم يكن الله معنا، مخصبًا علاقاتنا، فالحبّ البشريّ سيضحي، لا محالة، مصدر وجعٍ وأَذًى.

قرارٌ إِمبراطوريٌّ، أم تدبيرٌ إِلهيٌّ؟

تمحورت حياة مريم ويوسف حول ابن الله، الثاوي، جنينًا، في أَحشاء العذراء. كان هو موضوع تفكيرهما، وأَحلامهما، ونشاطهما، وتأمّلهما. من أَجله كانا يؤثّثان بيتهما الوضيع، فيوسف يصنع له المهد، بعنايةٍ وحبٍّ، ومريم تحيك له الثياب الدافئة، وتخيط له الأَقمطة. إِنّهما يعبدانه وهما ينتظران مجيئه. وجوده في مريم كان يجعل منها ومن بيتهما في الناصرة هيكلاً آهلاً بالخشوع.

منذ البشارة كانت مريم قد وُلدت على حياةٍ جديدةٍ. فقد تلقّت، في أَحشائها، النور الجوهريّ ذاته، كلمة الله الذي بشّر به الأَنبياء، والذي سيستهلّ عهدًا جديدًا. فكان على مريم أَن تبتر كلّ صلةٍ لها بالماضي اليهوديّ، لكي تكون بكلّيّتها، في مدرسة ابنها. ومعه استهلّت وجودًا جديدًا.

كانت، بكلّيّتها، متواريةً في جنينها، في تجرّدٍ مطلقٍ، واستسلامٍ تامٍّ. ومعه خاضت، في اتّحاد حبٍّ، حياة الجنين في أَحشاء أُمّه، حياة كلّ صغيرٍ في حضن الآب. جسديًّا كان يسوع، هو، في مريم، وصوفيًّا وروحيًّا، كان هو يحمل أُمّه، ويحيق بها بكلّ كيانه.

ولا ريب أَنّ جذوة يسوع المضطرمة بنار أُلوهته، والتي اندمجت بجوهر مريم أُمّه، قد سعّرت فيها، فوق كلّ تصوّرٍ، حريق الحبّ المقدّس. ومن المحقّق أَنّ ما يفعله يسوع في نفوس المؤمنين إِذ يطعمهم جسده تحت الأَعراض الإِفخارستيّة، قد حقّقه على نحوٍ أَوفر جدوى وقدسيّةً، وفوق كلّ قياسٍ، عندما كان جسد أُمّه البتوليّ، وجسده الخاصّ، جسدًا واحدًا، حقًّا. لقد احتبس ابن الله، تسعة أَشهرٍ، في أَحشاء مريم، التي كانت تعي، في كلّ لحظةٍ، جلال السرّ، وتذوب في فعل شكرٍ مستمرٍّ، مفعمٍ حبًّا. ولا شكّ أَنّه أَغدق عليها كلّ ما يليق بالتي اختارها أُمًّا له.

ومن ثمّ، كانت حياة مريم موزّعةً بين العناية ببيتها وزوجها، والتأمّل الخاشع في الساكن فيها، والذي جعلها محرابًا حيًّا.

كانت تحيا مع يوسف حياة كائنَيْن مكرّسَيْن للّه الموجود معهما. وكان يربطها بيوسف حبٌّ شفّافٌ، سامٍ، قائمٌ على احترام إِيحاءات اللّه، حبٌّ أَغنى وأَخصب من كلّ ما يعهده البشر من ضروب الحبّ. هذه البتوليّة استهلّت حركةً رائعةً من العفّة البطوليّة الموقوفة على خدمة اللّه والبشر، ومن بذل الذات في سبيل أَهدافٍ عليا، عفّةٍ كانت، حتّئذٍ، مجهولةً إِلاّ في حالاتٍ استثنائيّةٍ.

ببتوليّتها وهبت العذراء العالمَ المخلّص، وببتوليّتها الدائمة، علّمت العالم كم يستحقّ الربّ أَن يُحَبّ.

البتوليّة، في مريم، سرٌّ مقدّسٌ. إِنّها طابع حبّها الأَكثر حميميّةً الذي يسبغ على وجدانها النور والديناميّة والجاذب الذي يغلّف جسدها ويوحّده في الصميم ويجعل منه أَداةً مميّزةً للحبّ الطاهر. وهي، بتكريسها هذا الجسد، كرّست إِرادتها وكلّ مشاعرها، وكلّ جوهر كيانها.

ومن نتاج بتوليّتها طاعتها. فليس في مريم أَيّ «أَنا» مسيطرٍ. إِنّها، فطريًّا، مطيعةٌ، وهي ترى، في يوسف، صورةً لسلطة اللّه. وهو، بحنكته، وشهامته، وحكمته، وقوّته، الحارس الذي هيّأه اللّه لها. هي تخضع له، وهو يؤازرها في كلّ علاقاته مع الخارج، ويذود عن العمل الذي يحقّقه اللّه فيها. إِنّه موقنٌ أَنّ اللّه يقطن فيها، ويوليها ثقةً تامّةً. وهي، معه، أَوفر حرّيّةً في اتّباع إِلهامات العليّ.

ما يربط نفسيهما هو الكَلَف بالصمت الذي أَودعه فيهما الروح القدس. والصداقة التي تجمعهما هي، حقًّا، فائقة الطبيعة، لأَنّها من إِلهام الروح القدس. وحدتهما أَكثر عمقًا وحميميّةً، ورقّةً من أَيّة صداقةٍ بشريّةٍ، ولكنّها من مستوًى آخر. فقد وُلدت في الصمت، واكتملت في الصمت. وبذلك بقيت بتوليّةً بالكامل. فبتوليّة القلب وبتوليّة الصمت تتلاقيان في قمّتهما. وعندما يجمع الروح القدس أَصدقاء، لا يجمعهم لكي يُغنوا بعضهم بعضًا، ولو روحيًّا، بتحديق بعضهم ببعضٍ، بل لكي يتعاونوا على التحرّر من الأَنا، والانغماس في صمت الحبّ. وفي هذا الصمت انغمس يوسف ومريم.

حبّ العذراء، جوهريًّا، فقيرٌ لأَنّه لا يحتفظ بشيءٍ لنفسه، وهو، جوهريًّا، وديعٌ ومتواضعٌ، لأَنّه يحبّ أَن يبقى تحت سيطرة اللّه، عاملاً بمشيئته، وهو، قبل كلّ

شيءٍ، راغبٌ في بذل ذاته بذلاً كاملاً، لا يتحقّق، على هذه الأَرض، إِلاّ بالتضحية.

وقد اختارت مريم أُسلوب حياةٍ كفيلاً بأَن يضع كلّ اهتماماتها تحت شعار الروح، وبذلك أَعَدّت لنفسها، وسط عالم الخطيئة، واحةً متناغمةً كلّيّةً مع إِلهامات الروح، وجديرةً بأَن يتّخذ منها الروح مقامًا.

لم تعتزل في صحراء، بل عاشت، ظاهريًّا، مثل الجميع، وفق التقاليد، غير مستلفتةٍ أَيّ انتباهٍ خاصٍّ. ولكنّها سارت وفق إِلهام الروح، غير حافلةٍ بتقاليد شعبها.

ولا ريب أَنّ حياة مريم اصطدمت بجمٍّ من الصعاب بل من المآسي. غير أَنّ بساطتها كانت تسمو بكلّ شيءٍ. ومن المحقّق أَنّ اللّه كان يتدخّل تدخّلاً غير متوقَّعٍ، فيبسّط التعقيدات. وكانت مريم، دائمًا، متيقّظةً لمشيئة الربّ، متفاعلةً معها. وكانت تتجاذب مع يوسف أَحاديث تنتقل، بيُسرٍ، ممّا هو صغيرٌ وعاديٌّ، إِلى ما هو أَبديٌّ.

وكان جنينها لا يني يشعرها بحضوره، فتعقد معه مناجاةً حميمةً عذبةً، وكان يبعث إِليها برسائل نعمةٍ وفرحٍ. ومع ذلك كانت تستعجل وضعه، توّاقةً إِلى السجود له، والتعبير له عن فائق حبّها، والمساهمة في مهمّته الخلاصيّة.

كانت الصلاة تغلّف كلّ ساعات الأُسرة في الناصرة، وكانت هي تنفُّسها. وقد اندرجت حياة الأُسرة، في جوٍّ من الفقر والبساطة والدأب والقناعة يهيمن عليها حضور اللّه. ولم تكن صلاتها جامدةً، حرفيّةً، بل كانت سعادةً بالإِيمان بمن هو في جوهره فرحٌ، وامتلاءٌ، وحبٌّ. وكلّ عملٍ يضطلع به أَحد أَفراد الأُسرة كان تعبيرًا عن الحبّ، وعمل النعمة، والشكر.

ومع ذلك، لم تكن حياة مريم ويوسف، في الناصرة، فردوسًا أَرضيًّا، فالبيئة البشريّة المحيقة بها، حافلةٌ بالبغض والحسد والكبرياء والنميمة. غير أَنّ اللّه كان لها السند والعزاء. وعصمة مريم من الخطيئة الأَصليّة لم تجعلها في مأمنٍ من الأَلم. ومع أَنّه لم يؤخذ عليها، قطّ، مأخذٌ، ولكن بما أَنّها، بكلّيّتها حبٌّ، في عالم دمّرته الخطيئة، كانت تتأَلّم من عواقب خطايا البشر.

كان يساورها القلق من أَن تنتهك ثرثرة الجارات ونميمتهنّ سرّ التجسّد الإِلهيّ، ولكنّها كانت واثقةً من تدابير الربّ، ومن حرصه على حماية سرّه، فأَوكلت إِليه أَمرها، ولم يتلكّأ الربّ في التدخّل.

فقد حدث، بغتةً، ما لم يكن متوقّعًا، إِذ صدر أَمرٌ إِمبراطوريٌّ بإِجراء إِحصاءٍ عامٍّ، يُلزم كلّ فردٍ بالعودة إلى مسقط رأسه كي يكتتب. وإِذ كان يوسف من بيت داود، ومسقط رأسه بيت لحم، فقد شدّ الرحال إلى تلك المدينة، ولم يشأ أَن يترك مريم التي دنا موعد وضعها وحيدةً، فاستصحبها معه. وهكذا حقّق أَمرُ قيصر أَهدافًا عديدةً معًا: أَنقذ مريم من الأَلسن النمّامة، وحافظ على سرّ التجسّد الإِلهيّ مكتومًا، وحقّق النبوءة القائلة بأَنّ المخلّص سيولد في بيت لحم.

إلى بيت لحم

حتّى أَحبّاء اللّه، غالبًا ما يواجهون صمته المحيّر، وامتحاناته القاسية. فحياة الإِيمان، الحياة مع اللّه، ارتحالٌ دائمٌ، مطاردةٌ مرهقةٌ، حيث لا يني وجه اللّه يظهر ويختفي، يدنو وينأى، يُلمَس ويتبدّد.

وحينئذٍ، وحدهما روح استسلامٍ مطلقٌ، وإِيمانٌ منيعٌ، ينقذان من الإِحباط، ويحولان دون أَن يحطّمنا صمت اللّه. الإِيمان المنيع يوقن أَنّ «خلف الصمت، اللّه يتنفّس»، وأَنّ الجوهريّ لا تبصره العين، ولكنّه جليٌّ في نظر الإِيمان الثاقب، الإِيمان الصافي العاري، الإِيمان الناضج.

يمّمت الأُسرة الفتيّة صوب بيت لحم، وكان لا بدّ من الاقتصار على استصحاب المتاع الضروريّ، ولاسيّما ثياب الوليد القادم وأَقمطته، والتضحية بأَشياء عزيزةٍ أُخرى، ريثما تنتهي الهجرة القسريّة، وتُقيّض للأُسرة العودة إلى الناصرة.

طويلٌ الطريق بين الناصرة وبيت لحم، ومريم، من جرّاء حبلها، لا تستطيع الانتظام في قافلةٍ، إِذ يتعذّر عليها مواكبة إِيقاع سرعتها. إِنّها تسير مع يوسف الهوينا، على طرقاتٍ ترابيّةٍ وعرةٍ، جعلتها الأَمطار صعبة الاجتياز. تارةً تسير على الأَقدام، وتارّةً تمتطي حمارًا، وفي الحالتين، من جرّاء حبلها، تعاني التعب الذي تضاعفه سياط رياحٍ تستمدّ من حرمون برودةً قاسيةً. استغرقت الرحلة عدَّة أَيّامٍ، ولكنّ «أَمَة الربّ» لم تشكُ، ولم تعترض، بل تحدّت البرد والمطر ووعثاء الطريق، بترديدها المطّرد: **«فليكن لي، يا ربّ، بحسب مشيئتك»**.

فرح اقتراب ولادة المخلّص كان يسهّل احتمال المصاعب، وحماية يوسف تُدخل الطمأنينة إلى نفس مريم. والمحنة كانت لقلبيهما ملاط اتّحادٍ.

كلٌّ منهما كان قد أَلِف الحجّ السنويّ إلى أُورشليم، في غمرة الاندفاع والفرحِ. ولكن في هذه النوبة، ليست المدينة المقدّسة هي غايتهما، وليس سفرهما تلبيةً

لطقوسٍ عزيزةٍ، بل هو خضوعٌ لأمرٍ إمبراطوريٍّ، وانقيادٌ لتدبيرٍ إلهيٍّ. غير أنّ وجودهما معًا يشدّ أزرهما، ويعينهما على تخطّي العقبات. وكلاهما يستشفّان، في هذه المحنة، دليلاً مبهمًا، ولكن أكيدًا، على محبّة الآب الذي يبتغي توثيق وحدتهما، وجعلها أكثر جدارةً بالمهمّة الموكلة إليهما.

مريم المقبلة على وضع ابنها البكر يتنازعها التأثّر والخوف، وتجتاحها تساؤلاتٌ يردّ عليها الربّ بصمتٍ مطبقٍ. هل ستأزف ساعة وضعها قبل بلوغها بيت لحم أم بعده؟ هل سيتعسّر وضعها، أم سيتمّ كلّ شيءٍ طبيعيًّا؟ وهل ستكون، ثمّة امرأةٌ تمدّ لها يد العون؟ وظلّ اللّه صامتًا، ولكنّها لم تسخط، ولم تقنط، وما انفكّت تردّد: «**ليكن لي بحسب مشيئتك، يا ربّ!**».

من المؤكّد أنّه لم تدرج على وجه البسيطة، قطّ، امرأةٌ مفعمةٌ، مثل مريم، إيمانًا، وسلامًا، واستسلامًا، وقوّةً، ورقّةً، ورهافةً.

قد لا تجد لها مكانًا تضع فيه ابنها، وقد تضطرّ إلى البقاء في العراء، ولكنّها لا تقنط، بل تستسلم لمشيئة اللّه. وهذا الاستسلام يزوّدها بهدوءٍ كثيفٍ، وسجوٍّ، ووقارٍ. فلا الأحداث غير المتوقّعة، ولا الظروف الأليمة أو المعاكسة، تفلح في زعزعة اتّزانها وسكونها. فهي، قبل أن تكون سيّدة العالم، سيّدة ذاتها.

عبرا أورشليم التي لم تفلح مجالي جمالها ومهابتها في استلفات قلوبهما، فيومها، بيت لحم وحدها، هي محطّ هواهما، وأقدس مكانٍ لهما في الوجود.

يبدو أنّه لم يكن ليوسف معارف أو أقارب في بيت لحم، فطرق باب الخانات، والخانات المكتظّة لا ترحّب بامرأةٍ مقبلةٍ على ولادةٍ وشيكةٍ. «**لم يكن لهما مكانٌ في النزل**»، أي مكانٌ يلائم امرأةً موشكةً على الوضع. وقد آثرت مريم أيّ مكان، أيًّا كان وضعه زريًّا، على الضجيج والصخب، والاختلاط اللزيز، والفضول الوقح. ففقرها كان ملتزمًا بالطهر والخَفَر.

لو كان يوسف يملك مالاً وفيرًا لأغرى صاحب نزلٍ بإخلاء قاعةٍ مؤجّرةٍ، بحجّة ظروفٍ قاهرةٍ؛ ولكنّ جيوب يوسف كانت خاويةً، وأبحاثه المضنية لم ترشده سوى إلى مغارةٍ في الجوار، يؤوي فيها الرعاة سائمتهم لوقايتها من المطر والعواصف. المغارة تفتقر إلى كلّ مستلزمات الراحة، ولكنّها توفّر العزلة والحشمة، وهي، على أيّة حالٍ،

لا تقلّ رفاهًا عن الكثير من بيوت القرويّين الفقراء. واستسلمت مريم لمشيئة اللّه مؤثرةً المشقّة على التبذّل.

نوايا اللّه بدت أَشدّ غموضًا ممّا توقّع الزوجان. فهل هو ابتغى لابنه ولادةً في أَقصى الحرمان؟ وكم ازدادا حبًّا للقادم العزيز الذي حُرم حتّى ما ينعم به أَكثر مولودٍ فقرًا، سوى حبٍّ كفيلٍ بتعويض كلّ شيءٍ، والإِغناء عن كلّ ما سواه.

انحدرت مريم بمشقّةٍ عن مطيّتها، وجمع يوسف كلّ ما عثر عليه من قشٍّ جافٍّ نظيفٍ لراحة مريم والوليد. وكم اشتاقا، كلاهما، حينئذٍ، إلى بيت الناصرة، حيث كانا قد أَعدّا ليسوع، بكلّ حبٍّ وعبادةٍ، مسقط رأسٍ هنيئًا!

الميلاد

ببساطةٍ إلهيّةٍ وصف الإنجيليّ لوقا أعظم حَدَثٍ في تاريخ الكون، فكتب (لوقا ٢:٦-٧): **وبينما كان (يوسف) هناك (في بيت لحم) تمّت أيّام وضع مريم، فولدت ابنها البكر، فقمّطته، وأضجعته في مذودٍ، لأنّه لم يكن لهما موضعٌ في النزل**».

في «بيت لحم» مدينة الخبز، وُلد من سيصبح، لملايين البشر «الخبز» الهابط من السماء. وفي مغارةٍ ظليلةٍ لم ينفذ إليها النور، يومًا، وُلد «نور العالم» وشمس الكون.

وُلد في مكانٍ متروكٍ لمشرّدين لا سقف يظلّلهم، لأنّه ابتغى إعادة صوغ كلّ شيءٍ، انطلاقًا من عري المغارة.

وهكذا تجلّت عظمة حبّ الله، وسنى مجده، إذ تمّت ولادة ابنه في الصمت والعزلة وغفوة الطبيعة. وقد تلقّت مريم ابنها وحدها، بمنأًى عن الضجيج، وعن نظرات الفضول، واهتمّت به وحده، وحيدةً مع وحيدها، ولم تمسّ جسده الغضّ سوى يدها الطاهرة. ولم تكن مهمّة يوسف سوى إخفاء سرّ الله المدهش.

كلّ العناصر تضافرت على إضفاء الحميميّة والعمق والأُلوهة والقدسيّة على سرّ هذا الحضور الجديد، في هدأة ليلة الميلاد وعزلتها.

كان بوسع ابن الله أن يوافي العالم، في هيئة ملاكٍ، ولكان، في ذلك تنازلٌ كبيرٌ منه. وكان بمكنته أن يهبط العالم رجلاً كهلاً في موكبٍ مهيبٍ من الملائكة، ومن غير حاجةٍ إلى العبور بمرحلة الطفولة والمراهقة. وقد رأى بعض اليهود في لفّ ابن الله بالقُمُط إهانةً لفكرة الأُلوهة. ولكنّ ابن الله أبى أن يتحقّق، على هذا النحو، مجيئه إلى أرض البشر، وآثر أن يظهر في العزلة، والفقر الطوعيّ، الفقر المحبوب، لأنّه إنّما جاء كي يهب ذاته بلا حسابٍ.

وفي هذا الجوّ المفعم صمتًا وفرحًا، تسنّى لمريم أن تنصرف مليًّا إلى التأمّل، وأن تنصهر في كلمة الله، من خلال وليدها، الذي ما برح عاجزًا عن الكلام، وأن

تتملّى من قدرة الله التي انصبّت عليها، في ذلك الكائن الإلهيّ الثاوي بين يديها، معتمدًا، في كلّ احتياجاته، عليها. هذا الحضور المحبّ الصامت فجّر، لدى مريم، طاقة تأمّلٍ فوّارة، لم تحلْ، مع ذلك، دون انصرافها الكلّيّ، إلى واجباتها الأُموميّة التي لم تكن إلاّ إشعاعًا لتأمّلها الصامت.

إنّه ابن مريم «البكر» أي الأوّل، وهذا لا يعني أنّه فاتحة سلسلةٍ من الأبناء، فالبكر قد يكون وحيدًا، ويسوع هو بكر مريم ووحيدها. وإنّما أوضح الإنجيليّ أنّه البكر، لأنّ واجباتٍ شرعيّةً كانت تترتّب على كلّ ذكرٍ بكرٍ، كما سنرى بمناسبة تقدمة يسوع إلى الهيكل. ولم يكن يسوع «بكر» مريم، فحسبُ، بل هو بكر الخليقة الجديدة التي جدّدها بتجسّده وفدائه.

الكنيسة الشرقيّة تخاطب العذراء بقولها: «لقد ولدتِ الابن بلا أبٍ، ذلك الابن الذي ولده الآب، قبل الدهور، بلا أُمٍّ».

لم تلد مريم يسوع خارج الزمن، ولا في عالم الآلهة، بل ولدته على الأرض وفي الزمن، لكي ينتمي إلى تاريخ البشر.

ولم توهنها الولادة، لأنّها لم تعانِ آلام المخاض، ولم تفقد بكارتها، فتولّت بنفسها تقميط وليدها وإضجاعه.

«**وضعت ابنها البكر، فقمّطته، وأضجعته في مذودٍ، لأنّه لم يكن لهما موضعٌ في النزل**». كم في هذه الكلمات المجرّدة، المتقشّفة، من جلالٍ!

ولدٌ مضجعٌ في مذودٍ للبهائم قد يوحي بإهمال ذويه. ولكنّه مقمّطٌ بعنايةٍ وحبٍّ. الاهتمام الأقصى، في الحرمان المدقع! لذلك جعل الملاك، من هذه المفارقة، علامةً للرعاة، كي يتعرّفوا المخلّص الوليد.

لم يكن ليسوع مكانٌ في النزل، ولكنّ قلب أُمّه دنيا من الحبّ، بلا حدودٍ!

لم تكن مريم تعلم كيف سيتمّ وضعها، ولكنّها كانت تتوقّع أن يكون على صورة المسيح: مجيدًا في بعض جوانبه، وعاديًّا، خفيًّا، أرضيًّا، في جوانب أُخرى. وإن بدا لنا أنّ وضعها المخلّص في مغارةٍ كان مأسويًّا مهينًا، فهي لم ترَه كذلك، فبيوت الكثيرين من الفقراء، إخوة ابنها، هي أشبه بالمغاور.

إِنّ الولادة، للأُمّ، هي حدثٌ جمٌّ، به ينتهي تاريخٌ، ويُستَهلّ تاريخٌ، وأَيّ تاريخٍ هو تاريخ مريم ويسوع! فللمرّة الأولى، مذ وُجد الكون أمكن السجود لكائنٍ حيٍّ، وعبادة جسدٍ بشريٍّ، مع عدم الخوف من الوقوع في عبادة وثنٍ. وللمرّة الأولى، كان بإِمكان أُمٍّ أَن تعبد مولودها، ولا تخاطر بعبادة ذاتها.

برقّةٍ وعنايةٍ فائقتين، رحّبت مريم ورحّب يوسف بالوليد، وقامت أُمّه بكلّ مهامّ غسله، وفركه بالملح، ولفّه بالأَقمطة المعدّة لتلك الساعة السعيدة، وأَجلسته، لحظاتٍ، على ركبتي يوسف، عرفانًا بجميله، وتأكيدًا لمسؤوليّته.

وأَيّة رعشةٍ مقدّسةٍ هزّت ذلك البارّ، حينذاك! ثمّ غطس الطفل في مهدٍ من القشّ الدافئ. كانت مريم تضطلع، للمرّة الأولى، بهذه المهامّ، غير أَنّ حبّها وعنايتها قد عوّضا ما كانت تفتقر إِليه من خبرةٍ!

وجثا كلٌّ من مريم ويوسف أَمام الوليد الغافي، متأمّلين، مثل كلّ والدَيْن، رقّة ملامحه، وجمال قسماته الذي لا يقتصر على نضارة كائنٍ غضٍّ لم يلامسه، بعدُ، شيءٌ، بل هو جمالٌ فريدٌ يعكس جمال الله. وسرعان ما لحظ يوسف الشبه المدهش بين كلٍّ من يسوع ومريم، فبشريًّا استمدّ يسوع كلّ شيءٍ من أُمّه.

ولكن، خلافًا لعموم الوالدين، كان يوسف ومريم يعلمان أَنّ الوليد الثاوي أمامهما هو ابن الله، فاتّسم حنانهما له بإِجلالٍ جمٍّ. فهو، خلافًا لكلّ وليدٍ، ابن المستحيل، ودليل القدرة الإِلهيّة، وتجلٍّ إِلهيٌّ حيٌّ. ولا ريب أَنّهما شعرا أَمامه بما شعر به الأَنبياء، وأَولياء الله، حيال الأَحداث التي تحمل بصمة الله، من تجلّةٍ ورعدةٍ. كانت جلالة الطفل الإِلهيّ غارقةً في عتمة المغارة، ولكنّ نور إِيمانهما تبيّنها بجلاءٍ في العتمة، والفقر، والعزلة، والعدم.

لم يسبق لله أَن كان أَوثق قربًا من الفقراء، وأَكثر امّحاءً. وكانت تلك هي العلامة المميّزة التي استخدمها الملائكة لإِرشاد الرعاة إلى المخلّص.

وأَمام ذلك الطفل الغافي، أَدرك يوسف ومريم أَنّ نظام الكون قد أُطيح به، فالوالدان، عمومًا، هما اللّذان يرغبان في مجيء طفلٍ. أَمّا هذا الطفل فهو الذي اختارهما، ورسم مسيرتهما، وربطهما بعلاقةٍ فريدةٍ. منذ الأَزل كان هذا الطفل في خاطر الآب. من أَجله أَبدع العوالم، ومن أَجله تكلّم بأَلسنة الأَنبياء. حينئذٍ غمرهما

فرحٌ طافحٌ، وصار شكرهما بلا حدودٍ. فابنهما هو الذي اختارهما منذ الأَزل، وهل من فرحٍ أَكثر إِدهاشًا؟

وفضلاً عن كلّ ذلك، هذا الوليد المنحدر من السماء أُوكل إِليهما. كان بإِمكانه أَن يأتي يافعًا، في موكبٍ من الملائكة، ولكنّه آثر أَن يأتي طفلاً واهنًا، كي يُعنيا به، ويلقّناه شؤون البشر، ويحميا صباه وشبابه، وينشئاه ابن زمنٍ معيّنٍ، وبيئةٍ محدّدةٍ. لقد تنازل الآب لمريم وليوسف عن حقوقه على ابنه وأَولاهما ثقته، هو الذي خلقهما، وأَلهمهما، واقتادهما، وقدّسهما في سبيل هذه المهمّة. أَولاهما أُبوّته، أَعطاه لحبّهما، فزادهما اتّحادًا، وتضامنًا، وحبًّا. من أَجله التزما كلاهما بالبتوليّة، وبنعمته بقيت أُمّه عذراء حتّى في ولادته.

الإِنجيليّ متّى يقول عن يوسف، وفق الترجمة الرائجة: «**لم يعرفها حتّى ولدت ابنًا، فسمّاه يسوع**». ومع أَنّ هذه العبارة لا تعني أَنّه عرفها بعدئذٍ، إِذ كثيرًا ما يُقال عن إِنسانٍ أَنّه لم يفعل أَمرًا حتّى مات، وهذا لا يمكن أَن يعني أَنّه فعله بعد موته، غير أَنّ هناك ترجمةً أُخرى تبدو أَوفر ملاءمةً للواقع، وهي: «**مع أَنّه لم يعرفها، ولدت ابنًا، فسمّاه يسوع**».

كانت مريم طاهرةً من أَجل أُمومةٍ إِلهيّةٍ، وزادتها تلك الأُمومة طهرًا. وإِن هي كانت قد كرّست لله بتوليّتها قبل أَن تصبح أُمًّا لله، فكيف لا تكرّس له كلّ ذاتها، بعد أَن أَصبح جسدها هيكلاً للروح القدس، وبعد أَن أَمسى الله ابنها؟ إِنّ بقاءَها عذراء، بعد ولادة يسوع، هو استمرار وفائها للنذر الذي لم تنقضه بحبلها وولادتها.

وهكذا دخل ابن الله العالم بجسدٍ بشريٍّ، وأَمسى كاهن البشريّة الأَكبر والأَبديّ، واقترن خضوعه لأَبيه بخضوع أُمّه، من أَجل تحقيق أَقدس حدثٍ في التاريخ وأَعظمه. لقد قامت أُمومة مريم الإِلهيّة على طاعتها بصفتها عذراء مكرّسةً، وكانت ذات طبيعةٍ روحيّةٍ صرفٍ.

إِثر ولادتها ليسوع تكاد مريم تتوارى في ظلّه. غير أَنّ تأثيرات أُمومتها الإِلهيّة كانت بليغةً، عليها وعلى البشريّة جمعاء.

فلا ريب أَنّ يسوع الطفل قد سما بأُمّه، وأَلّه كلّ حواسّها. وهي، كلّما تأمّلته، اضطرم قلبها، واستغرق في خشوع العبادة. إِنّه، لها، حضور الله الحقيقيّ، وهو

يلهمها معنًى جديدًا للجمال. إنّه تحفة الحكمة التي تملأ نفسها حبورًا، ولا فرق لديها، بين التحديق إليه ومخاطبته، والإنصات إلى إلهاماته، من جانبٍ، والصلاة في الصمت والعزلة، من جانبٍ آخر.

كانت مريم خاشعةً أمام ابن الله المقمّط، وقد شُدَّت يداه إلى جسمه، ولا يُشاهد منه سوى رأسه الصغير، وفمه الذي لا يتكلّم، وعينين يتأمّل بهما السماء التي كانت، حتئذٍ، مسكنه، والأرض التي ستكون مسرح رسالته. وكلّما استدعى أُمّه، ببكائه، كانت تهرع إلى خدمته بتفانٍ لامحدودٍ، ورعشة تجلّةٍ وعبادةٍ. هو كان بحاجةٍ إليها، وهي كانت، بكلّ حركةٍ من جسدها، وكلّ نظرةٍ من نظراتها، تعبّر له عن إيمانها وحبّها.

ما من أُمٍّ ضمّت وليدها إلى صدرها في مثل حنان مريم، وما من أُمٍّ أَظهرت من الرّقة والاحترام حيال إلهها المتجسّد مثل مريم.

كان لديها كلّ ما لدى أُمٍّ من حنانٍ وحبٍّ لابنها، ولكنّ هذه المشاعر، كانت، لديها، أَشدّ قوّةً، وأَبعد عمقًا. فبتوليّة قلبها، عوضًا عن إضعاف حبّها لابنها، كثّفت هذا الحبّ، وأَسهمت في إنماء كلّ مقتضياته.

يقول الأَب «هوغون» (Hugon): «كلّما أَرضعته من حليبها البتوليّ كانت تتلقّى منه، بالمقابل، غذاء النعَم، وكلّما هدهدته، برقّةٍ، وطبعت على محيّاه، قُبَل العذراء والأُمّ، كانت تتلقّى منه قُبَل الأُلوهة التي تزيدها طهرًا وقداسةً».

أُمومة العذراء، لم تكن مجرّد أُمومةٍ جسديّةٍ، بل كانت أُمومةً فائقةً، تقتضي موافقةً واعيةً حرّةً، وقبولاً بكلّ ما ينجم عنها من آلامٍ نفسيّةٍ. لقد استحقّت مريم هذه الأُمومة بتوافقِ إرادتها مع إرادة ابنها المخلّص. وحملت يسوع في روحها، قبل أَن تحمله في جسدها. جسديًّا كان يسوع جسد جسدها، حيث أَضاء الروح مصباح حياة الله البشريّة، في طهرٍ تامٍّ، وروحيًّا، لم تقترن الكلمة الإلهيّة بطبيعتنا إلاّ بموافقة مريم السخيّة.

ولا جَرَمَ أَنّ أَعظم أَلقاب مريم هو كونها «أُمّ الله». إنّ اقتران هاتين اللفظتين معًا يتخطّى كلّ إدراكٍ. وتحقيقه لم يكن ليتمّ إلاّ بخارقةٍ فريدةٍ، بحيث إنّ مارتان لوثير نفسه كتب، في سياق تعليقه على نشيد العذراء «تعظّم نفسي الربّ»: «العظائم التي

تتكلّم عنها سيّدتنا، إِن هي إِلاّ أُمومتها الإِلهيّة. فيها أُعطيت نعمًا من العظمة بحيث يتعذّر على أَيّ إِنسانٍ فهمها فهمًا كاملاً، منها ينبع كلّ كرامةٍ وغبطةٍ، ومنها ينتج أَنّها كائنٌ فذٌّ في الجنس البشريّ كلّه، لا يضاهيه أَحدٌ، فلها، مع الآب السماويّ، ابنٌ وأَيّ ابنٍ! كلّ مجدها اختُزِل في عبارةٍ واحدةٍ عندما دُعيت «أُمّ اللّه»، وليس بوسع إِنسانٍ وصفها بقولٍ أَعظم من هذا، حتّى لو امتلك من الأَلسن بقدر أَوراق الأَشجار والأَعشاب، وبقدر نجوم السماء، ورمال البحر».

مريم هي أَمّ يسوع، وبالتالي، أَمّ اللّه، بكلّ أَبعاد هذه الأَمومة، وفي كلّ قوّة الكلمة. ولا ريب أَنّ في هذه الحميميّة مع اللّه، وفي قياس نتائجها ما يُذهل. فقد تجسّد ابن اللّه مستمدًّا بشريّته من إِحدى بنات جنسنا، محترمًا سنن الأُمومة، التي لا تقتصر على الحمل والوضع والولادة، بل هي توثّق عرى الوحدة بين الأُمّ وابنها حتّى الموت، بل أَبعد من الموت.

عندما طلب يسوع من مريم إِمكانيّة الولادة منها، أَشركها في كلّ عمله الفدائيّ. ولكم أَحبّ تلك المباركة بين النساء، ولكأنّه يُهيب بكلٍّ منّا: «**أَحبِبْها مثلما أَنا أَحببتُها**»!

إِنّ اتّحاد مريم بالخير اللامحدود الذي أَصبح ابنها أولاها كرامةً لامحدودةً. فكرامة أُمومة اللّه هي أَقصى ما يمكن أَن يبلغه مخلوقٌ بشريٌّ. وعلى عقيدة أُمومة اللّه تقوم المسيحيّة كلّها.

ومن عوامل عظمة مريم علاقتها بالآب. يقول بوسّويه: «بقرارٍ رائعٍ ارتأى اللّه أَن تلد عذراء، في الزمن، من يلده، هو، باستمرار، في الأَبديّة. وبذلك أَشركها، نوعًا ما، في ولادته الأَبديّة. هذه المشاركة جعلتها أُمًّا للابن عينه. إِنّه لاتّحادٌ سرّيٌّ رهيبٌ ذاك الذي جمع في يسوع وبه الأُمّ العذراء، والآب السماويّ. وأَيّة كرامةٍ لمريم أَسمى من مشاركتها اللّه في ولادة ابنه الخاصّ. وحدهما الآب السماويّ ومريم العذراء، يستطيع كلٌّ منهما أَن يقول ليسوع «**يا بنيّ**»، ويسوع، بنفس الفم الذي كان يدعو به الآب «**أَبي**»، كان يدعو مريم «**أُمّي**»، «**ماما**».

السرّ العظيم الذي تحقّق في أَحشاء مريم جعل الآب الذي ولد الابن أَبديًّا، يلد «اليوم» في الزمن، وللمرّة الأولى، اللّه الإِنسان.

بفعل لقاءٍ معجزٍ، ولدت مريم كائنًا يخصّها وحدها، في نطاق الطبيعة البشريّة، كما لا يخصّ أيّ طفلٍ أُمّه في أيّ زمنٍ. غير أنّ هذه العلاقة البشريّة تندرج في صميم علاقةٍ إلهيّةٍ، حيث ليس ابنها خاصّتها وحدها. بل هو، جوهريًّا، ابن الآب الأزليّ. ولكن، مع أنّ ابن الله هذا، لا يدين بأُبوّته لأيّ كائنٍ بشريٍّ، إلاّ أنّه يمتلك بشريّتنا، جسدًا وروحًا. وهذه البشريّة يستمدّها، حصرًا، من أُمّه.

لقد كانت مسيرة البشريّة، بعد الخطيئة، تأهّبًا بطيئًا نحو معجزة التجسّد. كان الله يقترب، بتؤدّةٍ ورفقٍ، من البشريّة التي يجعلها تقترب منه وتألفه. وكانت نهاية شوط هذه المسيرة التطهيريّة، وهذا التوجّه المتدرّج، بشريّة مريم الطاهرة المؤهّلة للترحيب بالتجسّد. إنّ من هو كلمة الله لم يرتدِ جسدًا بشريًّا، إلاّ بعد أن أعدّت له مريم جسدًا متأهّبًا لدفع صورة ابن الله فيه، بنعمةٍ خاصّةٍ. وبتواضعِ إيمانها قدّمت له جاهزيّةً بلا تحفّظٍ، لكي يكون ما أراد أن يكون، في ما بيننا، أي ما هو أبدًا، لدى الآب، ابن الله الحقّ، وفي الآن عينه، ابن مريم الحقّ.

علاقة مريم بيسوع كانت علاقة وحدةٍ وثيقةٍ فريدةٍ. وكان يحقّ لها، قبل بولس، أن تقول: «**إن كنت أحيا، فلست أنا من يحيا، بل المسيح هو الذي يحيا فيّ**»، يحيا بالإيمان والحبّ، في كلّ ذاتي، في وجداني، في أعماق حميميّة حرّيّتي.

من أجل خلاص الخطأة البائسين تجسّد ابن الله، ومن أجل هذه الغاية عينها صارت مريم أُمّ الله. ولم تكن ولادة يسوع حلقةً في سلسلة الولادات البشريّة المتواترة، وإنتاج اللحم والدم ومشيئة البشر، بل كانت حدثًا استثنائيًّا نابعًا من إرادة الله وحده، وإدخالاً لعاملٍ جديدٍ إلهيٍّ في تاريخ البشر، وتاريخ الخطيئة.

الآب ومريم ولدا الابن عينه بواسطة الروح القدس عينه. وقد أشرك الآب مريم لكي يولد ابنه بشريًّا. والروح القدس الذي تعاون مع مريم على تجسّد ابن الله، ما زال يتعاون معها على ولادة قدّيسين، يمكن تسميتهم أبناء الله.

وليست مريم أُمّ الله بالجسد فحسب، فهذا لا يوليها أيّ امتيازٍ، بل هي أُمّ يسوع الكلّيّ في وحدته مع ما يدعوه أعضاءه، في قرابته مع من يدعوهم إخوته، في تكاملٍ مع ما يُدعى جسده السرّيّ.

وبالتالي، تجعل الأُمومة الإلهيّة من مريم كائنًا ساميًا، وقلبًا محبًّا للبشر أجمعين.

وهذه الأُمومة توليها كرامةً فائقةً، وتضمن لها نقاءً فريدًا، وترسم لها دورًا خطيرًا. فبصفتها أُمّ يسوع هي أُمّنا، وأُمّ الله، وهذه الأُمومة تفتدينا. وقد وصف القدّيس بيرنار مريم بالقناة التي تسيل من خلالها قداسة المخلّص إلى البشريّة المخلّصة.

مريم أُمٌّ أكثر من أيّة امرأةٍ أُخرى. ومع أنّ أُمومتها إلهيّةٌ معجزةٌ، فقد استثمرت فيها، أكثر من أيّة أُمٍّ أُخرى، كلّ ثروات الطبيعة البشريّة، ولم تفقد شيئًا من موقفها التأمّليّ. وفي هذا السياق يقول الأب لورنتان: «لقد أُعطي لامرأةٍ امتياز القول لابنها: «يا إلهي وابني». عبادتها كمخلوقةٍ، وحنانها كأُمٍّ، انصهرا في فعلٍ واحدٍ». ويقول بوسّويه: «كانت العذراء ترى، في يسوع، زهرةً أنبتها طهرها، وبوحي هذا الشعور، كانت تقبّله قبلاتٍ أحلى من قبلات الأُمّ، لأنّها قبلات أُمٍّ عذراء».

أمّا القدّيس أفرام السريانيّ فيقول، على لسان العذراء مخاطبةً ابنها: «فيما أتأمّل ملامحك الخارجيّة التي تستطيع عيون الجسد مشاهدتها، يتوغّل روحي صوب وجهك الخفيّ، أرى الله المقيم فيك. لي وحدي، أنت أظهرت، بالكامل، كلّ سناك، في وجهَيْك كليهما. ولعلّ الكنيسة، هي أيضًا، تقوى على تأمّلك، مثلما تتأمّلك أُمّك، في ملامحك المرئيّة، وفي وجهك السرّيّ».

إنّ الدم الذي يسري في عروق يسوع هو دم مريم. هذا الدم يسقيناه يسوع في الإفخارستيّا، وبذلك نحن، أيضًا، نحمل، في عروقنا دم العذراء مع دم ابنها، وبه نصبح جميعنا إخوةً يسري فيهم دمٌ واحدٌ. وما أجمل قول فرجيل جيورجيّو بهذا الشأن: «إثر كلّ مناولةٍ، كنت أشعر أنّني لستُ ابنًا لله فحسب، بل أخٌ بالدم لكلّ مسيحيّ في الكون بأسره. كنت أخًا بالدم لجميع المسيحيّين الذين وُجدوا، والموجودين الآن، والذين سيُقبلون إلى الحياة. فهم حملوا، ويحملون، وسيحملون في عروقهم الدم ذاته الذي يسري في جسدي».

فبولادتها يسوع ولدت العذراء الكنيسة، وجميع المؤمنين. هذا ما أكّده لوثير نفسه بقوله: «إنّ أُمّ الله هي، أيضًا، أُمّ كنيسة جميع الأزمنة، بما أنّها أُمّ جميع أبنائها الذين سيولدون من الروح القدس»!

وكم جعلت أُمومة مريم الإلهيّة علاقتنا بالله أشدّ بساطةً وعفويّةً!

فبما أنّ مريم استطاعت أن تقول بكلّ صدقٍ لله: «**يا صغيري**»، يستطيع خالقي أن يقول لي بكلّ بساطةٍ وصدقٍ: «يا صغيري».

وبما أَنّ اللّه استطاع أَن يقول، يومًا، بكلّ صدقٍ: «ماما» نستطيع، نحن، أَن نقول، بكلّ صدقٍ، للّه: «بابا».

لقد صار ابن امرأةٍ، كي أُصبح، أَنا، ابن الآب. وهو وُلد من مريم كي أُولد، أَنا من الآب. وإِن توجّب على اللّه أَن يصير ولدًا كي يلج عالمنا، عليّ أَن أُصبح ابن اللّه كي أَلج ملكوته.

أُمومة مريم الإِلهيّة أَتاحت للبشريّة أَن تصعد، من جديدٍ، صوب نبعها، أَو بالأَحرى، جعلت النبع يأتي إِليها.

فبولادتها ابن اللّه في الجسد، حملت مريم، ووضعت الخليقة الجديدة. ففي مريم وبها أَعاد الآب خلق الأَشياء كلّها، في ابنه الحبيب.

الأُمومة الإِلهيّة هي المجال الخاصّ حيث تتجلّى مريم فريدةً، وساميةً، ومتميّزةً، على الإِطلاق. فقد أَصبحت، بشريًّا، أُمّ أَحد أَقانيم الثالوث، وبذلك انضمّت إِلى أُسرة اللّه، على نحوٍ فريدٍ، منقطع النظير. فهي، وحدها، حملت ابن اللّه طفلاً، بين ذراعيها، وأَرضعته، وساعدته على النموّ، وربّته بشريًّا، كما تفعل كلّ أُمٍّ لأَبنائها.

غير أَنّ مريم قد وضعت، في خدمة تواصلها معنا، كلّ ما حباها به اللّه من فرادةٍ وامتيازاتٍ استثنائيّةٍ.

وكانت مريم أُمّ يسوع، بإِيمانها، أَيضًا. وقد أَقرّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني أَنّها، في البشارة، «استقبلت كلمة اللّه في قلبها، وفي جسدها، وجاءت بالحياة إِلى العالم».

بفضل أُمومتها الإِلهيّة أَصبحت مريم قناة نِعَم اللّه ومواهبه للبشر. وقد قال توما الأَكوينيّ: «بولادتها فجّرت مريم الحياة الإِلهيّة في جميع البشر».

امتياز المسيحيّة هو أَنّ اللّه، في مريم، يعطي البشر ذاته. ولا شيء، أَكثر من ارتضاء ابن اللّه، اتّخاذ أُمٍّ بشريّةٍ، يعبّر عن مدى حبّ اللّه للبشر حبٍّ جعله يرتبط بنا، ويتبنّى مصيرنا.

ومن شأن أُمومة مريم الإِلهيّة تدعيم حبّ اللّه فينا. وفي هذا السياق كتب القدّيس توما الأَكوينيّ: «لا يمكن تخيّل دليلٍ على حبّ اللّه لنا أَشدّ إِقناعًا من رؤية خالق كلّ شيءٍ يجعل ذاته خليقةً، ومن رؤية ربّنا وسيّدنا يصبح لنا أَخًا، ورؤية ابن اللّه

يولد من بشرٍ، ورؤية اللّه ممعنًا في حبّ العالم، بحيث يهبه وحيده. هذا الواقع، إِذا أَمعنّا في تأمّله، كفيلٌ بأَن يوري فينا حريق حبّ اللّه...»

لطالما ساد الخوف من اللّه «الإِله الجبّار». ولكنّ أَشعيا الذي أَطلق هذا الوصف، قال، أَيضًا، إِنّ هذا الإِله «ولدٌ» صارت الرئاسة على كتفه». ولدٌ، إِذن، قريبٌ من قلوبنا. وقد تحقّق ذلك بفضل أُمومة العذراء. ولّما بشّر الملائكة بفرحٍ عظيمٍ للورى، كان دليلهم طفلاً مقمّطًا ومضجعًا في مذودٍ. ولّما وافى الرعاة وجدوا الرقّة، والبراءة، والبساطة، والفتنة، وكلّ تلك تدعو إلى الحبّ.

والمجوس سجدوا لملكٍ عرشه ركبتا أُمّه، عبادةً وحبًّا. الحبّ الرقيق الواثق هو الذي أَلهمه الطفل يسوع بفضل أُمّه.

بالإِجمال، إِذ شاء اللّه أَن يتجسّد كي يُحَبّ، ارتأى أَن يكون طفلاً في أَحشاء مريم، ثمّ على ذراعيها، وفي حضنها. ومنذئذٍ غدت الطفولة أَثيرةً لدى اللّه. وبات اللّه محبوبًا من خلال يسوع الطفل، وأُمّه العذراء.

وبقدر ما كانت أُمومة مريم الإِلهيّة ضروريّةً لإِعادة تأهيل الأُسرة البشريّة كانت، أَيضًا، ضروريّةً لترميم كرامة المرأة وتحريرها. وفي هذا الشأن يقول القدّيس أُوغسطينُس: «لو شاء اللّه أَن يتجسّد من غير أَن يولد من امرأةٍ، لما كان شيءٌ أَسهل على جلالته من ذلك. فمثلما هو تكوَّن في امرأةٍ بمعزلٍ عن تدخّل رجلٍ، كذلك كان بوسعه أَن يلج العالم بمنأًى عن وساطة امرأة... لقد جاء المسيح متّخذًا جنس الرجل، ولكن معزّيًا جنس المرأة بولادته منها، ولكأنّه كان يقول: إِنّني رجلٌ بالولادة، ولكنّ هذه الولادة تلقّيتها من امرأةٍ. ومن ثمّ أَنا لست أَدين الخليقة التي بريتها، بل أَدين الخطيئة التي لم أَقترفها. فليتأمّل كلٌّ من الجنسين كم أَنا أُكرّمه، وليعترف كلٌّ منهما بإِثمه، وليأمل كلٌّ منهما بالخلاص. إِنّ السمّ الذي جرح الرجل أَسالته امرأةٌ، فلتسكب امرأةٌ الترياق الذي يبرئه، ولتكفّر عن الغواية الآثمة التي مارستها على الرجل، بولادتها المسيح... وإِذن، لا يلومنّ أَحدٌ المسيح لأَنّه وُلد من امرأةٍ، فليس من شأن جنسها تدنيس المخلّص؛ بل إِنّ الخالق ابتغى هذا الجنس».

ولنتابع رواية الميلاد كما دوّنها الإِنجيليّ لوقا (٢: ٨–٢٠) «**كان في تلك البقعة رعاةٌ يقيمون في الحقول، ويسهرون في هجعات الليل على قطعانهم. فوقف ملاك الربّ بهم، وغمرهم مجد الربّ بسناه، فاستولى عليهم خوفٌ عظيم. فقال لهم الملاك: «لا تخافوا!**

فها أنا ذا أُبشّركم بفرحٍ عظيمٍ، يكون لجميع الشعب: اليوم، في مدينة داود، وُلد لكم مخلّصٌ هو المسيح الربّ؛ وهذه هي العلامة لكم: إنّكم تجدون طفلاً ملفوفًا بقُمُطٍ، ومضجعًا في مذودٍ». وانضمّ بغتةً إلى الملاك جمهورٌ من الجند السماويّ، يُسبّحون اللّه، ويقولون:

«المجد للّه في العلى، وعلى الأرض السلام، للناس الذين بهم المسرّة!»

ولمّا انصرف الملائكة عنهم إلى السماء، قال الرعاة بعضهم لبعض: «لنمضِ إلى بيت لحم، وننظر هذا الحادث الذي أطلعنا عليه الربّ». وأقبلوا مسرعين فوجدوا مريم ويوسف، والطفل مضجعًا في المذود. فلمّا شاهدوا ذلك أخبروا بما قيل لهم عن هذا الصبيّ. وكلّ الذين سمعوا أُعجبوا بما قال لهم الرعاة. وأمّا مريم فكانت تحفظ هذه الأقوال كلّها، وتتأمّل فيها في قلبها. ثمّ رجع الرعاة وهم يمجّدون اللّه، ويسبّحونه على جميع ما سمعوا وعاينوا، على حسب ما قيل لهم».

كانت الأَرض ذاهلةً عن الحَدَث الجَلَل، ولادة الخالق من مخلوقةٍ بشريّةٍ، وهبوط اللامحدود إلى حيّزٍ محدودٍ من الدنيا. ولكنّ السماء أَبت إلاّ أَن تذيع البشرى. غير أَنّها آثرت أَن تكون طليعة المبشَّرين بالإِنجيل، لا الوجهاء، وأَصحاب النفوذ والمال، بل أَبسط القوم الذين تخفق في صدورهم، تحت قشرةٍ خشنةٍ، قلوبٌ طيّبةٌ. فأسياد الأَرض لا تعني لهم شؤون السماء شيئًا، ومدّعو العلم لا يصدّقون حتّى الملائكة.

والرعاة فئةٌ يحتقرها معلّمو اليهود لأَنّ أَفرادها لا يتقيّدون، من جرّاء ظروفهم، بمقتضيات الشريعة. وجديرٌ بالتنويه، هنا، أَنّ العذراء ظلّت تؤثر في ظهوراتها، الرعاة والأَطفال والبسطاء.

ذُعر الرعاة، وهم يشهدون «مجد اللّه» يتألّق من حولهم، وملاك الربّ وسطهم. لكنّ الملاك سارع إلى تهدئة روعهم، فالمناسبة هي مناسبة فرحٍ عظيمٍ للدنيا كلّها، لأَنّ المخلّص وُلد في مدينة داود، والعلامة التي تمكّن من تعرّفه هي أَنّ الخالق مقمّطٌ مثل أَيّ وليدٍ من أَبناء الفقراء، وأَنّ العظيم مضجعٌ في مذود بهائم.

وفيما كان الملاك يبلّغ الرعاة البشرى الفريدة، انطلقت جوقات السماء تؤكّد قوله، منشدةً ما ينطوي عليه حَدَث ميلاد الربّ من مغزًى: فهو تمجيدٌ للّه، وسلامٌ يعمّ الأَرض، وقد جاء يشيعه إله المحبّة، وفرحٌ للبشر الملتمسين مرضاة اللّه.

ووافى الرعاة، وشاهدوا ما بُشّروا به، وغمر الفرح أَفئدتهم، وحيال القداسة

والمهابة المشعّين من مريم ويوسف، حرصوا على إدخال مزيدٍ من الفرح إلى قلوبهما، فرووا لهما ما سمعوا ورأوا. وللمرّة الأولى، يلاحظ الإنجيليّ لوقا أنّ مريم «كانت تحفظ تلك الأقوال كلّها، وتتأمّل فيها، في قلبها»، حيث أقامت لابنها معبدًا. كانت تتوغّل، يومًا فيومًا، وساعةً فساعةً، أبعد، في سرّ طفلها الإلهيّ، وبتأمّلها هذا كانت تُدخل يوسف، أيضًا، إلى أعماق ذلك السرّ.

لو لم يكن تأمّل مريم وفرحها متجذّرين في الله، ولو كانت عواطفها بشريّةً صرفًا، لمّا رحّبت بالرعاة الذين وافوها مباركين، ولأوعزت إلى يوسف أن يصرفهم بالحسنى، بحجّة أنّه لا يحسُن إزعاج امرأةٍ نفساء، لم تمضِ سوى لحظاتٍ على وضعها، ولخافت على هشاشة وليدها من أولئك الذين لم تُعهَد فيهم الرقّة والرهافة. ولكنّها وضعت بين يديهم أثمن كنزٍ في الوجود، ومكّنتهم من مداعبته، لكي تشركهم بفرحها الغامر بمولده.

ولم يفسد الرعاة فرح مريم وخلوتها التأمّليّة، بل آتوها مزيدًا من فرحٍ وسلامٍ، إذ أُتيح لها اقتسام فرحها مع أولئك البسطاء الذين سيؤثرهم ابنها بحبّه. وهم بدورهم أسالوا الفرح إلى قلبها، إذ بلّغوها رسالة السماء.

يُعتقد أنّ مكوث الأُسرة في المغارة لم يطُلْ، وأنّها، حالما تسنّى لها استأجرت منزلاً في بيت لحم، حرصًا على سلامة الطفل الإلهيّ، وقضت هناك أسابيع هانئةً. فمريم كانت تتقن مهنة الأُمّ، ويوسف يتقن مهنة الأب المربّي. وبأيّة حيطةٍ كان يأخذ بين يديه الخشنتين، جسم الطفل الغضّ، وبأيّ شَغَفٍ وورعٍ كان يقبّله! وكان الله نفسه يتقن مهنة الطفل، فيستسلم لهدهدة أبويه، ويتقبّل منهما العناية والطعام، ويجيب على مبادرات حنانهما بردود فعلٍ يتجلّى، من خلالها، حنان الله.

وكان الحبّ المتبادل بين يوسف ومريم أجمل إيقونةٍ للحبّ الثالوثيّ. لا ريب أنّهما واجها مِحَنًا، وعانيا شدائد وحرمانًا. ولكنّ هذه الظلال لم تحجب فرحهما الروحيّ، بل ضاعفته، لأنّ يسوع كان يشيع، في صميم نفسهما، عذوبة حضوره، ولأنّهما عاشا كلّ ذلك في فرح الحبّ، فرح تلقّي أحدهما الآخر بمثابة هديّةٍ من الله رائعةٍ. كانت مريم حريصةً على أن تشكر لله كرم شريكها وشهامته، ورقّة حبّه لها. ولا ريب أنّ يوسف كان يشكر لله أن أوكل إليه السهر على زوجةٍ في مثل روعة مريم. انتفاء

العلاقات الجنسيّة بينهما لم يُحلْ دون إِعجاب أَحدهما بالآخر، ودون ابتداعهما أَلف أُسلوبٍ للتعبير عن توادّهما.

جلّ اهتمامهما كان منصبًّا على تربية الابن الإِلهيّ الموكل إلى عنايتهما، كي ينمو، نعمةً وقامةً، أَمام الله والبشر. وقد كانت علاقتهما المغمورة بالحبّ، خير مناخٍ لهذا النموّ. وقد فجّر فيه الحنان الرقيق، الذي أَحاطاه به، الفرحَ والحرّيّة اللّذين تجلّيا في كلّ سلوكه، على مدى حياته العلنيّة. وهو، من حبّهما المتبادَل تعلّم رقّة الحبّ، وسخاءه، ومجّانيّته.

كانت مريم تعجب من خضوع يسوع لهما، مع كونه إِلههما. وكانت تتأمّل ذلك في نفسها. وكان احتضان ذلك الابن الذي أُعطياه مجّانًا، وتربيته، وتأمّله، والإِصغاء إِليه، منبع فرحهما، ومبرّر وجودهما، وملاط وحدتهما. وبذلك كانا نموذجًا للكنيسة ولكلّ مؤمنٍ.

وتميّزت تلك الفترة بحَدَثيْ ختان يسوع وتسميته، في يومه الثامن. وقد أَطلقا عليه اسم يسوع، أَي المخلّص، وفقًا لتعليمات الملاك. يومها لم يكن لذلك الاسم المعنى الذي سيكتسبه على الصليب، ولا القدرة المنبعثة منه عندما كان الرسل يتلفّظون به كي يشفوا الأَمراض المستعصية، ويطردوا الشياطين، ويقيموا الموتى. ولكن، بأَيّة رقّةٍ وعذوبةٍ، واحترامٍ، كان يوسف ومريم يدعوانه به! فقد كان لهما، عندما يتلفّظان به ما بينهما، ملاطَ وحدةٍ، ووثاقَ حبٍّ، وعندما يذكرانه أَمام الآخرين، رسالة سلام. وقد استحوذ هذا الاسم على قلبيْ مريم ويوسف برقّةٍ وقوّةٍ فائقتين، فهو اسم الله الذي صار بشرًا.

تقدمة يسوع إلى الهيكل

كانت الشريعة تعدّ المرأة التي وضعت ولدًا ذكرًا نجسةً مدّة أربعين يومًا، وتقضي عليها، في نهاية هذه الفترة، بالمثول إلى الهيكل، كي تتطهّر، مقابل ضريبةٍ محدّدةٍ. ومن جانبٍ آخر كان كلّ مولودٍ ذكرٍ يُعتبر خاصّة الهيكل، مكلّفًا بخدمته. إلى أن انتُخِبَت أُسرةٌ كهنوتيّةٌ، مهمّتها خدمة الهيكل، فبات كلّ ذكرٍ بكرٍ يُفتدى من واجب هذه الخدمة، لقاء ضريبةٍ تُحدَّد وفقًا لوضع أُسرته المادّيّ، وبذلك تستعيد الأُسرة حقّها كاملاً في ابنها.

يروي الإنجيليّ لوقا (٢: ٢٢–٣٨) ما جرى بهذه المناسبة كما يلي: «..**ولمّا تمّت أيّام تطهيرهم بحسب شريعة موسى صعدا به إلى أورشليم ليُقدّماه للربّ على حسب ما هو مكتوبٌ في شريعة الربّ من أنّ كلّ ذكرٍ فاتح رحمٍ يكون مقدّسًا للربّ، وليُقرّبا ذبيحةً، كما تقضي شريعة الربّ، زوجيْ يمامٍ أو فرخَي حمامٍ.**

وكان في أورشليم رجلٌ اسمه سمعان. وهو رجلٌ صدّيقٌ وتقيٌّ كان ينتظر تعزية إسرائيل، والروح القدس كان عليه. وكان الروح القدس قد أوحى إليه أنّه لا يرى الموت ما لم يُعاين مسيح الربّ. فأقبل بإلهام الروح إلى الهيكل. ولمّا دخل بالطفل يسوع أبواه ليُجريا عليه ما تقضي به الشريعة أخذه هو على ذراعيه وبارك الله وقال:

«الآن أيُّها السيّد، تُطلق عبدك بسلامٍ، على حَسَب قولك. فإنّ عينيّ قد شاهدتا خلاصك الذي أعددته، على وجه الشعوب كلّها: نورًا لهداية الأُمم، ومجدًا لشعبك إسرائيل».

وكان أبوه وأُمّه يتعجّبان ممّا يُقال فيه. وباركهما سمعان وقال لمريم أُمّه: «إنّ هذا قد جُعِل لسقوط كثيرين في إسرائيل أو نهوضهم، وليكون آية مقاومةٍ. وأنتِ أيضًا سيجوز سيفٌ في نفسكِ. وهكذا تنكشف الأفكار المتحرّكة في قلوبٍ كثيرةٍ».

وكان هناك أيضًا نبيّةٌ، حنّة بنت فنوئل من سِبْطِ أشير. كانت قد طعنَت كثيرًا في أيّامها. وبعدما عاشت في الزواج سبع سنين مع رجلها، ظلّت أرملةً، وبلغت من العمر

أَربعًا وثمانين سنة. وكانت لا تفارق الهيكل مُتعبّدةً، ليل نهار، بالأَصوام والصلوات. ففي تلك الساعة حضرت وأَخذت تُسبّح بحمد الله، وتحدّث بأَمر الولد كلّ من كان ينتظر الفداء لأورشليم».

ولا بدّ من إِبداء بضع ملاحظاتٍ حول هذا النصّ. فالإِنجيليّ يستخدم ضمير الجمع في معرض كلامه عن التطهير فيقول: «**أَيّام تطهيرهم**»، والمفروض أَنّ مريم وحدها كان قد حان موعد تطهيرها. ومن ثمّ فضمير الجمع يعني اليهود، أَصحاب هذا التقليد، الذي لم يكن ينطبق على مريم: فهي حبلت بعمل الروح القدس، وولدت ولادةً معجزةً، وهي بعدُ عذراء، ولم تُصبها أَيّة نجاسةٍ. ولادتها قدّستها، ولم تدنّسها، ومن ثمّ لم تكن ملزمةً بأيّ تطهيرٍ. ولكنّها أَخضعت نفسها لفريضةٍ غير مفروضةٍ عليها، ولطقوسٍ تنطوي على إِهانةٍ لعذريّتها ولأُمومتها الإِلهيّة، لكيلا تكون سبب عثرةٍ لمن لم يُلمّوا بسرّ حملها الإِلهيّ، وحفاظًا على سرّ ولادتها الخارقة، مؤثرةً إِخفاء ما ميّزها به العليّ، عن سائر البشر، والاندراج في إِغفال عامّة النساء.

ومن جانبٍ آخر، استخدم لوقا ثلاث مرّاتٍ كلمة «**الشريعة**» في الفقرة الأولى (**٢٢و٢٣و٢٤**) ثمّ ذكر ثلاث مرّات الروح القدس، في الفقرة التالية (**٢٥و٢٦و٢٧**). ولكأنّه يؤكّد الانتقال من أَحكام الشريعة إِلى عمل الروح القدس.

أَربعون يومًا، إِذن، كانت قد كرّت، منذ الليلة التي أَنشد فيها الملائكة فرحهم وبشراهم، توغّل، أَثناءَها مريم ويوسف في أَعماق الأَسرار الإِلهيّة، وبات الخالق حاضرًا بجسدٍ بشريٍّ، وسط خليقته.

ومع طلائع الربيع، يمّم يوسف ومريم شطر أورشليم، وعلى ذراعيهما الحِمْل الغالي. وبسبب فقرهما ابتاعا بنصف شاقلٍ يمامتين، وفي كثيرٍ من التأثّر والفرح اقتربا من الهيكل. شاسعًا كان البوْن بين فخامة الهيكل، وأَزياء الكَهنة النفيسة، والجمع المزركش المزدهي بأَجمل ثيابه، من جانبٍ، وتلك الأُسرة الشابّة الفقيرة، الوضيعة، التي بدت تائهةً في بيئةٍ غريبةٍ، من جانبٍ آخر. ولكن في عيني الله كان البوْن أَشدّ تميّزًا، فهما لا تتوقّفان على زخارف الهيكل، وفخامة الأَزياء الكهنوتيّة، ولا تريان سوى هذا الطفل المغمور بحبّ الآب، وحبّ أَبويه.

كان مريم ويوسف يفيضان سعادةً لأنّهما، معًا، يقدّمان أَغلى ما لهما لمن يحبّانه فوق كلّ شيء، ولمن كرّسا له حياتهما.

إلى هيكله جاء يسوع على يدي أُمّه. مجد قدس الأَقداس لم يكن سوى رمزٍ للمجد الحقيقيّ الذي كانت تحمله مريم على ذراعيها. لقد كان، هو، قدس الأَقداس الحقّ، خارج الحجاب.

كثيرون شاهدوا العيلة المقدّسة تعبر الهيكل، ولكن لم يلتفت إليها أَحدٌ. هذا هو شأن اللّه، حيثُما وُجد. لقد أَصبح مرئيًّا. ولكن، في الواقع، لا أَحد يلحظه إلاّ من كان ممتلئًا إيمانًا وحبًّا.

الكهنة والجمع لم يكترثوا، ولكنّ شخصَيْن اندفعا بوحيٍ من الروح القدس، وانفصلا عن الجمع.

سمعان الشيخ لم يكن كاهنًا ولا وجيهًا، بل هو كائنٌ بسيطٌ، نكرةٌ، غريبٌ عن روح زمانه، محلّقٌ فوق سياسة عهده، يشعّ من كلّ كيانه مظهر الوحي الذي كان يميّز قدامى الأَنبياء. يومًا فيومًا، كان يرى العالم الفاسد مكانًا لا يُطاق فيه العيش. ومع ذلك كانت تسكنه رغبةٌ مقيمةٌ في أَلاّ يرى الموت قبل رؤية المخلّص. وكان قد تلقّى من الربّ وعدًا بذلك. قوّةٌ خفيّةٌ دفعته، في ذلك اليوم، إلى الهيكل، ودافعٌ لا يُقاوَم قاده، مباشرةً، إلى مريم التي كانت تشدّ طفلها إلى قلبها، والتي لم يكن يميّزها عن الآخرين سوى فقرها وبساطتها والطهر المتضوّع منها. إنّ مثال سمعان هذا دليلٌ على أَنّ اللّه يتجلّى، أَحيانًا، من خلال أَشخاصٍ لا نعرفهم يسكنهم الروح ونوره. كان الهيكل يغصّ بالزائرين، ولكنّ الروح قاد سمعان مباشرةً إلى أَبوي يسوع، وأَتاح له تبيّن الإشعاع المنبعث من الطفل الإلهيّ ومن أُمّه العذراء. وحينئذٍ، أَدرك أَنّ الخلاص ليس فكرةً مجرّدةً، بل هو شخصٌ، هو الطفل يسوع. ولم تعد آفاقه عند أورشليم والشعب الإسرائيليّ، بعد أَن رأى «النور الذي يضيء الأُمم» جمعاء.

وقف بتجلّةٍ أَمام العذراء، والتمس حمل الطفل وتقبيله، وأَخذه بين ذراعيه المرتجفتين. ورغم وهنه ضمّ خالقه، بقوّةٍ، إلى صدره، متأمّلاً، في محيّاه، كلّ مجد السماء، وكلّ سنى اللّه. القوّة الإلهيّة التي تدفّقت إلى نفسه وَقَتْه من السقوط تحت طوفان الفرح الذي غزا نفسه.

وفي الحال تفجّر نورٌ باهرٌ في صدر الشيخ البارّ، فطفق يتنبّأ. أَقواله قرنت عذوبة

الاستسلام لله في مساء الحياة، بالفرح الفائق الذي حظي به، إذ أُعطي، قبل أَن يموت، خلاص الله الذي أَعدّه للشعوب كلّها، ونورًا لهداية الأُمم. رسالته، إذن، بحجم الكون، فهو ليس مخلّص شعبه فحسب، بل مخلّص البشريّة جمعاء، تصديقًا لنبوءة أَشعيا (٤٩: ٦): «**قليلٌ أَن تكون لي عبدًا لتقيم أَسباط يعقوب وتردّ المحفوظين من إِسرائيل. إِنّي قد جعلتك نورًا للأُمم، لتكون خلاصي إِلى أَقاصي الأَرض**».

الفرح الذي بدأ ينساب إلى قلب مريم، أَوقف زحفه الجزء الأَخير من نبوءة سمعان. فالقوم الذي جاءهم ابنها بالخلاص، سينقسمون فريقًا معه، وفريقًا عليه، وفيما كانت مريم تتساءَل كيف لا يُحَبّ من جاء لخلاص العالم، اتّخذ صوت سمعان نبرةً حادّةً هوت كالسيف على نفس مريم: «**وأَنتِ سيخترق سيفٌ نفسكِ**».

تكلّم سمعان بوحي الروح القدس، فوصف يسوع نورًا يضيء الأُمم الوثنيّة ويهديها، مع أَنّ إِنذارًا كان معلّقًا، على نحوٍ واضحٍ، في الهيكل، محذّرًا، الوثنيّين الذين يتخطّون أَروقة الهيكل الخارجيّة بالتعرّض للقتل.

بعباراتٍ مموّهةٍ كان سمعان يتنبّأ بفشل رسالة يسوع وسط شعبه، وبنجاحها وسط الأُمم. شعبه اليهوديّ سينبذه، وسيصلبه، ولكنّ يسوع، بالصليب، سيحطّم سيطرة إِبليس على العالم، وسيصبح منارة هدايةٍ للأُمم الوثنيّة.

كان الأَنبياء قد وصفوا وجهين للمسيح، وجه الفاتح المنتصر الذي لا يُغلب، ووجه الخادم المتأَلّم. ولكنّ أَذهان اليهود لم تحتفظ إِلاّ بالوجه الأَوّل. أَمّا العذراء فقد أَدركت، منذ اللحظة الأولى، أَنّها ستشارك ابنها مهمّته الخلاصيّة التي ستقتضي منها التضحية والآلام. وكانت تتوقّع المواجع التي ستنشب بقلب ابنها وتدمي قلبها. وكانت نبوءة سمعان ممّا تحفظه في قلبها، وتتأمّله بلا انقطاعٍ.

منذئذٍ، ما عاد بوسع مريم أَن ترمق يسوع ولا ترى المِحَن والآلام التي تنتظره. ولكنّها، في الآن عينه، كانت موقنةً بأَنّه لن يتأَلّم وحده، بل ستتأَلّم هي معه، وبذلك سيتكرّس حبّها الأَقصى له.

كانت قد وافت إلى الهيكل كي تفتديه، وتستعيد كلّ حقوقها عليه، فإِذا بها تكرّسه، وتكرّس ذاتها معه، ضحيّةً أَبديّةً. هذا الطفل الذي كان، حتّئذٍ، منبع فرحها، وعلّة وجودها، سيكون، يومًا، سبب فجيعتها، وتحطّم قلبها، ومبعث أَلمٍ

لم يعرف، ولن يعرف مثلَه بشرٌ. وسيضاعف هذه الآلام ما سيتعرّض له أَتباع ابنها من اضطهادٍ واستشهادٍ.

منذ ذلك اليوم، ما انفكّت فكرة آلام ابنها تؤرّقها في كلّ لحظةٍ. غدت تحيا والسيف مغروسٌ في قلبها، ولكن كان حبّ ابنها يساعدها على احتماله. نبوءة سمعان كانت بمثابة بشارةٍ ثانيةٍ أَنذرتها بوجوب عيش طاعة الإِيمان في الأَلم، إلى جانب المخلّص المتألّم، وبأَنّ أُمومتها ستكون محفوفةً بالظلمة والوجع.

وكانت تجتاح نفس يوسف موجة أَسًى ممضٍّ كلّما أَجال الفكر في أَنّ الكائنَيْن اللّذين يكنّ لهما أَعظم حبٍّ، سيعانيان جمًّا من الآلام.

تواضع مريم وإِيمانها أَهّلاها لتلقّي نبوءة سمعان التي لم تقتصر على إِعلان ابنها خلاصًا للورى ونورًا، بل تنبّأت، أَيضًا، بأنّه سيكون هدفًا للمقاومة، وأَنّ مصير أُمّه سيكون مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بمصيره، وستكون آلامه آلامها. ولن تكون هذه الآلام خدْشًا سطحيًّا، بل سيفًا قاطعًا ينفذ إلى الأَعماق، محدثًا جرحًا مميتًا، وطاعنًا أَعزّ ما لديها: قلب الأُمّ، أَي أَكثر ما فيها فيضًا بالحبّ، وأَكثر ما فيها هشاشةً. وستكون آلامها داخليّةً، خفيّةً، موقوفةً على إِلهها.

لم يطلب اللّٰه من مريم أُمومةً إِلهيّةً قائمةً على الفرح والفقر فحسب، بل طالبها بأكثر. ولم يكتفِ بإِشراكها بسرّ تجسّده، بل أَشركها، أَيضًا، بسرّ فدائه، فاقتضى منها أُمومةً نازفةً مصلوبةً، لكي يوثّق علاقتها بمهمّة ابنها الخلاصيّة، ولكي تكون، في ما بعدُ، المرأة الجديدة التي قدّمها المصلوب أُمًّا لتلميذه الحبيب، ولجميع تلاميذه، في كلّ زمانٍ وجيلٍ، ولكي تلد جميع المخلّصين إلى الحياة الإِلهيّة، وتتلقّى منهم الأَسرار التي لا يبوح بها المرء إلاّ لأُمّه. فبما أَنّها أُمٌّ إِلهيّةٌ، كان بوسعها استيعاب «الأَفكار التي تعتمل في قلوبٍ كثيرةٍ».

البشارة كانت قد وعدت مريم بحضورٍ إِلهيٍّ، ونبوءة سمعان أَنذرتها بوجوب قبول انفصالٍ وجيعٍ دامٍ عمّن هو لها الكون كلّه. فقرٌ نفسيٌّ جديدٌ مطلقٌ كان يُقتضى منها.

استعادت مريم يسوع من يدي سمعان، وقد اكتسب حبّها لطفلها الإِلهيّ كثافةً وعمقًا، إِذ بات بمكنتها أَن تقدّم له، فضلاً عن قلب بتولٍ فرحٍ، نفسًا جريحًا. غير أَنّ الجرح، في سبيله، يكتسب عذوبةً قصوى.

نبوءة سمعان كانت نبوءة العهد القديم الأَخيرة. فبمريم انتهى العهد القديم، وبها أَشرق العهد الجديد.

ما أَكثر الذين يشتهون أَن يروا ما رأيتَ يا سمعان، وأَن يحملوا ما حملت، وأَن يموتوا، بعد ذلك، راضين مرضيّين! وكم من الآباء والملوك، والأَنبياء، تمنّوا مشاهدة ذلك المحيّا الإِلهيّ قرنًا إِثر قرنٍ! وأَنت شاهدته، وكانت مشاهدته هي السماء، فلا حاجة بك، بعدُ، إلى حياة الأَرض التي زهدت فيها.

وأَشرق في نفس العذراء نورٌ باهرٌ أَضاء مصيرها، حيث ارتبطت عظمة أُلوهة ابنها بآلام بشريّته، وبآلامها، وبحقيقة كونها أُمّ اللّه. ولكنّ ذلك، لم ينلْ، في شيءٍ، من سلامها وسجوّها، فقد كانت نبوءة سمعان تسبح في أَنوار العليّ.

وكم تنقلب الأَحزان الأَرضيّة جذورًا تنبت أَفراحًا سماويّةً، وكم قد يكون الصليب مشروع تاج مجدٍ! وكم يطفئ الأَلم أَنوار العالم الخدّاعة، وتفجّر الظلمة نورًا نميّز به وجه اللّه!

وقد امتدّت آلام مريم على حياتها كلّها، ولكنّها لم تلتمس عزاءً، ولم تتّكئ على أَيّ تعاطفٍ بشريٍّ. تأَلّمت بصمتٍ وفرحٍ، ودائمًا بالاتّحاد مع آلام ابنها.

وفيما كانت مريم تستعيد ابنها من يدي سمعان، ظهر وجهٌ نبويٌّ آخر: عجوزٌ مغضَّنةٌ هزيلةٌ تدعى حنّة، ولكأَنّها من أَثاث الهيكل العتيق. لم تكن سوى ظلٍّ وصمتٍ وسط بذخ الهيكل وصخبه. ولكنّ وجود المخلّص اجتذبها. وفجأَةً تكلّم الصمت ومجّد الربّ، متضافرًا مع سمعان في إِزاحة النقاب عن حقيقة الطفل الإِلهيّ.

وترسّخ في يقين مريم ويوسف، رغم نذائر الآلام المستقبليّة، أَنّهما يحملان بين يديهما، مصير الكون.

زيارة المجوس

عادت الأُسرة إلى بيتها المؤقّت في بيت لحمٍ. وقضت أيّامًا هانئةً أضفى عليها وجود الطفل الإِلهيّ لمسةً سماويّةً، وعذوبةً فريدةً.

وذات مساءٍ توقّف أمام باب المنزل موكب أَغرابٍ يرتدون أَزياءً فاخرةً غريبةً، وتبدو عليهم أَمارات تعب سفرٍ طويلٍ. وكان الأَمر مستهجنًا في قريةٍ بعيدةٍ عن دروب السفر، وقلّما يشاهد فيها غريبٌ.

جاء في «إِنجيلٍ» عربيٍّ منحولٍ: «في ٢٥ كانون الأَوّل، كان المجوس، عبّاد النار والنجوم، يقيمون احتفالاً كبيرًا، عندما توهّج فوق رؤوسهم نورٌ باهرٌ. فتركوا ملوكهم ومآدبهم، وكلّ مسرّاتهم، وخرجوا من بيوتهم كي يتمتّعوا بالمنظر. فشاهدوا نجمًا متألّقًا، وقد أشرق فوق بلاد فارس، محاكيًا، بتوهّجه، شمسًا كبيرةً.

فسأل ملوكهم الكهنة، بلسانهم: «ما هذه الإِشارة التي نشهدها؟ فأجابوا، وكأنّهم يتنبّأون: «لقد وُلد ملك الملوك، وإِله الآلهة، والنور المنبثق من النور. وها إِنّ أَحد الآلهة يبشّر بولادته، كي نمضي فنقدّم له هدايا، ونعبده».

وحينئذٍ نهض الرؤساء والقضاة، وقادة الجيش، واستوضحوا الكهنة: «ما هي الهدايا اللائقة كي نمضي بها؟» فأَجاب الكهنة: «ذهبٌ، ومرٌّ، وبخورٌ»...

وبادر الزائرون بالسؤال عن الملك الوليد، وأَمام دهشة مريم ويوسف، أَفادوا أَنّهم ملوكٌ شرقيّون، شاهدوا نجمًا غريبًا فأَدركوا أَنّه يدلّ على ولادة ملكٍ عظيم الشأن، واسترشدوا به، فقادهم إلى منزل العيلة المقدّسة في بيت لحم.

كانوا قد وافوا بهدايا ثمينةٍ من ذهبٍ، وبخورٍ، وطيبٍ، وما إِن شاهدوا الوليد حتّى وضعوها عند قدميه، وخرّوا له ساجدين، رغم فقر المكان، وبساطة ذويه التي كانت توحي بعظمةٍ حقّةٍ. وقد تبيّنوا أَنّهم في حضرة أَكثر من ملكٍ يهوديٍّ، أو إِنسانٍ ذي شأنٍ عظيمٍ، بل في حضرة إِلهٍ جديرٍ بالعبادة. وكم سرّهم سماع عبارات الشكر،

نيابةً عن يسوع، من أُمّه الصبيّة، البسيطة، البتول، الأَبيّة، الجليلة، التي شرحت لهم، بصوتٍ فاتنٍ عذبٍ، أَسرار ملكوت المسيح المتميّز، الذي يستهدف خلاص العالم أَجمع. فانفتحت أَذهانهم على أَسرارٍ سماويّةٍ كانوا يجهلونها، واتّسعت بها قلوبهم، وغمرتهم سعادةٌ لم يتوقّعوا، يومًا، مثلها.

كانوا يبحثون عن ملكٍ، فوجدوا إِلهًا وأُمّه. وفي ذلك اليوم استهلّت مريم وساطتها بين ابنها والبشر.

كانت الحيرة قد استولت، أَوّلاً، على مريم ويوسف، أَمام هؤلاء الزائرين الغرباء، المهيبين. غير أَنّ ما لفت انتباههما، على نحوٍ خاصٍّ، هو هذا السجود، من قبل وثنيّين اكتشفوا طريق الخلاص، في حين أَنّ اليهود لم يرغبوا في معرفة مخلّصهم الموعود، وفي صَلَفهم، كانوا يعدّون هؤلاء الغرباء وباءً، محكومًا عليهم بالتهلكة. وعبر بخاطر يوسف قول أَشعيا (٢٢ : ٤٥): «توجّهوا إِليّ فاخلصوا، يا جميع أَقاصي الأَرض، فإِنّي أَنا الله، وليس آخر».

وانفتح قلب مريم ويوسف، بلا حدودٍ، لجميع الذين سيعبدون يسوع على كرّ الأَجيال، أَيّةً كانت أَجناسهم وحدودهم، حتّى نهاية الأَزمنة.

ولكنّهما توجّسا خشيةً عندما روى لهما الزائرون أَنّهم، في طريقهم إلى بيت لحم، توقّفوا في أورشليم، ظنًّا منهم بأَنّ مسقط رأس ملك اليهود، لا بدّ من أَن يكون في عاصمة اليهود. فأثار استفسارهم أَكثر من الدهشة، إِذ أَثار رعدة البعض، ولاسيّما هيرودُس، الذي استدعاهم، وطلب منهم مواصلة البحث عن المولود، والعودة إِليه لإِطلاعه.

وعندما استسلم المجوس إلى الكرى، كي يصيبوا قسطًا من الراحة من عناء السفر، تراءى لهم ملاك الله في الحلم، وأَوعز إِليهم أَن يعودوا من طريقٍ آخر، متحاشين عن إِخبار هيرودُس بما رأوا. فعملوا بإِيعاز الملاك. ولكنّ مريم ويوسف كانا واثقين من أَنّ الطاغوت المجرم لن ينام طويلاً عن الخديعة. فاعتصما بالحيطة والجرأة، وأَوكلا مصير يسوع إلى أَبيه السماويّ.

الرعاة والمجوس كانوا طلائع المبشّرين بالإنجيل. وما دام حشودٌ من النفوس البسيطة، وبعض أُمراء الفكر يعبدون الطفل الإِلهيّ، سيظلّ الإِيمان في مأمنٍ.

اللجوء إلى مصر

كان الآب ساهرًا على ابنه، وتحسّبًا للجريمة التي كان هيرودُس يُعدّ لاقترافها، أنفذ ملاكه إلى يوسف، في نومه، وبلّغه: «**قم فخذ الصبيّ وأُمّه، واهرب إلى مصر. وأَقم هناك حتّى أَقول لك. فإِنّ هيرودُس مزمعٌ أَن يطلب الصبيّ ليهلكه**». (متّى ٢ : ١٣)

الأَمر كان حازمًا، جليًّا، ويوسف، بصفته ربّ الأُسرة، والمكلّف بحماية ابن الله، نفّذه في الحال، بلا تردّدٍ. وأَطاعت مريم الأَمر، فجمعت الضروريّ من المتاع، وحملت ابنها، وانطلقت نحو المجهول، نحو مغامرةٍ تبدو حمقًا، فالطفل هشٌّ، والمسيرة محفوفةٌ بالمهالك، والمصير يلفّه الغموض.

عقب تكريم المجوس المعبّر عن حدب الآب على ابنه، ها هو ذا الابن في مهبّ العاصفة، تطارده وحشيّة أَسياد السلطة. وها هي ذي مريم تخضع للأَمر بلا نقاشٍ، في صمتٍ وبساطةٍ، ولكأَنّ ما أُمرت به هو الوضع الطبيعيّ، فتنفّذه بكلّ ما لديها من سخاءٍ، ودقّةٍ، وحبٍّ، واثقةً من أَنّها، بذلك، تسهم، إِسهامًا مجديًا، في حلول ملكوت الله. لا ريب أَنّه شقّ عليها هجر موطنها، ومسقط رأس ابنها. ولكن، بما أَنّ ابنها، إِلهها، معها، فكلّ بقعةٍ من الأَرض هي موطنها. والهجرة لا تزيدها إِلاّ التصاقًا به. من أَجله تهاجر، ومن أَجله تحيا. قلبها هو القلعة التي تحميه، وأَرض مصر هي أَوفر أَمانًا للمسيح من ديار اليهود.

كان طبيعيًّا أَن تجتاح ذهنَ مريم طائفةٌ من التساؤلات: فلماذا مصر، وليس السامرة، أَو سوريّة، أَو لبنان؟ وأَيّة لغة سيتكلّمان هناك؟ وكيف سيتدبّران أَمر معيشتهما؟ وكيف يرتضي الله أَن يعبث طاغيةٌ مجرمٌ بمصيرهم، بل بمصير ابنه الوحيد؟ ولمَ لا يقضي على الشرّ، ويجتثّه من جذوره؟ لكم تطاردنا مثل هذه الاعتراضات والتساؤلات، في حالاتٍ مماثلةٍ! ولكنّ مريم لم تعترض، ولم تحتجّ، بل استسلمت ورحلت، بسرعةٍ، فالخطر داهمٌ، وبحذرٍ وتؤدّةٍ، بعيدًا عن الدروب

المطروقة، عبر مسالك موحشةٍ، حاضنةً، برقّةٍ، طفلها، هادئةً، وقورًا، مردّدةً: «**فليكن لي بحسب مشيئتك، يا ربّ!**».

فعل الطاعة هذا الذي يسلم مريم، كلّيّةً، إلى مشيئة الله، كان يفعم قلبها فرحًا أعظم وأكمل، لأنّه يجعل حضور الله، فيها، أكثر كثافةً.

في عتمة الليل وسكونه، وصمته، الذي لم يكن يعكّره سوى عواء كلابٍ شاردةٍ، وعلى ضوء النجوم الباهت البارد، انطلقت الأُسرة، فدارت حول المدينة الغافية، قبل أن تيمّم شطر الجنوب. كان ذلك هو الارتحال الثالث، بعد الناصرة، والمغارة، وبيت لحم. فالطفل الذي انتظراه، واستقبلاه، وداعباه، وعبداه، وقدّماه لعبادة الرعاة والمجوس، بات عليهما، في تلك الليلة، حمايته من نُذُرٍ تحوم حول حياته، ومن شراسة رؤساء قومه.

ومع انبلاج الصبح كانوا قد نأوا عن مدينة داود، فلم يسمعوا عويل الأُمّهات اللواتي كان جند هيرودُس ينتزعون أطفالهنّ من أحضانهنّ، ويذبحونهم تحت أنظارهنّ.

الأناجيل المنحولة تسترسل في سرد الأساطير الحافلة بالعجائب السخيفة التي تصوّر أشجار النخيل تنحني أرضًا، كي تقدّم للأُسرة الشريدة أطايبها، والينابيع تنبجس تحت أقدامهم كلّما انتابهم عطشٌ، والأصنام تهوي حطامًا، لدى مرورهم.

ولكن من المحقّق أنّ الربّ الذي لم يلجأ إلى المعجزة في سبيل إنقاذهم من بطش هيرودُس، لم يلجأ إليها كي يخفّف عنهم مشقّة الارتحال. إنّما المعجزة تمثّلت في خضوع إلهٍ أزليٍّ لهذه المشقّات بعد أن ارتضى التأنّس.

لا عجائب، إذن، بل إيمانٌ عجيبٌ، وإعجابٌ بتلك الأمداء اللامتناهية المدوّية بالصمت، وبانعكاس نور النهار على رمال الصحراء، وبطراوة الآجام، وبالليالي الساحرة المتلألئة بالنجوم. قصيدة الطبيعة المجرّدة كانت تحيق بهم. قصيدةٌ من نورٍ وسماءٍ. أرضٌ بلا حدودٍ، وشعورٌ طاغٍ بجلال الخالق.

ظلّوا يضربون في الصحراء إلى أن أصبحوا علاماتٍ صغيرةً قاتمةً تتحرّك فوق الرمال. خليقتان كان عليهما حمل الله والعناية به، في تلك الفيافي المقفرة. وكم

تعاقب عليهم من شروقٍ وغروبٍ، من قيظ الظهيرة الذي لا يحميهم منه ظلّ شجرةٍ، ومن ندى الليالي وما يواكبه من قشعريرة بردٍ! زادهم زهيدٌ، وغالبًا ما يفتقرون إلى ما ينقعون به ظمأهم. كان الأبوان يعرفان مَنْ يحملان، ولكنّهما لم يلتمسا عجائب لتخفيف عبئهما.

وفيما مريم ويوسف كانا يتعثّران وسط الرمال، كانت تنعقد، وراءهما، المأساة المريعة التي أمر بها هيرودُس، وأودت بحياة العشرات من أطفال بيت لحم.

كانا يسيران، ويسيران بلا توقّفٍ، على امتداد الرمال الرتيبة، إلى أن اجتازا حدود فلسطين، وباتا في الديار المصريّة. حينئذٍ، تنفّسا الصعداء، وأثلج صدرهما الشعور بالاطمئنان إلى نجاة الطفل الإلهيّ. ربّما لم يتوغّلا داخل الأراضي المصريّة بل حطّا الرحال في تلك البقعة الحدوديّة، حيث كانت قد استقرّت جاليةٌ يهوديّةٌ كبيرةٌ. وكانت مهنة يوسف كفيلةً بتوفير دخلٍ يقوم بأَوَدِ الأُسرة الصغيرة التي اتّخذت لها مسكنًا كوخًا مبنيًّا من طمي النيل، مسقوفًا بعُمُدٍ خشبيّةٍ بدائيّةٍ. وكان حسبهم ذلك مقرونًا بالحبّ الذي وثّق عراه الخوف المشترك والتضامن في الدفاع عن الطفل الغالي.

كلّ ما كان يوسف ومريم قد ألفاه تغيّر، ولكن بينهما كانت المحنة والآلام قد قرّبت أحدهما من الآخر، وقرّبتهما ممّن كان يسهر عليهما، خفيًّا، ولكن حاضرًا بقوّةٍ.

ومن المرجّح أنّ إقامة العيلة المقدّسة في المنفى المصريّ لم تتعدَّ بضعة أشهرٍ.

نشأة يسوع

بصفته إلهًا مطلق الكمال، يسوع لا ينمو ولا يتغيّر. ولكنّه بصفته إنسانًا كان شبيهًا بجميع البشر، في كلّ شيءٍ ما عدا الخطيئة. ومن ثمّ خضع لسنّة النموّ الجسديّ والفكريّ، أي في المعرفة التي تُكتسب بالخبرة، وبالعمل على معطياتٍ ملموسةٍ، وفي الفضائل التي يتمّ التمرّس منها بممارسة أفعالٍ شاقّةٍ.

والأُمّ تصبح أُمًّا مرّتين: بالوضع الذي تلد به جسد ابنها، وبالتربية التي، بها تبثُّ نفس ابنها أكثر ما فيها من نبلٍ، وطهرٍ، وسخاءٍ، أي خير ما فيها. وهذه الولادة الثانية هي التي توثّق بين الأُمّ وابنها أقوى الوشائج وأبقاها.

مريم كوّنت جسد ابنها من جسدها وحده، وكوّنت نفسه، لأنّه، عندما اختارها أُمًّا، زيّنها بفيض الفضائل التي يرغبها في كلّ إنسانٍ، فامتزجت نفساهما.

كانت ترضعه، وتقمّطه، وتحمله على صدرها، وتهدهد نومه بأعذب التهاويد؛ تبتسم لابتسامته، وتكفكف دموعه. هي قادت خطواته الأولى التي كانت تنتهي به إلى مرفأ ذراعيها الممدودتين له، وطربت لثغثغاته الأولى. وكم انتشت، يوم سمعت منه، للمرّة الأولى، دُعاء «ماما»! وما لبثت أن شرعت تلقّنه، وهو في حضنها، الأدعية التي يخاطب بها أباه السماويّ، منشدةً، على مسمعه، أناشيد الأنبياء والأبرار.

وسرعان ما غدا لها مرآةً ترى فيها قسمات محيّاها، وسموّ نفسها. وكان الجيران يعجبون لما بينهما من شبهٍ منقطع النظير. وهي كانت تشكر للربّ أنّه جعلها شبيهةً بابنه. وكم هو تأمّلها، بحبٍّ، تنهض بأعمال البيت، أو تفتل مغزلها، ونفسها مستغرقةٌ في اللّه!

كانت تستصحبه أينما ذهبت: إلى العين، أو إلى السوق، أو لعيادة مريضٍ، فهي لا تطيق عنه بعدًا. وكثيرون ممّن يرونهما معًا، كانوا يؤنسون أنّهم يرون بعضًا من سكّان السماء، فيسود في نفوسهم السلام، ويرتقون نحو اللّه.

والذين كانوا يزورون مريم، من أَجل تكليف يوسف بعملٍ، أو لاقتراض بضعة أَرغفة خبزٍ، أو للبوح بسرٍّ يبهظ نفوسهم، كانوا يعودون بالكلمة الحلوة، والعزاء، والفرح يفعم قلوبهم. وكانت رؤية ابنها ومحادثته يشيعان في نفوس الجميع، البهجة والسحر، وكثيرون كانوا يتمنّون أن يكون لهم أَبناءٌ يحاكونه.

وكان يسوع، في كلّ أُمٍّ يلقاها يتوسّم طيف أُمّه، فيحترمها، ويحبّها، ويمدّ لها يد العون. وحتّى في غمرة رسالته التي أَبعدته عنها، كان يلمحها في كلّ أُمٍّ. فتأثير أُمّه على سنوات صباه، كان قد طبع كلّ سلوكه بسحرٍ لا يُقاوَم.

ولا ريب أَنّه، يوم أَنهض من الموت ابن أَرملة «نعيم» الوحيد، كان ماثلاً أَمام ناظريه وجه أُمّه الثكلى، وهي تحمل، على ذراعيها جثمانه، إِثر إِنزاله عن الصليب. يومها لن يستطيع سكب العزاء في قلب أُمّه المفجوع، ولكنّه إِكرامًا لها، غمر بالعزاء، مسبَّقًا، قلب أَرملة «نعيم». وكم من قلوب أُمّهات عزّى إِكرامًا لقلب أُمّه!

ولا جَرَم أَنّ تلك التي ربّته، قد تعلّمت منه أَكثر ممّا لقّنته. وهي لم تحفظ في قلبها، بمثابة كنزٍ ثمينٍ، ما سمعته عنه فحسب، بل، أَيضًا كلّ ما سمعت منه، من ابن الله الذي أَمست له أُمًّا. وبفضله، كانت، هي أَيضًا، «تنمو حكمةً ونعمةً، أَمام الله والناس». كانت تغمرها سعادةٌ طاغيةٌ، وهي تشهد فضل ابنها على نفسها، وكانت، في حضوره، تحيا السماء على الأَرض، ولا يعكّر فرحها سوى نبوءة سمعان التي كانت تطفو إلى ذاكرتها، بين فينةٍ وأُخرى.

ولا ريب أَنّه كان ليسوع أَترابٌ ورفاقٌ، ومن سُمّوا «إِخوته»، وهم، على الأَرجح، أَبناء «مريم التي لكليوبّا». ويُعتقد أَن كليوبّا هذا هو شقيق يوسف، وأَنّ مريم زوجته التي يصفها الإِنجيل بأَنّها أُخت العذراء، إِنّما كانت «سلفتها». وأولئك الذين دُعوا «إِخوة» يسوع، يبدون أَكبر منه سنًّا، وهذا يفسّر غيرتهم منه، وحقدهم عليه، بعد أَن ذاعت شهرته. ولكنّهم سيغيّرون موقفهم منه، بعد قيامته.

عودة إلى الناصرة، واختفاء يسوع في الهيكل

مات الطاغوت هيرودُس، فأوعز ملاك الله إلى يوسف بالعودة إلى فلسطين. لقد انتهى زمن المنفى، وغمرت البهجة قلوب المشرّدين. وكان لا بدّ للعيلة المقدّسة من الخيار بين الإقامة في بيت لحم، مسقط رأس يسوع، أو الناصرة حيث كان قد أُعدّ له مهدٌ ومنزلٌ. وحسمت الحالة السياسيّة القرار. فقد كان اثنان من أَبناء هيرودُس قد تقاسما مملكته، وكانت منطقة بيت لحم من نصيب أَشدّهما شراسةً، وأَكثرهما محاكاةً لقاتل أَطفال بيت لحم. وكانت الناصرة، لأَسبابٍ أَمنيّةٍ، هي المفضّلة، وفيها كان ينتظر العيلة المقدّسة بيتٌ عابقٌ بذكرياتٍ عذبةٍ، تحمل دمغة السماء، ومستقبلٌ ساجٍ، صافٍ، لا تشوب صفاء سمائه غيومٌ. فقضت الأُسرة، في الناصرة، ثلاثين سنةً.

ودرجت طفولة يسوع تحت أَنظار مريم التي كانت تنهض بكلّ مهامّ المنزل من طحنٍ، وعجنٍ، وخبزٍ، وطهوٍ، وامتياح ماءٍ. وقد أَلِف أَهل الناصرة مشاهدة تلك المرأة الفتيّة، الجميلة، الأبيّة، المحتشمة، وجرّتها على رأسها، وابنها الفاتن يتوثّب إلى جانبها، ويده بيدها.

بأَيّة عنايةٍ كانت مريم تعدّ الأَطعمة السليمة المغذّية، لتنمية جسد ابنها الغضّ، الهشّ، جسد «أجمل بني البشر»، وهيكل كلمة الله الحيّ! وفي المساء كان يتناوب يوسف ومريم على شرح الكتاب المقدّس ليسوع، ويصلّيان معه، وفي أَيّام السبت كانا يستصحبانه إلى المجمع، حيث لا يتميّزون، ظاهريًّا، عن سائر المصلّين.

وتصرَّمت الأَيّام رتيبةً، ساكنةً. وربّما تساءلت مريم أَين هذه الحياة الفقيرة الممحيّة من وعود الملاك، بأَنّ الربّ سيعطي ابنها عرش داود، فيملك على بيت يعقوب إلى الأَبد! ولولا معرفتها لأَسرار مولد ابنها الإِلهيّ، لخامرتها الشكوك.

ولمّا بلغ يسوع الثانية عشرة من عمره، وكان ذاك، حينئذٍ، عمر النضج، الذي يؤهّل الفتى ليكون ابن الشريعة، ويخضع لفرائضها، ارتأى أَنّ الوقت قد حان كي

يذكّر أُمّه ويوسف بهويّته ورسالته. وقد فعل ذلك، بمناسبة الحجّ الفصحيّ السنويّ إلى هيكل أورشليم.

كان أَهل الناصرة يؤلّفون موكبًا متكاملاً، وينطلقون جماعاتٍ، فالرجال جماعةٌ، والنساء جماعةٌ، والفتيان جماعةٌ، فيساعد بعضهم بعضًا، ويسلّي بعضهم بعضًا، ويتعاونون على اجتياز المسافة بين الناصرة والمدينة المقدّسة. وفي كلّ مساءٍ يتوقّفون للعشاء، ولاستراحة الليل، فيلتئم شمل الأُسر.

على هذا النحو تمّت رحلة الشخوص إلى أورشليم. ولكنّ الأَمر اختلف في رحلة العودة. ففيما كان يوسف ومريم منهمكين في ترتيب الأَمتعة على متن الدابّة التي جاءت بهم، ظنّا أَنّ يسوع قد انضمّ إلى جماعة رفاقه وأَترابه، كما فعل في رحلة المجيء، وانطلق الموكب، فانطلقا. وهذا يُظهر أَنّ مريم لم تكن أُمًّا متملّكةً تخنق حرّيّة ابنها، ويدلّ، أَيضًا، على السكينة النفسيّة التي كانت تقطنها، من جرّاء الحياة الساجية المتوازنة التي كانت تحياها مع يوسف، بمنأًى عن التشنّجات، والتي لم تدفعها إِلى التعويض بمحاولة السيطرة على ابنها، كما يحدث للنساء اللواتي تشوب علاقاتهنّ بأَزواجهنّ التعقيدات والاضطرابات. وانقضى النهار الأَوّل ولم يساورهما شكٌّ في وجود يسوع حيث ظنّا. ولكنّهما فوجئا بعدم ظهوره، في استراحة المساء. فانطلقا يبحثان عنه، قلقَيْن، لدى المعارف والأَقارب، مستَفْسرَيْن كلّ من صادفاه هل اتّفق أَن لحِظه، في أَثناء النهار. وإِذ بجميع الأَجوبة تخيّب توقّعهما. واجتاحهما ندمٌ قاتلٌ. أَيكونان أَساءا الأَمانة، بإِهمالهما، ابن الله الموكل إلى عنايتهما؟ كانت، تلك، منذ مولده، الليلة الأولى التي يقضيانها، وهو غائبٌ عنهما، ويا لها من ليلة سهادٍ وقلقٍ، لامسا فيها قعر الأَسى! ويا له من نزاعٍ حافلٍ بالتخيّلات والافتراضات العشوائيّة الخالية من أَيّ عزاءٍ! وأَيّ عزاءٍ في غياب يسوع! وكم من الدموع الصامتة والتضرّعات الحارّة!

كان قد سبق لمريم أَن قلقت على ابنها، ولاسيّما في أَثناء المنفى المصريّ. ولكن، في كلّ تلك المناسبات الموجعة كان ابنها معها. وأَيّةً كانت شدّة المِحَن، كان مجرّد التحديق إلى عينيه الصافيتيْن كافيًا لتبديد كلّ قلقٍ. ولكنّه الآن مختفٍ، غائبٌ. وهي تؤثر أَلف موتٍ بقربه على الانفصال عنه، وجهل مكانه. ولا ريب أَنّها، حينئذٍ، في تلك اللحظات كانت تردّد، مع صاحب المزامير: «**قد كان لي دمعي خبزًا، نهارًا وليلاً، إِذ قيل لي كلّ يومٍ:** «**أَين إِلهك؟**» وأَيضًا: «**حتّى نور عينيّ لم يبقَ معي**».

لو كفّت الأَرض عن الدوران، أَو لو دوّت أَبواق نهاية العالم، لما جزعا كما جزعا لمّا تبيّنا غياب يسوع. كثيراتٌ من أُسر الناصرة كانت تكنّ ليسوع الفتى حبًّا شديدًا، وتشعر، حياله، بجاذبٍ لا تفهم له سرًّا. فخيّل إِليهما، لحظةً، أَنّ إِحدى تلك الأُسر قد استبقتْه على العشاء، فطافا بالمعارف والأَصدقاء باحثَيْن. ولكن في قرارة نفس مريم كان يستقرّ اليقين بأَنّ لا جدوى من بحثهما. فلو هو كان مع القافلة، لما تلكّأ في طمأنة قلبيهما حيث انحفرت هوّةٌ سحيقةٌ ومنها كانت تهبّ ريحٌ ثلجيّةٌ تجمّد ذَيْنك القلبين، وتسحب عليهما عتمةً أَكثف ظلمةً من ظلمة الليل الذي خيّم على تلك البقعة من العالم.

وعادا أَدراجهما، وحيدَيْن، صامتَيْن، غير حافلَيْن بقروح الأَقدام، وبالظلمة الدامسة، إِذ كانت تغشى صدريهما ظلمةٌ أَكثف صفاقةً، تموج بالهواجس.

هل تعرّفه عيون هيرودُس، فصلبوه، خلسةً، على إِحدى التلال المحيقة بأورشليم، أَو هل طوته الصحراء، حيث تاق إِلى لقاء سابقه؟ هل نفض عن عنقه نير الطاعة، والتمس الاستقلال قبل الأَوان؟ كانت مريم واثقةً أَنّه ابن الله، وأَنّه لا يفعل إِلاّ ما هو قويمٌ، ولكنّ هذه الثقة لم تكن كافيةً لصدّ مواكب الهواجس التي كانت تصلب نفسها.

في تلك الأَثناء كان يسوع في هيكل أورشليم، حيث بعد أَن خاطب أَباه بحرارةٍ، عرَّج على زاوية علماء الشريعة، فأَذهله تحريفهم لمعاني النبوءات، وتسخيرها لمصالح إِسرائيل المادّيّة والسياسيّة، وتصويرهم المسيح محاربًا عنصريًّا يمحق سائر الشعوب، كي ينعم شعبه بالبحبوحة والسيطرة. هذا التفسير كان العقبة الكأداء في وجه التعليم الذي جاء ينشره، وفي وجه سرّ تجسّده. وكان لا بدّ من تقويضه، ومن إِسماع صوت الحقّ لمن لا تزال لديهم آذانٌ مصغيةٌ للحقّ. كان يطرح على الشيوخ أَسئلةً كفيلةً بتحريك عقولهم المتحجّرة، وكانت عذوبته ووداعته تخترق قلوبهم. كان يبسط اعتراضاته برقّةٍ، ويقدّم تفاسير تدهشهم، وتخلخل المسلّمات التي اعتنقوها بلا تمحيصٍ. ولكنّه يتظاهر بأَنّ الحكمة التي يولّدها في عقولهم هي أُمثولةٌ استخلصها من نقاشه معهم.

ذرع يوسف ومريم شوارع أورشليم يستوقفان كلّ مَنْ من شأنه موافاتهما بإِشارةٍ تساعدهما على العثور على يسوع. بعض المارّة كانوا يردّون الجليليَّيْن بجفوةٍ وتأَفّفٍ،

وآخرون كانوا يتوقّفون، وينصتون بتعاطفٍ، ولكن لا يملكون ما يشفي غليل الوالدين الملهوفين، والبعض كانوا يكتفون بنصائح لا طائل تحتها، متجاهلين أَنّ مريم ويوسف لم يهملا أثرًا، وطرقا كلّ بابٍ.

كانت مريم تستفيض في وصف ابنها، بدقّةٍ مذهلةٍ، وبحبٍّ فيّاضٍ، فتفيدها امرأةٌ هنا أَنّها شاهدته مفترشًا اليابسة تحت رواق؛ وأُخرى تقول إِنّها جادت عليه برغيف خبزٍ، ثمّ رأته، بعد لحظاتٍ، يقتسمه مع متسوّلين. وكانت تلك الأَقوال توفّر لها يقينًا واحدًا معزّيًا، وهو أَنّ يسوع ما زال في المدينة المقدّسة. وتقول امرأةٌ أُخرى إِنّها رأته يعنى بمريضٍ، فيضطرم قلب مريم، ليقينها بأَنّ مثل هذا العطف لا يصدر إِلاّ عن ابنها. ومالت شمس يوم البحث الأَوّل إِلى المغيب ولم يظهر يسوع. وطيلة ذلك اليوم لم يتناول أَيٌّ من مريم ويوسف لقمة طعامٍ، فذوو القلوب المحطّمة لا يستمرئون طعامًا، ولا يهنأون بنوم.

وفي اليوم التالي غدوا إِلى الهيكل باكرًا، كي يوكلا إِلى الربّ همّهما الهاصر. عند باب الهيكل الشرقيّ كان يجتمع المعلّمون، ويردّون على أَسئلة المستفسرين، ويقدّمون لكلّ ما استعصى حلاًّ. ومع أَنّهما لم يتوقّعا العثور على يسوع هناك، ميّزت أُذنا مريم جِرْسًا لم يكن بوسعها أَن تخطئ صاحبه. ودخلا فإِذا، وسط رهط المعلّمين، فتًى يحدّقون إِليه جميعهم بمزيجٍ من التجلّة والمتعة. هما أَيضًا أَخذت بهما الدهشة، فأَقوال الفتى، والنور المشعّ من عينيه، ومن كلّ كيانه، كانت انعكاسًا لأُلوهته. وقد عبدته مريم في أَعماق نفسها، وكم ودّت أَن تسجد أَمامه، ولكن لم يكن ذلك هو الزمان والمكان المناسبين.

بُهت يوسف ومريم، وثبتا في مكانهما مذهولَيْن. ولبثا لحظاتٍ يتأمّلان المشهد المدهش. ولكن، هل مَن يدرك أُمور الآب خيرًا من ابنه؟ ولا غروَ أَنّ حكمة الآب كانت تنطق بلسانه.

لم يدهش يوسف ومريم من علمه وحكمته، بل من إِظهارهما علنًا، للمرّة الأولى. فلطالما عهداه، في الناصرة، متواضعًا، خاضعًا، مخفيًا مواهبه الإِلهيّة. وإِذ به يناقش أَشهر رابيّي الأُمّة بحكمةٍ تنتزع إِعجابهم.

يقول الإِنجيليّ لوقا إِنّ يسوع كان «**جالسًا بين المعلّمين يسمعهم ويسأَلهم**». ويقول

جان غيتّون، في هذا الشأن: «الإِصغاء والمساءلة هما أَصعب ما في الحوار. والأطفال يجيدونهما لأَنّهم متحرّرون من عائق المعلومات المخزّنة، ويمضون إلى لبّ السرّ مباشرةً. أَمام معلّمي الشريعة، لم يكن يسوع مقيّدًا بالشريعة، بل كان ينبض بالروح، وكان ذلك كافيًا كي يملأ أَجوبته فهمًا».

أَسئلته وأَجوبته كانت تدور حول العقائد والفرائض، ولاسيّما فريضة السبت الأَشدّ تقديسًا لديهم. وكانت آراؤه ضربات معولٍ في عقائدهم. وإِن هم تناولوا موضوع المسيح المنتظر أوحى لهم بأَنّ ظهوره قريبٌ، ولكن خلافًا لما يتخيّلون ويريدون.

حيالَ هذا المشهد لم يخالج مريم أَيّ شعورٍ بالزهو والتباهي، فكلّ ما كانت نفسها تهفو إِليه هو ضمّ يسوع إِلى صدرها، بعد كلّ ما عانت من جرّاء فقدانه.

انعتق يوسف ومريم من الخوف المميت الناشب بهما، ولكنّهما تساءلا: إِن كان يسوع قد تخلّف في الهيكل عن سابق تصميمٍ، فلمَ لم يعلمهما؟ وتولّت أُمّه العتاب: «**لمَ فعلت بنا هكذا، يا بنيّ؟ فها أَنا وأَبوك نبحث عنك متألّمين؟**» فقال لهما: «**أَتبحثان عنّي؟ أَما تعلمان أَنّه عند أَبي يجب أَن أَكون؟**»

هنا أَيضًا تتجلّى سيطرة مريم على ذاتها. فموقفها لم يكن مثل موقف الكثيرات من النساء، انفجار غضبٍ، قد يُعَبَّر عنه بصفعةٍ أَو صفعتين، بل كان تعبيرًا صادقًا عمّا ساورها من قلقٍ. تكلّمت باسمها وباسم يوسف، ولكأَنّها كانت تودّ تذكير يسوع بأَنّها، مع علمها ابن مَنْ هو، لا يسوغ له إِقلاق يوسف، الرجل البارّ الطيّب الذي انتُدب للسهر عليه ولرعايته.

انتهى بحث مريم ويوسف بالعثور على يسوع، مثلما يعثر عليه كلّ من يبحث عنه باهتمامٍ وقلقٍ. ومن جوابه لهما اتّضح أَنّ على من يبحث عنه أَن ينشده لدى أَبيه السماويّ.

كانت مريم تعلم أَنّ يسوع هو ابن الله، ولكنّه فاجأها، وهو في الثانية عشرة، بهذا الموقف، بعد أَن عاش، حتّئذٍ، مثل أَيّ فتًى عاديٍّ من بني البشر. وزادها وضعها النفسيّ الصعب استغرابًا لجوابه. كانت تتساءل كيف أَدرك علاقته الجوهريّة بالآب، وهو في هذه السنّ. سرٌّ استعصى على فهمها، مع معرفتها بمنشئه السماويّ. فكيف أَدركه هو؟ وكيف سيُعنى بشؤون أَبيه، وهو فتًى، وسط جمهرةٍ من العلماء المخضرمين؟ وكيف سينسلخ عن والدته ومربّيه، وهو، بعدُ، في هذه السنّ.

كان ظاهرًا على محيّا مريم، وفي نبرة صوتها المرتجفة، ومن تهالك كلّ جسدها، ما أَحدثه غياب يسوع في نفسها، وفي نفس الرجل البارّ المنتدب لرعايته، من رعدةٍ وجزعٍ. ولكنّ ابن الله، خلال تلك الأَيّام الثلاثة، لم يغِب عن قلب أَيٍّ منهما، ومن المحقّق أَنّه قد زوّدهما بكلّ ما يلزمهما من قوّةٍ تؤهّلهما لاحتمال هواجس غيابه.

ولا ريب أَنّ يسوع، أَيضًا، تألّم من جرّاء بعده عن أُمّه ومربّيه. غير أَنّ هناك مهمّةً كان من أَجلها قد جاء، ولا بدّ من الشروع بتحقيقها. وهو، بردّه على عتاب أُمّه، شرع يغرس، بيده، في قلبها، السيف الذي تنبّأ به سمعان.

عاتبها لأَنّها بحثت عنه. وكيف لا تبحث؟ أَنسيت بيت لحم، ومنفى مصر، ومنغّصات الناصرة؟ وهل كان بوسعها، أَو من واجبها، أَلاّ تبحث عنه؟ وهل هو ينكر عليها حقوقها، أَو يبتغي انتزاعها منها، في لحظة فرحها بالعثور عليه؟ قد يستطيع انتزاع هذه الحقوق، ولكنّه لن يقوى على انتزاع حبّها له من صدرها. وحتّى لو هو هجرها في تلك اللحظة، لما كفّت عن حبّه، بل إِنّها كانت ستحبّه أَلف مرّةٍ أَكثر من قبل. فقد باتت ترى في ابنها إِلهها، أَكثر من أَيّ وقتٍ مضى.

كانت مريم قد أَنفقت اثنتي عشرة سنةً إِلى جانبه، تحضنه، وتطعمه، وتُعنى به، وتوفّر له كلّ احتياجاته المادّيّة، وتحدّق إِلى عينيه الصافيتين، نافذةً منهما إِلى أَعماق ذاته. اثنتا عشرة سنةً انقضت مثل انخطافٍ مقدّسٍ في حبٍّ وجيعٍ. كلّ أُلوهته قد تسرّبت إِلى نفسها. وكم كان الله صامتًا! بين الخالق والخليقة، وفي مثل العلاقات المعقودة بين يسوع وأُمّه، الصمت هو خير وسيلة حوارٍ. فعمَّ كان بوسع الكلمات أَن تعبّر؟ إِنّها عاجزةٌ عن استيعاب أَفكار مريم، ولا عبء أَفكار ابنها. الكلام، لو حصل، كان بمثابة تنازلٍ، انحدارٍ من جبلٍ. وعلامَ تنحدر مريم، أَو ينحدر يوسف؟ يوسف، أَيضًا، كان يرتاح إِلى مناخ القمم حيث لا يصل من الأَرض صوتٌ أَو صدًى.

عثر يوسف ومريم على يسوع، ولكنّ غيوم نفسيهما لم تتبدّد كلُّها، بل ازدادت كثافةً. الإِنجيليّ يقول: «لم يفهما...». إِلاّ أَنّ يسوع عاد معهما إِلى الناصرة. وهو، سواءٌ في هيكل أورشليم، أو في منجرة الناصرة، دائبٌ على الاهتمام بشؤون أَبيه. عادوا جميعًا، هو أَوفر بهاءً، ومريم أَوفر قداسةً، ويوسف أَوثق قربًا من الله، وتشبّهًا بظلّ الأَبديّ.

آلام غياب هذه الأَيّام الثلاثة كانت أَشدّ وطأةً على نفس مريم من آلام موت يسوع ودفنه. فهي كانت موقنةً أَنّ موته هو تحقيقٌ لمشروع الفداء الذي تجسّد من أَجله، وما كان عليها سوى عدّ السُّوَيْعات التي تفصلها عن مجد قيامته. أَمّا أَيّام غيابه الثلاثة، فكانت غارقةً في الظنون، والمخاوف، والهواجس، ولذلك بلغت آلامها، حينئذٍ، ذروتها.

وبذلك أَصبحت مريم مثالاً لكلّ من يفقد عزيزًا. وكم أَمعنت توغّلاً في الله سحابة هذه الأَيّام الثلاثة! وقد أَكّدت لها هذه الحادثة بشاعة الخطيئة، فما الخطيئة سوى غياب الله عن النفس، من جرّاء ابتعاد النفس عن الله.

وكانت تلك مناسبةً لكي يؤكّد يسوع ما سيعلنه مرَّاتٍ عديدةٍ، وهو أَنّ علاقته بأَبيه السماويّ تعلو على كلّ علاقةٍ جسديّةٍ، وأَنّ صلة القربى التي يؤثرها ويقدّرها هي العمل بمشيئة أَبيه. فوحدهم مَن يعملون بها يعدّهم أُمًّا له، وإِخوةً وأَخواتٍ. وإِنّما هو، بذلك، كان يؤكّد رفعة أُمّه وتميّزها، إِذ إِنّها، علاوةً على علاقتها الجسديّة به، خير من خضع لمشيئة الله، ونفّذها بإِخلاصٍ.

سؤال مريم، عندما عثرتْ على يسوع حافلٌ بالدهشة، وجواب يسوع، في صيغة سؤالٍ، حافلٌ، هو أَيضًا، بالدهشة. فما كان عليهما أَن يقلقا ويبحثا، بل كان عليهما أَن يدركا. كانا يعرفان هويّته، وبالتالي كان عليهما استنتاج عواقب هذه المعرفة.

إِدراك مريم لأُلوهة يسوع كان خاضعًا لسنّة التطوّر والاكتمال المطّردين. كانت محيطةً بمنشئه الإِلهيّ، ولكنّ نموّه الجسديّ كان لغزًا. وكذلك عيشه في الفقر، مع أَنّها بُشّرت بأَنّه سيكون ملكًا. أَكثر من أَيّ إِنسانٍ كانت عارفةً بهويّته. ولكنّ معرفتها كانت معرفة أُمٍّ لابنها، معرفةً وثيقةً، ولكنّها لا تقوى على تفسيرها أو تحليلها، معرفةً واقعيّةً، لا «علميّةً». وإِيمانها به كان حيًّا منيعًا، ومع ذلك أَكّد المجمع الفاتيكانيّ أَنّ «مريم قد تقدّمت في حجّها الإِيمانيّ».

عاتبت مريم يسوع من منطلق علاقاتٍ أسرويّةٍ بشريّةٍ. ولكنّه، هو، ارتقى بالحوار إِلى مستوًى إِلهيٍّ. هي أَشارت إِلى «قلق» أَبيه بالتبنّي، يوسف، وهو ذكّرها بواجبه حيال أَبيه الحقّ، الآب السماويّ. في البشارة علمت مريم أَنّ يسوع هو ابن الله، لأَنّها حملته بفعل الروح القدس، وبمنأًى عن أَيّ تدخّلٍ بشريٍّ. ولكنّ يسوع الذي

توارى في الهيكل، أَماط عن ذهنها النقاب كي تدرك أنّه ابن الله المولود منه أبديًّا، بلا بدءٍ. وقد حفظت سرّه هذا في قلبها، وأَمعنت فيه تأمّلاً. التجسّد الذي تحقّق فيها كان مرتبطًا بالفداء، وكان عليها أَن تستوعب هذا الوضع وتتقبّله.

وبالإِجمال كانت هذه الأَيّام الثلاثة المضنية، لمريم، إِعدادًا لمساهمتها في سرّه الفصحيّ، في آلامه وموته وقيامته، وفي جملة عمله الفدائيّ.

فرح مريم بالعثور على يسوع لم يُنْسِها أَلمها وقلقها. بلا مرارةٍ، وباستسلام حبٍّ، اعترفت بما قاست، واستفسرته عن السبب. هذا الـ «لماذا» يقابل ال «كيف» الذي واجهت به بشارة الملاك. حينذاك لم يكن أَيّ ارتيابٍ، وهنا لا أَثر لغضبٍ، بل كانت نظرة مريم ولهجتها تعكسان كلّ حبّها.

لم توبّخ مريم ابنها، فحياتها موقوفةٌ على خدمته، ولكنّها استفسرت، بمرارةٍ، عن سبب غيابه، وكانت مشاعر الأُمومة هي الغالبة. استفسارها كان صلاةً تنطوي على أَلم نفسها السحيق، وقد تفجّر تلقائيًّا من كثافة قلقٍ استمرّت وطأته ثلاثة أَيّامٍ، ومن كثافة أَلم فراقٍ كان بقياس كثافة الحبّ الذي كتمته مريم الأُمّ، ولكنّها، في تلك المناسبة، لم تقوَ على لجمه. كان يمكن سبر عمق حبّها في أَعماق الجرح الذي حفره غيابه في قلبها.

لقد كان من شأن أَيّ ولدٍ عاديٍّ أَن يعتذر عمّا سبّبه لأُمّه من قلقٍ. ولكنّ يسوع استهجن سؤال أُمّه، لا بل استهجن بحثها عنه، ولكأنّها ذهلت عن هويّته الحقّة، وعن أَبيه الحقّ، وعن الرسالة التي جاء من أَجلها، والتي كان حريصًا على ممارستها في استقلاليّةٍ تامّةٍ. أَفتكون أَيّام الناصرة الرتيبة الساكنة، وخضوع يسوع التامّ لأُمّه وليوسف قد حملهما على الظنّ بأَنّه خاصّتهما، مع كلّ ما أَحاطتهما السماء به علمًا؟

جواب يسوع كان توضيحًا للعلاقة الخاصّة المعقودة بينه وبين أَبيه السماويّ. لم يكن جوابًا طبيعيًّا يردّ به صبيٌّ على تساؤل أُمّه الوجيع، بل كان جوابًا إِلهيًّا، ابتغى به تثقيف مريم، وتذكيرها برسالتها المرتبطة، ارتباطًا وثيقًا، برسالة ابنها. مع علماء الشريعة كان قد اقتصر على مساءلتهم، أَمّا أُمّه فقد علّمها بسلطةٍ. وكان يعلم قدرتها على تلقّي كلام ابنها الواضح، وإِن هو ارتدى لهجةً قاسيةً. لم يلُمها لأَنّها بحثت عنه بقلقٍ، فإِنّما هي، بذلك، قد قامت بواجبها. ولكنّه أَرادها أَلاّ تكتفي بحضوره

المرئيّ بقربها، بل أَرادها أَن تتوغّل في حياةٍ تأمّليّةٍ أَبعد عمقًا، وأَراد لإِيمانها مزيدًا من الصفاء، فلا يقتصر على حضوره المحسوس.

كان يسوع، في الواقع يخاطب ابنة الآب الصغيرة، معلنًا لها العلاقات الجوهريّة القائمة بينه وبين أَبيه الحقّ. فبصفته ابنًا، عليه الانصراف بكلّيّته لشؤون أَبيه الذي جاء لتنفيذ مشيئته، فهذه المشيئة هي غذاؤه وحياته.

تلقّت مريم هذا التعليم الإِلهيّ بخضوعٍ، والتزمت به، ولكنّ قلبها الأَموميّ عجز عن فهمه. إِنّها تلقّفت كلام ابنها، لأَنّه كلام اللّه، ولو لم تستوعب كلّ فحواه. ولكن ما همّ إِن هي فهمته أَم لم تفهمه؟ فالإِيمان يتشبّث بكلام اللّه كاملاً، ما يدركه منه وما لا يدركه، ما يشرح فيه الصدر ويسيل فيه الفرح، وما يجرحه. يتقبّله ويحيا به، وإِن لم يفهم ما فيه يحطّم. إِنّ عدم تصديق إِلاّ ما يدركه العقل هو انحدارٌ بكلام اللّه إلى مستوى فهمنا البشريّ، وإِخضاع الفائق الطبيعة لحدود الطبيعة.

إِثر العودة إلى الناصرة، استعادت حياة الأُسرة، ظاهريًّا، وتيرة الجهد والبساطة، ولكنّها، في الواقع، ازدهرت ازدهارًا قشيبًا. فيسوع لم يعد، في نظر مريم ويوسف، مجرّد فتًى عليهما تنشئته، والسهر عليه، بل هو، أَيضًا، الفتى الذي أَظهر كلّ سلطته بصفته ابن الآب، وقد أَعلن المعنى الحقّ لتلك الجماعة الأُسرويّة الصغيرة، ووجهتها الحقّة، ومبدأها الخاصّ: أَن تكون، بكلّيّتها، مهتمّةً بشؤون الآب، وأَن تحيا، في هذا النور، حياةً تأمّليّةً يحتلّ اللّه مركزها.

إِعلان يسوع أَنّ العناية بشؤون أَبيه هي التي ينبغي أَن تستأثر باهتمامه، وأَنّ لا سلطة لبشرٍ عليه، أَدخل مريم في هوّةٍ جديدةٍ من الفقر الروحيّ. لقد ابتغى يسوع أَن تمارس أُمّه فقر القلب على نحوٍ إِلهيٍّ، وأَن تتوغّل أُمومتها الإِلهيّة، أَكثر فأَكثر، في الفقر النفسيّ. ولكنّه ظلّ خاضعًا لوالديه، لأَنّه أَراد أَن يكونا، ظاهريًّا، مثل جميع الوالدين، الذين، بعد أَن يهبوا أَبناءهم الحياة، يعنون بتنشئتهم، وببثّهم بعضًا من قلبهم وفكرهم. ولكن، في الواقع، كان على مريم أَن تلعب دورًا مختلفًا، وأَن تكون، في تربيتها، أُمًّا مغرقةً في الفقر، فيسوع يمتلك، حتّى الكمال، كلّ الفضائل التي تودّ مريم إِشراكه بها، مثلما يملك كلّ كنوز الحبّ التي تودّ إِيداعها في نفسه.

ومع ذلك كانت مشيئة الآب أَن تلتزم مريم مكانها إلى جانب ابنه الحبيب، وأَن

تمارس سلطتها التربويّة، منتدبةً من قبل الآب، ممارسةً أوفر اكتمالاً من سلطة كلّ الأُمّهات، وهي واثقةٌ، في قلبها، أنّها ليست سوى أداةٍ، وأنّها، بذاتها، لا تستطيع شيئًا، بمعزلٍ عن عون الآب.

وهكذا مارست مريم الفقر الروحيّ الذي سيجعل منه ابنها تطويبته الأولى. لقد هبطت مشيئة الله إلى أغوار قلبها، فالتزمت بها، وإن هي لم تدرك كلّ أسرارها.

قد يكون جواب يسوع جرح قلب أُمٍّ تتوقّع لفتة حنانٍ، أو عبارة اعتذارٍ، ولكنّه أشرع ذلك القلب على مشيئة الآب، فحرّره من جميع هواجسه، ومواطن قلقه، لكيلا ينظر إلاّ إلى مصالح الآب، ولا يهتمّ إلاّ بإرادته الأبويّة.

وما كان يسوع ليُدلي بجوابٍ جافٍ لولا ثقته المطلقة بقدرة أُمّه على تقبّل كلّ ما يريده الآب، حبًّا وطاعةً.

يومها أدركت مريم أنّ عليها اعتياد البعاد عن ابنها، إذ عليه الانصراف إلى شؤون أبيه، وتعلّمت التجرّد من كلّ ما هو بشريٌّ في علاقتها معه، بحيث لا ترى فيه سوى ابن الله. وبذلك تهيّأت مريم للوقوف عند أقدام الصليب، وتأهّلت لأفراح القيامة.

كان ذاك انفصال مريم الأوّل عن ابنها، وامتحان إيمانها الأوّل. ولكنّه كان انفصالاً مؤقّتًا، وكان التلاقي مصدر فرحٍ غامرٍ، إذ إنّه وثّق أواصر الوحدة بينهما. هكذا، في حياة المسيحيّ، كم من أسرارٍ تقطر حزنًا، ولا تعتّم أن تنقلب ينابيع فرحٍ!

غياب يسوع هذا أدخل مريم إلى أعماق معنى الخطيئة، وهي البعد عن الله. ومنذئذٍ باتت تقيس الخطيئة بمدى الحزن الذي غمر نفسها طيلة تلك الأيّام الثلاثة. ففقدان يسوع هو الشرّ الأعظم، والعذراء تعلّمنا كيف ينبغي أن نبحث عنه بلهفةٍ.

كم كان حزن مريم بليغًا، في ذلك المساء الذي لم تقف، فيه، على أثرٍ لابنها الحبيب، الذي لم ينأَ، حتّئذٍ، عن ناظريها. كانت تلك طعنة السيف الأولى التي تنبّأ بها سمعان الشيخ. وكان وقعها قاسيًا وموجعًا بقدر ما كان غياب يسوع مفاجئًا، غير متوقَّع. ثلاثة أيّامٍ من البحث القلق، والسهاد، والهواجس، بدت للعذراء دهرًا، ولكنّها كانت إعدادًا لثلاثة أيّام انفصالٍ مريرةٍ، ستمتدّ من يوم دفن يسوع حتّى يوم قيامته.

منذئذٍ لم يعد يسوع، لمريم، ابنًا كأيّ ابنٍ، بل قبل أيّ شيءٍ، باتت ترى فيه ابنًا لله الذي يقيم معه علاقاتٍ حميمةً، جوهريّةً. ولا ريب أنّ هذا الإدراك عمّق هوّة

فقرها الروحيّ. ولكنّ حضور يسوع غدا أَكثف، ومصدر فرحٍ أَعمق، تحياه بمزيدٍ من الإِجلال، والتجرّد والوعي. غيابه الذي امتدّ ثلاثة أَيّام جعلها أَكثر تثمينًا لحضوره الإِلهيّ الذي غدا غذاء حياتها ومعناها. غيابه أَتاح لها أَن تلمس كم كان حضوره مجّانيًّا، نعمةً صافيةً، فباتت تحيا هذا الحضور بمزيدٍ من الحدّة والحرص، والاهتمام والحبّ. لقد شاء اللّه هذا الغياب المؤقّت لكي تحيا هذه الهبة السماويّة بكلّ وترٍ من كيانها، فكلّ إِنسانٍ يزداد تقديرًا لما يفقده، ولو مؤقّتًا.

وإِن امتحن اللّه مريم بهذا الغياب، فلكي توفّر تضحيتُها هذه، فرصةً كي يسمع علماء الشريعة في الهيكل تفسيرًا جديدًا لما طالما ردّدوه ولم ينفذوا إِلى جوهره، ولكي يشرق على أَذهانهم نورٌ لم يستشفّوه، قطّ.

يقول الإِنجيليّ لوقا إِنّ مريم ويوسف لم يفهما جواب يسوع، وربّما لم يكونا راغبيْن في فهمه. ولكنّ مريم كانت تستقبل في قلبها كلّ ما يقوله ابنها وتمعن فيه تأمّلاً. لا غضاضة علينا، إِذن، إِن فاتنا فهم بعض المقاصد الإِلهيّة، ومع ذلك، علينا أَن نؤمن بها، وأَن نحفظها ونتأمّلها في أَذهاننا وقلوبنا. فالإِيمان مزيجٌ من ظلمةٍ ونورٍ. إِنّه يقينٌ والتزامٌ، وليس دائمًا بداهةً ووضوحًا.

لقد شرعت مريم تتبيّن درب الآلام المرسوم لها، الذي كانت نبوءة سمعان بدايته، واختفاء يسوع في الهيكل محطّةً من محطّاته.

وأَدركت أَنّ ابنها شرع ينأى عنها، وأَنّ حلمها بحياةٍ عيليّةٍ حميمةٍ ودافئةٍ آخذٌ بالتبدّد. فليسوع رسالةٌ إِلهيّةٌ عليه الانصراف لها، وهو ليس ابنها فحسب، بل، أَيضًا، ابن العليّ، وعليه أَن يقيم له، على الأَرض، ملكوتًا، وعليها، هي، أَن تضحّي، شيئًا فشيئًا، بحضور ابنها إِلى جانبها كي ينصرف إِلى رسالته. ومرّةً أُخرى قالت مريم: «**ها أَنا أَمَة الربّ، فليكن لي بحسب قولك**». ومضت على درب الصليب، متسلّحةً بالإِيمان.

في قول يسوع: «**أَما تعلمان أَنّه عند أَبي يجب عليّ أَن أَكون؟**» تأكيدٌ بأَنّ ما فعله كان واجبًا، وليس نزوةً. ولكن، «عند أَبيه» لا يعني في الهيكل، بل إِنّه عند أَبيه عندما يكون حيث يريد أَبوه أَن يكون. وكانت مشيئة أَبيه أَن يكمل تأهّبه لرسالته في حياةٍ خفيّةٍ في الناصرة، فعاد إِليها مع الكائنين الغاليين اللّذين أَضناهما غيابه.

حياةٌ خفيّةٌ في الناصرة

غياب يسوع في الهيكل خلّف أثرًا بليغًا على حياة الأُسرة، وأنشأ علاقةً جديدةً بين يسوع ووالديه. هو ما انفكّ خاضعًا لهما، ولكنّهما، هما، باتا يريان فيه بوضوحٍ يتعاظم يومًا فيومًا، ابن الله، ويسعدان بأن يكونا له التلميذيْن الأوّلين. وقد استأهلت تلك العيلة التي غمرتها أنوار يسوع أن تدعى «العيلة المقدّسة».

في تلك المرحلة انصرف يسوع للعمل اليدويّ مع يوسف. لم يبحث عن مهنةٍ غير مهنة أبيه أو عن عملٍ آخر يوفّر له مزيدًا من نفوذٍ أو دخلٍ، ولم يمعن في طلب العلم التماسًا لمركزٍ أرفع شأنًا.

بعض أسفار العهد القديم عبّرت عن ازدرائها للعمل اليدويّ، كما فعل ابن سيراخ (٣٨: ٢٤-٣٤). غير أنّ يسوع لم يزدرِ هذا العمل، ولم يستحيِ به، بل أعاد له كرامته.

ولا يغربنّ عن بالنا أنّ ذاك الذي كان يعمل في وضاعة محترف الناصرة، هو الكلمة الكائن منذ البدء مع الله، «**كلٌّ به كوّن، وبمعزلٍ عنه لم يكوَّن شيءٌ ممّا كان**».

ذاك الذي أبدع الأكوان بكلمةٍ منه، صمت في الناصرة، وأوكل إلى يديه متابعة العمل الإلهيّ. بفضله تجلّت قيمة العمل السامية. وإكرامًا ليديه الكادحتين، غدت كلّ يدٍ مخشوشنةٍ تحمل طابع نبلٍ ليس من الأرض.

وبإعلانه العلاقة الحميمة بالآب، كان قد رسّخ في وجدان مريم ويوسف الحبّ الذي يوحّدهما على غرار الوحدة التي يرسّخها الحبّ المتبادل بينه وبين الآب.

«هؤلاء الفقراء الثلاثة المتحابّون» كما وصفهم پول كلوديل، كانوا الكنيسة الوليدة. والصمت الذي ساد تلك الأُسرة وضعها في شيءٍ من العزلة الكفيلة بتدعيم حميميّة وحدتها.

واندرجت حياة الأُسرة في الحبّ، والخفاء، في الحبّ الذي يؤثر التعبير عن ذاته بمبادراتٍ صغيرةٍ، عاديّةٍ، تبدو عديمة الشأن. وهل من حبٍّ أَعظم من إكباب أُمٍّ على تنشئة أَبنائها، وإعداد الطعام لأُسرتها، وإضفاء النظام والجمال على منزلها، وتوفير أَسباب الراحة لأَحبّائها، غير ملتمسةٍ فخرًا ولا ظهورًا؟ الحبّ المسيحيّ يؤثر الخفاء كي يكون طاهرًا وسائدًا. أَمّا الحبّ الذي يودّ الظهور من خلال أَعمالٍ بشريّةٍ بطوليّةٍ، مجلجلةٍ، فغالبًا ما تشوبه الأَنانيّة، وغالبًا ما يتنازل لمقتضيات المجد والشهرة، في حين أَنّ الحبّ الصادق، الطاهر، المتجرّد يوحي بمبادراتٍ وضيعةٍ خفيّةٍ لا طمع لديها سوى الشهادة للحبّ، ولا يستمدّ معناه وقيمته إلاّ من الحبّ الإلهيّ. وهو، حينذاك، ينطوي على حبٍّ لله جمٍّ. فقيمة الأعمال الحقّة تكمن في توافقها مع مشيئة الله، وعلى مقدار الحبّ الذي يحدوها ويملأها.

لقد كان وجود يسوع في بيت الناصرة منبع فرحٍ لأَبويه، وكان يُسبغ على كلّ جهدٍ عذوبةً، وعلى كلّ فقرٍ غنًى ورضًى. وبقدر ما كان يسوع ينمو، كانت مريم تتوغّل في امّحائها وتجرّدها، لكي تفسح له مجالاً أَوسع، ولاسيّما عقب وفاة يوسف، إذ غدا يسوع سندها الوحيد، والسلطة الوحيدة، وغدا بيت الناصرة بيت الآب، بيت الصلاة والصمت والحياة التأمّليّة التي يحتلّ الآب مركزها. في هذه البيئة الفقيرة الموقوفة على خدمة الآب، أَمست كلّ أَفعال يسوع ومبادراته، وأَقواله، وصمته، ملك مريم، بل أَمست الغذاء الذي يقدّمه لها الآب. وبقدر ما كانت ترتضي أَلاّ تكون شيئًا، معترفةً بحقوق الآب العليا على يسوع وعليها، كان حضور يسوع يكتسب كثافةً ملموسةً.

وهكذا انقضت ثماني عشرة سنةً من الدأب، والفقر، والتواضع، والخفية. يسوع يرى في والديه، سلطة الآب السماويّ ومشيئته، فيخضع لهما بكلّ بساطةٍ. كان يعاون يوسف في عمله، ويساعد أُمّه في مهامّها، يؤدّي لها الخدمات التي تكلّفه بها، ويستبق أَدنى رغباتها.

ظاهريًّا لم تكن العيلة المقدّسة تتميّز عن سائر الأُسر المتواضعة. ولكن أَيّة سماءٍ كانت تغمر ذلك المنزل، في المساء، عقب يوم العمل الشاقّ، والعشاء القشِف! ويا لحوارات ذلك الثالوث الأَرضيّ، ويا للأَحاديث عن الآب السماويّ، وحبّه اللامحدود، ورحمته حيال البشر! وكم كانت الأَقوال التي يتفوّه بها يسوع تدهش

مريم ويوسف! كان يلج إِلى أُلوهة رسالته، ولكنّه لا يزيح عنها كلّ ما يكتنفها من ظلالٍ، لكي يظلّ إِيمانهما ناشطًا وفاعلاً. أمّا عن دورهما في رسالته، فيكشف عنه النقاب، شيئًا فشيئًا، في حينه. كان ينبئهما بما يكفي كي يتوغّلا في أَعماق حكمة اللّه، ورأفته، ورحمته، وعطفه حيالهما، وحيال البشر أَجمعين. معه كانا يباركان الربّ، ويسبّحانه، ويعبّران له عن حبّهما، ويصلّيان كي يتقدّس اسمه، وينتشر ويترسّخ ملكوته، وتتحقّق مشيئته على الأَرض كما هي محقّقةٌ في السماء.

هكذا كرّت سنواتٌ يغمرها السلام، والفرح، والحبّ. ولكن، بين فينةٍ وفينةٍ، كانت تخطر رؤى مستقبلٍ مثقلٍ بالوعود والنذُر، والهواجس.

وعندما كانت مريم تتلو المزامير التي تتحدّث عن المسيح، كانت الظلمات تنقشع عمّا يبدو لها عسير الفهم. وما كانت تستشفّه من خلال غيوم الشفق، بات يتجلّى لها في وضح النهار. وكم من الأَقوال والأَحداث التي لم تكن تميّز فيها أَيّة إِشارةٍ إِلى المسيح، غدت لها صورًا عن ابنها!

وأَيّة مشاعر كانت تزدحم في نفسها، وترقى بها، وتثلج صدرها، وبأَيّ اندفاعٍ، وتأثّرٍ وخشوعٍ كانت تتلو مثل هذا المزمور(٧١):

اللهمّ هب الملكَ حكمك، وابن الملك عدلَك،

فيقضي بالبرّ لشعبك، وبالإِنصاف لوضعائكَ!

لتحمل الجبال للشعب سلامًا، والتلال برًّا،

وُضعاء الشعب ينصفهم، وبنو المساكين يخلّصهم، والظالمون يسحقهم!

يبقى ما بقيت الشمس، وما بقي القمر، من جيلٍ إِلى جيلٍ.

يهمي كالمطر على العشب، وكالرذاذ الذي يروي الأَرض.

البرّ في أَيّامه يزهر، والسلام يعمّ إِلى أَن يزول القمر.

يملك من البحر إِلى البحر، ومن النهر إِلى أَقاصي الأَرض.

جميع الملوك له يسجدون، وكلّ الأُمم يخدمونه.

لأَنّه ينقذ المسكين المستغيث، والبائس الذي بلا نصير

يعطف على الكسير والمسكين، ويخلّص نفوس المساكين.

من الظلم والعنف يفتدي نفوسهم، ودمهم، في عينيه، ثمينٌ...
في كلّ حينٍ يدعون له، وطوال النهار يباركونه.
اسمه للأبد يكون، وتحت الشمس يدوم.
تتبارك به قبائل الأرض كلّها، وتهنّئه الأُمم جميعها».

كم كان إيمان مريم وطيدًا كي تؤمن بتحقيق كلّ هذه الأقوال، وهي تشهد ابنها يعمل، ويكبر، ويطيع مثل أيّ ولدٍ من عامّة الناس! وكم كان قلبها يَجِفُ، ويرتجف، كلّما جالت بذاكرتها، أو تلت النبوءات المتعلّقة بآلامه الجسديّة والنفسيّة! غير أنّ النبوءات عن النهاية المجيدة كانت تسكّن روعها.

ربّما تنازعت نفسها التساؤلات كلّما أمعنت ألوهته في التواري وراء بشريّةٍ حاكى بها سواد الناس. الملاك كان قد بشّرها بأنّه سيتبوّأ عرش جدّه داود، فإذا به نجّار قريةٍ مغرقٌ في البساطة، لا تساوره أيّة تطلّعاتٍ إلى السلطة. في مصطرعات الحيرة تلك، كانت مريم تتشبّث بأقوال الربّ التي حفظتها بعنايةٍ في قلبها، وأمعنت فيها تأمّلاً، فغدت لها مصابيح تضيء، دائمًا، نفسها. قد ترتجف شعلاتها، ولكنّها لا تنطفئ أبدًا، وهي، في كلّ حينٍ، تدرأ عنها الشكوك، ويدعمها التزامها بمشيئة الله الذي لا يتزعزع. وحتّى عندما تستغلق عليها أُمورٌ كثيرةٌ لا تستسلم أبدًا للاضطراب، ونفاد الصبر، والخوف، والإحباط، بل هي أبدًا، مفعمةٌ سلامًا، وصبرًا، ورقّةً.

إنّ التجربة القصوى التي يواجهها إيماننا هي الإصرار على التماس إثباتٍ، وطلب القبض على الواقع باليد، وجسّه مثلما تُجَسّ صخرةٌ صمّاء، ونشدان التخلّص من المياه المتحرّكة، وبلوغ الأرض الصلبة، والسعي إلى الانعتاق من حلك الليل، والتحديق إلى الشمس بلا عائقٍ.

هذا ما لم تفعله مريم، فهي، مع حيرتها لم تضطرب، وتوسّمت، في الصمت، والامّحاء، والرتابة، مشيئة الله. اصطدمت باللامعقول، وقالت: «**فليكن**»، فتلاشى اللامعقول. واصطدمت بالصمت فقالت: «**فليكن**»، وتحوّل الصمت إلى حضور. وعوضًا عن مطالبة الله بضمانةٍ لمصداقيّة وعده، ازدادت تشبّثًا بمشيئته، فغمرها السلام، وتحوّل الشكّ إلى عذوبةٍ.

وكان يسوع ينمو، ويكتمل. تتعاقب سنوات عمره، ولا تظهر أيّة علامةٍ تميّزه عن

سواه، ما خلا اتّزانه، وطهره، وجدّه، وسجوّ نفسه، وخصاله النادرة. ومع ذلك أبقت مريم أبواب الشكّ في أمر ألوهته موصدةً بإحكامٍ.

ناهز يسوع الثلاثين، وشرع صوت قريبه، يوحنّا بن زكريّا، يهزّ جماعة اليهود، ويستقدم الحشود إلى الصحراء التي استوطنها. ومع ذلك ما انفكّ ابن مريم، يجوب أزقّة الناصرة، ويزور بيوت القرويّين، يصلح نافذةً هنا، وبابًا هناك، ويصعد إلى السطح كي يثبت عمودًا؛ يصنع المقاعد، والمناضد، والمحاريث، ولا يبدو عليه أنّه يتأهّب لرسالةٍ ما. ولكأنّ وعود البشارة لم تكن سوى أحلامٍ جميلةٍ خطرت في ليلة صمتٍ. ولا أَحد يغبط أُمّه، أو يميّزها عن سائر القرويّات اللّواتي يشخنَ باكرًا. أمّا هي، فمتّكئةٌ، بثباتٍ، على إيمانها المنيع الراسخ، اجتازت عباب تلك السنوات الثلاثين، وصمتها الكفيل بتحطيم أعتى النفوس.

وهي، في ذلك، خير مثالٍ لمقاومة فعل الزمن الوبيل في إخماد نيران الاندفاع، وتوثّباته الأولى، لدى المكرّسين للّه.

وفي هذه الأَثناء، تُوفّي يوسف، بعد أَن أَمسى يسوع قادرًا على كسب عيشه وعيش أُمّه. كانت حياته امّحاءً، وإيمانًا، وخضوعًا. وهكذا ودّع العالم في صمتٍ وامّحاءٍ واستسلامٍ. لحظاته الأَخيرة كانت ساجيةً، لحظات إنسانٍ بارٍّ أَحبّ وأُحِبّ. تبادل مع مريم نظراتٍ حفلت بذكريات سنواتٍ طويلةٍ قضياها جنبًا إلى جنب، والمراحل التي تكشّفت لهما فيها أَسرار العلاقة التي جمعتهما. وفي نظراتهما عبرت، أَيضًا، كثافة حنانٍ لم تفقده الأَيّام شيئًا من شبابه وحيويّته.

أَطبق يوسف جفنيه على صورة الكائنين اللّذين كانا محور حياته، وحبّه الوحيد، كلّ حبّه. نأى عنهما كي يتيح لهما الانطلاق معًا نحو قمم آلامٍ ومجدٍ. ويا له من موتٍ عذبٍ بين يدي يسوع ومريم!

إنّ يوسف من أَكثر الشخصيّات فرادةً وقداسةً، في تاريخ المسيحيّة، ولكنّه لم يحظَ بما يستحقّه من اهتمامٍ. ولا بدّ من التذكير بأنّه:

اندمج اندماجًا كلّيًّا في نذر بتوليّة مريم، وفي سرّ حبلها وولادتها، وهي عذراء. توافَقَ مع مشيئة الآب، ومشيئة مريم.

شارك مريم نذر البتوليّة، وتفرّغا كلاهما للعناية بابن اللّه. ولكنّهما تحابّا كما لم

يحبّ، قطّ، خطيبان أو زوجان أحدهما الآخر، فقد كان الله رابط حبّهما الذي خلا من كلّ شائبة.

مثل كلّ رجلٍ كان يحلم بأن يكون زوجًا وأبًا، ولكنّه ضحّى بحلم الزواج والأُبوّة «من أجل الإنجيل»، ومع ذلك أصبح «زوجًا» على نحوٍ فريدٍ، و«أبًا» على نحوٍ معجزٍ. حلمه تحقّق، إلهيًّا، على نحوٍ مختلفٍ، ولكنّه رائعٌ.

«نَعَمُه» أتاح لمريم أن تظلّ عذراء، مع كونها زوجةً وأُمًّا. مريم تلقّت ابنها من الله، وهو تلقّاه هديّةً من مريم ومن الله... وأحبّه أكثر ممّا لو كان من صلبه.

كان طليعة من يتبنّون أولادًا حُرموا الوالدين، أو «يتامى والدين على قيد الحياة» على حدّ قول البابا يوحنّا بولس الثاني، وطليعة من يتبنّون، روحيًّا، أبناءً يلدونهم لله، ويقودونهم إليه.

كان يوسف ليسوع إيقونة أبيه السماويّ.

كان مثالاً للأُبوّة الحقّة التي تسهم في تحقيق الابن لذاته ولدعوته. فوفّر له وجودًا اجتماعيًّا، وأتاح له التعبير عن جوهره الإلهيّ.

بقبوله تبنّي يسوع، واحترامه بتوليّة العذراء، اكتملت شروط التجسّد الإلهيّ.

وقد كتب «دون أوبرتان دي كازال» DON UBERTIN DE CASALE (١٢٥٩-١٣٢٩):

«لم يكن بوسع يوسف إلاّ أن يشبه زوجته العذراء. وهل كان بوسع الروح القدس أن يوحّد، وحدةً وثيقةً، نفس عذراء مثل مريم، ونفسًا أُخرى، ما لم تكن هذه تحاكيها محاكاةً كبرى في ممارسة الفضائل؟ لقد كان القدّيس يوسف، إذن، الرجل الأطهر بتوليّةً، والأعمق تواضعًا، والأحرّ حبًّا، والأسمى تأمّلاً.

ولأنّ مريم كانت تعرف أنّ الروح القدس أعطاها يوسف زوجًا، كي يكون حارس بتوليّتها الأمين، وشريك محبّتها وسهرها حيال ابنها الإلهيّ، ابن الله، أجل، أظنّ أنّ مريم كانت تحبّ يوسف محبّةً صادقةً.

وإن كانت أُمّ الله، في محبّتها الجمّة تصلّي من أجل الخطأة، جلاّدي ابنها، فكيف بالأحرى لم تلتمس نِعَمَ السماء لزوجها الموغل في الإخلاص والحبّ؟

وبما أنّ ما تملكه الزوجة يخصّ الزوج، فقد قاسمت العذراء يوسف، من كنوز قلبها، كلّ ما كان بوسعه تلقّيه.

وإِنّي لأَجسر على القول إِنّ مريم أَحبّت يوسف أَكثر ممّا أَحبّت أَيّ مخلوقٍ. حبّها له كان يلي مباشرةً حبّها ليسوع ثمرة أَحشائها».

لقد خلّف غياب يوسف فراغًا موجعًا في قلب مريم. فلطالما كان لها السند المنيع في المِحَن، والقرين المتفهّم المضحّي، الذي احترم نذرها، وأَنقذها من الأَلسنة النمّامة. وكم كانت مدينةً لتفانيه اللامحدود، وكم أُعجبت بكبر قلبه، وبتواضعه!

غير أَنّ العلاقة بين مريم وابنها، في أَعقاب غياب يوسف قد اكتسبت حرارةً وحميميّةً. فقد غدا يسوع بكلّيّته لها، ولكأنّه تجسّد من أَجلها وحدها. وهي باتت تحيا وحيدةً مع وحيدها. فكانت تلك لها فترة تأهّبٍ صامتٍ خاشعٍ، فَرِحٍ وهادئٍ، كي يتيح لأَسرار الأَلم أَن تتحقّق.

وكم ابتهج قلب يسوع بالعثور على نفسٍ سنيّةٍ تفهمه، وتبادله حبّه بحبٍّ مماثلٍ! ولكن لم يكن في مخطّط الله أَن تدوم تلك الغبطة.

انطلاقة يسوع

أَخذت تذيع في فلسطين أنباء نبيٍّ شابٍّ ظهر على ضفاف الأُردنّ قادمًا من الصحراء التي اعتكف فيها سنواتٍ طويلةً، ممارسًا النسك، والتوبة، والتأمّل، والصلاة. وكان لمواعظه الحارقة من التأثير ما دفع نحوه حشودًا كثيفةً من مختلف المدن والدساكر، كي تعلن توبتها، وتنال على يده العماد.

وطارت أَخباره إلى الناصرة، حيث كانت مريم تعرفه، وكان يسوع قد عمّده بروحه، وهما، بعدُ، جنينان. وكان أبوه زكريّا قد تنبّأ بأَنّه سيمهّد للمخلّص الطريق. وقد أَكّد هو نفسه، ردًّا على من ظنّوا أَنّه المسيح، بقوله: «**أنا أُعمّدكم بالماء، ويأتي الآن من هو أقوى منّي، ولست، أنا، أهلاً لأن أحلّ سيور نعليه، فهو يعمّدكم بالروح القدس والنار**».

ذلك النبيّ الذي كان اليهود يجهلون هويّته ومنشأه، كانت العذراء قد شهدت ولادته. وقد استخلصت من ظهوره إلى العلن، أَنّ ساعة انفصالها عن ابنها قد أَزفت، فشرعت تتأهّب للفراق الشاقّ. لقد التزمت الصمت، غير أَنّ ابنها لاحظ بأَنّ اهتمامها به كان يزداد رقّةً ولهفةً.

يسوع، أَيضًا، ظلّ صامتًا، متابعًا اهتماماته المعتادة، ولكنّه بدا أَكثر نزوعًا إلى الشرود، والتأمّل، والاعتزال للصلاة. واكتسى تعبيره عن حبّه لأُمّه مزيدًا من الحرارة، إلى أن صارحها، ذات يومٍ، أَنّ ساعته قد دقّت، وأَنّ عليه البعاد عنها كي ينصرف بكلّيّته للرسالة التي أوكلها إليه الآب.

كانت، تلك، هي الساعة التي طالما انتظرتها ورهبتها مريم، ساعة الفراق الحافلة بالحزن والفرح معًا. بعد اليوم، ستفقد حضور ابنها المنعش الذي يشيع الطمأنينة والعزاء. وفي بعاده سيؤرّقها ما سيتعرّض له من مقاومةٍ، وعداءٍ، واضطهادٍ، فضلاً عن نبوءات الآلام المريعة، التي اختزلها سمعان الشيخ بوصفها سيفًا يخترق قلب مريم...

ولكن بفضل كلّ ذلك، سيخلّص يسوع البشر، وسيساعدهم على معرفة الآب وعلى حبّه، وسينقذ مجد الله. إرادة الله كانت جليّةً، ومرَّةً أُخرى، قالت العذراء: «**ها إِنّي أَمَة الربّ، فليكن لي بحسب مشيئته**».

ومع ذلك، أيّ تمزّقٍ أدمى فؤادها، يوم قبّلته مودّعةً، ولاحقته بأَنظارها وهو يبتعد، ويتوارى طيفه، شيئًا فشيئًا. يومها ودّعت كلّ جميلٍ في حياتها.

ومنذئذٍ، كم بدا بيتها في الناصرة قفرًا! وكم غدت مائدتها فاقدة الطعم! وكم أَمست تتهيّب أَماسي الوحدة، وأَيّام الراحة التي خلت من حضور ابنها الثمين، ومن نظراته المفعمة حبًّا، ومن بسماته المشعّة عزاءً، ومن أَحاديثه التي تقطر عذوبةً سماويّةً!

عرس قانا

انقضت ستّة أَسابيع مذ غادر يسوع الناصرة، وفي هذه الفترة انضمّ إِليه نفرٌ من الأَتباع الذين سيكوّنون طليعة تلاميذه. وأُقيم عرسٌ في قرية قانا القريبة من الناصرة، لدى أُسرةٍ يبدو أَنّ علاقات قرابةٍ تربطها بمريم. فدعاها أَهل العريس، للاستعانة بها، وللإِفادة من خبراتها الإِداريّة الكفيلة بجعل القليل يبدو سخيًّا، فائضًا.

مزاج مريم التي غاب عنها وحيدها لم يكن المزاج الملائم للاشتراك في عرسٍ، ولكنّها وافت بغية الخدمة.

ودُعي، أَيضًا، إِلى العرس يسوع وتلاميذه، وكان أَحد هؤلاء، نثنائيل، من قانا عينها. وفي منتصف أُسبوع الاحتفالات هتف أَحدهم: «هو ذا يسوع قادمٌ ومعه خمسة رجالٍ». وهرعت مريم لاستقباله، فإِذ به لم يبقَ من نجّار الأَمس سوى يديه المخشوشنتين، وثيابه البسيطة. ولكن أَيّ تغييرٍ في نظره وهيبته! لقد شعرت مريم أَنّ شيئًا من الأُلوهة التي حبسها ابنها مدى ثلاثين عامًا عن الأَنظار قد شرع يتجلّى.

كان الصوم قد خلّف على محيّاه شحوبًا، وغدا نظره ينمّ عن عزيمةٍ منيعةٍ. وقد اعترى يسوع التأثّر، عندما رأى أُمّه مقبلةً نحوه. غير أَنّه، في أَعقاب خلوته الصحراويّة، لم يعد يرى فيها مجرّد أُمٍّ أَنجبته، بل بات يرى فيها المرأة التي شاء الآب أن تشاركه مشروع الفداء.

ويبدو أَنّ إِقبال الضيوف على العرس، وإِسرافهم في الشراب، فاقا كلّ توقّعٍ، فما لبث مخزون الخمرة أن أَشرف على النفاد، في حين كان متوقّعًا استمرار تدفّق الضيوف على مدى ثلاثة أَو أَربعة أَيّامٍ أُخرى. وكانت مريم أَوّل من لاحظ ذلك، وقدّرت أَيّة ورطةٍ سيقع فيها مضيفوها، والتي سيظلّ يذكرها أَهل القرية عشرات السنين. وشقّ عليها أَن تحلّ بأَصدقائها هذه الفضيحة. ولكن من حسن الطالع أَنّ يسوع كان هناك. صحيحٌ أَنّ مريم لم تشهد لابنها أَيّة معجزةٍ من قبل، ولكنّها كانت

واثقةً من قدراته الإِلهيّة. فانحنت عليه، وهمست في أُذنه: «**لم يبقَ عندهم خمرٌ**». فقال لها: «**ما لي ولكِ، أيّتها المرأة؟ إِنّ ساعتي لم تأتِ بعدُ**».

قيل الكثير في تفسير قول يسوع: «**ما لي ولكِ**»، وكلّ ما قيل وقد يُقال، في هذا الشأن، لا يتعدّى كونه لعثمةً لن تفلح أبدًا في النفاذ إلى أعماق فكر الربّ. وقد تخطّت مريم معنى الكلمات الظاهر، إذ إِنّها، من نبرة صوت يسوع، ومن إِشعاع عينيه، أدركت أنّه يعني: «مع أنّ رسالتي هي أبعد من توفير الخمرة لندامى عرسٍ، ومع أنّ هذه الرسالة لا تحكمها علاقات القربى الجسديّة، بل هي خاضعةٌ، حصرًا، لمشيئة الآب، لن أَردّ طلبك. علامَ، إذن، تقلقين؟ أَنسيت من أَنا؟» إِنّ سلوك مريم، بعد جواب ابنها، وقولها الواثق للخدم: «**افعلوا ما يقول لكم**» (مهما بدا غريبًا)، يدلاّن على فهمها قوله، على هذا النحو، كما يدلاّن على ثقتها المطلقة بقدرات ابنها، ويشيران إلى ما كان أَهل العريس يولونها من ثقةٍ وسلطةٍ.

وإِذا فهمنا قول يسوع بهذا المعنى، بات بالإِمكان تعديل ترجمة قول يسوع: «**إِنّ ساعتي لم تأتِ بعدُ**» في صيغة النفي، إلى صيغة السؤال: «أَلم تأتِ، بعدُ، ساعتي» كي أُظهر قدراتي، وأُعلن عن هويّتي؟ ولكأنّ يسوع يعاتب أُمّه لأَنّها نسيت أَنّ ساعة ظهوره قد حانت.

وفي الواقع لا يمكن تفسير قول يسوع: «**ما لي ولكِ؟**» بأَنّ لا دخل لنا بهذا الأَمر. فمريم إِنّما التمست خدمةً لأَصدقاء في ورطةٍ. ولطالما شاهدنا يسوع يسارع إلى إِسداء مثل هذه الخدمات، وهو حريصٌ على أن يجعل من أُمّه موزّعة نِعَمه على البشر. فلا يسعه أَن يردّها بقسوةٍ وجفاءٍ، وهو الذي لم يقسُ، يومًا، على أَحدٍ. ولاسيّما أَنّ المناسبة كانت مؤاتيةً للتعريف بقدراته، وتسهيل رسالته.

إِنّ موقف مريم التي ما إِن بلّغته رغبتها حتّى أَمرت الخدَم بتنفيذ تعليماته، يدلّ على أَنّه لم يرفض طلبها، فضلاً عن أَنّ كمّيّة الخمرة الفاخرة التي حوّلها من ماءٍ تومئ إِلى استجابته التامّة والسخيّة لرغبة أُمّه.

أَما قوله «**أَيّتها المرأة**»، عوضًا عن قوله: «يا أُمّي»، فقد بدا للبعض نابيًا، ورأوا فيه تحقيرًا لأُمّه. والواقع أَنّ تلك العبارة هي أَكثر تكريمًا لها، وهي بمثابة قول «يا سيّدة». ولطالما أَلمح يسوع إِلى أَنّ تقديره لمريم لم يكن مبنيًّا على أَواصر القربى،

بقدر ما كان مبنيًّا على مناعة إيمانها والتزامها بمشيئة اللّه. ولو كانت تلك العبارة تنطوي على أدنى إشارة تحقيرٍ، لما استخدمها يسوع، ثانيةً، في مناسبةٍ جليلةٍ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة على الصليب، عندما أوكل أُمّه إلى تلميذه يوحنّا، وأوكل تلميذه الحبيب إلى أُمّه.

قول يسوع لأُمّه: «أيّتها المرأة» يعني أنّه لا يعمل بدافع الدالّة الأُسرويّة، بل إنّه وأُمّه ملتزمان بمشيئة الآب وحده. هذا الخضوع المشترك لمشيئة الآب أَولى مريم ثقةً بأنّ يسوع لن يتوانى عن تلبية رغبتها.

إنّ نظرة يسوع إلى أُمّه لا تتوقّف عند امتياز أُمومتها الفريدة له، بل تتجاوزها إلى شخصيّتها، بصفتها نموذجًا أصيلاً لمصير المرأة ولرسالتها. وبذلك، هو يدعو كلّ امرأةٍ إلى اقتفاء أثرها، وإلى المساهمة في مهمّة خلاص العالم.

لقد دعاها يسوع: «**أيّتها المرأة**»، لأنّه رأى فيها خير ما في الأُنوثة من عطفٍ أُموميٍّ، ومن سهرٍ على فرح من يحيطون بها. وهو ما برح يستجيب بسخاءٍ للنسوة المكرّسات اللائي يعكفنَ على خدمة المحتاجين بعطف الأُمّهات.

هذه المعجزة تحمل دمغة إيمان مريم، وعطفها، وجرأتها في الذود عن حياض المحتاجين، وطاقاتها الخلاّقة.

قالت مريم للخدم: «**افعلوا ما يقول لكم**» وهي تتوقّع أمرًا غير مألوفٍ، ونتيجةً غير مألوفةٍ، وتؤمن بأنّ ابنها سيحقّق أمرًا معجزًا. وبالفعل يتابع الإنجيليّ روايته فيقول(يوحنّا ٢: ٦-١١) «**وكان هناك ستّ أجاجين من حجرٍ وُضعت لتطهّر اليهود، تسع كلّ واحدةٍ منها مترتين**»*[1] **أو ثلاثًا. فقال لهم يسوع: «املأوا الأجاجين ماءً». فملأوها إلى فوق. فقال لهم: «استقوا الآن وقدّموا لرئيس الوليمة». فقدّموا. فلمّا ذاق رئيس الوليمة الماء المحوّل خمرًا - ولم يكن يعلم من أين أتتْ، أمّا الخدّام الذين استقوا الماء فكانوا يعلمون - دعا العريس وقال له: «كلّ امرئٍ يأتي بالخمر الجيّدة أوّلاً، فإذا أخذ منهم الشراب جاء بالدون. أمّا أنت فقد أبقيت الخمر الجيّدة إلى الآن!»**

تلك كانت أُولى آيات يسوع، صنعها في قانا الجليل وأظهر مجده فآمن به تلاميذه».

أوعزت مريم إلى الخدم بأن يعملوا بما يأمرهم به يسوع، وتوارت كي يكون

(١) *المترة: نحو أربعين ليترًا.

الخدم، أيضًا، شهودًا على ألوهة يسوع الذي كانوا ما برحوا يجهلونه، ولكي يبشّروا، هم أيضًا، به. وكم من البسطاء يشهدون للربّ خيرًا ممّن كرّسوا ذواتهم للشهادة! ولهذا السبب طلب منهم الربّ أن يملأوا الأجاجين ماءً مستثيرًا دهشتهم، وربّما سخريّتهم. كان بوسعه ملء الأجاجين خمرةً بأمرٍ منه، ولكان الأمر أشدّ عجبًا. ولكنّه حريصٌ دائمًا على إشراك البشر بمعجزاته. قد تكون مهمّة البشر ضئيلةً. ولكنّ الربّ يراها ضروريّةً. الخَدَم لم يأتوا إلاّ بالماء، وكانت هذه مشيئة الله كي يجري المعجزة.

يمكننا تخيّل خشية الخدم من ثورة غضب المشرف على العرس، وهم يقدّمون للضيوف الماء الذي ملأوا به الأجاجين. ولكن كم كانت دهشتهم بالغة وهم يقرأون على وجوه الضيوف نشوة لذّة خمرةٍ لم يتذوّقوا ما يدانيها طيبةً، قطّ!

لقد فاقت استجابة يسوع حتّى أجرأ توقّعات مريم. قولها للخدم: «**افعلوا ما يقول لكم**» حمل يسوع على تسبيق ساعته الحاسمة.

التلاميذ آمنوا بيسوع بعد أن شاهدوا هذه المعجزة. ولكنّ مريم كانت راسخة الإيمان بقدرات يسوع، وبحبّه، حتّى قبل أن تشهد له أيّة معجزةٍ، فاستحقّت منذئذٍ التطويبة التي سيعلنها يسوع لاحقًا: «**طوبى لمن لم يروا وآمنوا**». (يوحنّا **٢٠: ٢٩**)

أمّا أقرباء يسوع الذين عايشوه ثلاثة عقودٍ، وكأنّه واحدٌ منهم، فقد أوضحت لهم هذه المعجزة أنّه يتميّز عنهم بقدراتٍ إلهيّةٍ فريدةٍ، وأنّ المهمّة التي انصرف إلى تحقيقها فائقة السموّ، ولا علاقة لها بما فعله حتّئذٍ، ولاسيّما بعد أن سمعوا من تلاميذه الجدُد أنباء معجزاته، وشهادة المعمدان بأنّه المسيح المنتظر، وتأكيد الآب أنّه ابنه الحبيب.

وما أكثر العِبَر التي يمكن استخلاصها من هذا الحَدَث!

فمريم ضربت أروع مثلٍ للصلاة البسيطة الواثقة.. إذ باقتصارها على القول: «**نفدت خمرتهم**»، بسطت حاجة القوم ببساطةٍ ورهافةٍ. ولم تفرض على يسوع ما يتوجّب عليه فعله، كما غالبًا نحاول أن نفرض، في صلواتنا. صلاتها خاطبت حبّه وعطفه، وهي موقنةٌ بأنّه، وإن لم يستجب في الحال، غير أنّه لن يدع سائليه محتاجين، فاقدي العزاء والرجاء.

وبتشفّعها بآخرين، في خشيةٍ من وقوعهم في ورطةٍ، وفي لهفةٍ لإنقاذهم منها، وفي استجابة يسوع السخيّة لشفاعتها، تأكيدٌ بأنّ الربّ لا يهمل صلاةً نرفعها من

أَجل آخرين، ولاسيّما إِن كانوا في أَزمةٍ.

إِنّ معجزة قانا إِشارةٌ إلى أَنّ البشر يأتون إلى يسوع من خلال مريم، ومن خلالها، أَيضًا، يأتي هو إلى البشر.

في أَفراحنا، وفي أَحزاننا مريم حاضرةٌ وتنال لنا ما نحن في حاجةٍ إليه.

وقول مريم: «**افعلوا ما يقول لكم**» دليل إِيمانٍ جريءٍ، وطيد الأَركان. إِنّه آخر قولٍ جاء على لسان السيّدة العذراء في الإِنجيل. وهو القول الذي ما برحت أُمّنا السماويّة توجّهه إلى كلٍّ منّا، مؤكّدةً أَنّ ما علينا سوى العمل بما يمليه علينا ويوصينا به يسوع، كي نظفر بما نحتاج إليه، وكي نأمن من المهالك التي تحيق بنا.

ومن نتائج معجزة يسوع الأولى تلك أَن «**أَظهر مجده، فآمن به تلاميذه**». قبل عرس قانا كان تلاميذه قد «تبعوه»، ولكنّهم، بعد قانا، «آمنوا به».

وبإِجرائه معجزةً بهذا القدر من الإِدهاش، أَسفر يسوع عن حقيقة هويّته، و«أَظهر مجده»، أَي أَظهر ألوهته. في هذا السياق تقول الكاتبة الفرنسيّة البروتستنتيّة «فرانس كيري»: «كانت مريم قد وضعت يسوع يوم الميلاد، وفي قانا ولدت المسيح». وتقول طبيبةٌ نفسيّةٌ فرنسيّةٌ أُخرى هي «فرانسواز دلتو»: «في قانا أَصبحت مريم أُمّ الله».

ربّما كان يسوع يؤثر أَن تكون معجزته الأولى أَبعد وقعًا، وأَرحب دويًّا من توفير خمرة عرسٍ في قريةٍ مغمورةٍ، غير أَنّه، إِكرامًا لأُمّه، جعل من هذه المعجزة رمزًا لأَعظم معجزةٍ تخلّد حضوره في العالم، أَي تحويل دمه المبذول، خمرةً تشيع الحياة الإِلهيّة في نفوس متناوليها، كما أَبرز دور أُمّه الأَساسيّ، في خدمة البشر، ونموذجًا لكلّ إِيمانٍ صحيحٍ.

وجديرٌ، أَخيرًا، بالتنويه أَنّ يوحنّا وحده، بين الإِنجيليّين، قد أَورد حدث عرس قانا، في حين أَغفل ذكره سائر الإِنجيليّين. قد يكون السبب أَنّه، بين الإِنجيليّين، شاهد العيان الوحيد على معجزة قانا. ولكنّ السبب الأَهمّ هو تأثّره البالغ بمريم. في قانا كان لقاؤه الأَوّل بها. وقد راقب، عن كثبٍ، أَقوالها، وصمتها، وخَفَرَها، ومحبّتها. ولا ريب أَنّ تَيْنِكَ النفسين الطاهرتين، قد ارتبطتا، منذ تلك اللحظة، بحبٍّ خاصٍّ سامٍ، وأَنّ التلميذ «الذي كان يسوع يحبّه»، قد أَصبح، منذئذٍ، التلميذ الذي تؤثره بحبّها أُمّ يسوع، وقد توطّد هذا الحبّ بعد أَن أَوكل يسوع المحتضر أَغلى كائنين على قلبه أَحدَهما إلى الآخر.

ليس لنبيٍّ كرامةٌ في وطنه

انتهى العرس الفريد، وانحدرت مريم مع ابنها، وتلاميذه الجدد إلى كفرناحوم، والفرح يغمر نفسها، فرح إِظهار ابنها مجده، وإِعلانه هويّته الإِلهيّة، وفرح ولادتها لأُسرةٍ جديدةٍ ستتكاثر حتّى تملأ البسيطة. هذه الأُسرة كانت كفيلةً بأَن تنسيها ما يضمره ليسوعها المدعوّون «إِخوته»، من حسدٍ وحقدٍ.

ومن المرجّح أَنّها رافقت ابنها في حجّه إلى أورشليم، ووجَف قلبها خشيةً عليه عندما رأته يطرد، بجرأةٍ لم يُقدم عليها أَحدٌ، قطّ، تجّار الهيكل، ويهاجم سَدَنته. وحينئذٍ شعرت بالسيف الذي تنبّأ به سمعان الشيخ، وقد شرع يتململ في نفسها.

وفيما تابع يسوع رسالته في كفرناحوم وضواحيها، عادت مريم إلى بيتها في الناصرة، حيث خيّم فراغٌ مزدوجٌ، من جرّاء وفاة يوسف، وغياب يسوع. وعاشت في وحدةٍ تتجرّع مثل غُصَصِها أُمّهاتٌ كثيراتٌ. وكان يضاعف وحشتها وجعًا، شماتة ذوي قرباها الذين يدعوهم الإِنجيل «إِخوة» يسوع، والذين ما كانوا يؤمنون به، كما يؤكّد الإِنجيليّ يوحنّا (٧:٥) «**ذلك أَنّ إِخوته أَنفسهم لم يكونوا يؤمنون به**»، **بل كانوا يضمرون له شرًّا**». ولا ريب أَنّ هذه الوحدة جعلت مريم أوثق التصاقًا بالله، ومواكبةً لرسالة ابنها، بالصلاة، وتفرّغًا لخدمة جيرانها المحتاجين.

الإِنجيليّ لوقا لا يترك لنا، في أَعقاب اختفاء يسوع في الهيكل، سوى صورة مريم المتأمّلة المستغرقة في استقراء السرّ الإِلهيّ الذي حملته في أَحشائها. من المرجّح أَنّها، بين فينةٍ وأُخرى، كانت تنضمّ إلى موكب يسوع، ولكنّها، حرصًا منها على عدم تقييد تحرّكاته التبشيريّة، وبعد أَن اطمأنّت إلى عناية ثلّةٍ من النسوة الغيورات بشؤونه وشؤون تلاميذه المادّيّة، آثرت، في معظم الأَحيان، الاعتكاف في الناصرة، وتسقّط أَخباره عن بُعد، ومواكبته بقلبها وبصلواتها، والتضحية في سبيل نجاح رسالته، ومداعبة ذكرى الأَيّام الخوالي التي كان يملأها بحضوره، وتأمّل معجزاته التي كانت أَنباؤها تتنامى إِليها.

وكان يسوع، حين يشتدّ به الشوق إلى أُمّه، يعرّج على الناصرة، فيتذوّق، بقرب أُمّه، سُوَيعاتٍ سماويّة العذوبة. وبمجرّد تأمّله محيّاها المحبوب، والغرق في لجّة حبّها الغامرة، كان ينزاح عن كاهله عبء كلّ صنوف اللافهم، والمقاومة، والكراهيّة التي كانت تواجهه كلّ يومٍ. كان يذهل عن لامبالاة الجماهير وتقلّباتها، وعن حسد الفرّيسيّين وحقدهم، حالما تحطّ عليه أُمّه أَنظارها التي تفيض طهرًا وعطفًا. كانت تستفسره، في لهفةٍ وحبٍّ، عن مسيرة رسالته، ومتاعبها، وهواجسها، تحدوها رغبةٌ عارمةٌ في تعزيته، وإِفراغه من المرارة التي كانت توجعه.

تذكر الأَناجيل زيارتين قام بهما يسوع إلى الناصرة، أَثناء حياته العلنيّة.

وكم كان قلب مريم يخفق فرحًا مشوبًا بالقلق كلّما قدم يسوع لزيارتها. كانت سعيدةً بعودته إلى البيت الوضيع حيث أَنفقا سنواتٍ طويلةً في حميميّةٍ لا توصف، وبجلوسه إلى جانبها، في تلك الحجرة الضيّقة، حيث كان يطيب لها تجاذب الأَحاديث المتمادية عن الآب، وحيث كان، من قبلُ، في أَعقاب ساعات العمل الشاقّ، يمنح أَعضاءه المتعبة الوجيعة بعض راحةٍ واستجمامٍ!

وكم كان يطيب لها، في هذه المناسبات، أَن تعدّ له الأَطعمة التي يحبّها، وأَن تتذوّق سعادة حضوره، وأَن تحبّه بلا حدودٍ!

ولكن يسوع لم يعد خاصّتها وحدها، فقد كانت شؤون الآب، وشؤون النفوس التي جاء كي يخلّصها تستدعيه إلى الخارج، فيؤمّ الساحات، ويتوقّف بين جماعاتٍ راغبةٍ في التحدّث إِليه، غالبًا بدافع الفضول، لا رغبةً في التعلّم. كان بعضهم يتمنّون مشاهدة معجزاته، ولكن مثلما يتمنّى صبيةٌ مشاهدة حِيَل البهلوانات والسحرة، لا مثل بسطاء ينشدون الإِيمان، ولا يتوانون عن الركوع، وقرع الصدور توبةً.

بعض مخلصي النوايا، ولاسيّما بين من كانوا يتألّمون، كانوا يلتمسون منه، صادقين، واثقين، أَن يرأف بهم، وكان يشفي عللهم. ولكنّ معظم مواطنيه كانوا متفرّجين مرتابين. كان يسوع يتوقّع منهم شيئًا من التحفّظ، ولكنّه لم يتوقّع تلك المقاومة الحاقدة، و«**دهش لقلّة إِيمانهم**».

وفي يوم سبتٍ أَمَّ المجمع، فدُعي إلى الكلام، ودفعوا إليه سفر أَشعيا، كي يقرأ مقطعًا ويعلّق عليه. «**فلمّا نشر السفر وقع على الموضع المكتوب فيه:**

«روح الربّ عليّ لأنّه مسحني لأُبشّر الفقراء،

«وأرسلني لأُنادي للمأسورين بالتخلية، وللعميان بالبصر،

«ولأُطلق المُرهَقين أَحرارًا، وأُنادي بسنة قبولٍ عند الربّ».

ثمّ طوى السفر ودفعه إلى الخادم وجلس. وكانت عيون جميع الذين في المجمع شاخصةً إليه. حينئذٍ شرع يقول لهم: «اليوم تمّت هذه الكتابة التي تُليَت على مسامعكم». وكان الجميع يشهدون له ويتعجّبون من أقوال النعمة الخارجة من فيه، ويقولون: «أَليس هو ابن يوسف؟» فقال لهم: «لا شكّ في أنّكم ستقولون لي هذا المثل: أيّها الطبيب اشفِ نفسك. لقد سمعنا بكلّ ما فعلته في كفرناحوم، فافعل مثله ههنا في وطنك». وقال: «الحقّ أَقول لكم إِنّه ما من نبيٍّ يلقى قبولاً في وطنه.

«وفي الحقيقة أَقول لكم إِنّ أَرامل كثيراتٍ كُنّ في إِسرائيل في أَيّام إِيليّا، حين أُغلقت السماء ثلاث سنين وستّة أَشهر، ونشب جوعٌ شديدٌ في الأَرض كلّها، فلم يُبعث إِيليّا إِلى أَيٍّ منهنّ بل إِلى امرأةٍ أَرملةٍ في صَرْفَتِ صيدون. وإِنّ بُرصًا كثيرين كانوا في إِسرائيل في زمان أَليشَعَ النبيّ، فلم يُطهّر أَحدٌ منهم، سوى نَعمان السوريّ».

فامتلأ جميع الذين في المجمع غضبًا عند سماعهم هذا الكلام فقاموا ودفعوه إلى خارج المدينة، واقتادوه إلى حرف الجبل المبنيّة عليه مدينتهم ليطرحوه إلى أَسفل. أَمّا هو فجاز في وسطهم ومضى. (لوقا ٤: ١٧–٣٠)

أَمّا الإِنجيليّ متّى فيقول: «وجاء إلى وطنه وطفِق يُعلّمهم في مجمعهم حتّى بُهتوا وقالوا: «من أَين له هذه الحكمة وتلك المعجزات؟ أَليس هو ابن النجّار؟ أَليست أُمّه تُدعى مريم، وإِخوته يعقوب ويوسف وسمعان ويهوذا؟ وأَخواته أَلسن كلّهنّ عندنا؟ فمن أَين له هذا كلّه؟» وكانوا متحيّرين في أَمره. فقال لهم يسوع: «ليس نبيٌّ بلا كرامةٍ إِلاّ في وطنه، في بيته». ولم يصنع هناك معجزاتٍ كثيرةً لأَنّهم لم يؤمنوا».

معظم أَهل قريته، مع ما سمعوا من إِشاداتٍ بقدراته، ومن معجزاتٍ مدهشةٍ أَجراها في كلّ مكانٍ، أَبوا أَن يروا فيه سوى النجّار، وابن النجّار يوسف، وابن مريم.

فطالما هو كان نجّارًا يصنع لهم لوازمهم الخشبيّة، ويصلح منازلهم، مجّانًا أَو لقاء دريهماتٍ معدوداتٍ، كانوا جميعهم، يشيدون بسموّ أَخلاقه، وتقواه، ويحرّضون أَبناءهم على التمثّل به. ولكن، أَن يصبح رابيًّا، ومعلّمًا، وصانع معجزاتٍ، ويدّعي أَنّه المسيح، فهذا ما لا يقرّونه. ظلّوا يحترمونه ما دام نظيرهم أَو دونهم، ولكنّهم لم

يطيقوا أن يروه أَرفع منهم شأنًا. ثمّ، إِن كان يمتلك، حقًّا، مواهب شفاءٍ فلمَ يغدقها على الجيران الغرباء، ويمسكها عنهم؟

وكم من الافتراءات كانوا يتخرّصون بها، ولا يتحرّجون، أَحيانًا، من تقيّئها تحت سمع أُمّه! وكم كانت تلك الدناءات تطعن قلبها! ولكنّها كانت تتألّم صامتةً.

كانت مريم تحفظ جيّدًا فقرات نبوءة أَشعيا المتعلّقة بالمسيح، ولطالما أَمعنت في تأمّلها. وقد ارتعشت لمّا سمعته يعلن: «**اليوم تحقّقت هذه النبوءة**»، إِذ لم يكن، حتّئذٍ، قد أَماط القناع عن هويّته المسيحانيّة. واجتاحت نفسها سعادةٌ غامرةٌ لسماع إِعلانه هذا، ولرؤية أَقواله تأخذ، للوهلة الأولى، بالأَلباب والنفوس. فالقوم لم يسمعوا، قطّ، أَحدًا يتكلّم على هذا النحو. فقد كانت أَقواله تهمي عليهم بسيطةً، ولكن مصطبغةً بسلطةٍ علويّةٍ تفتنهم.

ولكن سرعان ما استيقظت اعتراضات النفوس الصغيرة الحاسدة: «**من أَين له هذه الحكمة وتلك المعجزات؟ أَليست أُمّه تدعى مريم؟...**» هذه العبارة التي ابتغى منها قائلوها الإِهانة، كانت طعنةً مسدّدةً إلى قلب الأُمّ، ولاسيّما وقد اتّخذوها حجّةً للتشكيك بيسوع.

الأَجيال القادمة ستحبّ يسوع بمزيدٍ من الرقّة لأَنّه ابن مريم، وحبّهم سيعزّي قلب أُمّه مدى الأبديّة، مكفّرًا عن طعنة تلك اللحظة. ولكنّ مريم، في تلك الساعة، لم تكن ترى سوى أَمرٍ واحدٍ: مواطنو ابنها يرفضون الاعتراف به لأَنّها، هي، أُمّه.... وحتّى الأَشفية التي أَجراها في الناصرة أَبوا الإِيمان بها، لأَنّهم لم يكونوا عليها شهودًا. وقد بلغ بهم الحقد أَن تآمروا على قتله.

من يستطيع وصف الجزع الذي استولى على قلب مريم، وهي تشهد مواطنيها، يسعون إلى قتل ابنها، الذي بات موضع مقاومة لا فرّيسيّي أورشليم فقط، بل موضع نقمة مواطنيه في الناصرة، وعدائهم.

وكم كانت المرارة تفيض من قلب مريم، عندما باحت بهذه المشاعر للإِنجيليّ لوقا! كانت حزينةً بسبب ما جوبه به يسوع من مقاومةٍ، وحزينةً بسبب عمى قلب مواطنيها الذين أَساءوا إلى من جاء كي يعلن لهم ملكوت الله.

بعد ذلك اليوم، لن ترى ابنها في البيت الذي قضت فيه أَعذب أَيّامها. ستظلّ

تتسقّط أَخباره، وتزداد دهشةً، كلّ يومٍ، حيال ما تسمع. فمعجزاته تفوق، بلا قياسٍ، ما ذُكر عن معجزات أَعظم الأَنبياء.

بعض الذين نعموا بأَفضاله، كانوا يعرّجون على الناصرة، فيحرصون على مباركة أُمّه، والتعبير لها عن إِعجابهم، وتقديرهم، وشكرهم.

إلى أَن تنامى إليها أَنّ أَرباب الشعائر اليهوديّة يتآمرون على قتل يسوع. ويا لتمزّق قلبها!

كم كانت نبوءتك صادقةً، يا سمعان الشيخ!

من هي أُمّي؟

في إِحدى مراحل رسالة يسوع، اشتدّ ازدحام الحشود من حوله، «**أُلوفًا حتّى داس بعضهم بعضًا**»، بحيث لم تعد تتّسع له فرصةٌ لتناول طعامٍ أو لإِصابة لحظات راحةٍ واستجمامٍ.

وانشطرت الجموع بشأنه. فمنهم المعجبون بمعجزاته المذهلة، وبسلطته على الأَرواح الشرّيرة، وباستنفاره القوم لسماع تعاليمه التي كان يلقيها بسُلطةٍ راسخةٍ. وآخرون ناصبوه العداء وقاوموه. وامتدّ هذا الانقسام إلى أَبناء قريته، فبعضهم ازدهوا به فخرًا، وبعضهم شكّكوا به، واختلقوا التخرّصات لتشويه صورته.

هذا، فضلاً عن أَنّ قادة الشعب، وحماة الشريعة، كانوا يواجهونه بمقاومةٍ شرسةٍ، وهو لم يكن يداريهم ولا يهادنهم، بل يتعمّد تسفيههم علنًا معرّضًا نفسه لنقمتهم.

واعتملت الغيرة في نفوس أَفراد عشيرته، المدعوّين «إِخوته» فادّعوا القلق عليه، ووطّنوا العزم على اختطافه، والعودة به إلى الناصرة ولو عنوةً، وإِخراسه. وإِذ كانوا يعرفون ارتيابه بنواياهم، وخشوا تضافر تلاميذه وقسمٍ كبيرٍ من الشعب في الدفاع عنه، ضغطوا على أُمّه، محاولين إِقناعها بأَنّ سلوكه يثبت أَنّه فقد صوابه، وأَنّه يعرّض صحّته وسلامته، وحياته للتهلكة. ولذلك لا مناص لها من مرافقتهم كي تقنعه بالعودة معهم إلى الناصرة. والواقع أَنّهم أَوقعوها في أَقصى حرجٍ، إِذ لم يكن بوسعها رفض الانضمام إلى أَفراد الأُسرة، في نظامٍ عشائريٍّ مُغلقٍ. وفي الآن عينه كانت تدرك كم كانت تلك المحاولة قبيحةً وبغيضةً. وكم تمنّت أَن تكتفي بلمح ابنها من بعيدٍ كي يطمئنّ قلبها، وأَلاّ يلمحها، هو، لكيلا يحزن!

في ذلك اليوم، كان يسوع قد طرد شيطانًا من رجلٍ أَخرس، فاستعاد النطق. ولكنّ علماء الشريعة الحاضرين ادّعوا أَنّه إِنّما يعمل بقدرة بعلزبول، رئيس الأَبالسة. غير أَنّ يسوع، بمنطقه الصارم، سفّههم، وأَخزاهم. فهتفت امرأةٌ من الحضور:

«**طوبى للبطن الذي حملك، وللثديين اللّذين رضعتهما**». كانت تغبط الأُمّ التي أَنجبت هذا الابن الفذّ، ولم يلمها يسوع، بل ارتقى بذهنها إلى اعتباراتٍ أَرفع سموًّا وروحانيّةً، فقال: «**بل طوبى للّذين يسمعون كلمة الله ويحفظونها**».

لقد حرص يسوع على إِفهام السامعين أَنّ أَواصر الدم، والانتماء إلى شعبٍ معيّنٍ لا تولي أَيّ امتيازٍ، وأَنّ الإِيمان والعمل بوصايا الله هي الجوهريّة، وأَنّ أُمّه تستحقّ، فعلاً، البركة والغبطة، ولكن ليس فقط لأَنّها حملته وأَرضعته، بل لأَنّها التزمت بمشيئة أَبيه السماويّ.

وقد أَكّد ذلك، مرّةً أُخرى، عندما وصل أَقرباؤه مع أُمّه إلى البيت الذي كان يعلّم فيه، وعجزوا عن الاتّصال به، بسبب الحشد، ولم يكن يجديهم، في شيءٍ أَن يكلّموه أَمام جمهورٍ يضجّ اندفاعًا، فأَنفذوا إليه من يعلمه أَنّهم في الخارج، ويرغبون في التحدّث إليه على انفرادٍ. فأَجاب يسوع وقال للّذي أَخبره: «**من أُمّي؟ ومن إِخوتي؟**» وأَشار بيده إلى تلاميذه، وقال: «**هؤلاء هم أُمّي وإِخوتي. فإِنّ كلّ من يعمل بمشيئة أَبي الذي في السماوات هو أَخي، وأُختي، وأُمّي**». (متّى ١٢: ٤٨-٥٠)

وبذلك أَعلن يسوع أَنّ مريم هي أُمّه مرّتين: بالدم الذي أَسالته في عروقه، وبحرصها على العمل بمشيئة الله بلا تحفّظ.

في ذلك المساء اختلت مريم بابنها بضع دقائق، فأَكّدت له تضامنها معه، حتّى إِن هصر القلق عليه قلبها. وشكرته إِذ اتّخذها أُمًّا لا بالجسد فحسب، بل بالروح أَيضًا.

وفي الغد عادت إلى الناصرة أَوثق اتّحادًا مع كلّ مواقف ابنها، بقلبها وإِرادتها، والسلام يغمر نفسها.

مريم والصليب

بعد هذه الحادثة، توارى، من الإنجيل، طيف مريم، التي عادت إلى وحدتها، واعتكافها، وتأمّلها، ومواكبة رسالة ابنها بقلبها وبصلواتها. ولم تظهر ثانيةً إلاّ في الجلجلة، فالإنجيليّ يوحنّا يقول: «**وكانت أُمّ يسوع... واقفةً عند صليبه**».

كانت قد صعدت إلى أورشليم حاجّةً للمرّة الأخيرة في حياة ابنها، احتفالاً بالفصح، ورغبةً في لقاء ابنها الذي شدّها إليه الشوق. وربّما التقته، أوّلاً، في بيت عنيا، في منزل لعازر الذي أقامه يسوع من القبر، وشقيقتيه مرتا ومريم. وكان مجيئها إلى أورشليم تدبيرًا إلهيًّا من أجل إشراكها في سرّ الفداء، الذي تمّم سرّ التجسّد.

منذ طفولة يسوع كانت مريم قد أُنبئت بنهاية ابنها المأساويّة. غير أنّ يسوع حرص على إعدادها مباشرةً لأسرار الخلاص التي كان مقدمًا على تحقيقها، والتي كان لها فيها إسهامٌ فريدٌ، إذ كان عليها أن توحّد إرادتها، وآلامها، وتضحياتها، بإرادة ابنها، وبآلامه وتضحياته. ومع أنّها كانت تتوقّع تلك الساعة الرهيبة، اعتصر الأسى قلبها، ولا ريب أنّها كرّرت، وقلبها نازفٌ، قولها: «**ها أنذا أمَة الربّ، فليكن لي بحسب قولك**».

تذوّقت مريم عزاءً أخيرًا، بمشاركتها موكب دخول ابنها المدينة المقدّسة دخول الفاتح المنتصر، يوم أحد الشعانين. فبما أنّ ابنها أراد هذه التظاهرة التي طالما تحاشى عن أمثالها في حياته، أرادتها، هي أيضًا، وسعدت بها. ولكن لم يكن يخامرها أيّ وهمٍ، إذ كانت موقنةً بأنّ المُلك الذي ينشده يسوع ليس أرضيًّا.

لقد شاركته البكاء على أورشليم، واكتأبت إذ شاهدته عائدًا في المساء إلى بيت عنيا، ساهمًا حزينًا.

هل اقتسمت عشاءه الأخير مع تلاميذه، عندما كرّس الجسد والدم اللّذين استمدّهما من جسدها، كي يكونا غذاءً أبديًّا للمؤمنين به؟ هذا التساؤل ما زال قائمًا.

وإن هي لم ترافقه إلى بستان الزيتون والجتسماني، إلاّ أنّها قاسمته نزاعه النفسيّ، فرأت، بالروح، ما رآه، وراعها ما راعه، والعرق الممزوج بالدم انثال منها كما انثال منه. نفسها، أيضًا، كانت حزينةً حتّى الموت.

وحاصرت ذهنها وذاكرتها نبوءات أشعيا:

«لا صورة له ولا بهاء، فننظر إليه، ولا منظر فنشتهيه،

مزدرًى، ومتروكٌ من الناس، رجل أوجاعٍ، وعالمٌ بالألم،

ومثل من يُستر الوجه عنه، مزدرًى فلم نعبأ به.

لقد حمل هو آلامنا، واحتمل أوجاعنا، فحسبناه مضروبًا من الله ومذلّلاً.

طُعن بسبب معاصينا، وسُحِق بسبب آثامنا...»

ويا ليأس أُمٍّ تشهد وحيدها يَتلوّى أَلَمًا مضنيًا، ولا تملك لتخفيفه حيلةً! وهي مدركةٌ أنّ آلامه النفسيّة أقسى، بما لا يُقاس، من آلامه الجسديّة. فقد أخذ على عاتقه خطايا العالم. وهذه الخطايا تراكمت أمام ناظريه بشعةً، مقزّزةً. كلّ نجاسات البشر، منذ تمرّد الإنسان الأوّل، حتّى آخر فظاعةٍ سيرتكبها آخر إنسانٍ على الأرض، كانت ماثلةً أَمامه، بكلّ فظاظتها، وقحتها، وترهقه وتسحقه، وتمتزج بكيانه، جاعلةً من كلّيّ الطهر خطيئةً... وليس مثل يسوع، من يروز بشاعة الخطيئة. فلا بِدْعَ إن أدخلته كلّ تلك الخطايا في نزاعٍ لا يحيط به وصفٌ. ويا لنزاع مريم الكلّيّة الطهر!

ولكأنّ الآب نفسه نفر من رؤية ذلك السيل العارم من الخطايا الذي غمر ابنه، ولكأنّه لم يسمع تنهّده: «**يا أبتِ، أبعد عنّي هذه الكأس**».

وتسارعت الأحداث. وتنامى إلى مريم أنّ يهوذا خان المعلّم، وأسلمه في بستان الزيتون، فاقتيد، مكبّلاً إلى رئيس الكهنة، وأنّ السنهدرين سارع إلى إصدار الحكم بصلبه. فهرعت، واختلطت بالجماهير التي تراصّت أمام بيت بيلاطس، كي تظلّ على مقربةٍ من ابنها. ونزف قلبها، وهي تشهد وجهه الحبيب وقد شوّهته الصفعات، والبصقات، والشوك الذي تُوِّج به. وسمعت بيلاطس يستدرّ رأفة الجماهير، وهو يقدّم لهم يسوع الذي انتهى إلى أزرى حالٍ، قائلاً: «هو ذا الرجل»، أو ما تبقّى من رجلٍ حُطّم جسده، وامتُهنت كرامته.

وكم صُعقت تلك الأُمّ، لسماعها الجماهير المتقلّبة، ناكرة الجميل، تردّد صيحات رؤسائها الدينيّين المفعمة حقدًا: «اصلبه، اصلبه»! وكم أُحبطت عندما تبيّنت استسلام بيلاطس لنزوات الجماهير، ولمؤامرة أعداء يسوع، مزريًا بضميره وبواجبه المهنيّ، جُبنًا، وحفاظًا على مركزه!

وفي لحظةٍ فريدةٍ، في إحدى مراحل درب الصليب، التقت أَنظار يسوع وأُمّه التي لم تقوَ على حبس صيحةٍ طوتها على كلّ وجع قلبها: «**يسوع! يا بنيّ!**». والتمست من الآب أَن يخفّف عنه وطأة الصليب، فأَرسل إليه سمعان القيرينيّ.

وفي الجلجلة كانت كلّ طرقة مسمارٍ، طعنةً قاتلةً في قلب مريم.

ولكنّ رأفةً عظمى خالطت أَلمها، فالتمست، هي أَيضًا، الصفح لأَعداء ابنها، الذين كانوا، في الواقع، يدينون أَنفسهم.

كان الملاك قد بشّرها بأَنّ ابنها سيجلس على عرش داود. وأَيّ عرشٍ ذاك الذي أَجلسه عليه أَحفاد داود!

أولئك الذين شبعوا خبزًا وسمكًا عجيبين، وأَرادوا المناداة بيسوع ملكًا، وأولئك الذين، لأَيّامٍ معدودةٍ خلت، هتفوا: «هوشعنا لابن داود»، انتابهم الندم، وحاولوا التكفير عن خطئهم، فهتفوا، مع علماء الشريعة «اصلبه، اصلبه»، وأَسهبوا في شتمه!

وظلّت مريم مؤمنةً بقول جبرائيل. ولكنّها كانت مدركةً أَنّ مُلك ابنها ليس ملكًا أَرضيًّا زائلاً، وأَنّ ابنها، بموته يخلّص شعبه والعالم بأسره. لم يتزعزع إِيمانها، ولكنّ قلبها تمزّق لسماع شتائم أَبناء شعبها، في الوقت الذي كان يسوع يقدّم لهم شهادة حبّه الأَقصى. وكم وَجَف قلبها، وهي تشهد الثوب الذي حاكت كلّ قطبةٍ منه بحبٍّ جمٍّ، بين يدي الجنود.

سمعت رفيقيه المصلوبين معه يشمتان به، ويشتمانه، فالتمست لهما الغفران، وبفضل دعائها تاب أَحدهما، وغدا رفيق يسوع الأَوّل، في رحلة عودته إلى الفردوس. وحده الإِنجيليّ لوقا روى هذا الحادث، والأَرجح أَنّه استقاه من مريم نفسها...

وشيئًا فشيئًا تغيّر مناخ الجلجلة، وهيمن على التلّة جلالٌ إِلهيٌّ، وشاع الندم

والرعدة محلّ العنف، والقحة، والحقد، واستطاع فريق أَحباب يسوع وأَصدقائه الاقتراب من صليبه. وللمرّة الأَخيرة وقفت مريم إلى جانب وحيدها قبل موته. وكم حفلت تلك الوقفة بالأَسرار الإِلهيّة!

«**كانت أُمّ يسوع واقفةً عند صليبه**». كم لهذه العبارة المقتضبة من وزنٍ في عمليّة الخلاص! كانت هناك، لأنّها كانت حريصةً على تواصلٍ تامٍّ مع ابنها الذي كانت ترى فيه المخلّص. كان، ثمّة، توافقٌ كاملٌ بين إِرادتيْهما حيال عمل الخلاص الذي كان غاية تجسّد يسوع.

لم تحيَ مريم حَدَث الصلب، وكأَنّه محنةٌ مرهقةٌ، بل بصفته تتميم مهمّةٍ. وكانت تعدّ آلامها إِسهامًا في تنفيذ هذه المهمّة.

يقول أَحد تلاميذ القدّيس بيرنار: «في الصليب هيكلان: واحدٌ لقلب مريم، والآخر لجسد المسيح. المسيح قدّم جسده ضحيّةً، ومريم ضحّت بنفسها... محبّة المسيح كانت تحمل إلى الآب تمنّياته مقرونةً بتمنّيات أُمّه. فما كانت الأُمّ تطلبه، كان الابن يؤيّده، والآب يهبه... إِرادة المسيح ومريم واحدةٌ. وكلاهما كانا يقدّمان للّه ذبيحةً واحدةً، هي بدم قلبها، وهو بدم جسده... وكانت مريم تنال مع المسيح ثمرةً مشتركةً من أَجل خلاص العالم».

بصفتها امرأةً وأُمًّا، أَضفت مريم على مشاركتها في الخلاص طابعًا مميّزًا، جعل منها مثالاً أَسمى للتعاطف وللمشاركة في الفداء. هذا فضلاً عن استحقاقاتها الفريدة.

بعد أَن ذكر يسوع المحتضر جلاّديه بكلمةٍ رقيقةٍ، وبعد أَن أَثلج قلب اللصّ التائب، احتفظ بكلمةٍ ثمينةٍ، خالدةٍ، لأُمّه التي أَحبّها أَكثر من جميع الخلائق مجتمعةً، ولتلميذه الحبيب، يوحنّا، الذي، وحده، دون سائر التلاميذ، وقف عند أَقدامٍ الصليب. أُمّه اجتذبت نظره، وقد استمدّ من التحديق إِليها عزاءَه الأَخير، وتواصلاً بنويًّا حميمًا أَيقظ نظيرًا له لدى يوحنّا، ووثّق بينهما علاقةً متبادلةً بين ابنٍ وأُمّه. ولطالما خَبَرَ يوحنّا تأثير نظرة يسوع التي تخضّ القلوب، وتشعل فيها نيرانًا.

كان يحدو يوحنّا حبٌّ جمٌّ يربطه بالمخلّص، وبفضل هذا الحبّ دُعي «التلميذ الذي كان يسوع يحبّه». وقد خضّته آلام يسوع وأُمّه، وأَرهقه ظلم البشر، ونكرانهم لمخلّصهم. وبغتةً وقعت عليه نظرة يسوع المحتضر، التي كرّست علاقةً فريدةً بينهما.

كانت نظرةً حافلةً بحنانٍ جمٍّ، نظرة ابنٍ يطلب منه احتضان أُمّه الخاصّة، وتبنّيها بمثابة أُمٍّ. وكيف له أن يرفض طلب حبيبٍ محتضرٍ يوكل إليه أُمّه، قبل أن يغادر الدنيا؟ إنّ في كلمات المحتضر رجع صدى الأبديّة.

يقول يوحنّا في إنجيله: «**فلمّا رأى يسوع أُمّه، وبقربها التلميذ الذي كان يحبّه قال لأُمّه: أيّتها المرأة، هوذا ابنك**». **ثمّ قال للتلميذ**: «**ها هي ذي أُمّك**». (يوحنّا ١٩: ٢٦-٢٧)

بعد أن فقد يسوع كلّ شيءٍ: أصدقاءه، وتلاميذه الذين فرّوا، وحرّيّته، وثيابه التي اقترع عليها الجنود، وقُبَيْل انتزاع حياته منه، حرص على التبرّع بالكنز الثمين الوحيد الذي بقي له: أُمّه.

إيكال مريم إلى يوحنّا لم يكن شأنًا عائليًّا، أو تدبيرًا مادّيًّا واجتماعيًّا، فلا ريب أنّ يسوع، قبل مباشرته حياته الرسوليّة العلنيّة، كان قد اتّخذ التدابير التي تضمن لأُمّه العيش الكريم. فضلاً عن أنّ وجود من دُعيت «أُختها» مريم، أُمّ من كانوا يُلقّبون «إخوة يسوع»، أبناء كليوبّا، يعني أنّ مريم لم تكن تعاني، في الناصرة، وحدةً كاملةً، بل كان لها من تلجأ إليهم، عند الحاجة. ومن جانبٍ آخر، لم يكن يوحنّا في حاجةٍ إلى أُمٍّ ترعاه، فأُمّه، صالومي، لم تفارق جماعة يسوع والرسل، وكان ابنها، دائمًا، تحت أنظارها.

كان يوحنّا، إذن، في نظر يسوع المحتضر، رمزًا لكلّ مسيحيٍّ، ولكلّ مؤمنٍ، في كلّ جيلٍ. وبإيكاله إلى عناية مريم، أقام يسوع أُمّه أُمًّا للبشر أجمعين. تلك كانت الخطوة الأخيرة في مهمّته الخلاصيّة. ولذلك، بعد أن أوكل أُمّه إلى يوحنّا، ويوحنّا إلى أُمّه، قال: «قد تمّ». تمّ المخطّط الإلهيّ لخلاص البشر.

كما فعل في قانا، دعا يسوع أُمّه «أيّتها المرأة». هو كان يسمّي نفسه «ابن البشر»، وهو وصفٌ ينطبق على كلّ إنسانٍ، ولكنّه، في فم يسوع، كان يرتدي معنًى خاصًّا، أي الربّ المطلق، المخلّص، الديّان الأكبر. كذلك لفظة «امرأة» يمكن أن تُطلق على النساء كافّةً، ولكن عندما يطلقها يسوع على أُمّه، فهو يعني المرأة المرتبطة بابن البشر ارتباطًا وثيقًا وفريدًا، والتي تتحمّل مسؤوليّةً جسيمةً في عمل الفداء.

بتسميته أُمّه «أيّتها المرأة»، أعاد يسوع للمرأة نبلها، وامتياز إسهامها في عمل الخلاص. فهي المرأة التي ستسحق رأس الحيّة، رأس إبليس. عند أقدام الصليب،

أَمست مريم حوّاء الجديدة، «أُمّ جميع الأَحياء»، الذين يحيون بحياة يسوع، أُمّ جميع البشر، في نظام النعمة، تلك التي تحقّق ملء مصير المرأة.

لقد شاء يسوع أَن يهب مريم أُمًّا لكلّ إِنسانٍ جاء كي يخلّصه. جسامة حبّه اقتضت شمول حبّه للعالم كلّه، في كلّ جيلٍ. لا ريب أَنّ التلميذ الحبيب يوحنّا قد نَعِم بامتيازٍ فريدٍ، فالسنوات التي قضاها بقرب مريم أَتاحت له أَن يكتسب مزيدًا من خبرةٍ بجمال نفسها، وبتطابق عواطفها وأَفكارها، مع أَفكار ابنها وعواطفه، كما أَتاحت له التوغّل في اكتشاف سرّ يسوع، ولكأنّ هذا الاكتشاف تتمّةٌ لما تعلّمه من يسوع مباشرةً. ويسوع الذي خصّ يوحنّا بهذه الخبرة الفريدة، ابتغى أَن ينعم كلّ تلميذٍ من تلاميذه بعطف مريم الأُموميّ، لا من خلال قربٍ جسديٍّ، بل من خلال نموّ حياة النعمة فيه. لقد شاء أَن يتلقّى كلّ مسيحيّ ما تلقّاه هو من أُمّه: حبّ أُمٍّ مثاليًّا، حبًّا مفعمًا عطفًا، وتشجيعًا، وحدبًا يسارع، دائمًا، إِلى توفير العون. ولا مراء أَنّ أُمومة مريم الروحيّة هي أَروع إِبداعات مخطّط الخلاص الإِلهيّ، وكنز حياة نعمةٍ لا ينضب.

بعد أَن قال لأُمّه: «**أَيّتها المرأة هو ذا ابنك**»، التفت يسوع إِلى التلميذ الحبيب وقال: «**هذه أُمّك**». هذا القول لم يكن تكرارًا نافلاً، أَو مجرّد تأكيدٍ، بل كان ينطوي على معنًى عميقٍ. فكما أَنّ على الأُمّ أَن ترعى التلميذ رعاية أُمٍّ لابنها، وأَن تفيض عليه حبّها، كذلك على التلميذ أَن يعدّ مريم أُمًّا له، وأَن يقابلها بحبٍّ بنويٍّ، ويقحمها في صُلب حياته الحميمة، ويعقد معها علاقات ثقةٍ مطلقةٍ.

وقد تلقّى التلميذ وصيّة معلّمه الأَخيرة باحترامٍ، وحبٍّ، واندفاعٍ، ونفّذها في الحال، فأَصبحت العلاقات التي شاء الربّ أَن تقوم بين أُمّه وتلميذه واقعًا ماثلاً، بلا تلكّؤ. كلاهما تلقّفا كلمة الله وعملا بها. وكانت تلك بداية تكريم المؤمنين لمريم، ومحبّتهم لها محبّة أَبناءٍ لأُمٍّ، تنفيذًا لوصيّة يسوع. هذه الوصيّة تدحض من يحتجّون بأَنّ تكريم مريم هو تحويل المسيحيّين عن تكريم يسوع. فليس الإِقلاع عن تكريم مريم هو الذي يضاعف تكريم يسوع، بل لا يمكن تكريم يسوع تكريمًا حقًّا، صحيحًا، إِلاّ بتقبّل عطيّته أُمّه لنا، وبإِيلاء هذه الأُمّ حبًّا بنويًّا صادقًا، جمًّا. وما من تكريمٍ للمصلوب، ولبطولة تضحية ذاك الذي أَحبّ الحبّ الأَقصى، إِلاّ بتنفيذ وصيّته الأَخيرة، وبإِحاطة أُمّه بحبٍّ بنويٍّ. وإِنّما نحن نكرّم العذراء، تنفيذًا لمشيئة ابنها.

الذي كان قد أَوصى تلاميذه: «**أَحبّوا بعضكم بعضًا كما أَنا أَحببتكم**»، وبقوله ليوحنّا: «**هذه أُمّك**»، كان يعني: «أَحبِبْها كما أَنا أَحببتُها، أَحببها لأَنّها أُمّك».

والحبّ على غرار حبّ يسوع هو انتهاج درب حبٍّ بلا حدودٍ، حبٌّ يتعمّق باطّرادٍ، ويمضي قُدُمًا بلا توقّفٍ.

لحظة أُوكلت مريم إلى عناية يوحنّا كانت لحظةً حاسمةً حوّلت حياته كلّها، التي أَضحت مفعمةً بحضور مريم. وكلّ مسيحيٍّ يشعر أَنّ علاقته بمريم توثّق ارتباطه بيسوع.

لحظةً حاسمةً كانت في حياة يوحنّا، عندما سمع المعمدان يقول عن يسوع: «**هو ذا حمل اللّه**»، فاندفع في إِثره، ولحظةً حاسمةً أُخرى كانت عندما قال له يسوع نفسه: «**هذه أُمّك**»، فأَخذها إِليه.

قبل أَن يطلب يسوع من تلاميذه هجر بيوتهم، وأُسَرهم، ومهنهم كي ينصرفوا إلى مهامّ الرسالة، كان، هو، قد هجر بيته، ومهنته، وأُمّه. ومن ثمّ لم يكن للتلاميذ معرفةٌ وثيقةٌ بمريم. وها إِنّ يسوع نفسه، قبل مبارحته هذا العالم، يزجّ تلميذه الحبيب في هوّة سرّ أُمّه، كي يجعل منها حجر أَساس الكنيسة. وساطة مريم، في عرس قانا، فجّرت أولى معجزات يسوع، وحضورها في نشأة الكنيسة سيكون نبع معجزاتٍ ونِعَمٍ لا نهاية لها، تواكب حياة الكنيسة.

أَخذ يوحنّا مريم إلى خاصّته كان تعبيرًا عن حبٍّ مخلصٍ، وعن تنفيذ وصيّة الربّ بكلّ الحبّ، وعن رغبةٍ في المكوث إلى جانبها، والتنعّم بحضورها القدسيّ، وجعلها سيّدة حياته وكنزها.

وهكذا تسنّى ليوحنّا الولوج إلى أَعماق سرّ يسوع وسرّ مريم، والإِلمام بالمعجزات التي عهدتها قبل اعتلان يسوع. فاستطاع أَن يستهلّ إِنجيله بقوله، عن يسوع، إِنّه «**لم يولد من دمٍ، ولا من رغبة جسدٍ، ولا من إِرادة رجلٍ، بل من اللّه**». **(١: ١٣)**

اكتشف يوحنّا وجه مريم الحقّ، ومن خلال نجاواها توغّل في فهم سرّ الفداء. وباكتشافه مريم أَمعن في اكتشاف يسوع، واكتشاف التوافق التامّ، في استعدادات كلٍّ من مريم ويسوع، وفي مشاعرهما وأَفكارهما. لقد اكتسب، قرب مريم، خبرةً

فريدةً. ومن شأن العيش قريبًا من مريم إنارة حياة كلّ مسيحيّ. وعلى كلّ راغبٍ في الولوج إلى سرّ يسوع، وإلى اكتشاف رسالة الإنجيل، عقد علاقةٍ وثيقةٍ بمريم.

إنّ مريم عطيّةٌ يقدّمها يسوع لنا، وعلى كلٍّ منّا أن يأخذها إلى خاصّته، إلى بيته، وإلى حياته، وفي صميم قلبه.

بوسع كلّ مسيحيٍّ أخذ مريم إلى خاصّته، بإفساح مكانٍ لائقٍ لها، في حياته، وفكره، وقلبه، بالتنعّم بحضورها، وبعقد علاقاتٍ روحيّةٍ، وحوارٍ دائمٍ معها، علاقات حبٍّ بنويٍّ تجاه خير الأمّهات، وبتأمّل كلّ ما يتعلّق بها في الإنجيل، مع الاستعانة بالروح القدس الذي لا يتوانى عن إبراز التحفة التي أبدعها وملأها نعمةً؛ بإيلائها ثقةً مطلقةً والتماس عونها، في كلّ ما يعتَوِر مسيرتنا من عقباتٍ وهواجس.

قُبَيْل مغادرته هذا العالم منح يسوع البشريّة أغلى ما لديه: أُمّه. وقد ضرب يوحنّا خير مثالٍ في تقبّل هذه العطيّة. وعلى غراره يرى المسيحيّون، في مريم، قلبًا رؤوفًا، وطهرًا فائقًا، ومثالاً للقداسة كاملاً. يجتذبهم عطفها، وتأثّرها بكلّ المآسي البشريّة، وتعاطفها مع كلّ ألمٍ. يعلمون جدوى وساطتها لدى ابنها، فيضعون بين يديها كلّ همومهم اليوميّة، ويلتمسون عونها بلا حدودٍ ولا تحفّظٍ.

ولا جرَم أنّ يسوع، بطلبه من أُمّه أن تتّخذ من يوحنّا ابنًا، طالبها بالانفصال عنه، بالتجرّد الكامل، بالفقر المطلق، بالتضحية القصوى. فهل من شأن ابن زبدى، مهما بلغ من طهرٍ وفضيلةٍ، أن يعوّضها عن يسوع ابن الله، وثمرة أحشائها، وهل يغنيها عنه بشرٌ خاطئون؟

غير أنّ يسوع، من خلال يوحنّا، قد جعل المؤمنين به أبناءً لمريم. ولا ريب أنّ الأُمّ العذراء كانت منصهرةً في فكر ابنها، فأدركت ذلك، وفتحت قلبها على مصراعيه، لأولئك الأبناء الجدُد، الذين دفع وحيدها دمه وحياته ثمنًا لهم.

عقِب وصيّةَ يسوع الأخيرة صمتٌ، وعتمةٌ، وتجدّد نزاع الجتسمانيّ. وللمرّة الأولى، مذ وطئ يسوع الأرض، داخله شعورٌ مرهقٌ بتخلّي الآب. وأيّ سيفٍ اخترق قلب مريم! وأيّة نارٍ أضرمتها، في جوفها، صيحته «**أنا عطشان**»، وهي عاجزةٌ عن نقع ظمئه! ولكنّها كانت تدرك أنّ عطش ابنها هو إلى خلاص النفوس، لا إلى الماء، فقدّمت كلّ ذاتها ضحيّةً لكي تسهم في خلاص تلك النفوس. وربّما خيّم

على نفسيهما شعورٌ غامرٌ بالارتياح وهما يتوسّمان ثمار تضحيتهما. صاح يسوع: «قد تمّ»، وردّدت مريم هذا القول في قلبها، وأَودع يسوع روحه بسلامٍ، بين يدي الآب.

اهتزّت الأَرض، وتصدّعت الصخور، وفُتِحت القبور، وهتف قائد المئة: «**هذا الرجل كان، حقًّا، ابن الله**». وأخذ المتفرّجون يقرعون صدورهم. وتبيّنت العذراء أَنّ موت يسوع شرع يؤتي ثمارًا، وأَنّ الهزيمة تحوّلت إلى انتصارٍ.

يقول پول كلوديل: «فلتهتزّ الأَرض، وليتمزّق حجاب الهيكل من أَعلاه إِلى أَسفله، فمريم واقفةٌ، صامدةٌ، لا تهتزّ. إِنّها ترى وتعرف».

وطُعن القلبان معًا، ومن الدم والماء اللّذين تفجّرا، رأت العذراء عظمة سرّي العماد والإِفخارستيّا.

وحدها مريم رأت، في الجسد المصلوب، المسيح الحقّ. وقبل القيامة أَدركت معنى رسالة ابنها الفدائيّة. عند أَقدام الصليب تشابكت أَنظارهما على التفاهم والتضامن، وقبل أَن يطبق جفنيه أَوكل يسوع الكنيسة إلى أُمّه. ومنذئذٍ، ما انفكّ الروح القدس يعمل في قلب الكنيسة، مثلما كان يعمل في قلب مريم.

دفن يسوع

كان من المألوف إلقاء جثث المجرمين في حُفَرٍ جماعيّةٍ. ومن المحقّق أَنّ قلب مريم كان عاجزًا عن رؤية تدنيس ذلك الجسد الذي استمدَّته من الروح القدس، وحملته في حشاها الطاهر. وكان الآب ساهرًا، فأَرسل فرّيسيًّا غنيًّا، أَريماثيًّا يُدعى يوسف. كان مواليًا ليسوع ولكن في الخفية، خوفًا من وجهاء اليهود. غير أَنّه، فيما فرّ تلاميذ يسوع مذعورين، وتخلّوا عنه، تغلّب هو على خوفه، وجاء، بجرأةٍ، إلى قصر بيلاطس، وطلب منه جثمان يسوع... كان قد جاء بكفنٍ، وإذا بزميلٍ له، كان يشاركه حبّه الخفيّ ليسوع، ينضمّ إليه حاملاً خليطًا من الحنوط.

باحترامٍ وإجلالٍ، نُزعت المسامير، وأُنزل الجثمان المضرّج بالدماء، فتلقّته بحنانٍ ذراعا الأُمّ المفجوعة، التي ضمّته، للمرّة الأخيرة، ضمّةً جمعت الحبّ إلى الأَلم.

ولكنّ الليل داهم، ولم يفسح مجالاً للتفجّع، ولا لتكريم الجثمان بتحنيطٍ لائق. وكان جسد أَجمل بني البشر بين يدي العذراء، جامدًا، شاحبًا، مشوّهًا، مضرّجًا بالنجيع، ممزّقًا بالسياط.

لحسن الطالع، كان يوسف الأَريماثيّ يمتلك، في الجوار، بستانًا، وكان قد حفر فيه لنفسه قبرًا، فتنازل عنه ليسوع، وأودع فيه الجثمان الإلهيّ، وأَغلقه بحجرٍ ضخمٍ.

انتُزعت مريم من أَمام القبر، قُبيْل حلول السبت، وعادت إلى المدينة، متّكئةً على كتف يوحنّا.

يوم السبت كان لمريم يوم حزنٍ هاصرٍ، يخفّفه سلام النفس، والثقة في الإنسان الإله، والعزاء الناجم عن اليقين بأَنّ موت ابنها كان فجر خلاص العالم. ولكن أَيّ فراغٍ في قلبها، وقد غاب يسوع، علّة وجودها! ولكنّ يسوع كان قد أَوكل إليها، من خلال يوحنّا، أُمومة جميع البشر، وكان عليها أَن تحيا من أَجلهم.

في الغداة انضمّ بطرس إلى يوحنّا، وأَيّة دموعٍ سكب بين يدي أُمّ معلّمه الذي

كان قد أَنكره في ساعة وهنٍ. وغمرته مريم بنظرةٍ قرنت الصفح بدعوةٍ إِلى مزيدٍ من الحبّ. وبتواضعٍ سحيقٍ أَقسم بطرس أَن يظلّ وفيًّا لذكرى من كان، حتّئذٍ، يظنّ أَنّه لن يراه، بعدُ، أَبدًا.

وما لبث أَن التحق بهم سائر التلاميذ، وكانت مريم تشجّعهم بثقتها وإِيمانها اللّذين تغلّبا على أَلمها.

وما إِن غربت شمس السبت حتّى شرعت تبزغ أَشعّة الثقة بقيامة ابنها، في سماء قلبها.

بعد الصلب اهتزّ إِيمان الجميع، ما عدا إِيمان مريم التي غدت عضو الكنيسة الوحيد المؤمن أَثناء مكوث يسوع في القبر.

وفي حين خُيِّل إِلى معظم التلاميذ أَنّ مغامرة المعلّم قد انتهت في الجلجلة، كما أَوحت أَقوال تلميذي عمّاوس، كانت مريم مؤمنةً بأَنّ فجر خلاص العالم كان ينبلج على الجلجلة. هم كانوا موقنين بأَنّ الحلم الرائع قد ثوى في القبر مع الحالم، ولذلك صعُب عليهم تصديق نبأ قيامته، ولم يعرفوا من هو يسوع حقًّا، إِلاّ في العنصرة.

مريم أَيضًا لم تكن تملك اليقين، ومعرفةً كاملةً للمستقبل. ولكنّها كانت تمتلك الإِيمان. وكانت تبحر وسط أَنوارٍ وظلماتٍ. أَحيانًا تدرك كلّ شيءٍ، وأَحيانًا يستعصي عليها الفهم، متأمّلةً، دائمًا، أَقوال الربّ، متشبّثةً بمشيئته، مكتشفةً تدريجيًّا هويّة ابنها الفائقة الطبيعة.

وطوبى لمن يستشفّون سنى الفجر، في حلكة الليل!

العذراء وقيامة يسوع

وحدها مريم كانت واثقةً من قيامة يسوع. وفي حين خاب أَمل معظم التلاميذ، ظلّت نفس مريم، رغم ضراوة أَلمها، من جرّاء آلام ابنها، ورغم ما عاناه من إِذلالٍ ومهانةٍ، وما بدا فشلاً ذريعًا، سابحةً في لجّةٍ من الرجاء والإِيمان بأَنّ كلّ تلك المعاناة لم تكن سوى جزءٍ من ضريبة الفداء الذي، في سبيله، تجسّد ابنها. وكانت موقنةً بأَنّ رسالته ستبدأ تتحقّق إِثر قيامته التي كانت مؤمنةً بحدوثها في اليوم الثالث، وفقًا لما كان قد أعلن. في العتمة السائدة، طاب لمريم أَن تؤمن بالنور.

ومع أَنّ الأَناجيل ذكرت ظهور القائم من القبر لتلاميذه وللمجدليّة، ولتلميذَيْ عمّاوس، ولسواهم، إِلاّ أَنّها لم تذكر شيئًا عن ظهوره لأُمّه. غير أَنّ ظهوره لها، قبل أَيٍّ آخر، يكاد يكون موضع إِجماعٍ. فتلك التي وقفت، بجرأةٍ وثباتٍ، عند أَقدام صليبه، وشاركته آلامه، كانت الأَوْلى بعزاء قيامته. وقد أُعطيت امتياز مشاهدة هذه القيامة، بالروح، لحظة حدوثها، وضمّ جسده الممجّد إلى صدرها، في حين هو حظر على المجدليّة لمسه.

أُولى خفقات قلب يسوع الممجّد، قاهر الموت، كانت للآب، ثمّ لأُمّه مريم. ولذلك لم تحتج العذراء إِلى دليلٍ حسّيٍّ كي تؤمن بقيامة ابنها، فقد عاشت هذه القيامة في أَعماق كيانها، لحظة حدوثها.

كانت تحيا سرّ القيامة في صمتٍ مقدّسٍ، مطلقٍ، ولكأَنّها لم تعد من هذا العالم. كانت توّاقةً إِلى اللحاق بابنها، ولكن خاضعةً بتواضعٍ لمشيئة الآب، وتحيا، أَكثر من أَيّ وقتٍ، حياةً كلّها حبٌّ، يسبغ عليها الحبُّ السلامَ، وتتجلّى في الحبّ، وفي اتّحادٍ وثيقٍ مع الناهض من الموت الذي أَمسى حضوره في حياتها أَعمق وأَكثف. وبما أَنّ يسوع بات في حضن الآب، فقد أَدخلها اتّحادُها بيسوع إِلى صميم قلب الآب.

المجدليّة راحت تبحث عن يسوع حيث لم يعد موجودًا. أَمّا أُمّه العذراء، فكانت تواكبه بقلبها حيث كان هو حقًّا. وعندما ردع يسوع المجدليّة عن لمسه، كان يدعوها إلى حبٍّ روحيٍّ متجرّدٍ مثل حبّ أُمّه له، وإلى نشدانه لدى أَبيه السماويّ، بروحه وبجسده الممجّد، المنعتق من قيود المادّة.

عقب ليلةٍ أُخرى مثقلةٍ بالأَلم، ومع دنوّ انبثاق فجر الأَحد، أَخذ يحلّ، في نفس مريم، محلّ الذكريات المفجعة، صدى نبوءة يسوع: في اليوم الثالث سينهض ابن البشر من القبر. وشرع يسود في داخلها السلام والرجاء.

وفي فجر ذلك اليوم، وقف يسوع المنتصر على الموت أَمام أُمّه، حيًّا، رائعًا، مشرقًا، سعيدًا، كما لم ترَه يومًا، من قبلُ. وحيّاها بتلك النبرة العذبة التي طالما خفق لها قلب الأُمّ. هذا التلاقي، إِثر غياب ثلاثة أَيّامٍ، ذكّرها بلقاءٍ آخر، لثماني عشرة سنةً خلت. ولكنّها، في هذه النوبة، لم تسأله: «**لمَ فعلت هكذا؟**»، فقد كانت شريكته في كلّ ما حدث، في آلامه، وصلبه، وفدائه.

ثلاثون سنةً من القلق، وثلاثة أَيّامٍ من الاستشهاد المضني أَمست من الماضي الغابر، وها إِنّ أَفراحًا لا توصف ستغمرها، وستغمر مختارين لا يُحصى عديدهم، هم أَبناءٌ لها، حملتهم ووضعتهم في الآلام.

ويُرجّح أَنّ الربّ ظهر لأُمّه مرّاتٍ عديدةً، ظهوراتٍ خاصّةً، وظهوراتٍ أُخرى اشتركت بها مع سائر التلاميذ. فقد كان يُعدّها لتكون أُمًّا للكنيسة التي كانت تولد حينذاك، والتي سيغيب عنها بجسده.

الصوفيّة الفرنسيّة، «مارت روبان»، التي كُرّمت بحفر سمات جراح المصلوب في جسدها، أُعطيت أَن تشهد صباح القيامة، وروت ما رأت بقولها: «في تلك اللحظة، وفيما كانت مريم تنهض، ظهر يسوع بجسده القائم من الموت، يواكبه ملاكان... وخاطبها ببضع كلماتٍ كي يبلّغها أَين ومتى سيراها ثانيةً، ثمّ دنا منها، وأَراها يدَيْه الإِلهيّتين، اللّتين كانت ثقوب جراحهما تتأَلّق تأَلّق شموسٍ، وإِذ همّت بالسجود بُغية تقبيل قدميه، أَخذها بيديه كلتيهما، وأَنهضها برفقٍ، وقبّل جبينها طويلاً، ثمّ توارى».

وإِن صمتت الأَناجيل حول تلك المبادرة، فلأَنّ الإِنجيليّين قد رموا من وراء رواية ظهورات يسوع المختلفة، إلى تدعيم إِيمان العالم بقيامته التي تثبت أُلوهته، في حين

أَنّ ظهوره لأُمّه كان يبدو بَدَهيًّا، ولا يقدّم، في هذا المضمار، أَيّ مزيدٍ. لقد بدا لهم ذكر ظهور يسوع لأُمّه، إِثر قيامته، نافلاً. فإِن كان ظهوره لتلاميذه ضروريًّا لإِعادة ترسيخ إِيمانهم الذي اهتزّ، بل تلاشى، بعد رؤيتهم كلّ ما حلّ بمن كانوا يثقون بقدراته الكلّيّة، فمريم لم تكن بحاجةٍ إلى ظهور ابنها لها، لاستعادةِ إِيمانٍ ظلّ، رغم الصلب والدفن، حيًّا، صامدًا، لم يتزعزع.

ولو ذكر الإِنجيليّون ظهور يسوع القائم من الموت لأُمّه، لما خدموا، في شيءٍ، عقيدة قيامته. وربّما كان صمتهم من باب الخَفَر، مثل صمت الإِنجيليّ يوحنّا حول تأسيس سرّ الإِفخارستيّا.

بإِيمانها الوطيد، كانت مريم روح الكنيسة الناشئة التي التأمت من حولها، ومنها استمدّت الرجاء والعزيمة. وقد ترتّبت على مريم مهمّة تربية رجالٍ كهولٍ، رسلٍ وأَساقفةٍ، وبثّهم الروح المسيحيّ الحقّ. لم تكن تمتلك سلطةً، ولا هي رغبت في امتلاكها، ولكنّها كانت تمتلك التأثير والإِشعاع، وكان حضورها كافيًا لتغيير النفوس. ولم يكن التلاميذ، في تلك المرحلة، في حاجةٍ إلى سلطةٍ، بقدر احتياجهم إلى تأثيرٍ نفسيٍّ، وهذا التأثير وفّرته مريم، بحضورها الكثيف الإِشعاع، وبمثالها الرائع.

كان بطرس هو الذي يتولّى زعامة الجماعة، ولكنّ تأثير مريم الروحيّ كان، هو المهيمن، كما يحدث في أُسرةٍ فقدت ربّها، وتولّى فيها الابن البكر زمام القيادة، غير أَنّ الأُمّ المحبّة، التي يُجمع الكلّ على احترامها، فهي، بمجرّد حضورها، تُبقي الأَبناء في الوحدة والسلام، والوفاء لمبادئ الراحل العزيز.

لم تكن مريم في حاجةٍ إلى نظريّاتٍ لاهوتيّةٍ تتّسم، حتمًا، بالتجريد، كي تبلّغ الآخرين هوّية يسوع، ولكنّها كانت تمتلك، في يسوع الحيّ، الذي تحياه في أَعماق كيانها، جوهر ما ستنتهي إِليه تأمّلات بولس ويوحنّا حول لاهوت يسوع.

في تلك المرحلة باحت مريم للتلاميذ بسرّ التجسّد، كي يدركوا، حقًّا، طبيعة يسوع ويبشّروا بها. حينئذٍ أَدركوا سبب تسميته لهم، بعد قيامته، «**إِخوة**»، هو الذي كان أَبوه في السماء، وأُمّه على الأَرض. فكونهم إِخوته يدخلهم في علاقةٍ حميمةٍ، ليس معه ومع الآب، فقط، بل أَيضًا مع أُمّه.

وتجلّى لهم، بكلّ ضيائه، نور لقب «امرأة» الذي أَطلقه يسوع على أُمّه في قانا

وفي الجلجلة، فهي، فضلاً عن كونها والدته، كانت، بامتيازٍ، المرأة التي أشركها معه، في تحقيق الفداء.

صمتت العذراء طويلاً حول حَبَلها الإلهيّ، ثمّ باحت به بوحًا مفاجئًا، إذ كانت قيامة يسوع المصلوب قد أعدّت الأذهان لتقبّل الواقع المعجز، وأكّدت أُلوهة من لا يليق به سوى ولادةٍ من عذراء.

إثر عودة يسوع إلى السماء، لم يعُد لحياة مريم على الأرض أيّ طعمٍ، ويمكن القول إنّها قد ماتت جسديًّا. بل يمكن اعتبار ما تبقّى لها من أيّامٍ، مدّةً إضافيّةً، لا تخصّها، بل تخصّ تلاميذ ابنها. كانت تشعر مثل شعور بولس الذي باح لأهل فيليبّي أنّه يؤثر الموت، ولكنّه يريد أن يبقى من أجلهم، أو مثل شعور زوجةٍ فقدت بفقدانها شريك حياتها، كلّ رغبةٍ في الحياة، ولكنّها تريد البقاء حيّةً من أجل أبنائها. إنّه شعور من أنهوا عبورهم، والذين ما عادت أعمالهم تضيف إلى مجدهم شيئًا، ومع ذلك، يمكثون بين ظهرانينا، من أجلنا، لا من أجل ذواتهم. كان يسوع يقطن في أُمّه، غير أنّها كانت مضطرمةً توقًا إلى لقائه.

ومع ذلك، لم يَشِخْ أحدٌ مثل مريم، متجدّدًا، كلّ يومٍ، شبابًا، مكتسبًا كلّ يومٍ، مزيدًا من سلامٍ، متحرّرًا من كلّ خوفٍ. كانت تسير، كلّ يومٍ، نحو طفولةٍ جديدةٍ دائمةٍ.

ومن الملاحظ أنّها، في ظهوراتها، على مدى الأجيال، تتراءى دائمًا في شكل فتاةٍ، وهي الصورة الأكثر مطابقةً للدائمة الشباب، الأبديّة الجدّة. كانت تمضي نحو الموت، وكأنّها ماضيةٌ نحو نضجٍ متّقدٍ، ونحو امتلاءٍ رشيقٍ.

عندما كانت تتناول الأسرار الإفخارستيّة من يد يوحنّا، كان يحدث سرٌّ فريدٌ. فجسد يسوع ودمه الممجّدان اللّذان يشترك بهما المؤمن البسيط، هما ثمرة جسدها؛ ومن ثمّ كانت الإفخارستيّا تقيم، بين يسوع وأُمّه، حضورًا متبادلاً، قشيبًا، فذًّا، يتعذّر وصفه.

أَحداث حياتها المتعاقبة كانت تبرز، يومًا إثر يومٍ، كلّ ما تنطوي عليه من وقائعَ إلـهيّـةٍ، فيتعمّق إدراكها لسرّ ابنها اللامحدود، والذي لم تستوعبه، منذ البدء، دفعةً واحدةً. فالذي حدث فيها كان أكثر بساطةً، وفي الآن عينه، أكثر تفوّقًا على

الطبيعة ممّا أَوحت به النبوآت التي أَنبأت بملك مجدٍ، فإِذا به ولدٌ فقيرٌ، وإِذا به الله عينه: إِفراطٌ في الوضاعة، وإِفراطٌ في السموّ. ميزة يسوع أَنّه أَجبر الفكر البشريّ على تفسير كلّ شيءٍ تفسيرًا جديدًا، وفقًا لشخصه. فألوهته تجاوزت كلّ توقّعٍ، ولاسيّما أنّه، لكي يكون تجسّده كاملاً، حرص على إِخفاء هذه الأُلوهة طويلاً، وعلى الظهور بمظهر الإِنسان العاديّ الذي يُدهش بأيّة موهبةٍ خارقةٍ، إِلى أَن باشر تعليمه العلنيّ. ومع ذلك كانت مريم تستشفّ فيه الكائن الذي هو، حقًّا، علّة الوجود، ومركز كلّ شيءٍ، ومنه تستمدّ الأَشياء كلّها المناعة والحياة، والكيان، كائنًا هو أَلِف الخليقة وياؤها، وهو غاية الوجود، صنع كلّ شيءٍ، وكلّ شيءٍ صُنِع من أَجله. ما علّمه بولس للأفسسيّين، كانت مريم تعلّمه خيرًا منه، فضلاً عن ارتباطها بهذا الكائن ارتباطًا فريدًا، لا يقاسمها فيه أَحدٌ، ارتباطًا جعل منها محور التاريخ، وملتقى عهدين: عهدٍ عتيقٍ انتهى معها، وعهدٍ جديدٍ استهلّته بحملها ابن الله.

أمّ الكنيسة

يتّضح من رواية سفر أعمال الرسل أنّ مريم كانت نواة الكنيسة الناشئة، وأَنّ الرسل كانوا يلتفّون حولها للصلاة، بانتظار حلول الروح القدس عليهم، بحسب وعد يسوع لهم قبل صعوده إلى السماء.

في مستهلّ رسالة يسوع، كانت مريم قد ولّدت إيمان التلاميذ، في قانا، وفي الجلجلة أَقامها يسوع أُمًّا روحيّةً لهم، ولعامّة المسيحيّين، والعضو الأَوّل في الكنيسة.

وعقب قيامة يسوع ظلّت مريم داعمةً لإِيمان التلاميذ، ومنعشةً له، ونهضت بمهمّتها الجديدة، أُمًّا للكنيسة وللمؤمنين الذين تشاركهم إِيمانهم، وصلواتهم، وخبزهم، وتساندهم بحضورها في الساعات القاتمة.

تلك التي كانت، في بيت لحم، قد وضعت جسد ابن الله البشريّ، أَشرفت، في العلّيّة، على ولادة جسده السرّيّ. يقول البابا بيّوس الثاني عشر: «لقد أَحاطت مريم جسد المسيح السرّيّ، المولود من قلب المخلّص المطعون، بنفس العناية الأُموميّة الساهرة، وبنفس الحبّ المضطرم اللّذيْن أَدفأت بهما، وأَرضعت الطفل يسوع في المغارة».

إِثر صعود ابنها إلى السماء، كانت تتمنّى أَن تلحق به، فالحياة، بعيدًا عنه، شديدة القسوة. غير أَنّ رسالتها على الأَرض لم تكن قد اكتملت، بعدُ. فقد كان عليها أَن تسهر على انتشار الإِيمان بابنها، وأَن تبقى، فترةً، إلى جانب التلاميذ، فتطلعهم على ما كانوا لا يزالون يجهلونه، وتبدّد شكوكهم، وتساندهم في مِحَن الاضطهادات التي تعرّضوا لها، وتعزّيهم، وتشدّد عزيمتهم على بذل ذواتهم، في سبيل مجد الله.

وفي العلّيّة، كانت صامتةً تصلّي، متواضعةً، مثل أَيٍّ من المصلّين المنتظرين حلول الروح، بمنأًى عن أَيّة محاولةٍ للتميّز عنهم، بفضل امتيازاتها وكراماتها الفريدة.

وفي العنصرة حلّ الروح القدس على التلاميذ، وحلّ على مريم للمرّة الثانية، فهو كان قد سكن نفسها، ساعة البشارة. حلّ عليها كي يكمل تحويلها إلى أُمٍّ للكنيسة، كنيسةٍ هي امتدادٌ ليسوع، وُلدت في ذلك اليوم، وأَخذت تنمو نموًّا مدهشًا. ففي أورشليم عينها، حيث كانت مريم قد سمعت، لسبع أَسابيع خلت، صيحاتٍ مشحونةً بالحقد، تجأر: «**ارفعه، اصلبه**»، انضمّ إلى جماعة المصلوب ثلاثة آلاف مؤمنٍ جديدٍ، في يومٍ واحدٍ، ثلاثة آلاف ابنٍ جديدٍ لها، قادمين من كلّ بقاع المسكونة، سيمضون حاملين إلى جميع الأُمم اسم ابنها وحبّه. لقد جعلها الروح أُمًّا لجماهير غفيرةٍ من البنين والبنات، دفعةً واحدةً.

لم يمنحها الروح القدس مواهب جديدةً، بل منحها ذاته، جاعلاً قلبها، أَكثر من أيّ يومٍ، مسكنه وهيكله، والمكان الذي يجب أَن يرتاح فيه. وبما أَنّ الروح القدس هو الحبّ المتبادل بين الآب والابن، فقد وثّق علاقة مريم الشخصيّة مع ابنها ومع الآب، فغدت العذراء، في تلك المرحلة الأَخيرة من حياتها، كامنةً كلّيّةً في اللّه، ممّا أَضفى على كلّ أَعمالها لمسةً إِلهيّةً، محبّةً، غنيّة الخصب.

لم تكن، هي، زعيمة الكنيسة، بل كانت أُمّها. التلاميذ كانوا يبشّرون، ويعمّدون، ويثبّتون، ويُجرون المعجزات، ويكتسبون ليسوع ألوف الأَتباع، وهي كانت تصوغ، بصمتٍ وعذوبةٍ، نفوسهم، وتعلّمهم كيف يفكّرون، ويشعرون، ويريدون، على غرار ابنها.

في الفترة الممتدّة بين الصعود والعنصرة، كان التلاميذ، في مدرسة العذراء، وفي حضورها، كي يحيطوا بسرّ قلبها المتواضع والمتألّم. وقد أَعدّتهم لتقبّل عطيّة الروح.

كانوا في حاجةٍ إِلى حضورها، ومثالها، وسلامها، كي يظلّوا متّحدين في الانتظار، رغم خوفهم. كانوا في حاجةٍ إِلى الذي مات وقام كي يتلقّوا ملء الروح القدس الذي سيرسل للكرازة بالإِنجيل، ولغرس الكنيسة في العالم أَجمع.

وبمثابرتها على الإِفخارستيّا حتّى انتقالها للانضمام إِلى ابنها، جعلت السرّ الفصحيّ حاضرًا في الكنيسة، بكلّ أَبعاده الروحيّة، وفي ذراه الصوفيّة.

بادئ الأَمر عاشت مع يوحنّا في أورشليم التي سمعت تعليم ابنها، وشهدت مجده ومهانته، ومعجزاته، وآلامه وصلبه، وانتصاره على الموت. أَمسِ، كانت في الجلجلة

حيث ظنّ أَعداء ابنها أَنّهم نسفوا كلّ ما فعل، وها هي، اليوم، تشهده ينهض بقدرةٍ وتألّقٍ غير معهودين.

التلاميذ يبشّرون، ومريم تصلّي، والكنيسة تنمو، والمعجزات تتكاثر، ومريم تشهد تحقيق وعود يسوع لتلاميذه.

وكانت تثلج صدرها، فوق كلّ شيءٍ، تقوى أَبنائها، ووحدة قلوبهم ونفوسهم، وعيشهم أُسرةً واحدةً، متضامنةً، والتئامهم كلّ مساءٍ، من أَجل كسر الخبز الذي كان يذكّرها بأَسرار حياتها الكبرى.

لم يعد ممكنًا إِيلام جسد المسيح الممجّد، ولكنّه يتألّم في جسده السرّيّ، في تلاميذه الذين كانوا يتعرّضون للاضطهاد والتنكيل. وكلّ ما كان يمسّ أَحدهم كان يدمي قلب الأُمّ. بيد أَنّ كلّ أَلمٍ بات ينبئ بنصرٍ جديدٍ.

كانت مريم تصغي باهتمامٍ إِلى يوحنّا، وهو يروي لها، كلّ يومٍ، ما يحدث لبطرس وله من خوارق، مثل سجنهما والإِفراج السماويّ عنهما. كان يؤلمها اتّساع رقعة اضطهاد أَتباع ابنها؛ وتوجّعت لمصرع استيفانُس، ولكن أَسعدها انتشار التلاميذ، وتبشيرهم حيثما مضوا، كما أَسعدها اكتساب تبشير فيلبّس في السامرة، من الأَتباع، ما حمل بطرس ويوحنّا على المثول إِلى هناك، لتثبيت المؤمنين الجدُد، ونفحهم عماد الروح القدس.

وكم سعدت بانتصار ابنها في دمشق، حيث حوّل أَشرس مضطهدٍ للكنيسة إِلى أَعظم مبشّرٍ بيسوع، في شخص شاول الذي أَصبح بولس الرسول! ولا ريب أَنّ برنابا قد جاءها ببولس، فباركته، وشكرت للآب بعثه هذا الرسول الجديد الذي كان يبشّر بابنها بحرارةٍ، وجرأةٍ، وفهمٍ، ونجاحٍ، منقطعة النظير.

عندما سُجن بطرس، صلّت مع الجماعة بحرارةٍ، فأَنقذه ملاكٌ، «**وانتشرت كلمة الله...**».

في حجرتها الوضيعة في بيت يوحنّا، وبصلواتها المتواصلة، كانت العذراء تتأهّب للدور الذي لن تلبث أَن تلعبه، وهي على عرش المجد في السماء، بصفتها الوسيطة الشاملة بين الله والبشر.

وما أَسعد الذين اقتربوا من منهل الطهر ذاك، في أَيّام مريم الأَخيرة على الأَرض!

فقد كان جميع الرسل، والمسيحيّين الجدُد، وخدّام الكنيسة، وكذلك الشبّان والشابّات الراغبون في وقف حياتهم على خدمة الربّ، والأرامل المكرّسات لخدمة الكنيسة، كانوا جميعهم، عندما يوافون أورشليم، يهرعون لالتماس بركتها. وكان الآباء والأُمّهات يلتمسون بركتها لأَطفالهم، وفي هؤلاء الأَطفال، كانت، هي، تتوسّم صورة ابنها، فتضمّهم إلى قلبها، وتطبع قبلاً طاهرةً على جباههم المشرقة.

وكم كان الجميع يجلّونها عندما توافي مع يوحنّا إلى الاجتماعات الإِفخارستيّة! وكم كانت تشعّ عذوبةً، وجمالاً سماويًّا! فقد تجمّعت فيها كلّ عناصر الجمال: طبيعةٌ فريدة التناغم، وطهرٌ يربو على طهر الملائكة، وحبٌّ آسرٌ، وقداسةٌ فائقة السموّ، وألمٌ بلا حدودٍ، محتملٌ بجرأةٍ بطوليّةٍ. كلّ ذلك كان يجعل منها إِيقونةً سماويّةً. وفضلاً عن ذلك، كانت مرآةً لوجه يسوع، لوداعته، ولرقّته، ولحبّه، ولجاذبه الآسر للنفوس، بحيث لا يملّ المرء من تأمّلها.

وفضلاً عن صلواتها، وتشجيعها، وإِرشادها، وقدوتها، كانت تكمل تعليم التلاميذ، بكشفها النقاب عن سرّ التجسّد الذي كانت قد أَودعته مكمن قلبها، وقد حان الأَوان لإِعلانه على الملأ.

وكم من الساعات الحميمة قضتها مع يوحنّا، تلميذ ابنها الحبيب، ولا حديث لهما إِلاّ عن يسوع! يوحنّا كان يسرد لها ما حفظته ذاكرته من أَقوال المعلّم وأَفعاله. وهي كانت تكشف له حبّ الله الذي لا يُسبَر له غورٌ. وكلاهما كانا يزدادان حبًّا ليسوع وفهمًا. ولئن كان يوحنّا المضطرم غيرةً واندفاعًا بحيث دعاه يسوع «ابن الرعد»، قد أَمسى رسول الحبّ، ولاهوتيّ الأَسرار الإِلهيّة الفذّ، فهو مدينٌ بهذا التحوّل ليسوع ولأُمّه.

ولكن مع كلّ ما أُحيطت به من محبّةٍ وتكريمٍ، كانت مريم لا تني تذوب توقًا إِلى لقاء ابنها، وتزداد، كلّ يومٍ، رغبةً في الاتّحاد به، مردّدةً باطّرادٍ: «**آمين! تعالَ أَيُّها الربّ يسوع**»!

انتقال العذراء

ليس، في الكتب القانونيّة، ما يشير إِلى انتقال العذراء، بالجسد إِلى السماء.

غير أَنّ هذا الواقع يؤكّده تقليدٌ عريقٌ يعود إِلى أَيّام الرسل، ومعطياتٌ نفسيّةٌ، وكتابيّةٌ، ولاهوتيّةٌ عديدةٌ.

فبعض الرسل، ولا سيّما يوحنّا، كانوا شهودًا، على خلوّ قبر العذراء من الجثمان الذي أُودِع فيه، وكان هذا الأمر شائعًا، وموضع إِيمانٍ سائدٍ.

وقد استخلص المؤمنون واقع هذا الانتقال من الميزات التي خصّ بها يسوع أُمّه. فانتقالها بالجسد هو نتيجةٌ طبيعيّةٌ لفضائلها الكبرى، ولتنزّهها من كلّ خطيئةٍ.

القدّيس إِيبيفانُس، الفلسطينيّ، ووريث التقاليد المسيحيّة الأولى، كتب، في القرن الرابع: «لقد اعتصمت الكتب المقدّسة بالصمت (حول مصير مريم)، لأَنّ جسامة المعجزة التي خُصّت بها، كانت كفيلةً بإِغراق الفكر البشريّ في الذهول».

وفي القرن السادس، كان الإِيمان بانتقال العذراء من المسلّمات، وموضع تعظيم الشعب المؤمن، وقد انعكست هذه التقوى الشعبيّة في الأَناجيل المنحولة، التي أَسهبت في سرد التفاصيل عن انتقال العذراء، ومنذئذٍ بات يُحتَفَل بعيد الانتقال في ١٥ آب من كلّ سنة، وغدا من أَكثر الأَعياد شعبيّةً.

وتجسيدًا لهذا الإِيمان الراسخ أَعلن البابا بيّوس الثاني عشر، في ١٩٥٠/١١/١ عقيدة انتقال العذراء، جسدًا ونفسًا، إِلى السماء، وخلاصة إِعلانه أَنّ «مريم، أُمّ الله، المنزّهة من الدنس والدائمة البتوليّة، بعد أَن طوت شوط مسيرة حياتها الأَرضيّة، رُفعت إِلى السماء، جسدًا ونفسًا».

وتأكيدًا لهذه العقيدة قال، في مناسبةٍ أُخرى: «فلنتوسّل أُمّ جميع أَعضاء المسيح الكلّيّة القداسة التي تتأَلّق الآن في السماء بمجد جسدها ونفسها مع ابنها...»

وبسبب تعذّر التئام مجمعٍ مسكونيٍّ، في ذلك الوقت، من أَجل إِقرار هذه العقيدة، عمد البابا المذكور إلى استشارة ١١٩١ أُسقفًا، في أَقطار العالم كافّةً، فعبّر ستّةٌ منهم فقط عن بعض شكوكٍ، وستّة عشر آخرون ارتأوا إِرجاء الإِعلان، بحجّة أَنّ من شأن إِصداره، في ذلك الوقت بالذات، الإِساءة إلى الحوار المسكونيّ القائم آنذاك.

ومن الحجج التي أَوردها المستشارون لتبرير تأييدهم إِعلان انتقال العذراء:

١ – مع أَنّ الموت هو ثمرة الخطيئة، ولا سلطان له على مريم، التي وحدها، من البشر، كانت منزّهةً من الخطيئة، إِلاّ أَنّ العذراء ابتغت التمثّل بابنها الذي خَبَر الموت، مع أَنّه، هو أَيضًا، كان براءةً خالصةً، ولكنّ الحبّ دفعه إلى تذوّق الموت. ومريم، أُمّنا وأُختنا، حرصت على اقتسام مصيرنا بكلّ مرارته وحلاوته، لكي تقدّس الموت الذي لا ينجو منه أَحدٌ.

٢ – ومثلما تمثّلت العذراء بابنها في موته، جعلها ابنها تتمثّل به في قيامته. وكان انتقالها بالجسد إلى السماء «هبةً خاصّةً من يسوع لأُمّه»، وفق قول البابا يوحنّا بولس الثاني. فمن جسد العذراء استمدّ ابن الله المتأنّس جسده البشريّ. وهل يُعقل أَن يتفسّخ الجسد الذي منح إِله كلّ حياةٍ، حياةً بشريّةً، وأَن يتحوّل مسكن الحياة الإِلهيّة إلى جثّةٍ معرّضةٍ للفساد؟ وكيف لهيكل الخالق نفسه حيث أَصبح الله عمّانوئيل، «الله معنا»، أَن يتعفّن على أَرضنا؟ من المؤكّد أَنّ الربّ لم يكن ليدع قدّوسته ترى الفساد؟

قال القدّيس أمبروسيُس، في هذا الشأن: «ليس جسد العذراء جسد موتٍ، بل هو جسد حياة. ليس جسدها ظلَّ موتٍ، بل هو بهاء مجدٍ... هذه هي نعمة المسيح: منذ التجسّد، أَخذ يتألّق هذا الجسد الذي كان ظلَّ موتٍ، ويتلقّى سنًى سيتميّز به بعد الآن».

وقد جاء في مقرّرات المجمع الفاتيكانيّ الثاني (الفصل ٥٩): «إِنّ العذراء الطهور، بعد أَن عصمها الله من كلّ صلةٍ بالخطيئة الأَصليّة، وطوت شوط حياتها الأَرضيّة نُقلت، جسدًا وروحًا، إلى مجد السماء، وأَعلنها الربّ سلطانة الكون، كي تحاكي، بذلك، أَكثر ما تكون المحاكاة، ابنها، قاهر الخطيئة والموت».

وإنّما كان البابا بيّوس الثاني عشر، بإعلانه هذا، يكرّس تقليدًا راسخًا عريقًا، منذ القرون المسيحيّة الأولى. فقد تحدّث عن هذا الانتقال آباء كثيرون، وكانت الكنيسة، منذ القرن الخامس، تقيم عيدًا سنويًّا احتفالاً بهذا الحَدَث الفريد.

وقد أشار القدّيس يوحنّا الدمشقيّ إلى «تقليدٍ قديمٍ، صحيحٍ جدًّا»، في هذا الشأن، يروي أنّ الرسل الذين كانوا، ساعة رقاد العذراء، منتشرين في العالم، من أجل خلاص البشر، حُملوا جميعهم، في آنٍ واحدٍ، في الأجواء، وجُمعوا في أورشليم، حول أُمّ الله. وهناك تراءت لهم رؤيا سماويّة، إذ إنّ العذراء، وسط أناشيد ملائكيّةٍ، أسلمت نفسها القدّوسة بين يدي الله، في حين أنّ جسدها الذي كان قد تلقّى الله نفسه كي يلده لنا، نُقل، وسط أناشيد الملائكة والرسل، وأودع قبرًا في الجتسماني.

وبعد ثلاثة أيّامٍ وافى القدّيس توما الذي لم يُتَحْ له أن يشهد انتقال الجثمان المقدّس، وانضمّ إلى إخوانه، أمام القبر المقدّس، طالبًا فرصة تأمّل هيكل الله هذا، وتكريمه للمرَّة الأخيرة. وفُتح القبر، ولكنّه لم يكن يحتوي الجثمان، بل وُجدت فيه، فقط، الأغطية التي كان قد لُفّ بها، والتي كانت تنفث، إلى مسافاتٍ بعيدةٍ، شذا الفردوس. أمام هذا السرّ تملّكت الدهشةُ الرسلَ. ولم يخطر ببالهم سوى أنّ ذاك الذي تنازل فاستمدّ جسدًا من أحشاء مريم النقيّة، كلمة الله وسيّد المجد، لم يشأ أن يمسّ فسادُ ذلك الجسد العذريّ، وقد طاب له أن ينقله، بكلّ نقائه، إلى ديار المجد، مثلما هو كان قد صعد بجسده إلى السماء، وأن يعفيه من انتظار قيامة الأبرار العامّة...

وثمّة روايةٌ أُخرى تقول إنّ يسوع انحدر في موكبٍ من الأرواح الملائكيّة التي لا تُحصى إلى جانب فراش أُمّه، واستصحب نفسها إلى السماء. ولكنّ توما لم يكن حاضرًا، فيشهد هذا الموت المغبوط، ويواكب الجثمان المقدّس إلى اللحد. ولكنّه أُعطي مشاهدة هذا الجثمان محلّقًا في الجوّ، حيًّا وممجّدًا، إذ كان عائدًا من الهند، لدى وصوله إلى جبل الزيتون. وهناك ألقت أُمّ الله، بين يديه، بالزنّار الذي كان الرسل قد منطقوها به. وجاء الرسل بتوما إلى القبر، فقال لهم إنّهم لن يجدوها فيه، لأنّها غادرته، وروى لهم رؤياه، وأراهم زنّارها، دليلاً على صدق روايته. وأزاح الرسل الحجر عن القبر، فوجدوه خاليًا، ومجّدوا الله. ثمّ أُعيدوا، على متن الغمام، إلى حيث كان الملائكة قد جاؤوا بهم.

من الملاحظ أنّ إعلان البابا بيّوس الثاني عشر، لم يأتِ على ذكر موت العذراء الذي ينكره بعض اللاهوتيّين، مؤكّدين انتقالها، وهي على قيد الحياة، إلى السماء. بيد أنّ معظم اللاهوتيّين يرجّحون أنّها ماتت، لكيلا تتميّز، بذلك، عن ابنها، على حدّ قول البابا يوحنّا بولس الثاني: «بما أنّ يسوع مات، فمن الصعب تأكيد نقيض ذلك، في ما يتعلّق بأُمّه»، وقد رجّح أنّها، على غرار ابنها، قد خضعت للموت، ونعمت بالقيامة.

ويُرجّح أنّ موتها كان طبيعيًّا، انطفاءً، في سكونٍ وهدوءٍ. وقد سمّاه اللاهوتيّون الشرقيّون «رقادًا»، فيما سمّاه آخرون «امتيازًا»، ورأوا فيه تتويج امتيازاتها الأَقصى. إذ لا يمكن تخيّل أن يكون جسد العذراء، الذي لم يكن للخطيئة عليه سلطانٌ، يومًا، قد تعرّض للانحطاط، والوهن، والعجز. ومن ثمّ لم يكن موتها سوى ضربٍ من السبات الخاطف. كان ثمرة حبٍّ يلهب فيها رغبةً عارمةً في الانضمام إلى ابنها. ويرى البابا يوحنّا بولس الثاني أَنّها، باختيارها مصير عامّة البشر، بات يمكنها ممارسة أُمومتها الروحيّة، بجدوى فائقةٍ، حيال من يبلغون ساعتهم الأَخيرة.

في هذا السياق هتف بوسُّويه: «يا حبّ العذراء القدّوسة، إنّ كمالك لفائق السموّ! فلا يسعك المكوث في جسدٍ معرّضٍ للموت! إنّ نارك تطلق لهيبًا من الشدّة بحيث لا يسعه الخمود تحت الرماد، فامضِ، وتألّق في الأبديّة. امضِ واضطرم أمام وجه الله. امضِ واستلقِ في حضنه الرحب الكفيل، وحده، باحتوائك...

مثلما أنّ أدنى هزّةٍ تنتزع من الشجرة ثمرةً ناضجةً، هكذا اقتُطِفت تلك النفس المباركة كي تُنقَل مباشرةً إلى السماء. هكذا قضت نحبها العذراء الإلهيّة باندفاع حبٍّ إلهيٍّ، وحُمِلت نفسها إلى السماء على غمامة رغباتٍ قدسيّةٍ».

ثلاثة أَسبابٍ تجعل الموت مرهوبًا لدى عموم البشر: خوف الانسلاخ عن متاع الدنيا، وخشية عواقب الخطايا المرتكبة، والارتياب في إمكانيّة الخلاص. وقد عُصمت نفس مريم من أَسباب هذه الخشية كلّها، لا بل إنّها نعمت بامتيازاتٍ ثلاثةٍ، استعذبت معها الموت: فقد ماتت، مثلما عاشت، زاهدةً في كلّ متاعٍ دنيويٍّ، وناعمةً بسلام ضميرٍ لا يكدّره ندمٌ، وعلى يقين التمتّع بمجدٍ أَبديٍّ، تشارك به أَمجاد ابنها.

لم تعرف العذراء الشعور الذي وصفه ابن سيراخ بقوله: «**أيّها الموت، ما أشدّ مرارة ذكرك على الإنسان الناعم بالسلام وسط أمواله!**» (٤١ : ١) بل صحّ فيها قول صاحب الرؤيا: «الطوبى، منذ الآن، للأموات الذين يموتون في الربّ». (١٤ :١٣)

فقد تجرّدت العذراء من كلّ شيءٍ، منذ طفولتها. وفي السنّ التي يبلغ فيها تعلّق الأولاد بأبويهم أشدّه، اعتزمت ألاّ تعرف أبًا سوى الله. وقرّرت ممارسة الفقر، فتأكل خبزها بعمل يديها، واختارت حياة الخفية والإغفال. وطوال حياتها لم يعلق قلبها بأيّ حبٍّ أرضيٍّ، بل عاشت طليقةً، وكان تحرّرها يترسّخ يومًا فيومًا.

إنّ الخطايا المرتكبة على امتداد الحياة دودٌ ينخر نفوس الخطأة، ووجعٌ يُضني قلوبهم ساعة الموت. هذه الخطايا تواكبهم إلى منبر الديّان وترعبهم. ولكنّ مريم التي عُصمت من كلّ خطيئةٍ موروثةٍ أو فعليّةٍ كانت واثقةً من سماع ربّها يقول لها: «كلّك جميلةٌ يا حبيبتي، ولا عيب فيكِ». فحياتها كلّها كانت إمعانًا في حبّ الله، وفي اكتساب الكمال. الله وحده كان شاغل فكرها ورغباتها، وعواطفها. كلّ كلمةٍ، وكلّ حركةٍ، وكلّ نظرةٍ، وكلّ تنفُّسٍ فيها، كانت حبًّا بالله، وتمجيدًا له. وقد ازدحمت جميع الفضائل عند فراش رقادها، كي تواكبها إلى مجدها الأبديّ، حيث تجاور الإيمان الصامد، والثقة بالله المفعمة حبًّا، والصبر الجميل في حومة المِحَن، والتواضع السحيق وسط الامتيازات الفريدة، والبساطة المطلقة، والرقّة اللامتناهية، وحبّ النفوس المضطرم، والمحبّة الكاملة، والتوافق التامّ مع مشيئة الله.

كان موتها عذبًا، لأنّه كان انتقالاً من آلام الأرض إلى أمجاد السماء، وإلى الاتّحاد بابنها الذي لا يعقبه انفصالٌ. وكان ذلك يقينًا لديها لا يعكّره شكٌّ، فقد مُلئت نعمةً، ونالتْ حظوةً لدى الربّ، فكان عليها ألاّ تموت لأنّها لم ترتكب خطيئةً، أو أن تموت حبًّا بالله بلغ أوج اتّقاده، وتوقًا إلى لقاء ابنها.

ويرى بعض الصوفيّين، ومنهم القدّيس فرنسيس الساليزيّ، أنّها ماتت في انخطاف حبٍّ، ماتت «في الحبّ، بسبب الحبّ، ماتت حبًّا».

موتها كان نتيجة اندفاع حبٍّ إلهيٍّ، بمنأًى عن أيّ تحطّمٍ، أو عنفٍ، أو ألمٍ، وعلى حدّ قول بوسُّويه: «حُملت نفسها إلى السماء على غمامة رغباتٍ قدسيّةٍ، وتحوّل تأمّلها المحبّ الذي واكب حياتها إلى لقاءٍ فائقٍ، وجهًا لوجهٍ، وقلبًا لقلبٍ،

مدى الأَبديّة... المعجزة هي أَنّ مريم استطاعت الحياة منفصلةً عن حبيبها يسوع. وهي إِنّما بقيت حيّةً، لأَنّ تلك كانت مشيئة الله... ولكن بما أَنّ الحبّ الإِلهيّ كان يسود قلبها بلا عائق، فقد كان يتعاظم، يومًا فيومًا، إِلى أَن بلغ من الكمال ما باتت، معه، الأَرض، عاجزةً عن احتوائه. ومن ثمّ لست أَرى لموت مريم سببًا سوى اضطرام حبّها».

وقد جاء، في عظةٍ للكردينال نيومن، حول موت العذراء:

«مَن منّا، يا إِخوتي، يستطيع أَن يتخيّل أَنّ عرفان الله بجميل تلك الأُمّ التي منحته جسدًا قد يسمح له بأَن يدع اللحم والدم اللّذين استمدّ منهما جسده، يفنيان في لحدٍ؟ ومن يستطيع تخيُّل أَن يخضع لموت الخطأة ذلك الجسد العذريّ الذي لم يعرف الخطيئة؟ وهل كان على تلك التي لم تساهم في سقطة آدم أَن تشترك في لعنته؟ لقد ماتت، يا إِخوتي، لأَنّ ربّنا نفسه مات. ماتت مثلما تأَلّمت، لأَنّها كانت من هذا العالم، ولأَنّها كانت تحيا في ظرفٍ يحكمه الأَلم والموت.

«ولكن مع أَنّ مريم مرَّت عبر الموت مثل سائر البشر، إِلاّ أَنّها لم تمت مثلهم، لأَنّها كانت تنعم باستحقاقات ابنها، التي، بفضلها، أَصبحت ما هي عليه، وبنعمة المسيح الذي وقاها من الخطيئة، وملأها نورًا، وطهّر جسدها من كلّ لوثةٍ، واستثناها من المرض، ومن كلّ ما يوهن ويدمّر الجسد البشريّ. ولم تنهج فيها الخطيئة الأَصليّة دربًا نحو الموت، عبر تداعي الحواسّ، وتلف الجسد، وأَوهان العمر.

«ماتت، لكنّ موتها كان واقعًا، ولم يكن نتيجةً... ماتت كي تحيا. موتها كان إِجراءً، وإِن صحّ التعبير احتفالاً خارجيًّا غرضه أَداء ما يُدعى ضريبة الطبيعة. لم تمت، في المقام الأَوّل، من أَجل ذاتها، أو بجريرة الخطيئة، بل ماتت كي تخضع لطبيعتها، ولكي تمجّد الله، ولكي تقوم بما قام به ابنها، لا لكي تتأَلّم من أَجل غايةٍ خاصّةٍ، على غرار ابنها ومخلّصها. لم تمت موت الشهداء، فحياتها ذاتها كانت استشهادًا، ولم تمت كي تكفّر، فالخليقة البشريّة ليست مؤهّلةً للتكفير – وثمّة من نهض بهذه المهمّة عن الجميع ـ ماتت كي تنهي شوطها، وتنال إِكليلها.

«ولذلك ماتت في الخفاء. كان يليق بمن مات لأَجل العالم أَن يموت على مرأًى من العالم؛ وكان يليق بالضحيّة الكبرى أَن تُرفع عاليًا، مثل نورٍ يأبى التواري. أَمّا

مريم، زنبقة الفردوس، التي عاشت بمنأًى عن أَبصار العالم، فقد ماتت في ظلّ بستانٍ... واستمرّت الكنيسة منهمكةً بواجباتها الاعتياديّة، واعظةً، معلّمةً، متألّمةً. وكانت ثمّة، اضطهاداتٌ، وكان شهداء، وتحقّقت انتصاراتٌ. وأَخيرًا ذاع نبأ نأي أُمّ الله عن الأَرض، ووافى حجّاجٌ من كلّ صوبٍ، باحثين عن رفاتها، ولكنّهم لم يقفوا لها على أَثر.

«كان يخامرها شعورٌ عميقٌ بأَنّ مكانها الحقّ هو حيث يقيم ابنها، في السماء، وباتت تحيا، بكلّيّتها، في الآب السماويّ، بفضل الإِفخارستيّا التي كانت تتناولها من يد يوحنّا. كانت تتمنّى اللحاق بابنها فور صعوده، ولكنّ بقاءَها على قيد الحياة بضع سنواتٍ أُخرى، كان ضروريًّا لتدعيم الكنيسة الوليدة التي كانت لها المعزّية، والنموذج، والأُمّ. ومع ذلك كان قلبها حيث أَمسى كنزها، كان يقطن السماء. وفيما هي تسترجع ذكريات حياتها مع يسوع، منذ بيت لحم حتّى الجلجلة، كان لسان حالها يقول، مع صاحب المزامير: «**من لي بجناحٍ كالحمامة، فأَطير إِلى إِلهي، وأَجد لديه راحتي!**».

يسوع كان يقطن فيها، ومع ذلك كانت تزداد، كلّ يومٍ، شوقًا إِليه.

كانت قد ماتت فعلاً، عند أَقدام الصليب. ولكنّها، أَخيرًا، رقدت ولفظت نفسها الأَخير، في قبلة حبٍّ لابنها، وفي همسة صلاةٍ، مستجيبةً لنداء «تعالي إِليّ». ماتت حبًّا، وولجت في النور الذي ولدته. غير أَنّ جسدها الذي كانت كلّ أَوتاره في خدمة الحياة التي وُلدت منها، كان يقتضي القيامة، فهو، على غرار نفسها، كان بأَكمله مسكنًا ليسوع، وقد انتهى بالانضمام إِليه، كي يحيا حياةً خالدةً، كما يتّضح من ظهورات العذراء المطّردة.

انتقالها كان مقاسمة يسوع انتصاره على الموت، بقيامةٍ مسبَّقةٍ حمت جسدها من العودة إِلى التراب. الحياة لم تُنزَع منها، بل تحوّلت.

وبانتقالها إِلى نور المجد، باتت ترى نفوسنا كما يراها الله، رؤيةً شاملةً، أَكيدةً، واضحةً، دقيقةً، باتت تعرف ما دُعينا إِليه، وما نلنا من نعمٍ، وما سننتهي إِليه من مصيرٍ. تلك هي ميزة أُمومتها.

وكان موتها انتصار حبّها، وانتصار أُمومتها. وكان أَحد القدّيسين قد وضع على لسان يسوع مخاطبًا أُمّه هذا القول: «لن أَعتبر أَنّي مُجّدتُ بالقدر الكافي، ما لم تُمجّدي، أَنتِ نفسكِ، معي».

انتقالها بالجسد إلى السماء كان امتيازًا طبيعيًّا لمن دعاها رسول الله «**الممتلئة نعمةً**»، ولمن اختيرت لتكون أُمّ الله، ولمن وصفتها إليصابات متنبّئةً: «**مباركةٌ أنتِ في النساء**»، بل أكثر من كلّ النساء، للّتي لم يكن للخطيئة، وللشهوة، وللموت، سلطانٌ على نفسها.

قال القدّيس جرمانُس القسطنطينيّ: «كان من المستحيل أن يظلّ مسجونًا في لحدٍ ذلك الجسد البتوليّ، ذلك الإناء الذي أقام فيه الله نفسه، الهيكل الحيّ المقام لألوهة الابن الوحيد». ويقول مخاطبًا العذراء: «هل كان بوسعك أن تتحمّلي الفساد، وتتبدَّدي هباءً؟ صحيحٌ أنّكِ هجرت مقامك بين البشر، وإنّما كان ذلك كي تؤكّدي، بموتك، واقع سموّ سرّ الكلمة المتجسّد، أي لكي يتجلّى الله المولود منكِ إنسانًا كاملاً، ناجمًا عن امرأةٍ حقيقيّةٍ، وعن أُمٍّ حقيقيّةٍ... أليس لهذا السبب عينه، شاء ابنك، إله الأشياء كلّها، أن يذوق موت الجسد؟ ومن ثمّ فقد حقّق أمريْن مدهشيْن: أحدهما في لحده المحيي، والآخر في قبرك الذي أُعيدت إليه الحياة. فكلاهما تلقّيا جسديكما، ولكن لم يسلمهما أيٌّ منهما إلى الفساد...».

يسوع الذي قهر إبليس والخطيئة والموت، أشرك أُمّه في هذا الانتصار. وهي شاركته آلام الفداء، فاستأهلت أن تكون شريكته في قيامةٍ مسبّقةٍ.

يقول القدّيس ثيودورُس الستوديّ: «أيّتها العذراء، إنّني أراكِ نائمةً، ولا أراكِ ميتةً. لقد نُقلتِ من الأرض إلى السماء. غير أنّكِ ما برحت تحمين الجنس البشريّ... أُمًّا بقيت عذراء، لأنّ من ولدته كان الله. وهذا، أيضًا، ما يجعل موتك حيًّا، شديد التباين عن موتنا. أنتِ وحدكِ ظفرتِ بتنزّه الجسد والنفس من الفساد، وهذا حقٌّ».

ويقول الراهب يوحنّا موروب (Jean MAUROPE): «...أُمّ الله هذه هي ابنة الله، وعروس الله. هذه العروس هي عذراء، وهذه الملكة لا مطمح لها إلاّ أن تكون خادمةً... وها إنّ حياتها تهجر أرض الموت. وها هي ترتقي إلى السماء، تلك العذراء. سرّ السماوات، وموضع ذهول الملائكة، وقوّة البشر، ونموذج جنسنا، ورجاء المؤمنين، وأعظم، بلا قياسٍ، من كلّ كنزٍ آخر. إنّها، بتركها هذا العالم الفاني للمعرّضين للموت، تهاجر صوب الحياة التي ولدتها... إنّ سفينة المجد تصعد صوب الأعالي، ونبع النور، وكنز الحياة يمضيان إلى الحياة. وكم من الخوارق تواكب هذا الانطلاق، فالمسيح ينحدر من السماء في موكبٍ مجيدٍ من الفضائل، لملاقاة أُمّه.

انظروا إِليه يضمّ إِلى قلبه، بحبٍّ بنويٍّ، تلك التي طالما حملته، صغيرًا، على ذراعيها... تأمّلوا الملك آتيًا بالملكة، والابن آتيًا بالأُمّ، والمنزّه من كلّ لوثةٍ آتيًا بالعذراء، والقدّيس آتيًا بالقدّيسة، ومن يسود الخلائق كلّها آتيًا بمن هي أَسمى من كلّ خليقةٍ؛ السماء ترحّب بنفسٍ أَعظم من السماء، والملائكة يواكبون امرأةً أَرفع مجدًا من كلّ الملائكة...

«هل سيستحوذ الموت على بواكير الحياة، وهل سيقوى اللحد على الاحتفاظ بتلك التي، بولادتها المحيية، ستُفرغ القبور من ساكنيها؟... لا لم تحتفظ الأَرض بما هو سماويّ. ولم يغزُ الفساد ما لم يتعرَّض للدنس. النفس الكلّيّة الطهر مضت، أَوّلاً، وما عتّم الجسد المنزّه، هو أَيضًا، من كلّ فسادٍ، أَن لحق بها، محاطًا بنفس الأَمجاد، ومحمولاً بنفس الموكب المجيد، إلى الراحة الأَبديّة المقدّسة عينها».

قال القدّيس يوحنّا الدمشقيّ: «كان من الحقّ أَن تقيم الأُمّ في مدينة ابنها الملكيّة. وكم أَغدق عليها من أَمارات التكريم، ذاك الذي أَوصانا بتكريم والدينا!».

كان يسوع قد كرَّم أُمّه بامتيازاتٍ فريدةٍ: ولادتها بلا دنسٍ، عصمتها من الخطيئة، بتوليّتها الدائمة، عنايته البنويّة بها، وإِيكاله إِيّاها إلى تلميذه الأَثير يوحنّا، وهو يلفظ أَنفاسه الأَخيرة. ومن المؤكّد أَنّه كرّمها، في موتها، بنقلها إلى السماء نفسًا وجسدًا.

جسد يسوع هو من جسد مريم، فهل يغفل يسوع أُمّه، مهده، هيكله، ومنشأه، وفردوسه؟ هي كانت قد تقبّلته في قلبها قبل أَن تتلقّاه في أَحشائها، وكان من اللائق أَن يرحّب بها، في مجده، بجسدها ونفسها معًا.

جسد مريم وجسد يسوع واحدٌ. فهل ينقسم، ويقيم جزءٌ منه على الأَرض، والآخر في السماء، أَحدهما في سنى النصر، والآخر في حقارة القبر؟

نصاعة جسد التي حُبِل بها بلا دنسٍ، والتي ولدت الله، وبقيت عذراء، حالت دون عمل الفساد والفناء فيه. على حدّ قول «بوسُّويه»، كانت بتوليّتها حنوطًا مانعًا فساد جسدها. لا شيء في نفسها دنسٌ أو ملوّثٌ، فكلّ عضوٍ من أَعضاء جسدها كان يستجيب لمقتضيات طهر نفسها.

لذلك لم تلج العذراء إلى القبر إِلاّ لكي تودع فيه بشريّتها المعرَّضة للموت، وكي تنتقل مباشرةً إلى مجد ابنها، من غير حاجةٍ إلى فترة تطهُّر.

ويقول القدّيس يوحنّا الدمشقيّ أيضًا إنّ انتقال العذراء قد أشركها في كلّ ممتلكات ابنها لكي تكرّمها الخلائق كلّها التي أخضعها لها. وهو كان قد جعل منها سلطانة الخليقة كلّها، عندما جعل منها أُمّه.

كلّ النفوس الممجّدة في السماء مدينةٌ للعذراء بأكاليل مجدها. عندما تسجد هذه النفوس لملكها يسوع، فهي تسجد، في الآن عينه، للعذراء الجالسة إلى جانبه.

لقد أنفقت العذراء الفترةَ الممتدّة بين صعود يسوع إلى السماء وانتقالها، هي، إليها، في حالة تواصلٍ روحيٍّ دائمٍ مع ابنها، في الصلاة والتأمّل، والاتّحاد بالله، والارتقاء، في كلّ لحظةٍ، إلى قمم الحياة الصوفيّة، حياةٍ كامنةٍ في الله. إنّها المتعبّدة المثاليّة، والنموذج الأكمل للحياة التأمّليّة. وصلاتها كانت منزّهةً من كلّ أنانيّةٍ، متّجهةً صوب الرسالة، وارتداد العالم. إنّها خير من علّمت التجرّد عن الخيرات الأرضيّة، والتقدّم في معارج الكمال، والتخشّع، والاتّحاد بالله، والتسليم في المِحَن، وهمّ المساهمة، من خلال الصلاة والتضحية، بخلاص النفوس، وخير الكنيسة، جسد المسيح السرّيّ.

كان بوسع يوحنّا، ابنها الجديد الذي أوكله يسوع المحتضر إلى عنايتها، وهو يناولها الأسرار المقدّسة، أن يقول لها: «هذا هو عينه الابن الذي أعطيتِه جسدًا بشريًّا»، وبأيّ حبٍّ كانت تتلقّاه! وفي هذا السياق يقول البابا يوحنّا بولس الثاني: «لا ريب أنّ تناول الإفخارستيّا كان لمريم ولكأنّها تتلقّى في أحشائها، ثانيةً، ذلك القلب الذي طالما خفق متناغمًا مع قلبها».

ومنها تعلّم يوحنّا استخلاص مغزى الأحداث وروحها، فجاء إنجيله زاخرًا بالروح ودقيقًا في التفاصيل. إنّ ذاك الذي سمّاه يسوع «ابن الرعد» لم يعُدْ، إلى جانب العذراء، لا رعدًا ولا صاعقةً، بل نارًا ونورًا.

أوصت، إذن، مريم التلاميذَ بالكنيسة، وبالنفوس التي افتداها ابنها بدمه، وحثّتهم على مواصلة الجهد الجريء، من أجل نشر الإيمان، وضربت لهم موعدًا في السماء حيث لن يكون لاتّحادهم انفصالٌ.

وأخيرًا أحرق لهيب الحبّ آخر خيطٍ كان يربط تلك النفس الفريدة بالأرض. وكان موتها ولادةً جديدةً، ولكأنها طفلٌ غافٍ بين ذراعَي ابنها الذي يهدهدها بحبٍّ. كان

عبورًا من آلام الزمن إلى طفولةٍ أبديّةٍ، واقترانًا نهائيًّا بالله. يسوع يقول لها: «ادخلي إلى فرح ابنك»، وهي تصبح بكلّيّتها فرحًا، الفرح الذي التمسه يسوع لأحبابه: «**فليكن فيهم فرحي كاملاً**».

وقد اندرج موتها، على غرار حياتها، في الصمت والتواري. فحتّى يوحنّا، رفيق أيّامها الأخيرة، وقد أعطاه إيّاها ابنها المحتضر أُمًّا، فأحبّها حبًّا جمًّا، لم يفُهْ بكلمةٍ واحدةٍ حول موتها، بل كان صمته صدًى لحبّ مريم الصامت.

لقد أفلت موتها من كلّ مجدٍ بشريٍّ، كي يكون بكلّيّته لمجد الله، ولحياة أبنائها. وفي حين يخضع سائر البشر للموت مكرَهين، مات يسوع وأُمّه، حبًّا.

موت مريم كان موت خادمةٍ، أنهت مهمّتها، وانقطع كلّ ما يربطها بالأرض، فاستسلمت بكلّيّتها لحبّ إلهها.

موتها كان تتمّةً لقيامة ابنها ولصعوده، ووثيق الصلة بهما. وقد أدخلها الموت في الرؤية الطوباويّة، وفي ملء الحياة التأمّليّة، المزدهرة، المؤلّهة. وباتت، في عليائها، أوفر قدرةً على مشاركتنا ما نعانيه، على هذه الفانية، من أفراحٍ وأحزانٍ. فهي تشهد كلّ دموعنا، وتسمع كلّ صيحات استغاثتنا، وتنهّداتنا، وتسمع كلّ صلواتنا، وتلبّي طلباتنا. بوسعها أن تكون في كلّ مكانٍ، في آنٍ واحدٍ، وأن تحضر وتظهر حيث يوفدها ابنها، مشاركةً إيّاه حضور الناهض من الموت، ممزّقةً حجب المدى والزمن، متشفّعةً، دائمًا، لدى ابنها، من أجل أبنائها على الأرض.

لقد انتقلت إلى السماء، ولكنّ قلبها ما زال يواكب جموع أبنائها الذين ما برحوا يدرجون على الأرض، ويناضلون، ويرنون إليها بحبٍّ، وتوقٍ، ملتمسين غوثها، وعزاء حضورها.

إنّها، بانتقالها، أمست شفيعتنا، وبحسب قول القدّيس بيرنار: «نحن حجّاج المنفى، أنفذنا، أمامنا، محاميةً تمتلك جدارةً فائقةً للدفاع عن قضيّتنا، بما أنّها أمّ القاضي، وأمّ الرحمة، وأُمّنا». فهي، إذ أصبحت أوثق قربًا من الله، واتّحادًا به، أمست أكثر إحاطةً باحتياجاتنا، وتعاطفًا معنا، وقدرةً على غوثنا.

وبانتقالها المجيد إلى السماء أعطتنا العذراء صورةً لما سنصبح عليه، بموتنا، إذ ستتمجّد نفسنا، بعد تطهّرها. وبذلك يفقد الموت رهبته، ولاسيّما أنّ أُمّنا السماويّة

ستكون المحامية المدافعة عنّا، والتي ستجعل رحمة الله تتغلّب على عدله في محاكمتنا. ألسنا نسألها، كلّ يومٍ: «صلّي من أجلنا، نحن الخطأة، الآن وفي ساعة موتنا»؟

حين صعد يسوع إلى السماء، تعلّقت به أنظار التلاميذ. ونحن، أبناء العذراء المنتصرة، من وادي الدموع الذي نقبع فيه، نرفع أبصارنا البنويّة الواثقة إلى من هي، في آنٍ واحدٍ، ملكةٌ، وأُمٌّ، ووسيطةٌ. ولكنّ هذه الصفات الثلاث تندمج في واحدةٍ تغلب عليها ألوان الأُمومة، ونسألها أن تمسك بأيدينا، وتقودنا إلى أحضان ابنها، أبينا ومخلّصنا.

يقول الرسول بولس إنّ الذهن البشريّ عاجزٌ عن تخيّل المجد الرفيع الذي يعدّه الربّ، في السماء، لمن أحبّوه على الأرض. وبالحريّ هل يمكن تخيّل المجد الذي أسبغه على تلك التي حملته في أحشائها، وأرضعته لبنها، وأغدقت عليه كلّ حبّها وعنايتها، على امتداد ثلاثٍ وثلاثين سنةً، وأحبّته أكثر من جميع البشر والملائكة مجتمعين؟!

أين توفّيت العذراء ودُفنت؟ مدينتان تتنازعان شرف احتواء قبرها. فقد ساد طويلاً، الاعتقاد بأنّها ماتت ودُفنت في أورشليم، وفي الجتسماني تحديدًا. غير أنّ راهبةً حبيسةً ألمانيّةً – هي آنّ كاترين إيمّيريخ – عاشت في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، أُعلمت، في رؤيا، أنّ العذراء قضت أيّامها الأخيرة، في بيتٍ صغيرٍ قُدَّ في الصخر، على تلّةٍ مشرفةٍ على مدينة أفسس، الموجودة حاليًّا في تركيّا، حيث كان قد لجأ الإنجيليّ القدّيس يوحنّا، معها. وهناك ماتت ودُفنت. وقد أدلت الراهبة المذكورة بتفاصيل دقيقةٍ عن المكان الذي اكتُشِف، بفضل هذه التفاصيل، وأصبح مزارًا يؤمّه، بتواترٍ، الحجّاج من كلّ أقطار العالم، وفيه احتفل البابا يوحنّا بولس الثاني بقدّاسٍ، في عيد انتقال العذراء.

الجزء الثاني

ملامح العذراء

مريم أمّ الله

صفة «أُمّ اللّه» هي أَجمل وأَكمل صفةٍ تليق بمريم. وقد أَكّد مارتان لوثير، كما أَوردنا سالفًا، أَنّ ما من أَحدٍ يستطيع أَن يقول فيها ما هو أَعظم من ذلك، حتّى لو امتلك من الأَلسن أَكثر من أَعشاب الأَرض، ومن نجوم السماء، ومن رمال البحر. وهل ثمّة أَعظم من أَن تكون خليقةٌ أُمًّا للّه؟

الأَمجاد كلّها، وكلّ صنوف العظمة، وكلّ الاستحقاقات والفضائل، لا تساوي مجرّد لقب «أُمّ اللّه». فهذه الأُمومة تنير كلّ امتيازات العذراء وصفاتها.

ليس يسوع مجرّد إِنسانٍ كسائر البشر، ولكنّه يتميّز برفعةٍ أَدبيّةٍ فذّةٍ، كما صوّره رينان، ولا هو تلقّى، في أَثناء عماده، وحدةً روحيّةً مبهمةً مع اللّه، كما يتخيّله بعض البروتستانتيّين، ولا هو ذو طبيعتين منفصلتين، بل هو كائنٌ فريدٌ، إِلهٌ حقٌّ كاملٌ، وإِنسانٌ حقٌّ كاملٌ. وكان لابدّ لهذا الإِنسان من أُمٍّ بشريّةٍ، وكان لابدّ لهذه الأُمّ، أَن تتميّز عن سائر البشر، إِذ فيها يتجسّد كلمة اللّه الأَزليّ، الكائن أَزليًّا، بلا بدايةٍ ولا نهايةٍ.

في قانون إِيماننا بندٌ يقول، عن المخلّص: «تجسّد من مريم العذراء، وصار بشرًا». أَمام هذا البند نركع، فبفضل هذا التجسّد، انفتحت السماء، وانشقّ حجاب مخطّط اللّه، ونفذ إِلينا سرّه مباشرةً. اللّه البعيد أَضحى إِلهنا، وصار «عمّانوئيل»، اللّه معنا.

ومريم عنصرٌ جوهريٌّ في سرّ التجسّد هذا. فبواسطتها ولج اللّه تاريخ البشر وصار معنا. وتلك التي دعت نفسها أَمَة الربّ، أَي امرأةً مغفلةً، احتلّت مكانةً أَساسيّةً في صميم إِيماننا باللّه الحيّ، الذي لم يكتفِ بالنظر إِليها من الخارج، بل عمل في داخلها، وهي وضعت جسدها الطاهر بتصرّفه، فصار مسكنَه في العالم.

لقد جسّدت مريم رجاء البشريّة، وبها أَصبح اللّه واحدًا منّا.

والتجسّد تحقّق بموافقة مريم. الإِنجيليّ لوقا يقول على لسان الملاك المبشّر: «هو

الروح القدس يحلّ عليك، وقدرة العليّ تظلّلك». في العهد القديم كانت غمامةٌ تظلّل خيمة الموعد، وتابوت العهد. وها قد أصبح نَعَم مريم مكان اللقاء حيث يقيم الله مسكنه في العالم. لم يعُد يقيم في مساكن حجريّة، بل في هذا النَعَم المتفجّر من نفس مريم وجسدها. هو الذي لا يسعه العالم، أَقام في كائنٍ بشريٍّ، أَضحى الهيكل الجديد، وتابوت العهد الجديد.

ولم يعمل الله بموجب قدرته فحسب، بل التمس موافقةً بشريّةً. خلق نفسه في إِحدى خلائقه، التي جعل منها شريكًا حرًّا، كي يقيم ملكوته على الحرّيّة. فنعمته لا تبطل الحرّيّة بل تخلقها.

يسوع هو لمريم الطفل الذي تغذّيه وتُعنى به، والإِله الذي تعبده. أُمومتها فريدةٌ. فهذا الإِله العظيم، ابن الآب الأَزليّ، هو جوهر كيانها. منه تستمدّ الحياة والوجود. إِنّه كلمة الله الذي ينير وجدانها، والحكمة التي أَعدّتها، منذ الأَزل، لتكون أُمّه.

مريم هي أُمّ يسوع أَكثر ممّا أَيُّ أُمٍّ بشريّةٍ هي أُمٌّ لأَبنائها، لأَنّه استمدّ منها وحدها كلّ طبيعته البشريّة، وكلّ خلاياه، ولأَنّها هي حملته بوعيٍ تامٍّ، وبإِرادةٍ حرَّةٍ. فأُمومة مريم لم تكن مجرّد أمومةٍ جسديّةٍ، بل كانت أُمومةً فائقةً تقتضي موافقةً واعيةً حرّةً، وقبولاً لكلّ ما سينجم عنها من آلامٍ روحيّةٍ. وقد استحقّت مريم هذه الأُمومة بتوافق إِرادتها مع إِرادة ابنها المخلّص. لقد حملت يسوع في جسدها وفي روحها، إِذ لم يقترن كلمة الله بطبيعتنا إِلاّ بموافقة مريم الشخصيّة والصريحة.

باختياره مريم كي يتجسّد، عظّمها الله، وعظّم شأن المرأة. وقد استحقّت مريم هذا التعظيم، إِذ لم تقتصر على تقديم جسدها أَداةً للتجسّد، بل قدّمت، أَيضًا، نفسها التي اتّحدت بالله اتّحادًا وثيقًا.

وقد تجسّد ابن الله في طبيعةٍ بشريّةٍ خاضعةٍ للأَلم، ولكنّها محرّرةٌ من كلّ جروح الخطيئة الأَصليّة. فقد كان من اللائق أَن يتجسّد في أَلَق النور، وفي ملء الحبّ، وكمال البراءة. وقد اختار عذراء كي تحمله وتضعه في ملء سيطرة الروح على الجسد.

وحدهما الله الآب ومريم يستطيع كلٌّ منهما أَن يقول ليسوع: «أَنت ابني الوحيد». ابن الله هو نفسه ابن مريم، وهذا هو مبدأ عظمة مريم الفريدة. فالذي وُلد من العذراء

بحسب الجسد، ونما في الحكمة والنعمة تحت أَبصارها، هو نفسه الذي يولد من الآب بحسب الأُلوهة.

في أَحشاء مريم تكوّن جسد يسوع، واتّحد بالألوهة، فولدت من هو من طبيعتها البشريّة، ومن طبيعة الآب في ألوهته.

على عقيدة أُمومة مريم الإِلهيّة قامت المسيحيّة كلّها. وقد أَكّد الإِنجيل هذه العقيدة بوضوحٍ لا لَبْس فيه. فجبرائيل الذي بشّر العذراء قال لها:

«الروح القدس يحلّ عليك، وقدرة العليّ تظلّلكِ. لذلك فالمولود (منكِ) قدّوسٌ، وابن العليّ يُدعى». وإِليصابات، عندما زارتها مريم، هتفت بإِلهام الروح القدس: «من أَين لي أَن تأتي **أُمّ ربّي** إِليّ؟»

رسخت هذه العقيدة في وجدان المسيحيّين الذين آمنوا بها بصلابةٍ وحبٍّ. وقد تجلّى تجلّيًا مدهشًا ما تكنّه النفس المسيحيّة من إِجلالٍ لأُمّ الله، بمناسبة مجمع أَفسُس الذي أَقرّ، عام **٤٣١**، أُمومة مريم الإِلهيّة.

ذلك أَنّ نستوريُس (٤٥١+)، بطريرك القسطنطينيّة، الذي كان يعلّم انفصال الطبيعة البشريّة عن الطبيعة الإِلهيّة في يسوع، استنتج أَنّ مريم ولدت يسوع الإِنسان، لا يسوع الله. وقد تجرّأ فأمر نجيّه وكاتم أَسراره، الكاهن أَنستاسيُس أَن يعلن ذلك رسميًّا. فاعتلى أَنستاسيُس منبر كنيسة القسطنطينيّة، وإِذ كان يعلم مدى شغف الشعب بالعذراء، استفاض في مديحها، ولكنّه أَعلن، أَخيرًا: «ينبغي أَلاّ يدعو أَحدٌ مريم أُمّ الله، فما مريم سوى امرأةٍ، ولا يمكن لله أَن يولد من امرأةٍ».

اعترى الذهول الكهنة والعلمانيّين لدى سماعهم هذا القول المستنكر، فانسحب كثيرون من الكنيسة احتجاجًا. وأَصرّ نستوريُس على تأكيد رأيه. فاعتلى المنبر، بدوره، وقال: «أَيكون لله أُمٌّ ؟ لا، لم تلد مريم الله، ولم تنجب خليقةٌ خالقها، بل أَنجبت إِنسانًا هو أَداة الألوهة، إِنسانًا حاملاً الله». فبلغ استنكار الشعب أَوجه. ولّما حان أَوان المناولة، دنا راهبٌ من البطريرك، وأَمام الجميع، نعته بالهرطقة والكفر، فامتنع الشعب عن التناول من يده، وطالبه بالكفّ عن توزيع الأَسرار، لأَنّه غير جديرٍ بها.

واستعان نستوريُس بصديقٍ قديمٍ له، كان قد عُيّن حديثًا، راعيًا لكنيسةٍ أُخرى، وكان قبل ترقيته إلى رتبة الأُسقفيّة، يقوم بمهمّة واعظٍ شعبيٍّ لرعيّة القسطنطينيّة،

وكلّفه بالوعظ بمناسبة احتفالٍ ليتورجيٍّ، راجيًا أن يدعم رأيه. ولكنّ هذا الأُسقف الجديد خيّب رجاء نستوريُس، فقد كان إجلاله لأُمّ الله من الرسوخ بحيث استهلّ عظته، معلنًا، بنبرةٍ منتصرةٍ: «سأُحدّثكم، اليوم، عن سيّدتنا، أمّ الله». فدوّت الكنيسة بالبهجة والهتافات، والتهبت الأكفّ بالتصفيق الذي رافق العظة كلّها. واعترف نستوريُس، مكرهًا، أنّ الشعب متمسّكٌ بإيمانه أنّ مريم هي أُمّ الله. غير أنّ هذا الشعب بات يطالب بإعلانٍ رسميٍّ بهذا الشأن.

في الواقع، لم يكن الخلاف يتناول أُمومة العذراء، بل هويّة المولود منها. فنستوريُس كان يصرّ، بعنادٍ، على اعتبار ابن العذراء إنسانًا كاملاً، استخدمه الله أداةً، ثمّ، بعد صلبه وقيامته، أجلسه الآب إلى يمينه. ومن ثمّ كان يدعو إلى تسمية مريم العذراء «أُمّ المسيح» لا «أُمّ الله».

وتولّى القدّيس كيرلّس، بطريرك الإسكندريّة، مقاومة هذه البدعة، فدعا، بتكليفٍ من الإمبراطور تيودوسيُس الثاني (٤٠٨ –٤٥٠) إلى عقد مجمعٍ مسكونيٍّ، ضمّ نحو مئتي أُسقفٍ. وانعقد المجمع، بتاريخ **٤٣١/٦/٢٢** في كنيسة «مريم أُمّ الله»، بمدينة أفسُس، وغاب عنه نستوريُس. وقد روى القدّيس كيرلّس الإسكندريّ عن هذا المجمع:

«بعد أن أمضينا النهار بأكمله، في هذا المعبد المبارك، أدنّا نستوريُس الذي منعه الخوف من المشاركة في اجتماع الآباء. وبقرارٍ علنيٍّ حططناه عن كرسيّ البطريركيّة، وحرمناه من الأُسقفيّة. وكنّا نحو مئتي أسقفٍ. وكان شعب المدينة كلّه، منذ الصباح حتّى المساء، ينتظر، بنفاذ صبرٍ، حكم المجمع المقدّس. وعندما أُبلغوا أنّ ذلك الأسقف، الذي أمعن في التجديف، قد جُرّد من مركزه، انطلقوا كلّهم، بصوتٍ واحدٍ، يباركون المجمع، ويمجّدون الله على سقوط عدوّ الإيمان. ولمّا خرجنا من الكنيسة، قادتنا الجموع إلى مقرّ إقامتنا، على ضوء المشاعل، إذ كان الوقت ليلاً. في كلّ مكانٍ كان الفرح عارمًا، والأنوار متوهّجةً، حتّى إنّ النسوة سرنَ أمامنا حاملاتٍ مجامر بخور. وهكذا أثبت المخلّص، لمن ادّعوا سلبه مجده، قدرته الكلّيّة».

لقد أكّد مجمع أفسس، في آنٍ واحدٍ، وحدة يسوع في طبيعتيه البشريّة والإلهيّة، وأُمومة مريم له، إنسانًا وإلهًا معًا. فابن مريم هو ابن الله عينه. وهو الأقنوم الثاني من الثالوث المقدّس. وكان البطريرك القدّيس كيرلّس قد دبّج نصّ حرم نستوريُس

كما يلي: «من لا يعترف بأنّ عمّانوئيل هو، حقًّا إلهٌ، وبالتالي أنّ العذراء القدّيسة هي أُمّ الله (ثيوتوكُس)، إذ إنّها حملت، في جسدها، كلمة الله الذي تجسّد، بحسب قول الكتاب: «وصار الكلمة جسدًا»، فليكن محرومًا!»

فبما أنّ يسوع هو إلهٌ، كان له، في مريم أُمٌّ هي أُمّ الله، وبما أنّه إنسانٌ حقٌّ، كان له، في مريم، أُمٌّ بشريّةٌ.

وقد كتب مارتان لوثير، عام **١٥٣٩**، عن مجمع أَفسس: «هذا المجمع لم يقرّ أَمرًا جديدًا في ميدان الإيمان، بل دافع عن الإيمان العريق ضدّ الضلال الجديد الذي جاء به نستوريُس. فالبند الذي يعلن أَنّ مريم هي أُمّ الله وُجد في الكنيسة منذ البدء، ولم يستحدثه مجمع أَفسس، بل كان واضحًا من خلال الإِنجيل، والكتاب المقدّس. ففي إِنجيل لوقا (**١:٣٢**) نرى أَنّ الملاك جبرائيل بشّر العذراء بأنّ ابن العليّ سيولد منها. والقدّيسة إِليصابات هتفت: «من أَين لي أَن تأتي إِليّ أُمّ ربّي؟»، وليلة الميلاد أَعلن الملائكة: «اليوم وُلِد لكم مخلّص هو المسيح الربّ». وكذلك قال القدّيس بولس، في رسالته إِلى الغلاطيّين (**٤:٤**): «أَرسل الله ابنه، مولودًا من امرأةٍ». هذه الأَقوال التي أومن بصحّتها، تؤكّد، حقًّا، وبحزمٍ، أَنّ مريم هي أُمّ الله».

وقد نشر قطبٌ آخر من أَقطاب البروتستانتيّة، هو «زوينغلي» (Zwingli) عام **١٥٢٤**، عظةً بعنوان: «مريم الدائمة الطهر، أُمّ الله» جاء فيها: «لم أُفكّر، يومًا، ولم أُعلّم، وأَذكر علنًا، أَيّ شيءٍ بخصوص مريم العذراء الطاهرة، أُمّ خلاصنا، ينطوي على أَمرٍ معيبٍ، ملحدٍ، أَو غير لائقٍ، أَو سيّئٍ... بل حسبي أَنّني أَعلنت للأَتقياء وللبسطاء من المسيحيّين يقيني الواضح بشأن أُمّ الله: فإِنّني أومن بحزمٍ، ووفقًا لقول الإِنجيل، أَنّ هذه العذراء الطاهرة قد ولدت لنا ابن الله، وبقيت، في ولادتها، وبعدها، عذراء نقيّةً، طاهرةً، إِلى الأَبد».

وجديرٌ بالذكر أَنّ البروتستنتينيّ «ماكس توريان» (Max THURIAN) الذي أَورد هذه النصوص في كتابه «مريم أُمّ الربّ، صورة الكنيسة»(٢)، يصف زوينغلي بأَنّه أَكثر الإِصلاحيّين واقعيّةً وبروتستانتينيّةً.

---

(٢) Marie, mère du Seigneur, figure de l’Église, Éd. Cerf 1980

ولا ريب أَنّ أُمومة العذراء لله هي علّة كلّ ما خُصّت به من امتيازاتٍ قبل ولادتها الربّ، وكلّ ما أُحيطت به من أَمجادٍ وقدراتٍ بعد انتقالها إِلى السماء. فالأُمومة الإِلهيّة تفرض على يسوع واجبات برٍّ، كتلك التي تفرضها الطبيعة على الأَبناء تجاه والديهم. وهي تخوّل مريم قدرةً على يسوع، وذلك حقٌّ طبيعيٌّ يواكب كرامة الأُمّ.

فلو كان على البشر صنع أُمّهاتهم لأَغدقوا عليهنّ كلّ ما يمتلكون من جمالٍ وكمالٍ. ويسوع أَبدع أُمّه فأَسبغ عليها من الامتيازات والجمال ما يليق بمن اختيرت لتكون أُمّ الله.

إِكرامًا لهذه الأُمومة عُصمت مريم، لحظة تكوينها، من إِرث خطيئة حوّاء، ومن أَجل هذه الأُمومة أُلهمت، منذ صباها، أَن تنذر البتوليّة، وحفظت نفسها دائمًا من لطخة أَيّة خطيئةٍ، وملأها الله بنعمته وحضوره، وزيّنها بكلّ الفضائل، وبكلّ جمالٍ وكمالٍ، كما يليق بمن سمّاها جبرائيل «ممتلئةً نعمةً».

إِنّ نبع كلّ نعمةٍ هو الاتّحاد بيسوع. ومن اتّحد به أَكثر من مريم؟ علاقة الأُمّ بابنها تنشأ في الجسد، وتنعقد بالدم. غير أَنّ علاقة مريم بيسوع نشأت في الروح، وانعقدت بالإِيمان. ولم يكن يسوع ثمرة جسدها فحسب، بل كان، قبل كلّ شيءٍ، ثمرة قلبها، وتواضعها، ومحبّتها، وبتوليّتها، وجميع الفضائل الرائعة التي جعلت منها أُمّ الحبّ الجميل.

يقول القدّيس بيرنار: «ما من أُمٍّ كانت تليق بالله سوى عذراء، وما من ابنٍ كان يليق بالعذراء سوى الله».

من جرّاء أُمومتها حظيت مريم بامتياز الانتقال، جسدًا ونفسًا، إِلى السماء، تمثّلاً بابنها الإِلهيّ. فقد أَشركها ابنها بفضائله، وامتيازاته، وأَسراره. وقد قال القدّيس بيير داميان، في هذا الشأن: «من كنز أُلوهته استلّ الربّ اسم العذراء مريم، وقرّر أَن يتحقّق كلّ شيءٍ بها، وفيها، ومعها، ومنها. وكما أَنّه لم يُصنَعْ شيءٌ بمعزلٍ عنه، هو ابن الله، كذلك لن يعاد صنع أَيّ شيءٍ بمعزلٍ عنها».

إِنّ مجرّد وصف مريم بأُمّ الله هو تأكيد عظمتها التي تفوق كلّ ما ليس الله. فالله هو العظمة اللانهائيّة، وهو مصدرُ كلّ عظمةٍ، ومعيارُها. والخليقة لا تكون عظيمةً ورفيعةً في سلّم الكائنات إِلاّ بمقدار حميميّة علاقتها بالله. وهل، ثمّة، من هو أَوثق

قربًا من اللّٰه، وعلى علاقةٍ أَشدّ حميميّةٍ معه، من أُمّه؟ إِنّه جسدٌ من جسدها، والدم الذي يسري في عروقه ساقيةٌ تنبع منها وحدها، وشعلة حياته اقتبست نارها من موقدها. جسديًّا مريم أُمٌّ مثل كلّ الأُمّهات، ولكنّها تختلف عن سائر الأُمّهات بأَنّها أُمّه روحيًّا. وثمرة بطنها ليست مخلوقًا يحمل دمغة اللّٰه فحسب، بل هي اللّٰه نفسه.

وجود يسوع ووجود أُمّه متشابكان، متلازمان في وحدة القرار الإِلهيّ، وفي وحدة الغاية: خلاص البشر.

ففي مشروع الخلاص لا يمكن فصل مريم عن يسوع. فمذ تقرّر تجسّد ابن اللّٰه، كانت مريم في بال الخالق وقصده. وفي هذا السياق كتب الأَب تِرّيان (Terrien): «إِن كان يسوع هو آدم عالمٍ جديدٍ، فليست مريم فقط حوّاء الجديدة، بل هي جنّة عدن السماويّة، مسكن المسيح الأَوّل. وإِن كان هو نوحًا الحقّ الذي سيملأ الأَرض بجيلٍ روحيٍّ، فهي السفينة التي نجت من الطوفان، والتي سيخرج هو منها. وإِن كان المسيح هو المنّ (الهابط من السماء) فهي الإِناء الذهبيّ الذي يحتويه. وإِن كان هو خبز التقدمة الحيّ والمحيي، فهي المائدة التي حملته. وإِن كان هو الجذوة المضطرمة التي يتصاعد منها عطر أَنقى بخورٍ، فهي المبخرة حيث اشتعل أَوّلاً. وإِن هو كان الشريعة الحيّة، فهي تابوت العهد حيث أُودعت الشرائع.

«يسوع هو النور المشعّ في بيت اللّٰه، ومريم هي الشمعدان الذهبيّ الذي يملأ بإِشعاعه عيوننا. إِنّها العلّيقة المشتعلة بنارٍ إِلهيّةٍ، ولكنّها لا تحترق. إِنّها جزّة الصوف المشبعة بندًى سماويٍّ. إِنّها تربة الفردوس البكر، حيث تنمو شجرة الحياة... إِنّها بيت اللّٰه العابق بمجده، والغمامة الخفيفة التي تحمل المخلّص الموعود، والنبع المختوم الذي يفيض نهر ماءٍ حيٍّ لتجديد العالم..».

وقد أَجمع الآباء الأَوّلون على تأكيد تفوّق العذراء، فقال القدّيس أَفرام: «إِنّ مريم هي، بعد الثالوث، مليكتنا؛ وبعد الروح القدس، عزاؤنا، وهي، بعد الوسيط، وسيطة العالم أَجمع. وهي أَسمى رفعةً، وأَوفر مجدًا من الشيروبيم والسيروفيم. إِنّها هوّة العطف الإِلهيّ التي لا يُسبر لها غوْرٌ، وهي تتبوّأ المكانة التي تلي الأُلوهة. اللّٰه وحده هو فوقها. وكلّ ما ليس اللّٰه هو دونها».

والقدّيس يوحنّا الدمشقيّ يحيّي فيها تلك التي «بكلّيّتها مسكن الروح القدس،

وبكلّيّتها مدينة اللّه التي تتدفّق فيها سيول النهر، أي نعم الروح القدس التي تغمرها. إنّها متّحدةٌ اتّحادًا كاملاً باللّه، وأرفع شأنًا من أسمى الملائكة، وعلى قربٍ وثيقٍ من اللّه. يا للمعجزة، بل يا لأعجب المعجزات! امرأةٌ سمت فوق السيروفيم لأنّ اللّه انحدر قليلاً دون الملائكة! أيّتها العذراء المغمورة بالنعمة الإلهيّة، يا هيكل اللّه المقدّس الذي سكنه سليمان الروحيّ، أمير السلام، بعد أن شيّده بيديه. أيّها المقدِس حيث تتوهّج، عوضًا عن الأحجار الكريمة، الجوهرة الفائقة الثمن، وماسة الألوهة».

ويقول القدّيس توما الأكوينيّ: «بقدر ما تكون علاقة الخليقة باللّه وثيقةً، تكتسب هذه الخليقة نبلاً. ومن ثمّ فطبيعة يسوع تتبوّأ مرتبة النبل والعظمة الأولى، فيما تحتلّ العذراء المرتبة الثانية. ففيها اتّحد الكلمة بجسدنا».

الملاك بشّرها بأنّ مولودها قدّوسٌ. ومولودها زادها قداسةً. القدّيس هو من يندفع خارج مسار العالم، مع اللّه، وباللّه. والإنسان المتبتّل هو من فتنه اللّه، فانفصل عن سواد البشر، لا تسنده سوى ذراع الآب المنيعة، ولا يضيئه سوى وهج وجهه اللامرئيّ.

وليس كالعذراء على صلاتٍ وثيقةٍ بأقانيم الثالوث الأقدس. فهي أمة الآب المتواضعة والمخلصة، وهي، في الآن عينه، ابنته المفضّلة، إذ إنّ رحمته حلّت عليها بعطفٍ خاصٍّ، وزيّنتها بنِعَمٍ فريدةٍ، من أجل الرسالة التي كُلّفت بها. إنّها إيقونة رحمة الآب وحنانه، وعدله وقداسته، وكماله اللامحدود. وهي، فوق ذلك، أُمّ ابنه. يقول بوسُّويه، في هذا السياق: «بقرارٍ رائعٍ ارتأى اللّه أن تلد عذراء، في الزمن، من يلده هو باستمرارٍ في الأبديّة. وبذلك أشركها، نوعًا ما، في ولادته الأبديّة، فما جعلُها أُمًّا للابن عينه، سوى مشاركته لها في ولادته...». إنّه لاتّحادٌ سرّيٌّ رهيبٌ ذاك الذي جمع، في يسوع وبه، الأُمّ العذراء والآب السماويّ! وأيّة كرامةٍ لمريم أسمى من مشاركتها الآب الذي يلد الابن أبديًّا، يلد «اليوم» في الزمن، وللمرّة الأولى، اللّه الإنسان».

وهل أوثق من علاقة مريم بابن اللّه، ابنها؟ فهي أُمّه الحقيقيّة، وشريكته السخيّة في فدائه، وتلميذته الوفيّة، والشاهدة المميّزة على أحداثٍ حاسمةٍ، وذات دلالةٍ بليغةٍ، في حياته. ولطالما أكّد يسوع أنّ أُمّه تستحقّ الطوبى، ليس فقط لأنّها حملته

في أَحشائها، وولدته، وأَشرفت على تنشئته، بل بالأَحرى، لأَنّها حملته في قلبها، وعملت بأَقواله.

قيل ليسوع، يومًا: «طوبى للبطن الذي حملك، وللثديين اللّذين رضعتهما»، فردّ: «بل طوبى لمن يحفظ كلمة الله، ويعمل بها». ربّما بدا هذا الردّ، للوهلة الأولى، وكأَنّه تقليلٌ من شأن أُمّه، ولكنّه، في الواقع، يعني أَنّها أُمّه بامتيازٍ، لسببٍ آخر، غير أُمومتها البيولوجيّة، فهي قد أَمعنت في الخضوع لكلّ ما يروق للآب، ومن ثمّ زاد قول يسوع أمّه رفعةً، وضاعف شرف أُمومتها.

ولطالما طوّب يسوع من يحسنون سماع كلمة الله والعمل بها، مؤكّدًا: «إِنّما أُمّي وإِخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها»، وبذلك أَكّد أَنّ أُمومة مريم له قد عاشتها في الإِيمان الأَكمل، وفي الخضوع التامّ لكلام الله. كانت مريم، إِذن، أولى المنصتات إِلى كلمة الله. وقد اتّصف إِنصاتها بكثافةٍ فريدةٍ، مكّنها منها امتلاؤها نعمةً.

يقول بوسُّويه: «ما نفعٍ أَن يكون للعذراء ابنٌ موجودٌ قبلها، وهو صانع ولادتها، لو لم يجعلها تولد جديرةً به؟ فإِذا كان عليه أَن يصطنع لنفسه أُمًّا، كان على كمال هذا العمل أَلاّ يحدّه حدٌّ في السموّ، وأَلاّ يحدّ بدءه زمنٌ، وإِن نحن أَدركنا مدى جلال الكرامة التي كانت مدعوّةً إِليها، لما دهشنا من إِعداده لها، منذ لحظة وجودها الأولى».

ومن المحقّق أَنّ أُمومة مريم ليسوع لم تؤتِها كرامةً وعذوبةً فحسب، بل إِنّها اقتضت منها تضحياتٍ أَليمةً. فحبلها به، وهي مازالت مخطوبةً، سبّب لها حرجًا شديدًا، وولادتها له في مذود بهائم، وهربها به، رضيعًا، إِلى مصر، فرارًا من بطش هيرودُس، وَسَما طفولته بطابع الفقر والاضطهاد. ويوم قدّمته إِلى الهيكل، في يومه الأَربعين، أَنذرها سمعان الشيخ بأَنّه سيكون هدفًا للمعارضة، وبسببه سيخترق سيفٌ قلبها. وكانت حياتها، حقًّا، سلسلة مِحَنٍ وتضحياتٍ.

ويوم توارى يسوع في الهيكل، وهو ابن اثني عشر عامًا، أَلمح إِلى أُمّه أَنّ علاقته بأَبيه السماويّ تعلو على كلّ علاقةٍ جسديّةٍ. وعاد فأكّد هذه الحقيقة، في مناسباتٍ عديدةٍ، معلنًا أَنّ أُمّه وإِخوته هم الذين يعملون بمشيئة أَبيه. وبما أَنّه لم يعمل أَحدٌ

بمشيئة الآب أكثر من أُمّه، فقد سبّق، إكرامًا لها، ساعته، ولبّى رغبتها، في عرس قانا، فوق كلّ ما توقّعت.

طالما كان يسوق حياةً خفيّةً، كان يسوع خاضعًا لها، بلا تحفّظ. أمّا وقد اعتلن، فقد غدا على الأُمّ أن تخضع لمقتضيات رسالة ابنها. ولا ريب أنّه كان قد أعدّها لهذا الوضع الجديد، في خلوتهما الناصريّة. ولكم عانت من بعاده عنها، على امتداد فترة رسالته، وكم خافت عليه! ولكنّها ظلّت تقول نَعَم لمشيئة الآب، إلى أن وقفت عند صليب ابنها، راضيةً بتقديم الضحيّة المولودة منها، فسُمّر الابن وأُمّه على صليبٍ واحدٍ. وحينئذٍ أدركت، إدراكًا كاملاً، مغزى النَعَم الذي ردّت به على عرض الملاك المبشّر، في الناصرة.

يومًا فيومًا، كانت مريم تروز ثقل أُمومتها الإلهيّة. والسيف الذي أنبأها به سمعان الشيخ، لم ينتظر الصليب كي يشرع يتلوّى في قلبها.

وفي جميع الحالات، كانت علاقة مريم بيسوع رائعةً مدهشةً. وفي هذا الشأن يقول البابا غريغوريُس الكبير: «هل ترغبون في معرفة عظمة مريم؟ حوّلوا، إذن، أنظاركم إلى ابنها، فيطلعكم سموّ أحدهما على سموّ الآخر».

ولا يغربنّ عن بالنا أنّ معيار المواهب الإلهيّة هو الحبّ، حبّ الخليقة للّه، وحبّ اللّه لخليقته. وحبّ مريم ليسوع هو حبٌّ فريدٌ مميّزٌ. فهي تحبّ فيه ابنها وإلهها معًا. بصفتها أُمًّا، حبّها مميّزٌ، فهي قد وُجدت لتكون أُمّ ابن اللّه، وقد كان ابنها وحدها، لم يشاركها فيه بشرٌ، خلافًا لعامّة الأُمّهات، وعامّة الأبناء. وهو ابن عذراء، لا مكان في قلبها إلاّ له. فالقدّيس بيرنار يقول: «لم يكن في ذلك القلب البتوليّ ذرّةٌ واحدةٌ خاليةٌ من الحبّ، وكانت تلك العذراء، حقًّا، أُمّ الحبّ». فتلك الأُمّ العذراء كانت تحبّ اللّه في ابنها، وتحبّ ابنها في اللّه، وتحبّ فيه، إلى جانب اللّه، أكثر إنسانٍ جدارةً بالحبّ.

وعندما بلّغها وصيّته الأخيرة، وهو على الصليب، فأوكلها إلى عناية يوحنّا وأوكل يوحنّا إلى عنايتها، جعلها أُمًّا لجميع المسيحيّين. ومنذ تلك اللحظة لم يعد أبناء العذراء من تجمعهم بها روابط الدم، بل من يقاسمونها إيمانًا ووفاءً ليسوع، بلا حدودٍ.

أمّا الروح القدس فهو الذي حباها قلبًا جديدًا، وروحًا جديدًا، وهو الذي غمرها بظلّه لكي يتكوّن المخلّص في أحشائها، ويسكن فيها سكنه في هيكلٍ نقيٍّ ومكرّسٍ. بفعل الروح القدس، وبمنأى عن أيّ تدخّلٍ بشريٍّ، تكوّن جسد ابن الله في أحشاء مريم الطاهرة، غير خاضعٍ لنظام التكاثر البشريّ السائد، ودخل العالم بأُسلوبٍ فريدٍ.

والروح القدس هو الذي ملأها نعمةً، ومن المؤكّد أنّ وجود النعمة يلجم ثورات الجسد على مقتضيات الروح، ويبدّد الغيوم المتصاعدة من الهوّة، التي تغشى على الفهم، وتُسبل على بصيرة النفس حجابًا.

ولا ريب أنّ كلّ المواهب الخاصّة التي نعم بها أنبياء ومختارون قد أُسبغت على أُمّ المخلّص، على نحوٍ أكمل وأرحب، إذ إنّها اختيرت، منذ الأزل، من أجل مهمّةٍ فريدةٍ. فقد «كان من اللائق، بحسب قول القدّيس أنسيلم، أن تتألّق بأكمل طهرٍ، بعد الله، تلك العذراء التي كان الله يعتزم إعطاءها ابنه الوحيد».

عن اتّحاد العذراء بالله يقول القدّيس يوحنّا الدمشقيّ: «إنّ الله، النور العذب، والكلّيّ الصفاء، قد أمعن في حبّها، بحيث إنّه، بعمل الروح القدس، امتزج بها جوهريًّا، وخرج من أحشائها إنسانًا كاملاً».

وبولادته منها رفع الربّ نفس مريم ومشاعرها إليه. وفي هذا السياق يقول القدّيس توما الأكوينيّ: «إنّ الحضور الإلهيّ هو الذي يُحدث النعمة في الإنسان، مثلما يحدث حضور الشمس النور في الجوّ. وبقدر ما يقترب الكائن من مصدره، يكون أثر هذا المصدر بليغًا فيه... والمسيح هو مصدر النعمة وفاعلها الأساسيّ، وهو واسطتها بشريًّا... وبما أنّ العذراء الطوباويّة كانت الأوثق قربًا من يسوع بشريًّا، إذ إنّه منها وحدها استمدّ طبيعته البشريّة، فكان لابدّ من أن تنال منه أكمل امتلاءٍ نعمةً».

وعن امتلائها نعمةً يقول القدّيس بيرنار: «النعمة الأولى لم تملأ سوى نفسها، ولكنّ النعمة الثانية ملأت أحشاءها أيضًا، أيّ إنّ ملء الألوهة الذي كان يقطن فيها روحيًّا، بات يسكن فيها جسديًّا».

في أحشائها تكوّن جسد يسوع، ولكنّها ولدت شخصًا مكوّنًا من جسدٍ وروحٍ. فيها تمّ اتّحاد الله بجسدٍ بشريٍّ. وهذا جعل منها مركز التاريخ.

أُمومة الله كانت مهمّة مريم الخاصّة، وعلّة وجودها، فكان لابدّ من أن تنعم بأعظم

قداسةٍ قد تبلغها خليقةٌ. والنعمة ما انفكّت تعمل فيها، باثّةً فيها حبًّا يفوق حبّها لذاتها، ولكلّ خليقةٍ. فمنذ فجر حياتها الواعية، ما فتئت نفسها تصبو إلى اللّٰه وإلى الخير، لا يصرفها عنهما أيّ ميلٍ آخر. فكانت الممتلئةُ نعمةً، ممتلئةً قداسةً، وزاخرةً بكلّ فضيلةٍ.

ومع علاقتها الوثيقة باللّٰه، لمريم علاقةٌ وثيقةٌ بالإنسان في كلّ زمانٍ ومكانٍ، وبالكون كلّه، فهي قمّته وزينته الأروع بهاءً، وهي أُمّ البشريّة جمعاء، وشفيعتها لدى ابنها.

مريم أُمّ البشر وشفيعتهم

أُمومة مريم العذراء مزدوجةٌ: أُمومةٌ جعلت منها أُمّ اللّه بحسب الجسد، وأُمومةٌ روحيّةٌ جعلتها أُمًّا للبشر أَجمعين. أُمومتان متداخلتان، متكاملتان، مندمجتان في أمومةٍ واحدةٍ، وفي وحدة المخطّط الإلهيّ. فهي أَعطت الكلمة المتأنّس جسدًا، كي يعطي، هو، البشر أُلوهته. وهي أَعدّت لنا في يسوع، وبه، نعمة التبنّي التي تجعلنا نحيا حياة أَبناء اللّه، وهي تساهم، دائمًا، في توزيع هذه النعمة، من أَجل تقديسنا. إِنّها أُمّ يسوع، وأُمّ جسده السرّيّ.

إنّها، بحسب تعبير بوسُّويه: «أمّ اللّه لكي تنال كلّ شيءٍ، وأمّ البشر، لكي تهب كلّ شيءٍ».

لقد أَدّت أَداءً كاملاً دور الأمومة الذي أَوكله الربّ إِليها وإِلى الكنيسة. إِنّها أُمّ أَعضاء جسد المسيح السرّيّ لأَنّها، بمحبّتها المضطرمة، وإِيمانها الراسخ، ورجائها الصامد، أَسهمت، ولا تني تسهم في ولادة المؤمنين.

قبل أَن يلفظ أَنفاسه الأَخيرة قدّم لها يسوع يوحنّا، قائلاً: «هو ذا ابنك» ولكأنّه، هو، لم يعد ابنها، في حين كان، حينئذٍ، ابنها أَكثر من أَيّ وقتٍ، بعد أَن أَمسى بكر جماعاتٍ غفيرةٍ من الإِخوة الذين منحها إِيّاهم أَبناءً، عندما أَزفت ساعة كلٍّ منهما لهذه التقدمة، ولهذا التبنّي. فيسوع ومريم وُجدا من أَجل الآخرين، وبسبب الآخرين، والآخرون هم علّة وجودهما.

عندما قال يسوع المحتضر لأُمّه: «يا امرأة هو ذا ابنك»، حَدَث ما يشبه بشارةً ثانيةً، وأَبدت العذراء استعدادها التامّ للعناية بأَبنائها الجُدُد، ومنذئذٍ ما انفكّ قلبها يخفق بخفقات ملايين القلوب، وسيظلّ يخفق حتّى نهاية الأَزمنة. فهي كُلِّفت بأُمومةٍ شاملةٍ، بحيث غدا نظرها يتعرّف في كلّ مؤمنٍ ابنًا لها، حيثما كان، وفي أَيّ حقبةٍ عاش، وأَيًّا كان اسمه، وجنسه، ولونه، وثقافته، وبيئته.

منذ القدم كانت البشريّة توّاقةً إِلى «من يجب أن يأتي». غير أَنّ هذا التوق ما

كان له أَن يتحقّق قبل أَن تكون العذراء جاهزةً لكي تتقبّل، في أَحشائها الطاهرة، ابن اللّه. وقد لبّت تلك الفتاة في منزلها الوضيع، في الناصرة، أَكثر أَماني البشريّة حرقةً.

بتجسّده، شاء ابن اللّه أَن يرمّم الهيكل المنهار، ويعيد طبع صورته الناصعة في صلب الجنس البشريّ، ويوثّق، من جديدٍ، علاقات صداقةٍ معنا، ويعقد مع البشر عهدًا جديدًا. ومن ثمّ فنحن، إِذ نولد جسديًّا، نرث خطيئة الجسد، وإِذ نولد من جديدٍ بيسوع نغتني بنعمته. ولادةٌ تجعلنا أَبناء الغضب، وأُخرى تجعلنا أَبناء اللّه.

وقد كان تقديس مريم، وامتلاؤها نعمةً، القناة التي فاض، من خلالها، نبع النعمة الإِلهيّة على كامل الجنس البشريّ.

فبالتجسّد أَصبح اللّه في منتهى الصغر، لكي يكبر الإِنسان بهذا التصاغر. لقد كانت الإِهانة التي أَلحقها البشر بالخالق من الجسامة، بحيث كان لابدّ من تعويضٍ يضارعها جسامةً. وقد اضطلع يسوع بهذه المهمّة، بواسطة مريم. وبفضل أُمومة العذراء الإِلهيّة كفّرت البشريّة عمّا اقترفته.

بطبيعته، يسوع هو الذي يصالح البشر مع اللّه. ومريم هي التي اختارها اللّه كي تعطي ابنه طبيعته البشريّة، التي جعلته وسيط المصالحة بين اللّه والبشر. بواسطة مريم، صار ابنُ اللّه «عمّانوئيل»، وصار أَحدُ أَقانيم الثالوث، واحدًا من بني البشر. وهكذا، بفضل أُمومتها ليسوع، أَسهمت العذراء في تحقيق خلاصنا، وبكونها أُمّ الوسيط الأَوحد بين اللّه والبشر، اكتسبت مريم، أَيضًا، دور الوسيط، إِلى جانب ابنها.

يقول جان غيتّون: «إِنّ العذراء، أُمّ يسوع، قد أَتاحت لطبيعة الربّ البشريّة أَن تتطوّر من الحبل إِلى الولادة، وبعد الولادة، بفضل التربية، إِلى سنّ النضج. والعذراء أُمّ النفوس التي أَوكلها إِليها يسوع، تساعد هذه النفوس على التأهّب للحياة الإِلهيّة، وعلى تحقيق جوهر كيانها أَي بنوّة اللّه. إِنّها تدعوها، وتحيق بها، وتجدّد شبابها، وتحملها في أَحشائها، حتّى ساعة الموت، التي ستكون ساعة ولادتها النهائيّة الحقّة.

ومثلما هي، بفعل الروح القدس، جاءت بيسوع من الأَبديّة إِلى الزمن، إِنّها تلمّ شمل تبعثرنا، وتطهّرنا من الفساد، وتؤتينا شبابًا جديدًا، و«طفولةً»، وفقرًا روحيًّا، وتحقّق فينا التناغم، وتجعلنا نتماهى مع ذواتنا، وتنتشلنا من الزمن كي تلدنا في الأَبديّة. ولذلك نقول: «الآن، وفي ساعة موتنا».

لقد كان بوسع اللّه اختيار أَساليب أُخرى لإِنقاذ البشريّة المسلوبة والمقهورة. ولكنّه آثر أَن يرتدي جسدًا بشريًّا كي يقهر به ذاك الذي أَوقع بأَبي البشر الأَوّل. وبقدر ما كانت أُمومة مريم الإِلهيّة ضروريّةً لإِعادة تأهيل الأُسرة البشريّة كانت، أَيضًا، ضروريّةً لتحرير المرأة الكامل، ولتمجيدها.

وفي هذا السياق قال شاعرٌ من القرن الثالث عشر: «ينبغي الاعتراف لجميع النساء بفضل كون أُمّ اللّه امرأةً». فبما أَنّ اللّه شاء أَن يرقى بنا إِليه كان لا بدّ من أَن يبدأ فينحدر إِلينا. وهل من وسيلةٍ أَكثر طبيعيّةً وإِلهيّةً لإقحامنا بأُسرته من اتّحاده بأُسرتنا؟ وكيف له أَن يشركنا في شرف البنوّة الإِلهيّة بالتبنّي، إِلاّ بإِعطائنا ابنه أَخًا بكرًا، أَخًا من لحمنا ودمنا؟ وفي سبيل تحقيق هذا المخطّط، لا شيء كان أَشدّ لزومًا من أُمٍّ للّه، بها أَضحى ابن اللّه الوحيد، بكر الخليقة المتجدّدة.

ذاك الذي، بفضله، ما انفكّ بشرٌ لا يحدّهم حصرٌ، يدركون، منذ أَلفي عامٍ، معنى المغامرة الأَرضيّة، قد تجسّد في أَحشاء العذراء مريم. ومن ثمّ، على كلّ مسيحيٍّ أَن يرمق كلّ امرأةٍ باحترامٍ، وأَن يعترف لها بكرامتها، لأَنّ اختيار اللّه لمريم، قد أَسبغ على المرأة نبلاً، سيواكبها حتّى نهاية الأَزمنة.

لقد أُوليت الأُسرة البشريّة شرفًا عظيمًا بأن تعدّ بين أَعضائها إِلهًا، والطبيعة البشريّة رُقّيت إِلى ذرًى شامخةٍ لا محدودةٍ، عندما تبنّاها إِلهٌ، من خلال أُمٍّ بشريّةٍ.

بولادتها ابن اللّه، أَعادت مريم للبشريّة كرامتها. فقد رقّى اللّه الإِنسان إِلى مستوى تأهيله لولادة ابنه الوحيد. وبتوافقها مع المخطّط الإِلهيّ، ارتقت مريم بوضعنا البشريّ. فهل يسوغ، بعد ذلك، القول إِنّ الحياة البشريّة لا تساوي شيئًا، مع علمنا بأَنّنا جزءٌ من الجنس الذي ولد اللّه؟

لقد احتاج اللّه إِلى موافقة امرأة، من أَجل تجسّد ابنه، الذي تحقّق بعمل الروح القدس. هذه المرأة، منذ مطلع العهد الجديد، هي الباب الذي يتجلّى، من خلاله، الآب، والابن والروح القدس، كي يعتلنوا للعالم، ويجعلوا، في ما بيننا، مقامهم.

لقد استخدم اللّه مريم لمهمّة الفداء، أَي لعودة البشريّة إِلى صداقة اللّه، بالانعتاق من سقطتها الأولى، ومن ذنوبها اليوميّة على مدى الأَجيال، ومن تيّار الفسق الذي يغشى العالم.

بواسطة مريم التي ولدت الله، أَصبحنا، نحن، من جنس الله.

موافقة مريم على تجسّد ابن الله فيها كان توافقًا مطلقًا مع كلّ مخطّط الله الخلاصيّ الشامل، من خلال وحدة إِرادتها مع إِرادة الله. وقد واكب «نَعَمها» كلّ حياتها، وحياة ابنها. وارتبط خلاصنا، بهذه الموافقة.

ومن ثمّ يقول القدّيس «لويس ماري غرينيون دي مونفور»: «لستُ أَظنّ أَنّ بوسع إِنسانٍ أَن يكتسب وحدةً حميمةً مع ربّنا يسوع، ووفاءً كاملاً للروح القدس، بمعزلٍ عن اتّحادٍ وثيقٍ بالعذراء الكلّيّة القداسة، واعتمادٍ كبيرٍ على أَزرها».

وقال پول كلوديل: «لقد استخدمها الله كي يحصل على الله الإِنسان المتمثّل في يسوع، فكيف لا يستخدمها للحصول على الابن المتجدّد المتمثّل في الإِنسان المسيحيّ!».

بإِيكالها إِلى تلميذه الأَثير يوحنّا، وبإِيكال يوحنّا إِلى عنايتها، تمّم يسوع رسالته ومهمّته الفدائيّة، فكانت أُمومتها للبشر وصيّته الأَخيرة، وخاتمة مشروعه الخلاصيّ. وكان يوحنّا بكر أَبنائها المولودين عند أَقدام الصليب، والذين سيواصل فيهم المصلوب الناهض من الموت وجوده وحضوره. منذ البشارة دُوّنت الأُمومة الشاملة في قلب مريم، مثل وعدٍ، وأُودعت مثل بزرةٍ ستؤتي ثمارها لاحقًا. وبقول يسوع، على الصليب: «هو ذا ابنكِ... هذه أُمّك»، امتدّت الدعوة التي وُجّهت إِليها، في الناصرة، والتي نضجت في السرّ، حتّى آخر إِنسانٍ، بكلّ أَبعاد الخلاص.

منذ اللحظة التي أَوكل فيها يسوع أُمّه إِلى يوحنّا، ويوحنّا إِلى أُمه، بات لكلّ من افتداهم أُمٌّ هي أُمّه عينها، عملاً بوصيّته الأَخيرة، ولم يعد بوسع أَحدٍ أَن يشكو، يومًا، من اليتم، طيلة حياته. فأُمّ المخلِّص هي أُمّ المخلَّصين، وأُمّ يسوع هي أُمّ جميع المسيحيّين.

وبقوله لأُمّه: «يا امرأة» تنازل يسوع، مرّةً أُخرى، عن كونها أُمّه حصرًا، وأَسبغ عليها بعدًا أَرحب من الأُمومة الجسديّة المحدودة، كي يُشرعها على أُمومةٍ روحيّةٍ لا حدود لها، أُمومة إِيمانٍ كونيّةٍ ومسيحانيّةٍ.

لقد عهد بالبشريّة إِلى أُمّه كي تعنى بها، وتحوّلها إِلى ملكوت حبٍّ، وقد عبّر لها الشعب المسيحيّ، على كرّ الأَجيال، عن حبٍّ بنويٍّ مضطرمٍ، وكانت هي ملاذه

في كلّ خطبٍ، وفي كلّ اضطهادٍ، فكانت له نجم هدايةٍ، ومنارة أَملٍ، وكانت خشبة الخلاص الوحيدة لملايين البشر، في العواصف، والنزاعات، والتجارب، والصراع من أَجل البقاء والحياة.

دائمًا، وفي كلّ مكانٍ، مريم هي عزاءٌ وسلامٌ، تحوّل المرارة إِلى عذوبةٍ، والنزاع إِلى وئام. إِنّها رقيقةٌ وعذبةٌ، تتألّم مع من يتألّمون، تمكث مع المتلبّثين، وتواكب المرتحلين. إِنّها صبرٌ وأَمانٌ، إِنّها فرحنا، وبهجتنا، وراحتنا. إِنّها رقّةٌ فائقةٌ، وقدرةٌ لا تُقهَر.

وحتّى عندما يشدّنا الحنين إِلى أُمّنا التي رحلت، نجد في الأُمّ الأَبديّة السماويّة، الكلّيّة القدرة، خير أُمٍّ.

لقد نلنا حظوة أَن تكون أُمّ الله أُمّنا. فهي، بصفتها أُمّ الله، كلّيّة القدرة، وبصفتها أُمّنا، كلّيّة الحنان. ومن ثمّ هي خير من يشفع بنا ويصلّي من أَجلنا. ولذلك نرجوها كلّ يومٍ أَن تصلّي من أَجلنا نحن الخطأة.

يقول البابا بولس السادس: «لقد أَلفنا، نحن الكاثوليكيّين، أَن نضمّن تضرّعاتنا، دائمًا، التماسًا خاصًّا لشفاعة مريم، إِذ إِنّها بطيبتها الوضّاءة، وقربها الفريد من يسوع، وسيطة كلّ نعمةٍ، وهي تترجم أَدعيتنا، وتعبّر عنها».

وصلاة مريم هي، أَيضًا، شفاعةٌ، إِذ إِنّها أُمّ الفقراء والمقهورين، وتشفع بهم بلا توانٍ. وقد ضربت مثلاً على الصلاة الواثقة في قانا. إِنّ ضيقات البشر تحرّك أَحشاءها، فتسارع إِلى غوثها. لذلك سمّيت «المتوسّلة الكلّيّة القدرة».

عندما أَوكل يسوع كلاًّ من أُمّه مريم، وتلميذه يوحنّا، أَحدهما للآخر، انتمت مريم إِلى قرابةٍ روحيّةٍ تحقّقت بموت يسوع. وقد اكتسبت هذه القرابة بصفتها «المرأة» التي اصطفاها الآب كي تكون لابنه أُمًّا، وشريكةً في عمليّة الفداء. وقد استحقّ يوحنّا، بامتيازٍ، العناية بأُمّ يسوع، لأَنّه، وحده، وقف إِلى جانبها عند أَقدام الصليب.

وحدها مريم كانت تدرك أَبعاد ما يحدث، رغم آلامها المبرّحة، وكان إِيمانها بتحقيق الفداء صامدًا، منتظرًا.

وعقب قيامته أَطلق يسوع على جمهور رسله اسم إِخوةٍ، فكانوا جميعهم متضامنين مع يوحنّا في حماية مريم، ومشتركين في نعمة حمايتها.

بقوله، في قانا، «مالي ولكِ، يا امرأة، إنّ ساعتي لم تَحِنْ بعد»، كان يسوع يعني أنّ انتصاره النهائيّ سيحين عندما ستكتمل رسالته ومهمّته الفدائيّة، بصلبه وقيامته، وحينها ستكون أُمّه إلى جانبه أبديًّا، وستنال منه كلّ ما تريد من عظائم ومعجزاتٍ.

وبفضل أُمومتها الإلهيّة أَصبحت مريم هي قناة نِعَم الله ومواهبه للبشر. ووفقًا لتعبير القدّيس توما الأكوينيّ: «بولادتها فجّرت مريم الحياة الإلهيّة، في جميع البشر».

في مشروع الخلاص لا يمكن فصل مريم عن يسوع. فمذ تقرّر تجسّد ابن الله، كانت مريم حاضرةً في بال الخالق. وهي، بموافقتها على أَن تكون أُمّ المخلّص، أَصبحت أُمّ المخلَّصين، وباقتسامها، مع ابنها، آلام الفداء والصلب أَضحت شريكةً في خلاصنا. وعندما أَعطى يسوع يوحنّا أُمّه أُمًّا، جعلنا، من خلال يوحنّا، أَبناءً لها، وإِخوةً له. وهي، باتّحادها بالمخلّص، جاءتنا بحياة النعمة الفائقة الطبيعة، وولدتنا للحياة الإلهيّة الخالدة، وغدت أُمّنا الروحيّة.

باسم جميعنا قبلت مريم أَن يُسفَك دم ابنها من أَجل افتدائنا. وسط دويّ الرفض والخيانات، هي وحدها، باسم جميع الأَجيال، وفي وعيٍ وجيعٍ، كرَّرت إِعلان نَعَمها لمخطّط الخلاص. دم ابنها الذي سُفك هو الدم الذي استمدّه منها. وباسم هذا الدم غدت العذراء تفيض على البشر نِعَم الخلاص.

بقولها «نَعَم» للصليب أَصبحت أُمّنا. فمن هي الأُمّ سوى تلك التي تهب الحياة؟ وأَيّة أُمومةٍ أَسمى من تلك التي تحيي النفس؟

لم تلد العذراء الفادي فحسب، بل ولدت فداءنا جميعًا.

إِنّ يسوع، بموته وقيامته، قد جعل أَباه أَبًا لنا. ولكي تكتمل وتتوثّق أَواصر أُخوّتنا معه، أَراد أَن تكون أُمّه القدّوسة أُمًّا روحيّةً لنا. قوله، على الصليب، ليوحنّا: «هذه أُمّك» كان العطاء الأَخير والأَثمن الذي يمنحه للبشريّة، ولكأَنّه ثمرة تضحيته، وتتويج عمله الفدائيّ.

يقول البابا يوحنّا بولس الثاني: «لقد أَوكل الفادي أُمّه لتلميذه الحبيب، وفي الآن عينه، أَعطاه إِيّاها أُمًّا. إِنّ أُمومة مريم التي أَصبحت للإِنسان إِرثًا، هي هبةٌ يمنحها المسيح نفسه شخصيًّا لكلّ إِنسانٍ. ولكي ننعم بثمار هذه الأُمومة الثمينة، علينا أَن

نحذو حذو يوحنّا الذي تلقّى العذراء في ذاته، وفي أناه، وفي حياته، وفي بيته».

والمجمع الفاتيكانيّ الثاني أعلن: «ولدت العذراء بكرها الذي جعله اللّه بكرًا لإخوةٍ كثيرين، أي للمؤمنين الذين تساهم، بحبّها الأُموميّ، في ولادتهم وتربيتهم».

ومن ثمّ تحتلّ مريم مكانةً مركزيّةً بين اللّه والبشر. فابن اللّه تلقّى منها الطبيعة البشريّة، وولج مسرح البشريّة عن طريقها. عندها انتهت الأَجيال السابقة، وهي كانت باب الأَجيال اللاحقة التي تنعم بالفداء. إنّها، مع يسوع، مركز تاريخ الخلاص، فمن خلالها تحقّق عبور ابن اللّه إلى الطبيعة البشريّة، وإلى تاريخ البشر.

ولم تكن أُمومة مريم الإلهيّة وظيفةً عابرةً لا يبقى منها سوى ذكرى جميلةٍ، بل هي حالةٌ دائمةٌ أَبديّةٌ. فيسوع لم ينسَ، ولن ينسى، يومًا، أَنّه تلقّى من والدته العذراء، طبيعته البشريّة، وكلّ ما غمرته به من حبٍّ ورقّةٍ. فلا عجب إن هو ابتغى أَن ننال منه كلّ شيءٍ بواسطتها.

يقول القدّيس غرينيون دي مونفور: «السيّدة العذراء هي الواسطة التي استخدمها الربّ كي يأتي إلينا. وهي وسيلتنا للمضيّ إليه. ليست كسائر الخلائق التي قد يؤدّي تعلّقنا بها إلى إبعادنا عن اللّه، عوضًا عن تقريبنا منه. إنّ نزعة مريم الأَشدّ قوّةً هي تحقيق وحدتنا بابنها يسوع، ونزعة ابنها الأَشدّ قوّةً هي اجتذابنا إليه من خلال أُمّه القدّوسة.

«لم يُعطِ الآب، ولا يُعطي ابنه شيئًا إلاّ بها. ولا يتّخذ أَبناءً إلاّ بها، ولا يبلّغ نعمه إلاّ بها. إنّ اللّه الابن لم يتكوّن من أَجل جميع العالم إلاّ بها، ولم يولد إلاّ بها، في اتّحادٍ مع الروح القدس، ولا يبلّغ استحقاقاته وفضائله إلاّ بها. والروح القدس لم يكوّن يسوع إلاّ بها، ولا يصوغ أَعضاء جسده السرّيّ إلاّ بها، ولا يسبغ نعمه ومواهبه إلاّ بها».

في منشورٍ رسوليٍّ بتاريخ ٢٢ آذار ١٩١٨، كتب البابا بنيدكتُس الخامس عشر: «يُجمع معلّمو الكنيسة على الإقرار بأَنّ القدّيسة العذراء مريم، وإن هي غابت عن حياة يسوع العلنيّة، إلاّ أَنّها كانت إلى جانبه، عندما سار نحو الموت، وسُمّر على الصليب، وقد كانت هناك بتدبيرٍ إلهيٍّ، إذ إنّها، بشراكةٍ مع ابنها المتألّم، المحتضر، عانت هي أَيضًا، الأَلم وما يشبه الموت. وفي سبيل خلاص البشر، تنازلت عن

حقوق أُمومتها لابنها، وإِرضاءً للعدل الإِلهيّ، ضحّت بابنها، بحيث يمكن التأكيد، بصوابٍ، أَنّها، مع ابنها، افتدت الجنس البشريّ. ولهذا السبب يمكن القول إِنّ جميع أَصناف النعم التي نستمدّها من الله، تأتينا من يد العذراء المتألّمة نفسها. وبالتالي، من لا يرى أَنّ البشر ينتظرون منها نعمة الموت الصالح، بما أَنّ عمل الفداء يكتمل بهذه العطيّة القصوى المجدية، لكلّ فردٍ، وللأَبد؟».

وقد أَكّد البابا بيّوس الحادي عشر قول سلفه بنيدكتُس الخامس عشر، فقال: «إِنّها أُقيمت أُمًّا للبشر، وهي تلفّ بحمايتها المُحبّة الأَبناء الذين أوكلوا إِليها، بما يمكن تسميته وصيّة الحبّ الإِلهيّ».

وكتب البابا لاوُن الثالث عشر، في ٢٨ شباط ١٩٣٣، بمناسبة الذكرى الخامسة والسبعين لظهورات لورد: «إِنّ العذراء القدّوسة، المولودة منزّهةً من الخطيئة الأَصليّة، قد اختيرت أُمًّا للمسيح، لكي تصبح شريكته في فداء الجنس البشريّ، وبسبب ذلك اكتسبت نعمةً كبرى، وقدرةً لدى ابنها، من العظمة، بحيث لا قِبَل لا للطبيعة البشريّة، ولا للطبيعة الإِنجيليّة، على اكتساب أَعظم منها».

وكتب البابا بيّوس الثاني عشر: «إِنّ المسيح وأُمّه متّحدان اتّحادًا لا فكاك عنه، في كلّ تاريخهما، وحتّى في ما وُجدا من أَجله. ولم يخطر أَحدهما بفكر الله وبإِرادته، بمعزلٍ عن الآخر. كلاهما ثمرة غايةٍ واحدةٍ».

إِنّ الله أُسرةٌ. إِنّه، في آنٍ واحدٍ، أَبٌ وابنٌ، وروح حبٍّ. والمسيحيّون شركاء في حياة هذه الأُسرة. فبالمعموديّة نتماهى مع المسيح. وإِذ نُعَمّد باسم الثالوث الأَقدس نتلقّى اسم عيلته، ونصبح، في الابن، أَبناءً، ونلج، حقًّا، في صميم حياة الثالوث، حيث يغمرنا حبٌّ أَبديٌّ. والله مقامه السماء، ولكنْ، مع يسوع، وبمريم، انحدرت السماء إِلى الأَرض.

كلّ أُسرةٍ تفترض وجود أُمٍّ. ووحده يسوع اختار أُمّه، اختارها من أَجل كلّ الأُسرة التي تبنّاها. وهو الآن يقاسمنا كلّ ما يملك. حياته الإِلهيّة هي حياتنا، وبيته هو مسكننا، وأَبوه هو أَبونا، وإِخوته إِخوتنا، وأُمّه، أَيضًا، هي أُمّنا. فالأُسرة لا تكتمل إِلاّ بأُمٍّ محبّةٍ. هذا ما تبيّنه المسيحيّون الأَوّلون الذين تحلّقوا حول مريم في العلّيّة، ورسموا صورتها في الديامس حيث كانوا يختبئون ويقتسمون المائدة المقدّسة.

وقد ظهرت دائمًا العذراء في الإيقونات تحمل ابنها على ذراعيها كي تقدّمه للعالم. تشير إليه بيدها، وعيناها محدّقتان إلى جميع أبنائها الآخرين، تضمّه إلى صدرها مثلما تضمّ جميع إخوته المتشرّدين في كلّ أصقاع العالم، وتدعوهم إليه.

وعلى غرارها، على كلّ مسيحيٍّ أن يكون لإخوته أُمًّا.

إنّ دور مريم لا يُفهَم، حقًّا، إلاّ في سياق تاريخ الخلاص. فقد شاء الله أن يتمّ الفداء من خلالها، فاحتلّت موقعًا وسطًا بين الله والبشر. لقد عُصمت، منذ لحظة تكوينها، من لوثة الخطيئة الأصليّة، بنعمةٍ خاصّةٍ ممَّن أعدّها لتكون أُمّه، وهذا يوليها، إلى جانب ابنها، مكانةً مميّزةً عن كلّ الجنس البشريّ، يؤهّلها لكي تمارس، مع ابنها، وبالاعتماد عليه، وظيفة وسيطةٍ بين الله والبشر. هذه الوساطة حقٌّ طبيعيٌّ ليسوع الفادي، بفضل كرامته الذاتيّة وألوهته، ولكنّها، عند مريم، نعمةٌ تأتيها من ابنها.

على الوسيط ألاّ يكون للضعيف عدوًّا، ولا مع المعتدي متواطئًا. وكان لا بدّ لمريم أن تكون منزّهةً من كلّ خطيئةٍ كي تنال الغفران، ولكي تسحق رأس الشرّير الذي يؤتي البشر الموت. هي الوحيدة التي لم تنلْ منها الخطيئة، كان بوسعها قهر الشرّير.

وقد أجمع آباء الكنيسة، منذ القرون الأولى، على مكانة العذراء الفريدة، في مسيرة الخلاص، وعلى وساطتها الأساسيّة. فالقدّيس إيريناوس قال إنّها «سبب الخلاص». وقال ترتوليانُس (٢٢٢+): «إنّ الخطيئة التي سبّبتها سذاجة حوّاء، أبطلها إيمان مريم». والقدّيس أفرام (٣٧٣+) حيّى فيها «السفينة المقدّسة التي، بها، أُنقذنا من طوفان الضلال». أمّا القدّيس أوغسطينُس فقال: «بامرأةٍ قُذِف بنا إلى الموت، وبامرأةٍ أُعيد لنا الخلاص». والقدّيس يوحنّا الدمشقيّ (٧٤٩+) يشيد بالعذراء، إذ «بها أُعتِقنا من اللعنة». القدّيس أنسيلم (١١٠٩+) يدعوها «سبب المصالحة العامّة»، والقدّيس بيرنار (١١٥٣+) يهتف لها: «أيّتها المرأة الجديرة بتكريمٍ منقطع النظير، الرائعة بين جميع النساء، أنت تُصلحين خطأ أجدادنا، وتهبين ذرّيّتهم الحياة».

الكنيسة الشرقيّة رأت فيها شريكة ابنها في عمل الخلاص، وتوسّمت في ولادتها فجر الفداء، وأنشدت في عيد ميلادها: «في هذا اليوم وُلدتِ، يا ابنة البارَّيْن يواكيم وحنّة الموقّرة، يا سماء الله وعرشه، يا إناء الطهر، ويا مبشّرة العالم أجمع بالفرح، يا حامية حياتنا، وماحية لعنتنا، ومانحتنا، بديلاً عنها، البركة».

ويقول القدّيس غرينيون دي مونفور: «من أَجل الحصول على نعمة الله ينبغي العثور على مريم، لأَنّها الوحيدة التي وجدت حظوةً لدى الله، من أَجلها، ومن أَجل كلّ إِنسانٍ؛ لأَنّها منحت الكيان لخالق كلّ نعمةٍ، دُعيت أُمّ النعمة؛ ولأَنّ الله الآب الذي منه تنحدر كلّ عطيّةٍ كاملةٍ انحدارها من منبعها الجوهريّ، بإِعطائها ابنه، أَعطاها النِعَم كلّها؛ ولأَنّ الله اختارها خازنةً وموزّعةً لكلّ النِعَم، بحيث تمرّ، من خلال يديها البتوليّتين، كلّ نِعَمه وكلّ مواهبه. وبفضل هذه القدرة التي حظيت بها، وبحسب قول القدّيس بيرناردان، هي تهب لمن تشاء، وكما تشاء، ولمّا تشاء، وبقدر ما تشاء، نِعَم الآب الأَزليّ، وفضائل يسوع المسيح، ومواهب الروح القدس. بذلك يُغني العليّ، ويرفع، ويكرّم تلك التي افتقرت، واتّضعت، واختبأت، حتّى هوّة العدم، بتواضعها السحيق، سحابة حياتها».

إِنّ تلك التي لم تعانِ آلام المخاض عندما وضعت يسوع، عانت آلامًا أَشدّ إِيجاعًا، عند أَقدام الصليب، أَهّلتها لتكون أُمّ البشر أَجمعين. ولا عجب إِن دعاها يسوع، عندما أَوكل إِليها هذه الأُمومة الشاملة: «يا امرأة».

وتلك التي ضحّت بابنها من أَجل خلاصنا، أَلا تهبنا كلّ ما يفيد نفوسنا؟ يقول القدّيس بونافنتورا: «كان إِبراهيم مستعدًّا للتضحية بابنه، ولكنّه استطاع الاكتفاء بتقدمة كبش. أَمّا العذراء المجيدة فقد ضحّت بابنها. وقد امتدح الإِنجيل الأَرملة الفقيرة، لأَنّها قدّمت كلّ ما تملك من مالٍ، أَمّا العذراء المليئة رحمةً، الورعة، المستسلمة كلّيّةً لله، فقد قدّمت كلّ جوهرها، فاستحقّت، لكلّ الجنس البشريّ، المصالحة، ولذلك على كلّ مسيحيّ أَن يضطرم اندفاعًا في تكريمها».

أَمّا عن وساطة العذراء، فقد أَكّد البابوات المتعاقبون جدواها وأُسُسَها.

فبيّوس التاسع كان قد أَعلن في ٢شباط ١٨٤٩: «كلّ ثقتنا قائمةٌ على الكلّيّة القداسة مريم؛ فقد أودع فيها الله ملء كلّ خيرٍ...كلّ ما فينا من رجاءٍ، وكلّ ما فينا من نعمةٍ وخلاصٍ ينبع منها... تلك هي مشيئة من أَراد أَن نتلقّى كلّ شيءٍ عبر مريم».

وأَعلن البابا لأُون الثالث عشر: «بمشيئة الله، لا شيء، على الإِطلاق، يعطى لنا إِلاّ بواسطة مريم، لقد رفعت إِلى قمّة المجد السماوي، ومنها، حسب مرامي الله،

شرعت تسهر على الكنيسة، وتساعدنا على وقاية نفوسنا، مثل أُمٍّ، بحيث إنّها، بعد أن كانت متعاونةً في فداء البشر، أَصبحت، أَيضًا، بفضل القدرة العظيمة التي وُهبتها، موزّعةً للنعمة النابعة من هذا الفداء، في جميع الأَزمنة».

وقال البابا بيّوس العاشر: «بفضل شراكة الآلام والإِرادة بينها وبين المسيح، استحقّت مريم أَن تصبح مصلحة العالم الساقط، وبالتالي موزّعة جميع العطايا التي اكتسبها لنا يسوع بموته وبدمه».

أَمّا البابا بيّوس الحادي عشر فقال: «مع كون يسوع الوسيط الوحيد بين اللّه والبشر، شاء اللّه أَن يشرك معه أُمّه، كي يجعلها محامية الخطأة، وكذلك موزّعة النعمة ووسيطتها».

بصفتها أُمّ المخلّص وشريكته في تضحية الفداء، ثمّ لكونها مُمجّدت معه فهي تبلّغ كلاًّ منّا ثمار التضحية والقيامة.

إِنّ فهمنا للعذراء هو معيار فهمنا ليسوع، ولعمله الخلاصيّ. ونحن نثبت أَنّنا أَبناءٌ بررة لمريم بقدر ما نحسن الإِصغاء إِليها، وبقدر ما نحبّ كما هي أَحبّت. نصغي إِليها عندما ننفّذ وصيّتها: «مهما يقُل لكم فافعلوه». ونحبّ مثلها عندما نبقى إِلى جانبه، حتّى عند الصليب، وعندما نختاره، ونؤثره على كلّ شيءٍ، وكلّ من سواه.

الأُمومة الإِلهيّة هي المكان الذي يريد اللّه أَن يجد فيه المسيحيّون أَخاهم يسوع. ولا ريب أَنّ إِعطاءَنا مريم ابنها أَمرٌ رائعٌ، ولكن أَن يهبنا يسوع أُمّه – نحن صالبيه والخاطئين تجاه أَبيه – فهذا يفوق الفهم.

وإِنّما فعل يسوع ذلك كي يوثّق وحدتنا من خلال أُمّه التي جعل منها قناة نِعَمه، وأَداة خلاصه.

فمريم، من جرّاء اتّحادها الحميم بابنها يسوع تنهض بمهمّة رحمةٍ ومحبّةٍ حيال كلّ أَعضاء جسده السرّيّ. إِنّها، إِلى الأَبد، أُمّهم، وأَمّ حياتهم الإِلهيّة، أُمٌّ لا تني تلدهم لهذه الحياة، وتحميهم، وتحملهم، وتغذّيهم، وتدعمهم، وتثقّفهم، وتقودهم نحو قلب يسوع، ونحو الآب، بتعليمهم الخضوع الكامل لإِيحاءات الروح القدس.

من الراعي الصالح، تعلّمت أَن تعرف كلاًّ منّا باسمه، وتتبيّن احتياجاتنا، وأَسرار قلوبنا. ومعرفتها فاعلةٌ، محبّةٌ، مجديةٌ، وحبّها حبّ أُمٍّ يجمع قلبها وعقلها بقلب كلٍّ

من أَبنائها وبعقله. إِنّها أُمٌّ مهداةٌ، بكلّيّتها، لنفوسنا، من قبل يسوع والآب، كي تلدنا للحياة الأَبديّة.

حبّها لنا هو حبّ الأُمّ الذي قال فيه ڤيكتور هوغو:

«يا لحبّ الأُمّ، الحبّ الذي لا يُنسى!

إِنّه خبزٌ يكسره الله ويكثّره،

كلٌّ ينال منه حصّته، وكلٌّ يظفر به كاملاً،

كلّ ذرّةٍ منه تحتوي الله الحيّ كاملاً».

أُمومتها لابن الله كلّفتها تضحياتٍ جمّةً. فعندما توارى يسوع في الهيكل، وهو ابن اثني عشر عامًا، أَفهمها أَنّ عليها أَن تضحّي بحقوق الأُمومة في سبيل رسالة الآب، ولطالما أَعلن على الملأ أَنّ أَواصر قرباه مرهونةٌ بمدى التزام الآخرين بمشيئة الآب.

في مرحلةٍ أولى ضحّت مريم بالخصب الطبيعيّ، فأَصبحت أُمًّا لابن الله. وفي مرحلةٍ ثانيةٍ ضحّت بابنها الوحيد الحبيب، فأَضحت أُمًّا لجميع أَبناء الله المشتّتين الذين لمّ شملهم جسد ابنها المحطّم على الصليب.

ولكأَنّي بها هي من أَشار إِليها قول نشيد الأَناشيد: «جعلوني ناطورةً للكروم، والكرم الذي لي لم أَنطره». فهي، في سبيلنا، ضحّت بابنها الخاصّ.

عند أَقدام الصليب، ارتضت مريم أَن تضحّي بحضور يسوع جسديًّا، كي تكون أُمًّا روحيّةً ليوحنّا، ولجميع من يمثّلهم. وتضحيتها هذه أَبديّةٌ. وإِنّما نحن، أَبناء آلامها.

قال البابا يوحنّا بولس الثاني: «باختياره مريم أُمًّا للبشريّة جمعاء، شاء الآب السماويّ الكشف عن جسامة حنانه الإِلهيّ الذي يمكن وصفه بالأُموميّ».

وكان البابا بيّوس الثاني عشر قد قال: «إِنّ تلك التي كانت، جسديًّا، أُمّ رأس جسدنا السرّيّ، أَصبحت، روحيًّا، أُمّ جميع أَعضائه، تحت رايةٍ جديدةٍ، راية الأَلم والمجد».

وهي، كما كانت في عرس قانا، دائبة السهر على احتياجاتنا، تنقلها إِلى يسوع وتلبّيها، تهدّئ اضطراباتنا النفسيّة، وتبسّطها، وتزيلها، وتحلّ عقدها، بحبّها الأُموميّ العذب، وتسكب على كلّ شيءٍ فينا رقّتها.

لقد حقّق يسوع معجزته الأولى في قانا، استجابةً لرغبة أُمّه، وسيظلّ إِلى الأَبد يغدق معجزاته تلبيةً لرغباتها، فهو ما زال في السماء ابنها وإِلهها.

إِنّ مريم في السماء، ولكنّها ليست بعيدةً عنّا. إِنّها مع يسوع، وهي معه من أَجلنا.

وبما أَنّها، بجسدها في السماء، فهي تظهر، أَحيانًا لأَبنائها، في منفاهم الأَرضيّ، تعزّيهم، وتشدّ من عضدهم، وتشجّعهم، وتذكّرهم بمقتضيات الحياة المسيحيّة، مقدّمةً إِشاراتٍ من شأنها إِيقاظ إِيمانهم، وهزّ إِنكارهم ولامبالاتهم، وملوّحةً بلمحاتٍ عمّا ينتظرهم في السماء.

ولكنّ أُمومة مريم لن تبلغ ملئها حتّى تكتمل ولادة ابنها في كلٍّ من إِخوته البشر المفتدين بدمه. فبما أَنّنا أَعضاء في جسده السرّيّ، ستستمرّ ولادة العذراء، حتّى نولد للحياة الحقّة. وإِن هي لم تعانِ آلام المخاض بيسوع، إِلاّ أَنّ مخاضها بنا يكلّفها آلامًا جمّةً ومستمرّةً.

وكما أَنّ ابن الله الأَزليّ لم يصبح بشرًا إِلاّ باتّخاذه من مريم أُمًّا، كذلك نحن لن يتاح لنا أَن نصبح أَبناء الله إِلاّ إِذا اتّخذنا تلك الأُمّ عينها أُمًّا. فهي قد كُرِّمت بكلّ الامتيازات، لأَنّها كانت معدَّةً لتكون أُمّ يسوع، وأُمّ جميع تلاميذه وأَتباعه، ولأَنّ البشر، بواسطتها، يجدون يسوع، ويبلغون عالم النعمة.

تلك التي كانت أُمّ المخلّص على الأَرض، هي، أَيضًا، أُمّه في السماء، ومن ثمّ تتمتّع بكرامةٍ منقطعة النظير. وفي هذا السياق يقول الكردينال دي بيرول (de Bérulle): «علاقة يسوع بالأَقانيم الإِلهيّة علاقةٌ أَزليّةٌ. أَمّا علاقته بالعذراء، فهي حديثةٌ وقريبة العهد، ولكنّها ستدوم أَبدًا، فهذه العذراء المقدّسة هي، وستظلّ، أَبدًا، أُمّ يسوع. وهذه الصفة تلازمها في السماء، مثلما لازمتها على الأَرض...»

أُمومة مريم لنا هي أُمومةٌ روحيّةٌ، توقظنا على الحياة الإِلهيّة، وتقودنا إِلى التألّه الذي يدعونا إِليه الربّ. فهو، بجعلها أُمًّا لإِخوته، وسّع قلبها إِلى ما لا حدّ له، بحيث غدا كلٌّ منّا، لها، ابنًا وحيدًا، مثل يسوع.

وقد كتب البابا لاون الثالث عشر: «بعد أَن رُفعت (العذراء) إِلى السماء، إِلى جوار ابنها، شرعت تسهر على الكنيسة، وتحمينا كما تفعل أُمٌّ. ذلك كان مخطّط اللّه: بعد أَن تكون قد أَدّت دورها كوسيطةٍ، في تحقيق سرّ الفداء، أَن تصبح كذلك، وسيطة النعمة التي من شأن هذا السرّ إِفاضتها في جميع الأَزمنة، وأَن تنعم، في سبيل ذلك، بقدرةٍ قد تكون بلا حدودٍ».

كلّ ما هو بشريٌّ في يسوع يأتيه من مريم. غير أَنّ اللّه، بصيرورته إِنسانًا في أَحشائها، قد ضرب جذورًا في البشريّة كلّها، وفي الخليقة. وبذلك يتجلّى وجه وساطة مريم التصعيديّة. فهي طريق تصعيد الإِنسان صوب اللّه. وهي، في الآن عينه، درب مجيء اللّه إِلى البشر. فقد تلقّت من الآب، مباشرةً، مخلّص البشر، وأَمست قناة نعمته. وبموافقتها على التجسّد، وعلى ولادة المخلّص، وافقت على الخلاص الذي جاء به. كانت قلبًا واحدًا، وإِرادةً واحدةً مع يسوع الذي قدّم ذاته لخلاص العالم.

نزلت النعمة على مريم منذ ولادتها، وبالنعمة صعدت مريم إِلى السماء، إِلى قلب الثالوث. وقد أَلفت هذه الحركة المزدوجة من نزولٍ وصعودٍ، وتبادلٍ مستمرٍّ. إِنّها وسيطة النعم، وقناة الملك المحبّ لخليقته، التي تفيض علينا الغفران والعزاء، والتقديس. وهي، أَيضًا، تزورنا في حميميّتنا وتصعد إِلى ابنها، كي تكون، مع الروح القدس، محاميتنا لدى الآب.

إِنّها تحبّنا حبًّا يثقّفنا، ويجعلنا متوافقين مع المصلوب.

منذ زيارتها إِلى بيت إِليصابات، ما فتئت تزور قلوب البشر في كلّ جيلٍ، حاملةً إِليها ابنها يسوع. وقد وصفها البابا يوحنّا بولس الثاني بأَنّها «أولى المبشَّرات، وأولى المبشِّرات».

في البشارة، وفي الجلجلة، وعند أَقدام الصليب، كانت العذراء تمثّل البشريّة كلّها.

وهي، أَبدًا، إِلى جانب الجنس البشريّ، إِلى جانب المتواضعين، مثلما كانت في قانا. فالخمرة العجيبة التي وفّرها يسوع إِنقاذًا لفرح عريسين في الجليل، إِن هي سوى رمزٍ للخمرة التي سينتشي بها العالم، وهو إِنّما يفيضها تلبيةً لطلب مريم، واستجابةً لوساطتها.

لقد حباها اللّه حجمًا فائقًا، وأَوكلنا إِلى حنان أُمومتها. وقد شاء أَن تكون شفيعتنا لديه. هذه الشفاعة أَرادتها العناية الإِلهيّة، وأَرادتها مجديةً، وشاملةً. وهي تتجلّى من خلال حضورها حضور الصديق في نفس صديقه. وشفاعتها فعّالة، لأَنّها، مثلما تشارك ابنها كلّ خصاله، تقاسمه قدرته ورحمته. وهي الكائن المختار والمتميّز الذي تحقّق به اتّصال اللّه بكلّ الجماعة البشريّة، عبر تجسّد الكلمة.

إِنّها تشفع بالبشر بصفتها أُمًّا للمخلّص الذي تعرف قدرته الكلّيّة، وحبّه اللامحدود، وتريد أَن ينعم بهما البشر. وبصفتها أُمًّا للبشر، تبسط بين يدي ابنها احتياجاتهم، وتدعوه إِلى تخفيف مشاقّهم وأَعبائهم، وإِلى إِعتاقهم من الشرّ الذي يفسد حياتهم. وهي، في الآن عينه، تكشف للبشر عن حقيقة مشيئة ابنها، مردّدةً ما قالته في قانا: «افعلوا ما يقوله لكم».

عندما أَعطاها اللّه ابنه، أَسبغ عليها كلّ النعم، وجعلها **الوسيطة الكونيّة** بين اللّه والبشر. وفي هذا السياق كتب القدّيس «غرينيون دي مونفور»: «لقد أَقامها العليّ القيّمة الوحيدة على كنوزه، وموزّعة نِعَمه، كي تكرّم من تشاء وترفعه، وتغنيه، وكي تُدخل من تشاء في درب السماء الضيّق... بين يدي مريم وحدها أُودعت مفاتيح مخازن الحبّ الإِلهيّ، وقدرة انتهاج أَسمى دروب الكمال، وأَكثرها سرّيّةً، وقدرة إِدخال الآخرين إِليها...»

وفي هذا السياق عينه يؤكّد القدّيس يوحنّا الدمشقيّ أَنّنا مدينون للعذراء بكلّ الخيرات التي يهبناها يسوع. فالمسيحيّ لا يبلغ إِلى يسوع إِلاّ من خلال مريم، إِذ لا بدّ من شفاعتها ولاسيّما لمن يصبون للقداسة والكمال.

ويضع جان غيتّون قول المسيح: «إِن لم تصيروا كالأَطفال، فلن تدخلوا ملكوت السماوات» في قالبٍ آخر، فيقول: «إِن لم تصبحوا كالأَطفال منبثقين من أُمومة مريم، ودائرين في فلكها، فسيكون ولوجكم إِلى الملكوت أَشدّ صعوبةً».

لقد حلّ الروح القدس على مريم فجعلها أُمّ اللّه، وهو يحلّ علينا كي يجعلنا أَبناءها، بجعلنا أَبناء اللّه من خلالها. وحيثُما تكون العذراء، يحلّ الروح القدس.

منذ انتقالها إِلى السماء، ما انفكّت تحصل لنا، في الوقت المناسب، على ما استحقّه لنا يسوع، وما استحقّته هي، في أَثناء حياتهما على الأَرض، وخاصّةً في

الجلجلة. وإنّما صورتها الشهيرة، وهي حاملةٌ بين ذراعيها، جثمان ابنها الذي فارقته الحياة (La Pieta) لا تعبّر فقط عن الحزن، بل هي صورة الأُمّ التي تقدّم للآب قربان المصالحة، وفدية البشر، ونبع كلّ النعم التي أُودعت بين يديها.

بانتقالها إلى السماء أَصبحت مريم حاضرةً لدى الله، وحاضرةً للعالم على نحوٍ جديدٍ فائق الجدوى، إِذ إنّ علاقتها بابنها، التي انعقدت بحملها وولادتها له على الأَرض، اكتسبت، في السماء، منعةً يتعذّر وصفها، وقدرةً لامحدودةً على توفير رحمةٍ كبرى للمؤمنين الذين يتوسّلونها. إِنّها أُذنٌ مصغيةٌ لسماع شكاوى المقهورين، وعينٌ ساهرةٌ على أَحزان أَبنائها. إِنّها وسيطةٌ تتوسّل لدى ابنها، ومع ابنها، من أَجلهم. وتلك الممجّدة في السماء، تعمل لصالح الأَرض، ولاسيّما من أَجل ازدهار الحياة الروحيّة فيها، ومن أَجل من يعانون، في قلوبهم، عبوديّة الخطيئة، والذين يقاسون الاضطهاد والاستشهاد، ولكنّهم يحيون في رجاء الخلاص، رجاءٍ هي صوته، فقد أَثبتت أَنّها المثال الأَسمى لمن لا يستسلمون استسلامًا سلبيًّا لظروف الحياة الشخصيّة والاجتماعيّة المناوئة، ويأبون أَن يكونوا ضحايا الاستلاب، بل يضمّون صوتهم إِلى صوتها، معلنين أَنّ الله هو الذي ينتقم للمقهورين، وإِن دعت الضرورة، يقلب المتسلّطين عن عروشهم.

وإِن كان اهتمام العذراء ينصبّ، أَوّلاً، على احتياجات متوسّليها الروحيّة، فهي لا تزدري احتياجاتهم الزمنيّة، ولاسيّما السلام، والعدل الاجتماعيّ، والتقدّم، وصون الحرّيّة والكرامة، ومقارعة الفقر والجوع، وتعميم المعرفة.

لقد قدّست مريم يوحنّا السابق، وهو جنينٌ، وثبّتت إِيمان تلاميذ ابنها الأَوائل في قانا، وبها نمّى يسوع إِيمان تلميذه الحبيب يوحنّا، إِذ وهبه إِيّاها أُمًّا. وبحضورها، تمّت العنصرة، وحلّ الروح القدس على التلاميذ.

وإِثر انتقالها إِلى السماء باتت شفاعتها أَكثر منعةً. فهي تعرف احتياجات أَبنائها الروحيّة، خيرًا من معرفتهم لها، وتوفّرها لهم، إِذا التمسوها منها بتواضعٍ، وثقةٍ، ومثابرةٍ، وتجرّدٍ، وبما يتوافق مع مشيئة الله.

وقد شُبّهت العذراء بالعنق الذي يربط الرأس بالجسد، وينقل إِليه، منه، دفق الحياة.

بعملها تمتزج مريم بكلّ شيءٍ في حياتنا، وتزوّدنا بكلّ ما هو إلهيّ، على مدى وجودنا، منذ المهد، بل قبله، حتّى اللحد، بل بعده. كلّ ما نناله من نِعَمٍ يمرّ عبرها. إنّها تصوغ كياننا في المسيح، وتدمغ كلّ شيءٍ بطابعها، وتضفي كمالاً على كلّ ما تمسّه يداها. كلّ مسيحيٍّ هو ابن مريم، ولا يكون جديرًا بهذا الاسم، إن لم تكن أُمُّه قد صقلت كيانه.

ومريم هي **أُمّ الرحمة**: والرحمة ليست فضيلةً كامنةً في الشعور، بل هي مقيمةٌ في الإرادة. يقول القدّيس أوغسطينُس إنّه أكثر مجدًا لله انتزاع الخير من الشرّ، من خلق شيءٍ من العدم. وإنّ هداية خاطئٍ بمنحه حياة النعمة أعظم من الإبداع من لا شيءٍ.

ومريم هي شريكةٌ في هذا العمل الإلهيّ. إنّها أُمّ الرحمة، لأنّها أُمّ النعمة الإلهيّة.

وأُمّ الرحمة تذكّرنا بأنّ الله، الكائن، والحقيقة، والحكمة، هو، أيضًا، الطيبة والحبّ، وأنّ رحمته اللامحدودة تنبع من طيبته وحبّه اللّذين يتغلّبان على عدله.

ومريم هي **شافية المرضى**: إنّها بحرٌ بلا شواطئ للأشفية العجيبة التي تشفي الأجساد كي تزيل أمراض النفس.

فهي تشفي من الشهوات الجسديّة والفكريّة، من شهوة المتعة، والأمجاد، والثروة.

وتشفي من التخاذل دون الخير والكمال، وتسبغ على الإرادة منعةً، لكي تزدري إغراءات العالم، وتلقي بذاتها بين ذراعي الله. إنّها تثبّت المتأرجحين، وتُنهض الساقطين.

إنّها تبدّد غياهب الجهل، وتقي من الضلال. تذكّر بالحقائق السامية التي تختزلها صلاة «أبانا»، التي تقرن البساطة بالعمق، وترقى بالفكر صوب الله. تفضح أكاذيب الشرّير، وتشفينا من الكسل في التماس الحقّ، وتبلغ بنا إلى معرفةٍ عذبةٍ لأمور الله.

إنّها تشفي من جراح الخبث، بإنذاراتٍ رقيقةٍ، أو بعقاباتٍ قاسيةٍ. برقّتها تلجم سورات الغضب، وبتواضعها تروّض الكبرياء، وتدرأ تجارب إبليس، وبحبّها توحي بالاستعاضة عن الثأر بالمصالحة.

ومريم هي **ملاذ الخطأة**: تمقت خطيئتهم. ولذلك تجهد في تحريرهم منها،

ومصالحتهم مع ابنها، وتحمي التائبين من هجمات إبليس، ومن الكبوة مجدّدًا. وكم من الخطأة مدينون لها ولابنها بخلاصهم! إِنّ الارتدادات التي تحقّقت بواسطتها لا تحصى.

إِنّها قدّيسةٌ تشركهم بقداستها، وطاهرةٌ تشركهم بطهرها، وجميلةٌ تشركهم بجمالها. هذا ما أَوجزه خوري أَرس بقوله: «كلّما أَغرقنا في الخطيئة، ازدادت العذراء، حيالنا، حنانًا وعطفًا. فالولد الذي كلّف أُمّه القسط الأَوفى من الدموع هو الأَغلى على قلبها... وقلب مريم لا ينطوي إلاّ على الرأفة».

ومريم هي **معزّية الحزانى**: منذ وجودها على الأَرض كانت معزّية الرسل وسندهم، بحضورها وصلاتها. الروح القدس يوصف بالمعزّي، لأَنّه يدفع إِلى التوبة التي تحرّر من وقر الخطيئة، ويلهم الأَفكار الصالحة التي تقضي على القنوط، وتشيع الفرح. إِنّها تعرف احتياجاتنا وتلبّيها، وبفقرها وتواضعها تشيع العزاء في قلوب المحرومين والمحتقرين.

ومريم هي **سند المسيحيّين**: لأَنّها تحبّهم، وتحبّ النفوس التي افتداها ابنها بدمه. في العلّيّة حيث كان التلاميذ ينتظرون حلول الروح الموعود، كانت تلك التي ولدت الإِله المتأنّس، تشرف على ولادة جسده السرّيّ. وهذا الجسد، ما انفكّت ساهرةً على سلامته ونموّه.

وعندما يقلقها مصير أَبنائها تنحدر من عليائها كي تشدّد، بظهوراتها، يقينهم، وكي تذكّرهم، من خلال رسائلها، بواجباتهم: واجبات التوبة، والمحبّة، والإِيمان، والاستسلام للّه.

بعد أَن أَوكل يسوع المحتضر يوحنّا إِلى أُمّه، وأُمّه إِلى يوحنّا «رأى أَنّ كلّ شيءٍ قد اكتمل»، فقد كان من أَهداف رسالته إِقامة أُمّه أُمًّا لجميع تلاميذه وأَتباعه. ولو هو ابتغى الاطمئنان على مصير أُمّه فحسب، لاقتصر على تكليف يوحنّا بالعناية بها، ولما بدأ بمخاطبة أُمّه: «يا امرأة، هو ذا ابنك». فيوحنّا كانت له أُمٌّ تواكب جماعة يسوع وتُعنى به وبهم. ومن ثمّ فإِنّ العلاقة الجديدة التي أَقامها يسوع بين أُمّه ويوحنّا هي علاقةٌ روحيّةٌ صرفٌ، تشمل كلّ أَعضاء جسده السرّيّ في كلّ حينٍ. لم يكن يوحنّا، إِذن، هو المقصود شخصيًّا، بل كان يسوع يرى فيه ممثّلاً لجميع تلاميذه الذين

أَنعم عليهم بأُمومةٍ سماويّةٍ. غير أَنّ شموليّة هذه الأُمومة الكونيّة لا تفقدها شيئًا من خصوصيّتها حيال كلّ واحدٍ من تلاميذ يسوع، ولكأَنّ كلاًّ منهم هو يسوع نفسه.

عندما لقّن يسوع تلاميذه الصلاة علّمنا أَن ندعو أَباه «أَبانا»، وعلى الصليب علّمنا أَن ندعو أُمّه أُمّنا. بصلاة «أَبانا» نمضي إِلى الآب بواسطة الابن. وبصلاة «افرحي يا ممتلئة نعمةً» نمضي إِلى الابن بواسطة أُمّه.

في قانا كانت مريم قد نالت معجزةً، ولكنّها في الجلجلة نالت أُمومةً كونيّةً، وفي العنصرة دورًا بالغ الخطورة في الكنيسة.

وهكذا من الصليب، ومن أُمومة مريم لكلّ المؤمنين بيسوع وُلدت الكنيسة. وهكذا أوصى يسوع كلّ مؤمنٍ أَن يحبّ مريم مثلما هو أَحبّها. فحضورها، والعلاقة الحميمة بها هما عنصرٌ أَساسيٌّ في نموّ الحياة المسيحيّة. وإِنّ مثال يوحنّا الذي رحّب بمريم في بيته، وفي حياته، وفي قلبه، جديرٌ بأن يحتذيه كلّ مسيحيٍّ.

لقد شاء الآب، في حكمته الفائقة أَن تسهم العذراء في كلّ عمل يسوع، ولم يكتفِ باستخدامها لمنح ابنه جسدًا بشريًّا، بل أَقحمها في أَسراره وأَعماله.

وإِن كان اللّه قد أَعطانا، بالعذراء، ابنه، فأَيّ شيءٍ عسى أَن يمسكه عنّا، إِن هي تشفّعت من أَجلنا؟

غير أَن كلّ ما قدّمه يسوع من أَجل خلاصنا يظلّ عديم الجدوى، إِن لم نتعاون معه. وهذا التعاون يتحقّق بممارسة الفضائل الأَساسيّة: الإِيمان، والرجاء، والمحبّة، وأَيضًا الصبر والطاعة والعدل، والعفّة، وبالإِجمال كلّ الفضائل التي لا تتحقّق حياةٌ مسيحيّةٌ، ولا قداسةٌ، بمعزلٍ عنها. وفي هذا المضمار تلعب العذراء دورًا جوهريًّا.

فأُمومة مريم الإِلهيّة هي سند إِيماننا القائم على واقع التجسّد.

وهذه الأُمومة هي، أَيضًا، أَساس رجائنا. فمن جرّاء هشاشة وضعنا البشريّ الموصوم بالخطيئة، يبدو البون شاسعًا بين اللّه وبيننا، ويبدو ادّعاءً وقحًا أَن ندعوه «أَبانا»، متوقّعين أَن نسمع منه: «أَجل، يا بنيّ». ولكن عندما نراه، طفلاً، بين ذراعي فتاةٍ من جنسنا، ينتعش رجاؤنا.

يقول الكردينال دانييلو: «ثمّة من لا يستطيعون تلاوة «أَبانا» من جرّاء شعورهم

بعدم أَهليّتهم، وافتقارهم إِلى الاستعدادات البنويّة وإِلى النعمة. ومع ذلك بوسعهم تلاوة «السلام». فثمّة حضورٌ لمريم، حيث لا يوجد، بعدُ، يسوع والنعمة. ولذلك هناك دائمًا علاقةٌ سرّيّةٌ بين مريم والخطأة. هذا ما يشعر به، بعمقٍ، الخطأة الذين يدعون مريم، ولا يستطيعون، بعدُ، دعاء يسوع، أَو ما عادوا يستطيعون دعاءه، بسبب خيانتهم له».

وقد سئل، يومًا، الشاعر پول كلوديل لماذا يصلّي أَمام تمثال العذراء، وليس أَمام بيت القربان. فقال: «إِنّي أَتأهّب، مع مريم، لمقابلة ابنها الإِلهيّ».

والكنيسة تدعو مريم أُمّ الرجاء المقدّس، لأَنّها لا تولّد فينا رجاء الخيرات الدنيا، النافلة والخسيسة، بل رجاء الخيرات العظمى والأَبديّة.

وفضلاً عن تدعيم رجائنا في التبنّي تشيع أُمومة مريم الإِلهيّة الطمأنينة حول الإِرث الذي نناله بصفتنا أَبناء الله: أَي التمتّع الأَبديّ بالجمال، من خلال المعرفة الواضحة، والحدْس، والسكنى في حضن الآب، في اتّحادٍ حميمٍ بالجوهر الإِلهيّ، وانغماسٍ في نوره المتألّق. هذه الحظوة التي تسمو، عاليًا، فوق استحقاقاتنا، وتتخطّى كلّ توقّعاتنا، شأوًا بعيدًا، لا يسعنا أَن نرجوها إِلاّ من خلال العذراء التي أَرضعت الله.

إِنّ قرار مريم بالتعاون مع الله في عمليّة الفداء قد أَلزم الجنس البشريّ كلّه، وفقط عندما يلتزم البشر بقرار مريم يفضي هذا القرار إِلى خلاصهم.

يقول القدّيس غريغوريُس بالاماس: «لا يستطيع أَحدُ المجيء إِلى الله إِلاّ بها، إِذ إِنّه، بواسطتها فقط، جاء إِلينا. إِنّها سبب الأَحداث التي سبقتها، وطليعة الأَحداث اللاحقة، وموزّعة الخيرات الأَبديّة».

لقد أَثبتت العذراء حبّها الأَقصى للبشر، عندما ارتضت التضحية بوحيدها من أَجل خلاصهم. وفي هذا السياق يقول القدّيس أَلفونس دي ليغوري: «لو جمعنا، معًا، حبّ جميع الأَمّهات لأَبنائهنّ، وجميع الأَزواج لزوجاتهنّ، وجميع القدّيسين والملائكة لمن هم تحت حمايتهم، لما ساوت جميع ضروب الحبّ هذه، مجتمعةً، حبّ مريم لنفسٍ واحدةٍ. وما حنان جميع الأُمّهات حيال أَبنائهنّ سوى خيالٍ لما تحيط به مريم كلاًّ منّا، من حنانٍ... فلكي تلدنا لحياة النعمة، كان لا بدّ لها من التضحية

بحياة يسوعها الغالية، ومن رؤيته، بعينيها، يموت تحت هذه الآلام... ونحن مدينون بحياة النعمة التي نلناها لهذه التضحية العظمى. إنّ عطف مريم علينا، على الأبناء الذين كلّفوها كلّ هذه المشاقّ، هو عطفٌ أقصى. وما قيل عن الآب، إنّه «أحبّ العالم حتّى بذل ابنه، وحيده، لكي لا يهلك كلّ من يؤمن به. بل تكون له الحياة الأبديّة»، يمكن قوله، أيضًا، عن مريم. فما من كائنٍ يحبّنا مثلما أحبّتنا تلك التي ضحّت، في سبيل خلاصنا، بوحيدها، بابنٍ كان لها أغلى من حياتها.

وبما أنّ الله جعلها موزّعة نِعَمه، فلا بدّ من الاستعانة بها. ولذلك قال كاهنٌ قدّيسٌ: «من وجد مريم، وجد الخيرات كلّها:. ومن خشي أن تطيح به العاصفة، فليستغث بالأُمّ السماويّة. إذ لا يمكن أن تهلك نفسٌ تكرّم الأُمّ الإلهيّة بغيرةٍ وتواضعٍ، فهي لا تردّ خاطئًا مهما كان ملطّخًا بالحمأة. وفي يوم الدينونة، مهما كانت هاويةً كفّة الخاطئ، فمريم، بضغطٍ من يدها على كفّة مساوئه، ترفع كفّة حسناته التي تؤتيه الرحمة».

ولقد أسرّت السيّدة العذراء للأُخت ماري ڤيلاّني (Villani): «بعد لقب أُمّ الله، أتشرّف بأن أُدعى محامية الخطأة». وليس من هو معنيٌّ بخلاص البشر، وبالذود عنهم، بعد يسوع، أكثر من أُمّهم مريم.

إنّها باب السماء. كلّ إنعامٍ ملكيٍّ يعبر من باب القصر، وكلّ من يلج القصر، عليه العبور من هذا الباب.

يقول القدّيس پيير داميان: «لم يتجسّد الله إلاّ بموافقة مريم، لغايتين: أن يكون كلّ مُخلَّصٍ مدينًا بعمقٍ للأمّ الإلهيّة، ولكي يخلص البشر بقرارٍ منها». وقال، أيضًا، مخاطبًا العذراء: «لقد أُعطيتِ كلّ قدرةٍ في السماء وعلى الأرض، ولا شيء يستحيل عليك، حتّى إنّه بمكنتك إعادة رجاء السعادة الأبديّة لليائسين».

لقد شاء الله أن يكرّم تلك المخلوقة السامية التي أحبّته ومجّدته في هذا العالم أكثر من جميع البشر وجميع الملائكة. وأولاها من القدرة والنعم ما يؤهّلها لتكون خير وسيطةٍ وشفيعةٍ لكلّ من يلتمس عونها وشفاعتها. بواسطتها ننال ما تعجز صلواتنا وحدها عن الظفر به، فهي تحجب، أمام الله، عدم جدارتنا، وقلّة استحقاقنا.

فطوبى لمن يحيون بحماية أُمٍّ على هذا القدر من العطف والقدرة!

وأَيّ انتصارٍ على قوى الجحيم لا يوفّره هذا الدعاء المقتضب: «إِلى حمايتك أَلتجئ، يا أُمّ الله القدّيسة»! وكيف يخشى الهلاك من كانت أُمّه كلّيّة العطف، وكلّيّة القدرة؟ وهي التي تنادي: «من هو طفلٌ غرٌّ، فليملْ إِليّ»!

إِنّ الله يكرّم أُمّه بتحقيق طلبات البشر التي تُقدَّم له بواسطتها. وعندما تتوسّط مريم من أَجل نفسٍ، فإِنّ جميع سكّان السماء، من قدّيسين وملائكة، ينضمّون إِلى شفاعتها، ويشاركونها.

قال يسوع: «لا يستطيع إِنسانٌ أَن يأتي إِليّ، ما لم يجتذبه أَبي الذي أَرسلني»، وهو يقول، من خلال رسائل كثيرةٍ: «لا يستطيع أَحدٌ أَن يأتي إِليّ ما لم تجتذبه أُمّي بصلواتها».

وقد أَكّد في الصوفانيّة، بتاريخ ١٤ آب ١٩٨٧:

«هي أُمّي التي وُلدتُ منها،

من أَكرمها أَكرمني،

ومن نكرها نكرني،

ومن طلب منها نال، لأَنّها أُمّي».

لا مفرّ، إِذن، من وساطة مريم، فعلى حدّ قول القدّيس أَنتونان: «من يدّعي الحصول على النِعَم، بمعزلٍ عن وساطة مريم، يحاكي من يدّعي القدرة على الطيران بلا أَجنحةٍ. فقد أَوكل إِليها الله خلاصنا».

ومثلما يسقط الحجر الذي يفقد سنده، كذلك كلّ نفسٍ تفقد سند مريم تهوي إِلى الخطيئة أَوّلاً، ثمّ إِلى جهنّم.

يقول القدّيس يوحنّا الصليبيّ: «قليلٌ من الحبّ الطاهر هو أَثمن للنفس ولله وأَجدى للكنيسة من كلّ الأَعمال الخيريّة مجتمعةً».

ولكي نظفر بهذا الحبّ، ولكي يصبح «قليله» كثيرًا، علينا الحصول عليه من العذراء، التي نالت ملئه كي توزّعه. فمريم «هي من يمكن إِيلاؤها ثقةً كاملةً، هي الخبيرة بتثقيف المسيحيّ، مطهّرةً إِيّاه من ميوله الأَنانيّة الأَشدّ تمويهًا».

فلنسأل مريم أَن تقدّم بنفسها ليسوع أَعمالنا الهزيلة، مقرونةً بكلّ حبّها، وهي ستطهّرها من كلّ لوثةٍ أَنانيّة، ومن كلّ تعلّق بالخليقة، قد يتسلّل، في غفلةٍ منّا، إِلى أَجمل أَعمالنا. وهي كفيلةٌ بتجميل هذه الأَعمال وبتزيينها باستحقاقاتها، وفضائلها الخاصّة، وبتقديمها في «طبق محبّتها الذهبيّ» ليسوع. وهكذا، حتّى أَعمالنا اليوميّة الصغيرة، عندما تقدّمها العذراء لابنها، بكلّ حبّها، ستصبح ذات شأنٍ عظيمٍ والقليل الذي نعمله سيصبح وفيرًا وعظيمًا.

كلّ ما نقدّمه لله قد يكون، في ذاته، تافهًا أَو ملوّثًا، وغير جدير بجلالته. ولكن عندما نقدّمه بيدي مريم، فهي تنقّيه من شوائبه، وتضفي عليه قيمةً.

يضرب القدّيس غرينيون دي مونفور، في هذا الشأن، مثل فلاّحٍ شاء أَن يقدّم للملك تفّاحةً هي خير ما يملك، ولكنّها، في ذاتها، لا تليق بملكٍ. فإِن هو قدّمها بواسطة الملكة، وهي نظّفتها، ولّمعتها، وقدّمتها على صحيفةٍ من ذهبٍ، فهي، حينئذٍ، تصبح هديّةً لائقةً. إِنّ الله يتقبّل برضًى كلّ ما تقدّمه له أُمّه.

لقد أُعطي يسوع «كلّ سلطانٍ في السماء، وعلى الأَرض». ولكن بعطفٍ مجّانيٍّ على البشر، شاء الله أَن يشرك بابنه المتجسّد أُمّه في توزيع النعم.

قُبَيْل صعوده إِلى السماء، قال يسوع: «إِنّي ماضٍ إِلى أَبي وأَبيكم» وكان بوسعه أَن يضيف: «وإِنّي أَترك لكم أُمّي وأُمّكم».

لقد جاء في إِنجيل يوحنّا (٣:١٦): «أَجل، لقد أَحبّ الله العالم حتّى إِنّه بذل ابنه، وحيده، لكيلا يهلك كلّ من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأَبديّة». وقد بذل، أَيضًا، ابنته الوحيدة، عروسه، أُمّه، أَمَته لكي تُعنى بنا، وتربّينا، وتقودنا، وتحمينا، وتعزّينا، وتحبّنا.

وقد أَشاد القدّيس كيرلُّس الإِسكندريّ، باسم مجمع أَفسُس بأَفضال مريم، قائلاً: «نحيّيك، يا مريم، أُمّ الله، وجوهرة الأَرض، المصباح الذي لا ينطفئ. يا تاج البتوليّة، وصولجان استقامة العقيدة، يا هيكلاً لا يُدَمَّر، يا منزل مالئ الكون، الأُمّ العذراء، أَنتِ يا من بها يُمَجَّد الثالوث ويُعبَد، وبها يكرّم الصليب الثمين على الأَرض كلّها... وبلغ الجنس البشريّ إِلى معرفة الحقيقة، ولها تشاد الكنائس في كلّ مكانٍ...»

وكان شاعرٌ سوريٌّ، قبل مجمع أَفسُس، قد اختتم نشيدًا للميلاد بهذا الدعاء للعذراء: «سلامٌ لكِ يا ملجأنا ومجدنا...إسألي اللّه الذي وُلد منكِ، أن يهب كنيسته، بواسطتكِ، السلام والازدهار، علّه بقدرة صلاتكِ، يا أُمّ العليّ، يشيع السلام، كلّيًّا، على الأَرض، وبين سكّانها». كم يبدو هذا الدعاء معاصرًا!

بالإِجمال، استفاضت الكنيسة الشرقيّة في الإِشادة بالعذراء، موزّعة جميع الخيرات، المحامية عنّا، والوسيطة الفريدة، رجاء البشر الوحيد بعد المسيح، والتي تحظى وساطتها بقدرةٍ كلّيّةٍ.

وقد جاء في نشيدٍ للكنيسة الروسيّة:

«افرحي، يا معزّية جميع الحزانى، والمرهقين، يا رحومة،

افرحي، أَيّها الدليل اليقظ الذي يرشد التائهين والعميان.

بمبادرةٍ منتصرةٍ، تروّضين أَهواءنا،

يا موقظة الضمائر الغافية، الكلّيّة القدرة،

إِنّك تجعلين جهنّم تئنّ، والأَرواح الشرّيرة ترتعد،

فقد فتحت للجميع أَبواب السماء...»

مريم هي القالب الذي يُسكَب فيه ويُصاغ أَبناء اللّه، لأَنّها الصورة الأَكثر مطابقةً ليسوع، بل المطابقة له مطابقةً كاملةً، بكلّ ملامحه. ولكنّ مريم ليست قالبًا فحسب، بل هي، أَيضًا، أُمٌّ. وعندما يكون النموذج مغرقًا في الكمال، ينظر إِليه المرء من بعيدٍ، وينتابه شعورٌ بالعجز عن التمثّل به. غير أنّ مريم الأُمّ تجعل كلّ من يلجون إِلى نفسها صورًا مطابقة لابنها، إِن هم استسلموا، مثلها، لعمل الروح القدس، وشاركوا يسوع موته وقيامته.

وبالإِجمال، لكي يتسنّى لنا أَن نحيا بيسوع، ومع يسوع، وفي يسوع، ومن أَجل يسوع، علينا أَن نحيا مع أُمّه، وبها، فاللّه نفسه آثر أَن يأتي إِلينا، بها، وفيها، ومنها، ويهبنا، بذلك، ابنه.

يقول القدّيس بيرنار: «إِنّنا نحتاج إِلى وسيطٍ لدى الوسيط. وخير من يستطيع الاضطلاع بهذا الدور، هو العذراء مريم. إِنّها طيّبةٌ ورقيقةٌ، وليس فيها ما يوحي

بالقسوة أَو بالنفور. وهي من فيض المحبّة بحيث لا تردّ أَحدًا ممّن يلتمسون شفاعتها، مهما كانوا غارقين في الخطيئة. ولم يُسمع، قطّ، أَنّها ردّت أَحدًا ممّن التجأوا إِليها بثقةٍ ومثابرةٍ».

وكلّ من يلتجئ إِلى ذراعيها، تودعه بين ذراعي ابنها.

ليس بوسع أَحدٍ أَن يكون ابنًا لله، إِن لم يكن أَخًا ليسوع. وليس بوسع أَحدٍ أَن يكون أَخًا ليسوع، ما لم تكن مريم أُمّه. وإِن لم يكن بوسع مريم أَن تحبّ يسوع، حبّ أُمٍّ، ما لم تشمل بحبّها هذا جميع البشر، فليس بوسعنا، أَيضًا، أَن نحبّ يسوع إِن لم نشاركه مشاعر حبّه البنويّ لأُمّه القدّوسة.

وفي هذا السياق يقول القدّيس غرينيون دي مونفور: «جميع أَبناء الله الحقيقيّين، وجميع الأَبرار، الله أَبوهم، ومريم أُمّهم. ومن لم تكن مريم أُمّه، فليس الله أَباه».

أُمومة مريم هي الوسيلة التي اختارها الآب لكي يقاسمنا ابنه وضعنا البشريّ، ويكون أَخًا لنا بالكامل، ومن جهةٍ أُخرى، لكي تبلغ البشريّة الله مباشرةً.

قال البابا يوحنّا بولس الثاني: «بفضل موت ابنها، اكتسبت وساطة أَمَة الربّ بُعدًا كونيًّا، إِذ إِنّ عمل الفداء يشمل البشر أَجمعين».

إِنّ حضور العذراء في حياتنا جوهريٌّ، وإِن كان خفيًّا، إِذ إِنّه يرشد إِلى الولادة بالروح. وقد أَكّد البابا يوحنّا بولس الثاني: «إِنّ أُمّ الله حاضرةٌ باستمرار في حياة المسيح، وحياة الكنيسة، وحاضرةٌ، بواسطة الكنيسة، في حياة الشعوب والأُمم، عبر تاريخها، في آلامها وصراعاتها، وفي نضجها الداخليّ والاجتماعيّ».

هناك صلاةٌ تقول: «يا مريم، قولي إِنّك تريدين خلاصي. ومن المؤكّد أَنّ الله سيخلّصني. قولي له إِنّي خاصّتك، وهذا حسبي».

والقدّيس جرمانُس يناشد العذراء بقوله: «يا أُمّ الله، حمايتك تهبنا الخلود. وشفاعتك تهبنا الحياة». وهو يصف العذراء بأَنّها تنفّس المسيحيّين، ومن لا يتنفّس يموت. ويضيف القدّيس جرمانُس: «كما أَنّ التنفّس ليس، فقط، دليل حياة الجسد، بل، أَيضًا، علّتها، كذلك اسم مريم الذي لا يفارق شفاه خدّام الله هو، في الآن عينه، دليل امتلاكهم الحياة الروحيّة، ووسيلة إِنتاج هذه الحياة، وحفظها فيهم. وهو يجتذب لهم كلّ ضروب الخيرات».

عندما أُصيب البابا يوحنّا بولس الثاني بطلقةٍ ناريّةٍ، يوم ١٣ أيّار١٩٨١، وفيما كان يُقتاد إِلى المستشفى مغمض العينين، ويعاني آلامًا مبرّحةً، كان يردّد: «يا مريم، أُمّي!».

وكان ذلك البابا القدّيس قد زار لورد في ١٩٨٠/٢/١٢ وتساءل: «لِمَ تتقاطر مواكب المرضى إِلى لورد؟» وأَجاب بنفسه: «لأَنّهم يعلمون أَنّ في لورد، كما في قانا، توجد أُمّ يسوع. وحيث هي موجودةٌ، يسوع لا يغيب، ويلبّي طلباتها. يأتون وهم ينشدون تسكينًا لآلامهم، وعزاءً، ورجاءً، ويحدوهم الأمل بأَنّ قدرة يسوع الخلاصيّة ستتجلّى لهم من خلال مريم. وهذه القدرة تتجلّى، دائمًا، من خلال نعمةٍ جمّةٍ: سجوًّا نفسيًّا، وتسليمًا، وأَحيانًا تحسُّنًا صحيًّا، أَو شفاءً ناجزًا».

وقد أَظهرت العذراء، منذ عرس قانا، أَنّها تستبق احتياجات أَبنائها، قبل أَن يطلبوا. منذ وجودها على الأَرض، كانت مندفعةً للخدمة، وقد تضاعف اندفاعها هذا بعد أَن أَقامها يسوع أُمًّا للبشر، وبعد انتقالها إِلى السماء، حيث تنعم بشفاعةٍ لا تُرَدّ، وبقدرةٍ قصوى. في قانا، مع أَنّ جواب يسوع بدا سلبيًّا، تصرّفت وكأَنّ طلبها قد استجيب، وهذا دليلٌ على أَنّ مشيئة الله هي أَلاّ يردّ لأُمّه طلبًا. ولا ريب أَنّ يسوع ما كان ليجري أَيّة معجزةٍ، قبل أَن تحين ساعته، لو أَنّ آخر التمسها. ولكن بما أَنّ مريم هي التي التمستها، لم يكن من سبيلٍ إِلى رفضها.

كلّ إِنسانٍ مدعوٌّ إِلى حياةٍ إِلهيّةٍ، ومن ثمّ هو ابنٌ لمريم العذراء. وليس الخطأة، والملحدون، والبعيدون، هم الذين يظفرون بالقسط الأَدنى من اهتمامها، فهي تعرف حتّى من لا يعرفونها، وتحبّ حتّى من لا يحبّونها. وبما أَنّ يسوع مات على الصليب لافتداء البشر أَجمعين، فكلّ إِنسانٍ جديرٌ بأَن يكون لها ابنًا، عليه تحطّ نظرها، وتحمله بصلواتها إِلى الآب. وبوسعها أَن تقول للجميع ما قاله يسوع: «لستم أَنتم من أَحببتموني أَوّلاً».

دعوة الإِنسان القصوى، بل الوحيدة، هي أَن يتألّه. وللعذراء أُمّ يسوع، وأُمّ البشر دورٌ أَساسيٌّ في هذه المسيرة، وفي هذا التحوّل.

لقد حقّقت العذراء، على الأَرض، بالاشتراك مع يسوع، عمل الفداء، وما برحت تواصله معه، في السماء. قاسمته آلامه، فحقّ لها أَن تقاسمه مجده الأَبديّ، وحبّه الأَبديّ لجميع من افتداهم.

يسوع جاء كي يعطي أَباه أَبناءً كُثُرًا، بإِدماجهم في ذاته، وكي يربط البشريّة بأَبيه، عبر ربطها بذاته. وبذلك تصبح أُمّ الله أُمًّا لجميع أَعضاء جسده السرّيّ.

أُمومة مريم العذراء ليست فعلاً ماضيًا يتوالى تأثيره علينا، بل هو تدخّلٌ راهنٌ معاصرٌ، تلدنا به للنعمة والمجد، ولتكوين يسوع فينا.

ولا ينعم بأمومة مريم، حقًّا، إِلاّ من سار في خطاها، وتمثّل بها في كلّ شؤون حياته. أَمّا من يحجم عن التمثّل بها، فيعلن أَنّه ليس لها ابنًا.

ومن لا يلتمس من مريم سوى الأَمان والعزاء، ولا يشعّ، ولا يسهم في بناء ملكوت الحبّ، فهو إِنّما يلتمس ذاته، حارمًا نفسه من كلّ طاقات الازدهار.

مريم هي الأُمّ التي لا تنفكّ تلد يسوع فينا، ومن خلالنا. ونحن، أَيضًا، مدعوّون إِلى ولادته في القلوب. ونلده، حقًّا، بقدر ما تكون مشاعرنا، وأَنماط سلوكنا، وردود فعلنا متوافقةً مع أَسلوبه وفكره. ويكبر يسوع فينا، بقدر ما نحيا حياته، ونتمثّل به في سلوكنا اليوميّ.

في هذا الشأن يقول القدّيس غريغوريُس الكبير: «يصبح «أُمّ يسوع» مَن، بأَقواله، يلد، في روح القريب، حبّ الربّ».

وستلد العذراء يسوع فينا، بقدر ما سيكون الفقراء هم الأَثيرين لدينا. وبقدر ما يكون معوزو هذا العالم هم الذين يؤثرهم المسيحيّون بحبّهم، تقيم الكنيسة الدليل على أَنّها، حقًّا، على صورة المسيح. وعندما نحيا على غرار يسوع، بقلوبٍ وأَيدٍ مشرعةٍ على الفقراء، وفي تعاطفٍ بيّنٍ معهم، مقتسمين ظروفهم، وساعين إِلى تحسينها، وإِلى تلبية احتياجاتهم، حينئذٍ تكون العذراء، فينا، أُمًّا تساعدنا على تجسيد يسوع الفقراء فينا.

وستلد العذراء يسوع فينا، بقدر ما نسعى لكي نكون، على غرار يسوع، متواضعين وصبورين، وبقدر ما نعكس ما تميّز به من سلامٍ داخليٍّ، وسيادةٍ على الذات، وقوّةٍ، وسجوّ نفسٍ؛ عندما نقف أَمام من يدينوننا، ويفترون علينا، ملتزمين الصبر، والصمت، والوقار، وعندما لا تعود مصلحتنا الذاتيّة هي التي تحدونا، بل يكون مجد الآب، وسعادة إِخوتنا هما رائدنا؛ وعندما نخاطر بذواتنا، ونسلك

بجرأةٍ، وبسالةٍ، مثل يسوع؛ وعندما نكون صادقين ومخلصين، مثلما كان يسوع حيال أَصدقائه وأَعدائه على السواء؛ وعندما ندافع عن الحقيقة بحياتنا.

وستكون مريم أُمّنا، حقًّا، بقدر ما نتجرّد عن ذواتنا، ونهتمّ بالآخرين، أُسوةً بيسوع الذي لم يأبه، يومًا، بذاته، مغفلاً حتّى حاجاته الأَساسيّة إِلى الطعام والنوم والراحة، بمنأًى عن كلّ شكوى وانتحابٍ، وعن كلّ مرارةٍ وتهديدٍ، باثّين دائمًا في الآخرين الرجاء والجرأة؛ وبقدر ما نحبّ، كما هو أَحبّ، مستنبطين أَلف أُسلوبٍ، وأَلف طريقةٍ للتعبير عن حبّنا، باذلين حياتنا ونفوذنا في سبيل أَحبّائنا، ومنفقين حياتنا كلّها، مثل يسوع، في الإِحسان للجميع.

هذه هي أُمومة مريم الروحيّة: مساعدتنا على تجسيد يسوع الذي أَحبّنا حتّى أَقصى تخوم الحبّ، وعلى تكوينه وولادته فينا.

وستكون العذراء أُمّنا، حقًّا، إِذا سعينا إِلى التمثّل برقّتها التي تجلّت في خدمتها لإِليصابات، وفي إِنقاذ عروسَيْ قانا من الحرج، في غفلةٍ عن الجميع، مكتفيةً بالهمس للخدم: «افعلوا كلّ ما يقوله لكم يسوع».

وستلد مريم يسوع من خلالنا، عندما سنضطلع بمهمّتها الأُموميّة، وهي المثابرة على تنمية يسوع في العالم، وفي قلوب البشر.

غير أَنّ كون العذراء أُمّنا، ينبغي أَلاّ يوحي لنا الاستسلام لهدهدة الطمأنينة والتواني، فنحن لن نكون لها أَبناءً حقيقيّين، ولن ننعم بامتيازات أُمومتها، إِلاّ بقدر ما نجعل منها قدوةً، ونسعى إِلى التمثّل بسلوكها وفضائلها.

بالإِجمال العذراء أُمّ البشر، فويلٌ لمن يحزن قلب أُمّه، وطوبى لمن ينعم بأُمومتها!

إِنّ من يتلفّظون باسم مريم بورعٍ وخشوعٍ، وشغفٍ، يعهدون عذوبةً روحيّةً فائقةً، وشعورًا خلاصيًّا بالعزاء، والحبّ، والفرح، والثقة، والقوّة. فاسم مريم ينطوي على كلّ رائعٍ، وعذبٍ، وإِلهيٍّ، ويشيع في قلوب محبّيها عطرًا سماويّ الفوح والشذا. ولو تلفّظوا به آلاف المرّات لكان تأثيره جديدًا في كلّ مرّةٍ.

وعندما نلجأ إِلى شفاعتها فإِنّ «يدًا رقيقةً تلتقط صلواتنا، وجهودنا، وأَفعال حبّنا الهزيلة، وتوصي بها يسوع. وكلّما تجلّى لنا يسوع، وشفى جراحنا، وهزّ قلوبنا، بدا

لنا أَنّ أُمّه تهبناه، وأَنّ صليبه، على كاهلنا، قد أَمسى أَخفّ وطأةً، فندرك، على نحوٍ أَفضل، ما أُعطيناه من حبٍّ» (A-M. Carré).

مريم هي عطيّة الله الأَرفع سموًّا التي تبطل سحر العالم الشرّير بأَنوارها، والتي لم تخيّب، أَبدًا، من ينشدها بقلبٍ طاهرٍ.

ولا بدّ من التنويه بأَنّ العذراء لم تكن، يومًا، منافسةً لابنها، كما يزعم البعض، بل هي خير من يقود إِليه. وقد لوحظ أَنّه حيث يفتر إِكرام العذراء، سرعان ما تخبو عبادة يسوع. هذا ما أَكّده الأَب «فابر» (Faber) بقوله: «حيث ليس يسوع بارزًا في النور، فذلك أَنّ مريم كامنةٌ في الظلّ».

ولا يمكن فصل مريم عن يسوع، فهي، بعد يسوع، ولكن معه، قناة كلّ نعمةٍ تأتينا من الله. ففي العذراء الممجّدة قُهر الخوف من المستقبل، وحُلّ لغز الموت، وكُشفت الحُجُب عن مصير الإِنسان في مجدٍ يعكس أَنوار القائم من الموت.

وقد وضع القدّيس غرينيون دي مونفور على لسان العذراء هذا القول: «إِنّي أَلد كلّ يومٍ أَبناء الله إِلى أَن يتكوّن فيهم يسوع ابني، مكتملاً».

العذراء هي أُمٌّ لنا، ولكن ما من أُمٍّ بشريّةٍ قادرةٌ على فعل ما تفعله العذراء لنا. فإِن نحن شكرناها، رفعت شكرنا، في الحال، إِلى ابنها. وإِن نحن حقدنا عليها سكتت وسامحت. وإِن طالبناها بالمحال، ابتسمت ومنحتنا شيئًا آخر، وما هو أَكثر جدوى لنفوسنا. إِن اعترانا الخوف، أَخبأَتنا في ثنايا معطفها، وبثّت فينا الجرأة على مواجهة المحنة إِلى جانبها. إِن تردّينا إِلى الخطيئة، أَرسلتنا كي نغتسل في سرّ المصالحة، فنعود أَنقياء أَمام ابنها.

إِن استحوذ علينا القنوط، وران علينا الشعور بقلّة جدوانا، وبالوحدة، وبتنا على شفا الانهيار، تصلّي مريم من أَجلنا، وتتأَلّم وتبكي معنا، فننال من ابنها نعمًا سنيّاتٍ، نستعيد معها العزيمة والإِيمان، والثقة بذواتنا. وإِن راودنا الشرّير، وقفت إِلى جانبنا، كي تساعدنا على صدّه.

وخير ما نختتم به هذا الفصل الكلمات البليغة التي وجّهها الكردينال «نيومن» إِلى شبيبة حقبته، والتي تصلح لشبيبة كلّ جيلٍ، وكلّ حقبةٍ:

«ما الذي ينبغي، في أَثناء وجودكم في هذا العالم، أَن يدفعكم إِلى الأَمام على

الدرب الوعر، سوى التفكير في مريم، وفي حمايتها حماية الأُمّ؟ ما الذي ينبغي أَن يشيع السكينة في حواسّكم، والطمأنينة في قلوبكم، عندما تنذر بالمخاطر وجوهٌ وأَصواتٌ من حولكم، سوى مريم؟ ما الذي ينبغي أَن يوفّر لكم الصبر والثبات، عندما تتعبون من ذواتكم، سواءٌ بسبب تمادي مكافحة الشرّ، أَو بسبب وجوب التحرّز المستمرّ، أَو من جرّاء الضغوط التي تمارسها إِجراءات هذا التحرّز، أَو من جرّاء الاضطرار المرهق إِلى البدء باستمرارٍ من جديدٍ، أَو من جرّاء ما يتعرّض له فكركم من عنتٍ، أَو من جرّاء ما تجدون فيه ذواتكم من وضعٍ يبدو مسدود المنافذ، ومفتقدًا إِلى كلّ مفترجٍ، سوى الاتّحاد المحبّ بمريم؟

«إِنّها تشدّ من عضدكم عندما تحبطون، وتعزّيكم عندما تنهارون، وتنهضكم عندما تكبون، وتكافئكم عندما تصمدون. وستساعدكم على مشاهدة ابنها، فهو إِلهكم، وكلّ شيءٍ لكم».

وقد ناشد البابا يوحنّا بولس الثاني الشبيبة بهذا القول: «نحو أُمّ الحبّ الجميل أَودّ أَن أُوجّه، بنوعٍ خاصٍّ، شبيبة العالم كلّه، وشبيبة الكنيسة كلّها. فهي تحمل، في ذاتها، علامة شبابٍ لا يذبل، وجمالٍ لا يزول. وإِنّني أُهيب بالشبّان أَن يمضوا إِليها، ويثقوا بها، ويوكلوا إِليها الحياة الممتدّة أَمامهم، ويقدّموا لها حبّ قلوبهم البسيط والحارّ، فهي، وحدها، كفيلةٌ بالاستجابة، استجابةً فائقةً لهذا الحبّ».

أمّ الرحمة

أُمّ اللّه، وأُمّ البشر، هي خير وسيطٍ بين اللّه والبشر، فهي، بصفتها أُمّ اللّه كلّيّة القدرة، وبصفتها أُمّ البشر كلّيّة الرحمة.

لقد حباها اللّه حجمًا فائقًا، وأَوكَلَنا إِلى حنان أُمومتها. جعل منها ملكةً، ولكنّها ليست ملكة العدالة التي تقتضي منها معاقبة المسيئين، بل هي ملكة الرحمة، ومهمّتها الوحيدة هي أَن ترأف بالخطأة وأَن تنال لهم الغفران.

القدّيس أَلفونس ماري دي ليغوري وصفها بقوله: «ليس في شخصها أَيّ مظهرٍ رهيبٍ أو صارمٍ، وهي لا تبدي لمن ينشدها سوى الرقّة والعطف، فتقدّم له لبن الرحمة كي توطّد ثقته، وصوف حمايتها التي تقي من صواعق العدالة الإِلهيّة».

من أَجل الخطأة أَصبحت مريم أُمًّا لإِلهٍ هو إِله الرحمة المتجسّدة. وقد ناشدها الذهبيّ الفم بلسان الخطأة قائلاً: «نحيّيك، يا أُمّ اللّه وأُمّنا، يا سماءً يقطنها اللّه، أَيّها العرش الذي منه يوزّع الربّ نِعَمه كلّها. إِسألي يسوع، باستمرارٍ، من أَجلنا، لكي ننال بواسطتك الرحمة، يوم الدينونة، ونشارك المختارين المجد إِلى الأَبد».

القدّيس أَمبروسيُس أَنشد: «عذراء هي التي ولدت خلاص العالم، وعذراء هي التي ولدت للجميع الخلاص». والقدّيس جيروم أَكّد: «حوّاء طردتنا من الفردوس، ومريم تقودنا إِلى السماء».

منذ البشارة أُعطيت مريم أَن تساهم في سرّ الفداء. فمذ تفوّهت بعبارة «فليكن لي بحسب قولك»، شرع قلبها البتوليّ والأُموميّ معًا، والمنقاد لعمل الروح، يواكب، باطّرادٍ، عمل ابنها، ماضيًا نحو جميع الذين عانقهم، وما انفكّ يعانقهم باستمرارٍ، بحبّه الذي لا ينضب.

إِنّ اللّه رحمةٌ، ومريم هي أُمّ اللّه، وإِذن، أُمّ الرحمة. إِنّها القناة التي تأتينا برحمة اللّه.

ما من شدّةٍ، في نظرها ضئيلةٌ، وما من صعوبةٍ يواجهها أَحد أَبنائها تخفى عليها. هي عاشت في الخفاء، ولكنّها واكبت، بلا انقطاعٍ، ابنها في رسالته. وهي، في علياء سمائها، تواكب كلاًّ من أَبنائها على الأَرض، وتدعمه بعونها وقدرتها. سلطتها هي التي يمنحها الحبّ، لأَنّها أُمٌّ.

فلنثق بأَنّ لنا، في السماء، أُذنًا جسيمةً محبّةً، تصغي إِلى كلّ استغاثةٍ وجيعةٍ، وتسارع إِلى تلبيتها.

إِنّ تلك التي ولدت المخلّص، ذات يومٍ، لا تني تهبه للعالم، كلّ يومٍ، وهي بولادتها الفادي، ولدت فداءنا. لقد صارت أُمّ الله من أَجل خلاص الخطأة البائسين، مثلما تجسّد يسوع نفسه من أَجل خلاص الخطأة. وقد سمعت القدّيسة بريجيت، يومًا، في أَثناء انخطافٍ، يسوع يقول لأُمّه: «أُطلبي كلّ ما ترغبين فيه»، وسمعت مريم تجيب: «إِنّما أَطلب الرحمة بالبائسين».

ولذلك قال القدّيس أَفرام: «إِنّ الاستغاثة بالعذراء هي «جواز عبور» يحول دون السقوط في الجحيم»، والقدّيس يوحنّا الدمشقي يخاطب العذراء قائلاً: «كلّ من يكرّمك، يُزَوَّد بسلاحٍ يضمن له النصر».

وليست العذراء سيّدة الرحمة فحسب، بل هي الرحمة مجسّدةً، فأَحشاؤها تفيض حنانًا. وقد خاطبها القدّيس بيرنار قائلاً: «حيثما أَنظر إِليك لا أَرى سوى الرأفة. فالله جعلك أُمّه من أَجل البائسين، وانتدبك لعمل الرحمة. ما من بؤسٍ لا تتعاطفين معه. الرحمة تحيط بكِ من كلّ صوبٍ، ويبدو أَن لا رغبة لديك سوى الرأفة بالمحتاجين».

هذا ما أَكّده ريشار دي سان لوران (Richard de St. Laurent) بقوله: «حيث تلمح العذراء آلامًا، تهرع آتيةً بأدوية رأفتها العظمى».

وقد أَكّد القدّيس غرينيون دي مونفور: «من ابتغى الظفر بيسوع، عليه الظفر بمريم».

بما أَنّها أُمّ المخلّص وشريكته في تضحية الفداء، وبما أَنّها مُجّدت مع ابنها، فهي تؤتي كلاًّ منّا ثمار الصليب والقيامة.

إِنّ تلك التي أَعلنت أَنّ رحمة الله تمتدّ جيلاً فجيلاً إِلى الذين يتّقونه، سُمّيت «أُمّ الرحمة، سيّدة الرحمة، أُمّ الرحمة الإِلهيّة». هذه الأَلقاب تشير إِلى مدى

مساهمة مريم، بصفتها أُمّ المخلّص، وبفضل تضحيتها الشخصيّة، في الجلجلة، في إِعلان الرحمة الإِلهيّة، وتظهر أَنّ مريم هي، بحسب ما جاء في الرسالة البابويّة «فادي البشر (Redemptor hominis) تلك التي بمساهمتها الخفيّة والمنقطعة النظير في مهمّة ابنها الخلاصيّة، دُعيت، على نحوٍ خاصٍّ، إِلى تقريب حبّ الله من البشر، الحبّ الذي يتجلّى تجلّيًا أَكثر واقعيّةً حيال المتألّمين، الفقراء، والسجناء، والعميان، والمقهورين والخطأة... وقد اشترك قلب مريم بهذا الحبّ الرحيم، وما انفكّ هذا الحبّ فيها، وبفضلها، يعتلن في تاريخ الكنيسة، وتاريخ البشريّة... هذا الاعتلان يقوم على الحسّ المرهف الذي يتميّز به قلبها الأُموميّ، وعلى قدرتها على مسّ جميع المتأهّبين لتقبّل الرحمة المحبّة من قِبَل أُمٍّ».

إِنّها أُمّ الرحمة، إِذ ليس مثلها من أَحاط بأَعماق سرّ الرحمة الإِلهيّة، وعرفت ثمنها، ورازت عظمتها.

كلّ آلامها هي من أَجل الآخرين، وبما أَنّها مكرّسةٌ، منذ لحظة وجودها الأولى، فالطقس الدامي الذي سيكتمل على الجلجلة قد بدأ، منذ تكوينها.

إِنّها تنحني على نزاع العالم، بحنان المحبّة اللامحدود، حيث الأَلم المتعاطف هو أَوجع، بلا قياسٍ، من الأَلم الذي يُعطف عليه. فهو يعرف علّة كلّ مريض، ويحنو على جراحه.

عندما كانت تسمع نبوءة «رجل الآلام»، أَو تتلوها، كان الأَسى يرهقها، ولكنّها لم تكن تعرف، بعد، أَنّها ستشاهد، بصفتها أُمًّا، مأساة ذلك الرجل، الذي أَخذ على عاتقه وزر جميع خطايانا. وعندما ستقف عند أَقدام الصليب، ستتبيّن أَنّ جميع لحظات حياتها كانت تتدافع صوب هذه اللحظة الفريدة، حيث ستتلقّى نزاع الله، الذي أَصبح نزاعها. كانت متضامنةً معه، مقدّمةً براءتها شهادةً على براءته، متماهيةً مع مهانته، مطعونةً بكلّ ضروب رفضنا، مكلومةً بكلّ جراحنا.

ورنا إِليها، فشهدها تتألّم بآلامه، مطعونةً بمأساته، حاملةً، في كلّ كيانها جرح الحبّ اللامحدود، الحبّ المدان بلا رحمةٍ.

وسط الخليقة المتمرّدة منذ البدء، هي وحدها كانت، بكلّيّتها له، وأَعطانا إِيّاها: «هذه أُمّك». جعلها أُمّه في كلٍّ منّا، مرتبطةً بنا بالحبّ عينه الذي يربطها به.

وهي ما انفكّت واقفةً عند أَقدام الصليب، طالما تمادى النزاع الإِلهيّ. وتهرع نحونا لكي تفكّه عن الصليب الذي تجدّد أَنانيّتُنا آلامَه، كلّ يومٍ.

مريم هي رائعة رحمة الآب، المرأة بامتياز، تحفة الخليقة، ومأثرة الفداء الذي حقّقه يسوع. بها يسعنا أَن نتذوّق طيبة رحمة الآَب، وأَن نتأمّلها بإِعجابٍ. إِنّها كنز رحمة اللّه المبادرة إِلى الخدمة.

مهمّتها الرئيسة هي إِدخالنا من باب رحمة الآب الملوكيّ، على ضيقه. إِنّها تجسيدٌ لرحمة الآب التي يتعذّر علينا أَن نحياها إِلاّ عبر مريم، وبعقدنا، مع مريم، علاقاتٍ حميمةً.

كلّ ملامح مريم، كلّ ملامح نفسها وجسدها هي، حقيقةً، انعكاساتٌ مباشرةٌ لرحمة الآب، رحمةٍ استولت على كلّ شيءٍ فيها، قبل أَن تفيضها علينا.

مبدأ الرحمة وشرطها حبٌّ فائقٌ. الرحمة هي فيض حبٍّ، والرحوم هو نبع حبٍّ. من ليس للحبّ نبعًا، من كان حبّه جزئيًّا، لا يسعه أَن يكون رحيمًا، وأَن يمنح من يحتاجون إِلى الحبّ حبًّا. ومن ابتغى أَن يكون رحيمًا، عليه أَن يكون مجلّيًا في مضمار الحبّ، وأَن يكون نبيلاً وعظيمًا في هذا المضمار.

قطبا سرّ رحمة الآب: قدرة الخالق الكلّيّة، وعطف الآب. قدرته هي في خدمة حبّه. وعندما تُسَخَّر القدرة الكلّيّة لخدمة الحبّ، تتحقّق معجزة الرحمة. ومريم هي تحفة رحمة الآب. فقد أَعدّها لتكون دليل انتصار رحمته الكلّيّ، انتصارٍ حرَّر العذراء من كلّ أَثرٍ سابقٍ للخطيئة، فلم يكن فيها سوى صورة رحمة الآب الرائعة، التي استحوذت على نفسها، وغمرتها بالكامل، وحالت دون تلطيخ نفسها وجسدها بأَيّة لوثةٍ.

لقد شاء اللّه أَن نتلقّى، جميعنا، سرّ مبادرة رحمته من خلال مريم، فتأتينا مصطبغةً بلمسة أُمٍّ، وبعذوبتها، متجلّيةً في قلب المنزّهة من كلّ دنس.

وقد أَعطانا اللّه مريم بواسطة ابنه الذي وهبنا إِيّاها، وهو على الصليب، دليلاً على سخائه اللامحدود، وعلى حبّه الجمّ، وعلى سخاء أُمّه التي تجود علينا بكلّ ما ننال.

إِنّ اللّه الذي عظّمته مريم هو إِله الرحمة التي تشمل البشر أَجمعين، جيلاً فجيلاً.

وقد أَصبحت مريم الرمز الذي، من خلاله، يتجلّى حبّ اللّه الفائق، ورحمته التي تفوق الإِدراك، وعونه الحاسم. بها، ومن خلالها، عبر عطف الخالق إِلى كلّ خلائقه، وسيمتدّ إِلى جميع الأَجيال التي ستعترف بالمسيح مخلّصًا. مريم هي علامة رحمة اللّه الوحيدة، في لحظة التجسّد، حيث تفجّر ملء حبّ الربّ، وغمر الكون كلّه، في يسوع، إِله الحبّ، الذي سيبذل ذاته لخلاص البشر.

مريم هي الفردوس الذي سكن إِليه اللّه، ونثر فيه كنوزه بسخاءٍ إِلهيٍّ... فردوسٌ نسيمه مصفًّى من كلّ تلوّثٍ. إِنّها نهار البشريّة الذي لا يعقبه ليلٌ، شمس الأُلوهة التي لا يحجبها ظلٌّ. كلّ إِنسانٍ ينشد فردوسًا مفقودًا، وفردوسنا ليس وراءنا، بل هو أَمامنا. وليس مكانًا، بل هو كائنٌ. ليس إِلهًا، بل هو إِنسانٌ مليءٌ باللّه لأَنّه ملكٌ حصريٌّ للروح القدس. إِنّه فردوس اللّه، قبل أَن يكون فردوس البشر. وكما قال القدّيس غرينيون دي مونفور: «إِنّ اللّه صنع ثلاثة عوالم: عالمًا للإِنسان الحاجّ، وهذا هو العالم الحاضر، وعالمًا للإِنسان الذي نال السعادة، وهو السماء، ولكنّه صنع عالمًا آخر لنفسه سمّاه مريم». ولكن كم هذا الفردوس، مع سموّه وفرادته، قريبٌ منّا! فما من مكانٍ يسع الخليقة أَن تجد فيه اللّه قريبًا منها، ومتعاطفًا مع وهنها، خيرًا من مريم.

نحن البشر، في حجّنا الأَرضيّ، نشعر بالحاجة إِلى الأَمان، والاتّكاء على كتفٍ منيعةٍ، وقلبٍ رقيقٍ. ومريم قديرةٌ، ولا شيء يقوى على سلبها ما أُودع بين يديها. فنفسها محرَّرةٌ من الاضطرابات، والهواجس، والمخاوف... وهي محصّنةٌ حيال جميع الأَعداء، وحيال إِبليس وعالم الخطيئة. في حين أَنّ النِعَم والكنوز التي نتلقّاها من اللّه نودعها آنيةً هشّةً، ونفوسًا واهيةً متقلّبةً، حيث كلّ طارئٍ يشيع فيها الاضطراب ويطيح بها. وما من وسيلةٍ للحفاظ عليها سوى إِيداعها بين يدي من هي وحدها «العذراء الأَمينة».

وهي خير من يؤنس غربتنا على هذه الأَرض، فعلى حدّ قول الأَب سيرتيلانج: «عندما ينتابنا السأم، لست أَشكّ أَنّ تمتمةً صامتةً لتحيّة الملاك: «إِفرحي يا ممتلئةً نعمةً..»، أو أَيّة استغاثةٍ بها، كفيلتان بالقضاء على انحطاطنا وكدرنا. إِنّ الفتنة الأُنثويّة مقرونةً بتلك العظمة السماويّة هي قوّةٌ تساند الأَقوياء، مثلما تزوّد بسمةُ فتاةٍ أَبًا مرهقًا بهمّةٍ متجدّدةٍ.

«وعندما تجتاحنا التجربة، فإنّ مجرّد نظرةٍ إلى تلك الأُمّ التي لا نستحي منها كما نستحي من أُمّنا الأخرى، والتي يسعنا أن نكشف لها عن كلّ ذواتنا، التي هي بأكملها عطفٌ وتفهّمٌ، التي تسمعنا قبل أن نتكلّم، والتي تعين بمجرّد نظرتها، هذه النظرة هي ضمانٌ ثمينٌ للإرادة الطيّبة المترجرجة.

«إنّ أُمّ الجنس البشريّ هي، لعالمنا المتخلخل المتألّم، السلام الذي يحتاج إليه أشدّ حاجةٍ، وملاذٌ يتطلّع إليه حتّى في شكّه وإنكاره. ففي غمرة آلامٍ كهذه، لا شيء يعين وينعش مثل عطف أُمٍّ».

وعن نظرة العذراء كتب جورج برنانوس: «العذراء هي البراءة عينها. فتأمّل ما نحن في نظرها، نحن أبناء الجنس البشريّ! إنّها، بَدَهيًّا، تمقت الخطيئة، ولكن ليس لها، في مضمار الخطيئة أيّة تجربةٍ. نظرة العذراء هي النظرة الطفوليّة الوحيدة، نظرة الطفل الوحيدة التي لم تحطّ، يومًا، على عارنا، وعلى بؤسنا.

«أجل، يا صغيري، لكي تدعوها في صلاتك، ينبغي أن تحسّ عليك هذه النظرة التي ليست، تمامًا، نظرة المسامحة،- فالمسامحة ترافقها، دائمًا، تجربةٌ مريرةٌ - بل هي نظرة عطفٍ رقيقٍ، واستغرابٍ موجعٍ، ولست أدري أيّ شعورٍ آخر، يتعذّر إدراكه والتعبير عنه، يجعلها أوفر شبابًا من الجنس الذي نشأت منه، ومع أنّها، بالنعمة، أُمٌّ، يجعلها صغرى الجنس البشريّ».

وبقدر ما نحن نولي العذراء ثقتنا، ونوكل ذواتنا إلى رعايتها، تهبنا هي حبّها الأُموميّ، وتغمرنا بكنوز النعم التي امتلأت بها.

فكلّ نفسٍ تسكنها مريم، يسوع هو ثمرتها وتحفتها، وهي تضيء هذه النفس بالإيمان الصافي، وتعمّق القلب بالتواضع، وتوسّعه، وتلهبه بالمحبّة، وتنقّيه بطهرها، وتسبغ عليه، بأمومتها، نبلاً وعظمةً.

وقد اعترض بعضهم، ولاسيّما من جماعات الإصلاحيّين البروتستانتيّين الحديثين، على توسّط العذراء، مدّعين أنّ هذا التوسّط يركّز الاهتمام على مريم، ويصرفه عن المسيح، الوسيط الوحيد بين الله والبشر، الذي لا حاجة بنا إلى سواه. ولكأنّ وساطة الأُمّ هي إهانةٌ للابن، في حين أنّ الله نفسه، عندما شاء أن يتأنّس، اختار مريم كي يلبس منها جسدًا بشريًّا، ولكي يجعلها الصلة بين الله والبشر.

قد يرهبنا، أَحيانًا، الاتّصال المباشر بالله، ولاسيّما عندما يرين علينا الشعور بوقر خطايانا، وبعدم استحقاقنا، ولذلك نلجأ إِلى ابنة جلدتنا التي طاب للمخلّص أن يتّخذها أُمًّا، كي تنال لنا ما لا نجسر على طلبه من الله، ولكي تبلّغه احتياجاتنا وتدعم توسّلاتنا وطلباتنا، بصفتها أُمًّا للّه وأُمّنا، في الآن عينه.

البابا بولس السادس قال: «نحن نلجأ إِلى مريم كي نصل إِلى يسوع». أَمّا القدّيس غرينيون دي مونفور فقد ردّ على اعتراض من يتساءلون: علامَ اللجوء إِلى وساطة مريم، فأَليس من الأَسهل والأَجدى الاتّصال بالله مباشرةً؟ بقوله: «ليست مريم أَيّ شخصٍ، بل هي أُمٌّ مشتركةٌ للمخلّص ولنا، وهي ليست عائقًا على درب الله، بل هي الدرب الذي يفضي إِلى من هو «الطريق». لا ريب أَنّ وسيطنا الوحيد هو يسوع، وإِن كانت مريم هي الدرب إِليه. فلأَنّها وابنها واحدٌ، ولأَنّها تتلقّى منه كلّ ما هي عليه، ولأَنّ يسوع نفسه انتهج درب العذراء، كي يأتي إِلينا. إِنّها درب الله إِلى البشر، قبل أَن تصبح درب البشر إِلى الله».

وقد ضرب أُسقفٌ المثل التالي: «إِنّ الطفل الذي، من أَجل تقبيل أَبيه، يصعد على كرسيٍّ، أو يلتمس من أُمّه أَن ترفعه على ذراعيها، إِنّما يقبّل أَباه مباشرةً ولا يجعل من الكرسيّ أَو من أُمّه حاجزًا بين قلبه، وموضع حبّه البنويّ». إِذن، وساطة العذراء ليست حاجزًا بين البشر وابنها، بل هي الوسيلة التي اتّخذها ابنها نفسه لكي لا يكون، ثمّة، حاجزٌ، ولكي يتمكّن الجنس البشريّ، بواسطتها، من الاتّصال المباشر بالله.

ولا ريب أَنّ تكريم الأُمّ يثلج قلب ابنها، ولا يستلب من مجده شيئًا. وفي هذا السياق، كتبت طالبةٌ صينيّةٌ: «في الصين كلّ تكريمٍ لإِنجازات إِنسانٍ ينعكس دائمًا على أُمّه. وقد شهدتُ، لدى البروتستانتيّين، تجاهلاً مطلقًا لهذا الواقع. هذا التجاهل يبدو لي مخالفًا للطبيعة».

ولا بدّ من التنويه بأَنّ الإِصلاحيّين الأَوائل، ومؤسّسي البروتستانتيّة قد أَجمعوا على إِكبار العذراء، وعلى إِحلالها في أَسمى مقامٍ، كما يليق بها. وقد أوردنا، في عدّة أَماكن من هذا الكتاب، نصوصًا للوثير وزوينغلي وبولينغر (Bullinger) ودريلنكور (Drélincourt)، تثبت ذلك. غير أَنّ أَجيالاً لاحقةً من البروتستانتيّين تنافست على تجريد أُمّ المخلّص من كلّ فضلٍ، إِلى أَن انتهى الأَمر ببعضهم بإِنكار

ألوهة المسيح. خطوتهم الأولى التي قامت على إنكار سموّ العذراء كانت تمهيدًا للخطوة الثانية، أي إنكار ألوهة ابنها، وكأنّها نتيجةٌ طبيعيّةٌ لها. هذا ما أدركه قسٌّ بروتستانتيّ اعترف، بعبارةٍ ساخرةٍ: «إنّ إبليس لاعب شطرنجٍ ماهرٌ، يوسوس في أُذن خصمه: «ضحِّ بالملكة كي تدع الطريق حرًّا للملك». ولكن، خلافًا لمزاعم الإصلاحيّين لم يقع سائر المسيحيّين في شرك هذه النصيحة الماكرة، ولم يضحّوا بملكتهم ليقينهم بأنّها تدافع عن ملكها، وبأنّ إقصاءها عن قلوب المؤمنين سيفضي إلى خسران المعركة، كما حدث لدى بعض الشيع البروتستانتيّة، حيث لم يلبث المسيح أن شارك نفي أمّه.

والويل لمن يهمل وساطة أُمٍّ هي أُمّ الله، ولا ينعم بشفاعتها الخلاصيّة!

ولنختم بقول البابا بنيدكتُس السادس عشر: «بصفتها أُمًّا متعاطفةً، مريم هي الصورة المسبّقة لابنها، واللوحة الدائمة التي تمثّله.. ونحن نريد أن نسأله وضع مريم على دربنا، مثل نورٍ يساعدنا على أن نصبح، نحن أيضًا، نورًا، وعلى إشعاع هذا النور في ليالي التاريخ».

إيمان مريم

لقد أوجزت إليصابات استحقاقات مريم، عندما هتفت، بإلهامٍ من الروح القدس: «طوبى للتي آمنت بأنّه سيتمّ ما قيل لها من لدن الربّ». (لوقا ١: ٤٥)

ومع أنّ ألقابًا مستحَقّةً كثيرةً أُطلقت على مريم، إلاّ أنّ أكثر الألقاب جدارةً بها هو «سيّدة الإيمان» أَو «أُمّ الإيمان» كما سمّاها القدّيس إيريناوس.

ما بشّرها به الملاك لم يكن من اليسير تصديقه: أَن تلد امرأةٌ بشريّةٌ عذراء ابن العليّ. ولكن بما أَنّ المبشّر هو جبرائيل، «قدرة اللّه» ورسوله، لم ترفض تصديقه، وما كان استفسارها عن كيفيّة تحقيق ذلك إلاّ حرصًا منها على نذر البتوليّة الذي كانت قد التزمت به.

كانت إليصابات شاهدةً على عاقبة عدم تصديق زوجها زكريّا لوعد الربّ، وعلى عقابه، ولذلك أكبرت إيمان مريم ببشارة الملاك، لا لأنّها أَدركت كلّ أَبعادها، أَو لأنّ الدليل الذي قدّمه لها أَقنعها، بل لمجرّد كونه قول اللّه، فأَعلنت: «ليكن لي بحسب قولك». لم تقل: «أَرتضي أَن أَكون أُمّ اللّه»، بل «فليكن لي ما تقوله»، بكلّ نتائجه وتبعاته. لقد تقبّلت كلام اللّه مثل نورٍ أَشرق عليها، ولا حاجة إلى إنكاره أَو مناقشته، فنور اللّه هو مصدر كلّ نورٍ وكلّ معرفةٍ. وقد أَهداها اللّه كنزًا فتلقّفته بشغفٍ وشكرانٍ.

لم يكن استفسارها إنكارًا أو تعبيرًا عن شكٍّ، مثلما كان استفسار زكريّا. ولذلك حلّ الروح القدس عليها، في الحال، وتجسّد فيها ابن اللّه، في حين عوقب زكريّا إلى أن يتحقّق وعد الربّ. وإنّما كان تساؤل مريم ينمّ عن رغبةٍ في المعرفة من أَجل التوافق التامّ مع مشيئة اللّه.

سمعت مريم كلام اللّه، ولمست كلمته، فكان إيمانها بلا حدودٍ. سمعت كلام اللّه في قلبها، وأَتاحت له أَن يضرب فيه جذورًا، وأَن ينمّي كلّ طاقاته الإلهيّة، وأَن

يستحوذ عليها كلّيّةً. لا شيء، في عقلها أَو في قلبها، قاوم أَو عارض، بل كلّ شيءٍ استسلم لعمل اللّه، ولم يخالط تسليم ذاتها للربّ أَيّ تحفّظٍ. رُبّما لم تدرك كلّ ما كان اللّه يحقّقه فيها، ولكنّها أَيقنت بقدرته وحقيقته، ولم يُخفْها السرّ. رحّبت بالنور في العتمة، وبالكلمة في الصمت، ولم يحُل الصمت ولا العتمة دون يقينها.

مع إِيمانها الوطيد بأَنّ المستحيل على البشر، ممكنٌ للّه وسهلٌ، كانت قدماها راسختين على الأَرض. لذلك استوضحت عن إِمكانيّة التوفيق بين المستحيل ونذر بتوليّتها. وما إِعلانها: «فليكن لي بحسب قولك» سوى اعترافٍ بأَنّ مشيئة اللّه كلّيّة القدرة، ولم تقتضِ دليلاً لأَنّ قول اللّه حسبها.

وكذلك عندما قالت للخَدَم في عرس قانا: «افعلوا كلّ ما يقوله لكم»، كان قولها تعبيرًا عن ثقتها المطلقة باللّه، ودليلاً على إِيمانها الراسخ بأَنّ لا شيء يتعذّر على ابنها.

كان إِيمان إِبراهيم قد استهلّ العهد القديم، وإِيمان العذراء الذي عبّرت عنه في البشارة استهلّ العهد الجديد. وعلى غرار إِيمان إِبراهيم، كان إِيمان العذراء ثقةً في اللّه، وطاعةً له، أَيّةً كانت عتمة الطريق وعثراته. وقد استهلّت موافقتُها على مشيئة اللّه كلّ شيءٍ، وأَلزمت كلّ شيء، وأَتاحت كلّ شيءٍ، وكما قال القدّيس أوغسطينُس: «عندما وافقت على تجسّد الكلمة، فتح إِيمانُها الفردوسَ للبشر».

إِبراهيم امتثل لطلب اللّه، فهجر وطنه، وهو لا يعلم أَيّ وطنٍ سيحضنه. جعل من الإِيمان وطنه، وعاش هذا الإِيمان في جرأةٍ رائعةٍ، قائمةٍ على التواضع والثقة. وكذلك ارتحلت مريم على دروب الإِيمان، دروب اللّه، ولم تسمح للشكّ أَن يثبّطها، مع توفّر أَسباب الشكّ.

يقول الرسول بولس عن إِبراهيم إِنّه «بالإِيمان تجلّد كأَنّه يعاين الذي لا يُرى» وبالإِيمان تسلّحت مريم لكي تتخطّى كلّ أَسباب الريبة.

فالملاك كان قد بشّرها بأَنّ وليدها سيرث عرش داود، فإِذا بها لا تجد مكانًا تضعه فيه سوى مذود بهائم.

والملاك بشّرها أَنّه سيملك على بيت يعقوب، وإِذ بهيرودُس، ملك اليهود، يسعى جاهدًا إِلى قتله، وهو، بعد، في أَيّامه الأولى.

وبشّرها الملاك بأنّ ابنها سيكون عظيمًا، وابنَ العليّ يُدعى، فإذ به ينتهي عاريًا، مهانًا، معلّقًا على خشبة العار، وحيدًا، مغمورًا بالهزء.

ومع ذلك أَضجعت وليدها في مذودٍ، وهي مؤمنةٌ بأنّه خالق الكون. وفرّت به إلى مصر من سخط هيرودُس، وهي مؤمنةٌ بأنّه ملك الملوك. رأته يولد، وهي مؤمنةٌ بأنّه أزليٌّ أبديٌّ. رأته فقيرًا، معدمًا، راقدًا على القشّ، وهي مؤمنةٌ بأنّه سيّد الكون الكلّيّ القدرة؛ رأته عاجزًا عن الكلام، وهي مؤمنةٌ أنّه الحكمة اللانهائيّة؛ رأته يئنّ، وهي مؤمنةٌ بأنّه فرح الفردوس؛ وأخيرًا رأته يموت مصلوبًا ومزدرًى، وفي حين اهتزّ إيمان تلاميذه، كانت أرسخ إيمانًا بأنّه هو الله. ولذلك وقفت عند صليب ابنها، ومصباح إيمانها ما برح متّقدًا في ليل الشكّ المدلهمّ.

آمنت مريم، فحلّت عليها وعلى ذرّيّتها البركة مثلما حلّت على إبراهيم أَبي المؤمنين، فأَصبحت لمؤمني العهد الجديد أُمًّا. ومن خلالها تتلقّى جميع أَجيال الأَرض البركة. ونحن ننعم بهذه البركة بقدر ما نكرّم مريم، ونحذو حذوها، وبقدر ما نندفع في تيّارها، فنؤمن معها، ومثلها، ونمجّد الله، فيقيم في ما بيننا، بصفته عمّانوئيل، الله معنا، يسوع المسيح، الفادي الحقّ الوحيد.

قالت نَعَم للملاك المبشّر لأنّها آمنت. ولكنّها آمنت مع أَنّها لم تفهم كلّ شيءٍ، ومع أَنّها فهمت الكثير بفعل الروح القدس الذي سكب عليها أَنواره، لكي تشترك بعقلها، وقلبها، في الأَسرار التي أُقحمت فيها.

لإيمانها بالبشارة وجهان: فحوى رسالة الملاك، وتدخّل الروح القدس الحميم فيها.

ولم يكن إيمانها مرتكزًا على أيّ اعتبارٍ فكريٍّ، بل فقط على اليقين الذي يقطنها، ويعطيها إلهها ابنًا. وعلى هذا الابن، على هذا الطفل الذي لا تعرفه بحواسّها الخارجيّة، ولا بمخيّلتها وعقلها، ولكنّها تعرفه بحبّها، كان عليها أَن تتّكئ، ووراءه كان عليها أَن تتوارى. أُمومتها له أَدخلتها في أَعماق فقر الروح، وتواضع القلب، وأَتاحت لها إخضاع صِغرها لصغرٍ إلهيّ. وهذا الصغَر الجديد هو دليل عمل الروح فيها.

وظلّ إيمانها بابنها منيعًا وكاملاً، عندما كان طفلاً مثل أَصغر أَطفال البشر، وعندما كان مصلوبًا، مهانًا، معانيًا، في ضميره، كلّ بشاعة خطيئة البشر. وقد برهنت عن

إِيمانها أَسطع برهانٍ، وسط ظلمات الجلجلة، حيث كان سكونها، وسجوّ نفسها، ضربًا من العبادة. فالإِيمان الحقّ هو الحياة مع الله، بمنأًى عن كلّ قلقٍ أَو اضطرابٍ.

لإِبراهيم أَرسل الله كبشًا كي يُقدَّم محرقةً، فينجو إِسحق، ويسعد أَبوه برؤيته يولد ثانيةً، في حين مضى ابن مريم في التضحية حتّى غايتها المأسويّة. ولكن، من تضحية يسوع وأُمّه وُلد شعب المسيحيّين، وهذه التضحية شدّدت إِيمان الجماعة المسيحيّة الأولى الذي كان الصليب قد هزّه هزًّا عنيفًا.

لقد بدا الواقع تكذيبًا لوعود الربّ، ولكنّ مريم مضت على درب الإِيمان، عبر ظلماتٍ تبدّدت خطوةً فخطوةً.

آمنت أَكثر ممّا فهمت، وفهمت بفضل مثابرتها على الإِيمان، ووفائها له. وما لم تكن تفهمه في ساعته، كانت تحفظه في قلبها وديعةً حيّةً فاعلةً؛ تصوغ قلبها، في الحبّ. وقد صاغ حبّها ليسوع ذهنها وقلبها، وجعلهما في مثل سعة شاطئ البحر، فعلّمتنا أَنّ الإِيمان هو فعلٌ حرٌّ، وأَنّه فعل حبٍّ.

وما انفكّت تقول: «نَعَم، فليكن» لأَقوال الربّ التي يتعذّر عليها فهمها، لما كان يتخطّى شعاع النور الذي يضيء ذهنها، ولكنّها، في نشدانها المزيد من النور كانت تنكفئ على ما أُودعته مظانَّ قلبها، بكلّ غنى ذهنها وحبّها، فتسائل، وتقارن، وتحيا الأَحداث من جديدٍ وتمحّص كلّ قولٍ مدهشٍ.

وهكذا واكب فهمُها لأَقوال ابنها وأَفعاله، ولأَحداث حياته حياتها، ومعرفتُها الواقعيَّة، ازدهارَ الحبّ فيها، ونمت جميعها معًا.

أَحبّت الله، وأَدركت أَنّ لا بدّ من الإِيمان بكلامه، فآمنت، وبفضل هذا الإِيمان تسنّى لها أَن ترمق كلّ شيءٍ «بعيون القلب المستنيرة».

في هذا السياق كتب بوسُّويه: «لقد أُعطيت الكلّيّة القداسة أَن تحوّل مواهبها إِلى استحقاقات». فالإِيمان اقتضى منها حبًّا جمًّا، وكذلك استمرارها في ولادة ابنها بحيث أَمست مواهبها استحقاقاتٍ.

لقد أَغدق عليها الربّ كراماته بوفرةٍ، ولكنّها، في حرّيّة إِيمانها وحبّها، حرصت الكلّيّة القداسة والمختارة، أَن تظلّ، حتّى النهاية، أَمَة الربّ.

في المواهب الصوفيّة الكبرى يبدأ اللّه بإشعاع بصيصٍ خافتٍ، يتكاثف نوره بمقدار التزامنا الداخليّ، وبذلك يكشف لنا وقائع جديدةً تُكسب إيماننا امتلاءً.

ومريم أُعطيت، في البشارة، معرفة هويّة ابنها معرفةً مبهمةً، كانت تكتسب وضوحًا، مع كلّ حَدَثٍ يثير دهشتها التي يصفها الإنجيليّ بعدم الفهم. ولكنّها، بالعودة إلى ذكريات البشارة، تستخلص أَبعادها وفحواها.

إنّها تحفظ الأَشياء في قلبها وتتأمّلها، أَي إنّها تبقى وفيّةً لها حتّى تحقيقها تحقيقًا يدهشها، فاللّه يدهش، دائمًا، من يدعوهم، ويبقون له أَوفياء.

وفي قلب مريم كان الإيمان يتعمّق من غير حاجةٍ إلى تجلّياتٍ جديدةٍ.

كثافة إيمان إبراهيم بلغت ذروتها في مريم، وأَعدّتها لحمل ابن اللّه ومقاسمته حياته. وكانت قد حملته في قلبها، قبل أن تحمله في أَحشائها، كما قال القدّيس أوغسطينُس. وهي، بذلك، المثال الأَعلى للكنيسة، ولكلّ نفسٍ مسيحيّةٍ تلد اللّه في ذاتها، وفي العالم. وهي المثال لمن آمنوا ولم يروا، آمنوا ولم يدركوا دائمًا، إدراكًا كاملاً. وقد آمنت ولم يضعف إيمانها، لأَنّه كان أَقوى من الظلمات، ومن الجهل والريَب، ومن جميع المِحَن. لقد كان إيمانها منطلق إيمان الكنيسة وذروته، ومثالاً للإيمان المطلق باللّه.

كانت رائدة الكنيسة في حجّها الإيمانيّ. وقد قال البابا يوحنّا بولس الثاني: «وسط جميع المؤمنين، تحاكي العذراء مرآةً تنعكس فيها روائع اللّه، بالطريقة الأوفر عمقًا وشفافيّةً».

ولم يكن إيمانها، يومًا، اعتيادًا، بل كان نشيطًا، فاعلاً، متيقّظًا لقراءة علامات الأَزمنة، مصغيًا لإيحاءات الروح. كان مغامرةً دائمةً.

منذ البشارة انطلقت مريم في حجٍّ إيمانيٍّ ما انفكّت تكتشف، من خلاله، أَبعاد أُمومتها التي لم تتوقّعها. وبقدر ما كانت تتّضح في ذهنها آفاق رسالة ابنها، كانت هي تزداد انفتاحًا على أَبعاد أُمومتها، في خضوعٍ تامٍّ لأَنوار الروح القدس.

بقولها نَعَم لولادة ابن اللّه، بعمل الروح القدس، في أَحشائها، وضعت العذراء جسدها، وكلّ ذاتها بتصرّف اللّه، كي يقيم حضوره فيها. وبقولها «فليكن...» اتّحدت مشيئة مريم بمشيئة ابن اللّه، وغدا التجسّد واقعًا.

إيمانها كان موجعًا، كان صليبًا، منذ لقائها بسمعان الشيخ، ثمّ بمناسبة تواري يسوع ابن الاثني عشر ربيعًا، في الهيكل، حيث لم تفهم ما قاله لها وليوسف.

ورغم صلتها الوثقى بيسوع، ظلّ السرّ سرًّا، لم تستوعبه العذراء إلاّ بالإيمان. وقد بلغ إيمانها ذروته عند أقدام الصليب. حتّئذٍ كانت تحتفظ، في خزانة قلبها، بأمانةٍ وحرصٍ، كلّ أقوال ابنها، وإشارات الربّ، كي تشبعها تأمّلاً، وتستمدّ منها فهمًا ونورًا. ولكن، أمام الصليب، هل بقي شيءٌ من وعد الملاك بأنّ الربّ الإله، سيعطي ابنها عرش داود أبيه... ولن يكون لملكه انقضاءٌ...؟ ألم يكن الصليب نفيًا لذلك الوعد، وتكذيبًا لمحتواه؟

هذه الظلمة التي خاضتها العذراء تمثّل ملء المشاركة بالإرادة الإلهيّة، فالإيمان مشاركةٌ في الصليب، وهو، في الصليب يكتمل.

فكرة تجسّد الله كانت تناقض كلّ ما آمن به شعبها، وما تعلّمته منذ طفولتها. ومع ذلك، حيال قول مرسل الله، آمنت، واثقةً بكلام الله، ولم يضطرّ ابنها إلى أن يقول لها، يومًا، ما طالما أنّب به تلاميذه: «يا قليلي الإيمان».

غير أنّها، حيال الأحداث العجيبة التي كانت تشهدها، عهدت الرعدة، والدهشة، وما تولّده الأحداث التي تفوق الإدراك من جزَعٍ، ومن مقاومةٍ تلقائيّةٍ، أحيانًا. حينئذٍ، كانت تقول نَعَم لما يفوق إدراكها، وتنحني على السرّ تشبعه تأمّلاً، على ضوء ما أُعطيت من نِعَمٍ ونورٍ، مستجليةً الوقائع المعتمة، متسائلةً، مقارنةً، مستعيدةً في ذاكرتها الأحداث الماضية، والأقوال المذهلة. وهكذا، من الناصرة إلى بيت لحم، فإلى الجلجلة، فإلى السماء، ما انفكّ وجه الحياة الإلهيّة التي انصهرت بها، يتجلّى لها شيئًا فشيئًا.

هذا ما عناه البابا يوحنّا بولس الثاني بقوله: «لقد عاشت إيمانها في موقف تعميقٍ مستمرٍّ، واكتشافٍ مطّردٍ، مجتازةً مراحل ظلمةٍ عصيبةٍ، بدءًا بأيّام أُمومتها الأولى، مراحل تخطّتها بوقوفها موقف إصغاءٍ وطاعةٍ مسؤولاً، حيال كلمة الله».

إيمانها ولَده وحيٌ، ونمّاه عملٌ بطيءٌ، في القلب. تقبّلته على أنّه مزيجٌ من نورٍ وعتمةٍ، وظلّت وفيّةً له حتّى عندما تعذّر عليها فهمه، وبوفائها اكتسبت وضوح رؤيةٍ تدريجيًّا، وانتهت إلى الفهم، ولم تجزع، ولم تتخاذل عندما تبيّنت أنّ وفاءها يقودها إلى الصليب.

وهي، في إيمانها هذا، خير نموذجٍ لنا. يقول القدّيس أوغسطينُس في هذا السياق: «مريم آمنت، وما آمنت به تحقّق فيها. فلنؤمن، نحن أيضًا، لكي نستفيد ممّا آمنت به». وإن كان إيمانها قد أهّلها لولادة المخلّص، فإيماننا سيوحّدنا به.

إيمانها هو، أوّلاً، فعلُ تقدمةٍ، يعبّر عنه قولها: «ها أنذا»، فهي، بكلّيّتها، نعمةٌ من الله، وكان من الطبيعي أن تقدّم لله كلّ نعمةٍ، في تقدمة كيانها كلّه.

وإيمانها فعل طاعةٍ يعبّر عنه قولها: «إنّي أمَة الربّ». لقد اندمجت في مخطّط الله، ولبّت الدعوة الساميةَ الموجّهة لها، ولم ترَ فيها مبعث مجدٍ لنفسها، بل رأت فيها مجال خدمةٍ لله، متبيّنةً كلّ ما سينجم عن قبولها أن تكون أُمًّا عذراء من عواقب موجعةٍ. ومع ذلك لم تتردّد، ولم تناقش، بل استسلمت لمشيئة سيّدها. وكانت النموذج الأمثل في الاستجابة للدعوة التي تُهيب بكلّ مؤمنٍ أن يجهد للنموّ في القداسة، والانتصار على الخطيئة.

وإيمان مريم هو، أيضًا، فعل ثقةٍ: «فليكن لي بحسب قولك». فعندما تطرق نعمةُ الإيمان بابَ ضمير إنسانٍ، تثير فيه اضطرابًا طبيعيًّا، إذ إنّه، مع التزامه بحركة النعمة، يطرح على ذاته أسئلة الإيمان الكبرى. وعندما تنيره كلمة الآب والروح القدس، يلج محراب الإيمان، ويقف ذاته على خدمة الربّ، واثقًا بالحقيقة الإلهيّة.

وقد كانت مريم المسيحيّة الأولى المؤمنة بوعد الخلاص. وكانت كوكبًا مضيئًا على درب إيماننا المظلم، وطليعة من تلقّوا من صميم الظلمات، النور الآتي إلى العالم.

وكان إيمانها:

– سخيًّا، منفتحًا على كلمة الله، مرحّبًا بمشيئته، أيّةً كانت، وكيفما تجلّت.

– منيعًا، يتخطّى كلّ الصعاب والعقبات، ومواطن الشكّ.

– فاعلاً، تغذّيه شعلة حبٍّ تودّ التعاون الوثيق مع مخطّط الله الخلاصيّ.

لقد أدركت أنّ الإيمان مخاطرةٌ، فخاضتها ببسالةٍ وبطولةٍ.

إيمانها بدأ مبهمًا بقدر ما كان طاهرًا وساميًا. ولكنّها ما انفكّت تتعلّم وتدرك، في حين كان يتوضّح لها، شيئًا فشيئًا، السرّ «المخفيّ قبل كلّ الأزمان».

كانت أكثر تلاميذ يسوع إصغاءً لأقواله، وحرصًا على معرفته، وحبًّا له. وكان

إيمانها يستنير، كلّ يومٍ، بفضل اتّصالها بشخص يسوع، وبفضل نور كلامه. ولا ريب أنّ روح العنصرة جعلها، هي أيضًا، تُدرك ما لم تكن قد نفذت، بعدُ، إلى أعماق فحواه. وكان فهمها لهذه الأمور يفوق فهم الآخرين لها، لأنّها كانت تقاربها بالأسرار المختزنة في قلبها، والتي كانت تشبعها تأمّلاً.

كتب الكردينال رتسنغر (البابا بنيدكتُس السادس عشر الحاليّ):

«عندما بشّرها الملاك تساءلت ما عسى أن يكون هذا السلام»، أي إنّها تحاورت مع الكلام الموجّه إليها، واستغرقت في تأمّله.

«وبعد زيارة الرعاة، «كانت تحفظ تلك الأقوال كلّها، وتتأمّل فيها في قلبها». كانت تستشفّ، في كلام الله، حَدَثًا كثيف المعنى، وتُدخل الأقوال إلى قلبها، أي إلى مكان التفكير الحميم، حيث الحسّ والفكر، العقل والشعور، التأمّل الخارجيّ والتأمّل الداخليّ، تتلاقى جميعًا، بحيث يتجلّى الإجماليّ من خلال أحداثٍ متفرّقةٍ، وتصبح الرسالة مفهومةً.

«مريم تجمع وتربط عناصرَ متفرّقةً لكي تقحمها في سياقٍ عامٍّ، تقارنها، وتستخلص فحواها، وبالإجمال تحتفظ بها في قلبها. وتصبح الكلمة بذارًا ملقًى في الأرض الطيّبة، لا تتسرّع في تلقّيها، لكيلا ينقلب التقاطا روحيًّا عابرًا، مصيره النسيان. بل إنّ الحدث الخارجيّ يجد في قلبها مجالاً يقيم فيه، ويكتشف لا شعوريًّا عمقه، من غير أن تمحى أصالة الحدث.

«عندما لقيت ابنها في الهيكل، وهو في الثانية عشرة، لم تفهم جوابه على عتابها. فالكلمات الإلهيّة ليست، دائمًا، واضحةً، وسهلة التصديق، حتّى للإنسان المؤمن، المنفتح كلّيّةً على الله. إنّ المطالبة بفهمٍ فوريٍّ للرسالة المسيحيّة، كما يُطلب فهم الوقائع السطحيّة، هي بمثابة قطع الطريق دون الله. وحيث يغيب التواضع في تقبّل السرّ، والصبر في استيعاب ما لا يُحاط به، قبل تمثّله، وإتاحة فرصةٍ له كي ينضج، تسقط بذرة الله على الصخر، حيث لا تضرب جذورًا. وأُمّ يسوع، لم تكن تفهم ابنها، في الحال، ولكنّها «تحفظ كلّ تلك الأمور في قلبها.

«الأُمومة الإلهيّة، والإصغاء الدائم إلى كلمة الله متلازمان. بإصغائها إلى قول الملاك، تلقّت مريم الروح القدس في ذاتها. وعندما تحوّلت إصغاءً كاملاً، حملت

الكلمة بقدرٍ من الامتلاء، بحيث أَصبح الكلمة، فيها، جسدًا. وتلك التي أَصغت في أعماق قلبها، والتي تمثّلت الكلمة فعليًّا، استطاعت أَن تهبها للعالم، بطريقةٍ أُخرى، وبذلك كانت نبيّةً.

«كلمة الله صارت ملكها، وكلمتها الخاصّة انصهرت في كلمة الله، وتلاشت الحدود بينهما.

«تعظّم نفسي الله» لا يعني أَنّ بوسعنا إِضافة شيءٍ إِلى الله، بل نستطيع إِنماء الله فينا، وفي العالم.

«في إِيمانها الذي يواجه دعوة الله، تبدو مريم صورةً للخليقة المدعوّة إِلى إِجابة، صورةَ حرّيّة المخلوق التي لا تذوب، بل تكتمل في الحبّ».

بطء تقدّم مريم صوب النور الكامل كان لها محنةً قاسيةً. فبقدر ما كان إِيمانها كثيفًا ونفّاذًا، بنفس القدر كان يتعاظم صبوّها إِلى الفهم. الشقّة بين تلمّسات حدْسها، ومدارك ذهنها، كانت تخلق ضربًا من ليل الذهن. فالليل هو حيث تشتدّ الحاجة إِلى النور، وعندما تبدو التجربة المباشرة قلقًا وجيعًا يحفّز على البحث، مع التشبّث بما يعترف به الإِيمان.

من خلال صمت يسوع، ومن خلال نأيه عنها طيلة سنوات رسالته، مع اختياره لها، منذ الأَبد، كي يحقّق فيها سرّ التجسّد الممهّد للفداء، كانت مريم تتلمّس المخّ العذب تحت الغلاف القاسي.

وإِن كان الإِيمان بيسوع يوحّد به، فمَنْ، أَكثر من مريم، أَصغى إِليه، وتقبّله تقبّلاً مطلقًا، في التواضع والظلمة؟ ومَنْ، أَكثر منها، وصل، بالإِيمان بكلٍّ من أَقوال يسوع وأَفعاله، إِلى ذاك الذي جاء من حضن الآب إِلى أَحشائها، ولم يصبح إِنسانًا، إِلاّ بعد أَن أَصبح لها ابنًا!

معرفتها لابنها كانت معرفة انعكاسٍ ورمزٍ، ولم تكن معرفة رؤيةٍ. فخبرت عتمة الإِيمان، وخضع إِيمانها لسنّة التدرّج والنموّ.

لم تجهل الجوهريّ في ما يتعلّق بهويّة ابنها ورسالته، ولكنّها لم تنعم بمعرفةٍ لهما خاليةٍ من كلّ ظلٍّ، ولا أَحاط فهمها بكلّ جوانبهما. بل كان إِيمانها الإِيمان الذي

يليق بأُمٍّ، كان إِيمانًا حيًّا، مثاليًّا، عميقًا، وإِن هي عجزت عن تفسيره. وكان إِيمانًا كثيفًا، وإِن لم تُحِطْ بكلّ تفاصيله.

كان لمعرفتها حدودٌ، ولكنّها لم تكن معرفةً ناقصةً، ولم تنزلق، قطّ، إِلى الخطأ. ولم تتسرّع، يومًا، في حكمٍ. وقد امتلكت ميزة النبوّة، كما يتّضح من نشيد تعظيمها للربّ. كما امتلكت قدرة تمييز روح اللّه عن سواه، وسبر كوامن النفوس.

ولا ريب أَنّها نعمت برؤًى عن جوهر اللّه والثالوث الأَقدس، أَكثر من جميع القدّيسين، ولكنّ هذه الرؤى لم تتخطَّ حدود الإِيمان.

عرفت ابنها معرفةً عميقةً، وإِن لم تكن علميّةً، ومعرفةً واقعيّةً، وإِن لم تكن عقليّةً، ولذلك إِيمانها مثاليٌّ، وجديرٌ بأَن يُحتذى، إِذ إِنّها لم تكفّ عن تعميقه بتأمّل أَقوال ابنها وأَفعاله، في قلبها.

لقد أُعطيت مريم امتياز أَن تحيا، لحظةً فلحظةً، معجزة الخلاص. وكانت تلك محنة إِيمانها. كانت تسهم في خلاص العالم، ساعة تحقيقه، وقد خاضت اللحظات الكبرى، والمبادرات الفائقة، التي لم يكن ممكنًا استيعابها حتّى اكتمالها. لم تُعطَ علمًا مسبّقًا، بل فهمًا كان يتحقّق شيئًا فشيئًا. كلّ ما كان يحدث، وكلّ ما سيصبح موضع إِيمان الكنيسة الذي لا ينضب، كان يحدث لا في يسوع فحسب، بل فيها، أَيضًا. وكان صداه يترجّع في جسدها، وقلبها، وكان مأساة حياتها. كانت تحيا، بشريًّا، في الزمن، أَحداثًا إِلهيّةً، أَبديّةً. وهذا هو شرط الإِيمان الأَشدّ تجرُّدًا، وسموًّا، وعظمةً. كان عليها أَن تقرن الإِيمان بالرجاء.

كانت نموذجًا للتلميذ الذي يتلقّى، ويرحّب، ويلحظ النور يتعاظم فيه تدريجيًّا. من خلال الإِيمان وحده، وعت مريم حقيقة ابنها. فهي لم تُعطَ رؤية اللّه المباشرة، بل كانت ترى ابنًا بشريًّا، لا تشكّ بأَنّه اللّه. غير أَنّ علاقة أُمومتها حيال يسوع هي، نفسيًّا، العلاقة ذاتها التي تعقدها كلّ أُمٍّ مع ابنها، وتنطوي على نفس ردود الفعل العاطفيّة. هذا ما ظهر من خلال حَدَث تخلّف يسوع في الهيكل، وهو في الثانية عشرة.

كان لا بدّ لها من التوغّل في الإِيمان، كي تميّز سرّ بنوّة ابنها الإِلهيّة، الذي لم تدركه كاملاً إِلاّ على ضوء الروح القدس الذي مُنحته في العنصرة. ولن ترى اللّه

في ابنها، وجهًا لوجهٍ، إلاّ يوم انتقالها المجيد إلى السماء. وريثما يتمّ ذلك، كان عليها أن تدنو، شيئًا فشيئًا، من اللامرئيّ، وأن تحيا في حميميّة السرّ. وفيما كان يسوع «ينمو في الحكمة والنعمة، أمام الله والناس»، كانت هي تتقدّم في رحاب سرّه، بهدي الإيمان، مستأهلةً، يومًا فيومًا، تطويب إليصابات لها لأنّها آمنت بما قيل لها من لدن الربّ. وكم كان عسيرًا أن تظلّ مؤمنةً بألوهة ابنها، وهو معلّقٌ على الصليب!

ولكن لم يكن الصليب هو الخطر الأكبر الكفيل بالنيل من إيمان مريم، بل السنوات الثلاثون التي تصرّمت في الناصرة، تحت قبّة الصمت والبساطة، وفي غياب كلّ دليلٍ على ألوهة يسوع. فالوقت هو البوتقة التي يُمتحَن فيها الإيمان. وبمقدار ما كانت أنوار البشارة ساطعةً، كان الصمت الذي تلا ذلك، وتمادى، سنةً إثر سنةٍ، مرهقًا. ثلاثون سنةً رتيبةً تعاقبت فيها الأيّام متشابهةً، مبسّطةً، لا نتوء فيها، ولكأنّ الشلل نشب بالحياة، وهيمن عليها الجمود.

وفيما كانت مريم تطحن الحنطة كلّ يومٍ، وتُعدّ الخبز والطعام، وتجلب الحطب من الجبل، وتمتاح الماء من نبع الناصرة، كانت لا تني تقلّب في خَلَدها كلمات الملاك جبرائيل، كلماتٍ تلفّظ بها منذ أمدٍ بات بعيدًا، ولكنّها ما برحت ترنّ في أُذنيها، وقلبها: «وها أنت تلدين ابنًا، وتسمّينه يسوع. إنّه سيكون عظيمًا، وابن العليّ يُدعى... ولا يكون لملكه انقضاء...» كلماتٌ متوهّجةٌ، ولكنّ الواقع الماثل أمامها، يبدو تكذيبًا لها. فابنها عاملٌ يكدح صامتًا، وحيدًا، متواضعًا، لا تظهر عليه أيّة أمارات عظمةٍ، بل هو يحاكي سائر الفقراء البسطاء، الكادحين، الضئيلي الشأن.

ولكن، رغم جميع تلك المظاهر الكفيلة بتوليد الشكّ، لم يهتزّ إيمان مريم، وظلّت موقنةً أنّ ابنها الذي لا يتميّز، ظاهريًّا، عن أيٍّ من أبناء جيله وقريته الفقراء الكادحين هو، حقًّا، «ابن العليّ».

وطوال سنوات يسوع العلنيّة، ارتضت بحبٍّ، وصمتٍ، وتضحيةٍ، أن ينعم آخرون بحضوره وقربه، وأن يتلقّوا تعليمه عن كثب، وأن تضطلع نساءٌ فاضلاتٌ أُخرياتٌ باحتياجاته المادّيّة التي كانت تسعد، من قبلُ، بتوفيرها له. وفي تلك الأثناء، عاشت فراقه في الصلاة والدموع، والتأهّب لأسرار الآلام، وفي حراثة نفسها، لإثمار كلمته، التي كانت بها ضنينةً.

وما انفكّ إيمانها يترسّخ ويتصاعد حتّى بلغ ذروته عند أَقدام الصليب. هناك، وقفت ثابتةً، صامدةً، ولم يتزعزع إيمانها بأَنّ ابنها هو ابن اللّه، وأَنّه اللّه، و«حمل اللّه الذي يمحو خطايا العالم»، وأَنّه، وإِن بدا، ظاهريًّا، مهزومًا، فهو قاهر إِبليس، والخطيئة، وأَنّه سيقهر الموت بقيامته، بعد ثلاثة أَيّام.

في الجلجلة، في الظلمة المدلهمّة، بلغ إِيمانها قمّة العظمة.

باكرًا أَدركت العذراء أَنّ اللّه يعمل في القلوب، بمنأًى عن المظاهر الصاخبة، والإِنجازات الباهرة، لكيلا يكون الإِيمان به نتيجة إِكراهٍ. لذلك، وُلد في الخفاء، مع أَنّ ولادته كانت معجزةً. وأَبى النزول عن الصليب، محطّمًا القيود والمسامير، لكيلا يقسر البشر على الإِيمان بألوهته قسرًا، ولحرصه على أَن يكون الإِيمان به فعل إِرادةٍ حرَّةٍ.

حياة مريم كانت ارتحالاً مطّردًا، حجًّا دائمًا حافلاً بالمفاجآت والهواجس واللااستقرار. كانت دهشةً حيال بشارة الملاك، والولادة العجيبة، وإِعلان السماء للرعاة، وقيادة النجم للمجوس إلى بيت لحم. وكانت قلقًا من جرّاء الاضطرار إِلى الهرب إِلى مصر، نجاةً من بطش هيرودُس؛ وكانت جزعًا، عندما اختفى يسوع في الهيكل، وهو ابن اثني عشر عامًا. وكانت حيرةً حيال جوابه غير المتوقّع حينذاك، وإِعلان استقلاله عن أُمّه ومربّيه، والتزامه بمشيئة أَبيه السماويّ، أَبيه الحقّ.

كثيرًا ما استغلق معنى الوقائع على إِدراك مريم، فكانت تسبح في يمٍّ من الظلمات، ولا ريب أَنّها، في تواضعها السحيق، هي التي اعترفت بهذه الحيرة لتلاميذ ابنها الذين كانوا يجلّونها أَعظم تجلّةٍ، إِنّها لم تنفذ إِلى سرّ ابنها إِلاّ تدريجيًّا، بالاستسلام لوحي الروح، والتأمّل، والجاهزيّة التامّة، الواثقة. وهي، في ذلك، خير قدوةٍ لنا.

ومن تضحيةٍ إِلى تضحيةٍ، ومن محنةٍ إِلى أُخرى، كان إِيمان مريم يترسّخ، ويكتسب عمقًا. إِلى أَن خبرت، في الجلجلة، التجرّد التامّ، بعد أَن سُلبت كلّ شيءٍ. ولكنّها لم تفقد ذرّةً من إِيمانها، ورجائها، ومحبّتها. عهدت الصحراء، وعطشها الحارق، ووحدتها اللانهائيّة، غير ساعيةٍ إِلى الفهم أَو إِلى الفرار، بل غارقةً، بكلّ فقرها، في هوّة رحمة اللّه الكلّيّة القدرة، الكفيلة بإِعادة صنع كلّ

شيءٍ، وخلق كلّ شيءٍ، وإقامة كلّ شيءٍ من الموت إلى الحياة، في استسلامٍ بطوليٍّ مطلقٍ.

كانت، أبدًا، مفعمةً سلامًا وصبرًا، ورقّةً، تتقبّل أقوال الربّ، وتودعها خزانة نفسها، وتتأمّلها بخشوعٍ، متبيّنةً فيها مشيئة الله. كانت مثل الزهور التي تنكفئ على ذاتها، عندما تغرب الشمس، تتحرّى في صميم نفسها الساجية، ملتمسةً التوافق مع مشيئة الله، المحيّرة أحيانًا، متقبّلةً سرّ الحياة. تصمت وتلتزم السلام، وإن هي لم تفهم، إلاّ أنّها مؤمنةٌ بأنّ الله يعلم كلّ شيءٍ، ولا يبتغي سوى خيرنا. ولا طائل من التصدّي لما لا مفرّ منه.

وعاشت مريم سرّ القبر، في تجرّدٍ تامٍّ، أفضى بفقرها إلى قعر الهوّة، في استسلامٍ مطلقٍ للمشيئة الإلهيّة. فالاستسلام البطوليّ لا يتحقّق، ولا يُعاش على نحوٍ إلهيٍّ، إلاّ عندما يُنزَع منّا، نزعًا عنيفًا وموجعًا، كلّ ما هو غالٍ على قلوبنا، وكأنّ علينا ألاّ نسترجعه أبدًا، ولكأنّ أزر الله المتجلّي في هبته، وفي «مرسله»، قد افتقدناه نهائيًّا، ولكأنّنا قد تردّينا إلى العدم، وجُرِّدنا من كلّ شيءٍ، بحيث يبدو كلّ رجاءٍ، وكلّ رضًى بمشيئة الله، فاقد المعنى.

وكم كان إيمان العذراء منيعًا كي ترى في كلٍّ من يوحنّا وبطرس ورفاقهما مسيحًا آخر، وفي حفنةٍ من التلاميذ الذين لم يدركوا، بعدُ، أبعاد رسالتهم وسموّها، أساس الكنيسة التي ستخلّد حضور يسوع وتعاليمه، في العالم! لقد كان إيمانها من العظمة بحيث استشفّت، في أدواتٍ هزيلةٍ شوهاء، قدرة الله الكلّيّة.

وبالإجمال، تكمن عظمة مريم في إيمانها، أكثر ممّا تكمن في السرّ الذي أحاق بها.

ومن المحقّق أنّ «الممتلئة نعمةً» لم تكن بمنجاةٍ من المِحَن، والمصاعب، ودواعي الإحباط. ولكن، بما أنّها كانت، دائمًا، على تناغمٍ تامٍّ مع الربّ، كانت تواكبها، دائمًا، انتفاضة حبٍّ ورجاءٍ تدفعها بلا هوادةٍ، صوب إله الحبّ. كان لديها شعورٌ فطريٌّ بالله، واكبها منذ ولادتها.

قالت القدّيسة تيريز الطفل يسوع: «كم تبدو لي حياة مريم بسيطةً!»، رغم قسوة هذه الحياة، ولكأنّ البساطة هي انتصار الحبّ على المِحَن.

مريم نموذجٌ للمرأة التي حقّقت مصيرها، للخليقة التي حظيت برضى الربّ، الخليقة المتصالحة مع خالقها، ومع ذاتها، ومع الآخرين. والمصالحة هي العودة الصادقة والكلّيّة نحو الله. ومريم كانت متّجهةً بكلّيّتها صوب الله، مكرّسةً له.

للقدّيس أُوغسطينُس قولٌ شهيرٌ: «كانت مريم أكثر سعادةً بتلقّي الإيمان بيسوع ممّا سعدت بحملها جسده... وما كانت علاقة الأُمومة لتفيدها بشيءٍ، لو لم تسعد بحمل المسيح في قلبها، أكثر من سعادتها بحمله في جسدها». «بالإيمان التزمت، وبالإيمان حملت».

إيمانها كان فعل حبٍّ، حبٍّ جمٍّ لمن ميّزها، بإعتاقها من الخطيئة منذ تكوينها؛ حبٍّ لمخلّص الكون الذي سيكون ابنها. لقد وصفت نفسها بأنّها «أَمَة الربّ»، وقد بقيت أَمَةً حتّى اليوم الأخير، في خضوعٍ تامٍّ. وقد انطوى فعل إيمانها على حبٍّ كبيرٍ أخضع كلّ إرادتها لمشيئة الآب، وبات بوسعها أن تقول قول ابنها: «إنّي حفظت وصايا أبي، وإنّي ثابتةٌ في محبّته». (يوحنّا١٥: ١٠)

لقد حقّق الله للعذراء عظائم، ومع أنّها لم تدرك كلّ شيءٍ، إدراكًا كاملاً، منذ الوهلة الأولى، إلاّ أنّها لم تكفّ عن اتّباع من يقودها نحو الفصح والعنصرة. ذلك أنّها كانت تحفظ كلّ الأشياء في قلبها. وشيئًا فشيئًا اتّسع هذا القلب بحجم خلاص العالم: الأحداث المتعاقبة العجيبة، نبوءات سمعان وحنّة في الهيكل، نجاوى يسوع في الناصرة، كلّ ذلك كانت تحفظه بحرصٍ، وكان يتفاعل في قلبها، ويوسّعه، كي تتحقّق فيه، حتّى اليوم الأخير، كلّ مشيئات الله. وإن نحن لم نتمثّل بها، فنحفظ الحقائق الإنجيليّة، وندعها تتغلغل في قلبنا، وتفعل فيه، كي توسّع رقعته، محطّمةً الضيق الذي أوقعته فيه الكبرياء، والتماس المتع الصغيرة الزائفة، والمشاريع القصيرة الأمد، فلن يجد فيها مشروع الله الذي يبتغي اقتيادنا إلى القداسة، مكانًا.

كان إيمانها ينمو ويمكّنها من رؤية حياتها وحياة ابنها بعيون القلب المستنيرة.

نَعَمُ مريم كان ينطوي على نَعَم البشريّة كلّها. وعلى كلّ مسيحيٍّ الآن أن يؤكّد، بنفسه، هذا النَعَم الذي يمكّن يسوع من الولادة باستمرار. على كلّ مسيحيٍّ أن يحذو حذو مريم، على درب إيمانها، كي يهب العالم، يسوعَ، اليوم.

آمنت مريم قبل أن ترى وتلمس. وظلّت ثابتةً في إيمانها رغم كلّ دواعي الشكّ

ورغم كلّ ما رأت ولمست. حملت يسوع في إيمانها قبل أن تحمله في أحشائها. وعندما أنشدت تعظيمها للعليّ الذي صنع فيها عظائم، لم تكن قد ولدت يسوع، بعدُ. وبحدْس إيمانها أيقنت أنّ ما صنعه الله بها يعني جميع الأجيال، وأنّه حدثٌ جوهريٌّ في تاريخ البشريّة، وأنّ وضعها للمخلّص سيكون ولادةً لانتظارٍ دهريٍّ. وفي هذا الشأن يقول اللاهوتيّ البروتستانتيّ «كارل بارت»: «ولادة يسوع لا تدين بشيءٍ لانتصار الجسد، ولا لكبرياء الرجل، بل علينا أن نكتشف فيها، مجدّدًا، خصب الإيمان».

آمنت مريم لأنّ موضوع الإيمان كان فيها، وكان معها، وكان قوام حياتها. بكلّ فهمها، وبكلّ قلبها، آمنت بكلام الله، وبالكلمة الذي تجسّد فيها، فالتزمت، كلّ حياتها، بهذا الإيمان. لقد أقام كلمةُ الله فيها، وسكنها، واستحوذ على كلّ طاقات ذهنها، وعلى قلبها، وعلى مشاعرها، مستنفرًا كلّ كيانها لله.

وازدهر إيمانها في الحبّ والرجاء، اندفاعًا فرحًا، واستسلامًا.

آمنت بالوعد الإلهيّ الذي تحقّق فيها، واستسلمت له بكلّ تواضعها، مثلما استسلم لها هو، جنينًا، فطفلاً صغيرًا، معتمدًا عليها اعتمادًا كلّيًّا. ووثقت بكلامه الذي كان وعد حياةٍ.

وتحوّل إيمانها عطاءً وحبًّا. الله لا يهب ذاته إلاّ للإنسان الذي يرتضي إعطاء الله ذاته طوعًا. ومريم، بإعطائها الله ذاتها، بلا تحفّظٍ، وهبته البشريّة كلّها. وما قولها للملاك: «فليكن لي بحسب قولك» سوى موافقة البشريّة جمعاء على الاقتران بالله.

وكان لإيمان مريم تأثيرٌ كونيٌّ. فهي آمنت بالتجسّد، لا باسمها الخاصّ، فحسب، فالتزامها بسرّ الخلاص، كان، بلا ريبٍ، التزامًا شخصيًّا، ولكنّه كان، أيضًا، التزامًا باسم البشريّة جمعاء، فهي تمثّل البشريّة لدى المخلّص، وبقبولها أُمومة الفادي ارتبطت بعمل ابنها الذي يشمل الناس أجمعين. ومن ثمّ، فهي، بنَعَمها، ألزمت مصير البشريّة كلّها. وكان لموافقتها، بانعكاساتها الشاملة، بعدٌ مسكونيٌّ. وقد كتب القدّيس توما الأكوينيّ: «هذه الموافقة كانت فعل شخصٍ واحدٍ، ولكنّ تأثيره امتدّ إلى خلاص الكثيرين، بل إلى خلاص الجنس البشريّ برمّته».

بالخطيئة اقتحم الموت العالم، إذ إنّ الخطيئة هي غياب الله. ولكن لمّا بلغ الإيمان

كماله في مريم، تحقّق استسلام الكائن المنبعث من الموت، للمشيئة الإِلهيّة. وحينئذٍ عاد الحضور الإِلهيّ إِلى العالم، بفضل الإِيمان الذي رحّب به، وحلّت القداسة محلّ الخطيئة، وتجدّدت الحياة، وقُضيَ على الموت.

بالخطيئة تغرّب الإِنسان عن المصير الذي أَراده له الله: أَي عن علاقةٍ حيّةٍ مع الآب. فكان لابدّ من رسالةٍ إِلهيّةٍ تجعل الإِنسان يعي ما فقد، وما بات عاجزًا عن رؤيته. ولا يسع الإِنسان تقبّل هذه الرسالة ما لم يقلع عن تنصيب خبرته الذاتيّة، ومداركه الخاصّة مطلقًا لا يؤمن إِلاّ بما يُسفر له عنه، وما لم يؤمن أَنّ الله أَبٌ محبٌّ.

مع مريم تمّ التحوّل من العهد القديم إِلى العهد الجديد، فالإِيمان قد أَضحى جليًّا وكلّيًّا، والكلمة صار جسدًا، والوعد تحقّق.

إِنّ عظمة أُمومة مريم الإِلهيّة الحقّة، مدينةٌ لحيويّة إِيمانها، ولمنعة طاعتها لمشيئة الله.

وهذا التوافق مع مشيئة الله أَدخل مريم في حميميّةٍ جديدةٍ مع الله. فالآب أَطلعها على سرّ حبّه، وأَلهمها أَن تحيا به ومعه. والابن أَطلعها على سرّ حبّه الخاصّ، وطلب منها أَن تحيا بروحه. وبذلك توغّلت مريم في سرّ الثالوث الأَقدس، كي تحيا به في العمق. وهي بموافقتها على مشيئة الله انخرطت في حياةٍ تأَمّليّةٍ عميقة الغور، إِذ أَصبحت هيكلاً لابن الله المتجسّد، وموئلاً للروح القدس، وللعهد الجديد بين الله والبشريّة.

وكان إِيمان مريم بطوليًّا، فغالبًا ما كان عليها أَن تحيا إِيمانها وحبّها في مجتمعٍ عقليّته معاديةٌ لإِلهامات الروح، ولطالما كان إِيمانها تحدّيًا للآراء السائدة. وفي هذا السياق كتب مارتن لوثير: «تسمّي مريم الله «القدير»، وهي، بذلك تنكر كلّ قدرةٍ لدى الخلائق وتعزوها لله وحده. مع صغر سنّها وفقرها، برهنت مريم عن جرأةٍ كبرى، إِذ إِنّها، بكلمةٍ واحدةٍ، جرّدت طائفةً من الشخصيّات من امتيازاتها. ففي نظرها أَصحاب السطوة ضعفاء، والمسيطرون عديمو القوّة، والحكماء مجانين، وعظماء الأَرض جديرون بالازدراء».

وإِيمان مريم هو الذي ولدنا للإِيمان. فقد كان إِيمانًا خصبًا، به تحقّق مثل ما كان الله قد وعد به إِبراهيم. فغدا عدد إِخوة يسوع يحاكي عدد نجوم السماء، وحبّات

الرمل على شواطئ البحار. يقول القدّيس بولس إنّ إبراهيم آمن، وهكذا أَصبح أبًا. وهكذا مريم آمنت، فأَصبحت أُمًّا لمن حملته في روحها قبل أَن تحمله في جسدها، وأُمًّا لإخوةٍ له لا يحيط بعديدهم إحصاءٌ.

في ميدان الإيمان كانت العذراء هي الأولى والأَوفر كمالاً. وفي الجماعة المسيحيّة الأولى كانت «المؤمنة» الأولى، وخير من أَصغى، وحفظ، وحيّى، وفهم كلمة الإنجيل، الكلمة الذي تجسّد في أحشائها.

وكانت ذاكرة الكنيسة الأولى التأمّليّة، ومصدر تقليدٍ شفويٍّ، ومنبع حكمةٍ مشبعةٍ تأمّلاً.

وهي ما برحت النموذج الأَمثل للإيمان، فإنّها، بحسب قول البابا يوحنّا بولس الثاني: «درب الإيمان الذي ينبغي انتهاجه».

فالإيمان هو تقبّل كلمة الله، في أَعماق الفكر والقلب. هو توجّه كياننا المحوريّ نحو من خلقنا على صورته، والذي فيه وحده نجد اكتمالنا، وهو الجهد الصادق للعيش واقعيًّا بنوره. فليس الإيمان مجرّد اقتناعٍ بوجود الله، بل هو، أَيضًا، التزامٌ به، بكلّ الكيان: استسلامٌ له، وثقةٌ به، واعتمادٌ عليه. ولطالما أَكّد يسوع أَنّ مريم جديرةٌ بالطوبى لا لأَنّها ولدته فحسب، بل لأَنّها، أَكثر من أَيّ مخلوقٍ، سمعت كلمة الله، وعملت بها.

الإيمان هو الإتاحة لكلام الله أَن يحكم كلّ لحظات حياتنا. فأَيّ إيمانٍ ذاك الذي لا يُتَرجم في دقائق السلوك اليوميّ؟

الإيمان ينير ويحرّر، ويرشد إلى الواقع الأَسمى، وإلى القيَم الإنسانيّة الحقيقيّة، ويقينا من طائفة الأَوهام التي تراودنا، ويعيننا على استبيان ما في الإيديولوجيّات الرائجة من ضلالٍ وزيفٍ.

الإيمان هو تطويبة الحياة المسيحيّة الجوهريّة. عليها تقوم وتزدهر جميع التطويبات الأُخرى، إلى أَن تبلغ ذروتها في المحبّة.

وقد لاحظ البابا يوحنّا بولس الثاني: «دخلت مريم تاريخ الخلاص بطاعة الإيمان. وما الإيمان، في طبيعته العميقة، إلاّ انفتاح القلب البشريّ على الله». فمريم، مع

أَنّها لم تفهم كلّ شيءٍ، إِلاّ أَنّها ارتضت كلّ شيءٍ. آمنت والتزمت، واستسلمت لمشيئة الله. وبارتضائها، طوعًا، أَن تكون أُمّ الفادي، أَسهمت في افتدائنا.

كان إِيمانها صافيًا، كان إِيمان طفلة الآب. وبهذا الإِيمان تلقّت سرّ الآب الذي أَمسى سرّها. وقد انغمست في سرّ الحبّ هذا. وإِيمانها المستضيء بأَنوار الروح القدس جعلها تكتشف، في كلّ شيءٍ، آثار الحبّ اللامحدود، ودليلاً على رقّته وقوّته، ورهافة مبادراته.

رجاء مريم

الرجاء هو ابن الإيمان، ورجاء مريم ضارع إيمانها. إيمانها كان فائقًا، فجاء رجاؤها فائقًا، وأتاح لها أن تقول، مع صاحب المزامير: «حسنٌ لي القرب من الله. وقد جعلتُ في السيّد الربّ معتصمي».

قال الشاعر شارل پيغي في العذراء: «ليست سوى إيمانٍ وحبٍّ، ولكنّها، أيضًا، رجاءٌ كلّيٌّ».

فقد كان الرجاء حاديها ونبراسها، على امتداد مسيرتها الأرضيّة. وقد أثبتت منعته عندما ارتضت عرض الملاك الذي بشّرها بحمل ابن العليّ، مع إدراكها لكلّ ما يعرّضها هذا القرار من ظنونٍ، واتّهاماتٍ، ومهالك، واثقةً من أنّ الربّ الذي كانت تحقّق مشيئته، سيجعل لها من كلّ مأزقٍ مخرجًا. وقد يكون ذلك المخرج موجعًا، ولكنّه بالحبّ والإيمان، يغدو عذبًا.

وأثبتت منعة رجائها، أيضًا، عندما أُوصدت في وجهها أبواب المنازل والفنادق، وهي تهمّ بوضع ابنها؛ وعندما أُمرت بالفرار إلى مصر، ليلاً، فهبّت للحال، وامتثلت، بلا تردّدٍ، قاذفةً ذاتها ووليدها في أحضان المجهول.

وفي عرس قانا، حيث شقّ عليها وضع العرسان الذين نفدت خمرة ضيافتهم، وأبلغت بالأمر ابنها، فجاء جوابه جافيًا، ظاهريًّا، ومع ذلك أوعزت إلى الخدم أن يفعلوا كلّ ما يقوله لهم يسوع.

وكان من شأن الصليب أن يجرّد حياتها من كلّ غايةٍ ومعنًى، ومن كلّ رغبةٍ في الوجود، ومن كلّ حولٍ. فالأُمّ التي تفقد ابنها، في موتٍ مهينٍ، تواجه يأسًا مطلقًا. غير أنّ صليب يسوع كان لمريم منبع رجاءٍ، رغم فقدان كلّ أسباب الرجاء، ورغم فقدانها حتّى أُمومتها. وبما أنّ ابنها، هو، أيضًا، ابن الله، فأسباب قنوطها وخيبتها كانت أبلغ، وأعمق وقعًا. ومع ذلك كان على مريم أن تتّكئ على وهن المصلوب

وهوانه، كي تستمدّ منه رجاءً إلهيًّا، رجاء من فقد كلّ شيءٍ، ولم يعد يملك سوى الثقة في حبّ اللّه.

هي وحدها، ظلّ رجاء قيامة ابنها، في اليوم الثالث، حيًّا في نفسها. فبعد أن شهدت موته المريع، وتلقّت جثمانه المشوّه بين ذراعيها، وطبعت قبلةً على كفنه، وراقبت دفنه، استغرقت في الصلاة، ترقّبًا لقيامته.

فيما كان التلاميذ مختبئين، مذعورين، والنسوة اللواتي لم يستوعبنَ نبوءات قيامته، يُعددن الطيوب لتحنيطه، صباح الأَحد، كانت مريم وحدها، واثقةً من قيامته، ولذلك لم ترافق النسوة إلى القبر، لأنّها كانت موقنةً بأنّ ابنها غادره.

كانت كلّ رجاء الكنيسة. وكان رجاؤها يقينًا بأَنّ الخير والحقّ، يتغلّبان دائمًا، في النهاية، على الشرّ والضلال، وأنّ الحياة كفيلةٌ بقهر قوى الموت.

لقد جسّدت رجاء البشريّة، وبها أَصبح اللّه واحدًا منّا.

لقد اكتفت بامتلاك اللّه، الذي لم تكن تراه، بعدُ، واتّكأت على رحمته، وكان هذا الأَساس يوفّر لها يقينًا راسخًا.

حدّدت هدفها، ومضت إليه مطمئنّةً، وثقتها تتضاعف بقدر ما تدنو من غايتها، وبقدر ما كان الروح القدس يلهمها اليقين بأَنّها ابنة اللّه، الذي يجدر بها الاعتماد على أزره.

وقد واكب هذا الرجاء كلّ مراحل حياتها.

كان فقر مريم، أَمام الصليب، داميًا، مهانًا، معتمدًا، كلّيّةً، على رحمة الآب. وكانت هذه الرحمة من سعة الفيض، بحيث أَكسبتها مزيدًا من خصبٍ.

إِيمان مريم ورجاؤها يحدوهما الحبّ. ويسوع، على الصليب، هو ضحيّة الحبّ، ويريد أَن تكون أُمّه، معه، أَيضًا، هذه الضحيّة.

قال البابا يوحنّا بولس الثاني: «تتجلّى لنا مريم مثالاً للرجاء الجريء، وللمحبّة الفاعلة. فقد سارت على دروب الرجاء، باندفاع الطاعة، متخطّيةً الرجاء اليهوديّ إِلى الرجاء المسيحيّ؛ ومارست المحبّة، منفّذةً كلّ مقتضياتها، حتّى بذل الذات الكامل، والتضحية القصوى. وعلى غرارها، علينا أَن نكون أَوفياء، صامدين في

الرجاء، حتّى عندما تتراكم غيومٌ مثقلةٌ بالعواصف، فوق الكنيسة، التي تتقدّم مثل سفينةٍ، وسط أَمواج أَحداث هذا العالم، وهي، غالبًا، أَمواجٌ معاكسةٌ. وعلينا، نحن أَيضًا، أَن ننمو في المحبّة، بتنمية التواضع، والفقر، والجاهزيّة، وطاقة الإِصغاء، والاهتمام، بالالتزام بكلّ ما علّمتنا العذراء، من خلال شهادة حياتها».

ويقول إِفرائيم: «عندما تبدو لنا الكنيسة ميتةً، فلا يغربنّ عن ذهننا أَنّها مستلقيةٌ على ركبتي أُمٍّ لا ترى سواها، ولا تحيا إِلاّ لها، مثلما استلقى جسد المصلوب على ركبتيها. وليختلج قلبنا بمثل أَلمها الساجي، ولنسكب لا دموع مرارةٍ وقنوطٍ، بل دموعًا مفعمةً رجاءً، يبثّ فيها الروح القدس الحياة».

في كلّ الأَحوال، أَظهرت مريم العذراء أَنّها «أُمّ الرجاء»، وهي، بعد يسوع، كلّ رجائنا.

ولكأَنّي بابن سيراخ كان لسان حالها، عندما كتب: «أَنا أُمّ المحبّة البهيّة، والمخافة، والعلم الإِلهيّ، والرجاء الطاهر». **(٢٤ : ٢٤)**

وقد جاء في مقرّرات المجمع الفاتيكانيّ الثاني:

«فيها ترى الكنيسة بإِعجابٍ وإِعظامٍ ثمرة الفداء السامية، وتتأمّل، كما في صورةٍ فائقة النقاء، ما تشتهي وتأمل أَن تحقّق في كامل ذاتها».

إِنّها تشعّ الآن آيةً ليقين الرجاء والعزاء أَمام شعب الله، في رحلة حجّه».

محبّة العذراء

الصفة البارزة في وجه مريم الروحيّ هو الحبّ الذي يربطها بيسوع، وبجميع من أَحبّهم يسوع. فكلّما كان قلبٌ طاهرًا ومجرّدًا من ذاته، فاض حبًّا لله، ومحبّةً للآخرين. وقد كانت مريم من الطهر والتجرّد، بحيث سُمّيت ملكة الحبّ الإِلهيّ.

في هذه الدنيا لم ينفّذ أَحدٌ وصيّة «أَحبب الربّ إِلهك، بكلّ قلبك»، مثل مريم. فقد اخترق حبّ الله قلبها حتّى الوتر الأَخير.

يقول القدّيس فرنسيس الساليزيّ: «الحبّ هو مريم، ومريم هي الحبّ. لقد شاء يسوع قلبًا يحبّه باندفاع بتوليّةٍ مطلقة الطهر، وأُمومةٍ حقّةٍ. هو يحبّها بصفته إِلهها الذي صار ابنها، وهي تلتزم بكلّ هذا الحبّ، من أَجل خدمة رسالته».

حبّها لله ولنفوس البشر تجاوز حبّ جميع القدّيسين مجتمعين. فقد كان هذا الحبّ بمستوى النعمة التي كانت تغمرها.

كانت على اتّحادٍ دائمٍ بالآب، بصفتها ابنةً مختارةً، وبالابن، بصفتها أُمّه العذراء، وشريكةً في رسالته الخلاصيّة، وبالروح القدس، برباط قرانٍ روحيٍّ يتخطّى، عظمةً وسموًّا، كلّ ما خبره أَعظم الصوفيّين. كانت في أَرقى مستوًى، هيكلاً للثالوث.

ولم يكن يعيق اندفاع حبّها لله أَيّ هوًى وبيلٍ، أَو قلقٍ باطلٍ، أَو أَيّ تشتّتٍ، وكانت غيرتها الراغبة في تجديد النفوس تعادل اندفاع حبّها، فتقدّم ذاتها، باستمرارٍ، وتقدّم ابنها من أَجل خلاصنا.

تأمّلها في الله كان متواصلاً لا ينقطع. وحتّى عندما كانت تخلد إِلى النوم، كان قلبها ساهرًا يختلج حبًّا لله. وقد أَوحت إِلى جميع من ظهرت لهم أَنّ اتّحادهم بها يكتسب وثوقًا بقدر كثافة حبّهم لابنها يسوع.

ومن أَحبّ الله، أَحبّ جميع من يحبّهم الله. وقد برهنت العذراء، في قانا، أَنّها ساهرةٌ على احتياجات البشر، وأَنّها تسارع إِلى غوثهم، قبل التماسهم عونها. وأَسطع دليلٍ على حبّها للبشر تضحيتها بابنها في سبيل خلاصهم، ومشاركة الآب في هذه التضحية.

وقد قال البابا بولس السادس: «إِنّها الأَوثق قربًا من البشر، لأَنّها الأَوثق قربًا من الله».

منذ لحظة وجودها الأولى على الأَرض، ملأَت قلبها محبّةٌ منقطعة النظير، طهرًا وامتلاءً. وما انفكّت تلك المحبّة تترسّخ وتتكثّف طيلة حياتها، فكانت سبّاقةً، مجلّيةً، في هذا المضمار.

لدى كلّ إِنسانٍ شبكة شهواتٍ ثلاثيّةٌ تفسد صفاء الحياة الروحيّة، وهي:

- غريزة التملّك التي تدمغ بسِمَتها نشاطات العقل النظريّة والعمليّة.
- غريزة السيطرة التي تفسد الإِرادة.
- غريزة التمتّع التي تلوّث الشعور.

ولكنّ الحبّ الصافي المقدّس، لدى مريم، قضى على كلّ هذه الغرائز، وأَضفى على كلّ شيءٍ فيها معناه السامي، وتوجّهه صوب الله وحده.

والحبّ، لدى العذراء، قضى على الأَنا، أَي على التشبّث بالفكر الخاصّ، والإِرادة الخاصّة، وعبادة الذات، والأَنانيّة. فحبّ العذراء كان فقرًا، وتواضعًا، وخضوعًا، وطهر قلبٍ، وتضحيةً.

حبّ العذراء هو، جوهريًّا فقيرٌ، لأَنّه لا يحتفظ بشيءٍ لذاته، وهو، جوهريًّا، وديعٌ ومتواضعٌ، لأَنّه حريصٌ على البقاء تحت سيطرة الله، عاملاً بمشيئته، وهو، قبل كلّ شيءٍ، راغبٌ في بذل ذاته، بذلاً كاملاً، لا يتحقّق على هذه الأَرض، إِلاّ بالتضحية.

وليس، في العذراء، «أَنا» كَلِفٌ بالمتعة، بل إِنّ حبّها، جوهريًّا، بتوليٌّ. صفة «العذراء» ملتصقةٌ باسمها التصاقًا وثيقًا. إِنّها القدّيسة التي كلّ شيءٍ فيها بتوليّ. كلّ أَفراحها تنبع من حبّها البتوليّ، وهذا الحبّ هو ملهمها، وهو غايتها. وُلدت فيه، وانتهت فيه، ولم تلتفت، أَبدًا، إِلى ذاتها.

الحبّ البتوليّ، لدى مريم، يطبع بالعفّة كلّ مشاعرها، وكلّ فكرها، ولا يدع، في وجدانها الحميم، أيّ مكانٍ للأنا. وهذا الحبّ البتوليّ هو ملهم فقر الروح، وتواضع القلب، ويكوّن المحراب الداخليّ الذي لا يدفعها باتّجاه التوسّع، والعظمة، والتظاهر، كما يحدث في كلّ «أنا»، بل يجتذبها إلى الداخل، باتّجاه الحميميّة والصِغَر.

بحبّها البتوليّ، قطنت داخل الثالوث، حيث لا شيءَ سوى الحبّ.

وحبّها هذا أَشعّ من داخلها على كلّ جسدها، وعلى كلّ حياتها الجسديّة، وغلّفها بطهرٍ نيّرٍ، متألّقٍ، مسبغًا على نذرها البتوليّ معنًى مميّزًا. لقد استولى على كلّ طاقاتها وقواها، ووحّدها من الداخل، وقدّسها، ووثّق علاقتها بالله.

وحالما تدرك النفس أَنّها تهب ذاتها لمن أَحبّها أَوّلاً، لأَنّ جوهره حبٌّ، ومنبع كلّ حبٍّ، وكلّ عطاءٍ، ولأَنّه، وحده، يستطيع تلقينها الحبّ، حينئذٍ يصبح الصغَر هو الموقف الحقّ الوحيد. هذا الصِغَر في الحبّ يؤكّد للمسيحيّ يقين عجزه عن حبّ الله كما ينبغي أَن يُحَبّ، بسخاءٍ متجرّدٍ، طاهرٍ، وشفافيّةٍ تامّةٍ، وبمنأًى عن كلّ أَنانيّةٍ، وتعظيمٍ للذات. ينبغي أَن نحبّ الله مثلما هو أَحبّنا. ولكنّ القلب البشريّ عاجزٌ بذاته، عن بساطة الحبّ هذه، وعن نقائه. وحِدَّةُ الشعور بهذا العجز تضعنا في حالة صِغَرٍ، وتواضعٍ سحيقٍ. فإن نحن كنّا عاجزين عن الحبّ، كنّا عاجزين عن كلّ شيءٍ. إذ إِنّ الحبّ الفائق الطبيعة هو ما يسبغ على حياتنا معناها، وقيمتها الأَبديّة.

وكلّ حبٍّ بشريٍّ، إن لم يكن منفتحًا على الله، ومقدَّمًا له، يفضي، حتمًا، إِلى خيبةٍ مريرةٍ. فإن لم يكن الله معنا، وإِن لم يخصب روحه علاقتنا، فلا ريب أَنّ هذه العلاقات ستؤدّي إِلى إِيلامنا وإِيذائنا.

وقد كان حبّ الله للممتلئة نعمةً، حبًّا يرقّي ويحوّل، لكي لا تنفكّ النعمة تنمو فيها. بفضل النعمة التي ملأت نفس مريم، استحوذت المحبّة على كلّ كيانها، فازدهرت في الصغَر الإِنجيليّ الذي أَهّلها لبذل ذاتها، ونسيانها كلّيّةً، من أَجل التحديق فقط إِلى عطاء الآب، أَي إِلى ابنه. وهذا الحبّ الكلّيّ التجرّد والسخاء، وسّع طاقات قلبها، الذي بات يخفق مع قلب يسوعها، ابن الآب وابنها، في وحدةٍ كاملةٍ.

وقد آمنت العذراء بوجوب حبّ الله «بأيّ ثمنٍ»، أيّةً كانت التكلفة، أي بنبذ كلّ فتورٍ، وحسابٍ، ومساومةٍ، وجبنٍ، وبتقبّل مقتضيات الحبّ وأسراره، وبنكران الذات، وبالإقرار أنّ الله هو الذي يصنع كلّ شيءٍ، ولكنّه لا يصنع لنا شيئًا، بمعزلٍ عنّا، فعلينا أن نسلك، وكأنّ علينا فعل كلّ شيءٍ، مع يقيننا واعترافنا بعجزنا عن فعل أيّ شيءٍ بمعزلٍ عن الله.

لقد ثقّف الآب ابنته المختارة كي يلقّنها الحبّ. وقد شاء أن تساهم معه مساهمةً مجديةً، شخصيّةً، وألاّ تكون، فقط، تلك «المغمورة بالنعمة»، بل أن تستجيب لهذه النعمة، فتكون انعكاسًا لرحمته.

وقد أعطانا الآب مريم بواسطة ابنه الذي وهبنا إيّاها، وهو على الصليب، لكي نتلقّى كلّ ما فيها من رحمةٍ، مدموغًا بفيض سخاء الأُمّ وعذوبتها، ولكي ندرك أنّ كلّ ما فيها هو لنا، فكلّ ما لدى الأُمّ هو لأبنائها.

أُمومة مريم كانت فعل حبٍّ. فهي، على عطاء حبّ الله، أجابت بعطاءٍ شخصيٍّ. لقد تلقّت عطاء الآب، وتعاونت معه في الإيمان والرجاء، وفي الحبّ، وبذل ذاتها.

وبصفتها أُمًّا أصبحت العذراء خادمةً بامتياز. فالخدمة الكبرى هي خدمة الأُمومة. إنّها الخدمة الأكثر استحواذًا على الذات، والأكثر لزومًا، إذ يمكن استبدال أيّ خادمٍ بآخر، ولكن لا يمكن استبدال أُمٍّ، لأنّ الأُمومة هي كلّ كيانها. والأُمومة الحقّة تستولي على كلّ القلب، وتلزم الكيان كلّه.

في مراحلها المختلفة كانت حياة مريم حبًّا. كانت تحقيقًا لتبشير يسوع، بحيث أصبح قلبها إنجيلاً حيًّا، وقد أنبت الحبّ في نفسها فضائل الفقر، والتواضع، والرقّة، والامتثال لمشيئة الله.

لقد بلغت مريم كمال المحبّة، وكلّ الفضائل الناجمة عنها.

المحبّة صداقةٌ كاملةٌ، حبٌّ متبادلٌ، لا يبتغي لنفسه استئثارًا أو سعادةً لا يقتسمها مع الغير. وهذه الوحدة التي يقتضيها الحبّ لا تتحقّق إلاّ بنوعٍ من التماهي، والتشابه في الطبيعة والغايات. وهذا التشابه بين الله والإنسان، يتحقّق بالنعمة وبالتجسّد. فالنعمة تشركنا بالطبيعة الإلهيّة، وتهبنا مثل ما لله من مواضيع الفكر، والحبّ، والحياة، والسعادة. والتجسّد يجعل الله بشرًا يأخذ على عاتقه ما هو بشريٌّ،

بحيث يموت ويقوم من أَجله. ولم تقُم مشاركةٌ أَصيلةٌ، عميقةٌ، حميمةٌ، شخصيّةٌ، وكاملةٌ بين اللّه والبشر، مثلما قامت بين مريم واللّه. ومحبّتها للّه لم تغلقها على يسوع وحده، بل حدتها إِلى حبّ جميع من أَحبّهم يسوع، وكما هو أَحبّهم.

أَحبّت تلاميذ ابنها، وجميع من واكبوه من نسوةٍ وأَتباعٍ، والجموع التي كانت تتلقّف أَقواله. وأَحبّت يوسف برقّةٍ وعرفان جميلٍ، ولاسيّما أَنّه كان أَوّل من عرف يسوع، وأَحبّه، وسهر عليه. وأَحبّت الأَبناء الذين أَعطاهم إِيّاها يسوع المحتضر، في شخص يوحنّا؛ وقد حفر فيها روح العنصرة هذا الحبّ للبشر وللكنيسة. وبانتقالها إِلى السماء، أَمست العذراء أَكثر إِحاطةً باحتياجاتنا، وأَوفر قدرةً على تلبيتها، وعلى غوث من جاء ابنها لفدائهم. وهكذا غدا لنا حبّ قلب مريم تعبيرًا رائعًا عن حبّ قلب يسوع.

والويل لمن لا تشفع به أُمٌّ كلّيّة العطف والسلطان!

مريم خادمة اللّه، وخادمة البشر. قولها إِنّها أَمَة الربّ، في ردّها على بشارة جبرائيل، واعترافها بأَنّ اللّه نظر إِلى حقارة أَمَته، في نشيد تعظيمها للربّ، يوجزان كلّ حياتها. هذا النشيد يترجم الروح الذي يحدو أُمّ اللّه.

توقّعت مريم أَن تغبطها الأَجيال، بسبب ما حقّقه فيها اللّه من عظائم. ولكنّها كانت موقنةً بأَنّ ذلك لن يصرف قلوب البشر عن حبّ الربّ وعبادته. فهي، في الكنيسة، الخادمة المتواضعة، التي، بتواضعها وفقرها، تدفع البشر نحو تمجيد اللّه. إِنّها تعلن أَنّ الأَجيال ستغبطها، ولكنّ هذا التكريم لن يتوقّف عندها، بل سيصعد نحو اللّه، إِذ إِنّ كلّ شيءٍ فيها هو من اللّه، وباللّه، ومن أَجل اللّه. إِنّها، في فقرها، السفينة التي يسكنها الحضور الإِلهيّ، والأُمّ التي ابنها هو اللّه. فقر الخادمة فيها هو انفتاحٌ، وشفافيّةٌ، وتجرّدٌ، فهي لا يسعها إِلاّ تقبّل اللّه، وإِظهاره، وتوجيه البشر صوبه، إِذ إِنّه المخلّص الوحيد.

إِنّ العذراء تحبّنا حبّ إِيثار، حبًّا يثقّفنا، ويجعلنا متوافقين مع المصلوب، مع حَمَل الضحيّة، حبًّا يعلّمنا، ويقتضي منّا الكثير، ويُخضعنا لعبوديّةٍ عذبةٍ تحرّرنا من كلّ قيدٍ، وتهبنا الحرّيّة الروحيّة الحقّة.

وهي تتأَلّم من الجراح التي يتبادلها أَبناؤها، من جرّاء خصوماتهم، وكم هي تتطلّع إِلى مصالحتهم، واتّحادهم بروح ابنها!

«فعلامَ تخشى البشريّة الهشّة الدنوّ من مريم؟ لا شيء فيها قاسٍ أَو رهيبٌ. بل هي كلّيّة العذوبة والرقّة. طالعوا الإِنجيل، وإِن وجدتم أَنّه خرج من فمها كلمةٌ قاسيةٌ، أَو لِحظْتم أَيّة بادرةٍ مستنكرةٍ، لحقّ لكم أَن ترتابوا فيها، وتتهيّبوا الدنوّ منها. ولكن، إِن هي لم تُظهر، سحابة حياتها كلّها، سوى الطيبة، والرقّة، والرحمة، والعطف، فحينئذٍ اشكروا للّه أَن أَعدّ لكم عطفُه العذبُ، مثلَ هذه الوسيطة التي لا تخشون، في قربها، شيئًا. فقد جعلت ذاتها كلاًّ للكلّ، للحكماء، وللحمقى. إِنّها تفتح للجميع حضن الرحمة، لكي يتلقّى الجميع من امتلائها: فيظفر الأَسير بالعتق، والعليل بالشفاء، والقلب الحزين بالعزاء، والخاطئ بالغفران، والبارّ بالنعمة، والملاك بالفرح، والثالوث بأَكمله بالمجد، وشخص الابن بمادّة جسده البشريّ، بحيث يشعّ دفؤها العذب في كلّ مكان». (إِفرائيم)

أَدركت مريم أَنّ الامتيازات الفريدة التي حظيت بها، ستجعل الأَجيال كلّها تغبطها. فهبّت تعظّم من خصّها بهذه الحظوة. إذ إِنّ به وحده يليق التمجيد، معلّمةً الجميع أَنّ كلّ حُظوةٍ، إِنّما هي انتدابٌ لخدمةٍ مجرّدةٍ، وليست مبرّر مجدٍ شخصيٍّ.

وفي نشيد تعظيمها للربّ، كانت العذراء الذائدة عن حياض الفقراء. وعلى الكنيسة، وعلى كلّ مسيحيٍّ، إِيلاء الفقراء الأَفضليّة التي أَولاهم إِيّاها يسوع، فهم «أَبكار الكنيسة» وفق قول بوسُّويه. فهل يحقّ لنا أَن ننشد نشيد العذراء، ونحن نعلم أَنّ الكثيرين من مُهاني الأَرض ما زالوا مقهورين، جائعين؟ وهل يسعنا أَن ننشده بضميرٍ مرتاحٍ، ما دام هؤلاء لم يروا بعيونهم، أَنّ كنيسة يسوع، هي، حقيقةً، وواقعيًّا، على تواصلٍ معهم، وواقفةٌ إِلى جانبهم؟

يوم أَعلن يسوع تطويباته التي قلبت مفاهيم العالم، كانت هذه التطويبات تأكيدًا لنشيد تعظيم أُمّه للربّ، وصدًى له.

إِنّ المحبّة، بحسب الإِنجيل، مستحيلةٌ بمعزلٍ عن بذل الذات الكامل، فما من حبٍّ أَعظم من أَن يبذل المرء نفسه عن أَحبّائه. وقد شاركت العذراء ابنها تضحيته بذاته، وقاسمته آلامه. فقد كان عليها، بحسب تعبير بوسُّويه: «أَن تنضمّ إِلى الآب الأَزليّ، وأَن يقدّما، معًا، ابنهما المشترك، باتّفاقٍ مشتركٍ».

كما في الناصرة، كذلك في الجلجلة، كان على العذراء أَن تسهم في خلاص

العالم، بإيمانها، ورجائها، ومحبّتها. فالله لا يخلّصنا بمعزلٍ عنّا. ومريم كانت ممثّلتنا في سرّ الفداء.

لقد اتّحد، أوثق اتّحادٍ، قلب يسوع الأقدس، وقلب العذراء المنزّه من الدنس. وفي هذا الشأن كتب الأب سيرتيلانج: «قلبان وخفقةٌ واحدةٌ، وألمٌ واحدٌ، وموافقةٌ واحدةٌ. سخاءٌ واحدٌ، وابتهاجٌ نهائيٌّ واحدٌ.

«قلبان يشتركان في كلّ شيءٍ، وحيث كلّ شيءٍ، في الأساس، إلهيٌّ وإنسانيٌّ، أخويٌّ من جهةٍ، وأموميٌّ من جهةٍ أخرى.

«قلبان توأمان: أحدهما أمنع قوّةً، والآخر أقرب إلى الحنان البشريّ. أحدهما أكثر اقتضاءً للبرّ، والآخر أكثر نزعةً إلى الرأفة...

«قلبان متّحدان، ومتناغمان، لأنّهما يبتغيان الأهداف ذاتها، ويمقتان الشرّ عينه، لأنّهما ملتزمان بمخطّطٍ فدائيٍّ واحدٍ، ويعانيان من جرّاء دفعه إلى غاية شوطه، حتّى النصر الأبديّ.

«هيكلان لله، في هذا العالم، وبابان للسماء. موقدا حبٍّ، ونموذجان للطهر. كنزا حكمةٍ وعطفٍ. نبعا وَرَعٍ وقداسةٍ. امتلاءان غير متعادلين، ولكنّنا نتلقّى منهما كلّ شيءٍ، وفي شبه مساواةٍ، لأنّهما مرتبطان معًا، ويؤلّفان نبعًا واحدًا. ملجآن للوهن والخطيئة. وعاءان للسلام والعذوبة. سببان للرجاء والأمان.

«قلبان، أخيرًا، مندمجان في قلبٍ واحدٍ. فالقلب هو، جوهريًّا، حبٌّ. وحنان السماء يستخدم هذين القلبين، وسيلةَ اعتلانٍ واحدةً، زوجِ قوًى روحيّةٍ، ثنائيًّا مقدّسًا، للتعبير عن اللامحدود، المنحني علينا، ولإعطائنا قدوةً».

قداسة مريم

كان خليقًا بمن اختيرت لولادة القدّوس أن تكون فائقة القداسة، وقد غمرها الربّ بما يليق بمن اختارها أُمًّا له.

هذا ما أكّده القدّيس بيرنار بقوله: «إذ قرّر الخالق أن يولد من امرأةٍ، كان لا بدّ لتلك الأُمّ أن تليق بكرامته. وبما أنّه يليق بالله الكلّيّ الطهر أُمٌّ منزّهةٌ من كلّ لوثةٍ، فقد اتّخذ أمًّا تحقّقت فيها هذه المواصفات»، «لقد اختار الكلمة الأزليّ أُمًّا لا يخجل بها».

يقول بولس الرسول عن يسوع المخلّص (عبرانيّين٧:٢٦): «ذلك هو الحبر الذي كان يلائمنا: حبرٌ قدّوسٌ، زكيٌّ، بلا عيبٍ، قد تنزّه عن الخطأة، وصار أعلى من السماوات». وكان لا بدّ له من أُمٍّ شبيهةٍ به كي تلائمه، ويتنزّه بها عن الخطأة.

وللقدّيس أمبروسيُس هذا القول: «لم يجد المسيح، على الأرض، هذا الإناء المقدّس الذي أراد أن يهبط به إلى الأرض، فأخذه من السماء، وجعل منه محرابًا للطهر». ولذلك فاقت مريم، قداسةً وطهرًا، حتّى الملائكة.

وقد أكّد القدّيس أوغسطينُس: «لم يبتنِ الله لنفسه مسكنًا يليق به أكثر من العذراء مريم، التي لم تكن، قطّ، أسيرة العدوّ، ولم تُسلَب منها زينتُها».

إكرامًا للأُمومة الإلهيّة التي كانت معدّةً لها، نُزّهت، منذ لحظة تكوينها، من إرث الخطيئة الأصليّة، وأُعتقت من كلّ ميلٍ إلى الخطيئة. فقد كان شرف ابنها يقتضي ألاّ يكون لديها أيّ تواطؤٍ مع الخطيئة. فولجت العالم نقيّةً، قدّيسةً، مكلّلةً بالبراءة والنعمة، زنبقةً في حقل أشواكٍ. وما كانته، في لحظة وجودها الأولى، بقيت عليه دائمًا.

إنّها الكائن البشريّ الوحيد الذي لم يقترف خطيئةً، فقد كانت، دائمًا، كما أرادها الله، في كلّ سيرتها الأرضيّة، وفي سريرة نفسها.

لقد اصطفاها الآب الأزليّ من أَجل يسوع، وجعلها قدّيسةً، بل فائقة القداسة، وكانت أولى ثمار هذا الاصطفاء الحبل بها بلا دنس. يسوع جاء من أَجلنا. ومريم جاءت من أَجله، وقُدّست به، ومن أَجله.

شاءها الله على صورته، لأَنّها ستكون أُمّ خليقةٍ جديدةٍ. أَرادها خلقًا جديدًا ناصعًا، فأَقام تناغمًا بين كلّ طاقاتها. وحملت، في نفسها، وفي جسدها، كلّ علامات رحمة الله، وجاء كلّ شيءٍ فيها طاهرًا يعكس سنى مصدره.

وكان على مريم أَن تكون الإِناء الكامل، لاستيعاب فيض النعمة، ولتقبّل الخلعة الملكيّة التي أَسبغها الآب على تلك الفتاة المختارة، كي يجعل منها ابنته الحبيبة. لقد شاء أَن تتأَلّق نفسها بحبٍّ وبنعمةٍ فريدين، وبامتلاء نعمةٍ يفوق كلّ ما ملأَ نفوس القدّيسين.

وهي، على حدّ قول البابا يوحنّا بولس الثاني: «تضيء شعب الله بالنور الإِلهيّ الذي يعكس، على أَكمل وجهٍ، نور الكلمة الأَزليّ».

بحبلها المعصوم من الدنس، وبحملها ابن الله في أَحشائها، انغمست في الصلاح، ولم تعد تقوى عنه فكاكًا، وباتت عاجزةً عن ارتكاب أَيّ خطإٍ. فقد خمدت فيها كلّ مواقد الشهوة، مذ حلّ فيها الممتلئ نعمةً وحقيقةً، وأَحاطها بكلّ نِعَمه وحضوره وعونه، وزوّدها بقدرةٍ لا متناهيةٍ على مقاومة الشرّ، أَي كلّ رغبةٍ دنيا، وكلّ خيالٍ وبيلٍ، وكلّ هوًى مدمّرٍ. كانت تتأَمّل، بلا هوادةٍ، الأَشياء السماويّة، وتقيّم كلّ شيءٍ بمعيار أَنوار الله. وهي وحدها، من البشر، كانت، بلا هوادةٍ ولا انقطاعٍ، غارقةً في حبّ الله. وكان بوسعها أَن تقول ما قاله يسوع: «إِنّي حفظت وصايا أَبي، وإِنّي ثابتةٌ في محبّته».

إِنّها «الممتلئة نعمةً»، أَي إِنّها غُمرت بكلّ النعم التي تؤهّلها لتكون أُمّ المخلّص، وتتيح لنفسها أَن تحيا أُمومتها الإِلهيّة بالروح والحقّ. لم يكن بوسعها أَن تحبّ ابن الله الحبّ اللائق به، ما لم تكن تحبّ الله حبًّا خالصًا كاملاً، ولا تحبّ سواه. وقد مكّنتها النعمة من ذلك، إِذ يتعذّر حبّ الله حبًّا كاملاً، فقط بقدرات القلب البشريّ. وفيما كانت القدرة الإِلهيّة تحقّق التجسّد في جسدها، كان روح الحبّ يخلق، في قلبها، قدرة معرفة الله وحبّه.

إنّ تلك كانت الأَشدّ قربًا من نبع النعمة، هي، أَيضًا، تلك التي وجدت فيها النعمة ملئها. وهذا يفترض القداسة في جانبيها السلبيّ، أَي التنزّه من الخطيئة، والإِيجابيّ، أَي تكريس كلّ طاقات الكيان للّه.

إِنّها الكائن المحظيّ والمتميّز الذي تحقّق به اتّصال اللّه بكلّ الجماعة البشريّة، عبر تجسّد كلمة اللّه. إِنّها عضو البشريّة حيث تركّز، بنعمة اللّه، كلّ ما انطوت عليه البشريّة من قداسةٍ، ومن رغبةٍ في الاتّحاد باللّه.

اللّه سمّاها «المغمورة بالنعمة»، وبهذه التسمية أَوْجز كلّ مصيرها. فالنعمة هي مجموعةٌ من العناصر التي تتداخل وتتكامل: رحمةٌ إِلهيّةٌ، ووفاءٌ، ورقّةٌ، وعدلٌ، وطيبةٌ، وسلامٌ، وفرحٌ. ونعمة اللّه تتجلّى في ابنه، فهو العطاء بامتيازٍ، وبه أوتينا النعمة والحقيقة (يوحنّا١٧:١).

بالعذراء استهلّ يسوع حقبةً جديدةً، ونظام كونٍ جديدٍ تضيئه النعمة. إِنّها بكر الخليقة الجديدة. معها نستطيع أَن نلج حالةً جديدةً معروضةً على البشر، هي الحياة المشتركة مع الثالوث، منذ الآن وإِلى الأَبد.

النعمة أَتتنا بمريم، وبها نستطيع الدخول إِلى عالم النعمة، بتقبّلنا يسوع الذي قدّمته لنا، مثلما قدّمته للرعاة وللمجوس.

وقد كان عمل النعمة في العذراء خصبًا. فالنعمة تنطوي على كلّ حبّ اللّه، وتعمل على جميع مستويات الشخصيّة. وقد تجلّت النعمة، لدى مريم، أَوّلاً، في بذلٍ كاملٍ للذات، بدليل إِسراعها إِلى بيت إِليصابات من أَجل خدمتها، رغم الحظوة السنيّة التي خُصَّت بها. والروح القدس، وهو نبع النعمة، قد فجّر تسابيح قلبها، وأَفصح عن استعدادات نفسها حيال اللّه والبشر.

بالنعمة التزمت مريم بكلمة اللّه، وكان إِيمانها راسخًا، صلبًا، لا يهتزّ. في قانا، كان يقينها في قدرات يسوع بعمل النعمة، وكذلك كان وقوفها عند أَقدام الصليب وإِيمانها بالقيامة العتيدة، ومثابرتها على الصلاة مع الرسل، بانتظار حلول الروح القدس. هكذا كانت النعمة تنمّي فيها فضائل لاهوتيّةً وأَخلاقيّةً.

وأَيّة تحوّلاتٍ في قلب مريم، وفي حياتها العميقة، من جرّاء وجودها الدائم مع

ابنها، النعمة المتجسّدة! في بيتٍ وضيعٍ من بيوت الناصرة، سكنت النعمة بضع سنواتٍ من التاريخ. هذا البيت يمكن تسميته «مسكن النعمة».

لقد تعاونت العذراء، بحرّيّةٍ، مع النعمة، وأتاحت لها أن تحوّلها، ولم تُبدِ لها، يومًا، مقاومةً. فكانت، حقًّا، مغمورةً بالنعمة، وأمست أروع تحف الحبّ الإلهيّ.

وبما أنّ حياة النعمة تمتزج بالقداسة، فقد بلغت العذراء، من جرّاء علاقتها الفريدة بأقانيم الثالوث، مرتبةً منقطعة النظير. إنّ «المغمورة بالنعمة» هي، أيضًا، «الكلّيّة القداسة». إنّها أروع ماسةٍ صاغها الروحِ القدس. إنّها الحلقة الأولى من سلسلة رجالٍ ونساءٍ، ستصوغها النعمة، جيلاً فجيلاً. ولكنّها تتخطّى كثافةً، وسنًى، ونورًا، كلّ ما ستحقّقه النعمة لدى القدّيسين والقدّيسات، على امتداد تاريخ الكنيسة. إنّها النموذج الأمثل لما يمكن أن تحدثه فينا النعمة، إن عرفنا أن نقول للروح القدس «نَعَمًا» كثيفًا، وسخيًّا مثل «نَعَم» مريم.

النعمة تسبغ، على الكيان كلّه، رقّةً، ورهافةً، وعذوبةً، ونبلاً بسيطًا. وبفضل النعمة كان سلوك مريم هو الأمثل في كلّ وقتٍ، وكلّ موقفٍ.

كانت راسخة اليقين بأنّها تلقّت، مجّانًا، من الله، كلّ ما هي عليه. فلم تفخر بذاتها، بل عزت كلّ شيءٍ إلى الله. هذا الموقف الصادق أتاح لها أن تظلّ، هي ذاتها، كلّيّةً، في كلّ الظروف.

العذراء ترغب في انضواء البشر أجمعين إلى حياة النعمة كي يظفروا بالسعادة والتوازن والسلام. وهي تشارك الله في هذه الرغبة، فالله يبتغي خلاص جميع البشر. وفي هذا السبيل ترفع إلى الله توسّلاً لا ينقطع، توسُّل أُمٍّ. وهي، في مجدها السماويّ، تحافظ على حضور أُمٍّ ناشطٍ، لدى كلٍّ من أبنائها. إنّها تدعو، بلا انقطاعٍ، إلى انفتاح قلوب البشر على النعمة كي يتلقّوا كنز النعم الذي يقدّمه الروح القدس بحبٍّ، فيقودهم إلى التشبّه الحيّ بيسوع.

لقد ظلّت مريم عذراء، كي تظلّ قدّيسةً. فالبتوليّة مكّنتها من أن تخصّ الله وحده، ومن أن تكون له بكاملها. حتّى في حملها لم تعرف سوى الله. إنّ البتوليّة تعني طهر النفس، وكلّ الفضائل التي بها تتكرّس النفس لله وحده.

لقد كانت النعمة تنمو فيها، مع كلّ خفقةٍ من خفقات قلبها.

وقد أَوجز القدّيس يوحنّا الدمشقيّ سموّ العذراء، عندما خاطبها قائلاً: «يا مَنْ عذوبتها تفوق كلّ عذوبةٍ، ونبلها يفوق كلّ نبلٍ، وغناها الروحيّ يفوق كلّ كنزٍ».

أمّا القدّيس بيرنار فقال: «إِنّ قداستها من العظمة بحيث إِنّ اللّٰه ومسيحه، وحدهما، يستطيعان قياس مداها».

هي وحدها بين البشر التي لا تضطرّ إِلى الاعتراف، كما اعترف بولس، وحتّى أَعظم القدّيسين: «لا أَعمل الخير الذي أَودّ فعله، وأَفعل الشرّ الذي أَمقته». إِنّها، في كلّ لحظةٍ، وفي كلّ خطوةٍ، لا تفعل إِلاّ ما يريده اللّٰه، وما يرضيه.

إِنّها محظيّة اللّٰه، بامتيازٍ، كما وصفها جبرائيل، وقد كرّسها الروح القدس بحلوله فيها. وهي المباركة بين النساء، والمغبوطة، لأَنّها آمنت، فحقّق اللّٰه فيها عظائم. إِنّها تمثّل القداسة الأَصيلة، المطلقة، التي لا لوثة فيها. وقد وقى اللّٰه قداستها. إِنّه اختارها لتكون أَداة تجسّده، ولم يختر أَميرةً، بل فتاةً متواضعةً طاهرةً، اعترفت أَنّها «أَمَة الربّ».

لقد نعمت العذراء بحرّيّةٍ كاملةٍ، لأَنّ الشرّ والخطيئة لم يستعبداها قطّ. إِنّ أَسمى الحرّيّات هي حرّيّتها، وحرّيّتها هي منبع فرحها.

يسوع قال: «الحقّ يحرّركم»، ومريم تسبح في الحقيقة الإِلهيّة، وفي نور الحقّ الصافي. والحقيقة تبقيها ثابتةً في الحرّيّة.

أَحبّها اللّٰه حبًّا مجّانيًّا، وهي أَحبّت على غراره. مثله كانت المبادِرة. أَحبّت أَوّلاً، بلا حدودٍ ولا تمييزٍ، أَحبّت بسخاءٍ حتّى الصليب.

عاشت في حالةٍ دائمةٍ من تخطّي الذات. وكان هذا سرّ فرحها. وكانت تبادر إِلى توفير احتياجات الغير قبل أَن يلتمسوا عونها، حبًّا باللّٰه، حبًّا صرفًا، فقط لأَنّ اللّٰه هو اللّٰه.

إِنّها ابنة الملك، وتتمتّع بحرّيّةٍ فائقةٍ. إِنّها، أَبدًا، لدى أَبيها، لا يعنيها سواه، وسوى من يحبّهم. تحبّ وتعطي، وتهب ذاتها.

إِنّها حقًّا، واحدةٌ منّا، إِنّها، وسط جنسنا البشريّ، نجمةٌ تتأَلّق بكلّ عظمتنا الأَصليّة، إِنّها مفخرتنا.

إِنّها المرأة بامتيازٍ، المرأة السليمة، المتوازنة، المتناغمة، المرأة كما أَرادها الله، التي تلبّي كلّ ما يتوقّعه منها، وتعكس صورته بكلّ صفائها، وفرادتها، وبهائها.

لقد شبّهها الآباء بحوّاء، لأَنّ حوّاء خرجت ناصعةً، طاهرةً، بريئةً، من يدي الخالق.

وُلدت «ممتلئةً نعمةً»، ولكنّها حوّلت مواهبها إِلى استحقاقاتٍ بوفائها لإِيمانها، وبرجائها وبمحبّتها، وبمشاركتها صليب ابنها.

يقول البابا بولس السادس إِنّها كانت المسيحيّة الأولى، وكان عليها أَن تنهج نهج كلّ مسيحيٍّ صابٍ إِلى القداسة، ونهج جميع القدّيسين. كان عليها أَن تختبر سُنّة التقدّم المطّرد، والإِثمار البطيء، والعبور الحتميّ من خلال الصليب. كان عليها أَن تنهج مسيرةً مزدوجةً، مسيرة كلّ مسيحيٍّ، ومسيرة دعوتها الخاصّة، بصفتها مكلّفةً بمهمّةٍ فريدةٍ، مهمّة أُمّ المخلّص.

وإِن كانت الحياة في حضور الله من مقوّمات القداسة وشروطها، فلم يحيَ بشرٌ مثلها في ملء حضور الله. وقد مرّت حياتها الروحيّة بمراحل ثلاث تمثّل أَسرار الفرح، والأَلم، والمجد. وفي هذه المراحل كلّها، كان حضور الله يغمرها.

في أَسرار الفرح، كان حضور يسوع هو السائد. وكان يسوع عاملاً في نفسها يثقّفها إِلهيًّا، ويقتضي منها خدمةً مادّيّةً هي خدمة أُمومتها الجسديّة. وفي أَسرار الأَلم، ساد الانفصال عن يسوع الذي ما انفكّ يعمل في نفسها، ولكن بطريقةٍ أَليمةٍ، مقتضيًا منها خدمةً روحيّةً تتمثّل في إِسهامها في عمليّة الفداء. وفي أَسرار المجد، يسوع حاضرٌ إِلهيًّا، ولكنّه لم يعد من هذا العالم؛ ومع ذلك، هو فعّالٌ أَكثر من أَيّ وقتٍ، مؤثّرًا على إِيمانها، ورجائها، ومحبّتها.

طيلة ثلاثٍ وثلاثين سنةً تجرّعت مريم، من حضور ابنها، أَسرار الله، الذي أَعاد فيها صنع الطبيعة البشريّة، في التناغم والتوافق التامَّين مع المشيئة الإِلهيّة.

وإِن كان الحبّ الإِلهيّ هو الذي يقدّس الإِنسان، فكم، بالحريّ، ابن الله المتجسّد، الذي أَقام تسعة أَشهرٍ في أَحشاء مريم، قدّس تلك التي حملته، والتي كان قد أَعدّها، منذ لحظة وجودها الأولى، لكي تكون له الهيكل الكلّيّ الطهر!

حبّ مريم لابنها كان حبًّا لله. وقد ارتقت به النعمة المقدّسة إلى مستوى فائق الطبيعة بفضل النعمة التي حمتها من كلّ خطيئةٍ، منذ لحظة تكوّنها الأولى.

لذلك كانت «كلّيّة القداسة»، ومصانةً من الخطيئة طيلة حياتها. يقول القدّيس توما الأكويني: «إنّ ملء النعمة التي تلقّتها بتجسّد ابن الله فيها، ثبّتها في الصلاح، وعصمها، فعلاً، من الخطيئة». والبابا بيّوس الثاني عشر أعلن أنّها عُصمت من كلّ خطأٍ شخصيٍّ أو وراثيٍّ.

منذ تكوينها كانت بتصرّف الروح القدس، وهكذا نمت بمنأًى عن كلّ زللٍ، في حبّ الله، والمشاركة في حياته.

وإن كانت الامتيازات الفائقة التي خُصّت بها هبةً مجّانيّةً كرّم بها الله أُمّه، غير أنّ أُمّ الله، بسلوكها الناصع، وبمعاناتها البطوليّة، استحقّت الكثير من الفضائل التي كانت، في ميدانها، مجلّيةً.

وقد أظهرت تجارب القدّيسين أنّهم بلغوا قمم القداسة بفضل المِحَن التي خاضوها ببطولةٍ، وتخطّوها، والآلام التي كابدوها بصبرٍ وثباتٍ، وبفضل الصلبان التي حملوها بجرأةٍ، على دربٍ قاد كثيرين منهم إلى الاستشهاد. ولقاء ذلك أُغدق عليهم فيضٌ من النِعَم.

وعلى هذا النحو كانت قوّة القدرة الإلهيّة، لدى مريم، في خدمة سخاءٍ متعاظمٍ، وجهدٍ مستمرٍّ. وكلّ محنةٍ عاشتها، في طاعة الإيمان، كانت لها مناسبةً لتَخطٍّ جديدٍ للذات، على درب قداسةٍ ستبلغ كمالها، يوم انتقال العذراء إلى السماء.

في هذا السياق يقول البابا يوحنّا بولس الثاني: «قول سمعان الشيخ يبدو وكأنّه بشارةٌ ثانيةٌ لمريم، إذ إنّه يظهر الحجم التاريخيّ الملموس الذي سيحقّق فيه ابنها رسالته، أي في اللافهم والألم. ولئن كانت هذه البشارة تدعّم إيمانها في تحقّق الوعود الإلهيّة المتعلّقة بالخلاص، إلاّ أنّها، من جانبٍ آخر، تعلن لها أنّ عليها عيش طاعة الإيمان في الألم، إلى جانب المخلّص المتألّم، وأنّ أُمومتها ستكون قاتمةً وموجعةً».

قداسة مريم لم تكتمل إلاّ في غاية حجٍّ أرضيٍّ، ودرب صليبٍ عاشته في الإيمان. وقد أعلن المجمع الفاتيكانيّ الثاني: «إنّها ابنة الآب المفضّلة، وهيكل الروح القدس،

وبفضل هذه النعمة الأَسمى رفعةً، بزّت، شوطًا بعيدًا، كلّ الخلائق السماويّة والأَرضيّة الأُخرى».

ويقول المجمع، أَيضًا: «إِنّ الكنيسة تكرّم تكريمًا خاصًّا، ومستَحقًّا، تلك التي جعلتها نعمة اللّه أَدنى من ابنها، بلا ريبٍ، ولكن أَرفع من جميع الملائكة، وجميع البشر، من جرّاء دورها كأمّ اللّه، الكلّيّة القداسة، ومشاركتها لأَسرار المسيح».

وإِن كانت قداسة الخليقة تقاس بمدى اتّحادها باللّه، فمريم، بصفتها أَمّ اللّه، كانت الأَوثق اتّحادًا باللّه، واشتراكًا برسالته الفدائيّة، ومن ثمّ، كانت أَكثر من دنا من قداسة يسوع.

لقد كانت حياتها على توافقٍ مطلقٍ مع مشيئة الثالوث الأَقدس. ونحن نتطلّع إِليها، لكي نقتبس منها مثل هذا التوافق.

إِنّها إِصغاءٌ كاملٌ للربّ، وتوافقٌ مع الآب الذي اختارها، ومع ابن اللّه الذي ما انفكّت تتوغّل في فهم رسالته والتعاون معه على تحقيقها، ومع الروح القدس الذي حلّ فيها.

وقد أَحسنت استثمار النعم التي غُمرت بها، ومارست، على أَكمل وجهٍ، فضائل يتعيّن علينا التمثّل بها، وهي الامّحاء، والتواضع، والاهتمام بالآخرين، والحدب عليهم، والثقة باللّه، والصلاة، والفقر، والتجرّد، والوفاء، والحرّيّة.

ثلاث مراحل حاسمةٍ في حياتها وثّقت وشائج اتّحادها باللّه: الناصرة حيث رحّبت ببشارة جبرائيل، وارتضت أَن تكون أَداة تجسّد ابن اللّه، وبيت لحم، حيث وضعته وأَدخلت إِلى العالم كائنًا جديدًا هو إِنسانٌ وإِلهٌ معًا، والجلجلة حيث سُمّرت مع ابنها على صليبٍ واحدٍ، وأَمست شريكته في الفداء. لا ريب أَنّ فداء يسوع كان كافيًا، وافيًا، ولكنّ اللّه ابتغى أَن تساهم مريم فيه.

إِنّ حياة النعمة بإِلهام الروح القدس يتمّ في اتّجاهٍ معاكسٍ لميول الأَنا. فالروح القدس لا ينحدر بنا، بهدوءٍ، مجرى النهر، بل إِنّه لا ينفكّ يصعّد بنا ناشدًا النبع الكلّيّ الصفاء، المتدفّق مباشرةً من اللّه.

والعذراء التي وُلدت وهي تحمل، في قلبها، حبًّا إِلهيًّا ساميًا، استهلّت مسيرتها

الأَرضيّة من قمّة الاتّحاد بالله، الذي لا يستشفّه كبار القدّيسين إِلاّ في غاية الحياة، بعد أَن تكون تضحياتٌ ومِحَنٌ من كلّ نوعٍ، قد قضت على سيطرة الأَنا فيهم.

وقد اجتاز قلبُ مريم، في حياتها، عالَمًا من الأَسرار، في فرحٍ فائقٍ مقترنٍ بأَلمٍ مطّردٍ.

مريم تتحرّك دائمًا، ولكن في اتّجاهٍ واحدٍ. لقد كانت حياتها تصعيدًا متواصلاً نحو السماء، ونموًّا مطّردًا في القداسة، لأَنّها كانت تنمو في الحبّ. ونموّها في القداسة كان يهبها مزيدًا من القدرة على حمل الصلبان.

في صلاتنا نقول: «يا قدّيسة مريم». ولكنّها، في قداستها متميّزةٌ عن سائر القدّيسين، لأَنّها كلّيّة القداسة.

إِنّها قدّيسةٌ، من جرّاء علاقتها المتميّزة بكلٍّ من أَقانيم الثالوث. إِنّها ترتدي قداسة الآب، فهي ابنته الحبيبة، وقد زيّنها بكلّ الخصال والفضائل الأَثيرة لديه. وهي امتثلت، كلّيّةً، لمشيئته، فجعل منها المرأة المرتدية الشمس التي تعكس كلّ جماله وقداسته.

وهي ترتدي قداسة الكلمة الذي تأنّس فيها. هذه العلاقة بين الابن وأُمّه أَضفت عليها قداسةً فريدةً. هي صاغت جسده في أَحشائها، وهو صاغ نفسها في قداسته. وكم اقتبست من قداسته، وهي تتأمّله عن كثبٍ، مدى ثلاثين سنةً!

وهي قدّيسةٌ بقداسة الروح القدس الذي حلّ عليها، وفيها حقّق تجسّد ابن الله، وما برح، في حنانها الأُموميّ، يصوغ المؤمنين وفق نموذج قداسة يسوع.

بسبب كلّ ذلك تتبوّأ قداسة العذراء قمّةً فريدةً، بحيث لا تتخطّاها إِلاّ قداسة الله.

غير أَنّ العذراء لم تكتفِ بما وُهبت، بل حوّلت مواهبها إِلى استحقاقاتٍ، إِذ إِنّها جهدت، يومًا فيومًا، في مقاومة العوائق والمِحَن، ومتقدّمةً، بثباتٍ، في ميدان القداسة. وقد ساعدها على المضيّ قُدُمًا في معارج القداسة، بلا تخاذلٍ، وعيُها للرسالة التي انتُدبت لها في البشارة؛ وصلاةٌ دأبت عليها منذ طفولتها؛ وإِيثارها للفقراء والمقهورين؛ وانفتاحها على إِلهامات الروح القدس الذي واكبها منذ البشارة

حتّى العنصرة. طيلة مسيرتها جهدت في الإِصغاء إِليه فزخرت حياتها وشخصيّتها بثماره.

كم من الكاتدرائيّات والكنائس الرائعة شُيّدت على اسمها، في مدنٍ أَعلنتها «سيّدتها»! ولكن ما من كاتدرائيّةٍ تضاهي الكنيسة الحيّة، السيّدة التي اصطفاها العليّ لنفسه، وكرّسها لمجده، وجعل من قداستها تحفته الفريدة.

كلّ قديسٍ شهيرٍ تميّز بتمثّله بإِحدى فضائل يسوع: فالأَسّيزيّ تمثّل بفقره، ودومينيك بشغفه بالحقيقة، ولويّولا بسرّ طاعته البنويّة للآب. ولابدّ من كتائب من القدّيسين لإِشعاع وجوه يسوع المختلفة، وفضائله الجمّة. أَمّا مريم فقد تمثّلت بقداسة ابنها تمثّلاً كاملاً، مطلقًا، وببساطةٍ كلّيّةٍ، مع كلّ ما حظيت به. لقد بلغت كمال الإِيمان والرجاء والمحبّة، بعيشها، ببساطةٍ، التسليم لله، في حياةٍ يوميّةٍ لا تتميّز بأَيّ مدهشٍ خارقٍ. وبفضل بساطة قداستها، يسع كلّ مسيحيٍّ الاقتداء بفضائلها.

بسموّ نواياها مجّدت العذراء الله، من خلال أَشدّ أَعمالها اليوميّة بساطةً؛ مجّدته بكلّ دورةٍ بمغزلها، وبكلّ قطبةٍ بسنّارتها، أَكثر ممّا فعل أَعظم القدّيسين والشهداء، بمآتيهم العظيمة. إِنّها المخلوق الذي تحقّق فيه تناغمٌ كاملٌ بين الحرّيّة والخضوع لله، بين تطلّعات النفس السامية، وقيم الجسد والحياة اليوميّة البسيطة، بين النعمة الإِلهيّة، والالتزام البشريّ.

لقد كتب عنها اللاهوتيّ الأَلمانيّ «كارل راهنر»: «وأَخيرًا ها هو، على الأَرض، كائنٌ ماثلٌ، حقيقيٌّ، ليس شخص روايةٍ، وليس فرضيّة مثالٍ أَخلاقيٍّ، بل إِنّه كائنٌ واقعيٌّ من لحمٍ ودمٍ، عَهِدَ الدموع، والحزن، والمِحَن، والامّحاء. ومع ذلك، ما هو سوى طهرٍ، وطيبةٍ، وحبٍّ، ووفاءٍ، وصبرٍ، وعطفٍ، وكلَفٍ بالصليب، كائنٍ بشريٍّ مكرّسٍ بكلّيّته لله وحده».

تلك التي تُعدّ ملجأ الخطأة، كانت، على الأَرض، الكائن الوحيد المعصوم من الخطأ. ولكنّ وجودها الفقير، المتواضع، يوفّر لنا، نحن الخطأة، مثال قداسةٍ، في صميم الحياة اليوميّة، جديرًا بالاقتداء. فقد كانت حياتها الأَشدّ إِغراقًا في البساطة، ولكنّها أَثبتت أَنّها الأَسمى قداسةً. وهذا ما أَدركته القدّيسة تيريز الطفل يسوع التي قالت: «لكي تكون العظة عن العذراء القدّوسة مرضيةً ومجديةً، ينبغي أَن تُبْرِز

حياتها الواقعيّة لا حياتها المفترضة. وإِنّي لعلى يقينٍ بأَنّ حياتها الواقعيّة كانت كلّيّة البساطة. إِنّها تُظهَر، أَحيانًا، ولكأَنّها مستعصية المنال، في حين ينبغي إِظهار قابليّة التمثّل بها، وإِبراز فضائلها، وتأكيد أَنّها كانت تحيا بالإِيمان، مثلنا، واستنباط الدليل على ذلك من الإِنجيل».

فهي تلك التي تصوّب نفوسنا نحو ابنها، وتدعونا إِلى التوغّل في معرفته. وهي نموذجٌ في الإِصغاء، والتأمّل، والصلاة، وقراءة أَحداث الحياة على ضوء الإِيمان، والاعتراف بأَفضال الربّ، في كلّ ما يحلّ بنا، والانقياد لمشيئة الربّ. إِنّها تعلّمنا الكثير عن الإِيمان، وكفيلةٌ بأَن تقودنا على دروبه.

إِنّها تحفة الخليقة البشريّة التي جدّدها يسوع، وأَجمل إِنجازات الفداء. لم يُشَوِّه عملَ الله فيها أَيُّ زللٍ، وقد تحقّق فيها مخطّط الله الخلاصيّ، بلا أَيّ ظلٍّ، وأَيّ خرقٍ.

وتحقّق، أَيضًا، فيها، مثال الكمال الذي نصبو إِليه. فيها نجد الكمال الذي ينبغي أَن يكون هدف رغباتنا وجهودنا، كمال كائنٍ بشريٍّ ارتقى إِلى أَرفع قمّةٍ بوسع بشرٍ تسنّمها.

جميع المخلَّصين أُنهضوا من سقطتهم، وأُقيلوا من عثارهم، ولكنّ العذراء وُقيت، أَصلاً، من السقوط ومن العثار.

وُلدت مملوءةً نعمةً، فكانت ابنة الحياة الوحيدة، في حين يولد سائر البشر في الخطيئة. وهم، بالتالي، أَبناء الموت.

إِلى جانب امتلاء يسوع المطلق بالنعمة، كان امتلاؤها فائضًا. ومن ثمّ فإِنّ حالة النعمة فيها، منذ البدء، كانت أَكمل وأَعظم من حالة النعمة القصوى التي ينتهي إِليها القدّيسون. وهي، في ذلك، فريدةٌ. غير أَنّ جميع المخلّصين يُمنحون جمًّا من النعم. والقدّيس توما الأَكوينيّ يقول: «على من هم في حالة النعمة أَن يكبروا في المحبّة، بقدر ما يقتربون من غاياتهم». وميزة العذراء أَنّها ما انفكّت، طيلة حياتها، تتقدّم، باطّرادٍ، على معارج القداسة، وهي بذلك قدوةٌ لكلّ صابٍ إِلى الكمال.

حتّى كبار الإِصلاحيّين البروتستنتيّين اعترفوا بتفرّد العذراء هذا. وقد أَوردنا، سالفًا، أَقوالاً شهيرةً لمارتن لوثير فيها. ويسرّنا أَن نورد هنا أَقوال زملاء له.

فبولّنغر (Bullinger) يقول: «كم كانت مريم رفيعةً في عيني الله، بسبب ورعها، وإيمانها، وطهرها، وجميع فضائلها، بحيث لا يمكن مقارنتها بأيٍّ من القدّيسين. بل إنّه من الحقّ أن تسمو عليهم جميعًا! كلّ ذلك يتّضح من الفصول الأولى من إنجيلي متّى ولوقا، وخاصّةً من خلال نشيد تعظيمها للربّ. وإن كانت مريم هي أُمّ الربّ كما دعتها، صراحةً، الطوباويّة إليصابات، بوحي الروح القدس، فمن العدل أن يدعوها آباء الكنيسة «ثيوتوكس» أي أُمّ الله....»

ويقول الإصلاحيّ الفرنسيّ «شارل دريلنكور» (Charles Drélincourt): «إنّنا نؤمن، ليس فقط بأنّ الله قد ميّز العذراء القدّيسة والطوباويّة أكثر من الآباء، والأنبياء، والرسل، بل نؤمن، أيضًا، بأنّه رفعها فوق جميع السيرافيم. فليس بوسع الملائكة أن يصفوا ذواتهم إلاّ بأنّهم خدمة ابن الله، وخلائقه، وصنعة يديه، غير أنّ العذراء القدّيسة ليست، فقط، الخادمة والخليقة، بل إنّها أُمّ ذلك الإله الحيّ العظيم».

قداستها هي قداسة الممتلئة نعمةً، والتي تنهض مثالاً أسمى للقداسة المسيحيّة، ومن أبرز ملامحها ثمار الروح التي عدّدها القدّيس بولس: المحبّة، والفرح، والسلام، وطول الأناة، واللطف، والصلاح، والأمانة، والوداعة، والعفاف، وصلب الجسد مع الأهواء والشهوات، والسلوك بحسب الروح.

لقد مارست كلّ تطويبات ابنها ممارسةً بلغت حدّ الكمال، وباتت النموذج الأمثل لحبّ الله، وحبّ القريب. وقد قال فيها الشاعر پيغي:

«ليست الأولى بين الخلائق جمعاء فحسب،

بل هي الخليقة الفريدة، فريدةٌ بلا حدودٍ، ونادرةٌ بلا نهايةٍ».

وقد لاحظ جاك ماريتان: «مثلما أنّ مريم هي المخلوق الوحيد الذي آتى فيه عمل الفداء ثماره على نحوٍ مطلقٍ كاملٍ، بلا أدنى أثرٍ للتعرّض للخطأ، كذلك هي الوحيدة بين الخلائق التي يثوي فيها ملء الحكمة، بمنأًى عن أيّ أثرٍ للظلمة البشريّة... إنّها تحفة الخلق التي أكملتها النعمة. ولقد كانت على الأرض، مثلما هي الآن، في السماء، تلك التي تحقّقت فيها، بالكامل، مشيئة الله على الأرض، كما في السماء..»

وأَوضح پاسكال أَنّ عظمة العذراء ليست من فئة العظمة الجسديّة، ولا هي من فئة عظمة أَهل الفكر، بل هي من فئة «عظمة الحكمة»، أَي فئة القداسة والمحبّة، وأَسمى بشريّةٍ متألّقةٍ بالنعمة.

ويقول جان غيتّون: «في العذراء، وفي العذراء وحدها، انبعث وضع الخليقة الأولى، وضع الإنسان كما كان يجب أَن يكون قبل الخطيئة. العذراء هي، حقًّا، حوّاء الأولى، حوّاء المتجدّدة والمفتداة. وإِذ بالحجاب القاتم والثقيل الذي كان يرين على الوجود البشريّ من جرّاء الولادة، الحجاب الموروث، يتمزّق من أَحد جوانبه، ومن خلال هذه الثغرة، يتجلّى إِشعاع نورٍ آخر. وإِذ بالخطيئة الأَصليّة، هنا، تبدو خاضعةً للسيطرة، وقد تمّ تخطّيها، وقهرها، بما أَنّها لم تنلْ ممّن هي، حقًّا، أُمّنا، بحسب النعمة...»

إِنّ مريم الممجّدة هي كلّ الخليقة كما تصوّرها الله وأَرادها، الخليقة المتجلّية في مجد يسوع. إِنّها تأكيدٌ بأَنّ دم يسوع لم يُرَق سُدًى، وأَنّ مغامرة عبوره بكوكبنا لم تنتهِ إِلى فشلٍ، بل أَنّ مبادرته الفدائيّة الرائعة قد أَثمرت. مريم هي إِيقونةٌ حيّةٌ كما ستصبح عليه الأَرض والسماء المتجدّدتان، في جدّة الله الأَبديّة.

إِنّ فضائل العذراء تفوق جميع فضائل المختارين، لا عددًا، بل كثافة اتّحادٍ بالله، وكثافة حبٍّ. هذه الفضائل أَهّلتها للأُمومة الإِلهيّة، ولذلك كانت فائقةً في سموّها وديناميّتها الداخليّة. ولكنّها تجلّت تدريجيًّا. ولم تفقدها ممارستها، في وضاعة المهامّ اليوميّة، شيئًا من سموّها وكثافتها. فقد كان التجسّد والفداء هما، أَبدًا، أُفقها. وهل، ثمّة، ما هو أَعمق وأَكمل من انصهار الإِلهيّ بالبشريّ، والنعمة بالطبيعة، في قلب مخلوقٍ، وفي حياته؟

وإِن كان كلّ قدّيسٍ قد تميّز بفضيلةٍ ما، فمريم تحلّت بالفضائل كلّها، وإِلى درجة الكمال، وكانت لجميعها القدوة والمثال.

وكلّ من نشد القداسة، لا مفرّ له من الاستعانة بمريم، فقد قال غرينيون دي مونفور: «إِن كان تكريم العذراء القدّوسة ضروريًّا لجميع البشر، كي يحقّقوا خلاصهم، فهي أَشدّ ضرورةً للمدعوّين إِلى كمالٍ خاصٍّ. ولستُ أَظنّ أَنّ بوسع أَيّ

إِنسانٍ عَقْد أَيّة وحدةٍ حميمةٍ مع الربّ، والوفاء وفاءً كاملاً للروح القدس، بمعزلٍ عن اتّحادٍ متينٍ بالعذراء، وعن الاعتماد المنيع على عونها».

وقد اعترف صوفيّون كُثُرٌ بأنّ مريم كانت هي الرابط بين الله وبينهم، فنفسها هي أَصفى مرآةٍ يتجلّى فيها الله.

فضائل مريم وتواضعها

لقد وُصفت مريم بأَنّها الكلّيّة القداسة، لأَنّها مارست كلّ الفضائل بمستوى فائقٍ من الكمال، وفي تصعيدٍ مطّردٍ، بفعل الروح القدس، الحاضر في كلّ لحظةٍ من حياتها، والمرحَّب به دائمًا. وهذا ما ارتقى بفضائلها إِلى ذرًى شاهقاتٍ.

قيل عنها إِنّها المسيحيّة الأولى، ولا ريب أَنّها خير إِنسانٍ نهج وفق الوصايا الإِنجيليّة، قبل أَن يُدلي بها يسوع، ومن المحقّق أَنّه لم يضاهِها أَحدٌ في وفائها لها.

لقد وُلدت منزّهةً من لوثة الخطيئة، ومن عواقبها الوبيلة، فلم تشعر بأَيّة حاجةٍ إِلى حياةٍ نسكيّةٍ أَو تقشُّفيّةٍ، لكي تنعتق من أَسر الشرّ، وتستعيد براءتها الأَصليّة. ولم تكن الحاجة إِلى التحوّل والارتداد هي التي دفعتها إِلى اختيار حياة الفقر، والتواضع، والطاعة، والتضحية. بل إِنّ الحبّ الإِلهيّ هو الذي حداها إِلى الانفصال عن العالم، والنأي عمّا يحرّك العالم من جشعٍ إِلى الإِثراء المادّيّ، ومن تطلّعٍ إِلى السيطرة، ومن شهوةٍ إِلى المتعة.

لم تخشَ، يومًا، التواطؤ مع العالم، ولكنّها تحاشت، ما استطاعت، عن تعقيداته، وارتباكاته، وعبوديّاته، لكي تدع للحبّ الطاهر، المقدّس، حرّيّة النموّ والازدهار فيها. كثافة هذا الحبّ هي التي جعلت اهتمام فكرها، وكلّ طاقات قلبها متّجهةً، حصريًّا، صوب الله، وصوب مشيئته، التي تتلقّاها بحرّيّةٍ، وخشوعٍ، وحبٍّ.

غنى شخصيّتها يتجلّى من خلال تنوّع خصالها وتباينها، وجمعها للمتناقضات. فهي أَسمى المخلوقات، وأَكثرها بساطةً، تبهر، وفي الآن عينه، تنهض خير نموذجٍ يُقتدى به.

إِنّها الأَقرب إِلى البشر، لأَنّها الأَقرب إِلى الله،

إِنّها الأَمَة والملكة،

أُمّ الله، وأَكثر الخلائق تواضعًا.

بساطتها لامتناهيةٌ، وغناها بلا حدودٍ.

إِنّها الأَرفع سموًّا، والأَكثر امّحاءً.

لا شيء فيها يندرج في مقياس الكمّيّة، بل كلّ شيءٍ فيها كثافةٌ وتميّزٌ. ومع ذلك، حياتها من البساطة بحيث يسع كلّ مؤمنٍ الاقتداء بها.

وقد أَوجز الشاعر المبدع شارل ﭘيغي مفارقاتها المذهلة بقوله:

«إِنّها غنيّةٌ بلا حدودٍ، لأَنّها فقيرةٌ بلا حدودٍ،

ورفيعةٌ بلا حدودٍ، لأَنّها متواضعةٌ بلا حدودٍ،

كبيرةٌ بلا حدودٍ، لأَنّها صغيرةٌ بلا حدودٍ،

فتيّةٌ بلا حدودٍ، لأَنّها أُمٌّ بلا حدودٍ،

فرحةٌ بلا حدودٍ، لأَنّها متألّمةٌ بلا حدودٍ».

اتّصفت مريم بفضائل عاديّةٍ، ولكنّها ارتقت بها إِلى مراتب الكمال. وغدت نموذجًا للمرأة التي حقّقت مصيرها، للخليقة التي حظيت برضى الربّ، الخليقة المتصالحة مع خالقها، ومع ذاتها، ومع الآخرين، لأَنّها شاخصةٌ بكلّيّتها شطر الربّ، ومكرّسةٌ له.

وبما أَنّه يتعذّر الإِلمام بكلّ فضائل العذراء، والإِحاطة بها إِحاطةً وافيةً، فسنسعى إِلى الإِشارة إِلى بعضها إِشارةً مقتضبةً. وإِذ أَسلفنا الحديث عن فضائلها الجوهريّة: الإِيمان، والرجاء، والمحبّة، فسنقتصر على لمحاتٍ عن سائر الفضائل التي تميّزت بها أُمّ الله.

وأولى هذه الفضائل هي، بلا مراءٍ، تواضعها السحيق، الصادق. فالتواضع هو أَساس كلّ الفضائل، ومن افتقر إِلى التواضع، افتقر إِلى الفضائل كلّها. يسوع قال: «تعلّموا منّي، فإِنّي وديعٌ ومتواضع القلب». وهل تعلّم أَحدٌ من يسوع، وتمثّل به أَكثر من أُمّه؟

عندما بشّرها الملاك بأَنّها ستصبح أُمّ المخلّص، لم يوحِ لها هذا الامتياز الفريد في

تاريخ البشر بأيّ زهوٍ، أو عُجْبٍ بالذات، بل أَعلنت أنّها «أَمَة الربّ»، أي عَبْدتُه، وبرهنت عن تواضعٍ عميقٍ أَمام عظمة اللّه الذي شكرته وسبّحته، لأَنّه رمق حقارتها بنظرة إِيثارٍ، واقتصر اهتمامها على تنفيذ مشيئة اللّه، والإِشادة برفعة سرّ التجسّد، من أَجل مجد اللّه، وخلاص العالم. وعندما طَوّبتها إِليصابات، لأَنّها آمنت بما قيل لها من قبَل الربّ، عظّمت هي الربّ الذي صنع فيها عظائم. اللّه هو عظمة المتواضعين، وهو كان أَساس عظمة مريم.

غالبًا ما يعزو عظماء العالم عظمتهم إِلى عبقريّتهم ومآتيهم. أَمّا مريم، عُظمى الخلائق طرًّا، فقد عزت كلّ ما نعمت به إِلى اللّه، وكانت، كلّما زادها اللّه رفعةً، أَمعنت في التواضع إِيغالاً.

ولم تحتجْ مريم، كي تبرهن عن سحيق تواضعها، إِلى صدّ أَيّة نزعة عجبٍ أَو كبرياء، فالتواضع وطيد الأَركان في فطرتها. ولطالما آمنت وأَقرّت أَنّها، في ذاتها، ليست بشيءٍ، ولا تستطيع شيئًا، بمعزلٍ عن النعمة الإِلهيّة.

لم تأنف، يومًا، من الخضوع للطقوس التي لم تكن مُلزَمةً بها، مثل طقس التطهّر في الهيكل. وفي كلّ مراحل حياتها، تجلّى تواضعها من خلال فقرها الطوعيّ، وانصرافها إِلى أَوضع المهامّ اليوميّة، رغم حظوتها بنعمٍ وكراماتٍ لم يحلم بمثلها مخلوقٌ، يومًا.

وحتّى بعد أَن أَمست، بفعل الروح القدس، هيكلاً للثالوث، وغدت أَحشاؤها مسكنًا لابن اللّه، لم تأنف من خدمة إِليصابات، قريبتها المسنّة التي كانت تخوض أَشهر حبَلها الأَخيرة. ولا عجب إِن ذُهلت إِليصابات، وهي تشهد «أُمّ ربّها»، قادمةً لخدمتها.

وليس تواضع العذراء تواضع خاطئةٍ تائبةٍ، بل هو فرحٌ بريءٌ، طفوليٌّ، لا يدّعي لنفسه شيئًا، بل يعترف أَنّ كلّ شيءٍ فيه هو عطيّة اللّه. قولها: «ستغبطني جميع الأَجيال» هو تعبيرٌ عن طبيعة تواضعها الذي يبرز نعمة اللّه، ولكأنّه صدًى لقول ابنها (يوحنّا٧: ١٦–١٨): «ليس تعليمي من عندي، بل من عند من أَرسلني... إِنّ من يتكلّم من عند نفسه يطلب المجد لنفسه. أَمّا من يطلب مجد الذي أَرسله، فهو صادقٌ، ولا التواء فيه».

كانت ترى ذاتها «حقيرةً»، ولكنّها لم ترَ أَنّها خاطئةٌ، بل أَقرّت أَنّ كلّ ما مُيّزت به إِنّما هو نعمةٌ مجّانيّةٌ من اللّه. وكان فيض كرم اللّه يشعرها بعمق فقرها.

إِليصابات امتدحتها، ولكنّها، هي، سبّحت الربّ، لقناعتها بأَنّه، وحده، يستحقّ المجد، والتكريم، والتسبيح.

وقد التزمت، دائمًا، جانب الامّحاء، ولم تسعَ إِلى التظاهر، ولم تستخدم حقّ أُمومتها كي تخترق حشود جماهير كفرناحوم فتخاطب ابنها. وفي العلّيّة حيث التأمت الكنيسة الناشئة، منتظرةً حلول الروح القدس، التزمت المكان الأَخير، كما يشير سفر الأَعمال. وتجنّبت الظهور إِلى جانب ابنها، يوم أَحد الشعانين، عندما استقبله الشعب بتكريمٍ يحاكي تكريم ملكٍ فاتحٍ. ولكنّها حرصت على الوقوف إِلى جانبه، عند أَقدام الصليب، عندما انهال عليه وابلٌ من المهانة والإِذلال.

لقد آثرت الصغَر، لكي تكبر بابنها، واكتفت من العلم بما تعلّمته منه، ومن القوّة بما زوّدها به، فكان هو قوّتها. وأَحبّت ضعفها لأَنّه كان يدفعها إِلى الاتّكاء عليه.

خطيئة آدم وحوّاء تمثّلت في إِيثار المعرفة والعقل، أَي العظمة الظاهريّة، والاستقلاليّة، على الحكمة والحبّ. أَمّا مريم فلم يهبها الربّ امتيازات العلم والقوّة، ولكنّه أَسبغ على وهنها مزيدًا من الحبّ، وثّق علاقتها به. لقد شاء أَن يصوغها بنفسه، في حياةٍ خفيّةٍ، بعيدةٍ عن العالم الذي لا يسعه أَن يفهمها، واختار لها نمط حياةٍ خاصًّا ينمّي حياتها الروحيّة، حياة الخفية.

اتّضعت مريم أَمام اللّه، وأَعلنت ذاتها أَمَته الصغيرة، فانحدر هو إِليها. تواضعها التقى تواضع اللّه الذي سبقها. فاللّه هو، دائمًا، سبّاقٌ.

نحن، أَيضًا، عندما يستحوذ علينا الشعور بأَنّنا غير جديرين بالدنوّ من اللّه بذاتنا، ونأتي إِليه عبر وسطاء، نلتقيه منحدرًا نحونا. ولكن، في حين أَنّ لدينا الكثير من أَسباب التواضع، إِذ إِنّنا مخلوقون ضعفاء وخطأة، فليس لدى اللّه أَيّ سببٍ للتواضع سوى حبّه. وإِن هو جاء إِلينا عبر مريم، بصيرورته فيها طفلاً، فليس فقط لأَنّنا غير جديرين بتلقّيه مباشرةً من يدي الآب، بل أَيضًا، لأَنّه الحبّ عينه. ومن أَحبّ حقًّا هو، دائمًا، متواضعٌ، ولو كان اللّه، بل خاصّةً عندما يكون اللّه.

وما تواضع العذراء، جوهريًّا، سوى انقيادها للمشيئة الإلهيّة، بلا مقاومةٍ، لأنّها واثقةٌ من حبّه.

لم تراودها، قطّ، الرغبة في السيطرة، وفرض الذات، بالأقوال أو بالأعمال. وكانت منزّهةً من كلّ روحٍ عدائيّةٍ. فمثل هذه النوازع والرغبات هي نتاج حبّ الذات الذي يقاوم نزعةً أُخرى، نزعة حياةٍ وحبٍّ كانت سائدةً في نفس مريم، تبقيها معتمدةً على ربّها، خاضعةً لإرادته، زاهدةً في الظهور، وفي تبوّؤ المراكز الأولى. فيها تحقّقت تطويبات الفقر بالروح، والوداعة، والتواضع. وفيها تتجلّى العلاقة الحميمة بين الصغَر والحبّ. إنّها أبدًا، ابنة الله الصغيرة، التي تعتمد عليه في كلّ أمرٍ، وتوليه ثقةً مطلقةً، وتستسلم له كلّيّةً. ولا تساورها أيّة رغبةٍ في الاستقلال، بإرادتها، عن إرادة الله، لأنّ ذلك يتعارض مع حبّها له. فالحبّ، عندها، بذل ذاتٍ مستمرٌّ.

وسط عالمٍ يقيس كلّ شيءٍ بمقياس العظمة، ووفق سلّمٍ زمنيٍّ، تعلّمنا مريم تواضع اللحظة الراهنة، الذي، بفضله، نكتشف الأبديّ في كلّ مكانٍ، وكلّ وقتٍ.

لم تكن حياة مريم الروحيّة نسكًا وتجهّدًا، بل كانت امتدادًا لنعمة الحبل بها بلا دنسٍ، وثمرة كَلَفها بالتواضع، والتجرّد، والفقر.

لقد عاشت مريم، الممتلئة نعمةً، العذراء الفقيرة، مسكنُ الله، الكراماتِ الفريدةَ التي حظيت بها، في تواضعٍ كاملٍ. وإن كانت ألقابها الأُخرى تشير إلى اختيارها، ودعوتها، ودورها في مخطّط الله، فإنّ لقَب «الأَمَة»، الذي عرَّفت به ذاتها، يدلّ على إنسانيّتها، وطبيعتها، وطاعتها. وهي، بهذا التعريف، إنّما كانت تمجّد الله، والله وحده.

إنّ فقر مريم، وهو حياةٌ خفيّةٌ عاديّةٌ، وانتماءٌ إلى البشريّة الأوسع شيوعًا، هو استدعاءٌ للنعمة، وتمجيدٌ لكرم الربّ. فالربّ يختار ضعفاء هذا العالم، كي تتجلّى قدرته من خلالهم. وليس في مريم ما يحجب قدرة الله الفريدة، ونِعَمَه السنيّة. كلّ شيءٍ فيها يظهر عطيّة الله، لأنّها، حقًّا، بكلّيّتها، توقّعٌ وتقبّلٌ، إيمانٌ، ورجاءٌ، وليقينها بأنّها ليست شيئًا، لولا اختيار الله الفريد لها، ولولا غمره لها بالنعمة.

يقول القدّيس غرينيون دي مونفور: «ما فقده لوسيفورُس بكبريائه، كسبته مريم

بتواضعها... ستكون لمريم المتواضعة، دائمًا، الغلبة على ذلك المتكبّر، وستكون غلبتها من العظمة، بحيث ستسحق رأسه، حيث تكمن كبرياؤه. وستنزع، دائمًا، القناع عن مكر الحيّة، وستبدّد إيحاءاته الشيطانيّة، وستجعل خدّامها الأوفياء، في مأمنٍ من براثنه الحادّة، حتّى نهاية الأزمنة».

وقد حرص يسوع نفسه على صون تواضع أُمّه، فعندما هتفت له امرأةٌ وسط الجمع: «طوبى للبطن الذي حملك، وللثديَيْن اللّذين رضعتهما»، أَجاب يسوع: «بل طوبى لمن يسمع كلمة الله، ويعمل بها». بهذا القول، وبتأكيده، في مناسبةٍ أُخرى، أَنّ أُمّه وإِخوته هم من يسمعون كلمة الله ويعملون بها، إِنّما كان يمتدح أُمّه، بما تستحقّه فعلاً، إِذ ليس بين بني البشر، من التزم بكلمة الله، بلا تحفّظٍ، سوى أُمّه. غير أَنّه آثر أَن يظلّ امتداحه لها مموّهًا، احترامًا لتواضعها وصمتها.

لا ريب أَنّ التواضع هو، بين سائر الفضائل، ما يكلّف طبيعتنا البشريّة القسط الأَوفى من التضحيات، وأَنّ تواضع مريم هو من أَكثر فضائلها استحقاقًا، وأَكثرها قابليّةً للاقتداء. وقد قال القدّيس بيرنار: «إِن لم تستطيعوا ممارسة العفّة، على غرار مريم، فأَقلّه، مارسوا، على مثالها، التواضع».

غير أَنّ تواضع مريم لا ينسيها قدرة تأثيرها على قلب ابنها، الذي تنال منه، لنا، كلّ شيءٍ، بنظرةٍ، ببسمةٍ، بمبادرةٍ رقيقةٍ، بإِيحاءٍ مقنعٍ، كما فعلت في قانا.

ومن ثمّ فإِنّ خير ملجإٍ نلوذ به هو معطف تواضع مريم.

بتوليّة مريم الدائمة

شعوبٌ كثيرةٌ حلمت بأُمّهاتٍ عذراواتٍ، ونسجت حولهنّ الأَساطير، ونصّبتهنّ إِلاهاتٍ. ولكنّ اللّه حقّق هذا الحلم واقعًا ماثلاً، في فتاةٍ اختارها ونزّهها من كلّ خطيئةٍ أَو دنسٍ، وجعل منها أُمًّا لابنه، بنعمةٍ إِلهيّةٍ فائقةٍ، ومعجزةٍ فريدةٍ.

ومنذ الأَيّام المسيحيّة الأولى، أَبدى المسيحيّون، حتّى أولئك القادمون من الوثنيّة ازدراءً لإِلاهات الأَساطير، واحترامًا خاشعًا لأُمّ اللّه. وجديرٌ بالتنويه أَنّ عقيدة أُمومة العذراء للّه قد أُعلنت في مدينة أَفسس، حيث كانت عبادة الإِلاهة الإِغريقيّة الوثنيّة أَرتميس سائدةً، راسخةً.

وفي حين كانت الأَساطير الوثنيّة تشيد بقوى الأَهواء والحواسّ، كان مثال مريم يعظّم البتوليّة، لا بصفتها ربيع الحياة المكرّسة للأُمومات الجسديّة، بل بصفتها حضورًا أُخرويًّا لحياةٍ روحيّةٍ منعتقةٍ من لوثات الحواسّ.

وقد كتب الأَب مونشانان (Monchanin): «إِنّ مريم هي العذراء الكاملة، والمرأة الكاملة، عذراء منذ الأَبد، وحتّى الأَبد. كلّ ما هو بتوليٌّ، قبلها، كان يعلن عنها، وكلّ ما سيوجد من بتوليٍّ بعدها، سيندمج بها».

إِنّ مريم تمثّل المعنى الأَسمى للمرأة، في نظر الوحي الإِلهيّ، وهو، وحده، حقيقيّ، ويسبغ معنًى على كلّ واقع الأُمومة والبتوليّة اللّتين كانتا تصوّرًا لها قبلها، وتمثّلاً بها بعدها. إِنّهما مثقلتان بالرمز الروحيّ الذي ينطوي عليه، على نحوٍ رفيعٍ، سرّ مريم.

وقد أَجمع المؤمنون، منذ فجر المسيحيّة، على أَنّ مريم العذراء التي اصطفاها العليّ كي يجعل منها أُمّ ابنه المتجسّد، هي البتوليّة التي أَصبحت امرأةً، هي البراءة الكاملة، والطهر المطلق. وكان هذا بديهيًّا لتلك التي اختيرت لمهمّةٍ فريدةٍ في تاريخ الكون، إِذ لم يكن يليق بفائق الطهر أَن يتّحد إِلاّ بالطهارة، على حدّ قول بوسُّويه.

ومن ثمّ ساد الإيمان بأَنّ «أُمّ اللّه» عُصمت، منذ لحظة تكوينها الأولى في أَحشاء أُمّها، من آثار الخطيئة الأَصليّة وعواقبها، ومن كلّ ميلٍ فطريٍّ دنسٍ.

وعندما بشّرها الملاك بأَنّها اختيرت كي تحمل وتلد ابن اللّه على الأَرض، أَطلق عليها اسمًا يوجز امتيازاتها، فدعاها «ممتلئةً نعمةً». واستخلص المسيحيّون من هذه التسمية أَنّ النعمة غمرتها منذ لحظة تكوينها الأولى، وما النعمة سوى مشاركةٍ في الطبيعة الإِلهيّة. وكان من الطبيعيّ، لدى تلك التي اختيرت لتحمل الألوهة في أَحشائها، أَلاّ تنطوي إِلاّ على النعمة التي ملأتها، ولم تترك فيها أَيّ شاغرٍ يتسلّل منه الدنس والبشاعة. وبالتالي كانت عقيدة الحبل بالعذراء بلا دنس ترجمةً لتسمية الملاك لها «ممتلئةً نعمةً».

هذا ما أَكّده البابا يوحنّا بولس الثاني: «لقد اصطفى الآب الأَزليّ مريم في يسوع، اصطفاها من أَجل يسوع، وجعلها قدّيسةً، بل فائقة القداسة. وكانت أولى ثمار هذا الاصطفاء، الحبل بها بلا دنسٍ».

وعندما أَعلن البابا بيّوس التاسع، في الثامن من كانون الأَوّل **١٨٥٤** عقيدة الحبل بلا دنس، إِنّما كان يكرّس إِيمانًا عريقًا راسخًا في صميم الوجدان المسيحيّ. وإِذ تعذّر، حينئذٍ، عقد مجمعٍ مسكونيٍّ من أَجل إِقرار هذه العقيدة، بسبب ظروفٍ سياسيّةٍ قاهرةٍ، عمد البابا إِلى استفتاء **٦٠٣** أَساقفة في العالم، فكان جواب معظمهم مؤيّدًا لإِعلان عقيدة الحبل بلا دنس، في حين عارض أَربعةٌ، وامتنع زهاء خمسين منهم عن إِبداء رأيهم. وحتّى الذين عارضوا، ما لبثوا أَن التزموا بإِعلان البابا واعتنقوه.

وقد مهّد البابا لإِعلانه قائلاً: «إِنّ كنيسة يسوع المسيح، الحارسة الساهرة على وديعة الإِيمان، والمكلّفة بالدفاع عنها، لا تغيّر من العقائد شيئًا، ولا تحذف منها شيئًا.، ولا تضيف إِليها شيئًا، ولكنّها تمحّص، بعنايةٍ ورعةٍ، بُنى التقليد العريقة، وإِذا هي عثرت على بعض حقائق لم تُكشف، بعدُ، سوى خطوطها العريضة، وما برحت في طور البذار الذي زرعه إِيمان الآباء، فالكنيسة تجهد في إِيضاحها، والتوسّع في بيان فحواها، كي تضفي على العقائد القديمة، يقين التعليم السماويّ، والنور، والدقّة».

أمّا جوهر الإعلان، فهذا نصّه: «منذ لحظة الحبل بها الأُولى، بنعمةٍ خاصّةٍ، وبامتيازٍ من اللّه الكلّيّ القدرة، ونظرًا لاستحقاقات يسوع المسيح، مخلّص الجنس البشريّ، وُقيت مريم العذراء، ونُزّهت من كلّ لوثة خطيئةٍ أصليّةٍ».

وجاء، أيضًا، في الإعلان أنّ العذراء مريم «قد زُيّنت بملء البراءة والقداسة الذي لا يمكن تخيّل أعظم منه إلاّ لدى اللّه. فقد كان من اللائق أن تتألّق دائمًا بسنى قداسةٍ موغلةٍ في الكمال. فهي تلك التي شاء اللّه الآب أن يهبها ابنه الوحيد، الذي ولده في ذاته، والمساوي له، والذي يحبّه حبّه لذاته، لكي يكون الابن الوحيد عينه للّه الآب وللعذراء».

أربع سنوات بعد الإعلان أيّدته السيّدة العذراء نفسها عندما ظهرت في لورد للفتاة برناديت سوبيرو، التي، عندما استفسرت العذراء عن اسمها، نزولاً عند رغبة كاهن الرعيّة، أجابت: «أنا الحبل بلا دنسٍ».

لم تقل العذراء إنّها هي التي حُبِل بها بلا دنس، بل قالت إنّها «الحبل بلا دنسٍ»، أي إنّها تفجُّر حياةٍ دائمٌ، ولادةٌ مستمرّةٌ، من الثالوث الأقدس. فالآب يعطي ابنه أُمًّا، والروح يحلّ على اضطرام حبّ الآب لابنه، ويفجّر ولادةً منزّهةً من الدنس.

قول العذراء: «أنا الحبل بلا دنسٍ» هو من الأقوال التي تُحفَر إلى ما لا نهاية، لأنّ معناها لا ينضب، ولأنّ الإمعان في هذا السرّ لا ينتهي، إلى أن يشترك فيه كلٌّ منّا، ذات يومٍ، اشتراكًا كاملاً.

وعندما يكنّى إنسانٌ بصفةٍ يمتلكها، فهذا يعني أنّ امتلاكه لها امتلاكٌ كلّيٌّ، كأن يُقال عن إنسانٍ إنّه الطيبة عينها، والطهر ذاته. وقول العذراء، في لورد: «أنا الحبل بلا دنسٍ»، يعني تفرّدها بهذا الامتياز.

لقد حطّ الثالوث الأقدس على العذراء مريم نظرةً مميّزةً، وحباها بأعظم حبٍّ، وبملء النعمة. وهذه الحظوة التي خُصّت بها مريم جعلتها أطهر المخلوقات على الإطلاق، إذ كانت النعمة هي قوام حياتها، وهي استثمرت النعمة خير استثمار، مع كونها، على هذه الأرض، منغمسةً في الإيمان والرجاء.

ومع أنّ مريم هي من سلالة حوّاء، إلاّ أنّها وُقيت، منذ تكوينها، من لوثة الشهوة

والخطيئة التي لا ينجو منها أَيٌّ من أَبناء أَو بنات حوّاء. فقد كانت خطيئة الأَبوين الأَوّلين قد حطّمت لديهما البراءة الأَصليّة، والتناغم الداخليّ، وغلّبت لديهما شهوة المتع الأَرضيّة، وشحذت كبرياءَ متمرّدةً على مشيئة الله. وقد نزّه الله مريم من كلّ ذلك بمبادرةٍ فريدةٍ منه، ونجّاها، وحدها، من طوفان الخطيئة، وأَبقاها، بين يديه، كلّيّة الطهر. فكانت الخليقة الوحيدة التي لم يجد إِبليس إِلى النيل منها سبيلاً.

شاءها الربّ على صورته، لأَنّها ستكون أُمّ خليقةٍ جديدةٍ. أَرادها خلقًا جديدًا ناصعًا، فأقام تناغمًا بين كلّ طاقاتها، فجاء كلّ شيءٍ فيها طاهرًا، يعكس سنى مصدره. لقد شاء الله أَن تتألّق نفسها سنى حبٍّ، وامتلاء نعمةٍ يفوق كلّ ما ملأَ نفوس القدّيسين.

امتلاؤها نعمةً طهّرها من كلّ أَثرٍ للأَنانيّة، فكان حبّها لذاتها يحاكي حبّ الله لها. كلّ ما كانت تمتلك من ذكاءٍ، وإِرادةٍ، وحساسيّةٍ، وهوًى، كان مسخّرًا لخدمة الله الذي اختارت أَن تكون له الأَمَة المطيعة والمحبّة، في آنٍ واحدٍ، ما أَضفى عليها بساطةً وطهرًا رائعينْ، وجعلها مرآة الخالق، وكما قيل في الحكمة: «إِنّ في نَسَبها مجدًا، لأَنّها تحيا عند الله، وربّ الجميع قد أَحبّها». إِنّها صورةٌ لله أَصدق من تلك التي كانت عليها حوّاء، في حالة براءتها الأولى، لأَنّها كانت أَوثق منها قربًا من الثالوث. نفسها نيّرةٌ، صافيةٌ، شفّافةٌ، تعكس نور الله. غير أَنّ أَروع جمالها داخليٌّ، وهو الجمال الذي يؤثره الربّ.

لقد حباها الله بميزةٍ فريدةٍ، في تاريخ البشر، إِذ أَحاطها، منذ لحظة تكوينها الأولى، بحبّه الفادي، ووقاها وملأها بنعمته. ما تحقّقه المعموديّة التي تتركنا، مع ذلك، جريحين معرّضين للمعطوبيّة، حقّقته كلّيّةً، مبادرةٌ إِلهيّةٌ، في صميم كيان العذراء، فوقتها من الفوضى الجوهريّة التي تحجب الأَبصار والبصيرة، وتدفع الجسد إِلى اشتهاء ما يأباه الروح، وتجعل الظفر بالتوازن عسيرًا.

وعندما تلج النعمة قلبًا بشريًّا وتملأه، تطهّره كلّيًّا. وهذا ما تجلّى لدى مريم التي غمرت النعمة نفسها، فحرّرتها من كلّ شهوةٍ دنسةٍ.

القدّيس أوغسطينُس (٤٣٠+) قال: «إِكرامًا للمسيح، لا أُريد أَن يؤتى على ذكر الخطيئة عندما يتعلّق الأَمر بمريم. فنحن نعلم أَنّها مُنحت نعمةً كبرى كي تتغلّب على

كلّ أَنماط الخطيئة، بما أَنّها استحقّت أَن تحمل وتلد مَن مِن المؤكّد أَنّه لم يعرف الخطيئة».

ويضيف القدّيس أَنسيلم (١١٠٩+): «كان يليق بالعذراء أَن تتألّق بذلك الطهر الذي لا يمكن تخيّل أَكمل منه، بعد طهر الله».

أَمّا القدّيس توما الأَكوينيّ (١٢٧٤+) فيقول: «أُعطيت الطوباويّة العذراء من النعم أَكثر ممّا أُعطي أَيٌّ من القدّيسين. كانت منزّهةً من كلّ خطيئةٍ أَكثر من جميع القدّيسين الآخرين. فقد كان لا بدّ من أَن تُمنح العذراء الطوباويّة شيئًا يفوق المألوف. تقديسها (قبل ولادتها) كان أَكمل من تقديس جميع الآخرين. وينبغي الإِيمان بأَنّ كلّ ما كان يمكن أَن توهب قد وُهبته فعلاً. ويسوغ التسليم بأَنّ تلك التي ولدت ابن الآب الوحيد، المملوء نعمةً وحقيقةً، قد مُيّزت عن جميع الآخرين، وتلقّت أَعظم امتيازات النِعَم». وفي سياق تعليقه على المزمور ١٨:٦ القائل: «لقد اتّخذ من الشمس مسكنه»، يقول الأَكوينيّ: «هذا يعني أَنّ جسد المسيح قد ثوى في الشمس، أَي في العذراء القدّوسة، التي لم تغْشَها أَيّة ظلمة خطيئةٍ، وفقًا لقول النشيد: «أَنتِ كلّيّة الجمال، يا صديقتي، وما من لوثةٍ فيكِ».

لا ريب أَنّ، ثمّة، علاقةً وثيقةً، في تدبير الله، بين امتياز تنزيه مريم من كلّ دنسٍ ناتجٍ عن الخطيئة الأَصليّة، وإِعدادها لأَن تكون أُمّ الله. وما أَكثر ما قيل في هذا الشأن!

فالأَب سيرتيلانج قال: «لقد أَراد الفادي إِعادة النور إِلى الليل الدامس المهيمن، كي ينعم به من يتطلّعون إِلى الحياة في النور. وهل يمكن لمن ستكون أُمّ النهار، لمربّية شمس العدل المشرقة على آفاق العالم، أَن تكون، في أَيّة لحظةٍ، ضحيّة الظلمات، ظلمات الخطيئة التي جاء ابنها كي يزيلها، مع قدرته على وقايتها منها بما أَنّه، بصفته إِنسانًا وإِلهًا، ابنها وخالقها، في آنٍ واحدٍ.

«بما أَنّ مريم هي الأَداة البشريّة التي اختارها كلمة الله الأَزليّ، كي يبدأ بها تجديد الأَرض، فقد كان من اللائق أَن تكون تلك الأَداة طاهرةً طهرًا كاملاً. لم يكن بوسع «مرآة العدل»، كما ندعو مريم، أَن يغشاها أَيّ كدرٍ، في أَيّة لحظةٍ... فلو كانت الأَرض خاطئةً بأَكملها، لاستعصت على أَيّ عملٍ خلاصيٍّ، ولتعذّر على حمامة نوح الهبوط على أَرضٍ تغشاها الحمأة المنتنة.

«كانت مريم طاهرةً، من أَجل أُمومةٍ إِلهيّةٍ، وزادتها تلك الأُمومة طهرًا!

«طهرها كان امتيازًا تلقّته من ابنها. ولكنّها استحقّت، من بعد، هذه الحظوة بسلوكها، وثبّتتها، وأَغنتها وبرّرتها.

«كرامتها في أَنّها اختيرت لتكون أُمّ اللّه. وقد قابل هذه الكرامة امتلاؤها نعمةً. مؤكّدٌ أَنّها ليست صانعة النعمة، غير أَنّ النعمة هي مشاركةٌ في طبيعة اللّه. وهي، بصفتها أُمّ صانع النعمة، اشتركت بملء النبع الذي تجلّى بملء الدفق، وبالقرب الحميم، وبما يشبه التماهي بين الأُمّ والابن، في فكر اللّه وعمله.

«عندما يستخدم اللّه أَيّ كائنٍ أَداةً لعملٍ روحيٍّ لا يستخدمه كأداةٍ جامدةٍ تُرمى عقب الفراغ منها. وعمله لا يعبر فقط من خلاله عبورًا، بل يتخلّله ويشبعه بذاته، ويملأه وفقًا لطاقاته وجاهزيّته. والعذراء امتلأت نعمةً، وشاركت ابنها بلا انقطاعٍ، لا بعملها فحسب، بل بكلّ كيانها المتّحد بكيان ابنها والممتزج به.

«امتلأت نعمةً، فلم يبقَ فيها فسحةٌ للخطيئة، لا لأَنّ إِرادتها ملغاةٌ، بل لأَنّ اللّه يدعمها، ولأَنّها موجّهةٌ نحو الخير، مرهونةٌ له، لا تعمل إِلاّ في ميادينه اللانهائيّة، وتأبى سُبل الشرّ الماكرة الدنيئة. إِنّها، بفضل نعمة ابنها، تشاركه عصمته من الخطيئة. هذه العصمة ليست سلبيّةً، أَي مجرّد خلوٍّ من الشرّ، فمثل هذا الفراغ يتعارض مع امتلائها نعمةً. إِنّها ممتلئةٌ نعمةً، لأَنّها ممتلئةٌ حبًّا، ولا سكن للشرّ مع الحبّ، فهما عدوّان.

«الطهر يعني وحدة النفس وبساطتها، تحت قيادة المبدأ الأَوّل، وفي تماسٍّ حميمٍ معه. أَمّا النفس الدنسة، فهي مجزّأةٌ: أَهواءٌ جامحةٌ، من جانبٍ، وعقلٌ ضالٌّ من جانبٍ آخر. ومن ثمّ فقدان الاتّصال بالنبع الروحيّ، وفقدان التناغم والبراءة والفرح.

«لقد عُصمت العذراء من الخطيئة الجوهريّة، وسبح كلّ كيانها في النور. الحبّ، فيها، هو المهيمن، وهو الذي يشيع التناغم، والسلام، والوحدة، ويحدو كلّ طاقات النفس نحو العمل.

«فالحياة المكرّسة للّه بكلّيّتها، موحّدةٌ، كاملةٌ، ومنيعةٌ، وهي كاملةٌ أَيضًا، في نشاطها، ومتّزنةٌ، وسخيّةٌ. والطهر المستقرّ فيها ليس برودةً وفراغًا، بل هو امتلاءٌ حارٌّ. والنفس الطاهرة هي، في الواقع، جذوةٌ متّقدةٌ.

«الطهر الذي مُنحته العذراء بالولادة هو أَقصى ما يتطلّع إِليه كلّ صابٍ إِلى الكمال. مريم هي، ليسوع المخلّص، غنيمة نصرٍ، وعربونٌ لكلّ ما سيليها من مغانم، ولكأنّ كلّ براءات الأَرض مرتبطةٌ بها، وكأَنّها استمرارٌ لنصاعتها.

«العذراء هي قصيدة البراءة، وقوّة عدوى فاعلةٌ...»

يتّضح، إِذن، أَنّ مريم نالت كراماتٍ فريدةً، خُصّت بها، من أَجل المهمّة الفائقة التي كُلّفت بها، ولكنّها حوّلت هذه المواهب إِلى استحقاقاتٍ بسلوكها وفقًا لهذه المواهب، واستسلامها المطلق لمشيئة الربّ، وباختيارها اللّه وحده، دون سواه، وبحفاظها على وديعة الطهر بأَشدّ حرصٍ، وبمجافاتها كلّ نظرةٍ، وخاطرةٍ، وسلوكٍ قد يشوبها عكر الشهوات الأَرضيّة الدنسة. ولا ريب أَنّها التزمت بصومٍ صارمٍ لحواسّها، ونأت بنفسها عن كلّ الظروف الكفيلة بالإِغواء. وبالإِفضاء إِلى التجربة. لقد ابتعدت عن الفخاخ، واعتصمت بالصلاة، فباتت في أَمانٍ.

لقد نعمت العذراء بشعورٍ فطريٍّ باللّه واكبها منذ ولادتها، وفي كلّ لحظةٍ من حياتها.

يقول نيكولاس كاباسيلاس: «لم يكن التجسّد فقط عمل الآب والابن والروح القدس، إِذ قرّر الأَوّل، وتنازل الثاني، وظلّل الثالث، بل كان، أَيضًا، عمل مشيئة العذراء وإِيمانها. فلولا موافقة الكلّيّة الطهر وإِيمانها، لتعذّر تحقيق ذلك المخطّط، مثلما كان متعذّرًا لولا تدخّل الأَقانيم الإِلهيّة الثلاثة. فاللّه لم يجعل منها أُمّه إِلاّ بعد أَن أَطلعها وأَقنعها. وحينئذٍ تلقّى منها الجسد الذي قدّمته له طوعًا. لقد أَصبحت له أُمًّا بإِرادتها وموافقتها الحرّة».

وقد شاركت، في أُمومتها، الآب الذي «تستمدّ منه كلّ أُبوّةٍ اسمها». اللّه أَلهمها أَن تبقى عذراء واللّه طلب منها أَن تصبح أُمًّا، ولأَنّها زهدت في أَفراح الأُمومة الطاهرة والكثيفة، أُعطيت أَن تتذوّقها كما لم تتذوّقها أُمٌّ، قطّ».

يقول الأَب لورنتان في هذا السياق: «لقد أُعطي لامرأةٍ امتياز القول «يا إِلهي ويا ابني». عبادتها كمخلوقةٍ، وحنانها كأُمٍّ، انصهرا في فعلٍ واحدٍ».

بشأن الحبل بالعذراء بلا دنسٍ يقول بوسُّويه:

«إِن نحن تبيّنّا لديها انعتاقًا عامًّا من كلّ سُنن الطبيعة، وإِن نحن، على ضوء

الإيمان القويم، وأقلّه، وفق رؤية أكثر المعلّمين ثقةً ومصداقيّةً، ألفينا لديها جسدًا محرَّرًا من الهشاشة، وحواسّ محصّنةً ضدّ العصيان، وسيرةً بلا عيبٍ، وموتًا بلا وجعٍ، وإن لم يكن زوجها سوى حارسٍ لها، وإن لم يكن زواجها سوى حجابٍ لصون بتوليّتها، وإن لم يكن ابنها سوى زهرةٍ نبتت من طهرها، وإن كان حَبَلها العجيب به قد أوحى للطبيعة المذهولة والحيرى، أنّ سُننها ستُبطل إلى الأبد، وإن كان الروح القدس قد تبوّأ فيها مكانه، وإن احتلّت فيها عذوبة البتوليّة المكان الذي ألِفت الشهوة احتلاله، فمن يستطيع ادّعاء أنّه لم يحدث أيّ أمرٍ فائقٍ في الحَبَل بتلك الأميرة، وأنّ هذا الحبل وحده هو الحيّز الوحيد في حياتها الذي لم يتميّز بمعجزةٍ سنيّةٍ؟»

بتوليّة الجسد لدى مريم سبقتها وواكبتها بتوليّة النفس والقلب. وباتّخاذها أُمًّا له، رفعها الله فوق مستوى الملائكة. فأيّ ملاكٍ يسعه أن يقول لله: «أنت ابني، وأنا اليوم ولدتك»؟

يسوع وُلد بمعزلٍ عن كلّ دنس، وهذا حقٌّ لأنّه إلهٌ، ولكنّ العذراء، وُلدت معصومةً من الدنس، مع أنّها مخلوقةٌ من سلالة آدم، وهذه هي ميزتها، وإلاّ لوُلدت عدوّةً لله، وابنةً للغضب.

لا عجب، إذن، إن نهجت تلك التي نُزّهت، منذ تكوينها، من كلّ آثار الخطيئة الأصليّة، نهج البتوليّة، التي كانت مجهولةً قبلها، مع افتقارها إلى أيّ مثالٍ في هذا الميدان تحتذيه، واختارت أُسلوب حياةٍ كفيلاً بوضع كلّ اهتماماتها تحت شعار الروح، وبذلك أعدّت، وسط عالم الخطيئة، واحةً متناغمةً، تناغمًا كلّيًّا مع إلهامات الروح، جديرةً بأن يتّخذ منها الروح مقامًا. لقد آمنت مريم بالروح القدس إيمانًا بطوليًّا، فجعل منها أُمّ الكلمة.

منذ طفولتها كرّست مريم نفسها وبتوليّتها لله، حرصًا منها على أن تكون ملكًا لله وحده. وقد تعمّق هذا التكريس بالبشارة، عندما حلّ عليها الروح القدس، وجعلها أُمًّا لله، مضيفًا إلى علاقتها البنويّة بالربّ علاقة أُمومتها له. وترسّخ تكريسها لله في الجلجلة، عندما دمّر موت ابنها أُمومتها تدميرًا أليمًا. فالأُمومة هي علاقة أُمٍّ وابنٍ. وبغياب أحدهما تنقطع هذه العلاقة. وقد واجهت العذراء، بموت ابنها، فراغًا قاتلاً، ولكنّ الربّ دعاها إلى ردمه بتبنّي جميع إخوته. وبإشراكها في عمل الفداء. وهذه

الشراكة كانت قد ارتضتها عندما ارتضت التجسّد، ولكنّها حقّقتها، فعليًّا، في الجلجلة.

كرَّست، إذن، مريم نفسها وبتوليّتها للّه. والبتوليّة هي دليل اتّصالٍ حميمٍ باللّه، وجاهزيّةٍ دائمةٍ لتحقيق مشيئته، وهي تكريسٌ كلّيٌّ لمن هو الكلّ في الجميع. بتوليّة مريم هي علامة قربها الفريد من اللّه، الذي أكّده جبرائيل بقوله: «الربّ معكِ»، ودليل تكريس ذاتها للربّ، واختيار الربّ لها أمًّا للمخلّص. والبتوليّة هي، أيضًا، دليل فقرها، وتواضعها، واعتمادها الكلّيّ على اللّه، فاللّه وحده قادرٌ على ملء قلوب مختاريه. هذا التحرّر من كلّ شؤون الأرض ومتاعها، سبيلٌ إلى التأمّل الخليق بمن لا ينتظر من اللّه سوى حبّه، وينتظر منه كلّ شيء.

يقول القدّيس أوغسطينُس: «لقد كرّست مريم بتوليّتها للّه، حين لم تكن تعلم أنّها ستحبل به، لكي يكون التمثّل بالحياة السماويّة، في جسدٍ بشريٍّ معرَّضٍ للموت، ناجمًا عن التزامٍ حرٍّ، لا تنفيذًا لأمرٍ، وخيارَ حبٍّ، لا مقتضى خدمةٍ».

من سرّ الحَبل بلا دنس، علينا أن نستمدّ فهمًا لمبادرة رحمة اللّه، وإعجابًا بها، متأمّلين ذلك الكائن الذي أُعتق عتقًا كلّيًّا من عدوى الخطيئة كي يكون ملكًا حصريًّا للّه. وينبغي أن يكون هذا السرّ منبع فرحٍ لا ينضب. فلا تشلّنا خطايانا، ولا نُمعن في التحديق إلى هواننا، بل فلنرنُ إلى الأمّ التي أُعطيناها، الأُمّ الكلّيّة الطهر، التي اختارها اللّه بفيض حبّه، بل بجنون حبّه، لكي تكون له وحده، ولكي يثوي كلّ كيانها في مشيئة الآب. ذلكم هو سرّ بتوليّة مريم جسدًا ونفسًا: لقد أَسلمت للّه ذاتها كي يتصرّف بها كما يشاء. لم تلتمس كمالها الذاتيّ، بل كان كلّ همّها أن تكون أداةً طيّعةً لمشيئة الآب، فالاستسلام هو الاستجابة المثلى لرحمة اللّه.

والاستسلام ليس توانيًا وكسلاً، بل هو قرارٌ يستحوذ على كلّ كياننا وعلى كلّ ما ينطوي عليه من عمقٍ وعظمةٍ، ونبلٍ. فبالاستسلام للّه ندرك أَنّ كلّ ما نعمل في توافقٍ مع مشيئته، يسبغ على هذا العمل قيمةً أبديّةً.

إنّ البتوليّة صمتٌ، ولكنّ سرّها مشرعٌ على آفاقٍ لا حدود لها. والبتوليّة هي أَحد وجوه الفقر الإنجيليّ. ولا معنى للوحدة، والصمت، والفقر، والبتوليّة، إلاّ في اللّه.

اللّه وحده هو سرّ البتوليّة وتفسيرها، وبمعزلٍ عن اللّه، اللّه الحيّ الحقّ، البتوليّة هي قمّة اللامعقوليّة.

كلّ إِنسانٍ يحتاج إِلى آخر يكمّله. ولكن عندما يملأ اللّه نفسًا، فهو يكمّلها، ويحقّقها، فلا حاجة بها، بعدُ، إِلى آخر.

القلب البتوليّ يستطيع، بل يتوجّب عليه أَن يحبّ بعمقٍ. ولكنّ حبّه هذا لا يفقده سيطرته على ذاته، لأَنّه حبٌّ شاملٌ، حبّ إِيثارٍ، منزّهٌ من الأَنانيّة والاستئثار اللّذين يواكبان، أَبدًا، الحبّ البشريّ.

البتوليّة، إِذن، حرّيّةٌ، وتحرّرٌ من أَسر كلّ خليقةٍ، وبقدر ما تترسّخ البتوليّة، يتكثّف حضور اللّه، وتتضاعف طاقات الحبّ. ومريم ممتلئةٌ نعمةً، لأَنّها، بكلّيّتها، عذراء. ومن ثمّ ليست البتوليّة حرّيّةً فحسب، بل هي، أَيضًا، امتلاءٌ.

لقد سكن اللّه بتوليّة مريم، مالئًا كلّ كيانها. وإِنّ ما نشهد لديها من نضجٍ، ونعمةٍ، وفتنةٍ، وجاهزيّةٍ للخدمة، هو ثمرة بتوليّةٍ مارستها حتّى الكمال.

وبقدر ما يكون الانغماس في حميميّة اللّه عميقًا، يغدو بذل الذات في سبيل البشر أَشدّ سخاءً. وبقدر ما يكون التقاء الآب كثيفًا، يكون الانفتاح على البشر أَرحب آفاقًا.

وقد عاشت مريم مع اللّه في حميميّةٍ منقطعة النظير، أَفضت إِلى تواصلٍ لا مثيل له مع الإِخوة، الذين كانت إِليصابات، أَوّلاً، ويوحنّا، في ما بعد، ممثّليهم. إِنّ الحياة في اللّه تضفي على النفس سلامًا وطيدًا، ولكنّها لا تتيح فرصةً للسكون أَو للتواني، فالربّ يقود، دائمًا، أَصدقاءه إِلى التورّط في خدمة إِخوتهم.

بتوليّة العذراء هي المكان الذي تتجلّى فيه عظمة اللّه. وهي الدليل على أَنّ من يحيا بالإِيمان، لا قيمة للجسديّ والبشريّ لديه، بل اعتماده كلّه على عمل اللّه.

ولم تكن بتوليّة مريم انكفاءً على الذات وانغلاقًا، بل كانت انفتاحًا على اللّه، بُغية إِقامة العلاقة الأَعمق حميميّةً معه. كانت ضربًا من الاقتران الروحيّ بالربّ.

وفضلاً عن كلّ ذلك، كانت بتوليّة مريم دليل فقرها الطوعيّ، وتجرّدها، وتواضعها، واعتمادها على اللّه في كلّ شيءٍ، واعترافها بأَنّ كلّ ما حظيت به هو هبةٌ مجّانيّةٌ من اللّه. لقد امتلأت نعمةً، وكلّ ما نالته كان عمل النعمة، وهبة حبٍّ صرفٍ لا يأتي إِلاّ من اللّه.

وإلى كلّ ذلك، ترتدي بتوليّة العذراء طابع الجدّة، وتشير إلى أنّ اللّه سيحقّق أمرًا جديدًا، عَجَبًا، وأنّ ملء الزمن قد حان، وملكوت اللّه بات وشيكًا، وأنّ بوسع هذا الملكوت تحطيم سنَن الخلق، وما أَلفه البشر. ففي سبيل هذا الملكوت، سيعزف بعض المختارين عن متع الجسد، وسيكرّسون ذواتهم لخدمة اللّه، وخدمة إِخوتهم البشر، وستكون العزوبة الطوعيّة المكرّسة إِحدى أَمارات هذا الملكوت.

إِذن، بتوليّة العذراء ثلاثيّة الدلالة:

– فهي علامة تكريس الذات من أَجل خدمة اللّه حصريًّا.

– وهي دليل فقرٍ يستدعي ملء اللّه، وهي التعبير الأَشدّ بلاغةً عن الفقر الإِنجيليّ.

– وهي دليل جدّة الملكوت العابثة بسُنَن الطبيعة، وفجرُ زمنٍ قشيبٍ.

بنذرها البتوليّة ضحّت مريم بالخصب الطبيعيّ وبالأُمومة؛ ولكنّ الربّ قدّر تضحيتها، وثمّن فقرها الطوعيّ، واستعذب طهرها وجمال نفسها، فاختارها لتكون أُمًّا لابنه، عندما حلّ أَوان تحقيق سرّ التجسّد.

وهكذا أَهّلتها بتوليّتها لتكون أُمّ اللّه، وأُمّ جميع إِخوته البشر، في كلّ عصرٍ وكلّ مكانٍ. واختيارها البتولية جعلها أُمًّا، مليارات الأَضعاف، وبلا حدودٍ.

الحبل بالعذراء بلا دنسٍ، وأُمومتها الإِلهيّة متلازمان. ومن ثمّ فإِنّ قولها: «أَنا الحَبَل بلا دنسٍ»، يساوي قولها: «أَنا أُمّ اللّه». فوحدها أُمّ اللّه، وُقيت من كلّ لوثةٍ، منذ لحظة تكوينها.

لقد أَصبحت مريم رمزًا للطهر المطلق، فكلّ خفقات قلبها لا تتنسّم سوى الخير، ومن الخير أَسماه، ولم تنزلق، قطّ، إِلى خطإٍ ولو ضئيلٍ.

لقد كانت من كثافة الطهر، بحيث أَمست بؤرةً تشيع عدوى الطهر من حولها.

بتوليّتها هي ثمرة إِيمانها الطاهر الذي أَلهمها عطاءً كاملاً لكلّ ذاتها، نفسًا وجسدًا. ولم تكن بتوليّتها عقمًا، بل خصبًا بلا حدودٍ. فالبتوليّة الممارسة بحبٍّ توسّع آفاق المحبّة، كما أَثبتت الأُمّ تيريزا، ونظيراتها الكثيرات.

وقد نعمت بتوليّتها بخصبٍ فائقٍ، كما ستكون دائمًا خصبةً، في الكنيسة، البتوليّة المعاشة بحبٍّ، بنفحة الروح القدس، مبدأ كلّ حياةٍ، وكلّ أُمومةٍ.

منذ سقطة آدم، وثورة الأَهواء على العقل والإِرادة، باتت العفّة هي الفضيلة الأَكثر مشقّةً، وموضع الصراعِ اليوميّ الذي لا يُضمَن فيه انتصارٌ دائمٌ، ولذلك شاء اللّه أن يوفّر، في مريم، مثالاً رائعًا جديرًا بالاقتداء.

مريم هي عذراء العذارى، ورائدة البتوليّة المكرّسة لخدمة اللّه، وقد أَنجبت للربّ جيوشًا من العذارى اللواتي اندفعنَ في تيّارها واحتذينَ قدوتها، وهي التي استشفّ فيها صاحب المزامير تلك التي «تُزفّ إِلى الملك في رياشٍ موشّاةٍ، وفي إِثرها عذارى صواحبها... يُزففنَ بفرحٍ وابتهاجٍ، ويحضرنَ إِلى هيكل الملك». (مزامير٤: ١٥–١٦)

معها أَضحت البتوليّة علامة النفوس الكبيرة، ودليل حبّ اللّه والبشر، وشعلة الدعوات الكبرى.

يقول البابا يوحنّا بولس الثاني: «اتّخذت مريم قرارًا شخصيًّا بالبقاء عذراء، مقدّمةً قلبها للربّ، وأَصبحت، بذلك، النموذج الأَوّل لجميع الذين، في الكنيسة، اختاروا خدمة الربّ بقلبٍ لا تجزئة فيه، وفي البتوليّة. فهي، في الواقع، لم تختر البتوليّة كي تمسي أُمّ اللّه، بل إِنّ هذا الاختيار قد نضج في وجدانها قبل لحظة البشارة. بتوليّتها الشخصيّة تضيء كلّ عطاءٍ بتوليٍّ، وتضفي عليه معنًى... بتوليّة العذراء هي منبع الأُمومة في الروح القدس».

فالذين يكرّسون نفوسهم وأَجسادهم للربّ، لا يبتغون، أَوّلاً، خصبًا ما، بل يحدوهم، في المقام الأَوّل، حبّ اللّه، لأَنّه هو الخير الأَسمى ويستحقّ هذه التضحية. إِنّهم يلتمسون، أَوّلاً، ملكوت اللّه وحبّه، وكلّ خصبٍ يُغدَق عليهم إِضافةً.

ويقول البابا يوحنّا بولس الثاني، أَيضًا: «إِنّ عفّة العزّاب والعذارى، بما أَنّها دليل منح الذات للّه، بقلبٍ لا تجزئة فيه، إِنّما هي انعكاسٌ للحبّ اللامحدود الذي يجمع الأَقانيم الإِلهيّة الثلاثة، في عمق الحياة الثالوثيّة السرّيّ. إِنّه الحبّ الذي أَظهره الكلمة المتجسّد حتّى بذل حياته، حبٌّ «أُفيض في قلوبنا بالروح القدس»، مستنهضًا جواب حبٍّ كاملٍ للّه ولإِخوته.

لقد اجتذبت بتوليّة مريم ويوسف، في تيّارها، حشودًا من الرجال والنساء في

جميع الحقب والأمصار، شرقًا وغربًا، بدءًا بيوحنّا، التلميذ الحبيب. وبفضل مريم أَصبحت البتوليّة المكرّسة هي الوسيلة المثلى لأُبوّةٍ وأُمومةٍ، أَرفع سموًّا، وأَرحب شموليّةً.

فوحدهم العذارى والمتبتّلون يستطيعون أَن يتبعوا يسوع في كلّ دروبه، وفي كلّ وقتٍ. وإِنّ كلّ إِنسانٍ متبصّرٍ يدرك أَنّ تجربة الحواسّ محكومٌ عليها جوهريًّا، باللااكتفاء. وقد تكون تضحياتُ الأَزواج المسيحيّين أَشدّ إِيلامًا من تضحيات المتبتّلين والعذارى. غير أَنّ الأَلم ليس هو مقياس التضحية، بل المقياس هو الاندفاع والرضى اللّذان يتمّ تقبّل الأَلم بهما. وهو، أَيضًا، مقدار الخصب الروحيّ الناجم عن كلٍّ من البتوليّة أَو الزواج.

بمشاركتهنّ مصير مريم العذراء، تحقّق العذارى المكرّسات غاية تضحيتهنّ، وينذرنَ ذواتهنّ لولادة خليقةٍ جديدةٍ. وبهذا النذر لا يرفضنَ الحبّ، بل يؤدّيَن أَسمى فعل حبٍّ.

في صليب يسوع أَعلن اللّه نفسه أَبًا، وأَظهر ملء سخاء حبّه. وبتوليّة مريم تقابل صليب المخلّص. منذ الأَزل، اللّه في جوهره، أَبٌ، أَي إِنّه حبٌّ، وليس فقط حبًّا خلاّقًا، بل هو حبٌّ مبذولٌ، يهب ذاته، وفي هذه الهبة تكمن حياته. ومريم هي المخلوقة التي تحقّق على أَكمل وجهٍ الصورة الإِلهيّة، مع بقائها مخلوقةً، إِذ إِنّها أُمٌّ، مثلما اللّه هو أَبٌ. وهي أُمٌّ لابنٍ اللّه هو أَبوه، ومن خلال هذا الابن هي أُمٌّ لأَعدادٍ لا تحصى من إِخوته، أَي للخليقة الجديدة التي صار يسوع آدمها.

وكما أَنّ اللّه هو أَبٌ بالمعنى المطلق للأُبوّة، تمتاز أُمومة مريم بامتلاءٍ لا تدانيه فيه امرأةٌ. وكما أَنّ الابن، في أُلوهته، هو ابن اللّه وحده، كذلك هو، في إِنسانيّته، ابن مريم وحدها.

إِنّ زواج مريم ويوسف البتوليّ سرٌّ يتعذّر إِدراكه على معظم أَبناء عصرنا المكبّلين بعقَد الفرويديّة والجنس؛ ومثل هذا السرّ لا يمكن فهمه إِلاّ بولوج عالم كائنَيْن كان اللّه لهما الواقع الأَوحد، والقيمة الوحيدة.

لقد تحقّقت، في مريم، المفارقة التي عبّر عنها الآباء بقولهم: «أَصبح ابن اللّه ما لم يكن (إِنسانًا) ولم يكفّ عن كونه ما كان (إِلهًا)؛ وأَصبحت مريم ما لم تكن (أُمًّا) ولم تكفّ عن كونها ما كانت (عذراء)».

ومن ثمّ كانت بتوليّتها كاملةً ودائمةً، قبل ولادتها ليسوع، وفي أَثناء هذه الولادة، وبعدها. ولادتها لم تنقص من بتوليّتها شيئًا، بل كرّستها.

على العذراء ينطبق قول الرسول بولس: (روما ٨: ٣٠): «الذين سبق فحدَّدهم، إِيّاهم دعا أَيضًا، والذين دعاهم، إِيّاهم برّر أَيضًا، والذين برّرهم إِيّاهم مجّد أَيضًا».

وعن بتوليّة العذراء يقول القدّيس إِيريناوس: «لقد أَعطانا اللّه «علامةً» في العمق وفي العلوّ، لم يطالب بها الإِنسان، لأَنّ الإِنسان ما كان ليتوقّع، يومًا، أَن تحبل عذراء، وتظلّ عذراء، وأَن تضع ابنًا، وأَن تكون ثمرة هذا الوضع «اللّه معنا»، الذي سينحدر إِلى أَعماق الأَرض كي ينتشل النعجة الضالّة، أَي صنيعته التي صاغها بيده، ثمّ أَن يصعد إِلى العلى كي يقدّم ويعيد لأَبيه الإِنسان المستعاد بعد ضياعٍ، محقّقًا، في ذاته، بواكير قيامة الإِنسان».

مريم كانت الأولى في تاريخ العالم التي التزمت بالبتوليّة الدائمة حبًّا بربّها المتجسّد، وكان يوسف هو الثاني. مريم ويوسف المرتبطان ارتباطًا لا فكاك منه بحبّهما ليسوع، يلقّنان العالم، بمثالهما، ما ستكون عليه حياة البشر، بعد القيامة المجيدة.

ولادة العذراء ليسوع بالجسد كانت «روحيّةً» بامتيازٍ، وهي، بالتالي تحاكي الولادة الأَبديّة. وقد رأى الآباء القدّيسون أَنّ البتوليّة هي الامتياز الأَوّل الذي تنعم به الطبيعة المؤلَّهة المستعصية على الفساد،.

بتوليّة العذراء تمثّلت في تكريس كلّ قلبها، وكلّ حبّها، وكلّ ذاتها، لمن أَصبح ابنها. قرار بتوليّتها نزعةٌ علويّةٌ، حبٌّ مطلقٌ، يفوق كلّ تفسيرٍ، إِذ إِنّه إِلهيّ الإِلهام. فاللّه أَرادها لنفسه، وهي لم تسعَ إِلى معرفة السبب، ولم يكن بوسع أَحدٍ أَن يفسّر لها ذلك.

وهكذا لم تكن مريم مجرّد أُمٍّ عذراء، بل كانت عذراء، وأُمّ اللّه، وأُمًّا جديرةً باللّه.

وقد وفّرت بتوليّة مريم، وعصمتها من آثار الخطيئة الأَصليّة، الظروف الملائمة لتجسّد ابن اللّه، الذي غيّر مسار الكون، وكانت له آثارٌ بليغةٌ على البشريّة جمعاء.

فقد ثوت رحمة اللّه الأَبديّة في رحم عذراء بشريّةٍ، وزرعت فيها الأُمومة، فغدت العلامة المحسوسة والمرئيّة على حنان اللّه. لقد مضت رحمة اللّه إِلى أَقصى الأَشواط،

لكي تكون على أوثق قربٍ منّا. وفي هذا السياق قال البابا يوحنّا بولس الثاني: «باختياره مريم أُمًّا للبشريّة جمعاء، ابتغى الآب السماويّ أن يسفر عن الأَبعاد الأُموميّة لرأفته الإِلهيّة حيال جميع البشر، في جميع الأَزمنة».

وعن ولادة يسوع من العذراء يقول اللاهوتيّ الأَلمانيّ «شونبورن» (Shonborn): «هوذا إِنسانٌ وجوده جديدٌ، جوهريًّا، أَساسيًّا، من جذوره، وسط عالمٍ حيث كلّ جدّةٍ ما هي سوى استعاضةٍ عن قديمٍ، ولا تلبث إِن تعتق بدورها وتشيخ. هذه هي بشريّةٌ جديدةٌ، حياةٌ بشريّةٌ لا يحمل تكوينها الأَوّل بذور الموت، بل هي تستمدّ منشأها، كلّيّةً، من جدّة الله».

ويقول اللاهوتيّ (البروتستنتيّ سابقًا) ماكس ثوريان(Max THURIAN): «أمست البتوليّة والعفّة علامة بدء عالمٍ جديدٍ، ودليلاً على أنّ نظام الخليقة والطبيعة ليس نظامًا مطلقًا لا يتبدّل، فقد اقتحم نظام الملكوت الجديد الأَرض، وقلب مفاهيمنا المسبّقة، وأَنظمتنا الجامدة، وتقاليدنا المستعصية على التغيير، مشرعًا على حياة المستقبل الأَبديّة ثغرةً يشعّ منها نور العالم الملائكيّ».

إِنّ اندماج الله نفسه ببشريّتنا هو حَدَثٌ فريدٌ على مدى التاريخ، وفرادته مطلقةٌ، كلّيّةٌ. وللتعبير عنه كان لا بدّ من حَبَلٍ وولادةٍ فريدَيْن فرادةً مطلقةً، على مدى التاريخ. وللدلالة على أنّ يسوع ليس ولدًا وابنًا بين مليارات الأَولاد والأَبناء، على امتداد التاريخ البشريّ، بل هو الولد والابن المميّز عن الجميع، كان لابدّ من حَبَلٍ وولادةٍ فريدَيْن فرادةً مطلقةً في العالم.

وخلافًا لإِليصابات التي، بحَبَلها، ردمت نقصًا، وأَعطت زكريّا ذرّيّةً، كان كلمة الله الذي ولدته مريم يخصّها وحدها، بمعزلٍ عن أَيّة ذرّيّةٍ. فهو ليس تعويضًا عن أَيّة مرارةٍ، ولا استمرارًا لأُسرةٍ شهيرةٍ. وهي لم تعطِه ليوسف، بل أَعطته للعالم. فقد ولدت سرًّا مقدّسًا تقتسمه السماء والملائكة.

اختار الله لنفسه أُمًّا، بحرّيّةٍ، لكي نختار، نحن، بحرّيّةٍ، الله، أَبًا. وقد أُعطينا الابن مجّانًا، لكي نهب الله ذواتنا، بحرّيّةٍ، ومجّانًا.

وقد جسّد يسوع منشأً جديدًا، في صميم التاريخ، وبذلك استهلّ لكلّ إِنسانٍ يقتفي خطاه، بنوّةً منعتقةً من كلّ ضروب القدَريّة والحتميّة.

ولادة العذراء ليسوع ارتقت بها إلى أَسمى قمم العظمة، وجعلت منها أُمّ البشر. وقد كتب القدّيس أنسيلم، في القرن الحادي عشر: «لا شيء يعادل مريم، ولا أَحد سوى اللّه أَعظم منها. لقد أَعطاها اللّه ابنه الذي يحبّه كذاته، إذ إنّه ولده مساويًا لذاته، ابنًا مشتركًا بينه وبين مريم. إنّ اللّه الذي صنع كلّ شيءٍ، صنع ذاته في مريم، معيدًا خلق ما قد خلق... اللّه هو أَبو المخلوقات، ومريم هي أُمّ الخليقة المتجدّدة... اللّه هو أَبو تكوين كلّ شيءٍ، ومريم ولدت من به كان كلّ شيءٍ، ونال الخلاص».

لقد شاء ابن اللّه أَن يتجسّد لكي يولد البشر ولادةً ثانيةً بصفة أَبناء اللّه، لا بمشيئة جسدٍ، ولا بإِرادة بشرٍ، بل بقدرة اللّه. فكان لا بدّ لولادته من أَن تكون نموذجًا لهذه الولادة الجديدة.

لا ريب أَنّ عيش الإنسان، في الجسد، حياةً ملائكيّةً هو أَعظم ثوابًا من حياة الملائكة. فوضع الملائكيّة سعادةٌ وامتيازٌ، أَمّا البتوليّة الطوعيّة فهي فضيلةٌ واستحقاقٌ.

ولا جَرَم أَنّ من أُمومة العذراء كلّ شيءٍ نشأ، وإِليها كلّ شيءٍ يعود. هذه الولادة رقت بها إِلى أَسمى ذرى القداسة، ورسّخت طهرها وبتوليّتها. هذا ما أَكّده القدّيس بطرس الكريستولوجيّ بقوله، مخاطبًا العذراء: «بحبلكِ وولادتكِ، تضاعفت عفّتكِ، وتوطّد نقاؤكِ، وترسّخت بتوليّتكِ». وهذا، أَيضًا، ما أَكّده القدّيس إِيلديفونس: «إِنّ مريم أَبديّة البتوليّة. وبقدر ما هي أُمٌّ هي أَكثر بتوليّةً، وبقدر ما هي بتولٌ هي أَكثر أُمومةً».

ومن البديهيّ الاستنتاج، من كلّ ذلك، أَنّ مريم قد حافظت على بتوليّتها بعد ولادتها يسوع.

فاللّه اكتفى بابنٍ وحيدٍ. أَفلا تكتفي أَمَته العذراء الضنينة ببتوليّتها بابنٍ وحيدٍ، فريدٍ، يفوق كلّ الكائنات؟ وهل يُعقَل أَن تدنّس عذراء مختارةٌ من اللّه هيكلاً ابتناه الروح القدس، وقدّسه، من أَجل استقبال ابن اللّه؟

وإِنّ ما تميّزت به مريم من تكريسٍ وجاهزيّةٍ، لم يكن هدفه تحقيق التجسّد فحسب، بل كان هبةً إِلهيّةً لا رجوع عنها، وقد ظلّت العذراء مكرّسةً للّه وحده، كما هو شاءها.

كان يسوع هو امتلاءها فلم تتّسع نفسها لأيٍّ سواه. وبما أَنّ البتوليّة هي من علامات الملكوت الجديدة، فهي علامةٌ دائمةٌ، مثل العزوبة في سبيل الملكوت التي تكلّم عنها يسوع.

وإِن كان الأَسّينيّون قد عزفوا عن الزواج بدافع التطهّر، فكيف لا تلتزم بالبتوليّة تلك التي أمست قدس أَقداس الله!

ولا عجب إِن سمّاها القدّيس أمبروسيُس «حاملة لواء البتوليّة»، وإِن وصفها صاحب نشيد الأَناشيد «كالسوسنة بين الأَشواك، كذلك خليلتي بين البنات»، فسائر البنات أَشواكٌ لذواتهنّ وللغير. أَمّا مريم فلم تكن، يومًا، شوكةً، بل كان مجرّد حضورها يوحي بكلّ طهرٍ، ويدفع إِليه.

بتوليّة مريم الدائمة كانت فتحًا في عالم الروح، وفي هذا المعنى يقول جان غيتّون: «كان للعذراء الفضل الأَكبر في جعل البتوليّة أَمرًا ممكنًا، رائعًا، ودليلاً على التسامي وانتصار الروح، والحبّ المجّانيّ الحقّ. فالارتقاء بالمشاعر إِلى مستوًى إِلهيٍّ لا يدمّرها، بل يوصلها إِلى الكمال».

والربّ الذي صان بتوليّة أُمّه في حملها له، قد صانها، أَيضًا، في ولادتها العجيبة. فيسوع، بولادته، لم يُنْهِ بتوليّة أُمّه، بل كرّسها إِلى الأَبد، وجعل من أُمومتها أُمومةً عذراويّةً. يقول اللاهوتيّ «لوي بوييه» (Louis BOUYER) بهذا الشأن: «ليست النعمة التي تميّزت بها مريم مجرّد كونها عذراء، وأَطهر العذارى قاطبةً، بل في كونها عذراء في أُمومتها عينها... لقد وجدت بتوليّتها ازدهارها في أُمومتها التي، عوضًا عن النيل منها، أَكملتها».

ومن ثمّ يمكن القول إِنّ العذراء ليست أُمًّا مع كونها عذراء، بل هي عذراء لأَنّها أُمّ يسوع، وأُمّ البشر أَجمعين.

بهذه الولادة، أَنشأ الله «خليقةً جديدةً» تدخّل فيها الخالق تدخّلاً مباشرًا كي يرتقي بالمخلوقات إِلى مستوًى أَرفع سموًّا، ولم يُبالِ، في سبيل ذلك، بخرق السنَن التي كان قد وضعها بنفسه. لقد أَعفى ولادة ابنه، بشريًّا، من وساطة رجلٍ، كي يظلّ، هو، أَبا يسوع الوحيد.

والذي خرق سنَن البشريّة في ولادة يسوع، خرقها، أَيضًا، في قيامته. فبين

الولادة من عذراء والقبر الخاوي تلازمٌ وتساوقٌ. إنّها علامةٌ واحدةٌ على السرّ الإلهيّ الكامن في مولد يسوع وفي قيامته. هذا ما كان قد أشار إليه القدّيس أفرام السريانيّ، في نشيدٍ يقول:

«بقيامتك (يا ربّ)، أقمت الدليل الدامغ على ولادتك المعجزة،
فمخبأك الأوّل كان مختومًا، وقبرك كان محكم السدّ،
وأنت كنت طاهرًا في مخبئك، وحيًّا في لحدك،
الرحم المختومة والجحيم تهلّلتا، وهتفتا فرحًا لقيامتك،
الرحم المختومة حملتك،
والجحيم الموصدة تركتك تغادرها،
مخالفتين، كلتاهما، سنَن الطبيعة،
فالقبر الذي أوكلت إليه حراسة رجلٍ ميتٍ، كان مسدودًا،
والرحم التي لم يعرفها رجلٌ كانت عذراء،
وقد دوّت الرحم العذراء، ودوّى اللحد المختوم، دويّ الأبواق،
في آذان شعبٍ أصمّ».

ولادة يسوع من عذراء لم يكن من إنتاج اللحمِ والدم، بل كان حَدَثًا جديدًا، نابعًا من يد اللّه وحده. وهذه الولادة أدخلت عاملاً جديدًا في تاريخ البشر الموصوم بالخطيئة، وكان فتحًا في عالم الروح. وكانت الولادة من عذراء والقيامة، كلتاهما، برهان أُلوهة يسوع.

وإن لم يكن يسوع إلهًا، فما ولادته من عذراء سوى خرافةٍ. ولا سبيل إلى الإيمان بالتجسّد، بمعزلٍ عن الإيمان بولادة يسوع من عذراء. وكلّ إنكارٍ لبتوليّة العذراء الدائمة هو إنكارٌ لأُلوهة يسوع، وكلّ تجنٍّ على العذراء هو تجنٍّ على ابنها. وعلى حدّ قول الكردينال «جورنييه»: «بمعزلٍ عن بتوليّة مريم، لا قوام للتجسّد، ولروعته وخصبه».

ولا ريب أنّ الولادة من عذراء هي من الغرابة وصعوبة التصديق بحيث يتعذّر

على أيّ لاهوتيٍّ اختلاقها. ولكنّها واقعٌ أثبته الإنجيل، وأَعلنته الكنيسة الأولى، وآمن به المسيحيّون بصلابةٍ حملتهم على الذود عنه ببطولةٍ، حتّى الاستشهاد في سبيله.

ففي القرن الثاني، صرّح الأُسقف الفلسطينيّ هيبوليتُس: «لقد تجسّد ابن الله، أَي إنّه وُلد ولادةً كاملةً من مريم القدّيسة، الدائمة البتوليّة، بفعل الروح القدس». وقد جاء في عظةٍ للقدّيس غريغوريُس، أُسقف قيصريّة الجديدة، في القرن الثالث: «لقد وُلدتَ، يا يسوع، من مريم التي شئتها عذراء، وأَنت وحدك عليمٌ بهذا السرّ. أَنت وحدك تعلم كيف لم تُمسَّ بتوليّتها، لأَنّك صنتَها، وفي الآن عينه، وهبتها كرامة الأُمومة. بتوليّتها لم تنهض عائقًا دون ولادتك، وولادتك لم تؤذِ بتوليّتها. هذان الواقعان يتنابذان، على الصعيد الطبيعيّ، ولكنّهما تآلفا لصنع حَدَثٍ كان لك، أَيّها الخالق، ليس ممكنًا فحسب، بل سهلاً».

الإيمان ببتوليّة العذراء سبق، في الكنيسة الأولى، الإيمان بعقيدة «أُمّ الله». وقد آمن المسيحيّون الأَوّلون ليس فقط ببتوليّة العذراء قبل حبلها بيسوع، وفي ولادته، بل ببتوليّتها الدائمة. فمن البديهيّ أَنّ تلك التي حظيت بأُمومة ابن الله، والتي كرّست كلّ ذاتها وحياتها ليسوع ورسالته، لم تكن لتخالجها أَيّة رغبةٍ في إنجاب أَبناءٍ من زرعٍ بشريٍّ. وتلك التي نذرت البتوليّة قبل أن تعلم بأَنّها اختيرت لتكون أُمّ المخلّص، والتي كانت مستعدّةً لرفض الأُمومة الإِلهيّة لو كان ثمن هذه الأُمومة حنثها بنذر البتوليّة، لا يُعقل أَن تحنث بهذا النذر بعد أَن أَضحت أُمّ ابن الله، وبعد أَن اتّخذ الروح القدس من جسدها هيكلاً مقدّسًا.

إنّ حرص مريم على البتوليّة هو ثمرة استعدادها للانفتاح، بلا شرطٍ ولا تحفّظٍ، في كلّ مكانٍ وكلّ وقتٍ، على تدابير المشيئة الإِلهيّة، كيفما جاءت. وهو، أَيضًا، ثمرة حرّيّتها وحبّها اللّذين عبّرت عنهما بقولها: «ها أَنذا أَمَة الربّ».

ولهذه البتوليّة أَبعادٌ خطيرةٌ في الحياة المسيحيّة، أَوضحها اللاهوتيّ كارل راهنر بقوله: «إنّ بتوليّة العذراء تبلّغ رسالةً خطيرةً لجميع المسيحيّين، تتمثّل، أَوّلاً، في هذا الانتظار، وهذه الجاهزيّة، وهذا الانفتاح على النعمة الآتية من فوق. هذا الوضع الذي يتعيّن على كلّ مسيحيّ أَن يحياه، وكأنّه استعدادٌ دائمٌ...».

بتوليّة مريم تعني تكريسها ذاتها كلّيًّا لابن الله الذي ولدته بصفته عطيّةً من الله

مجّانيّةً. وقد استجابت العذراء للربّ الذي وهبها ذاته، باستسلامها له استسلامًا كاملاً. وكانت بتوليّتها دليل استسلامها الكامل لنعمة اللّه العلويّة. ولذلك، على حدّ قول كارل راهنر: «بقيت مريم عذراء دائمًا، ومنبع بتوليّتها هو أُمومتها الإلهيّة، وانفتاحها الطوعيّ على النعمة. ولم يكن ذلك قبل حبلها بابنها الإلهيّ فقط، بل بعده، أيضًا». ويضيف راهنر قائلاً: «ثمّة أمرٌ واضحٌ: إنّ نعمة البتوليّة عندها هي انعكاسٌ داخليٌّ، ونتيجة دعوتها إلى الأُمومة الإلهيّة، وقوّةٌ حميميّةٌ مرتبطةٌ بهذه المهمّة، وبهذه الكرامة. وهي لديها مركزيّةٌ. انطلاقًا من هذا الواقع ينبغي فهمها».

إنّ بتوليّة مريم، قبل ولادتها يسوع، وفي أثنائها، وبعدها، هي وضعٌ دائمٌ، تقرّر لحظة وافقت على عرض مرسل اللّه. وهذا الواقع كان موضع إجماع الأجيال المسيحيّة الأولى. ولذلك وصفها مجمع القسطنطينيّة الثاني، عام **٥٥٣**، بأنّها «أُمّ اللّه، الدائمة البتوليّة».

ويؤكّد اللاهوتيّ المرتدّ عن البروتستنتيّة «ماكس ثوريان»: «إنّ بتوليّة مريم الدائمة مُعطًى موضوعيٌّ من معطيات العهد الجديد لا يرقى إليه شكّ».

بقاؤها عذراء في حبلها بابن اللّه أكّده الملاك الذي بشّرها من قِبَل اللّه بقوله، وفق ما جاء في إنجيل لوقا (١ : ٣٥): «هو الروح القدس يحلّ عليكِ، وقدرة العليّ تظلّلك. لذلك فالمولود منكِ قدّوسٌ، وابن العليّ يُدعى».

وهذا ما يتّضح، أيضًا، من قول الإنجيليّ يوحنّا في مقدّمة إنجيله، بحسب الترجمة التي كانت رائجةً في العصور المسيحيّة الأولى: «أمّا الذين قبلوه، أولئك الذين يؤمنون باسمه، ويعترفون بأنّه لم يولد من دم ولا من رغبة جسدٍ، ولا من إرادة رجلٍ، بل من السماء، فقد آتاهم أن يصيروا أبناء اللّه». (يوحنّا ١ : ١٢-١٣)

وكم كان لائقًا بابن الآب الوحيد أن يكون، أيضًا، ابن أُمّه الوحيد! فقد جاء يسوع ليكون أخًا شاملاً كونيًّا لكلّ إنسانٍ، بالروح. ومريم العذراء، التي، لكونها أُمّ يسوع، أصبحت أُمّ الكنيسة، وأُمّ البشر، لم يكن ممكنًا أن تكون بشريًّا أُمًّا لأبناءٍ غير يسوع. إنّها شريكة ابنها في الفداء، وكلّ حياتها، بل كلّ لحظةٍ منها، مكرّسةٌ لهذه المهمّة، ولا تتّسع لأيّ اهتمامٍ آخر. ومن ولدت ابن اللّه، كان لا بدّ لها من وقف كلّ ذاتها، وكلّ وجودها، على خدمته وعبادته.

غير أَنّ اليهود، الذين ناصبوا يسوع عداءً شرسًا، وكان يحدوهم، حياله، حقدٌ عنيدٌ، دأبوا، منذ مطلع المسيحيّة، على تشويه صورة مريم، واختلقوا، لذلك، أَبشع الافتراءات. ولكن منذ القرون الأولى، انبرى أَئمّةٌ كبارٌ للذود عن حقيقة بتوليّة مريم الدائمة. وقد كتب البابا سيريسيُس (Cerrice) عام ٣٩٢: «الادّعاء بأَنّه كان لمريم أَبناء غير يسوع إِنّما هو محاولةٌ حثيثةٌ لتدمير حقيقة الإِيمان».

وبين حينٍ وآخر ظهر لليهود حلفاء، ممّن طمست حمأة المادّة نور نفوسهم، وأَوجع أَلق الطهر عيونهم الكليلة، فادّعوا، هم أَيضًا، أَنّ العذراء أَنجبت، بعد يسوع، أَبناءً آخرين، مستندين إِلى ما جاء في إِنجيل مرقس، على لسان أَهل الناصرة، الذين أَزعجهم تفوّق ابن بلدتهم، وبروزه نبيًّا قديرًا، فحاولوا الحطّ من شأنه بقولهم: «أَليس هو النجّار ابن مريم، وأَخا يعقوب، ويوسف، ويهوذا، وسمعان...؟» ولكنّ هؤلاء، باستنادهم إِلى هذا النصّ، قد تجاهلوا ما جاء، أَيضًا، في إِنجيل متّى (٢٧: ٥٦) أَنّ بين النسوة الحاضرات في الجلجلة، كانت مريم المجدليّة، ومريم أُمّ يعقوب ويوسف»، ممّا يدلّ على أَنّ من وصفهم الناصريّون «إِخوة» ليسوع ليسوا أَبناء العذراء، بل أَبناء نسيبة أَو نسيباتٍ لها.

وفضلاً عن ذلك يذكر الإِنجيليّ يوحنّا (١٩: ٢٥) أَنّ عند أَقدام الصليب كانت واقفةً مريم أُمّ يسوع، وأُخت أُمّه، مريم زوجة كليوبا. أَتكون أُختها وتحمل اسمها عينه؟ أَم إِنّ استخدام لفظة «أُخت» تندرج في سياق من سمّوا «إِخوة يسوع» وهم، في الواقع، أَبناء إِخوةٍ ليوسف، أَو أَبناء أَخواتٍ أَو بنات عمّاتٍ لمريم؟ فمن جرّاء خلوّ اللغة الآراميّة من مفردةٍ واحدةٍ تعني ابن العمّ أَو العمّة، أَو ابن الخال أَو الخالة، شاع استخدام مفردة «أَخ»، للتعبير عن صلة القربى هذه، انسجامًا مع الوضع القَبَليّ والعشائريّ السائد، آنذاك.

وقد جاء في سفر الأَخبار الأَوّل (١٢: ٢٩): «ومن بني بنيامين إِخوة شاول ثلاثة آلافٍ، لأَنّ أَكثرهم كان مواليًا لبيت شاول». أَهم، حقًّا، ثلاثة آلاف أَخٍ، بالمعنى الحاليّ لهذه اللفظة؟ أَم إِنّ مفردة «أَخ» لم تكن تعني، حصرًا، من هم من أَبٍ واحدٍ أَو من أُمّ واحدةٍ؟

ويذكر الإِنجيليّ يوحنّا، أَيضًا، أَنّه، إِثر موت يسوع، أَخذ مريم العذراء إِلى بيته، عملاً بوصيّة المصلوب. فلو كان للعذراء أَبناءٌ آخرون غير يسوع، هل كان الفادي

أَوصى أَحد تلاميذه بأُمّه، وأَوكلها إِلى عنايته، وهل كان من شأنها، هي، أَن تترك أَبناءها كي تقيم مع أَحد تلاميذ يسوع؟

وأَخيرًا، يتّضح من الإِنجيل أَنّ من كانوا يدعون «إِخوة يسوع»، كانوا يضمرون له حسدًا وحقدًا، في أَثناء حياته، ولا يؤمنون به. فلو هم كانوا، حقًّا، إِخوةً له، وكانت مريم هي التي ربّتهم، لما قابلوه بهذه المشاعر.

ولا بدّ من التنويه بأَنّ تقليد الكنيسة كلّه قد علّم بتوليّة مريم الدائمة، نتيجة تكريس ذاتها، وهبة كيانها بالكامل للربّ، وحصر كلّ اهتمامها بابنها الإِلهيّ.

وبما أَنّ الجاهدين في تشويه صورة العذراء، وإِنكار بتوليّتها الدائمة هم، غالبًا، من البروتستنتيّين، فلا مناص من التذكير بأَنّ مؤسّسي البروتستنتيّة أَنفسهم كانوا قد اعتنقوا تقليد الكنيسة المؤمن بتوليّة مريم الدائمة.

فمارتن لوثير قال في عظة بتاريخ ٢ شباط ١٥٤٦: «كانت (مريم) عذراء قبل حبلها وولادتها، وظلّت عذراء في ولادتها، وبعد ولادتها».

وفي مناسبةٍ أُخرى كتب لوثير: «ما من امرأةٍ بلغت ما بلغته مريم من قداسةٍ، ولم يوجد، ولن يوجد، يومًا، من بوركت ثمرة أَحشائها مثلها، فما من امرأةٍ سواها لم تحبل بلا شهوةٍ وبلا خطيئةً. «إِنّنا نؤمن بخشوعٍ أَنّ الحبل بمريم، أَي انبثاث النفس فيها قد تمّ بمنأًى عن الخطيئة. فعندما بُثّ فيها الروح، في اللحظة عينها، جُرِّدت من الخطيئة الأَصليّة، وزُيّنت بالمواهب الإِلهيّة كي تتقبّل النفس المقدّسة التي بُثّت فيها. وهكذا، في اللحظة عينها التي بدأت فيها حياتها الشخصيّة، كانت معصومةً من الخطيئة. وهذا ما أَشار إِليه قول الملاك جبرائيل: «مباركةٌ أَنتِ بين النساء» إِذ لم يكن بوسعه أَن يقول «أَنت مباركةٌ» إِن هي كانت تحت اللعنة. ولقد كان حقًّا وعدلاً أَن تكون مصانةً ومنزّهةً من الخطيئة، تلك التي سيستمدّ المسيح جسده من جسدها الذي سيتغلّب على كلّ خطيئةٍ، إِذ لا يُعدّ مباركًا، بالمعنى الحقيقيّ للكلمة، إِلاّ ما أُعطي بالنعمة الإِلهيّة، أَي ما هو منزّهٌ من الخطيئة».

ولم يقلّ زوينغلي تأكيدًا عن لوثير، إِذ أَعلن في مدينة بيرن السويسريّة، في كانون الثاني ١٥٢٨: «إِنّني أَستشهد بكنيسة زوريخ الورعة، وبكتاباتي جميعها، وأَعترف بأَنّ مريم كانت، دائمًا، بتولاً وقدّيسةً». وقال، في مناسبةٍ أُخرى، : «إِنّ المسيح الذي

جاء كي يطهّر جميع البشر، ما كان بوسعه أن يولد إلاّ من عذراء لا لوثة فيها، وكلّيّة الطهر... كان يليق بذلك القدّيس أن يكون له مثل تلك الأُمّ القدّيسة».

وقد أدان كلڤان جميع من ادّعوا أنّه كان للعذراء أبناء غير يسوع، و جاء في إحدى مواعظه التي نشرت عام ١٥٦٢: «إنّ بعض المتخرّصين قد استخلصوا من قول متّى (١:٢٥) عن يوسف: «لم يعرفها حتّى ولدت ابنًا فسمّاه «يسوع»، أنّه كان لمريم أبناء آخرون غير ابن الله، وأنّ يوسف عاد فعرفها. وإنّما هذا الادّعاء هو جنونٌ صرفٌ. فالإنجيليّ لم يبتغِ رواية ما حدث بعد ولادة يسوع، وإنّما اقتصر على تأكيد خضوع يوسف، وعلى أنّ الله، هو، حقًّا، من أنفذ إليه ملاكه. هو، إذن، لم يعاشر مريم، ولم يحفل بذاته، بل حرم نفسه من معاشرة المرأة. لا ريب أنّه كان بوسعه أن يتزوّج أُخرى، ما دام لم يكن بوسعه التمتّع بتلك التي عقد عليها قرانه. غير أنّه آثر التخلّي عن حقّه، والعزوف عن الزواج، مع كونه متزوّجًا. لقد آثر هذه الحال كي ينصرف إلى خدمة الله، زاهدًا في المتعة. لقد صدف عن كلّ ذلك، لكي يخضع خضوعًا كلّيًّا».

إذن، في نظر كلڤان، وسائر الإصلاحيّين، وفي نظر التقليد المسيحيّ الراسخ، لم يكن لمريم ابنٌ سوى ابنٍ واحدٍ، ابن الله الذي كان لها ملء النعمة، وفيض الفرح.

وبالإجمال تندرج بتوليّة مريم في إطار دعوتها الفريدة في الكون، دعوتها المكرّسة كلّيًّا لعمل الله، والمغمورة، على نحوٍ استثنائيٍّ، بنعمة الله، المتطلّعة، بكلّ كيانها، نحو ملكوت الله. مريم الدائمة البتوليّة هي المخلوقة التي اصطفاها الله، وكرّسها، وأغدق عليها امتلاءه، فلم يعد لديها ما تتوقّعه سوى تحقيق ملكوت الله تحقيقًا نهائيًّا. هذا الملكوت كانت تحيا في أجوائه، مسبّقًا، وعلى نحوٍ خفيٍّ.

ومن المحقّق أنّ طهر مريم المطلق، وبتوليّتها الدائمة هما لنا مصدر رجاءٍ جمٍّ بحسب ما يوضح اللاهوتيّ الفرنسيّ الأب «دونكور». (Doncœur)

«لقد علّمتنا الكنيسة أنّ مخلوقًا ظلّ ثابتًا، وسط الضياع الشامل، سويًّا، لم يضطرّ إلى إصلاح اعوجاجٍ، معافًى، لم يحتج إلى شفاءٍ، مستقيمًا لم يحتج إلى تقويمٍ، مخلوقًا لم يعهد، في ينابيع كيانه، سوى النظام والاستقامة.

«وإنّ ما يؤثّر فينا، ما هو ثمينٌ لنا، نحن البشر المنغمسين في صفاقة مغامرتنا

الأَرضيّة، هو أَنّ هذا المخلوق هو العذراء القدّيسة، ولكنّه امرأةٌ من لحمنا ودمنا وليس ملاكًا، غارقةٌ مثلنا، في عالمٍ من الخطيئة، ومع ذلك، كلّيّة النقاء؛ رقيقةٌ، محبّةٌ، متوجّعةٌ مثل كلّ امرأةٍ، ومع ذلك، مستقيمةٌ استقامةً رائعةً. فمع جهلها وتعذّر فهمها لبعض الأُمور، ومع خوفها، وتمزّقها، وجزعها، لم تنحرف أَبدًا، ولو أُنملةً، عن خطّ الاستقامة.

«وهكذا، مهما بلغت بشريّتنا من الانحراف، ومهما كان الكذب شاملاً، ومهما كانت العناصر والهواء مسمّمةً، ومهما ران ثقل سنّة خيانة الروح والجسد، ومهما كان يائسًا عالمنا، حيث يلمح نظرنا، في كلّ مكانٍ، بخرقه سُجُف الظواهر، مساوماتٍ وبيلةً؛ مع ذلك، ثمّة، بين ظهرانينا، وقد كان، يومًا في ما بيننا، كائنٌ نقيٌّ من لحمٍ ودمٍ، غير أَنّه طاهرٌ طهرًا مطلقًا، زمنيٌّ، ومع ذلك، في الحقيقة المطلقة.

«وكيف لا نرتعش حيال هذا الخرق للسنّة القاسية! فإن كان هناك طهرٌ كاملٌ، فهناك، إِذن، تطهيرٌ ممكنٌ. وإِن كان هناك استقامةٌ، فهناك، إِذن، إِمكانيّة تقويمٍ؛ ووسط الانحراف الشامل هناك محورٌ ليس سماويًّا فحسب، بل إِنّه يخترق أَرضنا وجسدنا. أَجل، فالتي حُبل بها بلا دنسٍ هي نقطة الدائرة التي تدور حولها كلّ القضايا الروحيّة، أَي قضايا الروح الخالدة ذات المصير الإِلهيّ، والجسديّة، أَي المتعلّقة بالوضع البشريّ.

«وهنيئًا للإِنسان، سواءٌ كان عالم اجتماعٍ، أَو فنّانًا، أَو كاهنًا، أَو حاكمًا، إِن هو تلقّى في فكره، وحبس في نظره، وأَدخل إِلى محراب قلبه، مبدأ الطهر، وامتلك الجرأة على اتّخاذه منه حَكَمًا، فاستطاع الانعتاق من كلّ لوثةٍ وشبهةٍ، وأَعاد وجهة حياته شطر محور الخليقة الوحيد».

وخير ما نختم به هذا الفصل هو قول البابا بيّوس التاسع عن العذراء، بمناسبة إِعلانه عقيدة الحبل بلا دنس: «إِنّها أَجمل من الجمال، وأَقدس من القداسة. إِنّها بريئةٌ، بل هي البراءة عينها. إِنّها حمامة الجمال الفريدة، الوردة الدائمة التأَلّق، والسعيدة أَبدًا».

صمت العذراء وصلاتها

قال جبران خليل جبران: «القلب يعرف ما لا يقوى لسانٌ على التلفّظ به، وما لن تستطيع آذانٌ سماعه».

وفي الواقع، كلّ ما هو خطيرٌ يولد وينضج في رحم الصمت: الحياة، والموت، والآخرة، والنعمة، والخطيئة.

لولا كلمة اللّه، وبراهين حبّه التي تتجلّى في كلّ لحظةٍ، لظننّا أنّ اللّه لغزٌ. ولكنّ اللّه صمتٌ، وهو يعمل، بصمتٍ، في أعماق النفوس. أَحيانًا يبدو لنا أنّه هجرنا، وإِذ بحدثٍ غير متوقّعٍ يثبت لنا أنّ عنايته لم تتخلَّ عنّا لحظةً، وإِذ بنا ننتشي بحضوره. نعمته تعمل بصمتٍ، وتتغلغل إِلى أَعماق الطبيعة البشريّة المعقّدة.

الشهُب تجتاز الأَجواء في صمتٍ، ولكنّها تلتمع. أَمّا اللّه، فيخطر في قلوب البشر، ولا تبصر له العيون وميضًا. وإِنّ أَكثر ما يستثير إِعجابنا، لدى يسوع وأُمّه، هو تواضعهما الصامت.

ولا جرَم أَنّ من أبرز خصال مريم صمتها. فالصمت يوجز شخصيّتها، وهو زاخرٌ بالمعاني، ويشير إِلى صفاتٍ فائقةٍ: الجاهزيّة، والانفتاح، والعمق، والامتلاء، والخصب، والمنعة، والسيطرة على الذات، والنضج الإِنسانيّ، والتواضع، والوفاء.

مَن من جيرانها استطاع تخمين أَنّ تلك المرأة البسيطة، التي تمضي، كلّ يومٍ، لاجتلاب حطب الطهو والتدفئة، وماء الشرب والغسل، والتي لا تتدخّل بشؤون أَحدٍ، وتمدّ يد العون لكلّ محتاجٍ، كانت ممتلئةً نعمةً، مباركة اللّه، وأُمّ اللّه، وأَنّها تسمو فوق كلّ نساء العالمين؟ هذه الامتيازات كانت خفيّةً حتّى عن أَقرب أَقربائها. أسرارها العظمى ظلّت كامنةً في ثنايا الصمت، ولم يُمَطْ عنها الحجاب إِلاّ في غروب حياتها، خدمةً لرسالة ابنها.

مع كلّ عظمتها، وكلّ ما قيل وكتب عنها، وكلّ ما أُحيطت به من تكريمٍ، لم

يذكر الإِنجيل من أَقوالها سوى سبع عباراتٍ، هي سبع شعل نارٍ انبثقت من أَتّون قلبها.

ففي البشارة، قالت، أَوّلاً: «كيف يكون ذلك، وأَنا لا أَعرف –ولن أَعرف– رجلاً؟» مؤكّدةً التزامها بنذرٍ سرّيٍّ، لم يكن يعلم به سوى الله.

ولّما انجلت لها الحقيقة، وضمنت أَنّ بتوليّتها ستظلّ مصانةً، أَعلنت: «إِنّي أَمَة الربّ». وفي هذا الإِعلان تضطرم شعلة حبٍّ يوحّد أُوثق وحدةٍ المحبّ بالمحبوب، ويحوّله عن كلّ من هو سواه. ثمّ أَعربت عن تواضعها، وإِيمانها، واستسلامها للربّ بقولها: «فليكن لي بحسب قولك».

ثمّ هرعت إِلى زيارة نسيبتها إِليصابات، تحدوها محبّةٌ مجرّدةٌ، وروح الخدمة الراسخ فيها. وقد قدّست شعلة حبّها هذه إِليصابات وأَفعمتها بالروح القدس، فتجلّى لها سرّ التجسّد وهتفت قائلةً لزائرتها: «مباركةٌ أَنتِ في النساء». وقدّست مريم، أَيضًا، جنين إِليصابات الذي لم يكن بوسعه التعبير عن فرحه بلسانه، فردّ برقصه المعبّر عن فرحه واستعداده لأَداء رسالة زائره. وحينئذٍ تدفّقت نفس مريم بنشيد تعظيمٍ للربّ، هو الوحيد من أَقوالها الذي اتّسم بشيءٍ من الإِسهاب، وكان تعبيرًا عن فيض حبّها المبتهج، وعن تسبيحها لله، لا بلسانها، بل بكلّ «نفسها»، مشيدةً بعظمة ما فعله الربّ عندما صار طفلاً فيها، وبواسطتها، فجعلها أَسمى من الملائكة.

وفي الثانية عشرة من عمره، توارى يسوع في الهيكل، مسبّبًا لأُمّه وليوسف جزَعًا مميتًا. ولّما عثرا عليه، في اليوم الثالث، يذكر الإِنجيل قول أُمّه له: «لمَ صنعت بنا، هكذا، يا بنيّ؟». تسميتها له: «يا بنيّ»، وهي عالمةٌ أَنّه ابن الله، أَيضًا، تترقرق عذوبةً ورقّةً، وتنطوي على كلّ حبّ الأُمّ. وفي عتاب مريم ليسوع تعبيرٌ عن مرارة غياب الله.

ثمّ، في قانا، تلفّظت العذراء بقولَيْن: أَحدهما ينمّ عن تعاطفٍ رقيقٍ، وعنايةٍ ساهرةٍ: «لم يبقَ عندهم خمرٌ». هذه العبارة ما انفكّت العذراء، في سمائها تهمس بها لابنها، كلّما لمست لدى أَبنائها مرارة فقدانهم طعم الله، وبؤس شعورهم بالخطيئة، ونفاد خمرة الحياة الروحيّة، خمرة البراءة والفرح.

قولها السابع هو حكمةٌ خالدةٌ، وقاعدة سلوكٍ تصلح لكلّ امرئٍ، في كلّ عصرٍ

وزمانٍ. فما قالته لخَدَم عرس قانا، تقوله لكلٍّ منّا: «افعلوا كلّ ما يقوله لكم». أي أطيعوا المشيئة الإلهيّة طاعةً يقودها الحبّ، طاعةً تعبّر عن الحبّ وتؤكّده، طاعةً تعظم وتترسّخ بقدر ما يعظم الحبّ، وإنّ لفي ذلك خلاصكم.

بعد ذلك، لم يذكر الإنجيل للعذراء قولاً، فتلك التي احتوت الكلمة لم تكن في حاجةٍ إلى كلام. إذ مذْ باشر ابنها رسالته العلنيّة، حرصت على أن يكون الكلمة هو المتكلّم الوحيد، في حين هي اختلت كي تُشبع كلّ ما خزنته في صدرها، من أحداثه وأفعاله وأقواله، تأمّلاً وتقصّيًا.

وكان آخر ظهورٍ لها عند أقدام صليب ابنها، حيث وقفت صامتةً، وقد سُمّرت مع ابنها، على صليبٍ واحدٍ.

يقول الكردينال «دي بيرول» (de Bérulle): «الصمت قَدَر مريم، وهو حالها، وطريقها، وحياتها. حياتها حياة صمتٍ يعبد الكلمة الأبديّة. فإذ كانت ترمق أمام عينيها، وفي أحشائها، وبين ذراعيها، هذه الكلمة، كلمة الآب الجوهريّة البكماء، التي تسجنها طفولتها في الصمت. كانت تلج في صمتٍ جديدٍ، متحوّلةً فيه، على صورة ابنها، الكلمة المتجسّد، إلهها وحبّها الأوحد. وهكذا كرّت حياتها من صمتٍ إلى صمتٍ، من صمت حبٍّ، إلى صمت تحوّلٍ».

إيمانها الصافي زجّها في هوّةٍ من الصمت السحيق، ونأى بها عن كلّ ما ليس الله. صمتها ناتجٌ عن معاهدةٍ سرّيّةٍ بينها وبين الله. صمتت حبًّا، فباتت أكثر جاهزيّةً، وأشدّ تيقّظًا لحضور الله المحبّ. وبصمتها كرّست ذاتها لخدمة الله في كلّ ما أناطه بها من مهمّاتٍ. وهل من مهمّةٍ أكثر إلزامًا واقتضاءً، وفي الآن عينه، أرفع نبلاً، وأجمل من إعطاء الله دمًا وجسدًا؟

الأقوال القليلة التي تلفّظت بها مريم، أخصبها الصمت، ومسيرتها درجت على وقع حفظ كلّ شيءٍ في قلبها. بتأمّلها الخاشع كانت تتوغّل، أعمق فأعمق، في كلمة الله، محوّلةً، من الداخل، كلّ أحداث درب إيمانها إلى «عظائم» تنشد لها، نشيد تعظيمٍ لله لا ينقطع. كانت تدرك أنّ الحبّ يقوم على الصمت أكثر من قيامه على الأقوال. لذلك قال فيها يسوع: «طوبى لمن يسمعون كلمة الله ويحفظونها». صمت مريم يسكنه الكلمة باستمرارٍ، ويغذّي حوارها مع الله.

كانت نفس مريم التربة الطيّبة التي تلقّت كلمة الله بقلبٍ طيّبٍ مستقيمٍ، وأخصبها الصمت والتأمّل، فآتت ثمرًا وفيرًا. كلّ يومٍ، كانت تكتشف جديدًا عن ابنها، الذي لا يحيط بغنى جوهره إدراكٌ. وكلّ ما خبرته في البشارة، وفي زيارتها لإليصابات، وساعة ولادة يسوع في بيت لحم، وطيلة حياة يسوع الخفيّة، وحياته العلنيّة، حتّى الجلجلة، كان موضوع تأمّلٍ، واستنارةٍ، وعبادةٍ، وتسبيحٍ، ووفاءٍ، وفرحٍ.

يقول أوريجينُس: «لم تكن العذراء تتقبّل أيّ شيءٍ ممّا يُقال ويحدث، على عواهنه، ولكنّها كانت تحفظ كلّ شيءٍ في ذاتها. كانت تدرك، روحيًّا، قسطًا منه، وتستقصي معنى القسط الباقي، موقنةً أنّه سيحين وقتٌ يتجلّى فيه، في المسيح، ما كان خفيًّا». وقد تجلّى الخفيّ في الفصح. إذّاك تحقّقت مرامي الله. والسرّ الذي عمل من أجله، منذ فجر العالم، أسفر عن كوامنه. الفصح أبرز أنّ الصليب كان إعلان الله الحبّ، الحبّ الذي يدفع إلى الموت من أجل تفجير الحياة.

أحسنت مريم الصمت لأنّها أحسنت الإصغاء، والإصغاء هو العمل الأسمى والأندر، والأخطر شأنًا، والأكثر لزومًا. ووحده الصمت يعلن أعماق الحياة.

من لا ينصت لا ينفذ إليه النور، ومن لا ينسلخ عن ذاته لا يقوى على «القفز فوق خياله، كي يرتمي في شمسه» على حدّ تعبير نيتشه.

مريم هي تلميذة الكلمة، وتحفظ في قلبها كلّ أقوال ابنها. تسمع وتؤمن، وتهب ذاتها، وتنساب في أعماق ابنها، مردّدةً مع صاحب نشيد الأناشيد: «أسمعني صوتك، فصوتك يترقرق عذوبةً».

كلّ أوتار كيانها كانت تدوّي بهذا النداء، حيث كلّ حياتها تصغي إلى الحقيقة الوحيدة: يسوع، ولا أحد غير يسوع.

جسدها هو مهد الكلمة الأبديّ، المنبثق من نبع نفسها المختوم. وكلّ قدراتها تدوّي بالأسرار التي تتحقّق في صمت الله، فيما هي غارقةٌ في نور ابنها الإلهيّ. لا خاطرة فيها، ولا قول يحدّان من لانهائيّة الفائق الوصف الثاوي فيها، حيث لا يحجب ظلٌّ تألّق النور.

إنّها لا تدرك ما يستطيع اللامحدود استيعابه، ولا رغبة لديها في إدراكه.

الظروف النادرة التي تظهر فيها مريم، في حياة المخلّص، تؤكّد امّحاءها السحيق.

وعقب صعود يسوع إلى السماء، فيما كان الرسل يبشّرون، كان صمتها يقود النفوس إلى الحكمة التي هي أُمّها.

صمتها كان مثقلاً بالحبّ، وما أَسعد المحبّين الذين يتبادلون صمتًا مثقلاً بالتعبير!

لقد مارست مريم الصمت المقدّس والإِصغاء، كما لم يمارسهما أَحدٌ، قطّ. وما الصمت المقدّس سوى كلامٍ بلغ كثافته القصوى. وهو يحيق بمريم مثل هالة مجدٍ فريدةٍ. فقلبها كان البوتقة التي يُصفّى فيها ذهب كلّ قولٍ.

قال أَحد الآباء: «حبّ الصمت يقود إِلى صمت الحبّ». ولدى مريم، حبّ الكلمة يُحدث الفعل عينه، فهي تحمل الكلمة، وتبلّغها، وهي في عزلة صمتٍ دهشٍ، عاشقٍ.

إِنّ الصمت الداخليّ الصوفيّ، الناجم عن كثافة الإِيمان المحبّ، ليس استكانةً وتوانيًا، بل هو ثمرة قلبٍ يحبّ بكثافةٍ. إِنّه تعبيرٌ طبيعيٌّ عن الفهم الذي تلقّى سرّ الآب. ووجود هذا السرّ في القلب يضفي عليه بعدًا خاصًّا، وكثافة صمتٍ داخليٍّ.

وقد كان صمت مريم صمت عبادةٍ، الصمت الذي يواكب التضحيات الكبرى. والكنز الذي كانت مريم تحمله في داخلها قد نما في نوعٍ من الصمت هو صمت الهوى.

ولطالما عرَّض مريمَ صمتُها إِلى اتّهاماتٍ ومهالك، ولكنّها التزمت به، وهي واثقةٌ أَنّ الذي حفظت سرّه، سيقيم، في الوقت الملائم، وبالوسائل التي هو يراها، دليل براءتها.

السرّ لا يُلمَس، ولا يخضع لتحليلٍ، بل يُقبَل ببساطةٍ، في الصمت. وهذا ما فعلته مريم.

والصمت هو البيئة المثلى للتأمّل، ولمحاورة الله. وصمت مريم كان عبادةً، ونشيد تمجيدٍ. وفي هذا السياق كتبت الأُخت إِليزابيت الثالوث: «نشيد التمجيد هو نفسٌ صامتةٌ، مستسلمةٌ استسلام القيثارة للمسات الروح القدس السرّيّة، لكي يستخرج منها أَنغامًا إِلهيّةً. نشيد التسبيح هو نفسٌ محدّقةٌ إِلى الله، في الإِيمان والبساطة... نفسٌ تتيح للكائن الإِلهيّ أَن يروي فيها عطشه إِلى منح كلّ ذاته... وأَخيرًا نشيد

التمجيد هو كائنٌ يحيا، دائمًا، في فعل شكرٍ». ومَن، أَكثر من مريم، تنطبق عليه هذه الأَوصاف؟

«العبادة هي كلمةٌ من السماء، إِنّها انخطاف حبٍّ. إِنّها الحبّ الذي سحقه جمال المحبوب، وقوّته، وعظمته الجمّة».

يقول اللاهوتيّ «أُرس فون بلتزار» (Urs Von BALTHASAR): «ليست العبادة عملاً إِراديًّا يعتمده المخلوق بناءً على نشاطٍ فكريٍّ. بل هي تفرض ذاتها حيثما يُظهر الحبّ الأَبديّ ذاته، في حضورٍ يتخطّى الإِدراك، وفي لفتةٍ صوب الإِنسان تفوق الوصف». ومن المحقّق أَنّ المغمورة بالنعمة قد عاشت هذه الفتنة، في أَسمى مراقيها.

وعبادة العذراء هي فيض فرحٍ. ويفسّر لوثير فرح العذراء بقوله: «الإِيمان وحده مصدر فرحها. فمريم لا تتوقّف عند ما حباها الله به من آلاء محسوسة. بل هي تبتهج بالله مخلّصها، الذي يعلنه لها الإِيمان وحده. إِنّ قلب مريم هو النموذج الأَمثل للقلوب المستقيمة، المتواضعة، المتجرّدة، الجائعة إِلى الله، والتي تخشاه».

وعبادة مريم هي قمّة الشكر عن المعجزة التي تحقّقت في أَحشائها، والتي ستنسحب على جميع البشر، فهي جزءٌ من مشروع الله الخلاصيّ. من خلالها، كانت الخليقة تشيد بشكر الخالق.

العذراء هي نموذج المصلّين بامتيازٍ. وفي هذا السياق يقول البابا يوحنّا بولس الثاني: «يا مريم علّمينا الصلاة! على غرار مريم، فلندعْ حُميّا الروح القدس تسكننا! كثيرون منّا قد اكتشفوا فرح الصلاة: أَي التفكير في الله وحبّه، وتسبيحه جماعيًّا، والإِصغاء إِلى كلمته. ليس غرض الصلاة الأَوّل هو إِرضاؤنا، بل هو تجرّدنا من ذواتنا كي نكون بتصرّف الربّ، وإِتاحتنا له أَن يصلّي فينا. الصلاة هي تنفّس الكنيسة، وهي تجعلها على تناغمٍ مع الله. إِنّها تقوم بخدمةٍ جوهريّةٍ في الكنيسة، خدمة التسبيح، والخدمة التي تمكّن البشر من الانفتاح على المخلّص. إِنّها في منبع التزامنا وفي مصبّه. فعسانا أَلاّ نفصل أَبدًا العمل عن التأمّل». «إِنّ الروح القدس يوحي بالصلاة لقلب الإِنسان، في شتّى الأَوضاع والظروف الملائمة أَو المعاكسة للحياة الروحيّة والدينيّة، وتظلّ الصلاة، دائمًا، هي صوت من لا صوت لهم، ظاهريًّا...»

عندما شاء الله غرس الحياة التأمّليّة على الأَرض، لم يختر، لهذا الغرض، عالمًا

أَو فيلسوفًا، بل غرسها في قلب أُمٍّ. اتّخذ قلب فتاةٍ صغيرةٍ، وجعل منه قلب أُمٍّ، فأَمست كلّ حياة مريم مرهونةً له. وارتضت ذرى عقلها أَن تصمت، كي يستحوذ الحبّ على كلّ شيءٍ. وقد استحوذ الحبّ، فعلاً، على كلّ قواها الحيّة: قلبها، وكلّ طاقاتها، وقدراتها، ومشاعرها. وغدت حياتها كلّها وقفًا على خدمة اللّه.

سلّمت مريم ذاتها كلّها للآب، بصفتها ابنته الصغرى، فتأهّلت لتلقّي كنزه ببساطةٍ مطلقةٍ. ولأَنّها تلقّته بهذا الطهر أَصبحت حياتها كلّها في خدمة اللّه، مسخّرةً لهذه الخدمة كلّ طاقات الطبيعة البشريّة الحيّة.

لقد قضت حياتها على الأَرض تتأمّل سرّ يسوع، وتردّد اسمه، وما أَجمل صلاتها: «تسبّح نفسي الربّ...»! فهي لا تنظر إِلى ذاتها، بل إِلى من هي مدينةٌ له بكلّ نعمةٍ أُوتِيَتْها.

مريم هي المتأمّلة بامتياز، المكرّسة كلّيّةً للّه، لا تحدّق إِلاّ إِليه، وفي الآن عينه يقتضي منها اللّه خدمة الأُمومة على أَكمل وجه. مريم هي «أُمٌّ» أَكثر من أَيّة أُمٍّ أُخرى. أُمومتها معجزةٌ، وتستغلّ، فيها، أَكثر من أَيّة امرأةٍ أُخرى، كلّ ثروات الطبيعة البشريّة، من غير أَن تنقص شيئًا من موقفها التأمّليّ. المقتضيان يقترنان فيها، على غير تضاربٍ، لأَنّ خدمتها الأُموميّة تندرج في فقرٍ إِنجيليٍّ تامٍّ، ولا تلطّخ، في شيءٍ، طهر قلبها. ومن ثمّ، تتيح الخدمة الأُموميّة لتأمّل مريم أَن يكون أَعمق، وأَن يُشعّ على حياتها كلّها. وبفضل هذه الخدمة، تمارس مريم تأمّلاً كاملاً يحدوها إِليه اندفاعٌ منبثقٌ من أَغوار جوهرها. كلّ شيءٍ في مريم متّجهٌ فقط نحو اللّه. فابنها هو إِلهها. وبمقدار ما ينغرس ابنها فيها، يستحوذ على كلّ قوى أُمّه الحيّة، وفي الآن عينه، يزداد تحديق مريم إِلى إِلهها.

في البشارة، تلقّت مريم عطيّة الآب التي استولت على كلّ كيانها. وهي حملت عطيّة اللّه، متقبّلةً إِيّاها، في إِيمانها، وغامرةً إِيّاها برقّة أُمومتها. وفي الآن عينه حملتها هذه العطيّة، وغمرتها بحبٍّ، وحوّلت حياتها، بل كانت لها مصدر حياة.

البشارة تحقّقت، جوهريًّا، في قلب مريم المضطرم. وليست المظاهر والرموز الخارجيّة هي التي صنعت عظمة البشارة، بل تلك الشعلة الملتهبة المتصاعدة من صميم قلب مريم، صوب الآب.

وفي البشارة نعمت مريم بمواهب ثلاثيّةٍ:

– الحياة التأمّليّة: أَي توقّع الملكوت، وإِعداد التربة له. وعلى كلّ مؤمنٍ أَن يحذو حذوها، فيُعدّ، كلّ يومٍ، تربته ويحرثها. فبذرة الملكوت تهبط من السماء، ولكنّها لا تُنبت صلاحًا وقداسةً، إلاّ في تربةٍ أُعدّت إِعدادًا جيّدًا، حثيثًا، بلا هوادةٍ، ولا توانٍ.

مريم تدخلنا إِلى وجودٍ جديدٍ، من غير أَن تقسرنا على مبارحة الأَرض. إِنّها تنتظر، غير أَنّ من تنتظره ثاوٍ في أَحشائها.

– وقد أُنعم على مريم بمواكبةٍ إِلهيّةٍ، هي التي قال لها الملاك المبشّر: «الربّ معكِ».

المسيحيّ إِنسانٌ مرافَقٌ. فليس التأمّل هروبًا، وتيهًا في الخيال، وبحثًا محمومًا عن أَحاسيس داخليّةٍ خارقةٍ. بل هو عزمٌ على الولوج في الصمت، حيث ليس جوهر الحياة ابتداع أَفكارٍ ساميةٍ، بل تلقٍّ، وإِصغاءٌ، وحبٌّ، وسعادةٌ بحبّ الآخرين، وتواضعٌ غالبًا ما يجهل نفسه. وهو الشعور بأَنّ آخَرَ أَرفع وأَقوى منّا يحملنا. وهذا ما يميّز المسيحيّة. فهي ليست مجرّد بحثٍ عن الله. إِذ إِنّ الإِنسانيّة مدعوّةٌ، مع مريم، إِلى اكتشاف شيءٍ آخر. إِنّ مريم تحمل الله، ابنًا لها، ولكنّه، هو أَيضًا، يحملها، ليس فقط كمرشدٍ، أَو كنبيٍّ بين الأَنبياء. فهو ليس دربًا بين الدروب، بل هو الطريق، والحقّ، والحياة. وليس هو الحيّ فحسب، بل هو الحياة التي تسير على وقع خطانا، وتتوافق مع بطئنا ووهننا.

وقد يكون ما نفعله جميلاً، ولكنّه لن يكون مسيحيًّا إِن لم يُفضِ إِلى التأمّل والعبادة.

– وقد أُنعم على مريم بهبة الله ذاته لها، كما يهبها لكلّ مؤمنٍ. إِنّ لله ابنًا مساويًا لذاته، وروحًا هو ثمرة حبّه لهذا الابن. الابن هو كلمة الآب، وقد أُرسل إِلى الأَرض. وبما أَنّ الكلمة صار جسدًا وأُعطيناه، فإِذن، نحن مدعوّون إِلى الدخول في لغته، وإِلى محاورته. وكما أَنّ ابن العذراء سكنها، نحن، أَيضًا، يسكننا الله. وعلى حياتنا أَن تندرج في إِطار هذه السكنى، إِذ إِنّنا مدعوّون إِلى التألّه. وفي هذا الشأن قال خوري أرس: «نحن موضع بهجة أَقانيم الثالوث، نحن مسكن الله».

وما لم نشعر بهذه السكنى، فنحن، بعدُ، عند عتبة مسيحيّتنا، ومعرَّضون لغزو دياناتٍ أُخرى لأذهاننا وقلوبنا.

ولا ريب أنّ بتوليّة مريم كانت خير عونٍ لها على الاستغراق في الحياة التأمّليّة. فالبتوليّة هي انعتاقٌ من كلّ الأهواء التي تشتّت النفس، وتجرّدٌ من الأنانيّة، ومن كلّ ما ليس الله. البتوليّة صمتٌ وخلوةٌ. وقد كانت فترة حمل مريم لابن الله خبرةً فريدةً أدخلتها إلى أعماق سرّ الحياة التأمّليّة، إذ «حين شمل كلّ شيءٍ هدوء السكوت، وانتصف مسير الليل، هجمت كلمتك القديرة من السماء، من العروش الملكيّة، على أرض الخراب». (حكمة ١٨: ١٤-١٥)

وفي أحشاء بتولٍ صامتةٍ، مختليةٍ، خاشعةٍ، تحقّقت المعجزة، بلا ضجيجٍ ولا تظاهرٍ. لا شيء تغيّر في مريم سوى أنّ نفسها امتلأت بالله، وبنعمه، وازدادت خشوعًا وانكفاءً على داخلها، كي تحيا، بمزيدٍ من الكثافة، حضورًا فريدًا، حضور ملء الروح، والكلمة الأزليّ. وطيلة تسعة أشهرٍ، عاشت في تواصلٍ دائمٍ، وتكافلٍ مع ذاك الذي كان ينمو في أحشائها. كانا كائنين يسوقان حياةً واحدةً، أو كانا حياةً واحدةً في كائنين.

خبرةٌ فريدةٌ لم يحدث، قطُّ، لها نظيرٌ، ولن تتكرّر أبدًا، خاضتها مريم التي، سحابة تلك الأشهر التسعة، وأينما مضت، ومهما فعلت، كانت تائهةً في أعماق خالقها الذي أمسى ابنها، مركّزةً فيه كلّ كيانها، متماهيةً مع من هو حياة حياتها، وروح روحها.

من المؤكّد أنّه لم يتهيّأ، قطّ، ولن يتسنّى أبدًا لأُمٍّ بشريّةٍ أن تحيا مثل هذا الامتلاء، ومثل هذه الكثافة الوجوديّة.

لقد كانت مريم من الناصرة، والناصرة قريةٌ مغمورةٌ مغفلةٌ، لم يرد لها ذكرٌ في كتب التاريخ، ولا موقعٌ على خرائط الجغرافيا. ورد ذكرها في الإنجيل، عابرًا، مقترنًا بسخريَّة نثنائيل: «أمن الناصرة يمكن أن يخرج شيءٌ صالحٌ؟». حتّى في منشئها هي صمتٌ وإغفالٌ.

الصمت يخيّم على مكان مولدها وتاريخه، وعلى ظروف موتها. الصمت يغلّف كلّ ما يحيق بها. لولا الأناجيل المنحولة لما علمنا أنّ والديها هما يواكيم وحنّة. اسمها

يخطر في الإِنجيل خطور طيفٍ عابرٍ. وحدهما لوقا ومتّى يأتيان على ذكرها، لمامًا، ولكأنّهما يتحدّثان عن شمعدانٍ وظيفته إِبراز النور. والنور هو ابنها يسوع. وعندما هي باحت ببعض أَسرارها تحدّثت عن يوسف، وزكريّا، وإِليصابات، والملائكة، والرعاة والمجوس، ولكنّها لم تذكر عن ذاتها سوى النزر اليسير. ولكنّها كانت دائمًا حاضرةً في الساعات الحاسمة: في قانا، حيث عرَّفت العالم بقدرات ابنها الإِلهيّة، وفي كفرناحوم حيث هرعت للاطمئنان عن يسوع، وفي الجلجلة، وفي العلّيّة. وهي، غالبًا، حاضرةٌ، صامتةٌ.

حتّى بولس الذي قال إِنّ الله أَرسل ابنه مولودًا من امرأةٍ، أَمسك عن ذكر اسم مريم. ولكأنّ الكتّاب الملهمين الذين دوّنوا أَسفار العهد الجديد، قد احترموا صمتها، وتضامنوا مع كتمانها، فلم يشيروا إِليها إِلاّ بأَسطرٍ معدوداتٍ. وحتّى هذه الأَسطر تبدو مغلّفةً بحجابٍ، وكأنّ لا وجود لمريم إِلاّ في علاقتها بابنها. شفافيّتها فائقةٌ، وتواضعها مطلقٌ. إِنّها دائبةٌ على الامّحاء، بقدر ما نحن نجهد في التظاهر.

إِنّها مثل زجاجٍ صافٍ، نرى، من خلاله، الله وروائعه، وهي صامتةٌ، غائصةٌ في ليل التواضع، متربّصةٌ بكلّ سانحةٍ للتضحية والرجاء، مزدانةٌ، أَبدًا، بسنى الابن، وتعبّر عن علاقةٍ دائمةٍ مع كائنٍ علويٍّ. إِنّها «صمتٌ فتّانٌ». إِنّها الأُمّ التي تضيع، بصمتٍ، في ابنها.

مريم تحفظ الأَشياء في قلبها وتتأمّلها، أَي إِنّها تبقى وفيّةً لها حتّى تحقيقها تحقيقًا سيدهشها. فالله يُدهش، دائمًا، من يدعوهم.

ومن ميزات الإِيمان التأمّلي واقعيّته. فالآب الذي كشف لمريم عن سرّه، أَدخلها إِلى رحابه. فالله لا يعلن لنا شيئًا ويبقينا غرباء عنه. بل كلّما كشف لنا سرًّا أَدخلنا إِلى أَغواره، وأَفهمنا أَنّه يعطيناه. وكلمة الله عندما أُعطي لمريم، استحوذ على كلّ طبيعتها البشريّة، استحواذ ابنٍ على أُمّه.

الإِيمان التأمّليّ الذي يتحقّق بوحي الروح القدس، إِيمانٌ محبٌّ يُلزم حياتنا كلّها، ويستحوذ على كلّ شيءٍ فينا. ذاك كان إِيمان مريم، وقد أَدخلها إِلى صمتٍ كلّيٍّ. فالصمت هو صفة هذا الإِيمان وثمرته. وكان على مريم، إِثر تلقّيها كلمة الآب، أَن تلتزم الصمت.

وكما أَنّ هناك استسلام الصغار بالمعنى الإِنجيليّ للصغَر، هناك تأمّلٌ خاصٌّ بهم، تأمّلٌ يتحقّق ويزدهر في الصمت الداخليّ، الإِلهيّ، نتيجة كثافة الإِيمان التأمّليّ وصفائه. في الصمت يُمارَس الإِيمان المحبّ ممارسةً كاملةً. هذا الإِيمان فقط هو الذي يحظى بعطيّة الآب، وبسرّه الجوهريّ.

ومعرفة الإِيمان هي معرفةٌ عاطفيّةٌ. فقلب الطفل الذي يتلقّى الآب وهو موقنٌ أَنّ هذا الآب يحبّه، يرى في كلّ كلمةٍ إِلهيّةٍ، رباطًا يشدّه إِلى الآب. وهذا ما نشهده في البشارة، حيث أَدخل الآب مريم إِلى حميميّة ذاته، بمنحها سرّه، ابنه، سرّه الجوهريّ، سرّه الذاتيّ، سرّ حياته الأَبديّة.

ومريم، إِثر تلقّيها السرّ الإِلهيّ، صمتت كي تحياه بعمقٍ، غير متسائلةٍ هل أَحدٌ سواها مطّلعٌ عليه. فكلّ فضولٍ قد يحول دون حفظها سرَّ الله، بما يستأهله من حرصٍ.

والطفل يسوع، يسوع الوليد، سما بمريم أُمّه، وأَلّه كلّ حواسّها. وهي، كلّما تأمّلته، اضطرم قلبها، وغرق في الخشوع، فهو لها حضور الله الحقّ، وهو يلهمها معنًى قشيبًا للجمال. إِنّه تحفة الحكمة التي تفعم نفسها حبورًا. ولا فرق لديها بين التحديق إِليه ومخاطبته، والإِنصات إِليه، من جانبٍ، والصلاة في صمتٍ وخشوعٍ، من جانبٍ آخر.

ومن هوّة القلب البشريّ السحيقة، من ذلك العمق الذي حفره الله، والذي يسع الله وحده ملأه بواسطة الروح القدس، تمسي الصلاة تعبيرًا لا ينفكّ يزداد نضجًا، عن الإِنسان الجديد، الذي، من خلالها، يسهم في الحياة الإِلهيّة.

الروح القدس هو سيّد الصلاة، الضيف الداخليّ، الصديق الحاضر دائمًا، مرشد حياتنا الأَمثل نحو نور الإِيمان. وفي نفس مريم كان كلّ شيءٍ انفتاحًا على عمل الروح القدس. لذلك سُمّيَت «الممتلئة نعمةً»، وأَمست حياتها كلّها تسبيحًا لله. وحريٌّ بنا أَن نقتدي بها، كي تصبح حياتنا نشيد تسبيحٍ، حتّى في أَقسى نوبات الأَلم والشدّة.

من استقراء الإِنجيل، نقف على عدّة نماذج لصلاة العذراء:

– صلاة التماسٍ للفهم: كيف ستحمل وهي لا تعرف – ولن تعرف – رجلاً؟

– صلاة إِرادةٍ وتسليمٍ: ها أَنذا أَمَة الربّ، فليكن لي بحسب قولك.

– صلاة شكرٍ: تعظّم نفسي الربّ...

– صلاة استسلامٍ للروح القدس: لمّا عثرت على يسوع في الهيكل، ومع أَنّها لم تفهم مليًّا ما قال لها، «كانت تتأمّل كلّ تلك الأُمور في قلبها».

– صلاة وساطةٍ، في قانا: لقد نفد مخزونهم من الخمر.

– صلاةٌ جماعيّةٌ في العلّيّة، بانتظار حلول الروح القدس، صلاة إِجماعٍ ومثابرةٍ.

صلاة مريم ليست مجرّد صلاة أُمٍّ، ابنها هو الله، بل هي، أَيضًا، صلاة عبادة امرأةٍ تمثّل البشريّة، صلاةٌ مشتركةٌ مع الكنيسة جمعاء.

ثمّة من ينعون رتابة حياة يسوع وأُمّه الخفيّة، وانصرامها في الظلّ. وفي هذا الشأن يقول بوسُّويه، ساخرًا: «إِنّ الذين تضايقهم حياة يسوع الخفيّة، ويخجلون من قضائه حياته في الظلّ على نحوٍ مزرٍ، تضايقهم كذلك حياة مريم الخفيّة، ويودّون أَن يعزوا لها عجائب مستمرّةً. ولكن، فلنصغِ إِلى الإِنجيل يقول: «كانت مريم تحفظ كلّ هذه الأُمور في قلبها». (لوقا ٢ : ٥١)

كانت تحفظ تلك الأَقوال والأَفعال في قلبها، لكي تعلنها، لاحقًا، على الملأ. بتأمّلها الوئيد المطّرد، كانت مريم تتبيّن أَنّ كلّ ما أَعلنه الأَنبياء يتحقّق في قلبها، ويشير إِلى المستقبل. كانت تعي أَنّ ما أَخبأته في قلبها سيُعلَن على الملأ. كانت تصبح، في قلبها، نبيّةً، ولذلك وصفها القدّيس أُوغسطينُس بأَنّها «كمال الأَنبياء». وقد قال أَحد آباء الكنيسة اليونانيّة: «كلّ ما تفوّه به الربّ عدّته مريم جديرًا باهتمامٍ قدسيٍّ. وقد أَخبأته في صميم قلبها، وهي تعي أَنّ هذه الأَقوال إِنّما هي بذورٌ وتلميحاتٌ واضحةُ الإِشارة إِلى أَعمالٍ إِلهيّةٍ محقّقةٍ يتعذّر التعبير عنها».

ولذلك، منذ القِدَم، كرّم المسيحيّون قلب مريم الذي عدّوه «الإِناء المقدّس الذي يحتوي كلّ الأَسرار» الإِناء المفعم روحًا.

وأَليس اهتمامًا كريمًا أَن تحفظ مريم، في قلبها، كلّ ما رأته وسمعته من ابنها الإِلهيّ؟ وإِن هي كانت قد تذوّقت عذوبةً جمّةً في العناية بأَسرار طفولته، فأَيّة عذوبةٍ تذوّقت باهتمامها بكلّ حياته! لقد كان يسوع هو موضع تأمّل مريم...

حياة يسوع ومريم الخفيّة هي درسٌ لنا في الخشوع والصمت والصلاة، والتواضع. فالعذراء لم تدّعِ، يومًا، تولّي الدور الأوّل. لقد تلقّت نجوى سرٍّ علويٍّ، وحرصت على كتمانه، طالما كان التلاميذ عاجزين عن فهمه. وقد جعلت من هذا السرّ، ومن حياة ابنها، موضع تأمّلها وصلاتها. ولم يكن صمتها انغلاقًا، بل كان جاهزيّةً وصلاةً. وقد عاشت امّحاءها في حميميّة الروح القدس المشعّة.

يقول البابا يوحنّا بولس الثاني: «نشيد العذراء، أثناء زيارتها لإليصابات، كان صلاةً بامتيازٍ. وما انفكّ حضورها مصلّيةً في الكنيسة الوليدة، وفي كنيسة كلّ زمنٍ. فبارتقائها إلى السماء، لم تتخلَّ عن رسالتها، رسالة الشفاعة والخلاص».

حياة العذراء، على الأرض، كانت تأمّلاً وصلاةً، وعبادةً، وهي كذلك في السماء. وهل السماء سوى مشاهدة الله، ومحاورته وعبادته؟ وبفضل صلاتها وعبادتها هي خير شفيعةٍ للبشر. فتلك التي أَمست، في السماء، كلّيّة القدرة، تنحني من عليائها على دنيانا الفانية، لكي تعلن حقيقة كيانها. فعلى غرار الربّ الذي تجلّى، تحوّلت مريم كائنًا سماويًّا وأرضيًّا في آنٍ واحدٍ. وبقدر ما امّحت على الأرض، وحرصت على أن تكون «الأَمَة المتواضعة»، الصامتة، ستطوّبها الأجيال كلّها.

جمال مريم

قال البابا بولس السادس عن مريم إِنّها: «تحفة الجمال البشريّ الناجم عن قدرتها المنقطعة النظير على التعبير عن الروح في الجسد، وعلى إبراز الشبه الإِلهيّ في محيًّا بشريٍّ، والجمال اللامرئيّ، في صورةٍ جسديّةٍ».

وثمّة إِجماعٌ على أَنّ جمال مريم البشريّ هو أَطهر ما في الوجود من جمالٍ، وأَكثره تناغمًا وكمالاً. وقد كتب القدّيس أندراوس الأورشليميّ: «إِنّ مريم، في جسدها، هي جوهرة البتوليّة الأَوفر نقاءً. إِنّها سماءٌ رائعةٌ، صورةٌ حسّيّةٌ للجمال الأَسمى، تمثالٌ حيٌّ نحته اللّه بنفسه. إِنّها تحفة الطبيعة والنعمة، ملائكيّةٌ في جسدها، وأَكثر ملائكيّةً في نفسها. بما أَنّ الربّ أَعدّها لتكون أُمّه، فقد صاغها بحيث يستطيع مخاطبتها بقول نشيد الأَناشيد: «إِنّك كلّيّة الجمال، يا حبيبتي، ولا عيب فيكِ».

الملاك جبرائيل سمّاها «الممتلئة نعمةً». وهذا يعني المغمورة بالمواهب والامتيازات الإِلهيّة، ويعني، أَيضًا، الكلّيّة الجمال، والرقّة، والفتنة.

إِنّها الأُمّ الوحيدة التي اختارها اللّه ليكون ابنها، وزيّنها مسبّقًا بكلّ جمالٍ، إِنّها الصلصال الذي عجنته يدا الفنّان الإِلهيّ، وصاغته على أَروع رواءٍ، فإِذا بها تعكس، حقًّا، صورة الجمال المطلق الأَصيل.

إِنّها جوهرة الثالوث، وأَجمل زهرةٍ فيه. وقد دمغها اللّه بختمه، منذ لحظة وجودها الأولى.

فيها تتألّق صيغة الجمال الحقيقيّة والنقيّة، جمالٌ لا زيف فيه، ولا شائبة، جمالٌ هو بهاء الحقيقة، وانعكاس الطيبة، هو كمالٌ وتناغمٌ، هو بساطةٌ وشفافيّةٌ.

التطويبات التي أَعلنها يسوع استلهمها ممّا شاهده في أُمّه، ومن إِعجابه ببساطتها، وتواضعها، وبراءتها، ووداعتها، ومحبّتها، وصبرها، وعزيمتها، وسلام نفسها،

ورقّتها، ورحمتها. وعندما أَعلن هذه التطويبات، إِنّما كان يرسم صورةً روحيّةً عن أَمّه، راسخةً في قلبه.

ولا مراء أَنّ مريم قد استمدّت من ابنها أَكثر ممّا أَمدّته به، واقتبست منه أَكثر ممّا اقتبس منها. فكلّ من يحظى بشراكة حبٍّ مع يسوع يمتلئ ببهائه، ويمسي، على غراره، «أَجمل بني البشر»، ويكتسب جمالاً يشحب، إِزاءه، كلّ جمالٍ، جمالاً قادرًا، وحده، على إِرواء قلب الإِنسان.

يسوع قال: «إِن كانت عينك نيّرةً، كان جسدك كلّه في النور». فما عسى أَن يكون جسد مريم التي تعاين الله وجهًا لوجهٍ؟ لقد كانت مريم ترمق العالم بعيني طفلٍ، حيث تتجلّى نفسٌ كلّيّة الشفافيّة كما شاءها الله وخلقها.

لم تكن حياة مريم على الأَرض، وليس وجودها في السماء، سوى صلاةٍ وعبادةٍ، ولا ريب أَنّ ممارسة الصلاة تنعكس صفاءً وسنًى على المحيّا.

وقد أَضحت العذراء، بجسدها الممجّد، رمزًا لما ستكون عليه الكنيسة، ولما سيكون عليه كلّ مؤمنٍ.

وهي، بجسدها الكلّيّ الطهر، تعلن تجدُّد كلّ شيءٍ. داود، الذي خَبَر أَثر الخطيئة على العلاقة بالله، كان قد تنهّد بأَسًى: «بالخطيئة ولدتني أُمّي!»، ولكنّ حفيدةً له استطاعت أَن تقول: «مطهَّرةً من كلّ لوثةٍ ولدتني أُمّي».

قال القدّيس جيروم: «الآخرون ينالون النعم شيئًا فشيئًا، ولكنّ ملء النعمة أُفيض على مريم دفعةً واحدةً».

مريم فائقة الجمال، وقد وصفها سفر الرؤيا مرتديةً الشمس، واطئةً القمر بقدمها، ومجموعاتٌ من النجوم تعقد حول هامتها تاجًا.

ولا ريب أَنّ جمال نفسها الفريد قد انعكس على جسدها الطاهر. فمجرّد رؤيتها كان يلهم أَفكار طهرٍ وتسامٍ. كلّ ما كانت تمسّه كان يُزهر نورًا، وحيثما مرّت كانت تسود الشفافيّة. وفي حضورها تتبدّد كلّ رغبةٍ أَنانيّةٍ أَو وبيلةٍ.

وقد أَقرّ القدّيس أَمبروسيُس أَنّ جمالها كان من نفوذ التأثير، بحيث لا يقتصر على وقاية زهرة البتوليّة لديها، بل كان يوحي لكلّ من يدنو منها الشغف بالعفّة. فقد

أَطلّت على يوحنّا المعمدان، وهو جنينٌ، فظلّ عفيفًا عمره كلّه، لأَنّ أُمّ اللّه ضمّخته، سحابة ثلاثة أَشهرٍ، بزيت حضورها، وبعطر نصاعتها.

جمالها الطاهر كان يفتن القلوب فيقتادها إِلى اللّه. وخير مثالٍ على ذلك هو خطيبها يوسف الذي أَمسى النموذج الأَسمى للتمثّل بطهر أُمّ اللّه. فقد غمرته بجوٍّ من التواضع، والخَفَر، والعفّة، بحيث بات متعذّرًا على أَيّة خاطرةٍ دنسةٍ أَن تتسلّل إِلى نفسه.

قديمًا قال أُسقفٌ فرنسيٌّ: «أَعتقد أَنّه كان ينبعث من عيني العذراء إِشعاع الأُلوهة، ومن شفتيها نفثاتٌ إِلهيّةٌ.

«جسدها الملائكيّ كان عاجزًا عن إِلهاب نارٍ مدمّرةٍ في الآخرين، لأَنّه كان خاليًا منها.

«إِنّها امرأةٌ، وعذراء، وأُمٌّ، جميلةٌ في تناسق أَعضائها، وأَوفر جمالاً في تناغم طاقاتها الداخليّة؛ جميلةٌ في تناسب ملامحها وأَلوانها، وأَشدّ جمالاً في توافق كلّ الفضائل فيها، وفي إِشعاعها، جميلةٌ بكلّ ما يسع الطبيعة إِسباغه من هباتٍ، وأَوفر جمالاً بما يسع النعمة إِغناء إِحدى خلائق اللّه به. فاتنةٌ في صباها، جليلةٌ ووقورٌ ونبيلةٌ في كهولتها، ولكنّها محافظةٌ أَبدًا على ما تميّزت به من طهرٍ، وبراءةٍ، وطيبةٍ، وطفولة روحٍ.

«وإِن كانت الطبيعة والنعمة قد تضافرتا على إِبداع تلك التحفة، فكم، بالحريّ، زوّدها المجد السماويّ بما يفوق كلّ تصوّر! ولكأَنّي بالملائكة ينشدون لها مع صاحب نشيد الأَناشيد: «تعالي، تعالي، فنتأَمّلك. أَرينا محيّاكِ، وأَسمعينا صوتكِ، فإِنّ صوتكِ لطيفٌ، ومحيّاكِ جميلٌ».

إِنّ يسوع الذي شاء أَن تكون أُمّه صورةً حيّةً له، قد سبك نفسها في قالب نفسه، فإِذا بها، على غرار الإِنسان الأَوّل، قبل الخطيئة، على صورة اللّه ومثاله، ولم يشوّه كمالها كدرٌ.

القدّيس أوغسطينُس رأى فيها من البهاء ما جعله يشبّهها بمرآة تنعكس فيها ملامح اللّه.

والقدّيس يوحنّا الدمشقيّ قال إنّ مريم قد انتزعت من كلّ مخلوقٍ زهرته، ومن كلّ زهرةٍ خلاصة جمالها. وقد رأى فيها رهافة الطبيعة وزينتها.

وقال الدمشقيّ، أيضًا: «يا أُمّ الله، ملكِ الكون! أيّها الشيء الإلهيّ الحيّ الذي فتن جمالُه اللّه الخالق، يا من نفسها خاضعةٌ بكلّيّتها للعمل الإلهيّ، ومصغيةٌ لله وحده، رغباتك كلّها مشدودةٌ صوب من يستأهل، وحده، أن يُبحث عنه. والجدير، وحده، بالحبّ. أنت التي لا تغضب إلاّ على الخطيئة، ستحظين بحياةٍ تفوق الطبيعة، ولكنّك لن تستخدميها من أجلك، فأنتِ لم تُخلَقي من أجل ذاتك. بل ستكرّسين ذاتك بكلّيّتها لله الذي جاء بك إلى العالم خدمةً لخلاص الجنس البشريّ، وتحقيقًا لمخطّط الله، أي تجسّد ابنه، وتأليه الجنس البشريّ.

«ستكون عيناك شاخصتين دائمًا، نحو الربّ، نحو النور الأبديّ الذي لا يُطال، وستظلّ أُذناك متيقّظتين للكلمات الإلهيّة، ولأنغام قيثارة الروح... ومنخاراكِ سيشمّان العطر الإلهيّ الكفيل بتعطير إنسانيّته. وشفتاك ستسبّحان الربّ، وستظلاّن ملتصقتيْن بشفاه الله. وسيتذوّق فمك أقوال الله، وسيستسيغ عذوبتها الإلهيّة. وقلبك الكلّيّ الطهر، والمنزّه من كلّ لوثةٍ، سيشهد، بلا انقطاعٍ، إله كلّ طهرٍ، وسيضطرم توقًا إليه، وسيكون حضنك مسكن من لا يسعه مكانٌ. ولبنكِ سيغذّي الله، في يسوع الطفل. إنّك باب الله، ومتألّقةٌ ببتوليّةٍ دائمةٍ. يداك ستحملان الله، وركبتاك ستكونان له عرشًا أسمى من عرش الشيروبيم....

«كيف لي أن أصف مشيتكِ المليئة وقارًا، وسحر محيّاك، والحكمة التي يوليها عمرٌ مقترنٌ بشباب الجسد. زيّك كان ممتلئًا حشمةً، بمنأًى عن كلّ بذخٍ أو تبذّلٍ. ومشيتك تتّسم بالوقار، بلا استعجالٍ ولا تعثّرٍ، ولا تراخٍ. مسلكك قشِفٌ، يلطّفه الفرح، ولا يسعى أبدًا إلى استلفات انتباه الرجال... كلامك كان عذبًا، معبّرًا عن رقّة نفسك. وأيّ مسكنٍ سواك كان جديرًا بالله؟ من العدل أن تغبطك جميع الأجيال، فأنت شرفٌ رفيعٌ للجنس البشريّ...»

مريم كلّيّة الجمال لأنّها عذراء، ولأنّها أطاعت حتّى الصليب. آلامها توّجت جمالها، فالألم، في الله، الألم المحتمل في الحبّ، يجعل الجمال يتجلّى جمالاً آتيًا من عالمٍ آخر.

ولا ريب أنّ يسوع كان يستمدّ قسمات وجهه، إلى حدٍّ بعيدٍ من أُمّه وحدها، ويشبهها شبهًا مدهشًا، فمنها وحدها استمدّ بشريّته. أمّا روحيًّا فهي تشبهه، إذ كان لها المثال والنموذج الأوحد. وقد طبع شبهه، بعمقٍ، في تلك التي صاغها أكثر ممّا هي صاغته، بحيث يمكن الانطلاق منها إليه، أو منه إليها، على السواء. وإن هو صرّح: «من رآني رأى الآب»، فقد كان بوسعه، أيضًا، أن يقول: «من رأى أُمّي، رآني».

إنّ مريم فائقة الجمال، وهذا الجمال المقترن بإشعاع فضائلها، يتألّق على محيّاها وعلى هندامها، ويوفّر لها نبلاً منقطع النظير، هو، وحده، يستأهل صفة الكمال. ولا عجب إن قالت برناديت سوبيرو، التي ظهرت لها العذراء في لورد: «كم كانت جميلةً، جميلةً! مَن رآها مرّةً يستعجل الموت كي يراها ثانيةً». «كم كانت نفسي سعيدةً، يا أُمّي الطيّبة، عندما سعدت بتأمّلكِ! وكم أودّ أن أذكّرك بتلك اللحظات التي أمضيتُها تحت عينيك المليئتين عطفًا ورأفةً لنا!».

وجميع الذين ظهرت لهم العذراء أُخذوا برقّة محيّاها، وبكثافة نورانيّته. فهي في جميع ظهوراتها تتجلّى فائقة البهاء، وما جمالها إلاّ تجلّي قداستها وحبّها وجمال أُمومتها.

ممّن ظهرت لهم السيّدة العذراء ووصفوها، «ميلاني» رائية سيّدة «لاساليت» في فرنسا، التي أدلت بالوصف التالي، كما جاء في كتاب المبدع «ليون بلوا»: «تلك التي تبكي»:

«كانت السيّدة العذراء ممشوقة القوام، متناسقة الأعضاء، وتبدو من خفّة الوزن بحيث أنّ نفخةً كانت كفيلةً بتحريكها، مع أنّها كانت ثابتة الوقفة، وقورًا. منظرها كان جليلاً، مهيبًا، ولكنّه لا يوحي بالرهبة مثل أسياد العالم. كانت توحي بخشيةٍ مفعمةٍ احترامًا، وكان جلالها يفرض احترامًا مشوبًا بالحبّ والجاذب. نظرها كان رقيقًا نفّاذًا. عيناها كانتا تبدوان وكأنّهما تحاوران عينيَّ. ولكنّ الحوار كان ينبع من شعور حبٍّ عميقٍ وحادٍّ لذلك الجمال الفتّان الذي كان يذيبني. عذوبة نظرها، ومظهر طيبتها الذي يستعصي على الوصف، كان يُشعر بأنّها تجتذب، وتودّ أن تهب ذاتها.

«ثوبها كان أبيض فضّيًّا، خاليًا من كلّ عنصرٍ مادّيٍّ. كان مزيجًا من نورٍ ومجدٍ، متبدّلاً، ومتألّقًا. ما من تعبيرٍ بشريٍّ يصفه، وما من تشبيهٍ يمثّله.

«كانت العذراء القدّيسة فائقة الجمال، ومعجونةً حبًّا. وإذ كنت أتأمّلها كنت أتوق إلى الذوبان فيها. كلّ شيءٍ في هندامها، وفي شخصها، كان يتضوّع جلالاً، وبهاءً، وأُبّهةً ملكيّةً منقطعة النظير. كانت تتجلّى جميلةً، بيضاء، نقيّةً، شفّافةً، باهرةً، سماويّةً، فتيّةً، قشيبةً مثل عذراء. ولفظة «الحبّ» كانت تبدو وكأنّها تتفجّر من شفتيها الفضّيّتين الفائقتي الطهر. كانت تبدو لي أُمًّا عطوفًا، مملوءةً طيبةً، وعطفًا، وحبًّا، ورأفةً، ورحمةً لنا.

«إكليل الورد الذي كان يتوّج هامتها كان من الجمال والتألّق بحيث يتعذّر وصفه. وروده المتعدّدة الألوان لم تكن من الأرض. كانت ضُمّةً تحيق بهامة العذراء القدّيسة، على شكل تاجٍ، ولكنّها كانت لا تني تتبدّل، وتحلّ محلّ بعضها أُخرى. ومن قلب كلّ وردةٍ كان ينبعث نورٌ، من البهاء بحيث يفتن، ويضفي على جمال الورد أَلقًا. ومن تاج الورد كان يتصاعد ما يشبه أَغصانًا ذهبيّةً، وطائفةً من الأزاهير الأُخرى الصغيرة، ممتزجةً بماساتٍ.

«وكانت تلك المجموعة تؤلّف تاجًا ملكيًّا رائعًا، يتألّق، هو وحده، أكثر من الشمس فوق أَرضنا. وكان معلّقًا في عنق العذراء القدّيسة، صليبٌ رائعٌ، يبدو مذهّبًا – لئلاّ أَقول من ذهبٍ خالصٍ – لأَنّني شاهدت، أَحيانًا أَشياء مذهّبةً متنوّعةً كنت أَراها أَجمل من المصنوعات من ذهبٍ خالصٍ. وعلى هذا الصليب المشعّ نورًا، كان ربّنا، وقد بسط ذراعيه. وعلى طرفَيْ الصليب كانت مطرقةٌ من جانبٍ، وكمّاشةٌ من الجانب الآخر. كان لون المسيح يحاكي لون الجسم الطبيعيّ، ولكنّه كان يتوهّج بأَلقٍ باهرٍ. وكان النور المنبثق من كلّ جسمه مثل سهامٍ شديدة التألّق، تذيب قلبي شوقًا إلى الانصهار فيه. وكان المصلوب يبدو أَحيانًا ميتًا، مائل الرأس، منهار الجسم، وكأنّه يهمّ بالسقوط، لو لم تكن المسامير تشدّه إلى الصليب.

«أَخذ بي تأَثّرٌ بالغٌ لهذا المنظر، ولكم وددتُ تذكير العالم أَجمع بحبّ المصلوب المجهول، وأَن أَسكب في قلوب البشر أَقوى حبٍّ، وأَصدق عرفان جميلٍ، لإلهٍ لم يكن في حاجةٍ إلينا كي يكون ما هو عليه، وما كان سيكون عليه دائمًا.

«ومع ذلك بدافع حبٍّ يعجز البشر عن فهمه، صار إنسانًا، وأَراد الموت، أَجل الموت، كي يدوّن، على نحوٍ أَفضل، في نفوسنا، وفي ذاكرتنا، الحبّ المجنون الذي يكنّه لنا. آه! ما أَتعسني من جرّاء عجزي عن التعبير عن حبّ مخلّصنا الطيّب،

أَجل، عن حبّه لنا! ولكن، من جانبٍ آخر، ما أَسعدنا بأَن نستطيع الشعور بما لا قبلَ لنا على التعبير عنه!

«أَحيانًا أُخرى كان المسيح المصلوب يبدو حيًّا، مستقيم الرأس، محدّقًا بعينيه، مستلقيًا، طوعًا، على الصليب. وكان يبدو، أَحيانًا، وكأَنّه يتكلّم ويودّ تأكيد أَنّه على الصليب من أَجلنا، حبًّا بنا، كي يجتذبنا بحبّه. وأَنّ حبّه لنا يتجدّد دائمًا، وأَنّ حبّه الأَوّل، الذي كان يحدوه عام ٣٣، هو، هو، اليوم. وسيظلّ كذلك إِلى الأَبد.

«وما انفكّت العذراء تبكي، وهي تكلّمني. كانت دموعها تنساب قطرةً قطرةً، ببطءٍ، حتّى ركبتيها. ثمّ تتلاشى مثل قبسات نورٍ، كانت متلألئةً ومفعمةً حبًّا. وحاولت تعزيتها، فكفّت عن البكاء؛ ولكن بدا لي أَنّها كانت تحتاج إِلى إِظهار دموعها، كي تُظهر، على نحوٍ أَفضل، حبّها الذي نسيه البشر. ولكم تمنّيت أَن أَرتمي بين ذراعيها، وأَن أَقول لها: يا أُمّي الطيّبة، لا تبكي! فأَنا أَوّد أَن أُحبّك عن جميع بشر الأَرض. ولكن يبدو لي أَنّها كانت تقول لي: ما أَكثر الذين يجهلونني!

«دموع أُمّنا الرقيقة، لم تُنقص، في شيءٍ، من مهابة الملكة والسيّدة. بل، على نقيض ذلك، بدا أَنّها كانت تزيدها جمالاً، وعطفًا، وقدرةً، وامتلاءً بالحبّ، وأُمومةً، وفتنةً. وكم وددت التهام دموعها التي كانت تجعل قلبي يتوثّب تعاطفًا وحبًّا! وهل بوسعي أَن أَشهد أُمًّا – أَيّ أُمٍّ – تبكي، ولا أَتّخذ كلّ التدابير التي يمكنني تخيّلها، في سبيل تعزيتها، وتحويل آلامها إِلى فرحٍ؟

«أَيّتها الأُمّ الفائقة الطيبة، لقد كُوِّنتِ من كلّ الامتيازات التي يملكها الله، ولكأَنّك استنفدتِ قدرته. إِنّك طيّبةٌ، وتستمدّين طيبتك من طيبة الله نفسه. لقد عظم الله، عندما صاغ فيك مأثرته الأَرضيّة والسماويّة.

«كانت العذراء ترتدي إِزارًا أَصفر. وصفي له بالأَصفر ليس دقيقًا فهو كان أَشدّ تألّقًا من عدّة شموسٍ معًا. لم يكن من قماشٍ مادّيٍّ، بل كان نسيجًا من مجدٍ متألّقٍ، يتلألأ بجمالٍ فتّانٍ. كلّ شيءٍ، في السيّدة العذراء، كان يحملني بقوّةٍ، ويدفعني إِلى عبادة يسوع وإِلى حبّه، في جميع حالات حياته الأَرضيّة.

«وكان للعذراء القدّيسة قيدان، أَحدهما أَعرض من الآخر. بالقيد الضيّق كان معلّقًا

الصليب الذي جئت، سابقًا، على ذكره. هذان القيدان، إن صحّت تسميتهما هكذا، كانا وكأنّهما شعاعا مجدٍ يبعثان لألاء شديد التألّق، متعدّد الأشكال.

«وإن كان لا بدّ من التكلّم عن أحذيتها، فقد كانت بيضاء، ولكنّ بياضها كان فضّيًّا لمّاعًا. وكانت محاطةً بورودٍ رائعة الجمال، ومن قلب كلّ وردةٍ كانت تنبعث شعلة نورٍ فائقة الجمال، عذبة المنظر. وكانت تعلو حذاءها عقدةٌ ذهبيّةٌ، غير مصنوعةٍ بذهب الأرض، بل بذهب الفردوس.

«منظر العذراء الكلّيّة القداسة، كان، في ذاته، فردوسًا مكتملاً. كان فيها كلّ ما يُرضي، وكانت تجعل الإنسان يذهل عن الأرض.

«وكانت العذراء محاطةً بنورين، الأوّل، وهو الأشدّ قربًا منها، كان يصل إلينا، ويلتمع بألقٍ متوهّجٍ، شديد البهاء. أمّا النور الثاني، فكان ينبسط حول السيّدة الجميلة، وكنّا نجد أنفسنا في إطاره. كان ثابتًا (غير متوهّجٍ) ولكنّه أكثر تألّقًا من شمس أرضنا المسكينة. وكلّ هذه الأضواء لم تكن تؤذي العيون، ولا تتعب النظر.

«وفضلاً عن هذه الأنوار، وكلّ هذا البهاء، كانت تنبعث من جسد العذراء القدّيسة، ومن ثيابها، ومن كلّ شيءٍ يخصّها، حُزَمٌ مضيئةٌ، وأشعّة نورٍ.

«صوت السيّدة الجميلة كان عذبًا، فاتنًا، ساحرًا، يريح القلوب. كان يبعث على الرضى، ويذلّل العقبات، ويسكّن، ويلطّف. وكان يتراءى لي أنّني لن أرتوي من ارتشاف صوتها الجميل. ويبدو لي أنّ قلبي كان يرقص، ويودّ المضيّ إليها، والذوبان فيها.

«عينا مريم العذراء القدّوسة لا يمكن وصفهما بلغة البشر. قد يستطيع سيرافيم التحدّث عنهما، بل لا بدّ، لذلك، من لغة الله نفسه، الله الذي صاغ العذراء المعصومة من الدنس، للتحدُّث عن تحفة قدرته الكلّيّة.

«عينا مريم الجليلة كانتا تبدوان ألف ألف مرّةٍ أجمل من الجواهر والماس، ومن أفخر الحجار الكريمة. كانتا تلتمعان مثل شمسين، تشعّان العذوبة نفسها، في مثل صفاء مرآةٍ. فيهما كان يُشاهد الفردوس، وكانتا تجتذبان النفوس إليها، وكأنّها، هي، تودّ أن تهب ذاتها وتجتذب. وكلّما أمعنتُ فيها النظر كنت أزداد رغبةً في تأمّلها. وكلّما تأمّلتها ازددت لها حبًّا، وأحببتها بكلّ قواي.

«ولكأنّ عينَي النقيّة الجميلة هما باب الله، حيث يُشاهد كلّ ما يمكنه بعث النشوة في النفوس. وعندما كانت تتشابك عيناي وعينا أُمّ الله وأُمّي، كانت تحتدم، في داخلي ثورة حبٍّ، ورغبةٌ جامحةٌ في حبّها، والذوبان في هذا الحبّ.

«وعندما كنّا نتبادل النظرات، كانت عيوننا تتحاور بطريقتها الخاصّة، وكان حبّي لها من الشدّة بحيث أَتمنّى تقبيلها وسط عينيها اللّتين تفتنان نفسي، وتجتذبانها، لكي تطهّرها في نفسها. لقد أَشاعت عيناها رعدةً عذبةً في كلّ كياني، وكنت أَخشى القيام بأَيّ تصرّفٍ قد لا ترضى عنه، ولو قليلاً.

«إِنّ مجرّد رؤية عيني أَطهر العذراوات كان كافيًا لتكوين سماء قدّيسٍ، ولإِدخال النفس في ملء إِرادة العليّ، في زحمة الأَحداث التي تجري خلال الحياة الأَرضيّة، ولحمل هذه النفس على القيام بأَعمال تسبيحٍ وشكرٍ، وتعويض، وتكفيرٍ، لا تنتهي. هذه الرؤية، وحدها، تجعل النفس تتركّز في الله، وكأنّها ميتةٌ حيّةٌ، لا ترى، في شؤون الأَرض، حتّى الأَكثر جدّيّةً، سوى لهو أَطفالٍ، ولا ترغب في سماع إِلاّ ما يتحدّث عن الله، ويشيد بمجده، ولا ترى من شرٍّ على الأَرض، سوى الخطيئة، وتموت حزنًا إِن لم يؤازرها الله على تجنّبها».

الجمالات المخلوقة كلّها ليست سوى ظلٍّ، وصورةٍ باهتةٍ لجمال مريم. هذا ما جعل القدّيس بيرنار يهتف: «أَيّتها العذراء الرائعة، يا امرأةً هي شرف جميع النساء، أَنت الفضلى، والكبرى في الكون!»

وما من صورة أُمٍّ تنطق بمثل ما تنطق به صورة مريم من عذوبةٍ، ورقّةٍ، وصمتٍ. وما من محيًّا قادرٌ أَن يعبّر، مثل ما يعبّر عنه محيّاها، من كمالٍ وعمقٍ روحيٍّ. فيها تجد كلّ أُمّهات العالم أَسمى مثالٍ وأَروعه.

لطالما وُصفت مريم بأَنّها نجمة البحر، وكم هي نجمةٌ ثمينةٌ لمن يخوضون بحر العالم المصطخب! فعندما تزمجر العواصف في الطبيعة وفي النفوس، ترسل العذراء لأَرواحنا، أَشعّةً تمزّق غياهب الليل، وتطرد هواجسه، وشياطينه. فمن يشخص بأبصاره إِلى ذلك الكوكب الوضّاء، يستقرّ فيه اليقين بأَنّ أَمواج البغض والكبرياء الجامحة، ستتكسّر وتتلاشى. وغالبًا ما تبدو حياتنا ليلاً لا يسعنا اجتيازه بمعزلٍ عن نور ذلك النجم المتلألئ.

القدّيس غريغوريُس بالاماس (١٢٩٦–١٣٥٩) وكان راهبًا ولاهوتيًّا يونانيًّا، ورئيسًا لأساقفة تيسَّالونيكي، رأى، في أُمّ اللّه، الكائن المخلوق الذي حقّق في ذاته كلّ كمالٍ مخلوقٍ وغير مخلوقٍ، وقال:

«عندما شاء اللّه أن يبدع صورةً للجمال المطلق، وأن يظهر بجلاءٍ للملائكة وللبشر قدرة فنّه، جعل مريم كلّيّة الجمال، حقًّا. فجمع فيها الجمالات الجزئيّة التي وزّعها على سائر مخلوقاته، وجعل منها مزيجًا من كلّ الكمالات الإلهيّة الملائكيّة والبشريّة، أي جمالاً فائقًا يُزيّن العالَمَيْن معًا، مرتقيًا بالأرض إلى السماء، بل متجاوزًا السماء عينها.

«مريم هي مجد الجنس البشريّ وشرفه، لأنّ مخطّط اللّه المتعلّق بالبشريّة تحقّق بها. إنّها الصورة المثلى للإنسان الكامل، والتعبير الأسمى عن قدرات نعمة اللّه الخلاصيّة، ونموذجٌ لدعوة البشريّة الأصليّة بكلّ نقائها».

قال دوستويفسكي: «الجمال سيخلّص العالم». ولا ريب أنّ جمال مريم كفيلٌ بوقاية كوكبنا من الدمار.

وإن كان الجمال هو من عناصر المسيحيّة الأساسيّة، فمريم هي النموذج الأمثل لهذا الجمال.

إنّها الجمال الذي صار وجهًا!

آلام مريم واستحقاقاتها

عُصمت العذراء من الخطيئة، ولكنّها لم تعفَ من الألم، لأنّها كانت شريكة ابنها في سرّ الفداء. ولا فداء بلا أَلمٍ.

مذ بشّرها الملاك بأنّها ستصبح أُمّ المخلّص، أَدركت كم ستكون هذه المهمّة مؤلمةً. فقد كانت تعرف، من النبوءات، كم سيقتضي خلاص العالم من آلام. لقد صُلبت العذراء منذ لحظة حبلها بالمصلوب. قولها «نَعَم» للملاك المبشّر، كان ينمّ عن استعدادها لكلّ ما سينجم عن هذه الموافقة. وهذا الاستعداد النفسيّ هيّأها لمشاركة ابنها آلامه الفدائيّة، ووثّق علاقتها به، في حين أَنّ هذه الآلام عينها، أَبعدت عنه تلاميذه لحينٍ، وزرعت، في نفوسهم، الريَب.

وعندما قدّمت طفلها إلى الهيكل، أَنبأها سمعان الشيخ، بأَنّ سيفًا سيخترق نفسها. وما انفكّ السيف يتلوّى في صدرها، مذ حملت يسوع، بفعل الروح القدس، من جرّاء ما أَحدثه هذا الحمل من حيرةٍ لدى يوسف، ومن شائعاتٍ ونمائم خبيثةٍ لدى الأَقارب والجيران. وعَقِبَ ذلك إِيصادُ جميع الأَبواب في وجهها من أَجل وضع ابن الله، حتّى اضطرّت أَن تضعه في زريبةٍ، وتضجعه في مذود بهائم. وتلوّى السيف، ثانيةً، في قلبها، يوم أُنبئت بأَنّ هيرودس يسعى إِلى قتل وليدها، ففرّت إِلى مصر، عبر الفيافي، ووسط المهالك. ولطالما انتابها الجزع عليه، ولا سيّما عندما توارى، مدى ثلاثة أَيّامٍ، في الهيكل. ثمّ، كم شقّ عليها هجره المنزل الذي طالما ضمّهما معًا، كي ينصرف إِلى أَداء رسالته!

واكتملت تضحيتها في الجلجلة، حيث جدَّدت للصليب «النَعَم» الذي كانت قد رحّبت به بالتجسّد، وقدّمت آلامها، مع آلام ابنها، من أَجل خلاص العالم. ثمّ، عندما قال لها يسوع: «هوذا ابنك»، داعيًا إِيّاها إِلى استبداله، هو ابن الله الذي حملته، ووضعته، وسهرت عليه مدى ثلاثين عامًا، بواحدٍ من تلاميذه. وهل من

كائنٍ، مهما سما شأنه، كفيلٌ باحتلال موقع يسوع من قلبها؟ في تلك الساعة بلغ تجرّدها قمّته. ولكن، حينئذٍ، أيضًا، تحقّق ملء أُمومتها.

وبما أنّ يسوع هو هدفٌ للمقاومة، فستبقى العذراء تتألّم حتّى النهاية، معانيةً آلام الأُمومة المسيحيّة. ولذلك وجد فيها البشر المتألّمون صورة التعاطف الإلهيّ، الذي يملك، وحده، قدرة الشفاء من الأَلم.

لولا إيمان مريم الوطيد، ورجاؤها الصامد، واستسلامها الكلّيّ للمشيئة الإلهيّة، وحبّها اللامحدود، لكانت حياتها، بشريًّا، مغرقةً في الأَلم، والكمد، والتعاسة. ولكنّها عانت كلّ ما عانت، بفرحٍ وسكونٍ، لأَنّها اتّحدت مع ابنها اتّحادًا وثيقًا، وتطابقت إرادتاهما تطابقًا كاملاً، في التواضع، والفقر، والآلام، والدموع، ولاسيّما في الجلجلة، حيث تألّمت بقدر حبّها لابنها المصلوب من أَجل خطايانا، وحيث تفاقمت آلامها بقدر شراسة العذابات التي أُنزلت بالبريء الإلهيّ.

لقد عقدت مع يسوع شراكة أَلمٍ، في الإيمان، والرجاء، والحبّ، حبٍّ كاملٍ انفردت به العذراء. ولا ريب أَنّ يسوع هو الوسيط الوحيد، الكاهن الوحيد الذي قدّم ذاته ضحيّةً. ولكنّ مريم كانت متّحدةً به في تلك التضحية. وكانت ضحيّتها مقبولةً بامتيازٍ، لأَنّها، وحدها، كلّيّة الطهر. وبصفتها أُمًّا، كانت علاقتها مميّزةً بابنها، وبجسده المقدّم ضحيّة فداء. فجسده الذي صلب تكوّن في أَحشائها، ودم العهد الجديد الذي أُريق تكفيرًا عن خطايا البشر، وغذاءً للنفوس، هو الذي زوّدته به.

لقد دفعت مريم، غاليًا، ثمن الامتيازات التي خُصّت بها، فحوّلت هذه الامتيازات إلى استحقاقات. حياتها كلّها كانت إنصاتًا للكلام الإلهيّ، والتزامًا به، ومن ثمّ، كانت سلسلة تضحياتٍ... وكان يسوع، وهو، بعدُ، في الثانية عشرة من عمره، يوم تلبّث في الهيكل، في غفلةٍ منها، قد أَكّد لها أَنّ عليها أن تضحّي بحقوق أُمومتها عليه، من أَجل الرسالة التي أَناطها به الآب. ثمّ لمّا هو نشط في أداء رسالته، أفهمها، على الملأ، أَنّ الإيمان يفوق، لديه، الأَواصر الجسديّة، وهو، في ذلك، لم يغمطها حقّها، إذ إنّ إيمانها به كان مطلقًا. غالبًا ما ينأى الأَبناء عن والديهم، كي يحقّقوا ذواتهم بأَنفسهم، وقد يكون، في ذلك، مبعث فرحٍ للوالدين. ويسوع نأى عن أُمّه لكي يتخلّى كلّيًّا عن ذاته، ويبذلها حتّى نقطة دمه الأَخيرة. وكانت تلك تضحية مريم الكبرى.

يقول البابا بيّوس العاشر: «مجد مريم يكمن في أنّها ارتضت مهمّة حماية حَمَل الضحيّة، وتغذيته، وفي اقتياده، عندما أزفت الساعة، إلى هيكل التضحية، وبذلك لم تنقطع، قطّ، شراكة الحياة والألم، بين مريم وابنها».

مثل ابنها تألّمت مريم من بشاعة خطايا البشر. فعلى ضوء النور الفائق الطبيعة الذي كان ينشر ضياءه على ذهنها، كانت ترى أنّ النفوس مدعوّةٌ إلى الإشادة بمجد الله. إذ على كلّ نفسٍ أن تكون شعاعًا للأُلوهة، شعاعًا روحيًّا مفعمًا فكرًا وحبًّا. فذهننا مصنوعٌ من أجل معرفة الله، وقلبنا مصنوعٌ من أجل حبّه. ولكنّ طغماتٍ من النفوس تميل عن الله، وتنصرف عنه، وعوضًا عن إشعاع ألوهته وملكوته، تتمرّغ في شهوات الجسد، وكأنّ لا حبّ سوى الحبّ الجسديّ، وفي شهوات الظهور، وكأنّ لا مجد سوى الثروة والنفوذ، وفي الكبرياء، وكأنّ لا وجود لله، خالقنا وربّنا، وكأنّ لا غاية لنا سوى ذواتنا.

كانت مريم قد غرقت في الله، إذ تجرّدت تجرّدًا صارمًا من كلّ ما تملك، وأصبحت ملكًا حصريًّا لله، في روح الفقر، وأمسى كيانها مسلسًا قياده، كلّيّةً، للاتّحاد بالله، حيث جسدها خاضعٌ لنفسها، ونفسها خاضعةٌ لله، تردّد له، بلا انقطاعٍ، نشيد تسبيحٍ وطاعةٍ.

ومع ذلك ظلّت نفسها قادرةً على الألم، لا من أجل ذاتها، بل من أجل خلاص الآخرين، بصفتها ضحيّة حبٍّ. بهذه الصفة، فقط، خبرت أُمّ يسوع مِحَن الحياة الداخليّة، مع أنّها لم تكن في حاجةٍ إلى تطهّرٍ، إذ لا شيء فيها كان يقاوم ملكوت الله.

كلّ أَلمها هو من أجل الآخرين. وبما أنّها مكرّسةٌ منذ لحظة وجودها الأولى، فالطقس الدامي الذي سيكتمل على الجلجلة، قد بدأ، لديها، منذ تكوينها.

إنّها تنحني على نزاع العالم، بحنان المحبّة اللامحدود، حيث الألم المتعاطف هو أوجع، بلا قياسٍ، من الألم الذي يُعطف عليه.

عندما كانت تسمع نبوءة أشعيا عن رجل الآلام، كان الحزن يهصر فؤادها، مع أنّها لم تكن تعرف، بعدُ، أنّها ستشاهد مأساة هذا الرجل الذي أخذ على عاتقه وزر جميع خطايانا، بصفتها أُمًّا له. وعندما ستقف عند أقدام الصليب، ستتبيّن أنّ جميع

لحظات حياتها كانت تتدافع صوب هذه اللحظة الفريدة الحاسمة، حيث ستتلقّى نزاع اللّه الذي أَصبح نزاعها. كانت متضامنةً معه، مقدّمةً براءتها شهادةً على براءته، متماهيةً مع مهانته، مطعونةً بكلّ ضروب رفضنا، مكلومةً بكلّ جراحنا. ورنا إِليها يسوع، فشهدها تتألّم بآلامه، مطعونةً بمأساته، حاملةً، في كلّ كيانها، جرح الحبّ اللامحدود، الحبّ المدان بلا رحمةٍ. وقد جعلها أُمّه في كلٍّ منّا، مرتبطةً بنا بالحبّ عينه الذي يربطها به.

وهي ما انفكّت واقفةً عند أَقدام الصليب، طالما تمادى النزاع الإِلهيّ. وهي تهرع نحونا كي تفكّه عن الصليب، الذي تجدّد أَنانيّتُنا آلامَه، كلّ يومٍ.

ولكم تألّمت العذراء، لأَنّ الشعب الذي كانت تنتمي إِليه هو الذي قتل ابنها!

إِبراهيم كان قد تألّم ساعاتٍ معدوداتٍ، وهو يتأهّب للتضحية بوحيده إِسحق، وما لبث أَن وافاه ملاكٌ، ووضع لآلامه نهايةً. أَمّا مريم العذراء، فمذ تنبّأ سمعان الشيخ بآلام ابنها التي كان النبيّ أَشعيا قد سبق فتنبّأ بها، ومذ أَنذرها بسيفٍ سيخترق فؤادها، ما انفكّت تقدّم، بلا هوادةٍ، من سيكون الكاهن والضحيّة معًا، وتقدّم ذاتها معه. هذه التقدمة لم تدم ساعاتٍ، بل سنواتٍ.

يقول بوسُّويه، في هذا الشأن: «لم يشأ الأَب الأَزليّ أَن تكون مريم مجرّد ضحيّةٍ، مع الضحيّة البريئة، وأَن تُثبَّت على الصليب بنفس المسامير التي ثقبت يديه ورجليه، بل شاء، أَيضًا، أَن تكون شريكته، في كلّ السرّ الذي تحقّق بموته».

تعرُّضُ ابنها للمهانة والآلام، وهي عارفةٌ لحقيقة هويّته، أَلحق بها آلامًا لم يكابد مثلها مخلوقٌ. لقد سُمّيت «شهيدة الشهداء». ولكن إِن كانت السيوف قد مزّقت أَجساد الشهداء. فآلام يسوع قد مزّقت نفس العذراء. وقد انتزعت رؤية آلامها بالروح، من النبيّ إِرميا، هذه الصيحة: «أَيّتها العذراء، إِنّ تحطّمك عظيمٌ كالبحر. فمن ذا يشفيكِ؟» (مراثي ٢ : ١٣) و«أَنتم يا من يجتازون، جميعكم، انظروا وتبيّنوا. هل مِن أَلمٍ يضارع أَلمي؟»

وقال القدّيس أَنسيلم: «أَيّةً كانت الوحشيّة التي تعرَّضت لها أَجساد الشهداء، فهي خفيفةٌ، بل هي ليست شيئًا، بالقياس إِلى قسوة آلام مريم». ويضيف القدّيس

برناردان السييناّويّ أَنّ آلام العذراء كانت من الجسامة بحيث لو إِنّها وُزّعت بين الخلائق جميعها، القادرة على الأَلم، لقضت نحبها في لحظةٍ.

وإِن كان الزمن يلطّف آلام البشر، إِلاّ أَنّه كان يضاعف آلام مريم، فكلّ يومٍ يمرّ، كان يقرّبها من المأساة الكبرى، من فاجعة الجلجلة.

سحابةَ حياة يسوع الخفيّة كابدت مريم من الآلام النفسيّة والهواجس أَلوانًا، وأَدركت أَنّ فقدان يسوع هو الشرّ الأَعظم. وبما أَنّ الخطيئة هي الانفصال عنه، فقد باتت تقيس بشاعة الخطيئة بمدى الحزن الذي يطغى على نفسها، كلّما غاب عنها ابنها.

ولكن من المحقّق أَنّ الآلام الفدائيّة هي التي مزّقت نفسها أَكثر من جميع الأَحزان التي خَبَرتها طيلة حياتها. وقد بلغت آلامُها ذروتَها، على تلّة الجلجلة.

إِلهيًّا كانت حياة الناصرة حياة سماءٍ، وأَرضيًّا، كانت حياة فقرٍ، وفترة تأهّبٍ لأَعتى الآلام، ولأبهى الأَمجاد.

يعتقد بعض الصوفيّين أَنّ يسوع، ليلة الخميس المقدّس، التمس بركة أُمّه، وموافقتها على آلامه الخلاصيّة. ولكنّها هي التي جثت أَمام إِلهها، ملتمسةً بركته. وأَخيرًا بارك كلٌّ منهما الآخر.

وبنعمةٍ خاصّةٍ، واكبت مريم نزاع ابنها في بستان الزيتون، وسمعت ما صُبّ عليه من تهمٍ وشتائم، وضربات السياط على جسمه الإِلهيّ، وشهدت هوانه.

كانت تحمله في قلبها عندما مضت لتشهده حاملاً صليبه، مثلما يتلقّى المحتضرُ اللّه في نفسه، قبل أَن يمضي لملاقاة وجهه. كانت واقفةً مع يوحنّا، في إِحدى زوايا الطريق التي سيعبرها. وعندما دنا منها مسح عن عينيه العرق والدم كي يراها، وكي ترى ما يختلج في عينيه من أَلمٍ وحبٍّ. حاولت الاقتراب منه ومسح ما علق بمحيّاه الإِلهيّ، ولكنّ الجند ردّوها بعنفٍ وفظاظةٍ. وهوى ربّ السماء والأَرض، فَرَقًا على أُمّه.

هي كانت تتألّم لآلامه، وهو كان يزداد أَلَمًا لرؤيتها تتألّم، وتتفاقم وطأة صليبه على كاهله. وكم آلمها اشتراك رؤساء كهنةٍ، وكهنةٍ، وقضاةٍ، وجندٍ ورعاعٍ في إِذلال

ذلك الجسد الإلهيّ، ورؤية أيادٍ أَثيمةٍ تنتهك قدسيّته، في حين لم يكن بوسعها أَن تمسح بيديها عرقه ودماءه.

وقد أَوجع قَلبَيْ يسوع ومريم غياب التلاميذ، خلا يوحنّا، في حين أَنّ مهمّتهم كانت تفرض عليهم الوجود في الجلجلة، كي يشهدوا آلامه وموته، ويشهدوا، من بعدُ، قيامته. وكان وجود يوحنّا عبئًا أَكثر منه عزاءً، فقد كان على مريم أَن تعزّيه أَيضًا.

وكم أَحدثت خيانة يهوذا، وقبلته الكاذبة، من جراحٍ بليغةٍ في نفس مريم! وكم كانت قد صلّت كي يرجع عن مخطّطه الآثم!

مشت على دروب الجلجلة الملطّخة بدم ابنها الذي امتزج بوحل الطرقات، في كلّ خطوةٍ، ولكأنّها تسير على قلبها النازف المحطّم، وعلى الدم الذي تعبده. وكانت تقدّم له واجبات العبادة.

يسوع الذي طالما كان لها وحدها، رأته ملهاةً بين أَيدٍ مجرمةٍ تدنّسه، وتوسعه تنكيلاً، فيما يداها عاجزتان عن لمسه.

كلّ الجراح التي انتشرت على مختلف أَعضائه، تجمّعت في قلبها.

الجموع تدفعها، وتزحمها، وتدوس على قدميها، وتحول دون مشاهدتها ابنها، وهي صامتةٌ، ثابتةٌ، ساكنةٌ، لا تبدي تأفّفًا أَو وهنًا، أَو نقمةً، ولا تتفوّه بشكوى، بل محكمةٌ سيادتها على نفسها. أَلمها المفرط تحوّل إِلى سكونٍ مفرطٍ.

كم آلمها تعريضه عاريًا للأَنظار الفضوليّة، وهي التي طالما حرصت على إِعداد ثيابه بحبٍّ! مُدِّد على الصليب القاسي، ولكنّ تلك كانت مشيئته، لا مشيئة أَعدائه. ورأت أُمّه أَنّه، في ذلك الوضع الزريّ، أَحقّ بالعبادة من أَيّ وقتٍ، وعبدته بإِجلالٍ عميقٍ. ودُقّت المسامير في يديه اللّتين طالما أَغدقتا العطاء. الأَلم كان يُشيع ارتعاشًا وجيعًا في كلّ أَعضائه، ولكنّه لا يحجب عذوبة نظره. ضربات المطارق كانت تدوّي في صدرها، وتمزّق قلبها، وتحطّم حياتها. فيسوع هو كان حياتها. كلّ طرقة مسمارٍ كانت لها استشهادًا. ثمّ دُقّت المسامير، بوحشيّةٍ، في القدمين اللّتين طالما سعتا وراء خلاص البشر. الأَرض زُلزلت، والصخور تصدّعت أَلمًا. وهل من يستطيع وصف آلام

الأُمّ! وكم أَكسبت هذه الآلام أُمّ يسوع من نِعَمٍ واستحقاقاتٍ تكفي البشر حتّى نهاية العالم!

وحجبت الظلمة الشمس في منتصف النهار، بعد أَن اغتيل شمس العدل، ونور الآب الأَزليّ.

وآلم الأُمّ المفجوعة هزءُ الجند، وهم يقترعون على الثوب الذي حاكت كلّ قطبةٍ منه بفيضٍ من الحبّ. وزادها إِيلامًا ما رأته بالروح من تمزيقٍ لهذا الثوب الذي يمثّل وحدة الكَنيسة، بفعل أَنانيّات رؤساء المسيحيّين، وعنجهيّاتهم، وخلافاتهم، عبر الأَجيال.

اللافتة التي عُلّقت فوق الصليب، كانت هي أَيضًا، مصدر أَلمٍ. فالاسم الذي كان لمريم أَعذب من كلّ موسيقى، وأَطيب من كلّ عطرٍ، دُوِّن على الصليب ولكأنّه مرادفٌ للجريمة. وارتباطه بالناصرة، بدا وكأنّه تدنيسٌ لأَحلى ذكريات حياتها وأَقدسها. وُصف بملك اليهود، وأَيّ عرشٍ أَجلسه عليه اليهود! عزاء مريم الوحيد هو أَنّ قلّةً من الأَوفياء، إِلى جانبها، كانوا قد جعلوا من قلوبهم عرشًا ليسوع، وأَنّ أَعدادًا لا تحصى من محبّيه، على مدى الأَجيال، ستفخر بتنصيبه ملكًا ممجّدًا على عروش قلوبهم.

كانت الأَشواك تفجّر من جبين يسوع قطرات دمٍ تنساب بتؤدةٍ ووجعٍ على عينيه، ولم يكن بوسع أُمّه الدنوّ من ذلك الجبين الحبيب كي تمسح عنه ذلك النجيع المكلّف بمهمّةٍ خاصّةٍ، هي مسح الدموع عن عيون البشر.

وشفتا يسوع اللّتان جفّفهما الظمأ، فبهت لونهما، وتشقّقتا، الشفتان اللّتان من شأن كلّ كلمةٍ تتفوّهان بها، تغذية نفوس البشر، كانت مريم عاجزةً عن ترطيبهما، ولو لحظةً، بمنديلها المبلّل.

ورأسه الوجيع الذي لا وسادة يستند إِليها، ذلك الرأس الذي لم تشهد مريم أَجمل منه، كان إِن أُلقي إِلى الوراء وخزته الأَشواك، وإِن انحنى إِلى الأَمام،أَضرم كلّ أَوجاع المسامير المغروزة في الجسد. وكم تمنّت الأُمّ العذراء في تلك اللحظات، أَن تجعل من راحتيها وسادةً تريح ذلك الرأس، إِلى أَن يطفئ الموت آلامه! لا، لم يكن أَيّ عزاءٍ متاحًا ليسوع أَو لمريم. وكان ذلك، للأُمّ المفجوعة، مصدر أَلمٍ إِضافيٍّ.

وحده ابنها، كان كفيلاً بإسالة العزاء إلى قلبها. ولكنّه، هو، كان سبب آلامها. وحبّها له كان علّة استشهادها. حبّها له كان مزدوجًا، حبًّا فائق الطبيعة للّه الذي كانت تستشفّه في ابنها، وحبًّا طبيعيًّا لابنها الذي كانت تستشفّه في إلهها. هذا الحبّ المزدوج كان حبًّا جمًّا، لانهائيًّا. وبقدر ما كان هذا الحبّ عظيمًا، كانت آلامها – وهي تشهد آلامه – لا تطاق. فحيث لا قياس للحبّ، لا قياس، أيضًا، للألم.

آلامها اللامحدودة، وحدها، كانت كافيةً لتعاطف البشر مع موت إلهٍ متجسّدٍ.

إنّ اللّه، رأفةً بالبشر، يخفي عنهم ما ينتظرهم من صلبانٍ، كي يحملوها مرّةً واحدةً. ولكنّ مريم أُنبئت، منذ طفولة ابنها، بالصلبان التي ستواكب مسيرتها الأرضيّة، وبالسيف الذي لن يكفّ يخترق قلبها، طعنةً إثر طعنةٍ.

ولكن، إن كان الصليب يرهق كاهل الذين يجرُّونه جرًّا، فهو، لمن يعانقونه، منبع قوَّةٍ. ومريم عانقت الصليب بحبٍّ، وهي، حتّى في حومة الآلام، ووسط تسكاب الدموع، كانت راضيةً، لأنّ الخلاص تحقّق.

عندما التقت أنظار المصلوب وأُمّه، اخترق سيفان قلبيهما. لم تمت الأُمّ، ولكنّ آلامها فاقت آلام ألف موتٍ، ولاسيّما عندما شهدت «حياتها معلّقةً أمامها».

وكم تألّمت، عندما شهدت نزاعه المضني، وجسمه، وكأنّه، كلّه، جرحٌ نازفٌ! كلّ جرحٍ في جسده كان طعنةً في قلبها. على صليب يسوع صُلب قلب أُمّه، وما كانت المسامير تحدثه في أعضاء يسوع، كان الحبّ يحدثه في قلب مريم. يسوع ضحّى بجسده، ومريم ضحّت بقلبها. هو سكب دمه، وأُمّه سكبت دموعها، ودماء قلبها.

وقد حاول بوسُّويه تصوير آلام مريم، أمام صليب ابنها، ببلاغته الفذَّة، فقال:

«هل ستدهشون، أيّها المسيحيّون، إن قلت لكم إنّ حزنها منقطع النظير، وإنّ له عواقب لا يُشاهَد لها مثيلٌ في أيّ مكانٍ؟

«إنّ الآب والابن يقتسمان، في الأبديّة، المجد عينه، والأُمّ والابن يقتسمان، في الزمن، الآلام عينها. الآب والابن نبع مسرّاتٍ واحدٌ، والأُمّ والابن سيل مرارةٍ واحدٌ. الآب والابن عرشٌ واحدٌ، والأُمّ والابن صليبٌ واحدٌ. فإذا ما ثقبت الأشواك هامته، مزّقت سنان هذه الأشواك مريم من كلّ جانبٍ. وإن قُدِّم ليسوع حنظلٌ وخلٌّ،

تذوّقت مريم كلّ مرارة هذا الشراب. وإن سُجّي جسد يسوع على صليبٍ، عانت مريم كلّ عنف الصليب.

«وما الذي يفعل بها ذلك سوى حبّها؟ وألا يسعها أن تقول، في هذا الوضع الشاقّ، ما قاله القدّيس أوغسطينُس، بمعنًى آخر: «عبئي هو حبّي»؟ فكم أنت ترهقها أيّها الحبّ! وكم أنت تعصر قلبها الأُمومي! هذا الحبّ يرين كالحديد على صدرها، ويسحقها سحقًا عنيفًا، بحيث يخنق حتّى عبراتها، جاعلاً الثقل الضاغط على هامتها عسير الاحتمال، وحائلاً دون الانعتاق من الحزن بسكب الدموع، ويرين بكلّ وقره على جسمها كلّه، سقامًا يرهقها، ويحطّم جميع أَعضائها.

«ويضاعف ثقل هذا الحبّ كونه يرهق يسوع أيضًا. فليس يسوع وحده هو الذي ينقل عدوى آلامه. بل إنّ مريم، أيضًا، تؤلمه بآلامها، وكأنّهما يتبادلان الطعنات، ولكأنّ هذا الابن، وهذه الأُمّ مرآتان متقابلتان، تتنافسان في تبادل ما يتراءى فيهما، وتضاعفان عدد الأشياء إلى ما لا نهاية.

«وهكذا يتفاقم ألمهما بلا قياس، فيما تتصادم الأمواج التي يثيرها هذا الألم في حركة مدٍّ وجزرٍ لا تتوقّف، جاعلةً حبّ مريم أشدّ بؤسًا. فهو يتعاطف مع يسوع، ولكنّه يفشل في تعزيته، ويقاسمه آلامه، ولكنّه لا يقلّلها، لا بل يجد ذاته مضاعفًا آلام الابن بإشراك أُمّه فيها».

لقد ضاعف أَلمَ مريم عجزُها عن إيتائه أيّ عزاءٍ. فقد شكا الظمأ ولم تستطع أن تنقع عطشه ببضع قطرات ماءٍ. عيناها النائستان كانتا محدّقتين بالوجه الإلهيّ الحبيب الذي أخذت تغيض منه مياه الحياة، وبالشفتين الملتهبتين، المشقّقتين، الجافّتين، اللّتين كساهما بياضٌ مريعٌ. كم كانت شفتا «ماء الحياة» بحاجةٍ إلى قطرة ماءٍ تبلّلهما! أخيرًا شكا: «أنا عطشان»! ولم تفد تلك الشكوى إلاّ في إضرام آلام مريم العاجزة عن تقديم كأس ماءٍ له، وإلاّ في إلهاب قلوبٍ سخيّةٍ لا تحصى، على مدى العصور، بذلت كلّ شيءٍ من أجل نقع عطش المصلوب. ولا ريب أنّ مريم تذكّرت، حينذاك، بأيّة لهفةٍ كانت تسعد بسقايته ماءً باردًا من إبريقها الفخّاريّ، كلّما همس: «أنا عطشان»، في حين باتت عاجزةً عن نقع ظمئه الحارق، والحمّى تلهب حلقه وكلّ جسمه، والجلاّدون يردّون على شكواه بالهزء والإهانات!

وكم تمنّت احتضانه، ولكنّ ذراعيها لم تحضنا سوى الفراغ. وكم اعتصرت قلبها شكواه: «إيلي، إيلي، لمَ تخلّيت عنّي!» شكوى أشارت إلى أيّة هوّةٍ من الإحباط والأسى انتهى ابن الله!

وكم تراكمت آلامه، وهي عاجزةٌ عن مؤاساة أيٍّ منها! وإلى كلّ ذلك كانت المرارة التي طفح بها قلبها تنصبّ في قلب ابنها، فيضاعف ألمها كونُها علّة مزيدٍ من الألم له.

يسوع ومريم قدّما كلاهما لله ضحيّةً واحدةً: هي من دم قلبها، وهو من دم جسده. تضحية مريم كانت مزدوجةً: فهي قدّمت يسوع مادّة الضحيّة، أي لحمها ودمها، وسكبت حياتها البشريّة على الضحيّة. فعل الحبّ البطوليّ هذا وحّدها معه قربانًا، وضحيّة حبٍّ. إنّه العطاء الأكمل، وقد اندرج في ظلمة الإيمان، وفقر الرجاء المطلق، والاستسلام الأكثر تجرّدًا وطهرًا.

تضحية مريم لا تشاهد ظاهريًّا، فهي واقفةٌ عند أقدام الصليب، حيّةً، لا أثر لدمٍ عليها، ولا أحد يشتمها أو يهينها، بل لا أحد يهتمّ بشأنها. ولكنّها، في خفية نفسها تحتضر، وتنزف، وتحتمل كلّ ضروب المظالم، وتعاني كلّ فقر ابنها، حبًّا به وبالآب. هذا الحبّ الذي يأخذ بكلّ مجامع قلب مريم، ويشدّها بأقوى وثاقٍ إلى مشيئة الآب، هو حبٌّ خصبٌ، كفيلٌ بولادتنا على الحياة الإلهيّة، وبتطهيرنا، وبتحويلنا.

عن مشاركة مريم صليب ابنها يقول اللاهوتيّ والصوفيّ الأُرثوذكسيّ، «نيقولا كاباسيلاس»: «تلك الروح التي اتّحدت بشمس العدل، تحمّلت، أيضًا، العناء والألم، عوضًا عن الفرح المتاح لها. لقد اقتسمت مذلّة ابنها ومهاناته... متعاونةً معه في سبيل خلاصي. كانت حاضرةً عندما شرع يُجري معجزاته، ويُقوّم الطبيعة، وكانت حاضرةً كي تشاركه حزنه عندما لاحقه أولئك الذين أغدق عليهم صنائعه بحسدهم وكراهيّتهم... وعندما تعيّن على المخلّص أن يعاني ويموت من أجلنا، كم كان ممضًّا ألم العذراء! وبأيّة سهامٍ لم يُطعَن قلبها؟... لا أظنّ أنّ إنسانًا عانى معاناتها... فما من ظلمٍ أفدح من الحكم بالموت على المخلّص... وكان عليها أن تشارك ابنها في كلّ ما له بخلاصنا علاقةٌ. ومثلما أعطته من لحمها ودمها، وتلقّت بالمقابل، فيض نِعَمه، كان عليها أن تشاركه كلّ أوجاعه، وكلّ آلامه. كانت ملتصقةً

بالصليب، وعندما طعنت الحربة ابنها، تلقّت هي في قلبها ضربة السيف التي كان سمعان قد تنبّأ بها».

الحربة التي طعنت قلب يسوع لم تؤلمه، لأَنّ الحياة كانت قد فارقت جسده، ولكنّها آلمت قلب أُمّه، واخترقته.

وأَكثر من أَيٍّ كان، أَتمّت مريم، في جسدها، ما نقص من آلام يسوع.

ومع كلّ ما حفل به ذلك اليوم من آلامٍ، ظلّت مريم واقفةً عند أَقدام الصليب، ولم تصدر عنها أَيّة أَمارة وهنٍ أُنثويٍّ، أَو نحيبٍ، أَو صيحةٍ يائسةٍ، أَو أَيّة حركةٍ منكرةٍ فجّرها الأَسى.

عن وقفتها هذه كتب «جاكوبوني دا تودي» (Jacopone da Todi): «مريم واقفةٌ عند أَقدام الصليب. ليست منهارةً، ولا مغميًّا عليها. إِنّها واقفةٌ مثلما يسوع واقفٌ. يسوع يعتلي خشبة الصليب، كي يجتذب إِليه البشر أَجمعين، ولكي يشفيهم من عضّات الخطيئة المميتة. كلّ جهوده هي جهود تضحيةٍ. وتشنّجاته هي تشنّجات حبٍّ جسيمٍ. ومريم تموت من موت الحبّ هذا. قبل أَن تخترق الحربة قلب المخلّص، كان سيف الأَلم قد جعلها تقاسم ابنها طبيعة آلامه. ولا يمكن لآلامها إِلاّ أَن تكون فدائيّةً. لن يلبث ابنها أَن يبارح الحياة، ولكنّه، في هذه اللحظات، ما انفكّ يحيا بكثافةٍ قصوى. ولم يتأَلّم، يومًا، إِنسانٌ، ولم يحبّ، بقدر ما تأَلّم يسوع وأَحبّ، قوّةً وطهرًا، ولذلك مريم واقفةٌ تتلقّف أَقوال «الكلمة» الأَخيرة، وأَنفاس من هو الحياة، الأَخيرة. إِنّها تستبق رقادها وانتقالها، تستبق الموت، وقوّة الجذب الشديدة نحو العلاء، نحو ابنها الذي يحاور الآب ويسلّمه روحه. إِنّ طبيعة يسوع الإِلهيّة تبقيها واقفةً، وتحول دون انهيارها تحت تأثير الأَلم.

وما أَجملها في أَلمها! من يتأَمّلها، لا يسعه إِلاّ أَن يُجرح بدوره، وإِلاّ أَن يتعلّق، للأَبد، بأُمّ الأَوجاع، وإِلاّ ذرف دموع صمتٍ ونورٍ. ما من غضنٍ يكدّر صفاء جبينها البتوليّ، ولكنّ نورًا داخليًّا يجعلها تتجلّى.

يكاد يتعذّر على امرأةٍ مهما أَغدقت عليها الطبيعة من آلاءٍ، أَن تحتفظ بجمالها في الأَلم. فالحزن يشوّه ملامحها، إِذ إِنّ تأَلّق المحيّا مرتبطٌ بالبسمة، وبلألاء النظر، اللّذين يتلاشيان بفعل الأَلم – ما خلا آلام الولادة – فالمرأة التي تضع وليدها، مع

كلّ تشنّجها، مستسلمةٌ بكليّتها للحياة الآتية. تلك هي حال آلام أُمّ الكنيسة، فهي تكتسب من كوكبة الأَبناء القادمين جمالاً.

يسوع يؤكّد هذه الولادة بقوله: «يا امرأة، هوذا ابنك». يقول: «يا امرأة»، ولا يقول يا أُمّ، فولادتها لا تخضع لنظامٍ طبيعيٍّ، بل لنظامٍ فائق الطبيعة. وهو يقول: «هوذا ابنك»، ولا يقول ابنك بالتبنّي، أَو هوذا ابنٌ آخرُ لك. كلاّ! بل إِنّ لقول يسوع بعدًا سحيقًا، فهو يعني: هوذا يسوعٌ آخر، ذاتي الأُخرى؛ هوذا حقًّا، ابنك الذي ستعقدين معه علاقةً فريدةً، وتواصلاً حميمًا كذاك الذي جمعنا، في الناصرة. وفي مريم سيكون لابن الله من الأُخوة الوحيدين بقدر ما يشاء.

نحن، جميعًا، مدعوّون إِلى أَن نكون أَبناء العذراء مريم، أَبناء أَوجاعها، ونحن مدعوّون إِلى أَن نسمع، يومًا، نبرة هذا القول: يا امرأة، هوذا ابنك، وحينئذٍ سيتحقّق فينا تحوّلٌ فوريٌّ.

الملاك أَعلن مريم أُمًّا ليسوع، ويسوع أَعلنها أُمًّا للبشر. دعاها «يا امرأة»، ولكأنّه جرّدها من أُمومتها له، وأَقرّها حوّاء جديدةً، وأُمًّا لكلّ الجنس البشريّ، وقرَّبها إِليه أَكثر، ووثّق وحدتها به، وبلغ حبّه لها ذروته، إِلاّ أَنّ كلّ دليل حبٍّ جديدٍ من قبله كان يزيدها حبًّا وأَلَمًا. ومع ذلك، في نفس مريم، الاستسلام عينه لمشيئة الله، والسجوّ نفسه، والحبّ ذاته. لقد حوّل يسوع أَنظار أُمّه عنه، ووجّهها صوب الكنيسة، وصوب أَعدائه، ومضطهديه، وقتلته. أَخرجها من دائرة أُمومتها له، وأَقامها في مركز مهمّتها الجديدة، وعلاقتها بالجنس البشريّ. وفي حين كان يحدّثها، كان الخطأة يشغلون باله وقلبه.

ومريم، في غمرة أَحزانها وآلامها، لم تُغفل الخطأة. صلّت من أَجل رفيقيْ صلبه، اللصَّيْن المجرميْن، ونالت لأَحدهما ما تخطّى كلّ توقّعٍ. ولكن، كم شقّ عليها أَن يظلّ الآخر، رغم قربه الوثيق من المخلّص، منغلقًا دون النعمة، مصمّمًا على الهلاك! وسيظلّ هذا الأَلم يكوي قلبها، كلّ يومٍ.

مريم حاضرةٌ إِلى جانب ابنها في مستهلّ رسالته، في قانا، وفي اكتمالها على الصليب. قول ابنها لها: «يا امرأة، هوذا ابنك»، كان وصيّة حبّه الأَخيرة لتلك التي أَحبّها حبًّا جمًّا، ودليلاً على مكانتها الرفيعة في مشروع الخلاص. إِنّها المرأة الجديدة،

وأُمّ الخليقة المتجدّدة. في مريم كان يسوع يرى الكنيسة، وقد شاء أَن تكون لهذه الكنيسة الأُمّ.

لقد طالب أُمّه بالتضحية القصوى، واقتضى منها التجرّد الكلّيّ. طالبها بتقبّل يوحنّا، في قلبها، ابنًا حبيبًا، في حين أَنّ طبيعتها البشريّة العميقة لم تكن تريد التفكير إِلاّ في ابنها، ومشاركته لحظاته الأَخيرة على هذه الأَرض. أَليس حقّها الذي لا تقوى سلطةٌ بشريّةٌ على سلبها إِيّاه، أَن تكون بكلّيّتها لابنها المحتضر؟ ولكن تعيّن على تلك الأُمّ الفريدة، التي تخلّت حتّى عن حقوق الأُمومة كي لا تمارسها إِلاّ بوحي الروح القدس، أَن تلزم قلبها بالفقر الأَقصى والأَعمق غورًا. كان عليها أَن تُحرم امتياز الأُمّ كي تحصر اهتمامها بوصيّة ابنها الأَخيرة.

كان يسوع، وهو في الثانية عشرة، قد طلب منها أَن تحدّق إِلى الآب، وأَن تلتمس ابنها لدى أَبيه؛ وها إِنّه، مصلوبًا، يطلب منها أَن تحدّق إِلى يوحنّا، تلميذه الحبيب، وأَن تلتمس ابنها في قلب يوحنّا. وقد امتثلت لهذا الطلب، ولم تُقِم بين يسوع ويوحنّا، أَيّة مقارنةٍ، بل تقبّلت كلمة ابنها الإِلهيّة، لكي تمكنّها من الإِخصاب، وتحوّل قلبها إِلى قلب أُمٍّ ليوحنّا، ومن خلال يوحنّا، للكنيسة جمعاء. فهي بتقبّلها وصيّة ابنها، حملت الكنيسة في أَحشائها، بالآلام.

بهذه الوصيّة أَظهر لنا يسوع مدى ثقته بأُمّه، ورغبتها في التوافق التامّ مع مشيئة الآب، من خلال ابنهما. وهي تعلم كم هو يحبّها، وكم هذا الحبّ خاضعٌ للآب، وكم هو يرغب في أَن تكون بكلّيّتها له، ولكن في فقرٍ كاملٍ، لكي تكون، بكلّيّتها، للآب، متّشحةً برحمته.

لقد حملت مريم يسوع بفعل إِيمانٍ، ووقفت حياتها كلّها على تتميم مشيئة الآب تتميمًا فريدًا كاملاً، مردّدةً، بلا هوادةٍ: «فليكن لي بحسب قولك».

وهي، بذلك، كانت أُمّ يسوع مرّتين، ومطوَّبةً مرّتين، لأَنّها ولدته، ولأَنّها حفظت كلمة الآب بعنايةٍ وأَمانةٍ. وقد آمنت حتّى عندما لم تفهم فهمًا كاملاً؛ والتزمت السكون والصمت حتّى في الأَوضاع الموجعة. لم تنهرْ أَبدًا، وطيلة مسيرتها وقفت وقفة السنديانة العتيقة التي تزيدها مقارعة الرياح ثباتًا ومنعةً. وهكذا توغّلت في سرّ الأُمومة الروحيّة، التي تفوق الأُمومة الجسديّة شأنًا. وبذلك أَصبحت أُمًّا لجميع من يولدون من الروح. وبذلك، تجلّت بتوليّتها أُمومةً روحيّةً غنيّةً بلا حدودٍ.

في نظر يسوع المصلوب، كان يوحنّا يمثّل كلّ جماعة المؤمنين، بل البشريّة جمعاء. وبإيكاله إلى عناية أُمّه العذراء، وإيكال أُمّه إلى عناية من يمثّلهم يوحنّا، أتمّ يسوع رسالته على الأرض. هذا ما يشير إليه قول الإنجيليّ: «بعد هذا، رأى يسوع أنّ كلّ شيءٍ قد اكتمل...» (يوحنّا ١٩:٢٨). كانت تلك مبادرة رسالته الأخيرة، والهديّة التي لا تقدّر بثمنٍ، التي أكرم بها البشريّة، في ساعته الأخيرة.

منذ تلك اللحظة، وإلى الأبد، بات لكلّ من افتداهم يسوع أُمٌّ، هي أُمّه عينها، ولم يعد بوسع أحدٍ، مدى الدهور، أن يشكو من اليتم، طيلة حياته.

أحبّت مريم يوحنّا، وأحبّت كلّ واحدٍ منّا، مثلما أحبّت يسوع، بكلّ قلبها الأُموميّ. أحبّته إكرامًا ليسوع؛ أحبّته إكرامًا للآب، وبكلّ رأفة الآب. يسوع برهن عن عظمة حبّه، ببذل ذاته عن أحبّائه. ومريم برهنت عن عظمة حبّها ببذل حياة وحيدها، من كان لها الوجود كلّه. وهي تحبّ كلّ أخٍ ليسوع مثل حبّها ليوحنّا، على أن يتّخذها أُمًّا مثلما اتّخذها يوحنّا، ومثلما أحبّها، بقلب يسوع. لقد غدا ليسوع وليوحنّا الأُمّ عينها. وعلّمت مريم يوحنّا أسرار حبّ يسوع.

كانت مريم ليوحنّا الأُمّ المعزّية، أمام الصليب. وهي لنا كذلك كلّما انتصبت الصلبان في طريقنا، ورزحت، تحت وقرها، كواهلنا. ولا ريب أنّ آلام يوحنّا، بسبب آلام معلّمه، مع قسوتها، لم تكن سوى صورةٍ باهتةٍ لآلام أُمّ المصلوب.

بعد أن قدّم يسوع، بآلامه، وصلبه، وموته، كلّ براهين حبّه الجمّ، شاء أن تكون طعنة جنبه وقلبه الدليل الأخير والدامغ على حبٍّ مشرعٍ بلا حدودٍ. قطرات الدم والماء التي انهمرت من الجرح النازف كانت مخصّصةً لمريم، كانت دموع قلبها المكلوم، دموعًا حارقةً مطهّرةً، وقد قدّمتها للآب، إذ إنّها شريكة القلب المطعون، قلب الكاهن الذي أمسى عاجزًا عن تقديم الضحيّة، فقدّمتها هي نيابةً عنه. كان يسوع قد فارق الحياة فلم تؤلمه طعنة الحربة، ولكنّ هذه الطعنة أصابت قلب أُمّه في الصميم. وكان يوحنّا شاهد هذا السرّ، وعاش به، لأنّه ابن مريم، وبفضله توغّل إلى صميم قلب يسوع ومريم، ووقف على أسرار حبّهما.

مشاهدة مريم لمعاناة يسوع على الصليب كانت تسحقها. وقد وافت نحو ذلك المذبح كي تقدّم ذاتها ضحيّةً مع ابنها. وهناك أحدث السيف الذي تنبّأ به سمعان

من الجراح أَوجعها. ولكنّها، هي، لم تنهرْ، بل ظلّت منتصبةً إِلى جوار الصليب. السيف لم يوهن قواها، بل كان صمودها بمستوى آلامها. وكان خضوعها لمشيئة الآب كاملاً. ولذلك شاركها ابنها خصب صليبه وفدائه.

صليبٌ واحدٌ كان كافيًا ليسوع وأُمّه. صليبه كان صليبها، وقد صلبها عليه حبّها له ولنا. مريم ولدت يسوع بلا أَلمٍ، ولكنّها تلد إِخوته المسيحيّين، في كلّ جيلٍ، بفضل آلامٍ مبرّحةٍ. لقد أَدّت ثمن الأَبناء الذين تبنّتهم بحياة ابنها الوحيد. كم كلّفك حبّك لنا، يا أُمّنا!

ومريم، الشريكة في الفداء، أَنجبتنا عند أَقدام الصليب بأَعظم فعل إِيمانٍ، ورجاءٍ، وحبٍّ كان بوسعها أَن تؤدّيه في تلك اللحظات. بل يمكن القول إِنّه أَعظم فعل إِيمانٍ على الإِطلاق. ففي ساعة الظلمات تلك، عندما تهاوى إِيمان التلاميذ أَنفسهم، وبدا يسوع مقهورًا، وعمله منهارًا، وبدت السماء نفسها غير مصغيةٍ لاستغاثته، لم تكفّ العذراء، لحظةً، عن الإِيمان الواثق بأَنّ ابنها هو مخلّص الكون، وبأَنّه سيقوم في فجر اليوم الثالث. وعندما هتف «لقد تمّ»، أَدركت أَنّ الخلاص تحقّق بأَوجع تضحيةٍ، ستظلّ الأَجيال، إِلى الأَبد، تحتفل بذكراها، بحبٍّ وذهولٍ.

ومثلما كان موقفها أَعظم فعل إِيمانٍ، كان، أَيضًا، أَعظم فعل رجاءٍ. فعندما رأت السماء تفتح أَبوابها للصٍّ تائبٍ، تيقّنت أَنّها ستظلّ مشرعة الأَبواب لجميع من يؤمنون بيسوع. وكان موقفها أَعظم فعل محبّة، إِذ قدّمت ابنها الوحيد لفداء البشر وخلاصهم.

في الجلجلة ولدت العذراء الشعب المسيحيّ ولادةً أَليمةً. وهي، اليوم، تلد عالمًا مسيحيًّا متجدّدًا، ولادةً أَليمةً.

آلام يسوع كانت امتحانًا شاقًّا لإِيمان مريم. فهل يُعقَل أَن يُمتَهَن إِلهٌ، كلَّ هذه المهانة، ولا يأتي من سماواته من يدافع عنه! كم كان إِيمانها صلبًا وراسخًا كي تبقى واقفةً عند أَقدام الصليب، رغم كلّ ذلك، حين بدا وكأَنّ الخطيئة هي التي انتصرت، والعدالة هي التي أُدينت، والقداسة تخلّى عنها العليّ، والخليقة انقلبت على خالقها! حين كان يسوع في أَشدّ حاجةٍ إِلى تدخّلٍ إِلهيٍّ، غاب عنه الآب. ومع ذلك، صمدت مريم بإِيمانٍ عارٍ، واثقٍ، فقد كان يسكن قلبها من الإِيمان ما يكفي لخلاص العالم كلّه.

وفي لحظة فقدانها يسوع أَصبحت مريم أُمّنا، أُمّ جموعٍ لا تحصى من الخطأة التائهين بلا راعٍ. وقد راعتها رؤية بشاعة الخطيئة، وآلمها، في الصميم، عناد رافضي النعمة. كان قلب مريم هو أَمل يسوع في تليين قلوب الخطأة؛ وقد فجّر، في هذا القلب، ينابيع حبٍّ لا تنضب، بحيث أَحبّت البشر مثلما أَحبّته هو ذاته. ولكأنّه قسّم ذاته مليارات المرّات، لكي تجده وتحبّه في كلّ إِنسانٍ محتاجٍ إِلى حنان أُمٍّ، حبًّا صامدًا، مضطرمًا، مقنعًا، يسمو فوق حبّ كلّ أُمٍّ أَرضيّةٍ، برجائه، ورقّته، ومثابرته. وهذا الحبّ هو، لمريم، منبع أَلمٍ جديدٍ.

إِذا مُنيت أُمٌّ بمشاهدة موت ابنها جثت عند سريره، وأَراحت رأسه فوق وسادةٍ ليّنةٍ، ومسحت جبينه بأنامل يختلج فيها قلبها. وسرير يسوع كان خشبًا قاسيًا، ووسادته حزمة شوكٍ، والدم ينثال من جبينه، ويتسرّب إِلى عينه، مشيعًا فيهما، وفي كلّ جسده، قشعريرةً مريعةً، ومريم واقفةٌ لا تقوى على مدّ يدها الحانية إِليه، عابدةً آلامه، في خشوعٍ واحترامٍ وتسليمٍ لمشيئة الآب.

آلام مريم، أَمام الصليب، كانت شاملةً. كانت غارقةً في يمٍّ من الأَلم والأَحزان. إِرادتها خضعت لأَعتى امتحانٍ، وجسدها كان ضحيّة نزاعٍ نفسيٍّ ممضٍّ. ورجلاها كانتا تقاسيان قسوة وقوفٍ مضنٍ. وعلى يديها، كانت قطرات دمٍ من يسوع تلهبهما.

وفوق كلّ ذلك، حرمت مريم من عزاء الموت مع ابنها.

ولكنّ حضور الله الدائم والراسخ فيها كان يشيع فيها سكونًا مدهشًا، بمنأًى عن كلّ رعدةٍ، أَو ذهولٍ، أَو تيهٍ، بل في توافقٍ مع مخطّطات الله، بوقارٍ ساجٍ. حياتها الداخليّة كانت متحرّرةً من ضغوط الظروف الخارجيّة، محافظةً على سكونٍ مقترنٍ بجرأةٍ صامتةٍ، سخيّةٍ. التزمت الصمت لأَنّها كانت تسكن في الله. وكان صمتها دليل اتّحادها المدهش بالله، في بساطة الأَطفال.

لقد شاء يسوع أَن تكون أُمّه حاضرةً في ساعة موته، وما أَحرانا بأن نحذو حذوه، وأَن نسألها أَن تعدّنا لهذه الساعة، فما أَسعد الذين تغمض العذراء عيونهم بيديها! إِنّها سيّدة الساعة الأَخيرة، وتسهم مع ابنها، في فداء العالم، خاصّةً عند أَسرّة الموت.

وأَمام صليب ابنها، كم تأمّلت العذراء أَسرار الصليب، التي تشمل الحياة،

والزمن، والموت، والشكّ، والخير، والشرّ، والقلق الذي يخيّم على مصيرنا الأبديّ! هذه الأسرار غالبًا ما تضني قلوبنا. ولكنّ الصليب هو معناها وهو، لجميعها، الحلّ. فهو يطرح الأسئلة ويجيب عليها. إنّه تفسير الألغاز، ويقين كلّ الشكوك، ومركز كلّ إيمانٍ، ومنبع كلّ رجاءٍ، ورمز كلّ حبٍّ. إنّه يعلن الإنسان لذاته، ويعلن اللّه للإنسان. إنّه يقدّم للزمن نورًا، لكي يحدّق في الأبديّة ويطمئنّ.

عذبةٌ هي رؤية الصليب في أوقات الفرح، فهو يبعث في الفرح رقّةً من غير أن يدينه، ويرقى به بمنأًى عن التوتّر. وليس أعذب من رؤية الصليب في ساعات الألم، إذ إنّه يضفي على الظلمات نورًا. صمت تبشيره فصيحٌ دائمًا، والموت معه يتحوّل حياةً، لأنّه عربون الحياة الأبديّة.

وأسلم يسوع الروح بين يدي أبيه السماويّ، فهمد التوتّر، وفتر الجهد، ورازت مريم كلّ وقر الألم والإعياء. انتهى كلّ شيءٍ، وبدأ الألم يرين بكلّ ثقله، وأصبح استمرار الحياة ممضًّا. كانت الحياة قد فارقت يسوع، ولكنّ رفيقي صلبه ما انفكّا يعانيان. وكسرت ساقاهما، وكم دوّت، في قلب مريم، تلك الفعلة الوحشيّة، ولاسيّما أنّ أحد اللصّيْن، بفضل صلواتها، كان قد أصبح طليعة أبنائها الجدُد! وطعن جنديٌّ جنب يسوع بحربةٍ أدمت قلب أُمّه.

لا شيء على الأرض كان أقدس من ذلك الجسد الجامد المثخن بالجراح. وكم خشيت مريم أن يمعن المجرمون في تدنيسه! وقد كانت طعنة الحربة التدنيس الأوّل.

نُزع إكليل الشوك عن جبين المخلّص، وتسلّمته مريم. كلّ شوكةٍ مدمّاةٍ فيه كانت منبع حياةٍ، وكانت تنغرس في قلب مريم، وترسّخ فيه روح آلام يسوع واستحقاقاتها.

وعاد طفل بيت لحم إلى حضن أُمّه. بأيّة حالٍ عدتَ إليه يا يسوع! دهنت مريم كلّ جرحٍ في جسده الإلهيّ بمزيجٍ من الحنوط، وتأمّلت، من خلال تلك الجراح، كلّ آلام الربّ الفدائيّة، وكأنّها خريطة الفداء.

ذراعاه الممدودتان كانتا دعوةً إلى كلّ إنسانٍ للارتماء فيهما. كانتا ملجأً مشرعًا للكون كلّه. وقد أُوحي إلى القدّيسة بريجيت أنّ العذراء أغمضت عيني يسوع، ولكنّها لم تقوَ على طيّ ذراعيه اللّتين ظلّتا مبسوطتين للخطأة التائبين العائدين إليه.

للمرّة الأخيرة تملّت مريم من تأمّل الوجه الحبيب، على هذه الأرض، قبل أن

تسبل عليه كفنًا، وكأنّها تطعن بيدها قلبها من جنبٍ إلى آخر. وفيما كان يسوع بين يديها، كانت وكأنّها كاهنٌ يقدّم قربانًا.

لو استطعنا تقدير ما كانت حياة يسوع تعني لأُمّه، لكان بوسعنا، بعض الشيء، سبر آلام فراقهما. فالسنوات التي انفقاها في وحدةٍ حميمةٍ كانت قد صهرت قلبيهما في قلبٍ واحدٍ. وها قد غدا لها العالم صحراء مريعةً. ومع ذلك، كان عليها أن تظلّ صامدةً كي تسبغ على المحيقين بها بعض العزاء والقوّة، وحفاظًا على وديعة الجسد الإلهيّ من أيّ تدنيس أثيمٍ. فذلك الجسد، حتّى وهو هامدٌ، ميتٌ، لا شبيه له. فقد كان متّحدًا بكائنٍ أزليٍّ، أبديّ الحياة. كان شيئًا مقدّسًا، جديرًا بالعبادة. وكان، في انفصالها عنه، ألمٌ لا يحيط به وصفٌ.

دَفْنُ يسوع، واضطرارُ أُمّه إلى الفراق الأخير كانا ثمالة الكأس التي تجرّعتها. تلك اللحظة اختزلت كلّ الآلام والأحزان السابقة. وذاك الذي لم تلمسه سوى يديها في ولادته، كان عليها أن تشهد أيادي غريبةً تنتزعه منها إلى الأبد، إثر موته، وأن تدعه وحيدًا في الرمس الموحش، وأن تُحرَم من حضوره الغالي.

وقد تقبّلت مشيئة الآب هذه في الإيمان، والرجاء، والحبّ، وأنفقت يوم السبت الشرعيّ الأخير، في التأهّب لأسرار المجد التي تدشّن عهدًا جديدًا.

حتّى وهو معلّقٌ على الصليب، كان لا يزال ليسوع حضورٌ مادّيٌّ يؤتي العذراء بعض عزاءٍ. ولكن بعد أن سُجّي، وحيدًا، في الرمس، تعيّن على مريم أن تضحّي بكلّ عزاءٍ، وتتقبّل الانفصال الكامل عن وحيدها، في ظلمةٍ دامسةٍ كاملةٍ. غير أنّ إيمانها ازداد يقينًا بأنّ عتمة القبر إن هي إلاّ تمهيدٌ لأنوار القيامة الساطعة، وبأنّ يسوع هو، كما سبق له أن قال: «نور العالم» وهو «القيامة».

تلك التي لم يبقَ لها شيءٌ في الوجود سوى الإيمان والرجاء، انتظرت تحقيق الوعد انتظارًا بدا، على قصره، بلا نهايةٍ.

سرّ اللحد هذا، عاشته مريم في إيمانٍ جمع العتمة إلى اليقين، وفي رجاءٍ قرن التجرّد بالصمود، وفي حبٍّ ازداد كثافةً. قلبها الذي جعله موت ابنها جذوةً هامدةً يكسوها الرماد، وتبدو، ظاهريًّا، منطفئةً، ولكنّها لا تودّ سوى أن يشبّ لهيبها، ويتعالى، ويضرم كلّ شيءٍ.

عندما توارى يسوع، ابن الثانية عشرة، في الهيكل، كان على مريم أن تبذل كلّ جهدٍ في سبيل استعادته، أمّا وقد واراه القبر، فكان عليها أن تهمد، وتعتصم بالصبر، والإيمان، والرجاء، والحبّ، والاستسلام الكلّيّ لمشيئة الآب.

وقد تميّز أَلم مريم، أمام الصليب، بقرن الإجلال الخاشع إلى الأُلفة البسيطة، أُلفةٍ لا تنبع إلاّ من قداسةٍ راسخةٍ، ومن استغراقٍ طويلٍ في القداسة. كانت تضمّخ الجسد الغالي بعيدًا عن مظاهر المشاعر الصاخبة، وكانت تقدّسه بمنأًى عن مظاهر العبادة. منذ ولادته، كانت تعلم أنّه إلهٌ، ولكنّ ذلك لم يمنعها من ممارسة حقوق الأُمومة عليه. سحابة سنواتٍ عقدت معه علاقات أُلفةٍ، ومودّةٍ وثيقةً، من غير أن تغفل واجب عبادته، في سرّها. وهكذا كانت وهي تحنّط جسده.

وهكذا، بالفداء، أمسى البشر أبناء الله، وأمست العذراء أُمّهم. ويسوع الذي علّمنا أن ندعو الله «أبانا»، علّمنا، وهو على الصليب، أن ندعو أُمّه «أُمّنا».

وحان أوان الدفن، فسلّمت مريم، أخيرًا، الكنز المقدّس الثمين الذي لم يكن يحقّ لأيٍّ سواها لمسه، والذي أصبح ملكًا للعالم أجمع، وإرثًا لنا، نحن جماعة الخطأة. وشهدت الخليقة فئةً ضئيلة العدد من المخلصين تحمل إلى قبرٍ منحوتٍ في الصخر، باري الكون، وأُمًّا لم تتخطّ الخمسين تحمل حداد ابنها الإلهيّ.

قلوبٌ ضاقت بمشاعر لا يعرفها البشر، فعجزت الأفواه عن الكلام، وساد صمتٌ خاشعٌ. أَلم مريم تجاوز حدود الاحتمال. وعندما أُودع الجسد الغالي في القبر، انحدرت إلى أقصى أعماق الفقر والتجرّد.

من أوجع الفواجع أن يتوارى ابنٌ عن أنظار أُمّه إلى الأبد. ولكن كم شقّ على مريم أن يتوارى عن أبصارها وجه من هو، في آنٍ واحدٍ، ابنها وإلهها، معًا!

دم المصلوب كفيلٌ بتخفيف نيران آلام الخطيئة، ولكنّ هذا الدم نفسه هو الذي كان يكوي قلب مريم، ولا شيء يقوى على إخماد ناره.

من قبلُ، كانت تتّكئ على يسوع، ومنه تستمدّ الراحة والسلام والفرح، وها هي ذي قد فقدت سندها، وبات عليها أن تحمل الكنيسة في قلبها، وأن تكون سندًا لندم بطرس، وإيمانه المنبعث، ولحبّ يوحنّا والمجدليّة.

من صميم الآلام المحتملة بصمتٍ ينبثق نور العبادة المثلى السنيّ، وترفع أمواجه

الهدّارة التي لا تُقاوَم تقدمة الحبّ البشريّ، إلى أَسمى ذروةٍ استطاع الملائكة بلوغها يومًا.

ولئن كانت الآلام الكبرى تحطّم النفوس الضعيفة، أَو تجعلها تنكفئ على ذاتها، إلاّ أَنّها تجعل نفوس القدّيسين أَعمق تعاطفًا مع المتألّمين، وأَصدق شكرًا للّه. وهل من نموذجٍ للقداسة أَسمى من مريم؟ فالأَلم المحتمل برضًى وقبولٍ وتضحيةٍ، يضفي على الكيان فيضًا من رقّةٍ، ويجعل علاقاتنا باللّه أرحب وأَرفع سموًّا. وكلّ من يحذو حذو المصلوب في تحمّل المضايق، يصبح مثله فاديًا للآخرين.

يسوع، على الصليب صلّى من أَجل قاتليه، والشهداء صلّوا من أَجل جلاّديهم. والأَذى الذي يلحق بقدّيسٍ ما، كفيلٌ بأن يكسب صلاته حرارةً وتقوًى. ولا ريب أَنّ نفس مريم قد انسكبت شفاعةً للآخرين في غزارةٍ وسلامٍ يتناسبان مع طغيان مياه المرارة التي كانت تتدفّق عليها. وقد كانت صلواتها كنوزًا كفيلةً بإِغناء العالم، فوق كلّ توقّع. فقد تدفّق سيل حبّها العارم من خلال شفاعتها، ولا سيّما أَنّ هذه الشفاعة كانت التعويض الأَمثل عن الإِهانات التي كابدها يسوع.

ولا جرم أَنّ النوائب الكبرى تجعل النفوس المختارة أَوثق قربًا من اللّه، وأَعمق شكرًا له، إذ إِنّ نعمه تفيض، حينئذٍ، بغزارةٍ، وتنقّي النفوس من شوائبها. ولا ريب أَنّه بقدر ما كانت مريم تغوص، أَعمق فأَعمق، في هوّة الآلام المريعة، كانت صلاتها تطرق، بعذوبةٍ فذّةٍ، آذان الربّ، وتنفذ إِلى أَعماق قلبه، في نشيد عبادةٍ جُلّى.

آلام مريم حفرت في نفسها وهادًا تدفّقت فيها نِعَم اللّه السنيّات، مكملةً امتلاءها. تلك الأُمّ التي حطّمتها الأَحزان والآلام، هي منعة الكنيسة، وهي ملكة الرسل، وأُمّ العالم الحقّة.

آلامها لم تكن لازمةً لفداء العالم، ولكنّها، في مخطّط اللّه، كانت ملازمةً له، لا تنفصل عنه. ولولا آلام يسوع، لما عرفت العذراء الأَلم، وهي باحت للقدّيسة بريجيت: «حزن يسوع هو حزني، لأَنّ قلبه هو قلبي... ابني وأَنا افتدينا العالم بقلبٍ واحدٍ».

مشاركة مريم بآلام يسوع كانت تقدمتها للآب الأَزليّ، تقدمة خليقةٍ منزَّهةٍ من الخطيئة من أَجل التكفير عن خطايا إِخوتها في البشريّة... وإِذ هي كانت تخفّف

قلوبهم من عبئها، كانت ترهق قلبها. ظلماتها كانت لهم نورًا، ونزاعها كان لهم سلامًا. ابنها كان ضحيّتهم، وسلوكهم كان علّة استشهادها.

تقدمتها كانت تتصاعد إلى السماء، مقترنةً بتقدمة يسوع. تانك التقدمتان كانتا حبَّتي بخورٍ فوق جمرات مبخرةٍ واحدةٍ يتصاعد فوحها المتشابك نحو عرش الله، مؤلّفًا سحبًا رقيقةً مختلفة الألوان، ولكنّها متلازمةٌ. تأوّهات قلب مريم المكتومة، تأوّهات قلبها المحطّم، تصاعدت إلى السماء على وقع الجلدات التي حرثت جسد ابنها. عندما طالبت الجموعُ بصلب يسوع، وإعتاق باربّاس، وشقّت صيحاتها المأفونة عنان السماء، كان نزاع مريم موسيقى رقيقةً تطرق سمع الآب، وسط الصخب الوحشيّ. وعلى وقع المطارق، كانت اختلاجات قلب مريم ترتقي وتحطّ عند أقدام العرش الإلهيّ. تلهّفاتها الصامتة كانت تمخر الأجواء، وتصعد في مثل سرعة أقوال يسوع السبعة على الصليب، والصيحة التي أطلقها وهو يسلم الروح، سُمعت في السماء مرَّتين، وكانت المرَّة الثانية عندما دوّى صداها متفجّرًا من قلب مريم. وهكذا، في ساعات الآلام، كانت كلّ تقدمةٍ مزدوجةً: فتقدمة يسوع وتقدمة مريم متلازمتان، متّحدتان في تقدمةٍ واحدةٍ.

كانت العذراء، حاضرةً في الجلجلة بصفَتَيْن: صفة المتعاونة مع الفادي، وصفة الممثّلة للنفوس المفتداة. ولحضورها هذا تأثيرٌ على جميع الأجيال. إنّه منبع قداسةٍ دائمٌ، في كلّ جيلٍ من المؤمنين، وقدرةٌ حيّةٌ تفيض النعمة بين أبناء الله. إنّها تقود طغماتٍ من النفوس إلى يسوع، تحطّم قيود الخطيئة والعادات الذميمة؛ تذيب برودة القلوب، وتضرم العواطف الفاترة لدى النفوس الغارقة في بلادة العالم. إنّها تشيع النور والحنان، وروح الصلاة، والصبر على الألم، والعطش إلى التوبة، وتصوغ نفوس القدّيسين.

آلام مريم وسَّعت آفاق قلبها، وعمَّقت تعاطفها مع آلام البشريّة، وأسهمت في التكفير عمّا ألحقه البشر بالله من إهانةٍ. وكان هذا التكفير مقبولاً بقدر ما كان نابعًا من قلب أُمّ الله عينها.

ولا ريب أنّ يسوع يدين لأُمّه بما سبّبته آلامه لها من آلامٍ، وهذا يفسّر تأثيرها البليغ على قلبه. آلام مريم مرتبطةٌ بآلام ابنها، وهي، وبالتالي، تنطوي على قدرةٍ

فائقةٍ تحيي ذكرى يسوع وآلامه فينا. ولا مراء أَنّ يسوع يستحقّ أَن يُحَبَّ بلا حدودٍ، وبكلّ الطرق، ولكنّنا نزداد حبًّا له عندما نرى صورته معكوسةً على قلب أُمّه.

مريم كانت أَداة التجسّد، والتجسّد كان وسيلة الفداء. وبآلامه افتدى يسوع العالم. وكذلك فعل تلاميذه وقدّيسوه. لقد أوتوا حبًّا مدهشًا، ونعمةً فائقةً، اتّخذت شكل أَلمٍ مضنٍ. هم، أَيضًا، غاصوا في عباب الغمام وخرجوا منه بوجهٍ مشرقٍ، إِذ تسنّى لهم أَن يشهدوا، عن كثبٍ، وجه المصلوب. ومن ثمّ يمكننا تخيّل آلام مريم، فهي، دائمًا، الأَوثق قربًا من يسوع. جسامة آلامها لا تدهشنا، فهي الخلاصة الطبيعيّة لما نعرفه عن سرّ التجسّد. هوّة آلامها تمكّن من سبر الحبّ المتبادل بينها وبين ابنها. رفعة أُمومتها الإِلهيّة ارتقت بآلامها إِلى مستوى آلام المخلّص.

إِنّ ما يسند الشهداء، ويمكّنهم من التغلّب على قسوة الآلام، هو أَنظارهم المحدّقة إِلى يسوع، وحبّهم الراسخ له. ونظر العذراء كان، دائمًا، شاخصًا إِلى ابنها، وكلّ ما عهده القدّيسون والشهداء من حبٍّ للمخلّص، لا يساوي ذرّةً من حبّ أُمّه له. إِنّه ابنها، وهو، في الآن عينه، إِلهها. وحبّها له هو عبادةٌ حقّةٌ. ولا ريب أَنّ ما ضاعف آلام مريم هو إِحساسها بما كانت تسبّبه آلامها الخاصّة من وجعٍ ليسوع.

وبقدر ما كان يسوع رائع الجمال، كانت آلامه تحطّم قلب أُمّه. وبقدر ما كان اتّحادهما أَوثق، كانت آلام يسوع أَنفذ إِيجاعًا لقلب أُمّه، فقد كان يسوع حبّ أُمّه الوحيد.

وكان على مريم أَن تهبط إِلى أَعماق كلّ الآلام التي قد تعانيها قلوب البشر، لكي تكون أُمّ الرحمة، وملجأ المحزونين. كان عليها أَن تروز ثقل أَحمالنا، وأَنماط البؤس التي يجرّها كلّ إِنسانٍ وراءه، كي تحدّد أَصناف العزاء الكفيلة بتهدئة قلوب البشر، في مِحَنهم المختلفة.

ولا ريب أَنّ، أَكثر من آلام يسوع الجسديّة، كانت تؤلمها آلامه النفسيّة، ورؤيته لبحار الخطايا الهائجة، التي لا تني تنصبّ فيها روافد خطايا قذرةٍ، مخزيةٍ، خطايا نذالةٍ ونكران جميلٍ، ولا سيّما تلك التي يقترفها من كرّسوا له ذواتهم، ثمّ خانوه لقاء متعةٍ عابرةٍ، أَو نزوة كبرياء.

لقد وجد الصليب، في العذراء، اكتماله، لأَنّها رحّبت به، وشاركت به بحبٍّ.

أَلمها النابع من أُمومتها كان أَلَمًا فصحيًّا، فاديًا، يحقّق تحوّل الموت إِلى حضور حبٍّ مخلّصٍ. إِنّه تتويجٌ للبشارة التي دعاها فيها الملاك إِلى الفرح. فالفرح الذي بشّرها به لا يمتّ بصلةٍ إِلى الفرح التافه، المحكوم عليه، حكمًا مبرمًا، بالتردّي إِلى الفراغ. بل هو الفرح الحقّ الذي يهب جرأة العبور، والتوجّه نحو قداسة اللّه المضطرمة. إِنّه ذلك الفرح الحقّ الذي لا يدمّره الأَلم، بل ينضجه. ووحده الفرح الذي يقاوم الأَلم، ويقوى عليه، هو فرحٌ حقٌّ.

وفي معرض حديثنا عن آلام مريم لا مندوحة عن التنويه بفضيلة **الصبر** لديها.

فقد «صُلبت العذراء منذ لحظة حبلها بالمصلوب». وكانت حياتها كلّها ممارسةً للصبر، فالمنغّصات واكبت كلّ أَيّامها، ولكنّها واجهتها بصبرٍ، وإِيمانٍ حوّلا أَسباب الضيق لديها إِلى ينابيع فرحٍ ومجدٍ. أَلم يقل القدّيس بولس (٢ كورنثس ٤ :١٧): «إِنّ الضيق الحاليّ، الخفيف، ينشئ لنا ثقل مجدٍ أَبديًّا، يفوق القياس في السموّ»؟

صُلبت العذراء، ولكنّ الصليب، للمؤمن، منبع قوّةٍ. وقد قالت القدّيسة تيريزا الأَفيلاّويّة، بهذا الشأن: «.... من يعتزم تحمّل الأَلم، لا يعرف الضيق».

وقد صبرت مريم لأَنّها آمنت، ولأَنّها أَحبّت، وكان صبرها بطوليًّا.

فرح مريم

بشارة الملاك لمريم كانت دعوةً إلى الفرح، فقد استهلّها بقوله: «افرحي». وبيّن الملاك أَسباب فرحها وأُسسه: فهي ممتلئةٌ نعمةً، والربّ معها، وستكون أُمّ الله المخلّص. وهل من أَسبابٍ أَكثر من هذه تبريرًا للفرح؟

النعمة هي قدرة الله، المقاومة لقدرة الشرّير التي تقود إِلى الخطيئة. والخطيئة هي مدمّرة كلّ فرحٍ، فهي خصامٌ بين الإِرادة والغريزة، وشقاقٌ داخل الإِنسان، وتلويثٌ لكلّ جميلٍ، ونزاعٌ مؤلمٌ بين تطلّعات السموّ، ونوازع الدناءة، وحربٌ بين النور والظلمة. وهي مصدر ندمٍ، وعدم رضًى عن الذات.

ومريم، من جرّاء امتلائها نعمةً، وبسبب ما حظيت به من حبلٍ بلا دنسٍ، وبسبب حضور الله فيها ومعها، وكون المخلّص ابنها وإِلهها في آنٍ واحدٍ، كانت في منجاةٍ من أَسر الخطيئة، ومن آثارها الوبيلة، ومن كلّ ما من شأنه تعكير صفاء نفسها، بل كان كلّ شيءٍ لها جمالاً، وحقيقةً، ورقّةً، وحبًّا.

ومن المحقّق أنّ الفرح الإِلهيّ النابع من حضور الله قد استولى على نفسها طيلة حياتها، وأَنّ تلك التي حُبِل بها بلا دنسٍ قد غاصت، منذ تكوينها، في يمٍّ من الفرح والحبّ والحكمة، وفي فيض حضور الروح القدس.

لقد ثمّنت مريم ما خصّها به العليّ من هباتٍ فريدةٍ، وعبّرت عن شكرها بصرخة فرحٍ مدوّيةٍ، تضمّنها نشيد تعظيمها للربّ:

«تبتهج روحي بالله مخلّصي، لأَنّه نظر إِلى حقارة أَمته،

أَجل، إِنّه، بعد اليوم، تطوّبني جميع الأَجيال، لأَنّ القدير صنع فيّ عظائم».

ومن أَسباب فرح العذراء حبّها لابنها الذي هو، في الآن عينه، إِلهها. فهو فيها، وهي فيه، نفسها في نفسه، وقلبها في قلبه، وما عليها إِلاّ أَن تحبّه، وتدعه يحبّها، في كلّ وقتٍ، وفي كلّ ظرفٍ.

إنّ العذراء، في فرحها، تعيد إلى الأذهان صورة البهجة التي وسمت تبشير يسوع عند ضفاف البحيرة، والتي تجلّت من خلال ظهورات القائم من الموت، ثمّ تفجّرت مع فرنسيس الأسّيزيّ، والتي ينبغي أن تكون سمة كلّ مسيحيّ، في كلّ زمنٍ.

وليس فرح العذراء رضًى سهلاً، واكتفاءً ساذجًا، بل هو ألمٌ وحزنٌ تمَّ التغلّب عليهما. وإن كان المسيحيّ الحقّ سعيدًا في فقره، فرحًا وسط ما يحيق به من اضطراباتٍ، فلأنّه التقى كائنًا طيّبًا، محبًّا، يساعده على اكتشاف الفرح في حومة الاضطهاد.

غير أنّ ما يحزن العذراء هو كلّ خرقٍ للحبّ يرتكبه الإنسان باقترافه الخطيئة، فيسيء إلى نفسه، ويدينها، ويحزن قلب الله.

وبما أنّ لكلٍّ منّا نحن البشر، خبرة ألمٍ، فمريم هي عزاؤنا الوحيد. وقد كتب جان غيتّون، في هذا الشأن:

«لا مراء أنّ تجربتنا للوجود موجعةٌ، وأنّ لا أحد بمنجاةٍ من الألم، لا الأفراد، ولا الأُسَر، ولا الشعوب. إنّ الألم على علاقةٍ وثيقةٍ بنضجنا، بحيث إنّ من لم يكابدوه، لم يكتمل كيانهم. ولكن من خصائص الألم البشريّ أنّ مؤثّراتٍ عذبةً ناجمةً عن حبّ الآخرين كفيلةٌ بتخفيف وطأته. فقلّما لا يواكب الألمَ عزاءٌ... العزاء هو السعادة المطهّرة، التي اجتازت المِحَن. الكائن الذي يُعطى بمثابة عزاءٍ هو مرآةٌ تتجلّى فيها مجدّدًا، الملامح الأولى، ولكنّها أنضر شبابًا، وقد غلبت الزمن. هكذا أَعطى يسوع الكنيسة الوليدة، الكنيسة كلّها، وكلّ نفسٍ في الكنيسة، مريم أُمّه عزاءً.

«إنّ حضور مريم لا يُعتق لا من الألم، ولا من الجهد، بل من العبء الذي يلقيه حبّ الذات على كليهما، والمتَرجَم تشنّجًا، وثورةً، وشعورًا مسبّقًا بالهزيمة، وعجزًا عن المضيّ قُدُمًا».

هذا العزاء الذي ابتغى يسوع إسباغه على نفوسنا عندما قال إنّ نيره ليّنٌ وحمله خفيفٌ، ودعانا إلى المجيء إليه عندما ترهق الحياة كواهلنا، هذا العزاء يوفّره يسوع للمسيحيّين بواسطة أُمّه.

والعذراء ليست غائبةً عن هذا العالم، ولا هي بعيدةٌ عنه، بل هي في صميم حياتنا وحميميّتنا؛ ومع كونها في السماء، إلاّ أنّها تلفّنا بحضورها. وهي ما برحت

حريصةً على فرحنا، مثلما كانت في قانا، حيث حملت ابنها على استخدام طاقاته الإلهيّة، لكيلا ينقلب فرح أهل العرس غمًّا.

وفي الصوفانيّة أكّدت العذراء رغبتها في مشاركتنا أفراحنا، إذ طالبت: «**اذكروني في أفراحكم**».

بسمتها الأُموميّة تغلّف حياتنا بنورها الشفّاف. وهي، فضلاً عن ذلك، وبالتعاون مع الروح القدس، تساعدنا على الترحيب بيسوع، وعلى ترسيخ سلطانه في قلوبنا. إنّها لم تقتصر على منحنا يسوع ليلة الميلاد، بل هي، في كلّ إفخارستيّا، وفي كلّ مناسبةٍ، حاضرةٌ، عاملةٌ على إنماء كلّ حياة ابنها في صميم ذواتنا. وهي لم تكتفِ بالتدخّل لدى ابنها في قانا لكيلا يُفسد نفاد الخمرة الاحتفال بالعرس، بل إنّها دائبةٌ، بلا انقطاعٍ، على التماسها منه إفاضة خمرته الإلهيّة على جميع أعضاء كنيسته، وعلى سكب ثمار الروح فيهم، ومن أشهى هذه الثمار السلام والفرح.

ومريم، هي، أيضًا، مثال الفرح. لقد نشأت عليه، ورسّخته فيها بساطتها، وتقواها، وثقتها المنيعة بالله، ونزعتها الفطريّة إلى خدمة الغير. وعندما سيعلن ابنها «طوبى للرحماء»، فلا ريب أنّه كان يذكر الفرح الذي كان يفيض من أُمّه، كلّما أسدت لجارٍ أو لمحتاجٍ خدمةً.

فرحت مريم عندما حظيت بيوسف خطيبًا ارتضى مشاركتها نذر البتوليّة، واحتضان ابن الله، وتبنّيه. فقد كان يوسف لها هديّةً من السماء.

وتعمّق فرح مريم عندما كافأ الله رغبتها في تكريس ذاتها له، فاختارها للتجسّد في أحشائها. وقد تفجّر فرحها في نشيد تعظيمها للربّ على عظائمه.

وأيّ فرحٍ غمرها عندما حملت وليدها وإلهها بين يديها، وشاهدت وسمعت شهادات السماء والأرض فيه. فقد كانت ولادته تمجيدًا لله في العلاء، وسلامًا يشمل الأرض.

وكم سعدت لبسماته وخطواته، وتغثغاته الأولى، وتفوّهه بلفظتي «ماما» و«بابا» للمرّة الأولى!

وكم أدخلت من الفرح إلى نفسها معجزةُ يسوع الأولى في قانا، وتجلّي قدراته

الخارقة أَمام تلاميذه، وأَمام الناس، وكذلك إِعلانه التطويبات التي طالما عاشها معها، سنواتٍ، في الناصرة، قبل أَن يعلنها على الملأ، مؤسِّسًا عليها ملكوته الأَبديّ!

وإِلى جانب هذه الأَفراح، كم من الصلبان! هذه المفارقة، هذا التزاوج بين فرح الروح، وآلام الفكر والجسد، يثويان في صميم إِيمان كلّ مسيحيٍّ وفي ممارسته. إِنّه فرحٌ ينقلب «سلامًا» في غمرة المِحَن الأَليمة.

إِنّ تلك التي بشّرها الملاك بكلّ بواعث الفرح، قد ذاقت من الآلام أعتاها، ومن الأَحزان أَشدّها مضاضةً. غير أَنّ أَلمها كان فصحيًّا، فاديًا، ومن ثمّ مصدر فرحٍ كمينٍ، فرحٍ لا يدمّره الأَلم، بل ينضجه، على حدّ قول الكردينال رتسنغر.

حكمة العذراء

منذ القرون المسيحيّة الأولى، كرّم المؤمنون في العذراء الحكمة الإلهيّة، فسُمّيت «أُمّ الحكمة»، و«كرسيّ الحكمة». وقد ارتأى لاهوتيّون كُثُرٌ أَنّ مريم العذراء تجمع في ذاتها حكمة الخالق السماويّة، وحكمة العالم المخلوق. وكتب اللاهوتيّ الروسيّ «سيرج بولفاكوف»: «إنّها تبرير الخليقة، وغايتها، ومعناها. وبذلك هي فخر العالم. بها اللّه هو كلّ شيءٍ للجميع».

كانت مريم العذراء تتمتّع بذكاءٍ فطريٍّ نفّاذٍ، وبسداد رأيٍ فائقٍ، وما انفكّت هذه الخصال تنمو لديها سحابة حياتها.

مواهب الفهم كانت تمكّنها من النفاذ إلى أَعماق الأَسرار، وإدراك مظانّها الخفيّة، وتناغمها، وعواقبها، ومصداقيّتها، ولا سيّما أَنّها كانت شريكةً في بعضها، مثل الحمل الإلهيّ، والتجسّد.

وبفضل مواهب الحكمة، تمتّعت مريم بسداد الحكم في الأُمور الإلهيّة، التي كانت تتذوّقها بقدر ما كانت تمتلك من محبّةٍ لا تني تتعاظم، ومن تواضعٍ وطهرٍ. وقد تحقّق فيها قول ابنها: «طوبى لأَنقياء القلوب، فإنّهم يشاهدون اللّه»، منذ هذه الأَرض.

ومواهب العلم كانت تمكّنها من الحكم السديد على الأَشياء المخلوقة، فترى، في بعضها، رموزًا إلى السماء، إذ إنّ السماوات تروي مجد اللّه، أَو تتبيّن فراغها وهشاشتها بالقياس إلى الحياة الأَبديّة.

وكانت فضائلها الفطريّة تنمو وتتجلّى في الحبّ.

حذر العقل، لديها، كان ضمانةً لاستقامة الحكم العمليّ، وفق الشريعة الإلهيّة، وعدل الإرادة كان ضمانةً لإعطائها كلّ امرئٍ حقّه.

منعتها النفسيّة، واتّزان الحواسّ لديها، كانا يمكّنانها من ضبطها وإخضاعها للرأي

الصائب المستنير بالإيمان. حذرها وحكمتها كانا يقودان كلّ أَفعالها صوب غايتها الفائقة الطبيعة، بمنأًى عن أيّ ضلالٍ. أعمالها كلّها كانت خاضعةً لإرادتها. هذا الحذر تجلّى، على نحوٍ خاصٍّ، عندما بشّرها الملاك، فاضطربت لبشارته، ولم تجبْ على عرضه، إلاّ بعد أَن اطمأنّت إلى التوفيق بين ميزة الأُمومة الإلهيّة، والبتوليّة التي كانت بها ضنينةً. وعندما اتّضحت لها الأُمور، أَعلنت جوابها الخالد: «ها إِنّي أَمَة الربّ».

مريم هي كرسيّ الحكمة لأَنّها مارست تلقائيًّا روح الفقر الذي أَدخلها إلى محراب تطويبة ابنها الأولى، التي تنطوي على جوهر الفرح الإنجيليّ: «طوبى للفقراء بالروح فإنّ لهم ملكوت السماوات».

يقول اللاهوتيّ السويسريّ «موريس زندل» (ZUNDEL): «فيها، أَكثر من أَيّة خليقةٍ أُخرى، يتماهى الفقر والحكمة، في تقدمة كيانها كلّه، تقدمةً دائمة الوفاء... إنّها المرأة الفقيرة التي تحمل، في قلبها، الحكمة الأَبديّة التي ينبثق منها الحبّ».

حكمة مريم هي ثمرة حبٍّ متجرّدٍ تجرّدًا مطلقًا، وفقرٍ روحيٍّ تامٍّ.

عقب صعود ابنها إلى سمائه، لم تذكر عنها الأَناجيل أَيّة كلمةٍ. وفيما كان التلاميذ يتكلّمون، كان صمتها يقود النفوس إلى الحكمة التي هي أُمّها. وفي آفاق قلبها، كان المؤمنون الأوّلون يشعرون بولادة الحرّيّة المقدّسة، حيث يجدون أَنفسهم أَبناءً للآب، وإخوةً ليسوع.

وقد تجلّت حكمة مريم في جمعها خصالاً وفضائل تبدو متناقضةً، على تناغمٍ وانسجامٍ.

فقد مارست العدل، متحاشيةً عن كلّ ما يناقضه. وخضعت لطقوس دينها، مع أَنّها كانت تسمو فوقها. وأَنفقت حياتها لخير البشريّة الأَعظم، فقدّمت، لهذا الغرض، ذاتها، وقدّمت ابنها ضحيّةً تفوق كلّ ثمنٍ.

ولكنّ العدل، لديها، اقترن، دائمًا، بالرحمة. فهي، مع ابنها، صفحت عن كلّ ما لحق بها من إهاناتٍ، وأَظهرت أَعظم رحمةٍ للخطأة والمفجوعين، ولذلك سُمّيت أُمّ المراحم، وسيّدة المعونة الدائمة.

وتميّزت بالقوّة، ومنعة النفس التي لا تنهار أمام المخاطر الكبرى، والمهامّ الجسام،

والأَحزان المضنية، وتجلّت منعتها هذه، تجلّيًا رائعًا، عندما وقفت مفجوعةً، ولكن غير منهارةٍ، عند أَقدام صليب ابنها.

وتحلّت بالزهد، تحت أَشكاله كلّها؛ وقد تجلّى زهدها، بأَروع وجوهه في بتوليّتها الدائمة، وطهرها الملائكيّ، حيث أَثبتت روحانيّتها الفائقة، وهيمنة الملكات العليا على الحواسّ. لقد تألّقت صورة الله في نفسها تألّقها في مرآةٍ صافيةٍ، لا أثر فيها لكدرٍ.

وكان تواضعها السحيق، الذي أَسلفنا وصفه، دليلاً على رسوخ حكمتها. وكذلك كانت رقّتها السخيّة، التي لا تقلّ عن تواضعها رفعةً. فهي لم تتفوّه بكلمةٍ نابيةٍ حيال من صلبوا ابنها، بل إِنّها، معه، صفحت عنهم، وصلّت من أَجلهم، قارنةً كمال رقّتها، بكمال منعتها.

هكذا تناغمت فيها كلّ الفضائل، حتّى تلك التي تبدو متنابذةً، تناغمًا كاملاً، مؤكّدةً رسوخها في البساطة المقدّسة، حيث تمتزج الفضائل السامية الأَشدّ تباينًا، مثل العدل اللامحدود، والرحمة اللامحدودة.

وقد رأى كثيرون من الشرّاح أَنّ العذراء هي مَن رمز إِليها سفر الحكمة حيث جاء:

«إِنّها نفحة مجد العليّ الخالصة الطهر،

فلا يشوبها أَيّ نجسٍ.

إِنّها انعكاس نوره الأَزليّ، ومرآة عمله الصافية، وإِيقونة بهائه.

إِنّها أَبهى من الشمس، وأَسمى من كلّ مجموعات النجوم،

وإِذا قيست بالنور، تقدّمت عليه،

لأَنّ النور يعقبه الليل، أَمّا الحكمة فلا يغلبها الشرّ».

وجاء، أَيضًا، في سفر ابن سيراخ (الفصل ٢٤)، على لسان الحكمة التي رأى فيها الآباء رمزًا لمريم:

«إِنّي خرجتُ من فم العليّ بكرًا قبل كلّ خليقةٍ، وجعلت النور يشرق في السماوات على الدوام، وغشيتُ الأَرض كلّها بمثل الضباب... ووطئت بقدرتي

قلوب الكبار والصغار... حينئذٍ أوصاني خالق الجميع، والذي حازني عيّن مقرّ مسكني... قبل الدهر، من الأَوّل حازني، وإِلى الدهر لا أَزول. وقد خدمت أَمامه في المسكن المقدّس... ارتفعتُ كالأَرز في لبنان، وكالسرو في جبال حرمون... فاح عرفي كالدارصينيّ والقندول العطر، وانتشرت رائحتي كالمرّ المنتقى... أنا كالكرمة المنبتة النعمة، وأَزهاري ثمار مجدٍ وغنًى. أَنا أُمّ المحبّة البهيّة، والمخافة، والعلم، والرجاء الطاهر، في كلّ نعمة الطريق والحقّ، وكلّ رجاء الحياة والفضيلة. تعالوا إِليّ أَيّها الراغبون فيّ، واشبعوا من ثماري، فإِنّ روحي أَحلى من العسل، وميراثي أَلذّ من شهد العسل، وذكري يبقى في أَجيال الدهور. من أَكلني عاد إِليّ جائعًا، ومن شربني عاد ظامئًا. من سمع لي فلا يخزى، ومن عمل بإِرشادي فلا يخطأ. ومن شرحني فله الحياة الأَبديّة... أنا كساقيةٍ من النهر، وكقناةٍ خرجت إِلى الفردوس. قلتُ أَسقي جنّتي، وأَروي روضتي، فإِذا بساقيتي قد صارت نهرًا، وبنهري قد صار بحرًا. فإِنّي أُضيء بالتأديب مثل الفجر، وأُذيعه إِلى الأَقاصي، أَنفذ إِلى جميع أَعماق الأَرض، وأَنظر إِلى جميع الراقدين، وأُنير لجميع الذين يرجون الربّ. إِنّي أَفيض التعليم مثل نبوّةٍ، وأُخلّفه لأَجيال الدهور...»

فقر مريم

إنّ من وصفت ذاتها بأنّها «أمَة الربّ»، هي النموذج الأكمل للفقر الإنجيليّ، فقر من يحيون، بكثافةٍ، التواضع، والاستسلام للّه، والثقة المطلقة به، والتجرّد، وشغف الخدمة.

كتب موريس زوندل (ZUNDEL): «إنّها، على نحوٍ فريدٍ، المرأة الفقيرة التي توغّلت، أكثر من أيّ كائنٍ آخر، إلى أغوار التطويبة الأولى، التي تنطوي على كلّ فرح الإنجيل: طوبى لمن يقطنهم روح الفقر، فملكوت السماوات ملكهم».

وقد صوّر لوثير حياة العذراء اليوميّة، فقال: «مثل خادمةٍ، أو ربّة أُسرةٍ، تبذل ذاتها في مهمّاتٍ وضيعةٍ ومزدراةٍ، ولكأنّها ذهلت عن الآلاء الجلّى التي حباها بها اللّه، للتوّ. سائر النساء والجارات لم يزدَدْن تقديرًا لها، وهي لم تطالبهنّ بذلك، بل ظلّت فقيرةً بين ظهراني فقراء، ضائعةً وسط جمهور القوم المسكين. أيّة بساطةٍ، وأيّ تجرُّدٍ رائعٍ! العظائم التي تحقّقت فيها أخفتها مريم، بعنايةٍ، تحت مظاهر تفاهةٍ مقصودةٍ. وكم ممّن اتّصلوا بها، وتكلّموا معها، وشاركوها الطعام والشراب، ربّما ازدروها، وربّما عدّوها امرأةً مسكينةً، بسيطةً، وعاديّةً! ولو هم عرفوا من كانت، حقًّا، لصعقوا!»

لقد برهنت مريم عن تجرّدها وزهدها في التملّك، يوم كان ابنها الطفل الوليد تحت رحمة عطفها ورعايتها، فلم تحبسه عن الرعاة والمجوس؛ وعبدته، هي، إلهًا، وهو مستسلمٌ استسلامًا كاملاً بين يديها. هذه الخبرة طبعتها إلى الأبد، فلن تحاول، يومًا، احتكار ابنها، وادّعاء امتلاكه حصريًّا. وهي، في السماء، لن تكفّ عن منحنا إيّاه.

اللّه انتقاها، ولكنّه لم يردْها آلةً صمّاء، بل ابتغاها شريكةً في عمله الخلاصيّ، ولم يتجسّد فيها إلاّ بملء رضاها، بعد أن زيّن نفسها بنعمته. وإن كانت الأُمومة

الإِلهيّة شرفًا منقطع النظير، غير أنّ هذا الشرف لا يولي أيّ مجدٍ أَرضيٍّ، أَو أَيّ امتيازٍ مادّيٍّ، بل هو يندرج في الفقر والامّحاء، والخدمة، والتضحية حتّى بذل الذات.

مريم هي تجسيدٌ للفقراء بالروح الذين عناهم ابنها في تطويباته، لأَنّها منزّهةٌ من كلّ عُجبٍ وكبرياء، واعيةٌ لوهنها، بصفتها خليقةً بشريّةً، منفتحةٌ على كلّ مبادرات اللّه.

بتوليّتها الطوعيّة هي الدليل الأَسمى على فقرها الروحيّ. إِنّها التجرّد الكامل الذي يؤتي غنًى أَقصى.

إِنّ تلك التي نُزّهت، منذ تكوينها، من كلّ أَثرٍ للخطيئة، نُزّهت، أَيضًا، من كلّ أَنانيّةٍ، ومن كلّ رغبةٍ في امتلاكٍ واحتكارٍ، ولم تخضع، يومًا، لغريزة الملكيّة الفطريّة لدى الصغار، التي تدفعهم إِلى احتكار الأَشياء والأَشخاص. بفضل حبّها للّه، حافظت على فقر الروح، ولم تمتلك لذاتها شيئًا، ولم تحرص على التفرّد بشيءٍ. بل وهبت كلّ ما نالت لإِلهها وللمحتاجين. لقد أَعطت كلّ شيءٍ، حتّى ابنها، أَغلى كنزٍ لديها.

رغباتها هي رغبات الروحِ القدس. وما من نظرةٍ إِلى ذاتها تحدّ أَو تضعف نداءات اللّه. وهي قد امتلأت نعمةً، منذ لحظات حياتها الأولى، وهذا يفسّر عظمة رغبات الروح القدس، وعمقها فيها.

لم تمارس مريم الفقر المادّيّ فحسب، بل مارست، أَيضًا، فقر الروح، الذي حكم كلّ طاقات ذهنها. ولم يستملْها، يومًا، النهم إِلى المعرفة من أَجل المعرفة فحسب، ومن أَجل إِغناء العقل. بل كان كلّ نشاطٍ معرفيٍّ لديها يلهمه الحبّ، ويتحوّل كلّيّةً إِلى عرفانٍ بالجميل، وإِلى تسبيحٍ وعبادةٍ، ولا ينسب لنفسه شيئًا.

كانت مريم فقيرةً، مادّيًّا، ونهجت وفق فقر الروح. وقد مجّد اللّه فقرها، فجعل منها ملكة الملائكة، وملكة الكون، وملكة جميع المخلوقات. رفعها، محافظًا على تواضعها وفقرها. لم يشوّهها، بل أَكملها، وسما بها. لم يجعلها إِلهةً، بل جعل منها نموذجًا أَسمى للتأَلّه الذي يراعي إِنسانيّتنا، والذي دُعينا إِليه، جميعنا، في إِثر العذراء.

لقد كشفت العذراء لبعض من ظهرت لهم أنّها، منذ طفولتها، نذرت أَلاّ تمتلك شيئًا. ويُعتَقَد أنّها وزّعت كلّ هدايا المجوس على المحتاجين. وقد دأبت على الكدّ بيديها كي تضيف إلى دخل يوسف الضئيل ما يكفي لسدّ نفقات الأُسرة.

وكان فقرها دائمًا مفعمًا كرامةً وثقةً بالله.

ويوم طالبها ابنها، وهو يلفظ أنفاسه الأَخيرة على الصليب، باتّخاذ تلميذه يوحنّا ابنًا، إنّما طالبها بالتجرّد الكامل، بالفقر المطلق، بالتضحية القصوى. وهكذا أَمست، على حدّ قول الشاعر پيغي، «غنيّةً بلا حدودٍ، لأَنّها فقيرةٌ بلا حدودٍ».

ويمكننا أَن نقول عن فقر العذراء، ما قاله الرسول بولس عن ابنها يسوع (٢ كورنثس ٨:٩): «إِنّه، هو الغنيّ، قد افتقر من أَجلكم، لكي تغتنوا، أَنتم، بفقره».

طاعة العذراء

اعترفت العذراء بأنّها «أَمَة الربّ». وأُولى صفات الأَمَة هي الطاعة.

الملاك جبرائيل سمّاها «الممتلئة نعمةً»، أَي إِنّها متّجهةٌ بكلّيّتها صوب اللّه. والخطيئة الكبرى هي عدم التوجّه نحو اللّه، أَي إِيثار الذات، والانكفاء عليها.

وليست النعمة شيئًا خارجيًّا، بل هي حبّ اللّه الذي يقطننا، وحضوره الذي يحيط بنا. ومريم قد تخلّت عن مشيئتها الخاصّة لمشيئة الربّ، مستسلمةً، كلّيّةً، لإِلهامات الروح. عيناها محدّقتان، أَبدًا، إِلى ما يرضي اللّه من أَجل تنفيذه، ونفسها ذائبةٌ في طاعة اللّه، جاهزةٌ للانسكاب في القالب الذي يعدّه لها، كي يصوغها كما يروق له.

وقد برهنت، في مختلف مراحل حياتها، عن استجابتها، بلا تلكّؤ، إِلى كلّ إِيحاءات اللّه، كما يُظهر سفرها إِلى بيت لحم، وهي على وشك ولادة، وهروبها إِلى مصر ليلاً، إِنقاذًا لحياة طفلها الإِلهيّ، بلا ضمانٍ ولا أَمانٍ، وبذل ابنها للصلب، مساهمةً في الفداء.

وعندما ردّ يسوع على المرأة التي هتفت له: «طوبى للبطن الذي حملك...» قائلاً: «بل طوبى لمن يسمع كلمة اللّه ويعمل بها»، إِنّما كان يؤكّد، بذلك، أَنّ أُمّه جديرةٌ بالطوبى بسبب طاعتها للّه، أَكثر من سبب أُمومتها له.

وباعتراف مريم أَنّها «أَمَة الربّ»، أَقرّت أَنّ النعمة التي مُلئت بها، لم تكن حظوةً فحسب، بل كانت دعوةً إِلى الخدمة والمحبّة.

طاعتها لم تكن قيدًا لحرّيّتها، فهي راغبةٌ في ما تخضع له، وموافقةٌ عليه بكلّ حرّيّتها. وليست حرّيّتها في فعل ما تشاء، بل في إِرادة ما تفعل، خضوعًا لمشيئة اللّه، وفي رغبتها فيه، وبموافقتها عليه بملء حرّيّتها. أَمّا من كانت حرّيّته هي فعل ما يطيب له، فلا يلبث أن يصبح عبدًا لأَهوائه، ونزواته، ورغباته.

فقد خُلِق الإِنسان على صورة الله، كمثاله، وما امتثاله لمشيئة الله سوى ازدهارٍ لكيانه، وتحقيقٍ لما وُجِد ليكونه.

ومريم هي النموذج الأَسمى للطاعة المعاشة بحرّيّةٍ ورضًى. ولم تساورها، لحظةً، رغبةٌ في الاستقلال بإِرادتها عن إِرادة الله، لأَنّ ذلك يتعارض مع حبّها المطلق له.

الرغبة، عندها، تتحوّل إِلى فعل شكرٍ، والنعمة، عندها، تقدّس الطبيعة، وهي موقنةٌ بأَنّ كلّ رغبةٍ خاصّةٍ هي دون ما يبتغيه الله لها، فتدع الروح القدس يرغب فيها، ويبلّغها رغباته.

لم تكن، إِذن، طاعة العذراء مجرّد تسليمٍ بما أُكرهت عليه إِكراهًا، بل كانت قبولاً طوعيًّا بمشيئة الله، وانصهارًا بها، كلّفها، غالبًا، من التضحيات أَقساها وأَسخاها.

فعلى امتداد مسيرتها سبَّبت لها الطاعة آلامًا من كلّ نوعٍ، وقد بلغت طاعتها ذروتها في الجلجلة، حيث لم تشهد سوى العداء، والبغض، والشماتة، واللامبالاة، والجبن والخيانة. وحتّى القلّة المتعاطفة مع ابنها ومعها، كانت غارقةً في القنوط، موقنةً بأَنّ الحلم تلاشى مع الحالم. ومع ذلك لم تناقش مريم، بل اكتفت بأَن ظلّت منتصبةً، ثابتةً، مؤمنةً، مصلّيةً: «أَيّها الآب المحبوب، في حومة هذه الفوضى العارمة، لست أَفهم شيئًا. ولكنّني أومن، فقط، أَنّك لو لم تشأ ذلك، وبهذه الطريقة، لما حدث. فلتكن، إِذن، مشيئتك».

شبابٌ يانعٌ حبيبٌ قُصِف قصفًا. أَجيالٌ انتظرته، وما إِن باشر رسالته حتّى اغتاله العنف والبغض. ومع أَنّ ملاك الله وعد أُمّه بأَنّه سيكون عظيمًا، سيم أَبشع ضروبٍ المهانة، وأُميت ميتة العبيد. كلّ ذلك تقبّلته العذراء، وقدّمته ذبيحةً طاهرةً، مساهمةً مع ابنها في افتداء البشر.

«أَمَة الربّ»، «الممتلئة نعمةً»، امتثلت لرغبة الربّ، طائعةً راضيةً، و«بطاعتها غدت سبب خلاصٍ لذاتها، وللجنس البشريّ بأَجمعه»، بحسب قول القدّيس إِيريناوس. لقد كان لخضوع مريم للمشيئة الإِلهيّة تأثيرٌ كونيٌّ أَبديٌّ.

فقد قال البابا يوحنّا بولس الثاني: «إِنّ «نَعَم» مريم، «فليكن لي كما قلت»، قد قرَّر، في الجانب البشريّ، تحقيق السرّ الإِلهيّ. ثمّة تساوقٌ تامٌّ مع أَقوال الابن، الذي، حسب ما جاء في رسالة القدّيس بولس إِلى العبرانيّين، قال للآب، عند

دخوله العالم: «ذبيحةً وقربانًا لم تشأ، غير أنّك هيّأت لي جسدًا... حينئذٍ قلت: ها أنذا آتي... لأعمل، يا الله، بمشيئتك». لقد تحقّق سرّ التجسّد عندما تفوّهت مريم بنَعَمها: «فليكن لي، كما قلت»، فجعلت ممكنًا ما كان، في المخطّط الإلهيّ، يتعلّق بها، بشأن مشروع ابنه».

ويقول المجمع الفاتيكانيّ الثاني: «إنّ مريم... بتبنّيها، بكلّ قلبها، إرادة الله الخلاصيّة، كرّست ذاتها بالكامل، خادمةً للربّ، في شخص ابنه، وعمله، في خضوعٍ لابنه، واتّحادٍ معه، وبنعمة الله الكلّيّ القدرة. وبناءً على صفتها هذه، ارتأى الآباء القدّيسون أنّ مريم لم تكن مجرّد أداةٍ غير فاعلةٍ بين يدي الله، بل إنّها أسهمت بخلاص البشر بحرّيّة إيمانها وطاعتها.

قول العذراء: «ها أنذا أمَة الربّ، فليكن لي بحسب قولك»، هو تعبيرٌ عن خضوعٍ طوعيٍّ، وتواضعٍ سحيقٍ، وحبٍّ جمٍّ للعالم الذي ستصبح شريكةً في فدائه، وأمًّا له.

وقد كتب الأب «بنڤيل» (Bainvel): «بقولها «فليكن» للتجسّد، وافقت العذراء على كلّ مشروع الفداء. وقد وافقت، خاصّةً، وهي عارفةٌ معرفةً لا ندرك طبيعتها وحدودها، على آلام ابنها الإلهيّ وموته. وهكذا ارتدى «نَعَم» التجسّد، الذي تلفّظت به العذراء المفعمة بالله، بنورٍ إلهيٍّ، وباتّحاد إرادتها مع إرادة الله، شيئًا من عظمة المخطّط الإلهيّ، شاملاً، في وحدته الرائعة، كلّ عمل الفداء والخلاص».

وكان آباء الكنيسة الأوّلون قد أسهبوا في المقارنة بين حوّاء التي، بعصيانها مشيئة الله، جرّت ذرّيّتها إلى الموت، والشقاء، والهلاك، ومريم التي، بامتثالها للإرادة الإلهيّة، وبمشاركتها في تضحية الفداء، شاركت في خلاص الجنس البشريّ، وجاءته بالفرح.

ما أَفسدته حوّاء بتمرّدها، أَصلحته مريم بطاعتها، وإيمانها.

طاعة مريم أعتقت نساء العالم من اللعنة التي ألصقها عصيان حوّاء ببناتها. وقد جاء في نشيدٍ للقدّيس أفرام:

«مغبوطةٌ أنتِ، أيّتها المباركة. فيك أُعتقت كلّ النساء من اللعنة! بكِ سُدّد كلّ الدَّيْن المشترك الذي كتبت الحيّة صكّه، بحقّ الأجيال!...»

وقال القدّيس إيرونيمُس: «امرأةٌ كانت سبب سقطة الإِنسان الأَوّل، والآن، العالم كلّه يخلص بامرأةٍ... حوّاء طردتنا من الفردوس، والآن، مريم تقودنا إِلى السماء».

وما طاعة العذراء سوى تعبيرٍ عن سحيق تواضعها وامّحائها. وهذا ما تجلّى من خلال اضطرابها حيال تحيّة الملاك، الذي بشّرها بأنّها اختيرت لتكون أُمّ المخلّص، بعباراتٍ لم تعدّ نفسها أَهلاً لها.

اختيارها لتكون أُمّ الله رسّخها في موقع الخدمة، وحرمها كلّ حقٍّ على ابنها، فالمخلوق لا حقّ له على خالقه. وقد أَدركت مريم، منذ البدء، أَنّ عليها التضحية بكلّ سلطةٍ على ابنها، إِذ إِنّه إِلهها. وكان هذا يعني لها تجرّدًا شاقًّا، وتضحيةً أَليمةً على قلب الأُمّ. غير أَنّ خدّام الله متواضعون وأَوفياء، ولا يفخرون بما ينجزون، ولا يستَبْقون لأَنفسهم شيئًا.

وما الفوضى المستشرية في عالمنا اليوم، سوى ثمرة الشهوة إِلى السلطة، وإِغفال أَنّ السلطة هي، قبل كلّ شيءٍ، واجب خدمةٍ.

مريم الملكة

وُلدت مريم ملكةً لأنّها أُعدّت، منذ الأزل، لمهمّةٍ ساميةٍ فريدةٍ. فقد وُلدت لتكون أُمّ الله، وشفيعة البشر. وقد قال القدّيس يوحنّا الدمشقيّ: «لقد أُقيمت مريم، حقًّا، سلطانةً على جميع الخلائق». ومهمّة الملك أَو الملكة هي القيادة، وإِرشاد المجتمع نحو غايته.

منذ الحقب المسيحيّة الأولى، ولا سيّما إِثر إِعلان مجمع أَفسس أُمومتها لله، وعى المسيحيّون مكانة مريم الرفيعة، وكانت في طليعة المكرَّمين، في حين كان ابنها معبودًا. وفي القرون الوسطى كُرِّمت بصفتها ملكةً، ورسمها مسيحيّو الدياميس في هيئة ملكةٍ، ورأوا فيها ملكة قلوبهم.

وفي جميع العصور المتعاقبة التصقت صفة الملكة بالعذراء، فسمّاها الباباوات، والآباء القدّيسون، والمؤمنون، على التوالي:

– ملكة الملائكة، لأَنّها تفوقهم منزلةً وكرامةً. ورسالتها أَسمى من رسالتهم. إِنّها أُمّ الله، وما الملائكة سوى خدّامه. الملائكة يخدمون الله، ولكنّها، هي، حملته في أَحشائها، وولدته، وغذّته، وواكبت حياته الأَرضيّة. وهي تفوقهم جميعًا نعمةً، ومجدًا، وطهرًا، وكمالاً، وخضوعًا لمشيئة الله، وعملاً بوصاياه.

وإِن كان لكلّ كائنٍ، ومؤسَّسةٍ ملاكٌ، فالعذراء تحرس البشريّة جمعاء، وكلّ فردٍ فيها. وهي حارسة الكنيسة، وكم من الكنائس تتشرّف بحمل اسمها، تكريمًا لها، والتماسًا لشفاعتها. وهي تحبّ الله أَكثر من جميع الخلائق مجتمعةً. فهو لها أَكثر من خالقٍ وأَبٍ، هو ابنها المحبوب والمعبود، في آنٍ واحدٍ.

– ملكة الآباء، لأَنّها تفوقهم تقوًى وبطولةً. إِبراهيم أَبو الآباء أَبدى استعدادًا

للتضحية بوحيده إِسحق. ولكنّ الله أَعفاه من هذه التضحية. أَمّا مريم العذراء، فقد ضحّت، حقًّا، بوحيدها، لخلاص البشر.

– ملكة الأَنبياء، بسبب موهبتها النبويّة الخارقة. الأَنبياء مُنحوا موهبة معرفة المستقبل، والإِنباء به؛ والعذراء مُنحت هذه الموهبة أَكثر منهم جميعًا. وكانت هي موضع نبوءات كثيرين منهم.

– ملكة الرسل، بسبب غيرتها الفائقة. الرسل نشروا رسالة يسوع، والعذراء شاركته رسالته. إِثر صعود يسوع كان الرسل ما برحوا بحاجةٍ إِلى توجيهٍ، ونصائح، وعونٍ. ولم يكن أَحدٌ أَقدر على توفيرها لهم من العذراء. كانت لهم العزاء في الحزن الهاصر الذي انتابهم عقب غياب المعلّم، وكانت لهم العزيمة والسند على تبشير العالم، مع وهنهم، وما واجههم من مقاومةٍ واضطهادٍ. وكانت لهم بمثابة برقليطٍ آخر مرئيٍّ، وشفيعةً محقّقةً. كانت نجمتهم الهادية في العاصفة، وكانت لهم الأُمّ. وكلّ من دنا منها كان يكتسب قوّةً وكمالاً.

بفضل مثال صبرها، وقدرتها على احتمال النميمة، وبفضل خبراتها الإِلهيّة، كانت لهم سندًا في مواجهة الشتائم، والهزء، والاضطهادات، واستحقّت لهم، بصلواتها، نعمة الصمود حتّى الاستشهاد. ولم يضاهِها أَحدٌ رأفةً، ومنعةً في الشدائد، وتواضعًا، وتقوًى ومحبّةً.

ولم يستطع أَحدٌ أَن يحدّثهم، مثلها، عن حملها يسوع بالروح القدس، وعن ولادته وطفولته، وحياته الخفيّة في الناصرة، وعمّا عاناه على الصليب. ولا عجب إِن تكلَّم الإِنجيليّ يوحنّا عن التجسّد خيرًا من سائر الإِنجيليّين، فقد نهل من نبع الأَسرار الإِلهيّة، وعاش في حميميّة أُمّ الله.

– ملكة الشهداء: بسبب ما عانته من آلام. فقد اقتسمت، في نفسها، كلّ آلام ابنها الجسديّة والنفسيّة، بعمقٍ وسخاءٍ يفوقان كلّ ما قاساه الشهداء من أَوجاعٍ وتنكيلٍ. أَلمها كان يتناسب وحبّها الجمّ لابنها، عندما كانت تشاهد ما أُلحق به من مهانةٍ، وما سيم من عذابٍ. الضربات التي أُنزلت به، أَوجعتها في الصميم. صليبه كان صليبها، وتضحيته تضحيتها. خطايا العالم التي هصرت قلبه، هصرت قلبها، وما زالت تعتصره أَلمًا.

وهي التي تساند نفوس المحتضرين الذين يلتمسون منها نعمة الميتة الصالحة، كم، بالأحرى، تساند الشهداء الذين يضحّون بحياتهم شهادةً على إيمانهم!

– ملكة المعترفين: بسبب جهرها بإيمانها. ومن اعترف أكثر منها بإيمانه، منذ البشارة حتّى انتقالها؟

إنّها حريصةٌ، خاصّةً، على تقديس الكهنة، وتخصّهم بحبّها وعنايتها، وكأنّ كلاًّ منهم يوحنّا الذي أوكله إلى عنايتها ابنها، وترقى بقلوبهم نحو يسوع، وتذكّرهم بسموّ الذبيحة التي يقدّمونها على الهيكل، وتحرّضهم على تقديم حياتهم، ضحيّةً، وتصوغ قلوبهم على شكل قلب يسوع.

– ملكة العذارى: لأنّها تفوقهنّ، جميعهنّ، بطهارتها التي لم تطلها لوثةٌ. إنّها النموذج الأكمل، والأسمى للبتوليّة، والدليل على سموّ معناها. فليست البتوليّة مجرّد خَفَرٍ، وميلٍ شعوريٍّ نبيلٍ، بل هو فضيلةٌ رفيعةٌ بطوليّةٌ، وقوّةٌ روحيةٌ فائقةٌ. وقد أثبتت العذراء أنّ البتوليّة المكرّسة لله هي أسمى من مجرّد العفّة، لأنّها تنذُر كامل الجسد، وطهر القلب، مدى الحياة كلّها. إنّها منتهى السخاء. وفي هذا السياق يقول الطوباويّ الأب شارل دي فوكو: «ليس الطهر الحقيقيّ موقفًا حياديًّا، حيث لا يخصّ المرء أحدًا، بل هو وضع من يلتزم بالله وحده».

والعذراء تصون العذارى الوفيّات لابنها، وتنهض لهنّ مثالاً أسمى، في حياة صلاةٍ وتكفيرٍ عن عالم الخطيئة، وفي تعزية الحزانى. وتدعوهنّ إلى الدأب على التمثّل بفضائلها، ومواصلة دورها حيال الربّ والمؤمنين.

إنّها تحرّضهنّ على أن يكنّ أُمّهات للمهملين، والفقراء، والضالّين، المحتاجين إلى عونٍ سماويّ. هذه الأُمومة الروحيّة تتحقّق، أيضًا، في الحياة التأمّليّة، وإن كان لهذه الحياة مصاعبها، غير أنّ العذراء تساعد على خوضها وإخصابها.

– ملكة جميع القدّيسين: المعروفين والمجهولين، وجميع الذين يقدّسون ذواتهم على الأرض، والذين تعرف مِحَنَهم، وأفراحهم، وصمودهم، وما ينتج عن كلّ ذلك من ثمارٍ أبديّةٍ. إنّها مليكتهم لأنّها تفوق جميعهم قداسةً.

– وهي ملكة السلام: وبصفتها هذه لها قدرة إمساك يمين ابنها عن العقاب. وهي

لا تني تدعو إِلى الحدّ من طغيان العنف، وتشجّع جهود التهدئة، وتسكّن العواصف المدمّرة.

وقد جاء في إِحدى رسائل الصوفانيّة التي بلّغتها السيّدة العذراء في بلجيكا بتاريخ **١٥/٨/١٩٩٠** : «صلّوا من أَجل السلام، وخصوصًا في الشرق، لأَنّكم كلّكم إِخوةٌ في المسيح».

– وهي بانتقالها إِلى جوار ابنها أَصبحت ملكة الرحمة.

– وبجعلها الشمس ترقص في فاتيما، على مرأى الملايين، أَثبتت أَنّها **ملكة الكون**، وليست فقط ملكة الزمن والتاريخ.

– وهي ملكة الحبّ لأَنّها أُمّ يسوع الملك. ويسوع بطبيعته الفائقة، وبرسالته، لم يشأ أَن يملك بقدرته المطلقة، كخالق، بل بالحبّ وحده، وفي الضعف، لأَنّه اللّه، واللّه حبٌّ. وقد اكتسب ملكه، بفضل أَعظم دليل حبٍّ، محتملاً الأَلم، والموت البشريّ. وقد شاركته مريم هذا الفتح المتواضع، السخيّ، الأَليم. شاركته فعل حبّه المذهل، وخاضت أَقسى تجربةٍ قد يُمنى بها قلب أُمٍّ. وفي لحظة فقدها ابنها، تبنّت البشر الخطأة الذين كانوا سبب موته.

وجديرٌ بالتنويه أَنّ العذراء نفسها، في أَحد ظهوراتها في إِيطاليا، أَطلقت على نفسها لقب «ملكة الحبّ».

تقول القدّيسة تيريز الطفل يسوع: «إِنّها ملكة السماء والأَرض. ولكنّني أَرى فيها أُمًّا أَكثر ممّا أَرى فيها ملكةً»: أَي إِنّ قلبها منفتحٌ على كلّ صنوف شقاء البشر، ولا تحول كرامتها الملكيّة دون هذا الانفتاح. وما كونها ملكةً إِلاّ لكي تكون، على نحوٍ أَفضل، أُمًّا، مسخّرةً سلطانها لخدمة قلبها الأُمومي.

وليس ملك مريم سيطرةً، بل هو خدمةٌ وتواصلٌ. ملكها لا يسحقنا؛ بل يجتذبنا نحو حبّ اللّه الأَعظم والشامل، كي نقتسمه. ملكها لا يهيننا، بل يرقى بنا، ويجعلنا شركاء فيه، وفي ملك الآب. قال يسوع: «لن أَدعوكم خدّامًا، بل أَصدقاء» (يوحنّا **١٥ : ١٥**). فمن شأن الحبّ تأسيس المساواة.

إِنّ ملك يسوع ومريم هو رحمةٌ. وإِنّما تسميتها ملكة هي تمجيدٌ للّه الذي شاء أَن

يكرّم واحدةً من أبناء جلدتنا، ويرفعها إِلى أَسمى منزلةٍ، لكي تكون شفاعتها بنا مستجابةً دائمًا.

وحريٌّ بنا أَن نوجّه إِلى أُمّنا الملكة هذا الدعاء: «يا مريم، ملكة الكون المنزّهة من الدنس، انتصري وسودي في قلوبنا». هذا الدعاء يمجّد أُمّنا، ويعزّيها عن الكثير من اللامبالاة ونكران الجميل، ويثير حنق الجحيم، لأَنّ لقب الملكة هذا ينطوي على كلّ الحبّ الذي عبّر عنه الثالوث الأَقدس، بخلقه شخص مريم المنزّهة من كلّ دنس، ويبرهن عن حبّ الكلمة المتجسّد الجمّ لأُمّه.

الاقتداء بالعذراء

قد يُخيّل إلى البعض أنّ حياة مريم كانت كلّها استثنائيّةً، وأنّها أشبه برحلةٍ سحريّةٍ يستحيل على البشر التمثّل بها. غير أنّ القدّيسة تيريز الطفل يسوع طالما تمنّت أن تكون كاهنًا كي تعظ عن العذراء، فتخلو عظتها من الإطناب في إظهار امتيازاتها التي تجعلها بعيدة المنال، فنخشى الدنوّ منها، أو التطلّع إلى التشبّه بها، بل تبرز بساطة عيشها، والقداسة البسيطة التي أسبغتها على حياتها اليوميّة، فجعلت منها النموذج الأَمثل لكلّ صابٍ إلى القداسة. وقد اتّخذتها القدّيسة تيريز مثالاً للتوفيق العسير بين التناقضات الظاهريّة في الحياة المسيحيّة.

فمريم العذراء قد عاشت حياتها اليوميّة، بشريًّا، ولم تصرفها الامتيازات الفريدة التي خُصّت بها عن الخضوع للمقتضيات الإنسانيّة، في تناغمٍ مدهشٍ بين النضج والطفولة الروحيّة.

وقد أكّد القدّيس أمبروسيُس أنّ «حياة مريم هي نموذجٌ للجميع». وإنّما صورة مريم، كما تتجلّى في الإنجيل، هي صورة امرأةٍ واقعيّةٍ، قريبةٍ منّا، أُختٍ لنا في الإيمان، وفي خبرة الألم، والهواجس، والبحث، وفي محنة الصبر المتمادي، والانتظار الذي يبدو بلا نهايةٍ.

والتمثّل بالعذراء يُشرع على شبكةٍ رحبةٍ من الحالات المماثلة لتلك التي خاضتها، وتجلّت فيها:

– الأُمّ الشجاعة في الذود عن ابنها، والسهر على حمايته.

– ربّة المنزل النشيطة المحبّة.

– المتأمّلة الصامتة التي تختزن في قلبها أسرار ابنها التي يستعصي عليها فهمها منذ الوهلة الأولى، وتمعن فيها تأمّلاً.

– شفيعة القوم البسطاء الذين نفدت خمرتهم المعدّة لعرس ابنهم.

– المواكبة لرسالة ابنها بالصلاة الحارّة، المتأمّلة.

– النموذج الذي يجد فيه كلّ مؤمنٍ القدوة التي يحتاج إليها.

– رمزٌ للاعنف، واللافساد، للنقاء الكلّيّ، فلا كذب أفسد فكرها، ولا خيانة أفسدت قلبها، ولا عنف أفسد جسدها، فكانت في سلامٍ مع البشر ومع الكون. وهي، بذلك، مصدر إلهامٍ للحفاظ على البيئة، وعلى الطبيعة «الأخت»، كما وصفها الأسّيزي.

– امرأةٌ من عامّة الشعب، وزوجة مهنيٍّ كادحٍ، نالت قسطها الوافي من المشاغل اليوميّة، ومن التعب. وخبرت العمل اليدويّ اليوميّ من عجنٍ، وخبزٍ، وطهوٍ، وكنسٍ، وغسلٍ وتنظيفٍ، وغزلٍ، ونسجٍ، وخياطٍ. وقد أدّت كلّ هذه الأعمال بحبٍّ، وطاعةٍ قدسيّةٍ للربّ، وقرنت قرنًا فريدًا رائعًا العمل اليدويّ الدؤوب، بالتأمّل، والصلاة المتواصلة.

وقد عدّدنا، في الكتيّب الذي اقتبسناه عن المطران الإيطاليّ «تونينو بلّو»، ونشرناه بعنوان «العذراء في حياتنا»[٣] طائفةً من مواقف العذراء، في حياتها اليوميّة، حيث تجلّت نموذجًا خليقًا بالاقتداء، فهي متمرّسةٌ بالقناعة والبساطة تعاني هموم الفقراء اليوميّة، طبيعيّةٌ، صريحةٌ، خبرت الانتظار والصبر، تحبّ حبًّا خالصًا، وتعرف هواجس الحمل، تتقن فنّ الضيافة، ومبادرات المحبّة الرقيقة، تنهض مثلاً في الوفاء للرسالة، والتحرّر من التقاليد السيّئة. إنّها امرأة الخبز، وامرأة الحدود، المرأة المرتحلة، الشجاعة، وامرأة الراحة والخمرة الجديدة، امرأة الصمت والخدمة، المرأة الحقّة، المطيعة، بنت الشعب، ذات المشاعر العميقة... الكلّيّة البهاء، المعاصرة لكلّ زمنٍ، والحاضرة في كلّ وقتٍ، رفيقة السفر، وامرأة الساعة الأخيرة.

لا جَرَم أنّ العذراء قد خُصَّت بامتيازاتٍ فريدةٍ، لا يمكن أن يشاركها بها أحدٌ: فهي، وحدها، بين الأنام، عُصمت من جريرة الخطيئة الأصليّة، منذ لحظة تكوينها. وهي وحدها، بين النساء، نعمت بشرف أمومة الله. وهي وحدها، بين البشر،

---

(٣) منشورات المكتبة البولسيّة، سلسلة «صفحات روحيّة»، ٢٠٠٧

انتقلت بجسدها إلى السماء. ولكنّها، ما خلا هذه الامتيازات، عاشت بالقرب من يسوع، حياةً تقرن البساطة بكمال القداسة، ويسع كلّ مؤمنٍ، بل واجب كلّ مؤمنٍ، أن يحذو حذوها.

من المؤكّد أنّها تحفة الله الذي اختارها كي يتعاون معها على تحقيق مخطّطه الخلاصيّ. وقد لعبت دورًا نموذجيًّا وفاعلاً بصفتها جزءًا أساسيًّا ومؤسّسًا للخلاص، ومنطلق الخليقة الجديدة. ولا ريب أنّها تبوّأت مقامًا فريدًا، وكانت الأوفر حظوةً بحبّ الله، ولكنّها، في الآن عينه، كانت الأكثر جاهزيّةً للخدمة، وأهليّةً لعقد علاقات أمومةٍ، وتوثيق شراكةٍ مع الوسيط الوحيد بين الله والبشر، وبرهنت عن الاستجابة المثلى لدعوة الله، وعن الالتزام الأوفر حرّيّةً وكمالاً، بمشيئته، حتّى في محنة موت ابنه، بحيث غدت النموذج الأمثل لكلّ نفسٍ مسيحيّةٍ في اتّصالها مع يسوع، ومع حياته ونعمه.

ومن ثمّ، ينبغي ألاّ نجعل منها موضع إعجابٍ فحسب، بل علينا أن نعقد معها علاقاتٍ شخصيّةً، بصفتها أُمّنا وأُختنا، فهي، أيضًا، واحدةٌ منّا. ولا يكفي أن نوجّه إليها كلماتٍ عذبةً، بل ينبغي أن نتّخذ منها قدوةً لحياتنا.

وقد وصفها القدّيس غرينيون دي مونفور بأنّها «قالب الله العظيم الذي صنعه الروح القدس، كي يصوغ الإنسان الله صوغًا دقيقًا... كلّ ما ينسكب في هذا القالب، مستسلمًا لعمله، يتلقّى فيه كلّ ملامح يسوع». فالعذراء هي أكثر الخلائق تطابقًا مع يسوع، وهي في حالة مخاضٍ دائمٍ، وما علينا إلاّ أن ندعها تكوّننا أطفالاً.

قال الشاعر دانتي: «حدّق الآن إلى أكثر الوجوه محاكاةً لوجه المسيح، فبوسع نوره، وحده، أن يؤهّلك لرؤية المسيح». ويعلّق القدّيس غرينيون دي مونفور على هذه الدعوة بقوله: «إنّها ليست الشمس التي، بحدّة أشعّتها، قد تبهرنا، من جرّاء ضعفنا، ولكنّها جميلةٌ ورقيقةٌ كالقمر الذي يتلقّى نوره من الشمس، ويلطّفه كي يجعله بمتناولنا». ونحن، بالتحديق إليها، وبتمثّلنا بإيمانها الحيّ، وتواضعها السحيق، وطهرها الإلهيّ، وبمحاولتنا القيام بكلّ مهامّنا، كما كان من شأنها القيام بها، في مثل ظروفنا، ننتهي إلى التمثّل بها، ونصبح «صورةً حيّةً»، لمن هي صورة يسوع الحيّة.

فإن نحن أبقينا أبصارنا شاخصةً إلى مريم، أمكننا التشبّه بمن هو قوام حياتنا، والعثور على الفردوس الحقّ: يسوع.

بحياتنا مع مريم نحقّق دعوتنا إلى أن نكون مع يسوع. وبتحديقنا إليها نتّخذها نموذجًا لكلّ أعمالنا، متسائلين، دائمًا، عمّا كانت ستفعل لو هي وُجدت في مثل المواقف التي نواجهها؛ ونقتدي بفضائلها: إيمانها الصامد، وتواضعها السحيق، الذي جعلها تتوارى، وتصمت، وتخضع، وتلتزم المكان الأخير، وطهرها الفريد في تاريخ الكون، وحبّها الطاهر الشامل.

بتحديقنا إلى مريم نلج إلى روحها، ونعثر على يسوع، ونسعى إلى التوافق معه. فالعذراء هي أكثر الخلائق توافقًا مع يسوع، وذوبانًا في الله، بحيث يسعها القول: «من رآني رآى يسوع». وبالتحديق إليها نستجلي فضائلها، ونتيح لها أن تصوغنا بيديها، على مثالها، ومثال ابنها.

إنّ تلك التي نتوسّل إليها، ينبغي أن تكون تلك التي يتوجّب علينا التمثّل بها. فالعذراء مريم التي نلجأ إليها في ساعات الضيق، هي نموذجٌ للمسيحيّين في حجّهم صوب الأبديّة.

لا بل ينبغي ألاّ ندعوها إلاّ إذا كنّا موطّنين النفس على التمثّل بها. من يتضرّع إليها يجب أن يتأثّر خطاها، مستقصيًا، والإنجيل بين يديه، كيف عاشت، وماذا قالت، كيف تصرَّفت، وكيف كانت، بحسب قول البابا بولس السادس الرائع: «المسيحيّة الأولى، وفقًا للتطويبات».

توسّل العذراء يجب أن يقود إلى التمثّل بها. والتمثّل بها يجب أن يحملنا على التماس عونها.

لا ريب أنّ حبّ مريم، والاستسلام لحنانها استسلام طفل لأمّه، وتعلّم النفاذ إلى سرّ الله الحيّ، باقتفاء خطاها، كلّ هذه نِعَمٌ. ولا بدّ من أَن تواكب الصلاةُ تأمّلنا في العذراء. غير أنّ الصلاة، وحدها، لا تكفي، فحقيقة مريم ومعرفتها تظلاّن محجوبتين عن عيون المسيحيّين الذين لا يمارسون، على غرارها، التواضع، والوداعة، والفقر، والمحبّة، وأريحيّة الفكر والإرادة.

البابا بيّوس الثاني عشر قال: «لا يظنّنَ أحدٌ أنّه ابن مريم... إن لم يكن، على غرارها، وديعًا، مستقيمًا، وعفيفًا، وإن لم يُسهم، بحبٍّ، في الأخوّة الحقّة».

إنّ الإمعان في تأمّل الإنجيل يظهر أنّ دور مريم الوحيد كان خدمة الله، وأنّها ما أصبحت أمّ الله إلاّ لأنّها ارتضت أن تكون أَمَته، وأنّ حياتها كانت أقسى صعوبةً ممّا يسعنا أن نتوقّعه، لأنّها كانت خاضعةً لشرائع الأرض، أي لسنن النموّ البطيء، والإثمار الجاهد. كانت المسيحيّة الأولى، وكان عليها أن تخضع للمقتضيات التي تحكم حياة جميع القدّيسين، بل جميع المسيحيّين الحقيقيّين، ولقواعد التقدّم البطيء، والعبور الحتميّ والموجع من خلال الصليب. فعاشت على غرار جميع بنات البشر، ولبّت دعوتها الفريدة، كما يلبّي كلّ إنسانٍ دعوته.

مريم هي نموذجٌ للإيمان الذي يلتزم بما يوحي به الروح، وبما يقوله الربّ، وإن لم يدرك، في الحال، كلّ أبعاده، إدراكًا كاملاً، ولكنّه لا يكفّ عن تأمّله في قلبه إلى أن يجلو له الروح أسراره، وقد انقادت مريم للروح القدس، «دليل العميان»، كما يسميّه پول كلوديل. كانت تنظر بعيون القلب، وتتأمّل، وتتساءل، ولم يكن إيمانها أعمى. وعلى غرارها، ينبغي أن نؤمن، ولا نكفّ عن التساؤل، وإبقاء رغبة المعرفة يقظةً فينا، والتسليم بأنّ الإيمان مزيجٌ من نورٍ وظلمةٍ، وبحتميّة العبور من خلال الصليب، وبأنّ الفهم ينمو بفضل الوفاء، فالوفاء هو حامل نورٍ.

وكما أنّ العذراء هي أمّ جميع المسيحيّين، على كلّ مسيحيٍّ أن ينمّي، في ذاته، الحسّ الأموميّ، فيكون أُمًّا لأخيه، يساعده على حفظ نعمة المسيح، وعلى تنميتها وإنضاجها.

وحريٌّ بنا، أيضًا، أن نقتدي بفقر العذراء، وليس الفقر المقصود هو، حتمًا وحصرًا، الحرمان المادّيّ، فالقدّيس فرنسيس الساليزيّ يقول: «كن فقيرًا في ما ينقصك». وما أكثر ما ينقصنا: أُمنياتٌ لم تتحقّق، ووعودٌ لم يوفَ بها، وفراغاتٌ في القلب والقدرة! هذه الفراغات ينبغي جعلها طاقاتٍ في تصرّف الله، القادر، وحده، على ملئها .

فلنعترف بما ينقصنا، ولنستخدمه، فيكون أجدى لنا من كثيرٍ من مظاهر الفقر الخارجيّة.

والعذراء هي المثال الأسمى لكلّ الفضائل التي مارستها بمستوى الكمال: التواضع، والوداعة، والمحبّة، والخدمة، والرجاء، والعمل بمشيئة الله، والعفّة. وعلى كلّ محبٍّ للعذراء، صابٍ إلى الكمال، أن يتّخذ منها قدوةً.

فالتمثّل بها كفيلٌ بردم الهوّة السحيقة التي تفصل بين أفكار الله وأفكارنا. وما مهمّة ذراعيْها إلاّ إيداعنا بين ذراعَي ابنها.

والاقتداء الكامل بمريم يقتضي الحياة بها، ومن أجلها، أي:

– نسيان الذات، الذي يصفه جورج برنانُس بأنّه «نعمة النعم»، وهو الاعتراف بأنّنا، بذواتنا، لن نبلغ طهر القلب الذي يولّد الحبّ الحقّ، وإفراغ القلب من كلّ ما يعيقه عن الحبّ الصافي. وهذا يقتضي معرفةً واضحةً للذات، وجرأةً كبرى، فما أكثف أوهامنا عن حقيقة نوايانا!

– بعد الفراغ، الملء: بالتسليم لروح مريم، وبإيداع الذات بين يديها، والانصهار فيها، والاستسلام لها، استسلام الصلصال ليدي المثّال، أو استسلام الكمان ليد موسيقارٍ عبقريٍّ، تجعل النفس تهتزّ بكثافةٍ عميقةٍ، تحت قوس الروح القدس، وتضبطها على إيقاع أنغام اللامحدود، الذي وُجدت من أجله.

– تجديد هذا التسليم باطّرادٍ، ولو بنظرةٍ، أو بخاطرةٍ خاطفةٍ.

والاقتداء بمريم يقتضي، أيضًا، الحياة معها، أي التحديق إليها حتّى التشبّه بمن هو حياتها، والحياة فيها، أي نشدان الفردوس الحقّ، فردوس يسوع.

فبحياتنا مع مريم نحقّق دعوتنا إلى أن نكون مع يسوع. والتحديق إليها يعني اتّخاذها نموذجًا لكلّ أعمالنا، واستيحاء طريقة سلوكها حيال ما نواجهه من مواقف، والتمثّل بفضائلها.

الحياة في مريم هي جعلها «كلّنا الأوحد لدى الله». ذلك أنّ العذراء، ليست، بذاتها، شيئًا، بل هي علاقةٌ بالله، لا تملك ذاتها، بل، بنعمة الروح القدس، تحيا فقرًا مطلقًا، وطهر قلبٍ كاملاً، بحيث إنّها الوحيدة دون جميع الخلائق، التي، إن تشبّثنا بها، لم نجد لديها سوى الله وحده.

ومريم هي النموذج الأخلاقيّ الأمثل.

لا ريب أنّ يسوع هو مركز الحياة الأخلاقيّة، ومقياسها، وغايتها. إنّه الطريق المفضي إلى اكتمال الإنسان أخلاقيًّا، وهو الحقيقة التي تضيء بسناها ملءَ الحياة التي يصبو إليها كلّ إنسانٍ. يسوع هو، أيضًا، معلن الشريعة الجديدة وسيّدها: تنفيذ

مشيئة الآب بروحٍ بنويّةٍ، وعيش المحبّة المتبادلة، والجاهزيّة في بذل الحياة من أجل الآخر.

ومريم، أيضًا، هي التعبير الأسمى عن الشخص الإنسانيّ، في قدرتها على التواصل، الذي مارسته في الحرّيّة والمسؤوليّة، في علاقتها مع الآب الذي عقدت معه حوارًا خلاصيًّا عميقًا؛ وفي علاقتها مع الابن الذي قاسمته، مقاسمةً فريدةً، حياة الأُسرة، والآلام الفدائيّة، وتجربة الفصح؛ وفي علاقتها مع الروح القدس بانقيادها له طوعًا؛ وفي علاقتها مع الجماعة الكنسيّة التي زوّدتها بشهادتها الفريدة على أقوال يسوع، وأفعاله، وأسراره الفائقة، والتي واكبتها في انتظار حلول الروح القدس، في شراكة صلاةٍ.

لقد كانت مريم، بحسب قول البابا يوحنّا بولس الثاني، «العلامة المضيئة، والمثال الجذّاب للحياة الأخلاقيّة... ففضائلها الفائقة السموّ تحضّ النفوس حضًّا لا يُقاوم على التشبّه بالمثال الإلهيّ، يسوع، الذي كانت، هي، له، الصورة الأشدّ صدقًا، كما كانت كتاب الشريعة الذي يطلعنا على ما يروق للّه».

وتلك التي دُعيت أُمّ الحياة تتجلّى – في عصرنا الذي غزته ثقافة الموت غزوًا مأساويًّا مريعًا – نموذجًا أمثل لثقافة الحياة. فهي، إذ رحّبت برسالة الملاك الإلهيّة، إنّما رحّبت بإنجيل الحياة، في صيغته الجوهريّة، أي بيسوع نفسه.

ومن المحقّق أنّ من مصادر الإثراء الروحيّ لكلّ مؤمنٍ، الاقتداء بقداسة مريم، على أن تكون العذراء منبع إلهامٍ، يستوحي منه المؤمن ما من شأنه تقديس حياته، في الظروف الخاصّة التي يواجهها، وفي البيئة المحيقة به.

وعلى كلّ تلميذٍ، متشبّهٍ بالعذراء، أن يقيم تناغمًا بين وضعه كمواطنٍ في مدينةٍ أرضيّةٍ، وقناعته بأنّها ليست سوى مسكنٍ مؤقّتٍ، بحيث يكون، وفقًا لتعبير البابا يوحنّا بولس الثاني «عاملاً في المدينة الأرضيّة الزمنيّة، وفي الآن عينه، حاجًّا يحثّ الخطى شطر المدينة السماويّة الأبديّة، وداعيةً إلى العدل الذي يعتق المقهور، وإلى المحبّة التي تغيث الملهوف، وفوق كلّ ذلك، شاهدًا ناشطًا للحبّ الذي يبني المسيح في القلوب».

مريم هي مربّية الأجيال المسيحيّة، وتواكبها على دروب الاستقامة والكمال.

وبتأمّلها يكتشف المسيحيّ معاني الكرامة البشريّة والمسيحيّة، ويتبيّن قدرة النعمة التي يزوّده بها الربّ على تغيير ذاته وتحويلها، ويدرك أنّ حياته الخاصّة ينبغي ألاّ تخلص خلاصًا فرديًّا أنانيًّا، بل ينبغي أن تُبذل من أجل يسوع، ومن أجل خدمة البشر.

العذراء هي النموذج الأمثل لقيَم القداسة الجوهريّة. لقد نعمت بامتيازاتٍ فريدةٍ، ولكنّ هذه الامتيازات لم تحوّلها إلى أميرةٍ نائيةٍ، ولم تُقصِها عن عامّة البشر، بل زادتها منهم قربًا. وإن هي، بنعمةٍ خاصّةٍ، تخطّت بعض الحدود، فلكي تلج، أعمق فأعمق، في التواصل مع الله، ومع البشر.

مثالها هو دعوةٌ موجّهةٌ لكل إنسانٍ كي يحقّق ذاته، بطريقةٍ متميّزةٍ. فكلُّ كائنٍ بشريٍّ مدعوٌّ إلى أن يحقّق، في الله، وبالله، ومن أجل الله، شيئًا فريدًا يسهم في تمجيد الله.

مثال مريم هو مصدر إلهامٍ وتحريضٍ.

القمّة التي تسنّمتها ليست تقزيمًا لسائر البشر، وامتلاؤها بالنعمة ليس حرمانًا لهم. بل إنّ مريم هي مركز العمل الذي سيحقّق كلّ احتياجات أرواحنا. إنّه عمل تواصلٍ، وتضامنٍ، وحبٍّ. والحبّ يتخطّى كلّ الفروق، وضروب اللامساواة. والحبّ الأقصى، حبّ الآب، وحبّ يسوع، وحبّ مريم، هو الذي يهب ذاته، أوّلاً، إلى الأكثر فقرًا، والأشدّ حاجةً، ويوقظ العدم على الوجود، ويدفع كلّ نقصٍ إلى الامتلاء والاكتمال.

مريم هي يقظة البشريّة المثلى على يسوع الذي ولدته، وعلى الله الذي هو كلّ شيءٍ في الجميع. لم تمتلئ مريم إلاّ لكي يُغدَق العطاءُ على الجميع، عملاً بالتضامن الذي يحكم الوضع البشريّ، ولكي يأخذ هذا التضامن دفعًا جديدًا.

وإن كانت وقايتها من جريرة الخطيئة الأصليّة، امتيازًا فريدًا، في سبيل رسالتها، بصفتها أمّ الله، فغايتها هي توفير النبع الإلهيّ لجميع البشر. معها استُهلّت ديناميّة طهرٍ يتعيّن على كلٍّ منّا مواصلة انتهاجها، وفقًا لطاقاته وموقعه. فإكرامًا لأمومة مريم الإلهيّة، دفع الله العالم صوب مستقبلٍ قشيبٍ.

ومريم هي إيقونة الروح القدس، فهذا الروح هو ثمرة حبّ الآب والابن. وعلى

غراره مريم هي حبٌّ صرفٌ. إنّها قلبٌ، كما يعنيه الكتاب، أي حرّيّةٌ حيّةٌ، وديناميّة الالتزام البشريّ المضطرمة.

ولذلك يسارع الروح القدس إلى حيث مريم، وتسارع مريم إلى حيث الروح القدس، على حدّ تعبير القدّيس غرينيون دي مونفور.

ومريم هي خير مثالٍ للحياة الروحيّة. في هذا الشأن يقول البابا بولس السادس: «مريم هي، خاصّةً، لكلّ مسيحيٍّ، نموذج العبادة القائمة على جعل الحياة الخاصّة تقدمةً للّه... إنّ نَعَمَ مريم، هو، لجميع المسيحيّين، درسٌ ومثالٌ في تقديم طاعتهم لمشيئة الآب، طريقًا ووسيلةً لتقديس ذواتهم».

تلقّت كلمة اللّه، وعملت بها، وكان حاديها المحبّة وروح الخدمة. وبالإجمال كانت تلميذة يسوع المثلى والأولى. ومع استغراقها في التأمّل، وصلاتها المتواصلة، لم تصرفها الخلوة الروحيّة، يومًا، عن واجبات الخدمة.

ولكلّ ذلك قيمة قدوةٍ شاملةٍ ودائمةٍ.

والعذراء، فوق كلّ ذلك، نموذجٌ للتحرّر. ففي حقبةٍ موسومةٍ برغبة تحرّر الشعوب والطبقات الاجتماعيّة المقهورة، نلحظ أنّ مريم، مع كونها مستسلمةً، كلّيّةً، لمشيئة الربّ، لم تكن خانعةً خنوعًا سلبيًّا، ولم تخشَ إعلان أنّ اللّه هو من يرفع المتواضعين والمسحوقين، ويحطّ عن عروشهم أقوياء هذا العالم. إنّ العذراء تحتلّ المكانة الأولى بين متواضعي الربّ وفقرائه. إنّها امرأةٌ قويّةٌ عهدت الفقر والألم، والهجرة، والنفي. وهذه الخبرات جديرةٌ بلفت أنظار من يبتغي معاضدة قوى التحرير، التي يلهمها روح الإنجيل.

هذا ما عناه البابا يوحنّا بولس الثاني بقوله: «إنّ مريم، المعتمدة، كلّيّةً، على اللّه، والمتّجهة نحوه بزخم إيمانها، هي، إلى جانب ابنها، الإيقونة الأكثر كمالاً للحرّيّة، ولتحرير البشريّة والكون. وصوبها ينبغي أن تتطلّع الكنيسة، إذ إنّها أمّ الكنيسة ونموذجها، لكي تدرك، إدراكًا كاملاً، معنى رسالتها».

وبوحيٍ من مثال مريم يخوض مسيحيّون كُثُرٌ مغامراتٍ إنقاذيّةً.

حضور مريم

في معرض روايته لمعجزة قانا يقول الإنجيليّ يوحنّا: «وكانت أمّ يسوع هناك». هذا القول ينسحب على كلّ مراحل حياة يسوع، وحياة كلٍّ منّا، إخوة يسوع.

فطفولة يسوع، ومراهقته، وحياته الخفيّة، اندرجت تحت أنظارها. هي أَدخلته إلى البشريّة، وواكبت، عن كثبٍ، ثلاثين عامًا من مسيرته الأرضيّة، واستهلّت رسالته بحمله على إجراء معجزة قانا التي أَظهرت قدراته الإلهيّة، فرسّخت إيمان تلاميذه فيه. وقد واكبته روحيًّا، في أثناء تبشيره، واشتركت في آلام صلبه، ورافقت نشوء الكنيسة، في العنصرة، ثمّ انضمّت إليه، أبديًّا، في مجده، بانتقالها إليه نفسًا وجسدًا. ولكنّها، بانتقالها هذا، لم تُهمل إخوته على الأرض الذين أَوكلهم إلى عنايتها، في شخص تلميذه الحبيب يوحنّا، بوصيّته الأخيرة، التي، بها، أكمل رسالته على الأرض.

بعد العنصرة، اكتنف الكتمانُ مريمَ، في الكتب المقدّسة، ولكنّ حضورها أمسى أكثر فاعليّةً، وأعمق أثرًا.

في جميع الحالات تبدو العذراء، وكأنّها ممثّلٌ صامتٌ، في مأساة الخلاص، ولكنّها تعمل بمجرّد حضورها، وعملها فائق الجدوى.

حضورها سهرٌ، وعطفٌ، وخدمةٌ، وغوثٌ، وهو صمتٌ، وعبادةٌ أبلغ من كلّ خطابٍ. ولكأنّها تصمت كي تفسح المجال للكلمة الذي اتّخذ منها جسدًا. وسيأتي يومٌ ستسفر فيه عن الكنز الثمين الذي كانت تخفيه في صمت قلبها.

إنّها حاضرةٌ، أبدًا، بمشاعر ابنة الله، وعروس الروح، وأمّ ابن الإنسان وإخوته البشر. إنّها حاضرةٌ حضور شفاعةٍ، وسلامٍ، بقلبها الذي يستمدّ نبضه من قلب ابنها الإلهيّ، وينظّم وقعه، ويكرّس قدرته على الأحداث الروحيّة، في الزمن وفي الأبديّة.

إنّها حاضرةٌ في صُلب السرّ المسيحيّ، وفي كلّ حقَب الخلاص. بواسطتها أصبح اللّه لنا أخًا، إذ منحنا أمّه أُمًّا، وساوانا بذاته. وهي، مذ تبنّتنا فيه تبنّيًا روحيًّا، ما انفكّت تسعى إلى التصعيد بنا صوب ألوهته.

والذين اعتزّوا بهذا التبنّي، وعبّروا عن هذا الاعتزاز، بتكريم إيقونة أمّهم التي يضعونها في أماكن بارزةٍ من منازلهم، أو بتعليق رموزٍ لها في أعناقهم، تعلّموا منها الصلاة، واضطرمت بها تقواهم، وكانت لهم تذكيرًا دائمًا بعلاقات الحبّ التي تعقدها مع ابنها، ومع كلٍّ من إخوته.

منذ القدم أشاد المسيحيّون بحضور مريم في حياتهم، وقد جاء في صلاةٍ وجّهها لها جرمانُس القسطنطينيّ (٦٣٤– ٧٣٣):

«أنت التي ساكنت اللّه، هجرتِ العالم، ولكنّك لم تتخلّي عن سكّان العالم. إنّنا نغبط ثلاثًا من يتمتّعون بحضوركِ المرئيّ، ومن يجدون فيك أمّ الحياة.

«إنّ الحماية المنيعة التي تحيطيننا بها هي علامة حضورك في ما بيننا. نحن نسمع صوتك، وأصواتنا تبلغ إلى أذنيك...

«إنّك تزورين الجميع، ونظرك يرعى كلّ شيءٍ، يا أمّ اللّه، مع أنّ عيوننا عاجزةٌ عن رؤيتك. إنّك، أيّتها الكلّيّة القداسة، تقيمين بين ظهرانينا، وتظهرين لمن هم جديرون بك، وتقتربين ممّن يدعونك».

وقد جاء، في عظةٍ للقدّيس أنطونيُس البادوانيّ:

«إنّنا نسألك، يا سيّدتنا ورجاءنا، نحن الذين تخضّهم العاصفة، أنت يا نجمة البحر، أشعّي، وقودينا صوب المرفأ، وساعدي وصولنا بحماية حضورك».

وكتب الأَب جان جاك أولييه (١٦٠٨– ١٦٥٧):

«في يوم سبتٍ مثلت العذراء داخل نفسي... وذكّرتني بما كان يسوع قد قاله لي، أي إنّه لن يحيا فيّ إلاّ في مريم أمّه وبها، وبنفس الحياة التي كان يحياها فيها. ولكأنّها سرٌّ قدسيٌّ يودّ أن يبلّغني حياته من خلاله».

إنّ العذراء تغمر بحضورها كلّ حياتنا الروحيّة. عبير حضورها يتضوّع في كلّ وجودنا، وشفاعتها الوالديّة لصالح كلّ مؤمنٍ تسبغ على المسيحيّة جاذبًا وفتنةً.

وحضورها في حياتنا جوهريٌّ، وإن كان كتومًا، إذ إنّه يرشدنا إلى الولادة بالروح. وقد أكّد البابا يوحنّا بولس الثاني: «إنّ أمّ الله حاضرةٌ باستمرارٍ في حياة المسيح، وحياة الكنيسة، وحاضرةٌ، بواسطة الكنيسة، في حياة الشعوب والأمم، عبر تاريخها، في آلامها، وصراعاتها، وفي نضجها الداخليّ والاجتماعيّ».

وعن حضور مريم في حياة الكنيسة، قال البابا بولس السادس:

«إنّ جميع حقب تاريخ الكنيسة قد نعمت، وما برحت تنعم، بحضور أمّ الله الأموميّ، فهو مرتبطٌ، أبدًا، ارتباطًا وثيقًا، بسرّ جسد المسيح، إذ إنّ رأس هذا الجسد، يسوع المسيح، هو، هو، أمس، واليوم، وإلى الأبد».

حضورها حضور أُمٍّ، لأنّها أمّ البشر، وبخاصّةٍ المؤمنين، «وحبّها الأموميّ يجعلها عينًا ساهرةً على إخوة ابنها الذين لم يبلغوا نهاية شوطهم، بعدُ، وإنّما يعانون وطأة المشاقّ والمِحَن، إلى أن يبلغوا الوطن السعيد». (المجمع الفاتيكانيّ الثاني – نور الأمم ١٩٦٢)

وحضور مريم نشيطٌ وفعّالٌ، فحياتها السماويّة، وإن كانت غارقةً في غبطة اللاهوت، تمثّل خدمةً دؤوبًا لصالح جميع المفتدين.

وهو حضور صلاةٍ، فمريم تضمّ دائمًا صوت توسّلاتها ووساطتها إلى صوت ابنها الذي يتوسّط، بلا انقطاعٍ، من أجلنا.

وهو حضورٌ دائمٌ، دوام ملكوت ابنها.

وهو حضورٌ نسائيٌّ، إذ إنّه، في ضمير المؤمنين، يخلق مناخًا أسرويًّا، ورغبةً في الاستقبال، وحبّ الحياة واحترامها.

وهو حضورٌ مثاليٌّ، فالممتلئة نعمةً، والمتألّقة بكلّ الفضائل، تُظهِر للكنيسة جمعاء، سُبُل التواصل الكامل مع الربّ، وبقوّة مثالها تجتذب المؤمنين إلى اتّباع المسيح. وهو حضورٌ روحيٌّ، لأنّ جسد مريم الممجّد قد أصبح «روحيًّا»، منعتقًا من قيود المادّة والزمن والمكان المفروضة على الوجود الأرضيّ.

لقد شُبّهت العذراء بالشمس التي تغمر، بنورها ودفئها، جميع البشر، ولا ريب أنّ قول نشيد الأناشيد: «اسمكِ مثل زيتٍ مفاضٍ» ينطبق عليها، فالزيت يشفي

المرضى، ويفوح بعطرٍ عذبٍ، ويغذّي شعلة المصباح، وكذلك اسم مريم يشفي نفوس الخطأة، ويُسيل فيها الفرح، ويلهبها بالحبّ الإلهّي.

ولطالما حصّن حضور العذراء الكنيسة، ووقاها من الضلال الذي كانت البدَع المتعاقبة تنشره. بقداستها قهرت البدَع، فهي أعطت العالم يسوع أي الحقيقة والنور، وبقدرة ابنها سحقت رأس الحيّة.

كانت معلّمة الرسل وطلائع المسيحيّين، وتعليمها وقاهم من الضلال، وقد ساعدت خلفاءهم على مقاومة البدَع. وما برحت أمّ الكنيسة، وحارسة الإيمان، وما انفكّت الحقيقة الإلهيّة التي يثبتها سرّ مريم تبدّد كلّ ضلالٍ.

وقد قال البابا بيّوس الثاني عشر: «إنّها المنتصرة في كلّ كفاحٍ من أجل اللّه».

إنّ البدَع تمرُّدٌ على اللّه، وعلى حقيقته. ومريم طاعةٌ مطلقةٌ. وإيمانها هو نقطة انطلاق الخليقة الجديدة، وبدء تاريخ الخلاص بيسوع المسيح. وقد التزمت مريم بهذا الإيمان بكلّ كيانها، وأنضجت في قلبها أكثر الخبرات واقعيّةً، خبرات أمّ اللّه، وأمّ البشر أجمعين.

التزام العذراء المطلق بكلمة اللّه وإرادته، وإيمانها الحدْسيّ يبطلان كلّ انحرافٍ فكريٍّ. وقد لعب مثال إيمانها دورًا هامًّا في كلّ انتصاراتها المتعاقبة في تاريخ الخلاص، مثلما أسهم في هذه الانتصارات إدلاؤها بمعلوماتٍ، كانت هي خزانة سرّها الوحيدة، عن البشارة والتجسّد.

إنّ معرفة مريم هي الترياق الدائم الكفيل بتحرير اللاهوت من ضيق الآفاق، والترّهات، والانحراف، ومن كلّ ما هو ناجمٌ عن فلسفاتٍ وايديولوجيّاتٍ ضيّقةٍ.

وقد انتصر إيمان مريم لأنّه كان مبدأ تحقيق المخطّط الإلهيّ الذي ارتضت به، فهي، بإيمانها، ولدت ابن اللّه، وبالتزامها الكامل، شاركت يسوع في تنفيذ كلّ مراحل الخلاص، من التجسّد حتّى العنصرة، مرورًا بالتضحية الخلاصيّة الكبرى. بإيمانها، وصلاتها، وشفاعتها، واكبت عمل يسوع المنتصر الذي شاركت فيه مشاركةً حميمةً وفاعلةً، أكثر من أيّ كائنٍ آخر.

ثمّ إنّ لحضور مريم أثرًا جليًّا على الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة، فمريم لم تتخلَّ، يومًا، عن رسالتها الخلاصيّة، وهي دائبةٌ على اتّخاذ مبادراتٍ في هذا المنحى. فتغلّب

الكنيسة البولونيّة على طغيان الماركسيّة الملحدة تحقّق بمساعدة العذراء. وظهورات مريم، في مختلف أصقاع العالم، خلال القرنين المنصرمين، هي إعلان عهدٍ جديدٍ في الصراع الناشب بين المرأة والتنّين، من أجل إعادة إزهار الصحراء، وقيادة البشر إلى السماء. هذه الظهورات تُعِدّ لأزمنةٍ جديدةٍ، ولميلاد عالمٍ مسيحيٍّ جديدٍ. إنّ العذراء متضامنةٌ مع الكنيسة في كفاحها؛ كانت ملتزمةً مع يسوع، منذ البدء، وستكون الأولى التي ستنتصر معه. الدرب الذي تدعو إلى انتهاجه عالَمنا الذي فقد الحسّ القدسيّ، وقلوبَنا التي عادت فوقعت في الوثنيّة، هو درب تكريس ذواتنا لله بواسطتها. فالله اعتمد عليها كي يتأنّس، وأوكلنا إليها كي تقودنا إلى الحياة الإلهيّة.

والعذراء حاضرةٌ كي تقودنا بأمانٍ إلى الحياة الأبديّة. فقد قال القدّيس غرينيون دي مونفور: «مريم هي الدرب الذي انتهجه يسوع في مجيئه الأوّل إلى العالم، وستكون هي الدرب لمجيئه الثاني، وإن بأسلوبٍ مختلفٍ... إنّ رسل الأزمنة الأخيرة سيكونون خدّام مريم وأبناءها». سيكونون نارًا مضطرمةً، وسيبثّون نار الحبّ الإلهيّ في كلّ مكانٍ...»

إنّ حضور مريم في حياتنا يوثّق علاقتنا بابنها. فيسوع، بإيكال أُمّه إلى يوحنّا، ممثّلاً عن جميع المؤمنين، وبإيكال يوحنّا إلى أمّه، جعل من كلّ مؤمنٍ «التلميذ الذي كان يحبّه».

في هذا السياق يقول البابا يوحنّا بولس الثاني: «في محيّا مريم الأمّ يتبيّن المسيحيّون تعبيرًا مميّزًا عن حبّ الله الرحيم، الذي، بواسطة حضور أمٍّ، يُظهر، على نحوٍ أمثل، عطف أبٍ وطيبته».

وحيثما تحضر العذراء تشيع حضور الروح القدس. مجرّد حضورها في بيت كارم ملأ إليصابات وجنينها بالروح القدس، وبروح النبوّة. وعندما وافت إلى الهيكل كي تقدّم ابنها الوليد، تكلّم الروح القدس، بلسان سمعان الشيخ، وحنّة النبيّة، وعندما فجّر الروح القدس ناره وأنواره في العلّيّة، كانت مريم ترأس محفل الحاضرين.

وهي، مع انتقالها إلى السماء، لم تغب عن هذا العالم، ولا نأت عنه، بل هي ما برحت، في صميم حياتنا وحميميّتنا، وما زالت تلفّنا بحضورها. ومن خلال ظهوراتها التي تواترت في القرنين المنصرمين، ما انفكّت تذكّر بمبادئ الإيمان

المسيحيّ، داعمةً المؤمنين في إيمانهم، وداعيةً الذين نأوا عن ابنها للعودة إلى المنزل الأبويّ حيث يجدون السلام والخلاص، شافيةً الأمراض الجسديّة والنفسيّة، مخفّفةً وطأة المِحَن، وجاعلةً الصليب عذب الاحتمال.

وفي كلّ يومٍ يتجلّى حضور مريم من خلال تأثيرها البليغ في حياتنا الروحيّة، والذين خَبَروا هذا الحضور وجدوه عذبًا، ملتهبًا، مطهِّرًا، مشيعًا السلام. وقد اعترف أحدهم: «أنا لا أُشاهدها، ولكنّني أشعر بها، مثلما يشعر الحصان بيد الفارس التي تقوده».

حضور اللّه هو مصدر حياتنا. إن غاب انتهى وجودنا، أمّا حضور مريم، فهو في اللّه وبه، حضور ساقيةٍ آتيةٍ من نبع.

حضور العذراء ليس حضورًا عاطفيًّا، بل هو حضور إيمانٍ. وهو حضورٌ دائمٌ، شاملٌ، وحضورٌ إنسانيٌّ، مثل حضور يسوع، قريبٌ وحميمٌ.

حضورٌ أنثويٌّ يتّسم بالرقّة والحنان.

حضور أمٍّ، مذ كرّسها ابنها أمًّا لتلاميذه.

أمومة مريم لنا هي أمومةٌ روحيّةٌ وأخلاقيّةٌ، ووجوديّةٌ، تندرج في حيّزٍ إلهيٍّ. ومع أنّها أُمومة تبنٍّ، فهي أمومةٌ أصيلةٌ تكرّس لها العذراء كلّ كنوز حبّها وحنانها. فهي، في الجلجلة، عانت مخاض كلّ مؤمنٍ.

حضورها متكتّمٌ، وهو يعدّ لحضور يسوع.

فلنوكل إلى عنايتها كلّ بداياتنا، بدايات كلّ مشاريعنا كي تقودها إلى الكمال، وكلّ انتقالٍ من حالةٍ إلى أُخرى، وكلّ أزمةٍ، ولياليناا الروحيّة. قد لا تلغي الظلمات والمِحَن، ولكنّها تملؤها بحضورها وعزائها، وسندها، وتنشر السلام في الليل، وفي ساعات الصلب والمرض، وفي ساعة موتنا، فهي الكفيلة بولادتنا على حياة السماء.

وكان القدّيس غرينيون دي مونفور قد تنبّأ:

«في نهاية العالم، سيكون أعظم القدّيسين هم الأكثر مثابرةً على الصلاة للعذراء القدّوسة، والذين كانت هي، دائمًا، حاضرةً لهم، بصفتها النموذج الأكمل الذي يتمثّلون به، والعون المنيع الذي يساندهم».

مريم وحياتنا الروحيّة

لا تستقيم حياتنا الروحيّة إلاّ إذ انصهرت في حياة مريم التي تحقّقها على أكمل وجهٍ. فمريم هي موجز العقائد المسيحيّة، والنموذج الأمثل للقداسة، وإنّما تكريمها والاقتداء بها عاملٌ هامٌّ في تنمية القِيَم الأدبيّة. فالبشر، ولاسيّما الشباب، يَنشدون الجمال، ومريم هي قمّة الجمال؛ وهم يَنشدون الرفعة، ومريم تخطّت كلّ الحدود العاديّة، والأجيال كلّها تغبطها. وهم يَنشدون الفرح، وولادتها كانت مبعث فرحٍ للكون كلّه. وهم يَنشدون الحبّ، ومريم هي النموذج الأسمى للحبّ الكامل الطاهر.

إنّها نبع الجمال الحقّ، والعظمة الحقّة، والفرح الحقّ، والحبّ الحقّ، والإيمان الحقّ.

فمثلما يستمدّ الطفل كلّ غذائه من أُمّه التي توفّره له وفقًا لقدرته وحاجته، كذلك يستمدّ أعضاء جسد يسوع السرّيّ كلّ غذائهم الروحيّ، وكلّ قوّتهم من مريم. فعليهم أن يكونوا أدواتٍ طيّعةً بتصرّفها، لكي تعمل فيهم، وبهم، ومن أجلهم، كما يحلو لها، من أجل مجد ابنها الأعظم، بحيث تكون حياتهم الداخليّة، ونشاطهم الروحيّ، خاضعين لها.

في بسمة أُمّه يكتشف الطفل عالمًا يرحّب به. وبفضل هذه التجربة يعرف ذاته للمرَّة الأولى. وقبل تلقّنه الكلام، ينمو فيه الحوار الصامت بينه و بين أُمّه.

ويسوع مدينٌ لأمّه بوعيه لذاته. ومن ثمّ كان لا بدّ لأمّ هذا الابن من أن تكون قمّة طهرٍ. وبما أنّها هي التي أهّلت ذلك الولد الفريد للحياة الروحيّة، فلا ريب أنّها كانت تمارس حياةً روحيّةً فريدةً.

في هذا السياق يقول القدّيس غرينيون دي مونفور إنّ مريم، مثلما صاغت رأس المختارين، أي يسوع المسيح، فمهمّتها، أيضًا، أن تصوغ أعضاء هذا الرأس، أي المسيحيّين الحقيقيّين. فالأمّ لا تصوغ الرأس بمعزلٍ عن الأعضاء، ولا الأعضاء بمعزلٍ

عن الرأس. ومن ثمّ، فكلّ من يبتغي أن يكون عضوًا في جسد يسوع السرّيّ، ممتلئًا نعمةً وحقًّا، لا بدّ من أن تصوغه مريم بواسطة نعمة يسوع المسيح، حيث يثوي كلّ ملئها، لكي يشترك بهذا الملء أعضاء يسوع وأبناؤه الحقيقيّون. فقد تلقّت العذراء من الله تكليفًا خاصًّا بالنفوس كي تغذّيها، وتنمّيها في الله.

فيها وحدها تكوَّن يسوع بشريًّا، ولم يفقد من ألوهته شيئًا، وفيها وحدها يُمكن أن يصاغ الإنسان إلهيًّا، بقدر ما تستوعب طبيعته البشريّة، بنعمة يسوع.

مريم هي القالب الذي تكوّن فيه ابن الله بشريًّا. وكلّ من يسكب ذاته في هذا القالب، مستسلمًا لعمل الروح القدس، يتلقّى كلّ ملامح يسوع، بما يتناسب ووهنه البشريّ، وبمعزلٍ عن أيّ وهمٍ أو ضلالٍ، إذ ليس لإبليس أيّ منفذٍ إلى مريم المنزّهة من كلّ أثرٍ للخطيئة.

القدّيس أوغسطينُس، أيضًا، وصف العذراء القدّيسة بأنّها «قالب الله»، القالب الكفيل بصوغ الآلهة. فمن ارتمى في هذا القالب الإلهيّ، لا يلبث أن يتّخذ شكل يسوع المسيح ... فقد سُكب في القالب عينه الذي صاغ الله، ويقول القدّيس أوغسطينُس: «إنّني أشبّه الذين اكتشفوا سرّ النعمة هذا بسكّابين عثروا على قالب مريم الرائع، حيث صيغ يسوع المسيح، طبيعيًّا وإلهيًّا، فلم يعتمدوا على مهارتهم، بل اقتصروا على جودة القالب، وارتموا في مريم، وضاعوا فيها، كي يصبحوا رسمًا مطابقًا ليسوع المسيح».

وللعذراء دورٌ هامٌّ في التعريف بيسوع، وفي توثيق العلاقة به، إذ لم يعرفه أحدٌ مثلها، ولم يتأمّله، ولم يحببه أحدٌ مثلها، وهي وحدها كفيلةٌ بأن تبرز وجهه الحقّ، فحياتها متمحورةٌ حول يسوع، موقوفةٌ على خدمته. شفافيّتها اللامحدودة تُنضج شفافيّتنا، لكي يغزونا نور الكلمة ويغمرنا. إنّها تجعل كياننا حاضرًا ليسوع، متوغّلاً في حياته، بقدر ما نستسلم لتأثيرها الأموميّ، فهي القناة التي تصلنا بالنبع. ليست هي الحكمة فحسب، بل إنّها عرش الحكمة. وهي ليست الحياة فحسب، بل هي البستان المغلق الذي يتفجّر منه نهر الحياة ويتدفّق. وهي تضرب في كلّ نفسٍ تسكنها جذور تواضعٍ سحيقٍ، ومحبّةٍ مضطرمةٍ، وقداسةٍ زاخرةٍ بكلّ الفضائل.

لقد أَنتجت، مع الروح القدس، أعظم ما وُجد، يومًا، أي الله الإنسان، وهي

وحدها، العذراء الفريدة المعجزة، تستطيع أن تحقّق مع الروح القدس، الأشياء الفريدة المدهشة.

بواسطتها تأنّس الله، وبواسطتها يتألّه الإنسان. إنّها توقظنا على حبّ الله، وتساعدنا بقدرة ابنها التي تشاركه بها.

على غرار يوحنّا الذي أخذها إلى خاصّته، وجعلها خاصّته، على المسيحيّ أن يهب العذراء ذاته، ويستقبلها استقباله لأهله، «ويدخلها إلى كلّ رحاب حياته الداخليّة، أي في أناه البشريّ والمسيحيّ» بحسب تعبير البابا يوحنّا بولس الثاني.

وإن كان علينا أن نكرّس ذواتنا ليسوع، فلنفعل ذلك بيدي مريم، ولنولِها كلّ ثقتنا.

إنّها شمس وجودنا التي لا تستقيم لنا حياةٌ بمعزلٍ عنها، وقد قال، في هذا المعنى، القدّيس برنار: «أزيحوا هذه الشمس التي تنير عالمنا الزمنيّ، فهل سيبقى نهارٌ ؟ وأزيحوا مريم، نجمة البحر الفسيح، فهل سيبقى سوى الليل الدامس، وظلال الموت، والعتمة الكثيفة؟»

وعندما تضرب العذراء في نفسٍ ما جذورًا، تنتج فيها روائع نعمةٍ تنفرد بها ولا يضاهيها فيها أحدٌ، لأنّها العذراء الخصبة الوحيدة التي لم يكن لها، قطّ، ولن يكون لها، أبدًا، نظيرٌ في الطهر والخصب.

يقول بوسّويه: «بما أنّها وضعت صانع النعمة، فهي، أيضًا، على نحوٍ ما، شريكةٌ بكلّ نعمةٍ قد ننالها».

ومثلما قال الرسول بولس للغلاطيّين (٤: ١٩): «يا أولادي الصغار الذين أتمخّض بهم من جديدٍ إلى أن يتصوّر المسيح فيهم»، كذلك تقول الأمّ العذراء لكلّ مسيحيٍّ. وفي هذا السياق يقول القدّيس أوغسطينُس: «إنّ الأبرار، لكي يتوافقوا مع صورة ابن الله، يثوون في أحشاء العذراء الفائقة القداسة، التي تحضنهم، وتغذّيهم، وتنمّيهم، إلى أن تلدهم على المجد، بعد الموت الذي يمثّل يوم ولادتهم الحقّة».

ويقول القدّيس غرينيون دي مونفور: «بما أنّ مريم هي، بين المخلوقات جميعها، الأكثر توافقًا مع يسوع المسيح، فإنّ خير أنماط التقوى الكفيلة بتكريس النفس

ليسوع، وبجعلها متوافقةً معه، هو تكريم العذراء القدّوسة، أمّه. فبقدر ما تكون النفس مكرّسةً لمريم، تكون مكرّسةً، أيضًا، ليسوع».

مريم العذراء هي دربنا إلى يسوع. إنّها نجمة الصبح التي تعلن الفجر، وتبشّر بالشمس، وبتجلّي ابنها، المتألّق، في العالم. إنّها نجمة البحر، الساهرة على ليل العالم، التي تظهر وتغيب عن أبصارنا، كما فعلت النجمة التي قادت المجوس إلى بيت لحم.

وقد قال القدّيس غرينيون دي مونفور، أيضًا: «من يجد العذراء يجد الحياة، أي يسوع المسيح، فهو الطريق، والحقّ، والحياة. ولكن لا يمكن العثور على مريم، إلاّ بالبحث عنها، ولا يسع من لا يعرفها البحث عنها...»

والعذراء هي خير من يعرّفنا بيسوع. فتلاميذه عرفوه منذ عماده حتّى قيامته. أمّا مريم فعرفته مذ بُشّرت به، وعرفت أنّه جاء من الآب والروح القدس، بمنأًى عن كلّ تدخّلٍ بشريٍّ. عرفت أنّه الله، وأنّ الروحَ القدس هو الذي كوَّن فيها جسده، وأنّها وضعته وهي عذراء، وواكبته لحظةً فلحظةً، منذ مولده في بيت لحم، حتّى اعتلائه وهو ابن ثلاثين سنةً. وقبل أن تضعه، حيّت فيه مخلّص الورى.

ومريم هي الضمانة الحيّة والملموسة لوجود الله في ما بيننا. فابنة الله تلك التي لم تنأَ عنه، لحظةً، كفيلةٌ بأن تلفت نفوسنا نحوه، في ساعات إحباطنا، وانهيارنا، وفي غمرة التجارب التي تهاجمنا. وفي هذا المعنى كتب الأب سيرتيلانج:

«حسبُ الشابّ الذي تحاصره التجارب، ويهدّده طغيان الحمأة، أن يرفع أنظار نفسه إلى تلك الناصعة الطهر، ويدع قلبه يتأثّر بنعمتها، وينشد عون يد امرأةٍ، ولكنّها امرأةٌ مبجّلةٌ ومحبوبةٌ، فهي كفيلةٌ بأن تزيح، بحركةٍ رقيقةٍ، زوبعة الأحلام التي تعصف به.

«وعندما تحاصر الحياة، بكلّ إغراءاتها، نفس فتاةٍ وحيدةٍ، عديمة الخبرة، فإنّ اللجوء إلى تلك الأمّ الشفّافة، التي يمكن أن يُصرَّح لها بكلّ شيءٍ، التي تسمع ما لا يُنطق به، وتؤازر بمجرّد منظرها، إنّ اللجوء إليها جزيل الجدوى.

«إنّ العذراء تلبّي صبوًّا عميقًا في نفوسنا، إلى كلّ ما هو نقيٌّ، كاملٌ، وجميلٌ. إنّها تجتذب كلّ نصاعات العالم من أجل نشرها ومضاعفتها.

«لا جَرَم أنَّ بشريّتنا بائسةٌ. ولكنّها كم ستكون أكثر تمرُّغًا في الوحل والفظاظة لو لم ترفّ فوقها تلك الرقّة السامية، ولم تتألّق تلك النجمة الساطعة!

«هذا الشعاع النقيّ الذي أصبح امرأةً، هذه البسمة المشعّة على محيّا أرضٍ انعتقت من الشرّ، واستعادت الرجاء، هي بشرى عظيمةٌ، وجمالٌ مقدَّسٌ».

إنّ العذراء عند مفترق طرق تاريخنا: رجاءٌ للبعض، وفضيحةٌ لآخرين، ولا تنفكّ تنتزع من العدالة الإلهيّة، مُهَل رحمةٍ. إنّها أُمٌّ شاملةٌ، ساهرةٌ على كلّ نفسٍ، متنبّهةٌ لخفقات قلوبنا المعرَّضة للعطب. ما يدمّره الشرّ هي تصلحه بفضل دم ابنها، وأيضًا بفضل شفاعة دموعها. وهي، من علياء سماء مجدها لا تني تجمع، وتقوّم، وتصالح، وتوحّد، بصبرٍ، ومثابرةٍ، وبلا هوادةٍ، وبقدر ما نحن نوليها من حقوقٍ. وفي كلّ يومٍ تجدّد العذراء مساعيها لتقويم نفوسنا وإصلاح الخليقة.

وما أحرانا بأن نردّد دعاء البابا يوحنّا بولس الثاني:

«يا أمّ المخلّص القدّيسة،

يا باب السماء المشرع دائمًا، يا نجمة البحر،

هلمّي إلى نجدة الشعب الذي يكبو، ويجهد في النهوض:

فأنت قد ولدتِ خالقك، مدهشةً الطبيعة».

ومريم هي أُمّ الهداية التي تؤكّد لنا أنّ الخلاص يأتي من الله وحده. وهي تلقّننا الوسيلة المثلى لتسبيح الله، في حياتنا اليوميّة، إذ إنّها، بسموّ نواياها، لم تكفّ عن تمجيد الله، حتّى بأبسط أعمالها اليوميّة، أكثر ممّا فعل أعظم القدّيسين والشهداء، بمآتيهم المجلجلة. فما علينا إلاّ أن نوحّد نوايانا مع نواياها، كي تكتسب أصغر أعمالنا قيمةً جُلّى.

وبواسطة مريم نوثّق علاقتنا بالثالوث الأقدس. فالقدّيس لوي ماري غرينيون دي مونفور يقول: «الله الآب لم يُعطِ، ولا يعطي ابنه إلاّ بها، ولا يلد لنفسه أبناءً إلاّ بها، ولا يسبغ نعمه إلاّ بها. والله الابن لم يتكوّن من أجل العالم كلّه إلاّ بها. ولا يتكوّن، كلّ يومٍ، ويولد، إلاّ بها، بالاتّحاد مع الروح القدس. ولا يبلّغ استحقاقاته وفضائله إلاّ بها. والروح القدس لم يصُغْ يسوع المسيح إلاّ بها، ولا يكوّن أعضاء

جسده السرّيّ إلاّ بها، ولا يغدق مواهبه وكراماته إلاّ بها. بعد كلّ أمثلة الثالوث الأقدس الدامغة هذه، هل يسعنا، ما لم نكن في منتهى العمى، أن نستغني عن مريم، وألاّ نكرّس لها ذواتنا، وألاّ نعتمد عليها في مثولنا نحو الله، كي نقدّم له ذواتنا؟»

والعذراء خير معلّمةٍ لنا في الإيمان. وفي هذا السياق يقول البابا يوحنّا بولس الثاني: «تريد العذراء أن نتمكن من المشاركة في غبطتها ذاتها، بإيماننا مثلما آمنت، وبإصغائنا إلى كلمة الله ومشيئته، والعمل بها كما أصغت وعملت».

ومن جهته يقول القدّيس أوغطسينُس: «مريم آمنت، وما آمنت به تحقّق. فلنؤمن، نحن أيضًا، كي نستفيد ممّا آمنت به». إيمانها جعلها تلد يسوع، وإيماننا يوحّدنا به.

ومن ثمار اقتدائنا بمريم توثيق، علاقتنا بالروح القدس، الذي لا تقوم ولا تستقيم حياةٌ روحيّةٌ بمعزلٍ عنه. وقد اتّسمت حياة مريم بامتثالٍ مطلقٍ لإيحاءات الروح القدس، وباسترشادٍ دائمٍ بأنواره.

الروح القدس هو الذي أوحى لإليصابات أنّ جوهر نفس العذراء هو الإيمان، بمعناه الواسع، أي الاستسلام المطمئنّ لله، من أجل تحقيق مخطّط الخلاص، مهما تكاثرت أسباب الشكّ.

وقد قال البابا يوحنا بولس الثاني: «إنّ الله، في حَدَث تجسّد ابنه السامي، اعتمد على خدمةٍ حرّةٍ وفاعلةٍ أسدتها امرأةٌ». وبالمقابل اعتمدت مريم اعتمادًا كلّيًّا، على الله. تبادل ثقةٍ في الروح القدس، أُقنوم العطاء، وأُقنوم الحبّ.

اعتمدت مريم، كلّيّةً، على الله، مبرهنةً عن «طاعة الإيمان» لمن كلّمها بواسطة رسوله، وأدّت له تكريمًا كاملاً، تكريم عقلٍ وإرادةٍ. أجابت بكلّ نعَمَها البشريّ الأنثويّ. وهذا الجواب الإيمانيّ انطوى على تعاونٍ كاملٍ مع نعمة الله الساهرة والمؤازرة، وجاهزيّةٍ تامّةٍ لعمل الروح القدس، الذي لا يني، بمواهبه، يجعل الإيمان أكثر كمالاً.

يقول البابا يوحنّا بولس الثاني أيضًا: «وافقت العذراء على اختيار الله، لكي تصبح، بالروح القدس، أمّ ابن الله، ولكأنّ موافقتها على هذه الأمومة هي، خاصّةً، ثمرة تكريس ذاتها لله، في البتوليّة».

عطاء الذات: ذاك هو مفتاح سرّ الثالوث، وسرّ البشارة، والتجسّد، والصليب، والكنيسة.

بالبشارة وهب اللّه مريم ذاته، وحباها ملء النعمة، فكانت أولى نتائجه الجاهزيّة التامّة للحبّ، ولمخطّطات اللّه. وقد أعطت مريم اللّه ذاتها كاملةً.

الملاك قال لها: «الروح القدس يحلّ عليك»، ومنذئذٍ استسلمت مريم لهذا الروح الذي أُفيض عليها. كونها «ممتلئةً نعمة» يعني أنّها كانت «ممتلئةً بالروح» ونلاحظ، من مطالعة الإنجيل، أنّ ظهور الروح قد واكب كلّ مراحل حياة مريم. ففي البشارة، حملت الممتلئة نعمةً ابن اللّه، بالروح القدس؛ وبهذا الروح عينه أمست أمّ الكنيسة، في العنصرة.

إنّ عمل الروح القدس، وهو قدرة العليّ، بعد أن حقّق التجسّد في مريم، يواصل معها ولادة أشخاصٍ مقدّسين يمكن تسميتهم أبناء اللّه. وكلّما وجد الروح القدس مريم في نفسٍ ما، دأب على ولادة يسوع في هذه النفس، وعلى ولادة هذه النفس في يسوع.

في هذا السياق يقول القدّيس لوي ماري غرينيون دي مونفور:

«لست أظنّ أنّ بوسع إنسانٍ تحقيق اتّحادٍ حميمٍ مع الربّ، ووفاءً كاملاً للروح القدس، بمعزلٍ عن اتّحادٍ وثيقٍ بالعذراء القدّوسة، واعتمادٍ كبيرٍ على مؤازرتها».

يقول الرسول بولس في رسالته إلى الرومانيّين (٨: ١٤): «إنّ جميع الذين يقتادهم روح اللّه هم أبناء اللّه». وليس، كمريم، من أسلس القياد للروح القدس. وقد علّق القدّيس غرينيون دي مونفور على هذا القول: «من ينقادون لروح مريم هم أبناؤها، وبالتالي أبناء اللّه»، وأضاف أنّ على كلّ من رام الكمال أن يفعل كلّ شيءٍ بواسطة مريم، ومع مريم، ومن أجل مريم، كي يحسن فعله بواسطة يسوع، وفي يسوع، ومن أجل يسوع.

ونحن لن نعرف الآب، ولا الابن، خارج مناخ مريم، المخلوقة المتواضعة السامية التي يسود فيها عمل الروح.

ولا بدّ من التنويه بحضور الروح القدس في لحظتي الخلاص الحاسمتين: تجسّد الكلمة في أحشاء مريم، وولادة الكنيسة الملتئمة حول مريم في العنصرة.

يقول الكردينال دي بيرول: «إنّ العذراء للكنيسة ما الفجر للسماء، وهي تسبق الشمس مباشرةً. ولكنّها أكثر من فجرٍ... ولادتها كادت ألاّ تُحدِث أيّة ضجّةٍ، ولم يتحدّث عنها العالم... ولكن إن أَغفلتها الأرض، فالسماء كانت ترنو إليها... الله نفسه، الذي اعتزم أن يولد منها، أحبّها، وحدّق إليها بأعذب نظرةٍ... وقادها، وأحاطها بقدرته، وحداها بروحه... الله حاضرٌ وفاعلٌ فيها أكثر من ذاتها. لا فكر لديها إلاّ بنعمته، ولا مبادرة لها إلاّ بروحه، ولا عمل لها إلاّ بحبّه... إنّها، على الأرض، فردوسٌ سماويٌّ غرسه الله بيده، ويحرسه ملاكه من أجل آدم الثاني. إنّها خليقةٌ جديدةٌ لعالمٍ جديدٍ، لا بل إنّها الخليقة الأولى في هذا العالم الجديد. بما أنّها أُمّ الله فقد غدا بقدرتها منح العالم ابنها... وهذه القدرة لم تنزع منها، بل هي باقيةٌ معها إلى الأبد».

ويقول الكردينال دي بيرول، أيضًا: «إذ نحن نتكلّم عنك، يا مريم، نتكلّم عن يسوع. فأنت له، وأنت به، وأنت من أجله، وبما أنّ الأقانيم الإلهيّة لا كيان لها، في الثالوث، إلاّ بعلاقاتها المتبادلة، فأنت أيضًا، أيّتها العذراء القدّوسة، أيّها الكائن الإلهيّ والبشريّ معًا، إلهيٌّ بالنعمة وبشريٌّ بالطبيعة، لا جوهر لك، في كائن النعمة، إلاّ من خلال علاقتك بيسوع. فأنت لا تحيين إلاّ بنعمته، قبل أن يحيا هو فيك بطبيعته، ولا تتنفّسين إلاّ بروحه، وما نِعَمك ومواطن عظمتك إلاّ نِعَمه ومواطن عظمته».

والعذراء لنا مدرسة حبٍّ، فهي لم يكن لها أيّ صليبٍ تقدّمه ولا أيّ صليبٍ تُقلّه وتستلقي عليه سوى صليب يسوع. وكان لها «من الاستعدادات، ما هو في المسيح يسوع» (فيليبّي ٢: ٥). كانت تعاني موت وحيدها، وهي موقنةٌ أنّ هذا الموت هو السبيل إلى القيامة، وفداء العالم. فلنحبّ على غرارها، ولنبذل ذواتنا، فنسهم في خلاص العالم، أي في خلقٍ جديدٍ، ونصبح أبناءً وإخوةً لتلك التي دعاها القدّيس أنسيلم «أمّ كلّ ما أُعيد خلقه».

والعذراء لا تريد منّا أن نحيّيها وندعوها فحسب، بل هي تدعونا إلى الحبّ، «والحبّ هو ثمرة الروح» (غلاطية ٥: ٢٢)، وإلى انتهاج سُبل الحبّ، متمثّلين بيسوع الذي أحبّنا، فبذل ذاته من أجلنا. ولكي نتمثّل بمريم، علينا التحديق إلى الروح القدس، وهو كفيلٌ بتثقيفنا وتنويرنا.

ومن شأن اقتدائنا بسلوك مريم أن نمسي أكثر جاهزيّةً للخدمة، وأشدّ اندفاعًا في المحبّة. فهي أمٌّ مكرّسةٌ لخدمة المتألّمين البائسين، وهي مصغيةٌ إلى كلّ احتياجاتهم وطلباتهم. وعندما تصغي مريم يستجيب الله. وهي غالبًا ما تصوّب طلباتنا، بحيث تتوافق مع مشيئة الله.

لقد عاشت في جوار النعمة، وضمّتها بين ذراعيها، وقاست في جسدها كلّ آلام ابنها: الهزء، والبصاق، والجلد، والمسامير، والصلب. ومثلما كانت عند أقدام الصليب، هي دائمًا مع يسوع في أبديّته، ومع إخوته في آلامهم، حيثما وُجد فقرٌ وبؤسٌ، ومرضٌ، ووهنٌ، وموتٌ.

وهي تبتغي أن تستخدمنا كي نكون يدها وقلبها في تحرير إخوة يسوع من كلّ ما يرهقهم.

بالإجمال، لكي تستقيم حياتنا الروحيّة، وتؤتي ثمار خلاصٍ، يتعيّن علينا أن نحقّق جميع أعمالنا بمريم، ومع مريم، وفي مريم، ومن أجل مريم.

– **بمريم**: أي بروحها، وهو الروح القدس. من يسير بهدى روح مريم، هو ابنها، وإذن ابن الله. لقد استحوذ عليها روح الله، بحيث أصبح هو روحها، فليستحوذ علينا روحها. أي قبل إقدامنا على أيّ عملٍ، ينبغي أن نتخلّى عن روحنا الخاصّ، وعن أنوار عقلنا ومشيئتنا، التي قد تنهض عائقًا دون عمل الروح القدس فينا. ينبغي أن نكون أدواتٍ طيّعةً بين يديها، وأن نجدّد باطّرادٍ، أثناء العمل وبعده، تقدمتنا لها، واتّحادنا بها.

– **مع مريم**: باتّخاذها المثال الأسمى لكلّ فضيلةٍ وكمالٍ، وبتصرّفنا كما كان من شأنها أن تتصرَّف في مثل الظروف التي نواجهها، متمثّلين بإيمانها الحيّ، منذ البشارة حتّى الجلجلة، وبتواضعها السحيق، وبطهرها الإلهيّ. في القالب الوحيد الكفيل بإنتاج صُوَرٍ حيّةٍ لله.

– **في مريم**: فهي الفردوس الأرضيّ الذي غمره آدم الجديد، ابنها، بكلّ جمالٍ وغنًى. فيه ارتاح تسعة أشهرٍ، وفيه نبتت شجرة الحياة، وشجرة المعرفة والنور، وأشجارٌ غرسها الله بيده، وهي تؤتي، كلّ يومٍ، ثمارًا ذات نكهةٍ إلهيّةٍ.

مريم هي الباب الذي دخل منه الله إلى عالمنا، والهيكل الذي أقام فيه عرشه

ومحرابه، ومدينته، وعالمه. ولكن لا يسع الخطأة الولوج إلى هذا المقدس، إلاّ بنعمةٍ من الروح القدس الذي يحرسه. ومن قُيّض له أن يلجه، عليه أن يستقرّ فيه، ففيه تتغذّى النفس بلبن النعمة، وبحنان الأمّ، وتنعتق من اضطراباتها، ومخاوفها، وهواجسها، وتكون في مأمنٍ من جميع أعدائها: إبليس، والعالم، والخطيئة، والأهواء الوبيلة. تتكوّن في يسوع، ويتكوّن يسوع فيها. فمريم هي مستودع الأسرار الإلهيّة، حيث صيغ يسوع ويُصاغ جميع القدّيسين والأَبرار.

– **ومن أجل مريم**: فمن كرّس ذاته لها، يفعل كلّ شيءٍ إكرامًا لها، وذلك بالاتّكال على عونها. ويتوجّب عليه الذود عن امتيازاتها تجاه من ينكرونها، وعن مجدها عندما يهاجم، واجتذاب الجميع إلى خدمتها. وعلى من يقوم بذلك ألاّ يلتمس من مكافأةٍ سوى الانتماء إلى تلك الأميرة الكريمة، وسعادة الاتّحاد بابنها يسوع، برباطٍ لا ينفصم، في الزمن وفي الأبديّة.

وبقدر ما ندع مريم تعمل فينا، نمجّد يسوع. وبقدر ما نتواضع يتكثّف عمل يسوع ومريم في ذاتنا، ونحسن الإصغاء إلى صوتيهما، بلا حاجةٍ إلى إحساسٍ ماديٍّ، فالبارّ بالإيمان يحيا.

تكريم العذراء

لم تقف الأناجيل المقدّسة على ذكر العذراء سوى صفحاتٍ معدوداتٍ، والعذراء ذاتها قد نأت بنفسها عن الظهور، والتزمت، طيلة حياة ابنها، الصمت والامّحاء، كما أكّد الكردينال نيومن بقوله: «عندما شرع يسوع يبشّر، ظلّت أمّه على الحياد. ولم تتدخّل في عمله. وحتّى عقب صعوده إلى السماء لم نَرَها تبشّر وتعلّم، أو تجلس على الكرسيّ الرسوليّ، ولم تشارك الرعاة الكنسيّين مهامّهم... وحتّى بعد أن انتقلت إلى السماء، وأضحت ملكةً جالسةً إلى يمين ابنها، لم تطالب المؤمنين بنشر اسمها حتّى أقاصي الأرض، وبجعلها قبلة الأَنظار. بل إنّها انتظرت، بسكونٍ، الساعة التي سيمسي مجدها الخاصّ قادراً على خدمة مجد ابنها على خير وجهٍ».

وقد جهدت الأناجيل المنحولة في ردم الفراغ الذي تركته الأناجيل القانونيّة حول تفاصيل من شأنها إشباع فضول المؤمنين، ولئن هي وقعت، غالبًا، في مبالغاتٍ مختلقةٍ تسيء إلى أمّ الله أكثر ممّا تمجّدها، إلاّ أنّها احتوت تفاصيل عذبةً أحيانًا، ومعلوماتٍ كان المؤمنون توّاقين إلى معرفتها، مثل اسمي والدي العذراء.

وما إن حدّدت الكنيسة الأسفار الملهمة التي تعترف بها، حتّى أقبل المسيحيّون الأوائل على مطالعتها بشَغَفٍ، وورعٍ، وإجلالٍ، فطالعتهم، في إنجيليْ لوقا ومتّى، صورةٌ فاتنةٌ لأمّ الفادي، رأوا فيها ملكةً للمسيحيّين، وللجنس البشريّ، وللعالم أجمع، واستشفّوا فيها أُمًّا لله ولهم، فأخذ حبّها بمجامع قلوبهم. واندفعوا إلى تكريمها. وهل هناك أجدر بالتكريم من تلك التي اختارها المخلّص نفسه، أُمًّا يتحقّق فيها تجسّده، وأغدق عليها، لهذه الغاية، امتيازاتٍ خارقةً، فريدةً؟

وسرعان ما جهد آباءٌ كثيرون في اكتشاف توافق نبوءات العهد القديم مع واقع مريم، واستقرّ في وجدان المسيحيّين الأوّلين، وفي إيمانهم، أنّ مريم ولدت يسوع، ابن الله، وهي عذراء، وانبرى عديدون منهم لتأكيد بتوليّتها الدائمة، قبل ولادتها

يسوع، وفي ولادته، وبعدها، وتبيّن لهم أنّ إعلان أمومة العذراء لله هو الترياق ضدّ الهرطقات التي شرعت تروج، وهو ضمان الإيمان المسيحيّ القويم.

وهكذا، قبل نهاية القرن الرابع، كانت العقيدتان الأساسيّتان المتعلّقتان بمريم، أي أمومتها لله، وبتوليّتها الدائمة، قد أُقرّتا، وترسّختا، وقد وُجدت، على جدران الدياميس، صورٌ للعذراء حاملةً الفادي، تعود إلى القرن الثالث.

وفي القرن الرابع ازدهر تكريم العذراء، وفضلاً عن الآباء واللاهوتيّين، شرعت نفوسٌ بسيطةٌ تكتشف، لدى العذراء، امتيازاتٍ ما زلنا شغوفين بها: صورة الشفيعة العذبة التي يطيب للمرء أن يجد نفسه بين ذراعيها طفلاً، وطاقة الحبّ والحنان الجمّة التي تشيع الطمأنينة والعزاء، ومثالاً أسمى للحياة المسيحيّة.

وفي تلك الحقبة نظم القدّيس أفرام ألوف الأبيات التي تمجّد العذراء بعباراتٍ ما زالت تنتشي بها قلوبنا، وما زلنا نجد لها أصداءً لدى شعرائنا وقدّيسينا، الذين يشيدون بالأمّ العذراء. وقد جاء في أحد أناشيد القدّيس أفرام:

«أيّتها السيّدة الكلّيّة القداسة، الطاهرة، وحدها، نفسًا وجسدًا، يا مسكن النعمة الوحيد، ومسكن الروح القدس، ألقي أنظارك عليّ أنا الخاطئ الملطّخ في جسده وفي نفسه. أصلحي أفكاري التائهة في عتمة الليل، قوّمي مشاعري وقوديها. خلّصيني من طغيان عيوبي، كي أتحرّر من ظلمات الشرّ، وأُصبح مؤهّلاً لتمجيدك».

وقد تجلّت، في أروع مظاهرها، مشاعر الحبّ والتكريم لأمّ الله، في العاصفة الشعبيّة التي أثارها اعتراض بطريرك القسطنطينيّة، نسطوريُس، على تسمية العذراء «أمّ الله»، فاستدعى اعتراضه التئام مجمع أفسس، عام ٤٣١، بزعامة القدّيس كيرلّس الإسكندريّ، الذي قاوم البدعة بهوًى وعنفٍ. وعندما أُحيط الشعب علمًا بقرار المجمع إدانة نسطوريُس، وإزاحته عن منصبه، وبإعلان مريم العذراء «أمّ الله»، هبّ للتعبير عن فرحه الحماسيّ العارم، حاملاً آباء المجمع على الأكفّ والأكتاف، في تطوافٍ بالمشاعل، فيما كانت النساء يشعلنَ لهم البخور.

وقد أثار ذلك الحدث موجة تقوًى مريميّةٍ منقطعة النظير، حرارةً واتّساعًا، وأُدرجت أعياد العذراء، بوفرةٍ، في الروزنامة الكنسيّة، وما عتّم أن ترسّخ تكريم العذراء شرقًا وغربًا، وتعدّدت مظاهره.

وكان لاهوتيّون مرموقون قد أبرزوا، منذ القرن الثالث، وجه مريم، بصفتها رائدة البتوليّة المسيحيّة، ونموذجًا للعذارى المكرّسات. هكذا فعل أوريجينُس (+٢٥٣)، ثمّ، في القرنين الرابع والخامس، معلّمون كبار، أمثال أثناسيُس (+٣٧٣) وغريغوريُس النازينزيّ (+ ٣٩٠)، وغريغوريُس النيصيّ (+ ٣٩٢) وأمبروسيُس (+ ٣٩٧) وجيروم (+ ٤١٩) وأوغسطينُس (+ ٤٣٠). بفضل هؤلاء جميعهم، نشأ لاهوتٌ راسخٌ حول العلاقات بين العذارى المكرّسات ومريم التي باتت لهنّ نموذجًا، ولجميع الفضائل مرآةً.

ومنذ القرن السادس، نشأ في الشرق، وما لبث أن لحق به، في الغرب، تيّار «خدّام مريم»، وهو مستوحًى من كرامة مريم الفائقة، السيّدة والملكة، أمّ اللّه، الربّ وملك المجد. وتمثّل هذا التيّار في تكريس الذات لمريم، في سبيل خدمةٍ مثلى للربّ وللقريب، ومن أجل الظفر بحماية مريم من المخاطر. وما انفكّ هذا التيّار يتّسع، ويستنفر دعاةً لامعين، من باباواتٍ، وملوكٍ، وقدّيسين، وجدوا في خدمة ملكة السماء مبعث فرحٍ وفخرٍ لهم، وعوّلوا، بثقةٍ، على أَزرها، للانعتاق من عبوديّة الخطيئة، وللتقدّم في مضمار الفضيلة.

وإلى جانب «خدّام مريم» نشط تيّار تكريس الذات لأمّ اللّه. وكان ألمع دعاة هذا التكريس، في القرن الثامن، القدّيس يوحنّا الدمشقيّ. وقد بلغت الدعوة إلى هذا التكريس ذروته مع القدّيس «لوي ماري غرينيون دي مونفور» (+ ١٧١٦) الذي ما برح، حتّى يومنا، يمارس تأثيرًا بالغًا على الكثيرين، ومن أشهر المتأثّرين به، حديثًا، البابا يوحنّا بولس الثاني الراحل، الذي اقتبس منه شعار بابويّته: «كلّي لك» (Totus tuus).

هذا التكريس يعني هبة الذات بالكامل: فكرًا، ونفسًا، وجسدًا، والكيان كلّه، لأمّ اللّه، وذكرها المستمرّ. وقد أضفى «غرينيون دي مونفور»، على هذا التكريس، صبغةً مسيحانيّةً إذ جعله تكريسًا ليسوع عن طريق مريم.

بعدئذٍ شاعت أساليب عديدة لتكريس الذات لمريم، منها ما انتهجته الراهبة الكرمليّة «تيريز بينيدكت الصليب» (إيديث شتين) التي استشهدت عام ١٩٤٢. ونهجها يعني العيش «يدًا بيد» مع العذراء، والانقياد لها، وصولاً إلى يسوع.

وفي القرن الثامن عشر برز أحد أشدّ المندفعين في مجال تكريم مريم، والمشيدين

بمزاياها، هو القدّيس ألفونس دي ليغوري، وكان لكتابه الثمين، «أمجاد مريم»، تأثيرٌ عميقٌ، ما انفكّ، حتّى اليوم، فعّالاً، بدليل إعادة طبعه وترجمته إلى عشرات اللغات.

وكان الطوباويّ غيّوم جوزيف شاميناد (+ ١٨٥٠) قد أسّس «الجمعيّة المريميّة»، ودعا إلى حبّ مريم حبًّا جمًّا بنويًّا، وإلى إبرام معاهدةٍ معها، أي إلى الالتزام بحبّها مثل حبّ ابنها يسوع لها، بحيث يكون هذا الحبّ البنويّ امتدادًا لحبّ يسوع لأمّه. أي إنّ أبناء مريم الحقيقيّين هم الذين اختاروا مريم، سلطانتهم، أُمًّا، وهي اختارتهم ليكونوا عيلتها الخاصّة، ومن ثمّ فالمريميّون المنضوون تحت لواء هذه الجمعيّة ينذرون «نذر الثبات»، الذي يبقيهم «على نحوٍ دائمٍ لا رجوع عنه، في وضع خدّام مريم»، في سبيل نشاطٍ رسوليٍّ يستهدف إرساء ملكوت المسيح، ونشر معرفة مريم وحبّها».

وهناك تيّارٌ أطلقه جوزيف كنتينش (Joseph KENTENICH) (+١٩٦٨) ويقوم على «معاهدة حبٍّ يعقدها المسيحيّ مع مريم، يلتزم بموجبها، بمؤازرة مريم، وتمثّلاً بفضائلها، بانتهاج دربٍ يقود إلى النموّ في حياةٍ حميمةٍ مع يسوع، ومن خلال يسوع، بتأثيرٍ من الروح القدس، وبتواصلٍ مع الآب، ويلخّص هذا النهج شعاره: «بمريم نحو يسوع، وبيسوع مع مريم، في الروح القدس، نحو الآب». وقد عُرف هذا النهج بـ «مؤسّسة شونستات». (L’œuvre de Schönstatt)

أمّا القدّيس مكسيميليان كولبيه، الذي سقط شهيد الإيمان والمحبّة في معتقل أوشويتز النازيّ عام ١٩٤١، فقد أسّس «ميليشيا المنزّهة من الدنس»، وهي منظّمةٌ رسوليّةٌ، مبنيّةٌ على نزاهة مريم من الدنس التي تمثّل جوهر وجود أمّ المخلّص وعملها. كلّ عضوٍ في هذه المنظّمة يكرّس ذاته، بالكامل، للمنزّهة من الدنس، ويلتمس منها أن تقبله «شيئًا وملكًا لها»، وأن تتصرّف، كما تشاء، بكلّ طاقات نفسه وجسده، «بحياته، وموته، وأبديّته». وقد لخّص الأب كولبيه هدف منظّمته بما يلي: «المنزّهة من الدنس: هذا هو مثالنا. تقرّبنا منها، وتمثّلنا بها، وتمكينها من امتلاك قلبنا، وكلّ كياننا، ومن الحياة والعمل فينا، وبنا، ومن أن تحبّ، هي ذاتها، الله بقلبنا، وأن نكون خاصّتها، بلا أي تحفّظٍ: هذا هو مثالنا الأسمى».

ولا بدّ من الإشارة إلى «مؤسّسة مريم» (L’œuvre de Marie) وهي جمعيّةٌ كبرى معروفةٌ باسم «حركة فوكولاري»، التي وُلدت نواتها في مدينة «ترنتا» الإيطاليّة،

بمبادرة امرأةٍ علمانيّةٍ هي «كيارا لوبيك»، التي اتّخذت عيلة الناصرة المقدّسة مثالاً ونموذجًا، بصفتها عيلةً علمانيّةً موقوفةً على خدمة الله والبشر. إنّها علمانيّةٌ، إذ لم يكن لأحدٍ من أعضائها: يوسف، ومريم، ويسوع، صفةٌ كهنوتيّةٌ، في مفهوم التقاليد اليهوديّة. وقد أكّدت هذه المؤسّسة على صفتها العلمانيّة، كي تجتذب العالم المعاصر، وتفتنه، إذ إنّ كلمة الله كان ابن نجّارٍ، وأُمّه، كرسيّ الحكمة، كانت ربّة أسرةٍ. ومن أهداف الحركة قراءة عمل الكنيسة والعالم بعينيْ مريم، ممّا يولّد هوى وحدة المسيحيّين، ومشاركة البشريّة آلامها. ومن شعارات الحركة، أيضًا، «عيش مريم» أي إخراس الخليقة فينا، من أجل الإصغاء إلى صوت الروح على غرار مريم، وإشعاع فضائل مريم، ومواصلة رسالتها المتمثّلة في منح العالم يسوع.

من كلّ هذه الحركات يتّضح أنّ وعي المسيحيّين لدور مريم في مسيرة كلّ مؤمنٍ صوب ملء دعوته، وهو وعيٌ قديمٌ كونيٌّ، مبنيٌّ على تجربة رجالٍ ونساءٍ متميّزين بقداسة سيرتهم.

وقد كتب البابا يوحنّا بولس الثاني، عن تعليم القدّيس لوي ماري غرينيون دي مونفور:

«منذ نشأتها، ولاسيّما في اللحظات العصيبة، تأمّلت الكنيسة أحد أحداث آلام يسوع، كما رواها القدّيس يوحنّا. (١٩: ٢٥–٢٧)

«وقد خَبَر شعب الله، خلال تاريخه، عطيّة يسوع المصلوب: عطيّة أُمّه. إنّ العذراء القدّوسة هي، حقًّا، أُمّنا، تلك التي تواكب حجّ إيماننا، ورجائنا، ومحبّتنا نحو اتّحادٍ أكثف مع المسيح المخلّص، ووسيط الخلاص الوحيد .

«كتب القدّيس لوي ماري غرينيون دي مونفور: «إنّني لك بكلّيّتي، وكلّ ما هو لي يخصّك، يا يسوع الحبيب، بواسطة مريم، أُمّك القدّيسة». وقد أحدث تعليم هذا القدّيس تأثيرًا عميقًا على التقوى المريميّة لدى العديد من المؤمنين، وفي حياتي الشخصيّة. إنّه تعليم يتّسم بعمقٍ نسكيٍّ، وصوفيٍّ، سحيقٍ، يعبّر عنه بأسلوبٍ حارٍّ.

«القدّيس لوي ماري يدعو دعوةً تتميّز بجدوى فريدةٍ، إلى تأمّل سرّ التجسّد بحبٍّ. إنّ تكريم العذراء مرتكزٌ على المسيح. وحبّ الله، من خلال الاتّحاد بيسوع، هو غاية التقوى الحقيقيّة. وقد كتب القدّيس لوي ماري أنّ المسيح هو المعلّم الوحيد

الذي يجدر بنا التتلمذ على يديه، والسيّد الوحيد الذي يجدر بنا الاعتماد عليه، والزعيم الوحيد الذي يجدر بنا الاتّحاد به، والنموذج الوحيد الذي يجدر بنا التمثّل به، والطبيب الوحيد، الكفيل بشفائنا، والحقيقة الوحيدة، التي يتعيّن علينا الإيمان بها، الوحيد في كلّ شيءٍ، الذي يجب أن يكفينا.

«وتكريم العذراء هو الوسيلة المثلى التي تمكّننا من العثور على يسوع في الأعماق، ومن محبّته بحرارةٍ، ومن خدمته بأمانةٍ». وهذا يقود إلى شراكة الحبّ القائمة بين يسوع ومريم: «كلّما فكّرتَ بمريم، فكّرتْ مريم، نيابةً عنكَ، بالله. وكلّما مجّدت مريم وكرّمتها، مجّدت مريم الله باسمك، وكرّمته. مريم منتسبةٌ انتسابًا كلّيًّا إلى الله، وما هي إلاّ نسبةٌ إلى الله، بل هي صدى الله، لا تقول ولا تردّد سوى الله... إنّ الله ممجّدٌ، ومحبوبٌ، ومكرّمٌ، بمريم، وفي مريم.

«في صلاته إلى أمّ الربّ، يعبّر القدّيس لوي ماري عن البعد الثالوثيّ في علاقتها بالله: «السلام عليك يا مريم، يا ابنة الآب الأزليّ المحبوبة،... السلام عليك، يا مريم، يا أمّ الابن الرائعة... السلام عليك يا مريم، يا عروس الروح القدس، الكلّيّة الوفاء...»

«ويقول «دي مونفور»: «بما أنّ كلّ كمالنا يكمن في توافقنا مع يسوع، وفي اتّحادنا به، وفي تكريسنا له، فإنّ أكمل عبادةٍ هي، بلا ريبٍ، تلك التي تجعلنا على أتمّ توافقٍ مع يسوع المسيح. وبما أنّ مريم هي أكثر الخلائق، كافّةً، توافقًا مع يسوع المسيح، فمن كلّ أساليب التقوى، تلك التي تكرّس نفسنا للربّ يسوع، وتوافقها معه، هي تلك التي تكرّم العذراء القدّوسة، أمّه القدّيسة. وبقدر ما تُكرَّس نفسٌ لمريم، تكون مكرّسةً ليسوع المسيح».

ويشيد «دي مونفور» بروعة الوحدة بين الابن والأمّ، فيقول: «لقد تحوّلتْ إليك بالنعمة، بحيث لم يعد لها حياةٌ ووجودٌ خاصّان، بل أنت، وحدك، يا يسوع، تحيا وتملك فيها. آه! ليت العالم يدرك أيّ مجدٍ، وأيّ حبٍّ، تتلقّاه في هذه المخلوقة الرائعة... كم هي متّحدةٌ بك اتّحادًا حميمًا... وبأيّة حرارةٍ تحبّك... وتمجّدك بكمالٍ يفوق كمال تمجيد سائر مخلوقاتك كلّها، مجتمعة!»

«وهو يحيّي في مريم، عضو الكنيسة الأسمى رفعةً، والأكثر فرادةً على الإطلاق، ونموذجها الأمثل والأروع، في الإيمان والمحبّة».

«الرأس والأعضاء يولدون من أُمٍّ واحدةٍ، فعلى ابن الكنيسة الحقّ أن يكون الله أباه، ومريم أُمّه».

«بولادة يسوع من عذراء، كلّ البشريّة وُلدت من جديد.

«يقول القدّيس أمبروسيُس: لتكن نفس مريم في كلٍّ منّا، لكي نمجّد الربّ، وليكن روح مريم في كلٍّ منّا، كي نعظّم الله».

«ويقول دي مونفور: «ما أسعد النفس عندما يمتلكها ويقودها روح مريم، فهو روحٌ عذبٌ، وقويٌّ، غيورٌ وحكيمٌ، متواضعٌ وجريءٌ، طاهرٌ وخصبٌ!»

«ويصلّي: «وأخيرًا، أيّتها الأمّ المحبوبة جدًّا، اجعلي، إن أمكن، ألاّ يكون لي روحٌ سوى روحكِ، لكي أعرف يسوع ومشيئاته الإلهيّة؛ وألاّ يكون لي نفسٌ سوى نفسك كي أسبّح الربّ وأُمجّده؛ وألاّ يكون لي قلبٌ سوى قلبكِ كي أُحبّ الله حبًّا صافيًا ومضطرمًا نظير حبّك».

«العذراء هي المثال الأسمى للإيمان. و«دي مونفور» يقول: «بقدر ما أَنت تكتسب عطف تلك الأميرة الرفيعة، والعذراء الأمينة، ستمتلك إيمانًا صافيًا في كلّ سلوكك: إيمانًا صافيًا يحرّرك من الاهتمام بالملموس والمدهش، إيمانًا حارًّا تحدوه المحبّة، ويجعلك لا تقوم بأيّ عملٍ إلاّ بدافع الحبّ الصرف، إيمانًا صلبًا كالصخر لا يتزعزع، يبقيك صامدًا وثابتًا وسط العواصف والمِحَن؛ إيمانًا فاعلاً وثاقبًا، مثل مفتاحٍ سريٍّ يخوّلك الدخول إلى كلّ أسرار يسوع المسيح، وإلى غايات الإنسان القصوى، وإلى قلب الله نفسه؛ إيمانًا جريئًا يمكّنك من التصدّي لمشاريع كبرى في سبيل الله، وخلاص النفوس، ويؤهّلك لإنجازها».

«ويقول، في صلاةٍ موجّهةٍ إلى أمّ الله: «لستُ ألتمس منكِ رؤًى، وإيحاءاتٍ، ومُتَعًا روحيّةً... ولستُ أبتغي، في هذه الدنيا، سوى ما عهدتِ، أنت نفسكِ: الإيمان الصرف، بمعزلٍ عن أيّ تذوّقٍ، أو أيّة مشاهدةٍ».

ويضيف البابا يوحنّا بولس الثاني: «إنّ تكريم العذراء القدّيسة الحقّ يتجلّى بوضوحٍ لمن يتوغّل في سرّ المسيح».

أمّا القدّيس لوي ماري غرينيون دي مونفور، فيقول: «بترسيخنا تكريم العذراء القدّيسة، إنّما نرسّخ، على نحوٍ أكمل، تكريم يسوع المسيح، ونوفّر وسيلةً يسيرةً

ومؤكّدةً للعثور عليه. وإن كان من شأن تكريم السيّدة العذراء إبعادنا عن يسوع المسيح، فلا بدّ من نبذه، وكأنّه وهمٌ من الشيطان. ولكن ما أبعده عن ذلك! فهو لا يقصي الذين يتعلّقون بالعذراء عن الله، بل إنّ العذراء نفسها تقذف النفس التي تلجأ إليها، إلى أحضان الله، بكمالٍ يتعاظم بقدر ما يتوثّق اتّحاد تلك النفس بها. وإذن، ما تكريمنا للعذراء إلاّ بغية العثور على يسوع المسيح عثورًا كاملاً، وحبّه حبًّا رقيقًا، وخدمته خدمةً وفيّةً».

ممّا سلف يتّضح أنّ تكريم العذراء، وعقد علاقةٍ وثيقةٍ معها هما الدرب الأقصر والأوفر ضمانًا للمضيّ إلى الله، فهي توفّر لأبنائها نِعَمًا فائقة الجدوى، نِعَم ارتدادٍ، ودعوةٍ، وثباتٍ، وتطبع فيهم صورتها.

وبما أنّها ابنة الآب، وأمّ الابن، وعروس الروح القدس، فهي تدخلهم إلى محراب الثالوث.

وهي تحوّل إلى ابنها كلّ ما تحاط به من تكريم. فعندما غبطتها إليصابات لأنّها آمنت بما قيل لها من قِبَل الربّ، أجابت: بل «تعظِّم نفسي الربّ». ومن ثمّ، إنّ كلّ من يمتدحها، ويحبّها، ويكرّمها، أو يهبها ذاته، فإنّما هو، من خلالها، يسبّح الله، ويحبّه، ويكرّمه، ويهبه ذاته.

ولا بدّ من التنويه بأنّ العذراء هي جديرةٌ بالتكريم لأنّها ملكةٌ، ملكة المسيحيّين، وملكة الجنس البشريّ، وملكة العالم، ولأنّها أمّ الله، وأمّنا.

وقد وضع أحدهم على لسان يسوع القول التالي: «فقط ذاك الذي ستكون له مريم أُمًّا، سأعدّه ابن آلامي، وعبثًا سيدعونني أبًا، من لا يكرّم مريم لكونها أُمّي... فتلك التي هي أمّ الله هي، أيضًا، أمّ المسيحيّين... ومن لا يحبّ مريم، لا يحبّ ذاته...».

وكان القدّيس يوحنّا الدمشقيّ قد قال مخاطبًا العذراء: «تكريمك، أيّتها العذراء القدّيسة، هو سلاح خلاصٍ يهبه الله لمن يبتغي خلاصهم».

وأكّد الشاعر شارل پيغي جدوى الاستشفاع بالعذراء، فكتب:

«ثمّة أيّامٌ لا يعود فيها الشفعاء والقدّيسون كافين...

وحينئذٍ ينبغي التسلّح بكلّ الجرأة،

والتوجّه، مباشرةً، إلى من هي فوق كلّ شيءٍ...

ينبغي التجاسر، ولو مرّةً واحدةً، والتوجّه، بجسارةٍ، إلى الجميلة بلا حدودٍ...

إلى النبيلة بلا حدودٍ... إلى المرحّبة بلا حدودٍ ... إلى الغنيّة بلا حدودٍ...

إلى الرفيعة بلا حدودٍ... إلى المتنازلة بلا حدودٍ... إلى العظيمة بلا حدودٍ،

إلى الأمّ بلا حدودٍ... إلى المتألّمة بلا حدودٍ...

ينبغي الصعود إلى من هي الأكثر مهابةً، لأنّها، أيضًا الأكثر أُمومةً...

لأنّها، أيضًا، أمّ البشر وملكتهم،

ملكة السماوات، وسيّدة الأرض...

إلى من هي مريم، لأنّها ممتلئةٌ نعمةً،

إلى الممتلئة نعمةً، لأنّها معنا،

إلى من هي معنا، لأنّ الربّ معها...»

والتكريم الأمثل لأمّنا السماويّة، يجب أن يكون:

– داخليًّا: نابعًا من العقل والقلب، أي من تقدير عظمة العذراء وحبّها.

– وطيدًا: قائمًا على ثقةٍ بالعذراء، ثقة طفلٍ بأمّه. وعلى اللجوء إليها تلقائيًّا، وببساطةٍ. فهي كفيلةٌ بتبديد شكوكنا، وبإعتاقنا من التيه، وبعوننا في التجارب، وبمساندتنا في ساعات الوهن، وبإنهاضنا من كبواتنا، وبإنقاذنا من نوبات القنوط، وبتحريرنا من الوساوس، وبتعزيتنا في المِحَن، وبمؤازرتنا في كلّ الحالات العصيبة.

– مقدّسًا: أي تحدوه الرغبة في التمثّل بفضائل العذراء: تواضعها السحيق، وإيمانها الراسخ، وطاعتها المطلقة، وصلاتها المتواصلة، وتضحيتها السخيّة الشاملة، وطهرها الفريد. ومحبّتها الملائكيّة، وحكمتها الإلهيّة.

– ثابتًا، مثابرًا، لا يتراجع ولا يتوانى، في مواجهة سلوك العالم وحِكَمه، والجسد وشهواته وأهوائه، وإبليس وتجاربه.

– متجرّدًا: لا يلتمس الذات، ولا يَنشد سوى الله، من خلال مريم.

وقد تعاظم تكريم العذراء، في منتصف القرن العشرين، حيث أُعلنت عقيدة انتقال العذراء بالجسد إلى السماء، عام ١٩٥٠، واحتُفل بالذكرى المئويّة لظهورات لورد عام ١٩٥٨. وشهدت لورد تدافع ما يربو عن مليونين ونصف المليون من الحجّاج سنويًّا، كما شهدت فاتيما إقبال حشودٍ لا تحصى من الحجّاج، عدا عن ألوف الذين حجّوا إلى أماكن متعدّدةٍ من العالم، باركتها العذراء بظهورها فيها. كما سُجّل تأسيس مئات الأخويّات المريميّة، والمراكز الاجتماعيّة التي اتّخذت العذراء لها شفيعةً.

وما تكريم العذراء الذي يتعاظم، جيلاً إثر جيلٍ، شرقًا وغربًا، سوى التحقيق الحيّ لنبوءة العذراء نفسها: «أجل، بعد اليوم، تطوّبني جميع الأجيال». وإنّما هي، بهذه النبوءة، أعلنت قناعتها بأنّ الإيمان بسرّ التجسّد سيولّد لدى المؤمنين أعمق عرفانٍ بجميل الله، الذي أظهر، بذلك، مدى حبّه للبشر. فبتطويبها لمريم، ستلتفت أجيال المستقبل صوب الله الخالق، والفادي الذي قدّم الدليل الدامغ على حبّه الأقصى.

بنبوءتها هذه، لا تعزو العذراء لنفسها أيّ استحقاقٍ أو مجدٍ، فمثل هذا ينافي روح الفقر والتواضع الراسخ فيها. ولكن، بسبب هذا الفقر عينه، الذي لا يسعه حجب مجد الربّ، ولأنّ مريم ليست أداةً للتجسّد عديمة الإرادة، بل هي أمّ الله التي اختيرت كإنسانٍ واعٍ، وقالت نعم لهذه الأمومة، بات بوسعها التنبّؤ، بكلّ تواضعٍ، أنّ جميع الأجيال ستطوّبها.

وعن تعاظم تكريم المسيحيّين لمريم، قال البابا يوحنّا بولس الثاني:

«هذه التقوى الشعبيّة، ليست مجرّد شعورٍ مبهمٍ، مفتقرٍ إلى الأساس العقائديّ المنيع، ولكأنّها صيغةٌ دنيا للتظاهر الدينيّ؛ بل لطالما تجلّت بصفتها التعبير الحقّ عن نفس الشعب التي مسّتها النعمة، وصاغها التلاقي بين بشارة الإنجيل، والثقافة المحلّيّة... ومن ثمّ، فإنّ التقوى الشعبيّة التي يرشدها، ويساندها، ويطهّرها، عند اللزوم، عمل الرعاة الدائم، والممارسة اليوميّة، في حياة الشعوب، تغدو تقوى الفقراء والبسطاء...».

إنّ تكريم العذراء هو السبيل الأقصر، والأكثر ضمانًا، للوصول إلى يسوع. وإنّ المسيحيّ، بتأمّله حياتها، في شتّى مراحلها، يتعلّم معنى الحياة من أجل يسوع، ومع

يسوع، في السلوك اليوميّ، وفي قربٍ حميميٍّ كاملٍ، معه، ويتعلّم كيف يكون، دائمًا، جاهزًا عندما يقتضي منه يسوع، بغتةً، أمرًا ما.

ولا غرو أنّ تكريم العذراء يتصاعد نشيد تجلّةٍ وشكرانٍ، إلى منبع عظمة مريم، أي إلى الكلّيّ القدرة الذي صنع فيها «عظائم»، ويمتدّ تأثيره إلى شتّى نواحي الحياة والوجود.

فحبّ أمّ الأحياء يولّد حبّ القريب، أي حبّ كلّ إنسانٍ.

والتماس وساطتها الرحيمة لا يتوقّف عند الاحتياجات الفرديّة الخاصّة، بل يشمل احتياجات الكنيسة والعالم.

وتكريم الكلّيّة القداسة، يواكبه التزامٌ بحياةٍ لا تتواطأ مع الخطيئة، خاضعةٍ لمبادئ الإنجيل، وتحاول تنفيذ نصيحة الربّ: «كونوا كاملين مثلما أبوكم السماويّ هو كاملٌ».

وإنّ تأمّل إيقونة أُمّ الرحمة والمعونة يوحي بالتضامن مع الفقراء والمعوزين، ومع المسنّين والمرضى، ومع كلّ مفتقرٍ إلى خبزٍ، ومسكنٍ، وعملٍ.

كما أنّ الاقتداء الدؤوب بالعذراء المغبوطة، يفضي إلى اتّخاذها نموذجًا للفضائل يضيء كلّ جماعة المختارين، ويرشد إلى سلوك حياةٍ، على غرار حياتها، تقرن البساطة بالسموّ؛ ويذكّر بمسيرة «أمَة الربّ المتواضعة»، وبتحذير الربّ لتلاميذه: «من أراد أن يكون فيكم كبيرًا، فليكن لكم خادمًا».

وإنّ كلّ تكريمٍ حقٍّ للكلّيّة البهاء ينبع من قلبٍ متواضعٍ وطاهرٍ، بسيطٍ وصادقٍ، فتحفة الروح القدس تستأهل تكريم قلوبٍ مشبعةٍ حبًّا، وإيمانًا، وقداسةً.

مريم هي هبة اللّه، وهبة يسوع للبشريّة. وعلى كلّ مؤمنٍ أن يتقبّل هذه الهبة، وأن يأخذها إلى خاصّته، إلى صميم حياته، كما فعل التلميذ الحبيب. وبالترحيب بعطيّة الربّ هذه، تنعقد بين المؤمن وأمّ اللّه، علاقة أُمومةٍ وبنوَّةٍ، تنبع من صميم السرّ الفصحيّ، وتطبع المسيحيّ بدمغةٍ جوهريّةٍ هي حياة النعمة.

وبما أنّ مريم هي أمّ جميع المؤمنين، فهي عامل وحدتهم، وتكريمها يحقّق تناغمًا بين كرامتها، وسموّها الفائق، من جانبٍ، وقربها من كلٍّ من أبنائها، من جانبٍ آخر.

وكلّ مكرّمٍ للعذراء يتقبّل بشكرٍ، وبقناعةٍ حرّةٍ، ظهوراتها التي تؤيّدها الكنيسة، ويرى فيها دليلاً على رحمتها الأموميّة، ويتملّى من تأمّلٍ «رسائلها»، التي توجّهها، غالبًا، عبر أشخاصٍ متواضعين. هذه الرسائل هي، عمومًا، دعوةٌ إلى الحياة وفقًا لتعاليم الإنجيل، وتذكيرٌ بما قالته مريم، في قانا: «مهما يقلْ لكم ابني، فافعلوه». رسائلها ليست بديلاً عن الإنجيل، ولا هي دعوةٌ إلى انتهاج دروبٍ سهلةٍ، بل دعوةٌ إلى التحوّل، وإلى اتّباع يسوع على درب الصليب.

ولا بدّ من التأكّد بأنّ التكريم الصحيح للعذراء ينفي، في آنٍ واحدٍ، كلّ استصغارٍ لمكانتها، وكلّ مغالاةٍ تتعارض والعقائد المعلنة التي أقرّتها الكنيسة، مثلما ينفي كلّ ضروب الخرافة، وكلّ الممارسات الزائفة التي تستبدل الالتزام الجدّيّ، بطقوسٍ سطحيّةٍ، وبعاطفيّةٍ عابرةٍ عقيمةٍ، بعيدةٍ عن روح الإنجيل، بل هو يقتضي عملاً دؤوبًا، واقعيًّا.

وعلى كلّ تكريم للعذراء أن يكون شفّافًا، مجّانيًّا، بمنأًى عن كلّ متاجرةٍ، أو غايةٍ نفعيّةٍ.

وعندما يبلغ تكريم العذراء ذروته يصبح، مثل «تعظيمها» اندفاع عبادةٍ، وتسبيحًا خالصًا للآب، مبدأ كلّ شيءٍ، والذي لا بدءَ له، مبدع الكون والبشر، الغنيّ الرحمة، وللابن، وربّ المجد، الوسيط الوحيد، والمخلّص الكونيّ؛ وللروح القدس، الطاقة التي تولّد الحياة، النسيم الرقيق، والريح السرّيّة.

تكريم العذراء الصحيح هو بخور عبادةٍ للّه، ويدٌ ممدودةٌ لغوث كلّ ملهوفٍ ومحتاجٍ.

ما هي أساليب تكريم مريم ؟

لا ريب أنّ إحدى أجدى هذه الوسائل هي **تكريس الذات والبلاد لقلب مريم**. وقد درجت الأجيال المسيحيّة المتعاقبة على هذا التكريس، وكان المؤمنون، منذ فجر المسيحيّة، قد أِلفوا وضع نفوسهم ومصائرهم بتصرّف العذراء، وتحت حمايتها.

فالشاعر «بترارك» (+ ١٣٧٤) كتب: «أيّتها العذراء، إنّني أكرّس لاسمك أفكاري، وعبقريّتي، وشعري، وقلبي، ودموعي، وتنهّداتي».

والشاعر «منتزوني» أنشد للعذراء: «كلّ شعبٍ يفخر بأن يكون تحت وصايتك الرقيقة».

أمّا الذي أطلق أحرّ دعوةٍ للتكريس لقلب مريم، فهو غرينيون دي مونفور، الذي كان يرى أنّ هذا التكريس إنّما هو اللجوء المستمرّ إلى العذراء، والحياة في اعتمادٍ دائمٍ عليها، بغية الوصول إلى وحدةٍ حميمةٍ مع يسوع، ومن خلاله مع الثالوث الأقدس. وفي هذا السياق قال: «لستُ أظنّ أنّ بوسع أحدٍ أن يحقّق اتّحادًا حميمًا مع الربّ، ووفاءً كاملاً للروح القدس، بمعزلٍ عن اتّحادٍ وثيقٍ بالعذراء القدّوسة، واعتمادٍ كبيرٍ عليها».

ومن شأن هذا التكريس أن يلد المسيحيّين على القداسة، وعلى الحياة الأبديّة، وأن يدخلهم إلى شراكة القدّيسين، ويجعل حمل الصليب أخفّ وطأةً، وأوفر ثوابًا. فضلاً عن أنّ هذا التكريس يولي حرّيّةً داخليّةً كبرى، وتحرّرًا من الهواجس، وثقةً تامّةً في حبٍّ رقيقٍ، وطاقةً على الصمود والوفاء.

وكان القدّيس فرنسيس الأسّيزي قد تبيّن في رؤيا خطرت له، أنّ أبناءه يجهدون، عبثًا، في بلوغ الربّ، بواسطة سُلّمٍ وعرٍ يصعّد مباشرةً إليه، فأراه الربّ سلّمًا آخر أسهل تسلُّقًا، كانت مريم العذراء تقف عند قمّته. وقال له: «انصح أبناءك باستخدام سلّم أُمّي للصعود إليّ».

فبواسطة مريم المتواضعة، انحدر يسوع إلينا، ونحن، بواسطة مريم، نصعد صعودًا أمينًا نحو الربّ، إذ إنّ العذراء تحمي المصعّدين إلى ابنها من أوهام إبليس، ومن الأحلام المضلّلة، وتُسكّن صخب المشاعر، وتوجّهها نحو هدفٍ أكثر طهرًا وقداسةً، وتخضعها لإرادة المحبّة، تمهيدًا لاتّحادها بالله.

العذراء تشرك من يكرّسون لها ذواتهم في تواضعها وإيمانها، إيمانٍ صادقٍ لا يعتمد على المحسوس والمدهش، إيمانٍ حيٍّ تحدوه المحبّة التي تصبح دافع الأعمال كلّها، إيمانٍ صامدٍ لا يتزعزع وسط الأعاصير والمِحَن، إيمانٍ فاعلٍ وثاقب البصيرة، يكشف أسرار الله والحياة، إيمانٍ جريءٍ لا يتخاذل أمام أيّة مهمّةٍ كبرى لمجد الله وخلاص الآخرين، إيمانٍ هو مشعلٌ ملتهبٌ، وكنز الحكمة الإلهيّة.

إنّ من يهب العذراء كلّ ما يملك يتحرّر من العُجْب بذاته، ويولي الأمّ السماويّة

ثقته كلّها، وينعم بمعرفة بطلان الأشياء الأرضيّة، وهشاشته الذاتيّة، وقيمة العون السماويّ، وينال منها نعمة الحبّ الطاهر، وتحوّل النفس، وصفاء النيّة على غرار نواياها التي حوّلت أدنى أعمالها اليوميّة مصدرِ قداسةٍ، وتوثّق علاقةً حميمةً مع حياتها، واتّحادًا بها صوفيًّا، ودائمًا، وتواضعًا حقًّا. وبقدر ما يكون المرء صغيرًا يتيح لمريم أن تكون له أُمًّا. فالولد هو لأمّه بقدر صغره ووهنه.

إنّ تكريس الذات لمريم هو عقد معاهدةٍ مع يسوع، باتّخاذ أُمّه دليلاً من أجل الإسراع في بلوغ فهمٍ واضحٍ لمشيئة الله حول حياتنا، وهو وعدٌ مقدّسٌ بألاّ نحبّ قلب يسوع إلاّ من خلال قلب العذراء، فهو الدرب الأكثر أمانًا ومباشرةً صوب الكمال.

من يكرّس ذاته لقلب مريم الطاهر يتواصل مع هذا القلب المفعم حنانًا، وعطفًا، ورحمةً، لكي يحبّ يسوع، فعليًّا، في إخوته، ويمجّد الثالوث.

من المحقّق أنّ هذا التكريس لا يقي من مصاعب الحياة، ولا من الصراعات الداخليّة، ومن مراودات المجرّب. غير أنّ من ناضل، ومريم حليفته، استطاع الخروج من التجارب والمحن، أشدّ منعةً ومراسًا.

ولا يجعلنا هذا التكريس أجمل صورةً في عيوننا، بل على نقيض ذلك، يجعلنا ندرك، على نحوٍ أفضل، بشاعة خطايانا، ونقائصنا، بمنأى عن اليأس من حماية مريم الأموميّة. وحينئذٍ نقبل ذواتنا ضعفاء ومحبوبين، ونغدو أكثر أهليّةً لحبّ إخوتنا حبًّا أفضل.

ومن يلتزم بمضمون هذا التكريس تهبه العذراء، كلّ يومٍ، حبًّا أقوى للآب، وللابن، وللروح القدس، وحبًّا أصدق وأوفر عطفًا ورحمةً لإخوتنا، وتجعلنا نبغض الخطايا، حتّى الصغيرات منها، وندرك كم هي تسبّب من إهانةٍ لله، وكم كلّفت يسوع من آلام.

العذراء هي الدليل الأمثل الذي يقودنا إلى الكمال، ويقينا من الضلال، وينير دروبنا في ليالي الشكّ، بما توفّره من عزاءٍ وأزرٍ، وسندٍ. إنّها تسير تارةً أمامنا، وتارةً إلى جانبنا، تشجّعنا، وتقينا من الفخاخ المنصوبة على طريقنا. وإذا ما انتابنا الشكّ، فحسبنا صرخةٌ خافتةٌ كي تهرع إلى نجدتنا. وحتّى عندما نكون غير جديرين بالمجيء إلى مريم، تأتي هي إلينا، وتدعونا إلى تكريس ذواتنا لقلبها الطاهر.

إنّها تريد أن يجاريها أبناؤها في حبّها ليسوع. ويسوع يحبّ إخوته بقدر ما يمعنون في التمثّل بأمّه، وبقدر ما ترتسم صورتها فيهم.

ولا ريب أنّ حضور العذراء في حياة المكرّسين يسبغ على نفوسهم رقّةً وعذوبةً، ويمكّنهم من ممارسة عفّةٍ حقيقيّةٍ دائمةٍ.

ومثلما أوعز يسوع إلى تلميذه يوحنّا أن يأخذ إليه مريم أمّه، هو يدعو، كذلك، كلّ مسيحيٍّ إلى الاقتداء بطهرها، وتواضعها، وانفتاحها على الغير، ورقّتها، وكتمانها، وصفحها، وصبرها الساجي، وإيمانها الصلب، وثباتها البطوليّ.

وبتكريس ذاته للعذراء، وبتسليمها ذاته، يحيا المؤمن سرّ الصغَر الإنجيليّ بين ذراعيها، وبذلك يستسلم كلّيّةً بين ذراعي الآب. فكلّما نأى المؤمن عن مريم، نشب، في داخله، صراعٌ بين الطفل الذي يودّ الاستسلام لرحمة الآب، وإنسانه العتيق الذي يطمح إلى التظاهر بإنجازاتٍ كبرى، فيظلّ، أبدًا، عاجزًا عن بلوغ صمت الصغر الداخليّ، والاستسلام الكلّيّ لرحمة الآب، وعن انتهاج الطفولة الإنجيليّة.

وحدها مريم تستطيع حمل إنساننا القديم على التصاغر والصمت، ففيها وحدها تحقّق سرّ الطفولة الكلّيّة، بفضل الحَبَل بها بلا دنسٍ. وقد أعطانا الآب مريم لكي نستطيع، بواسطتها، اكتساب هذا الصغر الإلهيّ، والعيش به، ولا نحيا إلاّ بها، وإلاّ أصبحت نفوسنا ساحة صراعٍ دائمة الاحتدام.

وما تكريس ذواتنا للعذراء مريم إلاّ لأنّها أمّ يسوع، ولأنّها، بالروح القدس، ما زالت تلده في العالم، وإن نحن شئنا أن نحرز «الثمرة»، وهي يسوع، فلا بدّ من أن تكون لدينا «الشجرة» التي تطلعها، وهذه الشجرة هي مريم... وإن نحن التجأنا بثقةٍ إلى مريم، فلأنّها «تحوّلت بكلّيّتها إلى اللّه»، ولأنّ يسوع وحده هو حياتها. وبقدر ما نحن نتوافق معها، نكون متوافقين مع يسوع، ونتحوّل إلى طبيعته.

إنّ التكريس هو فعل تأليهٍ، أي تحويل الحياة البشريّة إلى حياةٍ إلهيّةٍ. بهذا الفعل، تُرقّى الحياة البشريّة إلى ما فوق الطبيعة، من الداخل، بهبة الحياة الإلهيّة أي حبّ اللّه عينه. التكريس يتيح للإنسان أن يعرف ويحبّ مثل محبّة اللّه، ومعرفته لذاته. وهكذا يعرف المكرّس الآخرين، ويحبّهم، كما يحبّهم اللّه، يحبّهم معه وبه، وبالتالي، يتماهى حبّ الإنسان وحبّ اللّه.

التكريس يضع الإنسان في فلك الله ومداره، يحرّره من ثقل الخطيئة، وبخاصّةٍ من جاذب المتَع الأنانيّة الكفيلة باستعباده: الامتلاك، والسلطة، والمعرفة المعتدّة؛ وتجعله يرتاح في الله.

التكريس هو التقاء الحبّ، التقاءً لا يسعه إلاّ أن يكون متبادلاً، فالحبّ، في جوهره تبادلٌ، يعطي ويتلقّى، ويتلقّى بقدر ما يعطي. والإنسان مدعوٌّ إلى عيش الحبّ المطلق، الحبّ الذي يحيا به الثالوث الأقدس، الحبّ الوحيد الذي يملأ النفس، أبديًّا.

وما هو دور العذراء في التكريس؟

إنّها لا تحلّ محلّ الله. فهي قد وصفت ذاتها بالأَمَة، وعظّمت الله لأنّه نظر إلى حقارتها. الامتيازات التي خُصّت بها لم تسلبها تواضعها، بل أكّدته. غير أنّ الله أوكل إليها مهمّةً فريدةً مميّزةً. فهي أعطت ابنه الطبيعة البشريّة التي أهّلته ليكون كاهنًا، وملكًا، وضحيّةً فدائيّةً.

وقد جعل الله منها نموذجًا للتكريس، فنزّهها من الخطيئة الأصليّة، منذ لحظة تكوينها الأولى، وملأها نعمةً، ودمغها بطابع الروح القدس، ثمّ حلّ عليها الروح القدس، في البشارة، وهيّأها للأمومة الإلهيّة. وألهمها، في قانا، أن تطلب من يسوع معجزةً رسّخت إيمان تلاميذه فيه، وأسهمت في تأسيس الكنيسة. وفي الجلجلة اقتسمت آلام ابنها الفدائيّة، آلام ولادةٍ جعلت منها أمّ المسيحيّين، وأمّ البشر. وقُبَيل فقدها ابنها أقام منها ابنها أُمًّا للبشر، وكانت تلك وصيّته الأخيرة.

إنّها نموذج حياةٍ مكرّسةٍ بالكامل لله، في كلّ لحظةٍ، وفي جميع أبعاد كيانها الواعية واللاواعية. بل هي بذرة كلّ تكريسٍ، ومنطلقه الديناميكيّ، وهي بذلك، توفّر، لكلٍّ من أبنائها، السند والحماية والشفاعة. وما يرغب فيها ابنها، ترغب، هي، فيه، وما يهبه تهبه، هي، معه، في تبادل حبٍّ كاملٍ. وقد تلقّت نعمةً فائقةً وقديرةً كي تلهمنا وتؤهّلنا لتلقّي التكريس الإلهيّ.

لقد أخذت مريم على عاتقها، بكلّ قلبها، وبكلّ حبّها، المهمّة التي أسندها إليها ابنها المحتضر، فلنفسح لها فرصةً لتكريس كلٍّ منّا، ولمماهاته مع يسوع، داخليًّا، وفقًا

لدعوته ومؤهّلاته الخاصّة. وسنمكّنها من ذلك، بوعينا حضورها المحبّ، في كلّ لحظةٍ، إلى جانبنا، وبإيكال ذواتنا لها.

ولنتعلّم أن نرمق يسوع بعينيْ مريم، وأن نرمق مريم بعينيْ يسوع. أن نحبّ يسوع بقلب مريم، وأن نحبّ مريم بقلب يسوع. ولتكن لدينا نظرة مريم إلى أبنائها البشر، نظرة حبٍّ مفمعةً رقّةً، ونظرة ألمٍ حيال الخطيئة، كالنظرة المفجوعة التي نلقيها على أصدقاء وأبناءٍ يتردّون إلى الهاوية، ولا حوْل لنا على وقف انهيارهم. همّها هو درء كلّ ضروب البؤس الناشبة بالعالم، وفي هذا السبيل لا حدود لبذلها. إنّها تنفق حياتها السماويّة في نشر الخير على الأرض.

فلنوكل إليها كلّ مطالع نهاراتنا، وانطلاقات مشاريعنا. ولنوكل إلى عنايتها، أيضًا، مراحل حياتنا، بكلّ ما تنطوي عليه من مجازفةٍ وحيرةٍ، وأَزماتنا والمآسي التي يمتحننا بها العالم. ولنوكل إليها، خاصّةً، المراحل الأليمة. فهي عذراء الجلجلة، وأمّ السبعين مرَّةً سبعة آلام. فهي، أحياناً، تبعد صلباننا، أو تخفّف وطأة عبئها، ولكنّها لا تزيلها دائمًا، إذ إنّها لم تُزِلْ صليب ابنها، ولكنّها تمنح، مع الصليب، الحبّ، والثقة، والسلام، ورجاءً عذبًا، تساعدنا على العبور الهادئ إلى نهاية حياتنا الأرضيّة.

وفضلاً عن كونها المثال الأسمى لتكريس ذواتنا، هي مربّيتنا وأمّنا. ومثلما كانت خير أمٍّ لابن الله، هي خير أمٍّ لنا. والله الذي عقد معها أكمل تواصلٍ يدعونا إلى إيكال ذواتنا لها، بلا تحفّظٍ.

من المحقّق أنّ تكريس الذات لمريم يشيع شعورًا غامرًا بالثقة والأمان. هذا الشعور يستلزم الاتّكاء على آخر قويٍّ. ومريم قديرةٌ، ولا شيء يقوى على انتزاع ما أودع بين يديها، منها. فنفس مريم محرَّرةٌ من الاضطرابات والهواجس، والمخاوف. وهي محصّنةٌ حيال جميع الأعداء، وحيال إبليس، وعالم الخطيئة التي لم تجد، قطّ، إليها سبيلاً. نحن، عمومًا، نودع النعم والكنوز التي نتلقّاها من الله، آنيةً هشّةً، ونفوسًا واهيةً متقلّبةً، أيُّ شيءٍ يشيع فيها الاضطراب، ويطيح بها. ولا وسيلة للحفاظ عليها سوى إيداعها بين يديْ من هي، وحدها، «العذراء الأمينة».

ولكن ليس وهننا، وحده، هو الذي يوجب علينا الاعتماد عليها، بل، أيضًا، حبّنا لها، فالثقة هي أساس الحبّ ومعياره، ولأنّها، بتكريس ذواتنا لها، تهبنا ذاتها أُمًّا، وتغدق علينا من كنوز النعم التي امتلأت بها.

وأيّة منعةٍ يولينا تكريس نفسنا لمريم، إذ إنّه يرسّخ لدينا اليقين بأنّ أمّ يسوع نفسها هي أمّنا، وأنّنا، في سعينا الجاهد صوب القداسة، يمكننا الاعتماد على كلّ غنى نِعَمها وحياتها، ومبادراتها، وحبّها، وعنايتها، ووقايتها، وشفاعتها! إنّ يقيننا بأنّنا أداة مريم يهبنا الشجاعة والإبداع في تصدّينا للمهمّات الصعبة، المستحيلة بشريًّا، ويرسّخ فينا الشعور بأنّنا من أُسرة مريم، وشركاء في رسالتها، لمجد الله.

القدّيس غرينيون دي مونفور يدعو إلى ارتضاء أن يكون المرء عبدًا لمريم، عبوديّة حبٍّ وإرادةٍ، عبوديّةً يكرّس بها ذاته لله، عبر مريم، وبأكمل أسلوبٍ يسع المرء استخدامه كي يهب ذاته لخالقه.

وكان إيلديفونس الطليطليّ قد قال، مخاطبًا العذراء: «إنّما أنا أعبدك، لأنّ ربّي هو ابنك. وإنّما أنت سيّدتي، لأنّك أصبحت أمّ ربّكِ، وإنّما جعلتُ نفسي عبدًا لك، لأنّك أصبحت أمّ خالقي».

إنّ منح الذات ليسوع بيدي مريم، هو تمثّلٌ بالآب الذي لم يهبنا ابنه إلاّ بواسطة مريم؛ وهو تمثّلٌ بالله الابن الذي لم يأتِ إلينا إلاّ عبر مريم، وبذلك ضرب لنا مثلاً نحتذي به، داعيًا إيّانا إلى المضيّ إليه بنفس الأسلوب الذي جاء به إلينا، أي بمريم؛ وهو تمثّلٌ بالروح القدس الذي لا يغدق علينا نعمه وعطاياه إلاّ بمريم...

إنّ المضيّ إلى يسوع بواسطة مريم هو، حقًّا تكريمٌ ليسوع، وهو الدلالة على أنّنا نكرّم يسوع، حقًّا، إذ نبرهن على أنّنا غير جديرين بالدنوّ من قداسته اللانهائيّة، مباشرةً، بأنفسنا، من جرّاء خطايانا، وأنّنا في حاجةٍ إلى مريم، أمّه القدّيسة، لتكون لنا المحامية والوسيطة لديه، هو وسيطنا. وبذلك ندنو منه، بصفته وسيطنا وأخانا، ونتواضع أمامه بصفته إلهنا وحاكمنا. وبالإجمال نمارس، بذلك، فضيلة التواضع، التي تفتن، دائمًا، قلب الله.

وبتكريسنا ذواتنا، على هذا النحو، ليسوع بواسطة مريم، نضع بين يدي العذراء، أفعالنا الحميدة، التي، وإن بدت جيّدةً، هي، غالبًا، ملوّثةٌ، وغير جديرةٍ بأنظار الله، وبرضاه.. ولنسأل تلك الأُمّ، والسيّدة الطيّبة، أن تتقبّل تقدمتنا هذه، وتطهّرها، وتقدّسها، وترفعها، وتجمّلها، بحيث تجعلها لائقةً بالله...

إنّ كلّ ما نفعله لضئيلٌ وهزيلٌ. ولكن فلنودعه بين يدي مريم، فيغدو ذا قيمةٍ

كبرى! ولنتجرّد إكرامًا لها، من كلّ شيءٍ، فنرى كَرَمها الفائق، إذا إنّها تعطينا «لقاء بيضةٍ عجلاً»، وتهبنا كلّ ذاتها، بكلّ استحقاقاتها وفضائلها، وتضع هدايانا في صحيفة محبّتها الذهبيّة، وتلبسنا ثياب ابنها الجميلة...

وتكريس ذواتنا للعذراء يقينا من السقوط، مثلما سقط الكثيرون من أصحاب الفضائل في شباك الشرّير، ويزوّدنا بحرّيّة أبناء الله. فالعذراء تساعد من يتطوّع ليكون لها عبدًا، كي يسير بخطًى جبّارةٍ على دروب حبّ الله. ولكنّ هذه العبوديّة، لكي تؤتي ثمارها، ينبغي أن تكون راسخةً في أعماق الذات، ثابتةً، ودائمةً، وأن تجعل النفس دائمة الاعتماد على مريم، وعلى يسوع بواسطة مريم.

والوسيلة المثلى لممارسة هذا التكريس هي اتّخاذ العذراء القدّيسة أسوةً ومثالاً، في كلّ ما نقوم به من أعمالٍ. وهي، من خلال مريم، الاتّحاد بنوايا يسوع، أي أن نجعل ذواتنا أداةً بين يديها، لكي تعمل فينا، وبنا، ومن أجلنا، كما يحلو لها، من أجل مجد ابنها، وبواسطته، من أجل مجد الآب، فتكون كلّ حياتنا الروحيّة معتمدةً عليها، سائرةً بهديها.

وقد أوصى القدّيس مكسيميليان كولْبيه بنصائح عمليّةٍ للتكريس لخّصها في الخطوات التالية:

– الحياة في ألفةٍ مع مريم، وتذكّرها، والتفكير فيها.

– الثقة بها

– الانقياد لها،

– ذكر اسمها باطّراد، تأكيدًا للتكريس.

– إنّ جوهر كمال التكريس ليس العاطفة، أو الذاكرة، بل الإرادة... فلنجهد في توفيق إرادتنا، دائمًا، توافقًا كاملاً مع المنزّهة من الدنس، بتنفيذ إرادتها على أكمل وجهٍ.

– صهر إرادتنا في إرادتها، مثلما انصهرت إرادتها انصهارًا كاملاً في مشيئة الله. وإذا ما أَولينا أمّنا العذراء التي أوكَلَنا ابنها يسوع إلى عنايتها، فهي كفيلةٌ بتسليمنا للروح القدس كي يبثّ فينا الحبّ الذي يبتدع كلّ شيءٍ آخر.

ولا ريب أنّ كلّ نفسٍ تسكنها مريم، يسوع هو ثمرتها، وتحفتها. والعذراء تضيء هذه النفس بالإيمان الصافي، وتعمّق القلب بالتواضع، وتوسّعه، وتلهبه بالمحبّة، وتنقّيه بنقائها، وتسبغ عليه، بأمومتها، نبلاً وعظمةً.

وكان القدّيس غرينيون دي مونفور قد اقترح نصًّا للتكريس يقول: «إنّني أختارك، اليوم، يا مريم، بحضور كلّ البلاط السماويّ، أمًّا ومعلّمةً. إنّني أسلّمك، وأُكرّس عبيدًا لك، جسدي، ونفسي، وخيراتي الداخليّة والخارجيّة، وأوليك حقًّا كلّيًّا بالتصرّف بي، وبما يخصّني، بلا استثناءٍ، بحسب رغبتك، ولمجد الله الأعظم، في الزمن وفي الأبديّة».

واقترح، أيضًا، نصًّا مقتضبًا يقول: «إنّي بكلّيّتي لك، وكلّ ما لي يخصّك».

والعذراء نفسها طالبت، في بعض ظهوراتها، بتكريس العالم لها ولابنها، وهذا ما فعله البابا بيّوس الثاني عشر، الذي كرّس العالم لقلب مريم الطاهر، بصفته رمزًا للقداسة السامية الاستثنائيّة التي تميّزت بها نفس أمّ الله، وخاصّةً رمزًا لحبّها المضطرم لابنها يسوع المسيح، ولعطفها الأموميّ على البشر المفتدين بالدم الإلهيّ.

وقد أثار هذا التكريس، في حينه، حماسًا عارمًا في العالم الكاثوليكيّ. ثمّ إنّ البابا يوحنّا بولس الثاني كرّس العالم، ثانيةً، للعذراء، عام **١٩٧٩**، أي بُعيْد تنصيبه حبرًا أعظم، بحسب النصّ التالي:

«إنّني أكرّس العالم كلّه، وكلّ أمم الأرض، وجميع البشر، لأمّ المسيح، لأنّها أمّ جميعهم. أكرّس لها، على نحوٍ خاصٍّ أولئك الذين حياتهم هي الأشدّ عناءً وقسوةً، الذين يعانون جسديًّا وروحيًّا، الذين يقاسون البؤس، ويتعرّضون للمظالم والأذى».

وقد جدّد البابا يوحنّا بولس الثاني هذا التكريس في فاتيما بتاريخ **١٣** أيّار **١٩٨٢**، ثمّ مرّةً ثالثةً، في كاتدرائيّة القدّيس بطرس، في الفاتيكان، حيث كان محاطًا بآباء سينودس الأساقفة، بتاريخ **١٦** تشرين الأوّل **١٩٨٣** وقد جاء، في نصّ هذا التكريس:

«إلى حمايتك نلتجئ، يا أمّ الله القدّيسة!» يا أمّ البشر والشعوب، الذين تعرفين آلامهم وآمالهم كلّها وتتحسّسين، بشعور الأُمّ، كلّ الصراعات الناشبة بين الخير والشرّ، بين النور والظلمات، التي تهزّ العالم المعاصر. تقبّلي الصرخة التي نوجّهها،

مباشرةً، إلى قلبك، بوحي الروح القدس، وضمّي، بين ذراعيك، بحبّ الأمّ والأمَة، عالمنا البشريّ الذي نوكله إليك، ونكرّسه لك، إذ يملأنا القلق على مصير البشر والشعوب، مصيرهم الأرضيّ والأبديّ.

إنّنا نوكل إليك، ونكرّس لك، على نحوٍ خاصّ، البشر والأمم الذين هم في حاجةٍ خاصّةٍ إلى هذا الإيكال وهذا التكريس.

فلا تزدري توسّلاتنا، وسط المِحَن التي نجتازها...، بل تقبّلي ثقتنا المتواضعة، واستسلامنا بين يديك...

أمامك، يا أمّ المسيح، وأمام قلبك الطاهر، أرغب اليوم، بالاتّحاد مع الكنيسة جمعاء، في الانضمام إلى مخلّصنا، في تكريس نفسه، من أجل العالم والبشر، فوحده هذا التكريس، في قلبه الإلهيّ، يستطيع الظفر بالغفران، وتأمين الكفّارة.

إنّ قدرة هذا التكريس تدوم مدى الأزمنة كلّها، وتشمل البشر أجمعين، شعوبًا وأُممًا، وتطغى على الشرّ الذي بوسع روح الظلمات نشره في قلب البشر، والذي أشاعه، فعلاً، في حقبتنا...

وإذ نوكل إليكِ، يا أمّاه، العالم، والبشر أجمعين، والشعوب كلّها، نوكل إليك، أيضًا، هذا التكريس عينه الذي نودعه في قلبك الأموميّ.

فيا أيّها القلب الطاهر، ساعدنا على قهر الشرّ المنذر، الذي يترسّخ بيُسر، في قلوب بشر اليوم، والذي ترين جرائره الجسيمة على جيلنا وحقبتنا، ولكأنّها تغلق أبواب المستقبل.

من المجاعة والحرب، أعتقينا!

من الحرب النوويّة، ومن الإفناء الذاتيّ، ومن كلّ ضروب الحروب، أعتقينا!

من الإجرام بحقّ حياة الإنسان، منذ فجرها، أعتقينا!

من البغض، ومن امتهان كرامة أبناء الله، أعتقينا!

من كلّ ضروب الظلم، وطنيًّا، ودوليًّا، أعتقينا!

من الخطايا بحقّ الروح القدس، أعتقينا!

وتقبّلي، يا أمّ المسيح، هذه الصرخة المشحونة بآلام جميع البشر، وبآلام مجتمعاتٍ بأكملها!

ولتعتلن، مرّةً أُخرى، في تاريخ العالم، قدرات الحبّ الرحيم اللامحدودة كابحةً الشرّ، ومحوّلةً الضمائر!

وليستيقظ، لدى الجميع، في قلبك الطاهر، النور والرجاء!»

ولنردّد مع القدّيس «غرينيون دي مونفور»: إنّي أوثر الموت على ألاّ أكون بكلّيّتي لمريم».

وقد أوضح الكردينال جوزف رتسنغر (البابا الحاليّ) سبب التكريس لقلب مريم الطاهر المنزّه من الدنس بقوله: «القلب، في لغة الكتاب المقدّس، هو مركز الوجود الإنسانيّ، ونقطة تواصل العقل والإرادة والطبع، حيث يجد المرء وحدته، واتّجاهه الداخليّ، وبالتالي: «يرى الله». إنّ تكريم قلب مريم الطاهر هو وسيلةٌ للتقرّب من هذا القلب، حيث قول «فلتكن مشيئتك، يا ربّ» يصبح هو المركز الذي يقود الوجود كلّه».

وكانت القدّيسة بريجيت (+ ١٣٧٣) قد قالت: «لكأنّ يسوع ومريم قد افتديا الجنس البشريّ بقلبٍ واحدٍ».

* * * * * *

لقد ادّعى بعض المتخرّصين أنّ تكريم مريم هو انتقاصٌ من كرامة الله، ومن واجب تكريم ابنها. وقد بينّا، آنفًا، بطلان هذا الادّعاء.

لاريب أنّ تأليه العذراء مخالفٌ للعقيدة السليمة، وأنّ كلّ مبالغةٍ في تكريمها تخرج عن نطاق الإيمان السليم، هو إساءةٌ لها.

غير أنّ تكريم العذراء الحقّ، كما تستحقّ، وكما يليق بمن اختارها الآب نفسه لتكون أمّ ابنه المتجسّد، هو خير وسيلةٍ لتكريم يسوع.

حتّى القرن الخامس عشر، ظلّ الشعب المسيحيّ مجمعًا على تكريم العذراء، بلا تحفّظٍ، غير أنّ أعداء العذراء، بحجّة مكافحة الإفراط في تكريمها، تكريمًا عدّوه يلامس العبادة، تعرّضوا لأرقّ ما في قلوبنا، ولأكثر ما فيها تلقائيّةً، أيّ حبّ أمٍّ

فائقة العظمة والقدرة والحنان. وإنّما الذين يحاربونها، بحجّة الدفاع عن يسوع، يطعنونه في قلبه، أي في أمّه.

ولطالما ناضلت شعوبٌ، كالشعب البولونيّ، حتّى الاستشهاد، دفاعًا عن كلّ ما من شأنه الإساءة إلى الأمّ العذراء.

وقد أعلن الفرنسيسكانيّ «دنس سكوت» (Duns Scot):

«إن كان تكريم العذراء خطأ، فإنّي أوثر أن أخطئ بإفراطي في تكريمها، على أن أُخطئ بتقصيري في هذا التكريم».

وإنّه لمن حسن طالع المؤمنين عمومًا، أنّهم ينأون بأنفسهم عن النقاشات الفكريّة التي تفرّق اللاهوتيّين، ويندفعون، بكلّ محبّة قلوبهم، نحو أمٍّ يمحضونها الثقة والشغَف. ولا جَرَم أنّ تيّار التقوى الشعبيّة الهادر الذي يتضخّم جيلاً فجيلاً، يتخطّى كلّ جدلٍ وتنظيرٍ، بل يتخطّى التقهقر الدينيّ العامّ. وربّما هذا ما يفسّر تكاثر ظهورات العذراء.

إنّ المؤمنين يدركون أنّ امتيازات مريم التي حدّدتها الكنيسة مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بأسرار الإيمان الكبرى، ولكنّهم عندما يتمتمون كلمات «السلام الملائكيّ» لا تحدوهم نظريّاتٌ، بل هم مدفوعون بكلّ زخم حبّهم للأمّ العذراء.

وخليقٌ بكلّ مسيحيّ أن يردّد مع الكردينال «دي بيرول» (de Bérulle) هذا الدعاء للأمّ السماويّة: «إنّي أُجلّك بكلّ الوسائل التي يتيحها لي الله، والتي تفرضها عليّ عظمتك».

ولكن من المحقّق أنّ كلّ تكريم للعذراء يبقى قليل الجدوى، إن هو لم ينقلب رغبةً صادقةً في التمثّل بفضائلها، وسعيًا جادًّا إلى الاقتداء بسلوك حياتها.

وقد جاء في قرارات المجمع الفاتيكانيّ الثاني (الفقرة ٧٦ من الفصل الثامن): «على المؤمنين ألاّ ينسوا أنّ التكريم الحقّ ليس شعورًا عقيمًا وعابرًا، ولا اعتقادًا باطلاً، بل عليه أن ينبع من الإيمان الحقّ الذي يحملنا على الاعتراف بتميّز أمّ الله، ويحثّنا على حبّ أُمّنا حبًّا بنويًّا، وعلى التمثّل بفضائلها».

الصلاة المريميّة

ولا مراء أنّ خير تكريمٍ للعذراء هو تلاوة صلاتها الخاصّة، الصلاة المريميّة المعروفة بصلاة «السلام»

ولا بدّ من التنويه بأنّ، ثمّة، ترجمتين لهذه الصلاة، عن الأصل اليونانيّ، فهناك من يترجمون بشرى الملاك: «السلام عليكِ، يا مريم...». وهذه الترجمة هي الأوسع رواجًا، والأكثر استخدامًا.

و«السلام» ليس مجرّد انتفاء العنف والحرب. بل هو فيض الخير المتجلّي في الفرح، والحبّ، والازدهار، والحياة، والسعادة. فالسلام الحقّ هو سلام القلب القائم على مصالحة البشر في ما بينهم، ومع الله.

ولكي يكون يسوع أمير السلام، وافقت مريم على عرض الملاك، وأصبحت الحلقة الأولى، في سلسلةٍ متمادية الطول، من صانعي السلام، الملتزمين به.

غير أنّ بشرى الملاك لمريم لم تكن رسالة سلامٍ فحسب، بل، أيضًا، رسالة فرح. وثمّة من يترجمونها، ويتلونها: «إفرحي، يا مغمورةً بالنعمة». إنّها رسالة فرحٍ لمريم، وللعالم أجمع، فالفرح هو ميزة الحقبة المسيحيّة، ودليل حضور الله. ومريم هي أولى المدعوّين إلى الفرح بالمعجزة الكامنة في أحشائها. وهي تدعونا إلى الابتهاج معها بعمّانوئيل. فقد أصبح الله حاضرًا، شخصيًّا، وسط شعبه، وغدا جزءًا من البشريّة.

هذه الصلاة كوّنتها التقوى الشعبيّة تدريجيًّا، منذ أوائل العصور المسيحيّة، بدءًا بالشرق. وقد اكتُشفت، في منطقة لقصر، في مصر، قطعة فخّار يعود تاريخها إلى القرن السابع، وقد حُفرت عليها هذه الصلاة: «أحيّيك، يا مريم، يا ممتلئة نعمةً، الربّ معك. مباركةٌ أنت بين جميع النساء، وثمرة أحشائك مباركةٌ، لأنّكِ حملتِ الربّ، ابن الله، فادي نفوسنا». وقد ألِفَ مسيحيّون كُثُرٌ ترديد هذه الصلاة، مئات المرّات كلّ يومٍ.

وكانت هذه الصلاة قد استُهلّت في القرن الخامس بالمقطعين الأوّلين من بشارة الملاك جبرائيل لمريم، ثمّ أُضيف إليها قول إليصابات: «مباركةٌ أنت في النساء، ومباركةٌ ثمرة بطنك».

في القرن السابع شُرع بتلاوتها بانتظامٍ. ولكي تتّخذ شكل صلاةٍ، وضع البابا بيّوس الخامس، عام ١٥٦٨، صيغتها النهائيّة، مضيفًا إليها قسمها الثاني: «يا قدّيسة مريم...»

أمّا استخدام المسبحة، فهو مستوحًى من تقليدٍ كان شائعًا في القرون الوسطى يقوم على تتويج تماثيل العذراء، بأكاليل من الورود، ترمز كلٌّ منها إلى دعاءٍ خاصٍّ. ومن هذا التقليد، نشأت فكرة إكليلٍ من حَبٍّ يساعد على مخاطبة مريم. وكان هذا التقليد رائجًا، عندما نمّاه القدّيس بيرنار في القرن الثاني عشر، وكذلك فعل، في القرن الثالث عشر القدّيس دومينيك الذي أوعز إلى رهبانه بتعليق مسبحةٍ في زنّار ثوبهم الرهبانيّ، تساعدهم على الصلاة. والمسبحة تتألّف من خمس مجموعاتٍ، كلٌّ منها تحتوى عشر حبّاتٍ، كلّ حبّةٍ تدعو إلى تلاوة «السلام» أو «افرحي يا مغمورةً بالنعمة»، وتفصل كلّ عشريّةٍ عن الأُخرى، حبّةٌ تدعو إلى صلاة «أبانا»، وفي ختام كلّ عشريّةٍ، تُرسم إشارة الصليب، ويقال: «المجد للآب، والابن، والروح القدس».

يحبّ المسيحيّ مريم لأنّ يسوع يحبّها. ولأنّه يعبد يسوع يكرّم أمّه، يرفع له الدعاء، ويعيده، مستخدمًا المسبحة.

قديمًا كان الرهبان الأمّيّون يتلون مئةً وخمسين مرّةً «أبانا»، فيما كان إخوانهم المتعلّمون يتلون مئةً وخمسين مزمورًا باللغة اللاتينيّة. ولكي يضبطوا العدّ استصنعوا مسابح من بذور.

ويُروى أنّ العذراء ظهرت ليلاً للقدّيس دومينيك، وأعطته مسبحةً، وطلبت منه نشر استعمالها. وهو عمل على تنظيم تلاوتها .

وقد أَلفت العذراء، في أثناء ظهوراتها، أن تحمل مسبحةً. وقد عرَّفت نفسها، في فاتيما، بأنّها سيّدة الورديّة.

وقد شاع استخدام المسبحة حتّى أمست أداةً للصلاة، وتشجيعًا لها. ثمّ طوّرتها التقوى المسيحيّة، فحوّلتها إلى «الورديّة».

و«الورديّة» هي تلاوة المسبحة كاملةً، ثلاث مرّاتٍ متتاليةٍ، مع تأمّل أسرار حياة يسوع وأمّه، بحيث يقابل كلّ عشريّةٍ سرٌّ من الأسرار التي طبعت كلّ حياة الربّ وحياة العذراء، والتي تشير إلى التجسّد، والفداء، والحياة الأبديّة.

المسبحة الأولى تخصّص لأسرار الفرح التي تذكّر بالتجسّد، وهي البشارة، والزيارة، والميلاد، والتقدمة إلى الهيكل، والعثور على يسوع في الهيكل، بعد غيابٍ استمرّ ثلاثة أيّامٍ. تلك هي أسرار الفرح: فرح الأسرة، والأمومة، والقربى، والصداقة، والتعاون المتبادل. هذه الأفراح استوعبها يسوع وقدّسها، من خلال مريم. ونحن، من خلال مريم، نستطيع أن نستقبلِ أفراح الإنسان: إنّها بسيطةٌ ومتواضعةٌ في ذاتها، ولكنّها، في مريم، تصبح عظيمةً ومقدّسةً.

مريم عهدت أفراح الحبّ الطاهر، والأُمومة المتقبَّلة عطيّةً من اللّه، وفرح الخدمة التي باشرتها بخدمة إليصابات، خدمةٍ تحمل بها، إلى الآخرين، حضور اللّه؛ فرح اقتسام المسرّة والصداقة مع الرعاة والمجوس، وفرح تقديم ابنها إلى الهيكل، الفرح المقترن بالقلق الذي يساور الآباء حيال مستقبل أبنائهم.

المسبحة الثانية تتأمّل في أسرار الألم التي تذكّر بالفداء: النزاع، والجلد، وإكليل الشوك، وحمل الصليب، والصلب، والموت.

في يسوع نشهد كلّ آلام البشر: نراه مغمومًا، مخانًا، مهجورًا، مقيّدًا، مسجونًا، محاكمًا محاكمةً جائرةً، خاضعًا للجلد. يُسام أدهى العذابات على الملأ، ويتعرَّض لأكثر ضروب الموت مهانةً، والعالم لا يفهم رسالته.

في رجل الآلام هذا، كما وصفه أشعيا، قُدِّس كلّ ألمٍ بشريٍّ.

لقد حوّل الفادي الألم إلى تقدمةٍ مرضيّةٍ لدى اللّه، إلى ذبيحة فداءٍ. وقد واكبته على درب الجلجلة أُمّه، أولى الشهيدات. ومن فوق الصليب أوكل إليها ابنُها كلّ إنسانٍ، كي تعطف على كلّ عضوٍ من أعضاء جسده السرّيّ المعلّق على الصليب.

أمّا المسبحة الثالثة فتدعو إلى التأمّل في أسرار المجد التي تذكّر بالحياة الأبديّة: القيامة، الصعود، العنصرة، انتقال العذراء وتتويجها ملكةً في السماء وعلى الأرض.

أسرار المجد تنطوي على كلّ رجاءٍ لدى المسيحيّين: رجاء الحياة الأبديّة التي تستدعي قدرة اللّه الكلّيّة، وترقّبات الزمن الحاضر التي تلزم البشر بالتعاون مع اللّه.

في المسيح الناهض من الموت، العالم كلّه ينهض، وتُستهلّ سماواتٌ جديدةٌ، وأرضٌ جديدةٌ، حيث «لا يكون، بعدُ، موتٌ، ولا نوحٌ، ولا نحيبٌ، ولا وجعٌ، لأنّ الأوضاع الأولى قد ولّت». (رؤيا ٢١ : ٤)

بنفحة الروح القدس، في العنصرة، وهب يسوع تلاميذه قدرة الحبّ، ونشر الحقيقة، ودعاهم إلى المشاركة في بناء عالَمٍ جديدٍ خليقٍ بالإنسان المفتدى، وإمكانيّة تقديس الأشياء كلّها، بالخضوع لمشيئة الآب السماويّ. وبذلك أضرم في قلب من يعطي فرح العطاء، وفي قلب البائس اليقين بأنّه محبوبٌ.

مجد انتقال العذراء رمزٌ لتمجيد علاقات المحبّة التي لا يفصمها الموت. فبانتقالها إلى السماء، أمست العذراء محاميةً لنا، وحاميةً، وكذلك تمسي علاقات المحبّة التي كانت تربطنا بأمواتنا على الأرض، أوثق، وأمنع، في نور اللّه.

وفي رؤية العذراء التي تمجّدها كلّ الخلائق، نرى إنسانيّةً أعاد يسوع لمّ شملها، في وحدةٍ مكتملةٍ، حيث لا شقاق، ولا تنافس، إلاّ في التسابق على دروب الحبّ، لأنّ اللّه حبٌّ.

وقد أضاف البابا يوحنّا بولس الثاني عام **٢٠٠٢** مسبحةً رابعةً، تأتي في المرتبة الثانية، بعد أسرار الفرح، وتذكّر بالأسرار «المضيئة»، أي: عماد يسوع، وعرس قانا، وإعلان الملكوت بالكرازة والعجائب، والتجلّي، وتأسيس الإفخارستيّا.

بالإجمال، الورديّة المقدّسة هي تذكيرٌ دائمٌ بالفداء، في أكثر مراحله بروزًا: تجسّد الكلمة، وآلامه، وموته من أجلنا، الفصح الذي استهلّه على الأرض، والذي سيكتمل، أبديًّا، في السماء.

وهكذا، بتلاوة المسبحة الورديّة، وبتأمّل أسرارها، يخطر أمامنا كلّ قانون إيماننا، لا صِيَغًا مجرّدةً، بل صُوَرًا حيّةً مستوحاةً من حياة المخلّص الذي هبط إلينا من الآب، ثمّ عاد إليه كي يقتادنا إليه. إنّه مجمل العقيدة المسيحيّة بكلّ سموّها وبهائها، كي نستطيع، كلّ يومٍ، الاستغراق فيها، وتذوّقها، وتغذية نفوسنا بها.

أسرار طفولة يسوع الفرحة تفضي إلى الآلام، وآلامه تفضي إلى السماء.

وهكذا تصبح صلاة المسبحة الورديّة تأمّلاً يتصاعد نحو السماء. فحجّنا صوب اللّه يعبر بمراحل: التطلّع إلى الآخرة، والرغبة في الخلاص، التي تولّد الفرح.

وهكذا تنتزعنا المسبحة الورديّة من أفراحنا المغرقة في البشريّة، والخطرة أحيانًا، كي تدفعنا صوب التطلّع إلى أفراحٍ أسمى، أفراح مجيء المخلّص. وتنتزعنا، أيضًا، من أسر أحزاننا، وهي غالبًا حمقاء، ومرهقةٌ، كي تذكّرنا بأنّ يسوع تألّم أكثر منّا بكثيرٍ، حبًّا بنا، وتعلّمنا اتّباعه بحمل الصليب الذي اختارته العناية الإلهيّة، من أجل تطهيرنا، وتنتزعنا، أخيرًا، من تطلّعاتنا المسفّة، مذكّرةً إيّانا بأنّ موضوع الرجاء المسيحيّ هو الحياة الأبديّة التي تُكتَسب بتنفيذ الوصايا الكبرى: أي حبّ الله، وحبّ القريب.

وهكذا، لا تعود تلاوة المسبحة الورديّة مجرّد صلاة التماسٍ، بل تصبح صلاة عبادةٍ وتكفيرٍ، تلهمها آلام يسوع، وصلاة شكرٍ.

علينا، إذن، تلاوة الورديّة، ونحن محدّقون إلى عيني يسوع الحيّ الأبديّ، والذي ما انفكّت حياته وأسرارها فاعلةً فينا. نظر يسوع هو نظر الله الذي يطهّر، ويحلّ السلام، ويقدّس. إنّه نظر ديّاننا، ومخلّصنا، وخير أصدقائنا. وعندما تتلى الورديّة في الخلوة والصمت، تتحوّل إلى حوارٍ غنيٍّ بالثمار، مع يسوع، الحيّ الأبديّ، الكفيل بإحيائنا، واجتذابنا إليه، وإلى حوارٍ مع مريم التي تقودنا إلى حميميّةٍ عذبةٍ مع ابنها.

هذه الصلاة، إن نحن أحسنّاها، كفيلةٌ بتطهير أحزاننا، وآمالنا، وبالسموّ بها، وبإِضفاء طابعٍ روحيٍّ عليها.

وسنرى، بوضوحٍ متزايدٍ، من خلال تأمّل هذه الأسرار، أنّ يسوع، مخلّصنا ومثالنا، يبتغي حملنا على التشبّه به، فيبثّنا، أوّلاً، شيئًا من حياة طفولته، وحياته الخفيّة، ثمّ شيئًا من التمثّل بحياته المتألّمة، لكي يجعلنا، بعدئذٍ، نسهم في حياته الممجّدة، أبديًّا.

عن المسبحة الورديّة يقول الأب تيار دي شاردان: «إنّها نموٌّ واتّساعٌ للسلام الملائكيّ. إنّها» افرحي يا ممتلئةً نعمةً «موسَّعًا وموضّحًا». السلام عليك، يا مريم»، هو، أوّلاً، تعبيرٌ تلقائيٌّ عن حبّنا للسيّدة العذراء، تعبيرٌ ليس، دائمًا، مجرّدًا، ولكنّه يتحوّل إلى حاجةٍ لمعرفة العذراء، معرفةً مثلى، وإلى التوادّ معها. بذلك يصبح قلب العذراء القدّوسة شفّافًا، فنستطيع أن نحيا الأسرار مجدّدًا، بحيث تصبح لنا العقيدة

كلّها أليفةً، محسوسةً، واقعيّةً، في مريم، وأخيرًا ندرك أنّ لهذه الأسرار ما يوازيها، وما يكملها، في مراحل أفراحنا، وأحزاننا المغلّفة بالسرّ. وهكذا، كلّما نمت فينا صلاة «السلام عليك، يا مريم» ازدادت حياتنا مسيحيّةً».

وللأب تيار دي شاردان، أيضًا، هذا القول: «لا شيء يحيا، ويؤثّر، في العالم، بكثافةٍ أكثر من الطهر والصلاة، المعلَّقين، مثل نورٍ ثابتٍ بين الكون والله. ومن خلال شفافيّتهما الساجية، تتدفّق الموجة الخلاّقة، مثقلَةً بالقدرة الطبيعيّة، وبالنعمة. وهل العذراء مريم سوى هذا كلّه؟».

ويقول «غي جيلبير» (Guy Gilbert) عن المسبحة الورديّة: «إنّها صلاة الفقراء والصغار، ... صلاةٌ تقطر، حبّةً حبّةً، تسبيح مريم. صلاةٌ تكراريّةٌ، ولكنّها تتضوّع مثل عطر حبٍّ، نحو من هي محبّة الله، والأوثق قربًا منه. وما العبور من سرٍّ إلى آخر سوى اقتفاء آثار يسوع ومريم».

وأيّ أثرٍ بليغٍ كان لتلاوتها في نفوس الكثيرين! من يتلوها بوعيٍ لمضمونها، يواكبه شعبٌ بأكمله، شعبٌ غفيرٌ، يطوف على مدى القرون، مردّدًا مع الشاعر پول كلوديل: «يا أمّ إلهي، أيّتها المرأة بين جميع النساء، ها أنتِ قد انتهيت إليّ، عقب سفرٍ طويلٍ، وها إنّ جميع الأجيال، فيّ، ومعي، تطوّبك».

إنّها صلاةٌ عظيمةٌ، في تواضعها، لا تستخدم سوى أداةٍ وضيعةٍ: الأصابع، وترافق انسياب حبّاتها كلماتٌ ساميةٌ في أبعادها، ولكنّها في منتهى البساطة.

مثل مبخرةٍ، منتظمة الوقع، تروح وتجيء عفويًّا، وقد يشرد معها الذهن، ولكنّه شرودٌ صوب السماء.

غايتها التأمّل في حياتين انصهرتا في واحدةٍ، حياة يسوع، وحياة مريم، وتمثّلان الحياة البشريّة في أنقى نموذجيها.

تأمُّلٌ مسترخٍ، بسيطٌ، متمهّلٌ، مستسلمٌ لنفحات الروح، ولعمل النعمة، منفتحٌ على عبور الله، وعلى تحيّته.

بلسان جبرائيل، تحيّي البشريّة المرأة المتدثّرة بالشمس، تلك التي الله معها وفيها، المباركة بين كلّ النساء، وثمرتها، يسوع، مباركةٌ إلى الأبد.

الألوهة والبشريّة، يسوع ومريم، قصّةٌ رائعةٌ، القصّة الوحيدة التي لها شأنٌ، وما جميع القصص الأُخرى سوى نتائج لها، وتوابع.

بمجرّد تمتمة الشفتين العذراوين: «فليكن لي بحسب قولك» تجسّد ابن الله، وتلت زيارة العذراء لإليصابات، وما انطوت عليه من رسالة محبّةٍ. وتلقّى يوحنّا الروح القدس. ثمّ تفجّر نشيد التعظيمة مثل سهمٍ نبويّةٍ تنير المستقبل.

إنّ تلاوة المسبحة تولّد شعورًا بذراعي أُمٍّ حانيتين تضمّاننا. وعندما تكون تلاوة المسبحة تعبيرًا عن حبٍّ للعذراء الأمّ، وشكرًا للربّ، وتأملاً في أسرار يسوع، لا يعود تكرارها نافلاً، بل هو يُكسِب مزيدًا من الحبّ، والتقرّب من الله وأمّه، ومن التقوى والقداسة.

ولطالما ألهمت المسبحة الورديّة أتقياء المسيحيّين.

فقد قال القدّيس فرنسيس الأسّيزي: «عندما أتلو» السلام عليك، يا مريم، «تبتسم السماوات، ويبتهج الملائكة، والكون يضجّ فرحًا، والجحيم ترتعش رعدةً، والأبالسة يلوذون بالفرار».

وقالت القدّيسة تيريزا الأڤيلاّويّة: «المسبحة الورديّة تعبير تقوًى إلهيّةٍ، ونبع نِعَمٍ، وسلسلةٌ تربط الأرض بالسماء، وقوس قزح سلامٍ في سماء الكنيسة».

والشاعر شارل پيغي اعترف: «في آليّة الخلاص، «السلام عليكِ» هو الملجأ الأخير، ومعه لا هلاك».

الأب لاكوردير لاحظ: «إنّ العقلانيّ يبتسم سخريّةً، وهو يشهد طوابير الناس تكرّر القول عينه. أمّا المستضيء بنورٍ أسمى، فيدرك أنّ للحبّ قولاً واحدًا، وإن هو تلفّظ به باستمرارٍ، فهو لا يكرّره أبدًا».

أمّا الأب سيرتيلانج، فقال عن الورديّة: «إنّها تأمّلٌ في أسرار يسوع مقترنٌ باستشفاع تلك التي تهبنا يسوع، إذا ما استسلمنا إلى قيادتها».

القدّيسة تيريز الطفل يسوع قالت: «بواسطة المسبحة الورديّة يمكن الظفر بكلّ شيءٍ... إنّها سلسلةٌ طويلةٌ تربط السماء بالأرض. أحد طرفيها بين يدينا، والطرف

الآخر بين يدي العذراء القدّيسة. وما دامت المسبحة الورديّة تُتلى، لن يستطيع الله التخلّي عن العالم، فلهذه الصلاة وقعٌ بليغٌ على قلبه».

البابا بولس السادس باح: «منذ رُقّينا إلى كرسيّ بطرس، ما فتئنا نجهد في سبيل تكثيف تكريم مريم، ليس فقط توافقًا مع شعور الكنيسة، ومع ميلنا الشخصيّ، بل، أيضًا، لأنّ هذا التكريم، كما هو معروفٌ، يتبوّأ مكانةً نبيلةً في جملة الطقوس المقدّسة، وفيه تلتقي ذروة الحكمة، بقمّة الورع، ومن ثمّ هو يمثّل مهمّةً أساسيّةً لشعب الله».

وقال أيضًا: «يجدر بنا جميعًا أن نأخذ المسبحة بيدنا، وأن نتلوها في مثل بساطة المتواضعين والصغار، والمؤمنين، والمفجوعين، والممتلئين ثقةً، وفي مثل حرارة تقواهم».

أمّا البابا يوحنّا بولس الثاني الذي عُهِد عنه شغفه بالأمّ السماويّة، فقد كان مواظبًا بانتظامٍ على تلاوة المسبحة الورديّة، حتّى في حومة مسؤوليّاته الباهظة. وقد باح: «المسبحة هي صلاتي المفضّلة. إنّها صلاةٌ رائعةٌ، رائعةٌ في بساطتها وعمقها. بها نكرّر، مرّاتٍ عديدةً، أقوال الملاك وإليصابات للعذراء مريم، أقوالاً تشترك بها الكنيسة جمعاء...

«من خلال «السلام عليكِ يا مريم»، تتوالى حقب حياة يسوع الرئيسة، وتتجمّع في أسرارٍ فرحةٍ، وأليمةٍ، ومجيدةٍ، ولكأنّها توثّق اتّصالنا الحيّ بيسوع، من خلال قلب أُمّه. وفي الآن عينه، يسعنا أن نجمع، في هذه العشرات من الحبّات، كلّ أحداث حياتنا الفرديّة، والأسرويّة، وحياة بلادنا، والكنيسة، والبشريّة ... وهكذا تندرج صلاة المسبحة البسيطة على إيقاع الحياة البشريّة».

كلّ هذه الأقوال تدلّ على ما لهذه الصلاة التي ندعو بها الأمّ السماويّة، إلى جانب دعاء «أبانا» الذي نوجّهه إلى الأب السماويّ، من شأنٍ عظيمٍ، وجدوى حميمةٍ. ولا بدع في ذلك، فبتحيّة الملاك لمريم استُهلّ خلاص العالم، وبهذه التحيّة ينال كلّ إنسانٍ خلاصه.

من خلال جبرائيل بلّغ الله مريم اختياره لها، فاستمال قلبها، وهي أَعلنت ذاتها أمَةً له. وبهذا السلام يسعنا استمالة قلبها.

وقد قال القدّيس غرينيون دي مونفور: «هذا السلام، إذا ما أحسنت تلاوته، أي بخشوعٍ وتواضعٍ، يغدو عدوّ إبليس الكفيل بطرده، والمطرقة التي تسحقه، وتقديسًا للنفس، وفرحًا للملائكة، ونغمًا للمختارين، ومجدًا للثالوث الأقدس. قول «افرحي، يا ممتلئةً نعمةً»، هو ندًى سماويٌّ يخصب النفس، وقبلة محبّةٍ طاهرةٍ على خدّ مريم، ووردةٌ قرمزيّةٌ تقدّم لها، وجوهرةٌ ثمينةٌ تُهداها...»

ولا ريب أنّ من يتلفّظون باسم مريم، بورعٍ، وخشوعٍ، وشغفٍ، يعهدون عذوبةً روحيّةً فائقةً، وشعورًا خلاصيًّا بالعزاء، والحبّ، والفرح، والثقة، والقوّة. فاسم مريم ينطوي على شيءٍ رائعٍ، عذبٍ، إلهيٍّ، يشيع، في قلوب محبّيها، عطرًا إلهيّ الفوح والأريج، ولو تُلفِّظ به آلاف المرّات، لكان وقعه جديدًا في كلّ مرَّةٍ.

وعندما تُتلى المسبحة بهذا الروح، فكلّ تلاوةٍ تجعلنا نغوص في صميم الأمور الأبديّة، وننأى عن كلّ عابرٍ، فانٍ، تافهٍ، وندرك ما هو جوهريٌّ لنا.

ولا ريب أنّنا كلّما تلونا صلاة «السلام عليك يا مريم» أو «افرحي يا ممتلئةً نعمة» تتلوها مريم معنا، وتشاركنا النوايا التي نصلّي من أجلها.

في هذا السياق يقول كيركيغارد: «في علاقة الصلاة الحقّة، ليس الله هو من يسمع ما يُطلب منه، بل إنّ من يصلّي، ويستمرّ في الصلاة إلى أن يسمع، هو نفسه، ما يريد الله منه. كذلك من يردّد رسالة الملاك إلى مريم ويستمرّ في الصلاة، إلى أن يصبح، في تواصلٍ مع مريم، يسمع دعوة الله إلى الفرح والابتهاج. ويحتفظ بها، ويتأمّلها في قلبه، كي تتجلّى من خلال حياته كلّها».

مريم العذراء، أمّ الكنيسة

في ختام الجلسة الثانية للمجمع الفاتيكانيّ الثاني، بتاريخ ١٩٦٣/١٢/٤، أعلن البابا بولس السادس: «تحتلّ مريم، في الكنيسة، بعد المسيح، المكانة العليا، وفي الآن عينه، الأكثر قربًا منّا، بحيث يسعنا أن نكرّمها بلقب «أُمّ الكنيسة»، من أَجل مجدها، ومن أَجل عزائنا».

وكان سلفه، البابا يوحنّا الثالث والعشرون، عند افتتاح ذلك المجمع، قد وضعه تحت حماية العذراء التي دعاها «يا مريم، يا أُمّ الكنيسة المقدّسة، ويا ملكتها».

ثمّ إِنّ البابا يوحنّا بولس الثاني دشّن بابويّته، برسالةٍ وجّهها إِلى جميع أَساقفة العالم جاء فيها: «أَيّها الإِخوة الأَعزّاء، في مستهلّ ولايتي، أوكلكم جميعًا إِلى أُمّ المسيح، فهي، على نحوٍ خاصٍ أُمّنا، أُمّ الكهنة...».

فأُمّ يسوع هي، أَيضًا، أُمّ جميع المؤمنين، أَعضاء جسده السرّيّ. هذا ما اعترف به مارتن لوثير بقوله: «إِنّ أُمّ الله هي، أَيضًا، أُمّ كنيسة جميع الأَزمنة، بما أَنّها أُمّ جميع أَبنائها الذين سيولدون من الروح القدس».

إِنّ جميع الذين يحبّهم الله، ويخلّصهم يسوع، ويحييهم بحياته، ويجمعهم في حبّه، هم معًا كنيسته، وبالتالي، أَبناء مريم.

وبما أَنّ كلّ أُمٍّ تورّث أَبناءها بعضًا من ملامحها، فبين مريم والكنيسة وجوه شبهٍ وثيقةٌ. إِنّ مريم هي صورة الكنيسة المثلى، وتجسيدٌ لها، ونموذجها الأَكمل. إِنّها الخليقة الكلّيّة الطهر، والجمال، والقداسة، والجديرة بأَن تكون كنيسةً، كما ليس بوسع أَيّة خليقةٍ أَن تكون.

وفي هذا السياق باح الشاعر الفرنسيّ پول كلوديل: «إِنّ العذراء القدّوسة هي، لي، مثلما هي لي الكنيسة المقدّسة، ولم أَتعلّم، قطّ، التمييز بين هذه وتلك».

وهي، من جرّاء أُمومتها المزدوجة، أُمومتها ليسوع، وأُمومتها لإِخوته البشر، تشرع آفاق حياةٍ جديدةٍ في يسوع المسيح. إِنّها أُمّنا لكي تلد يسوع فينا، وتنمّيه، وبذلك هي علامة الأَزمنة الجديدة، والخليقة المتجدّدة.

مريم هي، إِذن، أُمّ الكنيسة، ولا يمكن تخيّل علاقتها بيسوع، بمعزلٍ عن علاقتها، أَيضًا، بالكنيسة.

وقد استفاض البابا يوحنّا بولس الثاني في بيان العلاقة الوثيقة بين مريم والكنيسة، وممّا قاله:

«إِنّ حضور مريم في سرّ الكنيسة، أَي في الآن عينه، في حياة شعب الله اليوميّة، وفي العالم كلّه، هو، خاصّةً، حضور أُمٍّ. ولكأنّ مريم تسبغ على مهمّة فداء ابنها، وعلى رسالة الكنيسة، طابعًا مميّزًا، هو طابع الأُمومة».

وقد جاء، في رسالته العامّة «فادي البشر»:

«إِنّ ميزة هذا الحب الأُموميّ الذي تدخله أُمّ الله إِلى سرّ الفداء، وإِلى حياة الكنيسة، تتجلّى من خلال قربها الوثيق من الإِنسان، ومن كلّ حياته. هنا يكمن سرّ الأُمّ. والكنيسة التي تتطلّع إِلى العذراء بجمٍّ من المحبّة والرجاء، تودّ امتلاك هذا السرّ والتوغّل في أَعماقه. هنا، أَيضًا، تتبيّن الكنيسة درب حياتها اليوميّة المتمثّل في كلّ إِنسانٍ.

«ولا بدّ من حضور مريم على جميع دروب حياة الكنيسة اليوميّة. وبفضل هذا الحضور الأُموميّ يتعيّن على الكنيسة أَن تحيا سرّ الفداء بكلّ عمقه، وبملء حيويّته. وهذه الكنيسة عينها، الراسخة الجذور في قطاعاتٍ عديدةٍ ومختلفةٍ من حياة البشريّة المعاصرة كلّها، تكتسب اليقين، لا بل الخبرة بأَنّها قريبةٌ من الإِنسان، كلّ إِنسانٍ، وبأَنّها كنيسته، كنيسة شعب الله».

وقال، أَيضًا: «في جميع حقبها، منذ علّيّة العنصرة، أَحاطت الكنيسةُ مريمَ بتكريمٍ خاصٍّ، وتوجّهت إِليها بثقةٍ خاصَّةٍ...

«صوبها ينبغي أَن تتطلّع الكنيسة، إِذ إِنّها أُمّ الكنيسة ونموذجها، لكي تدرك معنى رسالتها، إِدراكًا كاملاً».

وفي موعظة له في هوندوراس، بتاريخ الثامن من آذار ١٩٨٣، قال: «وحدها مريم استطاعت أن تجعل من رسل يسوع، قبل العنصرة وبعدها، قلبًا واحدًا، ونفسًا واحدةً. ولكأنّي بالمسيح قد ابتغى أن يوكل إلى أُمّه مهمّة جعل الكنيسة أُسرةً واحدةً يسود فيها الحبّ، وحيث يُخَصّ بالحبّ الأكثر ألمًا ومعاناةً. ومريم توفّر لنا نموذج حبٍّ بلا حدودٍ، ورابطًا يضمّنا جميعًا، نحن الذين أَضحوا، بالعماد «تلاميذ» ليسوع، و«إخوةً»...

«إنّ الكنيسة، بقيادة مريم، تبني المدينة الأرضيّة، فيما هي تكمل حجّها نحو المدينة الأبديّة. إنّها تنشر العدل، والسلام، والمصالحة الشاملة، والوفاء، والحبّ ليسوع الذي هو البدء، والنهاية، والطريق، والحقيقة، والحياة».

مريم، إذن، هي المثال الأعلى للكنيسة، والنموذج الذي لا يُضاهى للحياة الإنجيليّة، إنّها وجه يوم البشارة المشرق، وصباح العنصرة، وهي لا تنفكّ تفتننا، كي تقودنا إلى الربّ.

ولا ريب أنّ بين ولادة مريم لرأس الكنيسة، وولادتها لجسده محاكاةً مدهشةً. فذاك الذي وُلد جسديًّا من الروح القدس، ومن مريم العذراء، لم يشأ أن يولد، سرّيًّا، إلاّ بالتعاون مع تلك التي جعلها أُمًّا كونيّةً، ولكأنّ الروح القدس لا يبلّغ البشر ذاته إلاّ بها. ولم يشأ الله خلاص العالم بفعل روحه فقط، بل ابتغى مساهمةً بشريّةً، مساهمة خليقةٍ بشريّةٍ طلب منها أن تكون لابنه أُمًّا. وكذلك بمساهمتها، أَوجد الكنيسة، جسد ابن الله السرّيّ. وبعد العنصرة اندمجت حياة مريم بحياة الكنيسة، اندماجًا حيويًّا».

تكمن مريم في صلب الكنيسة، ومن غير مريم ليست الكنيسة كنيسة يسوع الحقّة. بتجسّد الكلمة أصبحت البشريّة التي استمدّها منها منبع كلّ نعمةٍ، وكانت مريم أولى الناعمات بتلك النعمة لأنّها الأقرب إلى النبع. وقد بدأت الكنيسة مع مريم، لأنّ النعمة بدأت تتفجّر معها من أَحشاء الله الإنسان، وتغمر الخليقة.

لقد قال البابا بولس السادس عن العذراء مريم: «إنّها المسيحيّة الأولى، المسيحيّة الكاملة بمعيار التطويبات»، «الإنجيل كلّه ينعكس في حياتها». وقال أيضًا: «معها انتهت النبوءات، وانتهى العهد القديم كلّه، ووُلدت كنيسة العهد الجديد، المنزّهة من كلّ لوثةٍ وغضنٍ، بملء الروح القدس».

إنّ العذراء هي رائدة الكنيسة في حجّها الإيماني. وفي هذا السياق يقول البابا يوحنّا بولس الثاني: «وسط جماعة المؤمنين، تحاكي العذراء مرآةً حيث تنعكس «روائع الله» بالطريقة الأوفر عمقًا وشفافيّةً».

والعذراء نموذجٌ للكنيسة في الاستجابة لدعوتها التي تهيب بالمؤمنين أن يجهدوا في النموّ قداسةً، وفي الانتصار على الخطيئة، ومن ثمّ فهم يرفعون أبصارهم إلى مريم، المشعل الذي يشعّ على كلّ جماعة المختارين.

وجديرٌ بالتنويه أنّ السيّدة العذراء تتبوّأ مكانةً رفيعةً في اللاهوت، وفي العقيدة المسيحيّة. فاللاهوت هو معرفة الله المخلّص. وما من كائنٍ بشريٍّ مثّل مخطّط الله الخلاصيّ مثل مريم. فقد كانت في منطلقه عندما حملت المخلّص، والتزمت به بلا تحفّظٍ.

إنّ الخلاص بدأ بيسوع، من خلال مريم التي طلب موافقتها الحرَّة لكي يصير، بها، إنسانًا بين البشر. وكانت حاضرةً له، مذ حبلت به، حتّى الآن، وهو في مجده.

لقد واكبت مريم، خطوةً خطوةً، نشأة الكنيسة ونموّها. فبقولها «نَعَم» للبشارة، أَصبحت أُمّ الله، وأُمّ كلّ مؤمنٍ بالله المتجسّد.

وبزيارتها لبيت إليصابات آتت يوحنّا والعالم الروح القدس والخلاص.

وبين ذراعيها وجد الرعاة والمجوس – اليهود والوثنيّون – ابن الله المتأنّس.

وبتقديمها يسوع الطفل إلى الهيكل أَشعّت النور على العالم أَجمع.

في قانا، حملت ابنها على إجراء معجزةٍ رسَّخت إيمان التلاميذ الأوّلين، أعمدة الكنيسة.

وعند أَقدام الصليب، تلقّت، من فم ابنها المحتضر، وصيّةً أَقامتها أُمًّا لكلّ مؤمنٍ.

وبين القيامة والعنصرة، ثابرت على الصلاة مع الكنيسة، وعلى التماس حلول الروح القدس.

وفي أَعقاب صعود يسوع إلى السماء، لبثت مع التلاميذ في العلّيّة، كي تعلّمهم الصلاة، ولكي تطلعهم على أسرار ولادة يسوع وطفولته، تلك الأَسرار التي كان

قلبها مستودعًا لها. وبوجودها، كان التلاميذ يتذوّقون عذوبة حضور يسوع في ما بينهم، في الإيمان والحبّ.

وقد علّمت التلاميذ التواصل مع يسوع، عن طريق التأمّل، وبثّتهم رسالة الفرح، وفرح الرسالة.

يقول سيڤيرُس الأنطاكيّ: «... كانت خليقةً بتبليغ النبأ السعيد، بما أنّها كانت علّة الفرح، وبما أنّها كانت قد تلقّت تلك الكلمات المجيدة: «ابتهجي، يا مغمورةً بالنعمة». وإن لم تكن هي أوّل من بلّغ التلاميذ البشرى السارّة، فهي علّمتهم ترسيخ رسالة الفرح التي تلقّتها، عندما بُشّرت بحمل المخلّص. فهي نفسها، طيلة طفولة يسوع وحياته الأرضيّة، وبخاصّةٍ ساعة الحدث الفصحيّ، لم تكفّ عن تأمّل البشرى السعيدة في قلبها».

كانت مريم قد نأت عن حياة ابنها العامّة. ولكن إثر رحيله، وبعد أن أقام منها أُمًّا لجميع إخوته، نراها هي روح الجماعة الرسوليّة، الملتئمة بانتظار حلول الروح القدس. لقد أمست روح الكنيسة وقلبها، وقد لعبت دور الصلاة الصامتة، والحبّ المتأمّل، تاركةً القيادة لمن كلّفهم بها يسوع. إنّها، وسط التلاميذ، مركز إشعاع الروح القدس. الروح يحلّ حيث تكون مريم. لقد حلّ عليها فجعلها أُمّ الله، وهو يحلّ علينا، كي يجعلنا أبناء العذراء، بجعلنا أبناء الله، من خلال ابن العذراء.

وقد قال القدّيس غرينيون دي مونفور: «إن لم يكن عمل الروح القدس أبلغ تأثيرًا في حياة الكنيسة، فلأنّ المسيحيّين يتجاهلون العذراء، أو لا يستنجدون بها، بالقدر الكافي».

إنّ الخصب الرسوليّ مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بتكريم العذراء، في حين أنّ المشاريع التي تُعرِض عنها، وتتجاهلها، تُمنى بعقمٍ مدهشٍ.

عَقب صعود يسوع إلى السماء، آثرت العذراء الامّحاء، والتنازل عن امتيازاتها، والانصهار في الكنيسة. فشاركت التلاميذ والمؤمنين صلواتهم، وباتت تتلقّى ابنها في الأسرار الإلهيّة. إنّ تواضعها لسرٌّ مذهلٌ، ولكنّه لا يُنقص بشيءٍ مكانتها الفريدة. بل إنّها، بكلّ ما كانت تحيا وتفعل، ما فتئت النموذج والمثال لكلّ ما تسعى الكنيسة أن تكونه، في كلّ أعضائها.

بعد الصعود، أَمست رسالة مريم رسالة صلاةٍ، لا الصلاة التقليديّة التي كانت قد نشأت عليها، ولا هي عبادةٌ خارجيّةٌ، بل حياةٌ قائمةٌ بكاملها على الدعاء والتأمّل. رسالتها هي إِيجاد موئل حياةٍ خفيّةٍ متواضعٍ وفقيرٍ، في العالم، وطنٍ صغيرٍ ومميّزٍ، واحةٍ يتفجّر منها نبع ماءٍ حيٍّ، حيث يسع الروح أَن يقيم، ويهب يسوع.

وإِن كان يسوع، بعلاقته مع الآب، هو نموذجٌ لكلّ مسيحيٍّ، ومنبعٌ لكلّ كمالٍ، فالعذراء هي المثال الذي لا غنى عنه لطريقة تلقّي يسوع، والتواصل معه.

لقد أَعطى يسوع أُمّه، مثلما أَعطى الكنيسة، مشاركته في تأليه البشر، والاندماج بهم، وقيادتهم إِلى الله. لقد أَهّل أُمّه للإِسهام في منح البشر الحياة الإِلهيّة، وما ذلك سوى استمرارٍ في التجسّد.

وبالتالي كلّ إِنكارٍ للسرّ المريميّ هو إِنكارٌ لسرّ الكنيسة، التي تجد، في مريم، أَصدق وأَعظم تعبيرٍ عن ذاتها.

بانتظار العنصرة، كانت العذراء ترمق العالمِ الذي يتعيّن تبشيره، بعيني يسوع، وتحبّه مثل حبّ يسوع له. وكانت تنتظر حلولاً ثانيًا للروح يلد الكنيسة، على غرار حلوله عليها، الذي جعل يسوع يولد منها. حلوله سيلد جسد المسيح السرّيّ، جسده الاجتماعيّ، المرئيّ والخفيّ معًا، الإِنسانيّ والإِلهيّ. إِنّه الروح نفسه، في البشارة وفي العنصرة. وفي الحالتين نجد مريم أُمّ يسوع، وأُمّ البشر، وأُمّ هذه الكنيسة، التي كانت تحتويها في ذاتها، والتي ستنبعث من نفحة الروح، ومن لهيبه.

المسيحيّون مكلّفون، متضامنين، بالمهمّة التي أُسندت إِلى الرسل، أَي إِعلان البشرى، أَقلّه في حيّز موطن كلّ مؤمنٍ، وأُسرته، ومكان عمله، وبيئته. ولكنّ هذه المهمّة تبدو، أَحيانًا، متعذّرةً، وسط العقبات الخارجيّة، ووهننا الذاتيّ. وحينئذٍ، يتصاعد إِلى شفاهنا تساؤلٌ قلقٌ: «وكيف سيتمّ ذلك؟». هذا السؤال طرحته العذراء، على الملاك المبشّر في الناصرة. ولكنّها في العلّيّة، كانت تعلم أَنّ الله يفي بوعوده، ولا شيء يستحيل عليه، وأَنّ الروح القدس كفيلٌ بقهر المستحيل، وهو، في شتّى الظروف، كفيلٌ بإِلهامنا، وقيادتنا، إِذا ما استسلمنا لإِيحاءاته، ولما يوقظه فينا من تطلّعاتٍ إِلهيّةٍ.

وما برحت الرسالة معاصرةً وملحّةً. فالبابا بولس السادس تكلّم عن «كنيسةٍ في عالمٍ لا يؤمن».

العذراء قالت: «افعلوا كلّ ما يقول لكم يسوع». ويسوع قال: «اسهروا وصلّوا». والعذراء تدخلنا في سرّ الصلاة، في عنصرةٍ جديدةٍ نحن في حاجةٍ إليها. مريم كانت تصلّي مع الرسل، في العلّيّة، وكانت حياتها كلّها صلاةً، وتواصلاً مع اللّه الحيّ. وصلاتها في العلّيّة كانت شفاعةً وتوسّطًا. وساطتها تعتمد على ثقةٍ مطلقةٍ، فهي كما في قانا، تكتفي بالإشارة إلى وجع المؤمنين: «إنّهم في حاجةٍ، في أزمةٍ، في محنةٍ...» والحلّ الذي يؤتيه الربّ يتخطّى توقّعاتنا. هكذا فهمت شقيقتا لعازر الصلاة، فاكتفتا بإنفاذ رسالةٍ تقول للربّ: «إنّ الذي تحبّه مريض».

وجديرٌ بنا أن نلتمس من العذراء عنصرةً جديدةً، كي ننطلق بثباتٍ على دروب رسالتنا، فهي على حدّ قول البابا بيّوس الثاني عشر: «نالت، بصلواتها البالغة القدرة، أن يتحوّل الروح القدس، الذي كان قد وُهب في الصليب، إلى مواهب عجيبةٍ للكنيسة الوليدة، يوم العنصرة».

إنّ إرادة المخلّص بإشراك البشر أجمعين، بشتّى الوسائل، وعلى مختلف المستويات، بعمله الفدائيّ، قد حقّقت لأقرب البشر إليه - أُمّه - المشاركة الأشدّ اقتضاءً، والأوجع إيلامًا.

ثمّ كانت مريم أداة الانتقال من موت يسوع إلى القيامة. فقد كان إيمانها هو النور الوحيد في غياهب الجلجلة، وفي ظلمات اللحد. وكانت أداة الانتقال من زمن الهيكل إلى زمن الكنيسة التي رأت النور يوم العنصرة. كانت قد ولدت ابنها في الفرح، وولدت إخوته الخطأة في الألم، وبذلك أصبحت أُمّ الكنيسة. كان اللّه قد أوكل إليها ولادة يسوع، ويسوع أولاها دورًا أساسيًّا في ولادة الكنيسة التي هي امتدادٌ له.

في الناصرة كان قد تحقّق جوهر العهد الجديد: تجسّد الإيمان، ووُلدت كنيسةٌ كفيلةٌ بالحفاظ على إرث الكلمة المتجسّد، وبضمان حضوره، ومعاصرته لكلّ الأزمان.

وإن كانت مريم قد أعدّت يسوع لمهمّته الخلاصيّة، فهو، أيضًا، قد أعدّها لفهم عظمة مهمّته، وللوقوف عند أقدام صليبه، ولتقبّل الروح القدس، ولتنصيبها أُمًّا للكنيسة.

لقد قاد أُمّه، في رحلةٍ موجعةٍ، وعبر تحوّلاتٍ أَليمةٍ، إِلى العنصرة، حيث ولده الروح ثانيةً – مع مريم – إِذ وُلدت الكنيسة من العذراء، وبفعل الروح القدس. وها هي ذي، ثانيةً، أُمٌّ في الإِيمان، وفي الروح، أُمٌّ مسكونيّةٌ، أُمّ البشريّة، وأُمّ التاريخ.

منذ البدء، أَشعّت قسمات أُمّ الله على وجه الكنيسة، وما زالت هي القادرة على إِنارتنا وتوجيهنا. فلعلّ الروح الذي ظلّلها، يحلّ علينا، ويساند ضعفنا.

ولا جَرَم أَنّ حضور مريم كثيفٌ وجوهريٌّ في حياة الكنيسة. فهي تلميذة يسوع الأولى. وعلى كلّ تلميذٍ ليسوع أَن يقتفي أَثرها كي يصل إِليه. وهي، في كلّ لحظةٍ تعيد إِلينا دعوة الفرح التي وجّهها إِليها الملاك، ونوجّهها نحن إِليها كلّما ردّدنا عبارات تحيّة الملاك وبشراه.

وإِذ تجد الكنيسة ذاتها عاجزةً عن الارتقاء إِلى مستوى مسؤوليّاتها، فما عليها إِلاّ أَن ترفع عينيها، أَوّلاً، إِلى الربّ ملتمسةً عونه، ثمّ نحو مثالها الأَعلى للتمثّل بها، في طريقة جوابها للربّ. فهي، وحدَها، استطاعت أَن تدلي بنعَمٍ غير مشروطٍ، وهي وحدها كفيلةٌ بأَن تلقّن الجميع الأُسلوب الصحيح في قول نَعَم، وفي الالتزام بعمليّة الفداء.

لقد أَحبّ الله مريم في فقرها، وعلى غرارها، على الكنيسة أَن تكون كنيسة الفقراء، مثلما كان يسوع صديق الفقراء، وعليها أَن تستلهم، دائمًا، حياة الناصرة الخفيّة، وأَن تستمدّ منها روحانيّتها. وحين تكون الكنيسة، في فقر مسؤوليها، وأَعضائها، وخدّامها، حقًّا، وبكلّيّتها، توقّعًا، وانفتاحًا، ستثبت وفاءها لمؤسّسها، ولرأسها.

على الكنيسة أَن تتّخذ من العذراء سبيلاً إِلى معرفة يسوع، ونموذجًا في مبادرتها إِلى غوث المحتاج، وفي قراءتها لعلامات الأَزمنة، ولأَحداث حياتها الخاصّة، وفي شكرها للربّ عن كلّ ما يحدث لها.

وعلى الكنيسة أَن تتمثّل بمريم، تلك التي تصغي، وتصلّي، وتقدّم، وتلد على الإِيمان والحياة، وتهب العالمَ يسوع، وتهبه، من خلاله، الفرح. فالمخلّص الذي ولدته مريم، على الكنيسة أَلاّ تنفكّ تلده كلّ يومٍ، بل كلّ لحظةٍ.

يقول البابا بولس السادس: «لدى مريم الممتلئة نعمةً، نجد كلّ الثروات التي تمثّلها

الكنيسة، والتي تمتلكها وتوزّعها» و «إِنّ مريم تشرك الكنيسة بامتيازاتها، إِنّها تمتلك وتوجز في ذاتها، بسموٍّ وكمالٍ، كلّ الكمالات التي يغمر بها المسيح الكنيسة».

والبابا بيّوس الثاني عشر صرّح: «إِنّ مريم هي التي، بصلواتها البالغة التأثير، نالت، في يوم العنصرة، حلول روح الفادي الإِلهيّ الذي كان قد أُعطي على الصليب، على شكل مواهب عجائبيّةٍ أُغدقت على الكنيسة الوليدة... وقد أَحاطت مريم جسد المسيح السرّيّ، المولود من قلب المخلّص المطعون، بنفس العناية الأُموميّة الساهرة، وبنفس الحبّ المضطرم اللّذين، بهما، أَرضعت الطفل يسوع، وأَدفأته».

وببلاغته المعهودة، قال القدّيس أوغسطينُس: «مريم هي التي ولدت رأسكم، والكنيسة هي التي تلدكم، فهي، أَيضًا، أُمٌّ وعذراء، في آنٍ واحدٍ. أُمٌّ بأَحشاء المحبّة، وعذراء بنصاعة الإِيمان. إِنّها تلد شعوبًا يصبحون، في ما بعد، أَعضاءً في الوحيد. وهي، بذلك، تحاكي مريم العذراء الفريدة، التي، مع ولادتها جماعاتٍ غفيرةً، تبقى أُمّ الوحيد».

ويقول أَيضًا: «ما كان بوسع الكنيسة أَن تكون عذراء، ما لم تجد العريس الذي أَوكلت إِليه ذاتها: ابن العذراء. لقد جعل يسوع كنيسته مثيلةً لأُمّه. أَعطاناها أُمًّا، واحتفظ بها لنفسه عذراء... وعلى غرار مريم تمتلك الكنيسة، في آنٍ واحدٍ، بتوليّةً دائمةً، وخصبًا لا يفسد. وما نالته العذراء في جسدها، احتفظت به الكنيسة، في روحها: مريم ولدت الوحيد. والكنيسة تلد الجماعة التي، بفضل الوحيد، ستتجمّع في الوحدة».

مريم هي موجزٌ لكلّ ما يعمل على إِنماء الكنيسة في كيانها ومصيرها. وقد قال إِيبيفانُس السلامينيّ: «كوّن الربّ جسده من مريم، ولكن من جنبه المطعون بحربةٍ، انبثقت الكنيسة، وما انفكّت أَسرار الدم والماء، تسيل من أَجل فدائنا».

ولطالما أَجمع الآباء على أَنّ المرأة التي وصفها القدّيس يوحنّا في رؤياه متّشحةً بالشمس، ومكلّلةً بالنجوم، وواطئةً القمر بقدمها، هي مريم العذراء، وهي الكنيسة. وقد قال أَحد آباء القرن التاسع: «يسعنا القول، أَيضًا، إِنّ امرأة الرؤيا هي مريم، إِذ إِنّها، حقًّا، أُمّ الكنيسة، بما أَنّها ولدت رأس الكنيسة. وهي، أَيضًا، ابنة الكنيسة، لأَنّها، بين أَعضائها، الأَجلّ قداسةً».

ومثلما حملت مريم كلمة الله، بنَعَم إيمانها، على الكنيسة، في كلّ وقتٍ وكلّ مكانٍ، أن تحمل «الكلمة»، وتلده في قلبها، وفي قلوب أعضاء جسده السرّيّ.

فلا بدْعَ، إذن، إن قال القدّيس كبريانُس: «من لم تكن له الكنيسة أُمًّا، لن يكون له الله أبًا».

وقد أَرشدنا القدّيس أوغسطينُس إلى طريقة ولادة يسوع في قلوب إخوته بقوله: «احملوا المسيح بالإيمان، ولدوه بالأعمال الصالحة، بحيث يحقّق قلبكم لشريعة يسوع المسيح، ما حقّقته مريم لجسده».

في مرحلة التجسّد، كانت العذراء موجز الكنيسة، ومسكن الله، ثمّ أَصبحت، بصفتها عضوًا في جسد ابن الله السرّيّ، مسكن الله الذي تحمله روحيًّا في قلبها. وستظلّ هي صورة الكنيسة المميّزة، ورمز الأُمومة البتوليّة التي يتعيّن على الكنيسة أَن تحياها باستمرارٍ بصفتها أُمّ المؤمنين.

ولكن، مع وجود وجوه شبهٍ كثيرةٍ بين أُمومة العذراء، وأُمومة الكنيسة، تفوق مريم الكنيسة، لأَنّها تقيم مع يسوع علاقاتٍ أَوثق وأَعمق. ولذلك غالبًا ما تلجأ الكنيسة إلى شفاعتها. ثمّ إنّ العذراء هي منبع حياة المسيحيّين، وهي أُمّهم على نحوٍ أَعمق من أُمومة الكنيسة لهم.

منذ البدء قامت بين العذراء والكنيسة علاقاتٌ مميّزةٌ، وقد خلّفت أُمّ الله، في نفس الكنيسة، دمغةً لا تُمحى. ومنذ اللحظة الأولى شُدَّت الكنيسة إلى العذراء، بجاذب البنوّة لها، وأَحاطتها بأَصدق تكريمٍ معبّرٍ عن أولى خلجات قلب الكنيسة الوليدة. وقد تجلّى هذا التكريم بالطقوس الرائعة التي وُضعت للإشادة بفضائلها وأَفضالها، وبالعقائد التي أُعلنت بُغية ترسيخ مكانتها في قلوب المؤمنين.

وفي القرن الماضي قُيّض للكنيسة باباوان فاض قلباهما حبًّا للعذراء، هما البابا بولس السادس، والبابا يوحنّا بولس الثاني.

كان البابا بولس السادس شغوفًا بالعذراء، وكانت دعوته الكهنوتيّة ثمرة هذا الشغف. وغداة انتخابه حبرًا أَعظم، في ٢١ حزيران ١٩٦٣، عبّر، في رسالته إلى الأُسرة البشريّة، عن ثقته المقترنة برجاءٍ وطيدٍ، في الحماية الأُموميّة التي توفّرها العذراء القدّيسة، أُمّ الله وأُمّ البشر.

وكان تعليمه عن العذراء، مع غزارته، واضحًا، مفعمًا غيرةً، بحيث صرّح، غير مرَّةٍ: «إن شئنا أن نكون مسيحيّين، فعلينا أن نكون مريميّين، أي علينا أن ندرك العلاقة الجوهريّة، الحيويّة، الإلهيّة، التي تربط السيّدة العذراء بيسوع، والتي تشرع لنا السبيل الذي يقود إليه».

وقد كان «لمريميّته» أثرٌ واضحٌ على مقرّرات المجمع الفاتيكانيّ الثاني الذي خصّ العذراء بمقاطع مسهبةٍ، رائعةٍ، نقتطف منها ما يلي:

«يتوجّب على المؤمنين المرتبطين بالمسيح الرأس، المتّحدين في الشركة الواحدة مع قدّيسيه جميعًا، أن يكرّموا، في الدرجة الأولى، ذكر مريم المجيدة، والعذراء على الدوام، وأُمّ إلهنا وربّنا يسوع المسيح».

«فالعذراء مريم التي، لمّا بشّرها الملاك، تلقّت كلمة الله في قلبها وفي أحشائها، معًا، ووهبت العالمَ الحياةَ، وقد اعترفت بها الكنيسة، وأكرمتها أُمًّا، حقًّا وحقيقةً، لله والفادي. وإذ افتُديت بوجهٍ سامٍ، وباعتبار استحقاقات ابنها، واتّحدت معه برباطٍ وثيقٍ لا ينفصم، نالت هذه المهمّة العظمى، والكرامة الفائقة، أن تكون أُمّ ابن الله، وبالتالي ابنة الآب الحبيبة، وهيكل الروح القدس. وإنّ هذا لإنعامٌ فذٌّ تسمو به، بلا قياس، فوق جميع المخلوقات، في السماء، وعلى الأرض. بيد أنّها، لمّا كانت من ذرّيّة آدم، فهي مرتبطةٌ بمجموع البشريّة المفتقرة إلى الخلاص، بل هي، حقًّا «أُمّ أعضاء المسيح، لاشتراكها، بمحبّتها، في ميلاد المؤمنين، في الكنيسة، الذين هم أعضاء هذا الرأس». لذلك، أيضًا، نحيّيها عضوًا للكنيسة فائق السموّ، لا مثيل له على الإطلاق، وقدوةً ومثالاً عجيبين للكنيسة في الإيمان والمحبّة، وموضعًا، في الكنيسة الكاثوليكيَّة التي يرشدها الروح القدس، لعاطفةٍ بنويّةٍ من التقوى، كما يليق بأُمٍّ محبّةٍ للغاية». (الكنيسة – الفصل الثامن – بند**٥٢** وبند**٥٣**)

«وإنّما شاء أبو المراحم أن يتقدّم التجسّدَ رضى هذه الأُمّ المختارة، بحيث إنّه، كما أنّ امرأةً أسهمت في عمل الموت، تساهم امرأةٌ، أيضًا، في ردّ الحياة. ويصدق ذلك، على أكمل وجهٍ، في أُمّ يسوع التي أعطت العالم الحياة التي ستجدّد كلّ شيءٍ، ونفحها الله من المواهب بما يتناسب مع هذه المهمّة العظيمة. فلا عجب، إذن، في ما ألفه الآباء القدّيسون من نعْت أُمّ الله بالكلّيّة القداسة، والمعصومة من كلّ وصمة خطيئةٍ، لأنّ الروح القدس عجنها وكوّنها خليقةً جديدةً. وإذ أُغنيت منذ

لحظة الحبل بها الأولى، بقداسةٍ باهرةٍ، لا مثيل لها على الإطلاق، حيّاها، هي عذراء الناصرة، ملاك البشارة، الناطق باسم الله، بأنّها «الممتلئة نعمةً». وهكذا، مريم، ابنة آدم، إذ أجابت على قول الله بالرضى، صارت أُمّ يسوع، وإذ تقبّلت، بكلّ قلبها، وبدون أيّ عائقٍ من خطيئةٍ، إرادة الخلاص الإلهيّة، سلّمت نفسها بكلّيّتها، كأَمَةٍ للربّ، لشخص ابنها ولعمله، لتكون، بالانقياد له، ومعه، وبنعمة الله القدير، أداةً لسرّ الفداء. فبحقٍّ، إذن، يعدّ الآباء القدّيسون مريمَ، مسهمةً في خلاص الناس، لا إسهام أَداةٍ سلبيّةٍ فقط بيد الله، بل بحرّيّة إيمانها وطاعتها، أَيضًا. فيقول القدّيس إيريناوس: «إنّها، بطاعتها، قد صارت، لها هي نفسها، وللجنس البشريّ كلّه، علّة خلاص». وكثيرون غيره من الآباء الأوّلين يقولون معه في مواعظهم: «إنّ العقدة التي نجمت عن معصية حوّاء، قد انحلّت بطاعة مريم. وما عقدته حوّاء العذراء بعدم إيمانها، حلّته العذراء مريم بإيمانها»، وفي تشبيههم مريم بحوّاء ينعتون مريم «بأُمّ الأَحياء»، وكثيرًا ما يصرّحون قائلين: «بحوّاء كان الموت، وبمريم كانت الحياة». (الكنيسة – الفصل الثامن – بند ٥٦)

وعن علاقة مريم بالكنيسة جاء:

«والعذراء الطوباويّة، بحكم موهبة الأمومة، ومهمّتها اللّتين تربطانها بابنها الفادي، وبحكم النعَم والمهامّ الفريدة التي لها، تتّحد، أَيضًا، بالكنيسة اتّحادًا وثيقًا، فأُمّ الله، ...، هي للكنيسة قدوةٌ في الإيمان والمحبّة، والاتّحاد الكامل بالمسيح. في سرّ الكنيسة، التي تُنعَت، بحقٍّ، هي أَيضًا، بالأُمّ والعذراء، تحتلّ العذراء الطوباويّة، مريم، المحلّ الأوّل، قدوةً مثلى وفريدةً للعذراء وللأُمّ... (الكنيسة – الفصل الثامن – البند ٦٣)

«والكنيسة، إذ تختلي بتقوًى في التأمّل في مريم، على ضوء الكلمة الذي صار إنسانًا، تلج باحترامٍ وإمعانٍ، في أغوار سرّ التجسّد العظيم...»

«لذلك تنظر الكنيسة، في ممارسة عملها الرسوليّ، إلى التي ولدت المسيح،.... لكي يولد ويكبر، أَيضًا، بواسطة الكنيسة، في قلوب المؤمنين. ولقد كانت العذراء، بحياتها، مثالاً لهذا الحبّ الأُموميّ الذي يجب أن يحيا به جميع الذين، باشتراكهم في رسالة الكنيسة الرسوليّة، يعملون في سبيل ميلاد الناس ثانية». (بند ٦٥)

وقد علّق البابا بولس السادس على هذه المقرّرات بقوله: «إنّ معرفة العقيدة الكاثوليكيّة الحقّة، المتعلّقة بمريم العذراء القدّوسة، ستكون، دائمًا، هي المفتاح الصحيح لفهم سرّ المسيح والكنيسة».

أمّا البابا يوحنّا بولس الثاني فقال عن هذه المقرّرات عينها: «إنّها المرّة الأولى التي يقدّم فيها مجمعٌ مسكونيٌّ خلاصةً، بمثل هذه الاستفاضة، للعقيدة الكاثوليكيّة عن المكانة التي تحتلّها مريم القدّوسة في سرّ المسيح والكنيسة».

العذراء والكهنوت

بفضل أُمومتها الإلهيّة تمارس العذراء وظائف كهنوتيّةً حقّةً، تمارس كهنوتًا وظيفيًّا بمشاركتها الفعليّة في تضحية الفداء، وكهنوتًا روحيًّا صوفيًّا، من جرّاء اتّحادها، نفسًا وقلبًا، بالكاهن الأعظم، ومشاركتها الفائقة بروح يسوع الكهنوتيّ.

لقد مارست مريم وظيفة الكهنوت في التجسّد، وفي تقدمة يسوع إلى الهيكل، وفي تضحية الجلجلة. يقول بوسُّويه: «لقد شاء الآب أن يهب العالمَ يسوعَ كي يكون له الخلاص والحياة، وقد وهبه بيدي العذراء القدّيسة التي اختيرت، منذ الأزل، لكي تكون مَنْ يعطيه للعالم»، فأعطته للّه تقدمة فداءٍ عن البشر. لقد كانت مريم المذبح الذي قدَّمت عليه هذه التضحية.

ويقول الأب أولييه (Olier): «بصفتها أُمّ يسوع، إنّها تمتلك الخصب الذي يؤهّلها لولادة النفوس. ولذلك، على الكهنة، بما أنّ مهمّتهم هي إيجاد يسوع في القلوب، أن يحيوا، باستمرارٍ، فيها، بحيث يشتركون بقدرة الآب الذي يخصبها، ويتمكّنوا من الاضطلاع، اضطلاعًا لائقًا بوظيفتهم... لقد شاء اللّه أن يجد الكهنةُ في مريم، القاعدةَ والنموذجَ، فقد ملأها بكلّ المواهب والنعم التي قد يتلقّاها الكهنة، وبالتالي، عليهم أن يكرّموا فيها تبليغ النعم الكلّيّ الذي زوّدها به يسوع، على نحوٍ فائقٍ، والذي، بفضله، تعدّها الكنيسة موجزًا للكهنوت، فهي تمتلك كلّ جماله وقوّته».

ومن جهته يقول الأب جيرو (Giraud): «يصحّ التأكيد أَنّ الأُمومة الإلهيّة هي، على نحوٍ فائقٍ، كهنوتٌ، وليست مجرّد كهنوتٍ سامٍ، بل إنّه كهنوتٌ تامٌّ وكاملٌ، بما أَنّ العذراء القدّوسة، التي رُقّيت إلى هذا الشرف المنقطع النظير هي ضحيّةٌ بقدر ما هي كاهنٌ».

لا جَرَم أنّ كرامة أُمومة اللّه تسمو على كرامة الكهنوت، فتلك التي تنجب الكلمة

المتجسّد، أَسمى ممّن يكرّس قربانةً. وإن هي لم تخوَّل غفران الخطايا، إلاّ أَنّها، أَكثر من أيّ كاهنٍ، ملجأ الخطأة، ومُصالِحتُهم مع اللّه. وهي أُمّ الكهنة، وخير من يؤازرهم على الاضطلاع بمهامّ كهنوتهم، اضطلاعًا أَمثل.

غير أَنّ، ثمّة، من يرى أَنّ كرامة الكهنوت أَسمى من كرامة الأُمومة الإِلهيّة. فالأَب تيرّيان (Terrien)، على سبيل المثال، يقول: «إِنّ قدرة تكريس جسد يسوع المسيحِ ودمه تساوي، بل تفوق امتياز ولادته جسديًّا. فمريم لم تلد ابن اللّه إِلاّ مرّةً واحدةً، في حين أَنّ الكاهن، بفضل السرّ المقدّس الذي مُنحه، يسعه أَن يوجده، سرّيًّا، كلّما شاء الاحتفال بالإِفخارستيّا. وإِن كانت العذراء قد حملته على ذراعيها، أَفليس للكاهن الحقّ عينه؟ وإِن هي وهبته العالم، أَفليست وظيفة الكاهن توزيعه غذاءً للمؤمنين، كلّما ابتغوا تناوله من يده؟»

ولكن لا بدّ من الإِيضاحِ أَنّ يسوع تلقّى من العذراء كيانه البشريّ، في حين أَنّ الكاهن يهبه، فقط، طريقةً أُخرى للوجود في الإِفخارستيّا. ومن ثمّ، بمعزلٍ عن الكاهن لا وجود للمسيح إِفخارستيًّا، ولكن بمعزلٍ عن مريم، لما كان له وجودٌ إِطلاقًا. بالبشارة أُعطيت العذراء سلطةً على جسد المسيح، سلطة تكوينه، مادّيًّا وواقعيًّا، من جوهر ذاتها، بفعل الروح القدس الذي حلّ عليها. وهي سلطةٌ تفوق سلطة كهنة العهد الجديد، بقدر ما يتفوّق كيان المسيح الجوهريّ على كيانه السرّيّ.

وإِن لم تنل العذراء سرّ الكهنوت، إِلاّ أَنّها تشترك في سرّ كهنوت يسوع على نحوٍ أَسمى، وعلى مستوًى فائق. فهي تتبوّأ مكانةً فريدةً، في جسد المسيح السرّيّ، بصفتها الأُمّ الروحيّة لجميع أَعضاء هذا الجسد.

فضلاً عن أَنّ مريم هي أُمّ يسوع الكاهن، ومشاركةٌ له في فداء الجنس البشريّ. هي وسيطة النعمة الشاملة، وهذه، أَيضًا، هي وظيفةٌ كهنوتيّةٌ. ولذلك يعتقد كثيرون أَنّ العذراء شاركت ابنها كهنوته يوم البشارة، وكانت أُمومتها الإِلهيّة كرامةً كهنوتيّةً. وقد وحّدت إِرادتها بإِرادة ابنها، وهو يضحّي ذاته من أَجل خلاص العالم، وهذا عملٌ كهنوتيٌّ.

إِنّ أُمومة مريم الإِلهيّة تضفي على كلّ امتيازاتها الفائقة فرادةً: الحبل بها بلا دنسٍ، وصفتها شريكةً في الفداء، وموزّعةً للنعم، وشريكةً في كهنوت ابنها، المتميّز عن سرّ الكهنوت الذي ينعم به بعض البشر.

وقد أَوضح البابا بولس السادس أَنّ الربّ اتّخذ من مريم أَداةً لتحقيق رسالة المسيح، فكان يسوع مدينًا لها بولادته البشريّة. ومن ثمّ فهي «تسبق وتتخطّى الكهنوت، وتسمو عليه درجةً، وبفاعليّةٍ مختلفةٍ، غير أَنّ ما يجمعها بالكاهن هو أَنّ كليهما يعطياننا يسوع».

القدّيس بولس دعا المسيحيّين إِلى «أَن يقرّبوا أَجسادهم ذبيحةً حيّةً مقدّسةً، مرضيّةً لله». والمجمع الفاتيكانيّ الثاني أَعلن «أَنّ المؤمنين يقدّمون لله الذبيحة الإِلهيّة، وذواتهم معها». وفي هذا المضمار، تنهض العذراء مثالاً لكلّ مؤمنٍ. فهي، وبكهنوتٍ ملكيٍّ، كانت قربانةً حيّةً مرضيّةً لدى الله.

وعلى غرار يوحنّا الذي أَخذ مريم إِلى خاصّته، على كلّ كاهنٍ أَن يقحمها في صلب حياته، فهي، وحدها، كفيلةٌ بإِيناس الوحدة التي وضعه فيها تكريس ذاته للربّ، وبتوفيرها له النور والمشورة، ومنبع السلام والفرح. فنظرتها، وحدَها، قادرةٌ على النفاذ إِلى صميم التوتّر بين الله والإِنسان الذي يعانيه. فهي أَكثر من أَيٍّ كان، طعنها، في الصميم، سيفُ التناقض بين مفاهيم البشر، ومقتضيات الله.

ولكم من كاهنٍ مدينٌ بقداسته لتقواه المريميّة! فخوري أَرس القدّيس كان يبارك كلّ ساعةٍ من النهار، بتلاوة «السلام عليك يا مريم». والطوباويّ شارل دي فوكو كان يتمنّى أَن يصبح «مريم أُخرى، حيّةً وفاعلةً». والبابا الطيّب يوحنّا الثالث والعشرون، رغم أَعبائه المرهقة، كان حريصًا على تلاوة المسبحة الورديّة بالكامل، كلّ يومٍ.

وقد وصف القدّيس يوحنّا الدمشقيّ السيّدة العذراء بأَنّها «مجد الكهنوت، ورجاء المسيحيّين».

مريم وكرامة المرأة

يسوع المخلّص وُلد من امرأةٍ. ومن ثمّ، فإنّ تعليم يسوع، أكثر من أيّ تعليمٍ آخر، يحترم سرّ المرأة، السرّ الذي يحرّرها، في الحقّ. وبقدر ما يتوغّل العالم في ممارسة المسيحيّة، تكتسب الأُنوثة مزيدًا من احترامٍ ورفعةٍ.

فلا ريب أنّ اختيار الله العذراء أُمًّا، قد رفع من شأن المرأة.

ومن خلال مريم توطّدت عظمة المرأة، وتجلّت الطريقة المثلى لتحقيق المرأة ذاتها بأداء رسالتها، وبكونها نفسًا وعطاءً كفيلين بروحنة الجسد، وبتجسيد الروح.

لقد زهدت مريم في الكثير ممّا يعدّه البشر نعمةً، ومتعًا محلّلةً، كي تحقّق أَسمى صِيَغ الحبّ، الحبّ الكامل، الفائق الطبيعة، الذي يتخطّى قِيَم العالم. لقد ضحّت بالحبّ الجسديّ لكي تحقّق ملء حبّ الله، الذي عاشته، كاملاً، في العمق. نأت عن الرغبة كي تحقّق العطاء الكامل. عزفت عن بعض القِيَم الأُنثويّة الرائجة، كي تحقّق أَسماها، في الله وبه.

ومثل سواد نساء العالم، حفلت حياتها اليوميّة بمهمّاتٍ وضيعةٍ، رتيبةٍ، متكرّرةٍ، ولكنّها سكبت في تلك المهمّات من حبّ الله، ما سما بها، وأَسبغ عليها قيمةً فائقةً، أَبديّةً.

وأَكثر من أَيّة امرأةٍ استفادت من كلّ شيءٍ في حياتها، حتّى من المحن والآلام، كي تنفّذ مشيئة الله، وتبلّغ الفرح الحقّ.

لقد كانت رائدة القافلة المصعّدة، بلا هوادةٍ، فأمست مثالاً أَسمى، ورائعةً لا تُضاهى. ولكنّ مثالها ليس قالبًا جامدًا يتعيّن إِعادة إِنتاجه، كما كان في إِطاره الاجتماعيّ، والثقافيّ، والاقتصاديّ الغابر، بل يتعيّن استلهام زخمه وروحه القادمَيْن من الله وحده.

«تعظيمتها» للربّ، بمناسبة زيارتها لإليصابات، تبرزها نموذجًا رفيعًا للمرأة المتميّزة بصفاء الرؤية، وبالاندفاع، والمبادرة، والحرّيّة، والإبداع النبويّ، وبالالتزام بالذود عن حياض المظلومين.

الإنجيليّون لم يسعوا إلى فرزها عن سائر النساء، بل أَبرزوا تناغمها مع سائر النسوة اللائي أَسهمنَ في رسالة يسوع: إليصابات، والنبيّة حنّة، والسامريّة، والمجدليّة، وشقيقتي لعازر.

إنّ أُنوثة مريم الحقّة تجعل منها المرأة الجديدة، أُمّ الخليقة المتجدّدة، على صورة الإنسان الجديد. هذا ما أَوضحه البابا يوحنّا بولس الثاني بقوله:

«إنّ العذراء هي، أَيضًا، المرأة الجديدة، وقد أَبرز اللّه فيها قسمات حبّ الأُمّ، وكرامة الإنسان المدعوّ إلى المشاركة مع الثالوث، وسنى المرأة التي تلامس قمّة الإنسانيّة بجمالها الفائق الطبيعة، وبحكمتها، وبذل ذاتها، وتعاونها الفاعل والمسؤول الذي، بفضله، أَصبحت خادمة سرّ الفداء. ولا يمكن التفكير في مريم المرأة، والأُمّ، من غير الشعور بالتأثير الخلاصيّ الذي تمارسه صورتها الأُنثويّة، والأُموميّة على قلب المرأة، وعلى النهوض بكرامتها، وعلى مساهمتها الفاعلة في المجتمع وفي الكنيسة. وإن كان بوسع كلّ امرأةٍ أَن ترى، في العذراء، مرآةً لكرامتها، ودعوتها، فبوسع كلّ مسيحيٍّ أَن يكشف في وجه كلّ طفلٍ، أَو فتاةٍ، أَو أُمٍّ، أَو شيخٍ، شيئًا من سرّ تلك التي هي المرأة الجديدة، وموضع طهرٍ واحترامٍ، وسببًا منيعًا كي تنعم المرأة المسيحيّة، وكلّ النساء، بالرقيّ الإنسانيّ، والازدهار الروحيّ، اللّذيْن يؤهّلانهنّ للانعكاس في مرآة النموذج الأَوحَد: عذراء الناصرة، وبيت لحم، وقانا، والجلجلة».

وكان القدّيس أَفرام السريانيّ قد قال: «لقد رمّم اللّه بمريم صورة المرأة التي شوّهتها حوّاء... إنّها حوّاء الجديدة».

ومن المحقّق أَنّ صورة المرأة قد تحوّلت مع مريم، فلم تعد صورة ذلك الكائن البشريّ الضعيف الذي يسبّب الهلاك. بل أَصبحت عنصرًا أَساسيًّا في الخلاص.

وكم لمثال مريم من تأثيرٍ بالغٍ في تغيير العقليّات المتخلّفة، وإنارة العقول التي يلفّها الجهل والتقاليد البالية!

فعندما يشيد مرسلٌ بعظمة مريم، ويهزّ أُسس التقاليد التي ترى، في المرأة، كائنًا،

غير مسؤولٍ، فهو يلقي الضوء على الدور الذي أسنده الخالق للمرأة في حياة الأُسرة والمجتمع.

وعندما يشرع الطفل يتلو «السلام عليك يا مريم»، يتعلّم، لاشعوريًّا، أَن يحبّ في أُمّه، أَداة نِعَم اللّه عليه.

وعندما يحمل الشابّ بفخر، إِيقونة العذراء في عنقه، يعترف، ضمنًا، أَنّ المرأة لا يمكن أَن تكون، فقط، أَداة عملٍ ومتعةٍ، ويتأهّب للالتزام بمقتضيات الزواج المسيحيّ.

وعندما تمرّ المرأة الزنجيّة بأَصابعها على حبّات المسبحة، تبارك الربّ للثقة التي أَولاها لبنات جنسها.

في نظر الإِيمان، إِذن، مريم هي رائعة الأُنوثة المتجلّية في النعمة، والتي ينعكس أَلَقها على جميع نساء العالم، حتّى حوّاء الأولى، وحتّى النساء اللواتي سيولدنَ في المستقبل الأَقصى بعدًا. وفي مرآة النعمة هذه نتعلّم تطهير نظرنا ورغباتنا، ونتعلّم اكتشاف الجمال الداخليّ، الجمال الحقّ الذي له وزنٌ لدى اللّه؛ ونتعلّم احترام النساء، بصفتهنّ مدعوّاتٍ ليكنّ بنات اللّه، ونتعلّم، أَيضًا، أَن نحبّهنّ، مثلما يوعز لنا الإِنجيل أَن نحبّ أُمّهاتنا، وأَخواتنا، في المسيح.

صلاة

يا مريم،

يا أُمّ الله، ويا أُمّنا،

الآن وأَنا أَطوي صفحات هذا الكتاب، أَتبيّن أَنّ كلّ ما قلتُه فيك، وما أَوردتُه عنكِ، لا يعكس سوى صورةٍ شاحبةٍ لشخصكِ الفريد. وقد بتُّ أَعمق قناعةً أَنّ التحدّث إِليكِ هو خيرٌ من التحدّث عنكِ.

وإِنّي، إِذ أَستعرض ماضيّ الهزيل، أَتبيّن، بشكرٍ وعرفانٍ بجميلك، كم كانت مريعةً المهالك التي أَنقذتني من مخالبها، وخطيرةً العثرات التي أَقلتني منها، وكم كانت بشعةً الخطايا التي كانت وما زالت ترهقني، والتي أَرجو الآن أَنّ شفاعتك ستظفر لي بغفرانها؛ وكم كانت ساطعةً ومنعشةً للرجاء، الأَنوار التي أَشعتِها في ظلمات نفسي!

وبالمقابل، ماذا قدّمت لكِ؟ لا ريب أَنّ الأُمّهات لا ينتظرنَ من أَبنائهنّ تقادم لكي يغمرنَهم بحبّهنّ. وحتّى لو أَنا شئتُ، فما عساني أَستطيع أَن أُقدّم لكِ؟ فلست أَملك، في شقائي وبؤسي، سوى أَن أُحبّكِ وأُشيد بمديحكِ.

فلا تزدري تقدمة فقيرٍ، مدلّهٍ بحبّكِ، غارقٍ في لجّة جمائلكِ!

وإِن كان قلبي غير جديرٍ بحبّكِ، أَو غير قادرٍ عليه، بسبب أَدناسه، وميوله الأَرضيّة، فبوسعكِ، أَنتِ، أَن تحوّليه، وتغيّريه، حسبما ترغبين.

لقد أَلِفتِ إِغداق النعَم، فوق ما يُطلب منكِ. فلا تحرميني من سخائكِ!

إِنّني مثقلٌ بالديون حيال العدل الإِلهيّ، وجسامَة ذنوبي ترعبني. ولكنّني موقنٌ أَنّ شفاعتكِ كفيلةٌ بغسل أَقذار نفسي. فكم من الخطايا قد مزّق ابنك، وعلّقها على الصليب الذي كنتِ واقفةً عند أَقدامه!

أَمام صليب ابنك رُزْتِ كلّ ثقل آلامنا الناتجة عن خطايانا، وعن اغترابنا عن الله. وبما أنّكِ لم تنأي، لحظةً، عن يسوع، أوكل نفسي إِلى عنايتكِ، كي أَظلّ بقربكِ، وبقرب يسوع.

وإِن أَنتِ لففتني بمعطف حمايتكِ لاطمأنّت نفسي، لأَنّك قادرةٌ على كلّ شيءٍ، وخاصّةً على وقايتي من الخطيئة.

أَنتِ، يا أُمّنا، محامية الخطأة البائسين، ومع كلّ ما حظيتِ به من كرامات فريدةٍ، تؤثرين صفتكِ هذه. وما من قضيّةٍ، مهما استعصت، يعجز دفاعك عن حلّها. فالله لا يردّ لكِ طلبًا، وأَنتِ تسعدين باستخدام قدرتكِ هذه لإِنقاذ الخطأة.

فرسّخي ثقتي بعونكِ، فهذه الثقة هي الحائل الوحيد دون انزلاقي إِلى القنوط. وإِن كانت خطاياي تعلن إِدانتي، إِلاّ أَنّ رحمتكِ تدافع عنّي بصوتٍ أَعلى من صوت دناءتي.

وساعديني على استئهال هذه الثقة، باتّخاذك، دائمًا، نموذجًا أَحتذيه، وأُسوةً أَتمثّل بها، في كلّ مراحل حياتي، وفي جميع ظروفها.

وقوّيني على حبّ ابنكِ يسوع، مثل حبّكِ له. وثّقي رباطي به، بحيث لن أَقوى عن حبّه وخدمته فكاكًا. أَنتِ تطلبين منّي أَن أُحبّه، وأَنا أَتوسّل إِليكِ أَن ترسّخي فيّ هذا الحبّ، الذي لا أَرغب في شيءٍ سواه.

واحصلي لي على فيضٍ من النور والحرارة كفيلٍ بانتزاعي من كلّ هوًى أَرضيٍّ، وبإِلهابي حبًّا ليسوع، الذي برهن عن عظيم حبّه لنا عندما أَقامكِ، وهو يلفظ أَنفاسه الأَخيرة على الصليب، أُمًّا لكلٍّ منّا.

وليتني لا أُفكّر، بعد الله، إِلاّ بكِ، ولا أُحبّ، بعد يسوع، سواكِ.

وليتني أُسهم في حمل جميع البشر على حبّكِ وتكريمكِ، مثلما أَحبّكِ الله وكرّمكِ.

وهبيني أَن أَقضي الأَبديّة كلّها في تسبيحكِ، ومحبّتك، ولا سيّما بعد أَن أَكتشف دوركِ في خلاصي. وساعديني على إِجلالكِ وتكريمكِ كما يجلّك ويكرّمك جميع سكّان السماء.

هبيني أَن أومن مثل إِيمانكِ الراسخ، رغم ما يحيق بي من ظلماتٍ، وما يجتاح نفسي من تساؤلاتٍ وريَبٍ.

وهبيني مثل رجائك الصامد الواثق، ومحبّتك السخيّة الشاملة، ولاسيّما حيال المقهورين والمحرومين، والمعرَّضين لسهام الازدراء والنبذ.

هبيني مثل تواضعك الرائع الذي استحققتِ به أَن تصبحي أُمّ اللّه، ومثل صمتكِ المصغي إِلى همس اللّه وحده، المنصرف إِلى التأمّل في حبّه وعظائمه، الزاهد في جلبة العالم وأَباطيله.

جبرائيل سمّاكِ «المغمورة بالنعمة»، فجودي عليّ، ولو بقسطٍ يسيرٍ من تلك النعمة. والملاك أَكّد لكِ، أَيضًا: «الربّ معكِ». لقد كان الربّ معك منذ لحظة تكوينكِ الأولى، ثمّ اتّحد بكِ أَوثق اتّحادٍ، إِذ اتّخذكِ أُمًّا. فاسأليه أَن يظلّ معنا، في كلّ حينٍ، وأَلاّ يتركنا لوهننا، ولهجمات عدوّ اللّه والبشر، المتربّص بنا.

وإِليصابات قالت لكِ: «مباركةٌ أَنتِ في النساء». لقد أَفاض اللّه عليكِ وابلاً من البركات، فاشركيني ولو ببعضٍ من بركاته.

«ومباركةٌ ثمرة بطنك»، مباركةٌ الشجرة المقدّسة التي آتت العالم الثمرة الكريمة، الإِلهيّة، الفريدة.

«فيا مريم القدّيسة، يا أُمّ اللّه، صلّي من أَجلنا، نحن الخطأة المساكين». أَنتِ لست قدّيسةً فحسب، بل أَنت القداسة مجسّدةً. ونحن جميعنا مدعوّون إِلى القداسة، ولن نبلغ هذه الغاية إِلاّ باقتدائنا بكِ، وباقتفاء خطاكِ. فذكّرينا، دائمًا، بفضائلكِ، وبأُسلوب حياتكِ الذي قرن أَقصى بساطةٍ بأَسمى كمالٍ، وساعدينا على الحذو حذوَكِ.

عظيمةٌ أَنتِ، لأَنّك أُمّ كلّ عظمةٍ وجلالةٍ. ولكنّ العظمة لكِ، ليست سبب افتخارٍ، بل هي دافعٌ إِلى الخدمة. واللّه الذي عظّمك كلّفك بتبنّينا، وبأَن تكوني لكلٍّ منّا أُمًّا، وأَن تسعي لخلاصنا الذي في سبيله تجسّد فيك.

أَنتِ أُمّ اللّه، ومن ثمّ كلّيّة القدرة، وأَنتِ، أَيضًا، أُمّنا، ونحن نشكو من الضعف، ونئنّ من الخطيئة، ولا معين لنا سواكِ، وأَنتِ كلّيّة الرحمة، فمن عساه يُغيثنا ويشفع بنا خيرًا منكِ؟

لذلك نتوسّل إِليكِ، بضراعةٍ وثقةٍ، أَن تصلّي من أَجلنا، الآن، وفي كلّ آنٍ، فعدوّ ابنكِ وعدوّ نفوسنا لا يني يحاول، بلا هوادةٍ، أَن يوقعنا في شِراكه، وأَن يُبعدنا عنكِ وعن ابنكِ، مستغلاً ضعفنا، ونوازع غرائزنا الدنيئة. وأَنتِ، وحدكِ، قادرةٌ، بصلاتكِ من أَجلنا، أَن تنقذينا من مكائده.

ونتوسّل إِليك، على نحوٍ خاصٍّ، أَن تكوني حاضرةً في ساعة موتنا، تلك الساعة الرهيبة التي يتحدّد، فيها، مصيرنا الأَبديّ. فلا تسمحي بأَن يحرمنا من الخلاص تراكُم خطايانا على الأَرض، مُبطلاً مفاعيل فداء ابنكِ لنا، الفداء الذي كنتِ، يا أُمّنا، شريكةً فيه. بل خذينا من يدنا، وتشفّعي بنا، ونالي لنا الغفران، فنتحرّر من خشية الهلاك، ويتسنّى لنا قضاء الأَبديّة، ونحن نتأمّل ابنكِ، ونعبده، ونسبّحه، ونشكره إِلى الأَبد، ونتأمّلكِ، ونغبطكِ، ونحبّكِ، ونشكركِ. فأَنتِ لنا باب السماء، ونبع الرجاء، وضمان خلاصنا.

ومثلما اندفعتِ لزيارة إِليصابات، زوري نفسي البائسة، فأَنتِ تعلمين كم هي تعجّ بالأَهواء الوبيلة، والعادات القبيحة، والخطايا المتراكمة، وكلّها كفيلةٌ بالزجّ بها في التهلكة الأَبديّة؛ وأَنتِ، وحدكِ، تملكين القدرة على إِنقاذها، وشفائها، وتزيينها بالنعمة.

حسبي أَن تُصلّي من أَجلي، وأَن توكليني إِلى رحمة ابنكِ الإِلهيّ، وتلتمسي لي منه النعم التي ترينها ضروريّةً لخلاصي. فصلواتكِ هي صلوات أُمٍّ لابنٍ يُحبّها حبًّا جمًّا، ويسعد بالاستجابة لها، وبتوزيع نعمه ومواهبه بيديها.

مع انتقالكِ إِلى السماء، والأَمجاد التي أُغدقت عليكِ، لم تذهلي عن أَبناءٍ لكِ ما زالوا يتعثّرون في وادي الدموع. فلا تشيحي بأَبصاركِ عنهم، لحظةً واحدةً، ولا تتركيهم يتخبّطون بقدراتهم الخاصّة الواهية، في حين تنقضّ عليهم عواصف عاتيةٌ في كلّ حينٍ، بغية إِهلاكهم، وتطاردهم التجارب المخيفة حتّى النَفَس الأَخير.

الآن وقد غدوتِ على مقربةٍ وثيقةٍ من نبع النعم، بتِّ أَكثر قدرةً على إِسباغ هذه النعم علينا، وأَكثر معرفةً باحتياجاتنا. فهبينا النعم التي تقرّبنا من قلب ابنكِ، ومن قلبكِ، ومثل الفضائل التي تميّزتِ بها، على أَرضنا، والكفيلة باكتسابها لنا رضى اللّه.

مع أنّكِ البراءة متجسّدةً، حملتِ، مع يسوع، صليبًا باهظًا. وأنا لست أسألكِ أن تعفيني من الصلبان، بل ألتمس منكِ قدرة التشبّه بكِ، كي أحمل صلباني بصبرٍ وحبٍّ، لا أن أجرّها جرًّا، فترهقني، بل أن أُقبّلها وأُقلّها بفرحٍ، فتصبح أداة خلاصي.

يا مريم أُمّي،

إنّي أعترف بعدم استئهالي لفظ اسمكِ. ولكن بما أنّي ابنكِ، وأنتِ تبتغين خلاصي، فساعديني على الاستغاثة دائمًا بهذا الاسم الكلّيّ القداسة والقدرة، مهما كان لساني مدنّسًا. فاسمكِ هو سندي في هذه الحياة، وعلّة خلاصي في ساعة موتي.

فليكن اسمكِ تنفّس نفسي، ولا تتلكّإي في غوثي كلّما استغثت بكِ. وليكن اسمكِ العذب هو آخر ما تتلفّظ به شفتاي، وأنا أُغادر هذه الدنيا، عساني أمضي كي أُشيد أبدًا، في السماء، باسمكِ الحبيب، يا مريم، أُمّنا الحنون.

ويا سيّدة الساعة الأخيرة، بادري إلى نجدتي في ساعتي الأخيرة، وأطبقي جفنيّ بيديكِ، لكي يكون حنانكِ ذكرى العزاء الأخيرة لي على الأرض، ولكي يكون محيّاكِ البهيّ هو الصورة الفاتنة التي تشيّعني إلى دنيا الآخرة.

وساعديني على ألاّ أكتفي بترديد اسمكِ، بل فلأتلفّظ به، بكلّ حبّ قلبي، وليدفعني هذا الحبّ إلى تكراره، بلا هوادةٍ، في كلّ لحظةٍ، مقرونًا باسم ابنكِ الحبيب.

فيا يسوع إلهي، ويا مريم أُمّي، فليكن اسماكما للأبد، في قلبي، وفي جميع القلوب، ولننسَ كلّ الأسماء الأخرى لكي نذكر فقط، ونستدعي، بلا انقطاعٍ، اسميكما الغاليين المقدّسين.

وعندما ستأزف اللحظة الحاسمة، أتوسّل إليكما، يا يسوع مخلّصي، ويا مريم أُمّي، هباني، قبل أن أخرس إلى الأبد، نعمة ترديد هذه العبارة للمرّة الأخيرة: أُحبّكما، يا يسوع ويا مريم، وأهبكما قلبي ونفسي.

وبما أنّني قد أفقد، حينئذٍ، القدرة على النطق، كي أستغيث باسميكما اللّذين يمثّلان كلّ رجائي، أرجوكما، منذ الآن، أن تخفّا إلى عوني، في لحظاتي الأخيرة، ومنذ الآن، استودعكما نفسي.

مراجع

- R.-M DE LA BROISE ET J.-V.BAINVEL : **MARIE , MÈRE DE GRÂCE.**
Éd. Gabriel Beauchesne , Paris ,1921

- P.J.-B. TERRIEN : **LA MÈRE DE DIEU ET LA MÈRE DES HOMMES (2 Tomes).**
Lethielleux, Paris, 1927

- P. REGINALD GARRIGOU - LAGRANGE : **LA MÈRE DU SAUVEUR ET NOTRE VIE INTERIEURE.**
Éd. du Cerf, Paris 1948

- DANIEL ROPS : **LES ÉVANGILES DE MARIE.**
Robert Laffont ,1948

- E. NEUBERT : **VIE DE MARIE.**
Éd. Casterman , Paris ,1948

- JEAN DANIELOU: **LE MYSTERE DE L'AVENT.**
Seuil , Paris , 1948

- RENÉ LAURENTIN : **COURT TRAITÉ DE LA THÉOLOGIE MARIALE.**
P. Lethielleux , Paris ,1953

- JEAN GUITTON : **LA VIERGE MARIE.**
Aubier , Paris, 1954

- HUGO RAHNER : **MARIE ET L'ÉGLISE.**
Cerf , Paris , 1955

- DR.F.M. WILLIAM : **MARIE, MÈRE DE JÉSUS.**
Éd. Salvator, Mulhouse, 1954

- LOUIS BOUYER : **LE TRÔNE DE LA SAGESSE**.
Cerf, Paris, 1957

- F.W.FABER : **LE PIED DE LA CROIX, OU LES DOULEURS DE MARIE.**
Ambroise Bray, Paris, 1962

- A.-D.SERTILLANGES : **LA VIERGE MARIE ET L'ÉGLISE.**
Les éditions ouvrieres, Paris,1964

- M.J. NICOLAS : **THÉOTOKOS : LE MYSTÈRE DE MARIE.**
Desclée, Tournai, 1965

- SAINT LOUIS -MARIE GRIGNON DE MONFORT : **- TRAITÉ DE LA VRAIE DÉVOTION À LA SAINTE VIERGE.**

- LE SECRET DE MARIE.
Éd. du Seuil, Paris, 1966

- A.-M. CARRÉ : **MARIE, MÈRE DU CHRIST, MÈRE DES HOMMES.**
Cerf, 1970

- ALBERT ROUET : **MARIE.**
Le Centurion, 1975

- A. FEUILLET : **JÉSUS ET SA MÈRE.**
Gabalda, 1978

- ST ALPHONSE-MARIE DE LIGUORI : **GLOIRES DE MARIE.**
Casterman, Tournai,1880

- MAX THURIAN : **MARIE, MÈRE DU SEIGNEUR, FIGURE DE L'ÉGLISE.**
Cerf, Paris,1980

- LUCIEN LEGRAND : **L'ANNONCE A MARIE.**
Cerf, Paris, 1981

- RENÉ LAURENTIN : **LES ÉVANGILES DE L'ENFANCE DU CHRIST.**
Desclée et DDB, Paris, 1982

- ALBERT ÉNARD : **RÉJOUIS-TOI, MARIE.**
Nouvelle Cité, Paris, 1983

- MARTIN LUTHER : **LE MAGNIFICAT.**
Nouvelle Cité, Montrouge, 1983

- HENRI CAFFAREL : **PRENDS CHEZ TOI MARIE, TON ÉPOUSE.**
Éd. du feu nouveau, Paris, 1983

- JEAN-PAUL II : **MARIE, MA MÈRE.**
Médiaspaul, Paris, 1984

- RENÉ COSTE : **LE MAGNIFICAT OU LA RÉVOLUTION DE DIEU.**
Nouvelle Cité, Paris, 1986

- Cardinal MARTINI : **LA FEMME DE LA RÉCONCILIATION.**
Saint Paul, Versailles, 1986

- RENÉ LAURENTIN : **UNE ANNÉE DE GRÂCE AVEC MARIE.**
Fayard, 1987

- BERNARD BRO : **MARIE, ÉSPOIR DE DIEU.**
Cerf, Paris, 1987

- JEAN MORINAY : **MARIE ET LA FAIBLESSE DE DIEU.**
Nouvelle Cité, 1988

- P. THOMAS PHILIPPE : **LA VIE CACHÉE DE MARIE.**
La ferme Diffusion, Trosly Breuil, 1988

- MARIA WINOWSKA : **LA VIERGE MARIE DANS L'HISTOIRE DU SALUT.**
Tequi, Paris, 1989

- BERNARD MOLLAT: **CHOISIE ENTRE TOUTES LES FEMMES, MARIE.**
Cerf, Radio Notre-Dame, Paris, 1989

- IGNACE LARRANAGA : **LE SILENCE DE MARIE.**
Éditions Paulines & Médiaspaul, 1991

- ÉPHRAÏM : **MARIE INTIME.**
Éd. des Béatitudes, 1991

- R.L.BRUCKBERGER : **MARIE, MÈRE DE JÉSUS-CHRIST.**
Albin Michel, Paris 1991

- JAQUES BUR : **POUR COMPRENDRE LA VIERGE MARIE.**
Cerf, Paris, 1992

- ROBERT LE GAL: **MARIE, JOYAU DE LA TRINITÉE.**
C.L.D., Chambray, 1993

- PAUL VI : **BIENHEUREUSE CELLE QUI A CRU.**
Pierre Téqui éditeur, Paris 1995

- RENÉ LAURENTIN : **MARIE CLÉ DU MYSTÈRE CHRÉTIEN.**
Fayard, Paris 1994

- CHRISTIAN MAKARIAN : **MARIE.**
Desclée de Brouwer,1995

- BERNARD GIRALDINO : **LE VRAI VISAGE DE MARIE ET DE L'ÉGLISE.**
Éd. Pierre Téqui. Paris, 1998

- Cardinal JOSEPH RATZINGER & HANS URS VON BALTHASAR : **MARIE PREMIÈRE ÉGLISE.**
Médiaspaul, 1998

- MAURICE ZUNDEL : **NOTRE-DAME DE LA SAGESSE.**
Foi Vivante, Cerf, Paris 1998

- MARIE -DOMINIQUE PHILIPPE : **MYSTÈRE DE MARIE.**
Fayard, Paris, 1999

- RENÉ LAURENTIN : **LES ÉVANGILES DE NOËL.**
Desclée, Paris, 1999

- MARIE-DOMINIQUE PHILIPPE : **TROIS MYSTÈRES DE MISÉRICORDE.**
Parole et Silence, 2000

- RENÉ LAURENTIN : **LA CONSÉCRATION AUJOURD'HUI À DIEU PAR MARIE.**
Éd. Froncois- Xavier de Guibert, Paris, 2001

- PIERRE DESCOUVEMONT : **MARIE AU CŒUR DE NOS VIES.**
Cerf, Paris, 2002

- MICHEL DUBOST: **MARIE.**
Mame, Paris, 2002

- CHIARA LUBICH : **MARIE TRANSPARENCE DE DIEU.**
Nouvelle Cité - Montrouge, 2003

- JEAN GALOT : **MARIE, MÈRE ET CORÉDEMPTRICE.**
Éd. Parole et Silence, Paris, 2005

- DANIEL-ANGE : **TOUCHE PAS À MA MÈRE - MARIE VIERGE TOUJOURS.**
Éd. du Jubilé, 2005

- JACQUES RAVANEL : **MARIE CŒUR À CŒUR.**
Presse de la Renaissance, 2006

- DANIEL-ANGE : **MON CHANT À MARIE.**
Éd. du Jubilé, 2007

- MARIE-JOSEPH LE GUILLOU : **MARIE.**
Éd. Parole et Silence, Paris, 2007

- SCOTT HAHN : **MARIE, REINE COURONNÉE D'ÉTOILES**.
Éd. Anne Sigier, Quebec ,2007

- A.-M. CARRE : **L'IMITATION DE LA VIERGE MARIE.**
Cerf, Paris, 2007

ظهر للمؤلّف

– **قدّيسة من بلادنا: الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب** (سلسلة دراسات كرمليّة)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه ١٩٩٠

– **السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٢

– **فرنسيس ... أَصلحْ كنيستي** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٤، (طبعة ثانية ٢٠٠٨)

– **صوتُ مَن لا صوت لهم: الأب بيير** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٧

– **حتّى يوجع العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه ١٩٩٨

– **أنا، الأخت إيمّانويل، أشهد**... (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٩

– **بولس، رسول يسوع، وقلبه، ولسانه** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٣

– **جان فانييه وسفينته** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه ٢٠٠٣

– **أبانا** (سلسلة صفحات روحيّة)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٥

– **يسوع في إنجيله**، منشورات المكتبة البوليسّة، جونيه، ٢٠٠٦

– **يسوع في حياته**، (جزآن)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، ٢٠٠٦

كتب مترجمة

- **على درب الحياة مع ألكسي كاريل**، دمشق، **١٩٨٤**، (طبعة ثانية ٢٠٠٠)
- **يد الله** (سلسلة الشهود)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٨٨**
- **ثلاث عشرة قصّة** (سلسلة الوداع)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٩٠**
- **أيدٍ ملطّخةٍ بالدم** (سلسلة الوداع)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٩٥**
- **اذكروا الله: تأمُّلات من وحي رسائل الصوفانيَّة**، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **١٩٩٥**
- **سيرة المسيح** (سلسلة النوابغ)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه **٢٠٠٣**
- **حدّثني عن الحبّ** (سلسلة الشباب مستقبل الغد)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، (طبعة ثالثة **٢٠٠٥**)
- **كتاب الحكمة، والفضائل المستعادة: خمسون فضيلة لبناء الإنسان**، (سلسلة صفحات روحيّة **٣٥**)، منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه، **٢٠٠٧**
- **العذراء في حياتنا** (سلسلة صفحات روحيّة **٣٦**) – منشورات المكتبة البولسيّة، جونيه **٢٠٠٧**

الفهرس

إِهداء	٥
تقدمة	٧
الجزء الأَوّل: **مسيرة مريم الأَرضيّة**	٩
مقدّمة	١١
اسم مريم	١٩
ماذا نعرف عن مريم؟	٢٢
طفولة مريم	٢٥
بشارتان	٣٠
بشارة مريم: دعوةٌ إِلى الفرح	٣٢
مخطوبة ليوسف	٣٤
«افرحي يا ممتلئةً نعمةً... الربّ معك»	٣٨
«لا تخافي يا مريم»	٤٤
مريم وحوّاء	٥٧
«تعظّم نفسي الربّ»	٦٠
«يا يوسف... لا تخف أن تأخذ إليك مريم زوجتك»	٧٦

قرارٌ إمبراطوريٌّ، أَم تدبيرٌ إِلهيٌّ؟	٨٣
إِلى بيت لحم	٨٧
الميلاد	٩٠
تقدمة يسوع إلى الهيكل	١٠٣
زيارة المجوس	١٠٩
اللجوء إِلى مصر	١١١
نشأة يسوع	١١٤
عودة إِلى الناصرة، واختفاء يسوع في الهيكل	١١٦
حياةٌ خفيّةٌ في الناصرة	١٢٧
انطلاقة يسوع	١٣٤
عرس قانا	١٣٦
ليس لنبيٍّ كرامةٌ في وطنه	١٤١
من هي أُمّي؟	١٤٦
مريم والصليب	١٤٨
دفن يسوع	١٥٧
العذراء وقيامة يسوع	١٥٩
أُمّ الكنيسة	١٦٤
انتقال العذراء	١٦٨
الجزء الثاني: **ملامح العذراء**	١٨١
مريم أُمّ الله	١٨٣
مريم أُمّ البشر وشفيعتهم	١٩٥

أُمّ الرحمة	٢٢٥
إِيمان مريم	٢٣٣
رجاء مريم	٢٥١
محبّة العذراء	٢٥٤
قداسة مريم	٢٦١
فضائل مريم وتواضعها	٢٧٥
بتوليّة مريم الدائمة	٢٨١
صمت العذراء وصلاتها	٣٠٥
جمال مريم	٣١٨
آلام مريم واستحقاقاتها	٣٢٨
فرح مريم	٣٥١
حكمة العذراء	٣٥٥
فقر مريم	٣٥٩
طاعة العذراء	٣٦٢
مريم الملكة	٣٦٦
الاقتداء بالعذراء	٣٧١
حضور مريم	٣٨٠
مريم وحياتنا الروحيّة	٣٨٦
تكريم العذراء	٣٩٦
الصلاة المريميّة	٤١٩
مريم العذراء، أُمّ الكنيسة	٤٢٨
العذراء والكهنوت	٤٤١

مريم وكرامة المرأة ٤٤٤
صلاة ٤٤٧
مراجع ٤٥٣
ظهر للمؤلّف ٤٥٧
كتب مترجمة ٤٥٨
الفهرس ٤٥٩

أنجزت المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان
طبع هذا الكتاب
في شهر أيّار سنة **٢٠٠٩**